



الشريف العبقرى

دون كيخوتى دى لامانشا

الشهير بين العرب باسم "دون كيشوت"

القسم الأول

تأليف

ميجيل دى ثربانتس سايبدرا

ترجمة: سليمان العطار



2083

يعرف دون كيخوت كل شىء عن ثقافة عصره والعصور الماضية، فيختلط فى عقله الخيال بالواقع، ويخرج من قريته بحثاً عن المغامرة ليعيش حياة الفرسان المشائين بكل ما فيها من خيال جامح قدمته كتب الفروسية.

إنه إنسان يريد أن يعيش الشعر فى الواقع فيعترضه الواقع، ويسقط عليه تحولات سحرية تزول بعد قليل لتكشف وجه الواقع، ولتصبح المغامرات الوهمية خطًّا وهميًّا بين الواقع والخيال، تستمد منها شخصية دون كيخوت أبعادها النفسية، وأدوات تعرفها على ذاتها وذوات الآخرين.

نقدم لكم إذن السيد الشريف العبقرى دون كيخوت الشهير بين العرب باسم دون كيشوت.

لوحة الغلاف: دون كيخوتى للفنان Jules David
تصميم الغلاف: نسرين كشك

الشريف العبقرى

دون كيخوتى دى لامانشا

الشهير بين العرب باسم "دون كيشوت"

(القسم الأول)

المركز القومى للترجمة

تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

مدير المركز: رشا إسماعيل

- العدد: 2083
- الشريف العبقرى: دون كيخوتى دى لا مانشا (ج١)
- ميجيل دى ثربانتس سابيدرا
- سليمان العطار
- اللغة: الإسبانية
- الطبعة الثانية 2014

هذه ترجمة كتاب:

DON QUIJOTE DE LA MANCHA
Por: MIGUEL DE CERVANTES SAAVEDRA

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

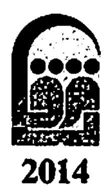
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

الشريف العبقرى
دون كيخوتى دى لامانشا
الشهير بين العرب باسم "دون كيشوت"
(القسم الأول)

تـــــــــــــــأليف : ميجيل دى ثربانتس سابيدرا

تــرجمــــــــــــة : ســليــمـــان العـــطـــار



2014

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

سابيدرا، ميجيل دى ثربانتس
الشريف العبقرى دون كيخوتى دى لامانشا الشهير بين العرب باسم "دون كيشوت" / تأليف: ميجيل دى ثربانتس سابيدرا، ترجمة: سليمان العطار،
ط ٢ - القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٤
٧٤٤ ص، ٢٤ سم
١ - القصص الأسبانية.
(أ) العطار، سليمان (مترجم)
(ب) العنوان ٨٦٣

رقم الإيداع: ٧٤٠٣ /٢٠١٣
الترقيم الدولى: I.S.B.N - 978 - 977 - 718 - 309 - 3
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

إهــداء المترجم

إلى روح عبد العزيز الأهوانى

معلمى وأبى الروحى، والمترجم الأول لهذا العمل، وإن لم ينــشر إلا نصف قسمه الأول رغم ترجمة العمل كاملاً. الجهل لدى الناشر دفعــه إلــى تمزيق بقية العمل ورفض نشره فى ظل تعديلات من الرقيب، الــذى كــان الناشر نفسه.

سيدى المعلم

بعد ترجمتى العمل كاملا، أعرف أنك تمزق قطعة من نفــسك حــين مزقت ما ترجمت. أليس هذا التمزيق فعلا من أفعال التأثر بدون كيخــوتى، حين مزق كل فروسيته، وعاد إلى اسمه القديم كيخانا؟ أستأذنك سيدى رغبة فى لملمة ما مزقت أن أصدر هذا العمل بترجمتك لمقدمة المؤلــف، وبنــشر ترجمتك للفصل الرابع عشر كاملاً، الذى يتسق مع اجتهادى فى الترجمــة، ويقدم شيئًا من شاعريتك فــى ترجمــة القــصيدة التــى تتــصدر الفــصل فى شعر منثور.

سيدى المعلم

ما أفعله تعبيرًا عن حبى وتقديرًا لكم رائدًا منشئًا لدراسة الأندلــسيات والإسبانيات بين العرب والإسبان، ومرشدًا روحيًا لى، ولا أذكرك إلا ذكرت

أبى الطبيعى عبد العظيم العطار، الذى كان مثلك كيخوتى، نقل طبعه إلىَّ وإلى أخ لى رحل عن هذه الدنيا بنفس أسلوب رحيل دون كيخوتى، هو العميد سليم العطار، الذى وشوش فى أذنى فى يوم سفرى إلى إسبانيا لأول مرة يوم ٥ أكتوبر ١٩٧٣، ليقول لى (أمام دهشتى)، إنه دفعنى للسفر سريعا؛ لأن فى الغد (٦ أكتوبر) الشهير ستقوم الحرب، وسنعبر القناة، لا أعرف عن نبوءة، قال لى ذلك، أم عن علم، لكنى وصلت إلى إسبانيا أنتظر الحرب والقلق الكيخوتى يقتلنى، وكانت، ومن معجزاتها أننى تعلمت الإسبانية فى أسبوع حتى أتابع أخبارها.

إليك سيدى

أكلل هذا العمل بالغار بإهدائه إليكم وترك بعض نبضكم يسرى فيه، وبإهدائه فى نفس الوقت إلى أبى وأخى، فأنتم الثلاثة أفضل من منحونى دون حدود أو شروط، وعلمونى الكيخوتية، لأرى فى كل شىء جميل ما فيه، وفى كل شىء قبيح تحولاته السحرية نحو أخذ صورة جميلة، التفاؤل والابتسامة، مع كل ما تقدمه حياة إنسان اليوم (ولا سيما فى بلادنا) من فشل وأحزان.

سليمان العطار

تقديم المترجم

البهجة بالانتهاء من ترجمة عمل عظيم مثل هذه الرواية لا تترجم فحسب السعادة بإنجاز عمل يضيء تاريخ الإبداع الإنسانى بأكمله، وتجتاح شمسه المكتبة العربية، وإنما بنهاية العناء فى عملية الإنجاز نفسها، فترجمة أكثر من ألف صفحة من الإسبانية إلى العربية ليس بالقليل، إذا نظرنا إلى إسبانية النص التى تعد الذروة فى الصياغة والبلاغة، للغة كانت لم تكتمل صورتها النهائية بعد، وكان هذا النص يحاول فى "كيشوتية" الانتهاء من إعطاء تلك اللغة صورتها النهائية، مما جعله حتى اليوم، وسيظل أبدًا، النص العمدة والبوصلة التى توجه أبناء تلك اللغة نحو إتقانها حتى نخاع عظمهم، وكأن كل طلاب التعليم الأساسى الإسبان عندما يقرأون رواية الكيخوتى تولد فى فضاء روحهم لغتهم وتتشكل من جديد لتصير خلقًا آخر.

من ثمَّ، ليس غريبًا أن يظل الإسبان يحتفلون بهذا النص بشتى أنواع الاحتفال حتى اليوم، وأذكر ما تقوم به حلقة الفنون الجميلة من دعوة متطوعين سنويًا فى ذكرى ثربانتس لقراءة النص دون توقف لمدة أربع وعشرين ساعة، تضاعفت عام ١٩٩٨ إلى ٤٨ ساعة، شاركت فيها بالقراءة التى كانت تذاع على شاشات التليفزيون فى كل أنحاء إسبانيا والعالم الذى يتكلم هذه اللغة التى تعد الثانية بالنسبة لعدد المتكلمين بها، ولعلها جغرافيًا الأولى، من حيث اتساع الرقعة التى ينتشر فيها هؤلاء المتكلمون.

إذن فلبهجتى بالانتهاء من الترجمة أسباب كثيرة، فيها مصاحبة هذا النص وأبطاله عامًا كاملاً، ننام معًا، ونستيقظ، حتى سقطت من حياتى كل الشعائر

الأخرى والعلاقات الإنسانية، وكأن جنون دون كيخوتى يدركنى بل أدركنى بالفعل، مع تدهور فى صحتى لإصرارى العجيب الذى وصل إلى حد الحنق على الاستمرار فى العمل حتى ينجز، وها هو أيها القارئ العزيز بين يديك.

والآن نتحدث عن مؤلف هذا العمل، إنه ميجيل دى ثربانتس سابيدرا، رجل من أوساط الناس فى عصره، عاش فقيرًا ومات فقيرًا، ذلك الفقر الذى يؤرق ويشغل ويوفر أسوأ ظروف المعيشة. إنه الفقر الإسبانى فى القرن السادس عشر والقرن السابع عشر، الفقر الذى أصاب السواد الأعظم من الإسبان، وبجانب الفقر دخول السجن أو التعرض لدخوله، دون ما سبب سوى الفقر نفسه وسوء الحظ. ولد عام ١٥٤٧ فى أى ساعة أو يوم أو شهر، لا أحد يعرف، ومن كان يعنيه أن يعرف تلك التفاصيل التافهة لطفل يولد فى أسرة فقيرة كثيرة العيال مثل أسرته. أب طبيب جراح من الدرجة الثالثة، ومع ذلك فالأسرة من المسيحيين القدماء نقية الدم، لم تختلط بدمهم دماء إسلامية أو يهودية لتسوء أمورهم أكثر، كانوا من طبقة الأعيان بين العامة الدهماء والفرسان، لهم مقام وبعض الحقوق القانونية، وإن كان يضرب بفقرهم المثل.

ماذا تلقى الطفل ميجيل من تعليم؟ الأفضل إغلاق هذا الملف؛ فلا معلومات إلا التصور شبه الأكيد أنه لم ينتظم فى تعليم قط، لكن من المؤكد أنه لا يقل ثقافة عن كتّاب عصره المتعلمين، فقد كان يقرأ كل كتاب صدر بالإسبانية أو كل كتاب كتب بالإيطالية (التى تعلمها صغيرًا) يمكن الحصول عليه فى إسبانيا، وأعماله تشهد بأنه يعرف ويلم بثقافة عصره والعصور السابقة عليه، كان يقرأ كل ورقة تقع عليها يده، ولو كانت ملقاة فى الشارع.

يكتب بعض الأشعار فى عمر الواحد والعشرين، وفجأة يقطع نشاطه الأدبى الذى لم يكد يبدأ ليسافر إلى إيطاليا عام ١٥٦٩ ، رحلة لا نعـرف أسـبابها إلا إذا كان الخوف من دخول السجن هو السبب، حيث يظهر خبر فى ذلك العام بـصدور أمر بالقبض على " ثربانتس سابيدرا" هل هو كاتبنا أو غيره؟ لا ندرى، لكن يمكـن ربط هذه الرحلة، بذلك الأمر، وكانت التهمة إحداث جروح بأحد رجـال الـبلاط. هناك من الأحداث ما ينفى العلاقة، لكن لا يهم، فلا دخان من غيـر نـار تطـرد ثربانتس بعيدا عن عالم الأدب، إذا علمنا أن السفر إلى إيطاليا كان دائمًـا طريـق الشبان الإسبان للسلوك فى الجندية، وهذا ما حدث لثربـانتس فـى عـام ١٥٧٠، ويشارك عام ١٥٧١ فى المعركة الأشهر (ليبانتو) التى تم فيها تـدمير الأسـطول التركى (الذى لا يهزم). كان مريضًا عند بدء المعركة (التى ستصير مـن أعظـم مفاخره)، لكنه صمم على الاشتراك، وقاتل ببسالة، وجرح فى كتفه الأيسر، وترتب على ذلك شلل ذراعه الأيسر إلى الأبد (داخل سوء الحظ يوجد بعـض الحـظ لأن الجرح لو أصاب ذراعه الأيمن لما كنا نكتب هذا التقديم الآن).

يكسب احترام قواده وإجلالهم ، لكنه فجأة عام ١٥٧٥ يقـرر العـودة إلـى إسبانيا، تاركًا مستقبلاً مجيدًا فى العسكرية، ويحمل معه خطابات توصية من القواد الكبار كانت كفيلة بفتح أبواب الغنى والجاه فى حياته القادمة، لكنه فى الطريق إلى إسبانيا يأسره القراصنة الأتراك، ويحملونه إلى الجزائر، لتجعـل منـه خطابـات التوصية أسيرًا مهمًا، فديته أعلى من إمكانيات أسرته، وأسر معه أخوه رودريجـو الذى كان أصغر منه، وسلك مثله سلوك الجندية. استطاعت الأسـرة دفـع فديـة رودريجو (بعد جهد المقل كما يقولون)، أما الأسير المهم فيحتاج لثروة فوق طاقة أسرته، وهكذا سوء الحظ مضاعف، حيث يؤسر بدلاً من أن يعود إلـى الـوطن، وتتحول خطابات التوصية إلى سبب ديمومة الأسر.

لكن كما نال احترام قواده ينال احترام ملك الجزائر الذى اشتهر بالقسوة المفزعة مع الأسرى، والخلاصة نجح ثربانتس فى أن يكون أسيرًا مدللاً، حتى إنه بحيله الأدبية اخترع أربع طرق للهرب مع عدد كبير من الأسرى المسيحيين، وبسبب خيانة بعضهم تفشل الخطط وتنكشف، لكنه فى رجولة يلقى بكل المسئولية على نفسه، فينقذ باقى الأسرى من العقاب، ويلقى من الجانب التركى الاحترام لنبالته، فينجو من العذاب الأليم الذى يلاقيه كل من حاول الفرار. زملاؤه الأسرى اتخذوا منه عمدة لهم، حتى دفع فديته أحد الأنظمة الدينية المسيحية ويعود إلى إسبانيا عام ١٥٨٠ لينتظره الفقر بأنيابه. يعمل بعد جهد جابيًا لضرائب الأسطول (قمح وزيت)، ويتعرض للسجن أكثر من مرة لإهماله فى الحسابات، أو لسرقة بعض ما جمع على يد لصوص جوعى، أو ببساطة لعجزه عن الجباية أمام تهرب دافعى الضرائب . ما بين عامى ١٥٨٣ و ١٥٨٧ يتفرغ للأدب ويكتب رواية رعوية (لا جالاتيا) ومن ٢٠ إلى ٣٠ كوميديا. وما بعد ذلك حتى ١٦٠١ يتفرغ للجباية التى سبق ذكرها تاركًا حياة الأدب للتفرغ لشئون الحياة. بين عام ١٦٠١و١٦٠٣ لا يعرف أحد شيئًا عن حياة ثربانتس، ماذا كان يفعل؟ وكيف يعيش؟ لكن يكتشف بعد ذلك أنه كتب خلال هذا الوقت إحدى رواياته (النموذجية)، وليس أقل من القسم الأول من الكيخوتى. عمومًا، بين ١٥٩٥و ١٦٠٤ يبدو أنه فى أسوأ الظروف كان يكتب بعض الأشعار الساخرة، لعلها تقدم لنا المستند الوحيد عن حياته فى هذه الفترة.

لكن نفهم أنه كتب القسم الأول من الكيخوتى عام ١٦٠٣، وحصل على تصريح نشره عام ١٦٠٤، ويظهر فى مدريد فى يناير ١٦٠٥، ليكون المفاجأة الكبرى للحياة الأدبية فى العالم كله (ليس أقل). ويترك ثربانتس كل شىء من الأمور التى أجبره عليها الفقر ويتفرغ تمامًا للكتابة. يبقى مع الأسرة الفقيرة (وكلها

نساء) فى أرباض مدينة بلد الوليد أو وادى الوليد "بيًادوليد" فى حى شعبى (عشوائى بلغة عصرنا) فى وسط ردىء، حتى إنه وأسرته يتعرضون للسجن والتحقيق فى حدث أشبه بالروايات البوليسية، حيث يتم العثور أمام منزل الأسرة فى ٢٧ يونيو ١٦٠٥ على جثة فارس قتيل اسمه جاسبار دى إثبيليتا. ويقوم أحد القضاة بدور أرسين لوبين ويحاول معرفة السر الغامض لمقتل الفارس، يستجوب كل سكان الشارع والجوار، ويأمر بالقبض عليهم، وينتهى أرسين لوبين إلى عدم إدانة كل سكان البيت الذى يعيش فيه ثربانتس بما فيهم هو شخصيًا.

نساء البيت الذى يعيش فيه (بمن فيهن ابنته، الوحيدة التى أنجبها من قصة حب وحيدة توجت بالزواج الأول فى حياته) سيئات السمعة، حتى أن الأدباء وأصحاب المطابع والشخصيات التى تزور ثربانتس كانوا يجيئون فقط من أجل النساء ! أليس من السهل الآن تصور البيئة المزرية التى عاش فيها كاتبنا العظيم، (الذى لا يقاس به أحد مطلقًا إلا شكسبير) فى أواخر حياته (١٦٠٥-١٦١٦) . سنوات قليلة كانت المطبعة لا تلاحق أعماله المتتابعة فى سرعة خارقة، كان يرى الموت ويريد أن يخرج ما اختزن من فن فى وقت قصير.

بعد صدور كتابنا (الكيخوتى) عام ١٦٠٥ تصدر منه فى نفس العام خمس طبعات، ويترجم إلى الإنجليزية عام ١٦١٢، ثم إلى الفرنسية عام ١٦١٤، ولا تتوقف طبعاته الإسبانية، لكن لا يصدر القسم الثانى منه إلا عام ١٦١٥، حيث يموت فى آخره دون كيخوتى، منبئًا بموت ثربانتس نفسه فى العام التالى (١٦١٦)، ليصدر العمل كاملاً بقسميه لأول مرة عام (١٦١٧)، ربما ليحل محل جسم مؤلفه ثربانتس الذى واراه التراب، ويبدأ الكيخوتى حياة خالدة عالمية حسب نبوءة ثربانتس؛ حيث قال لن توجد " أمة أو لغة دون أن تترجمه".

ولم لا؟ إن كل من يقترب من الكتاب يرى نفسه (أو بعضًا منها) فيه، ويفهم من حوله، سواء أكان من يقترب هذا من الخاصة أو من العامة، أو من الأذكياء أو الأغبياء، فالكيخوتي سوف يجيب على تساؤلات الجميع، حتى لو كانوا من البلهاء أو المجانين، لكن الأهم أنه نفسه الذى سوف يدفعهم قبل ذلك لطرح كل تساؤلاتهم المشار إليها.

لماذا يحمل الكتاب كل هذا المجد الإنساني؟ يؤسفنى أيها القارئ العزيز أن أتركك تجيب عن هذا السؤال بعد قراءة العمل. لن تكون إجابتك مثل إجابتي (كقارئ مثلك) أو إجابة أى قارئ غيرك، فكل قارئ سيجد فيه شيئًا يغنيه، حتى لو لم يستطع أن يعبر عنه. ولنسمع رأى تولستوى عنه الذى يقول كل شيء ولا يقول شيئًا : " إذا غزا كوكب الأرض كائنات من كوكب آخر، وعقدوا محكمة لسكان الأرض طالبين منهم تقديم مبرر للتمتع وحدهم بهذا الكوكب الأرضي الجميل، سيقدم سكان الأرض الكيخوتي إلى قضاة المحكمة قائلين: "هذا وحده مبرر كاف".

لكن هناك حقيقة أخرى يعرفها مؤرخو الرواية: "الرواية الحديثة من اختراع ثربانتس" تمامًا مثل الدراما الحديثة، فهى من اختراع شكسبير. دون كيخوتي أول رواية حديثة، وقد صارت أمًا لكل رواية عظيمة إلى اليوم. لقد شاء حظّى أن أترجم عملاً حديثًا هو "مائة عام من العزلة"، رواية أحدثت دويًا هائلاً في العالم، لكنها نسخة حديثة (وهى أيضًا أصلية) من الكيخوتي. إن خروج خوسيه أركاديو بوين ديا وبحثه عن البحر دون جدوى هو الخروج الأول لدون كيخوتي، والأصالة عند ماركيز أنه حول كل خروج جديد إلى جيل جديد من الجنون، أما دون كيخوتي وسانشو فصارا خوسيه أركاديو وأوريليانو فى تبادل للوظيفتين التقنيتين مع كل جيل، أى مع كل خروج جديد . حتى اسم القرية ماكوندو، ذلك الاسم الوهمي المخترع، مشتق من الاسم الوهمي فى دون كيخوتي الذى سمى القسيس به دوروتيا عندما

لعبت دور الملكة المسلوبة العرش: "ميكوميكونا" اسمًا للأميرة أو ميكو ميكون اسمًا للملكة. ويتحول عند ماركيز دون كيخوتى وسانشو إلى سلالة من المجانين، عندما تصل إلى المعرفة التى وصل إليها دون كيخوتى وسانشو تهلك وتختفى من على وجه البسيطة، مثلما اختفى دون كيخوتى، وفقد سانشو سبب وجوده باختفائه . إن ذلك الجنس الأدبى الذى أطلقوا عليه فى القرن التاسع عشر اسم (الرواية) افتتحته دون سابقة (بل دون لاحقة تعدلها) رواية دون كيخوتى، وتأكدوا، سادتى من ذلك فى تراث فلوبير وديكنز وديستوفسكى وجالدوس.

من هنا، يطرح سؤال آخر: وما الرواية الحديثة؟ إنها (الحدوتة) القديمة بعد التخلص من الحدث الذى كان مركز الأهتمام إلى الشخصية، التى أصبحت ذات أبعاد أربعة، الأبعاد الثلاثة لأى جسم بجانب الزمان، وداخل الأبعاد الثلاثة فضاء روحى أخلاقى بلا حدود، سوى تلونات يفرضها سير البعد الرابع وهو الزمان . الحدث جدل بين ذات الشخصية صانعته أو مستقبلته من مصدر خارجى يؤثر عليها فى حركة حافزة تؤدى إلى حدث مقابل. أخيرًا الشخصية بكل أبعادها الجمالية ذات نواة واقعية، منها تنطلق الوقائع (تتشكل) ثم تنفك بالخيال فى تشكيل جديد، ينفك ليعود إلى واقعيته من جديد. إننا نتحدث عن واقعية فنية تشبه ما أطلقوا عليه نفس الاسم (الواقعية) فى القرن التاسع عشر. نعم واقعية عند ختام القرن السادس عشر، شىء معجز حقيقة، وقد ثبت مع الزمن أنها واقعية رؤية حقيقة الإنسان وأشيائه فى كل العصور فى ينبوعها الداخلى الثرى المتنوع، الذى لا يجف مهما اختلفت تجلياته الخارجية، باختلاف الأشخاص والثقافات والعصور.

إن العناصر البنائية للرواية الحديثة آتية من الشارع، أى من الواقع، وهكذا كانت رواية دون كيخوتى. لكن الحياة تقوم على موتيفة هى الهدم للبناء ثم البناء للهدم. وميلاد وموت، وكل شىء يتغير. ما معنى التغير؟ هدم شكل لبناء شكل

آخر، وهكذا تسير حياتنا، والأدب الجيد (لاسيما الروائى) يرصد الهدم والبناء رصدًا شعريًا يرى من ورائهما لونًا من الجنون المنافى للعقل، وإلا لماذا يموت الإنسان عند اكتمال نضجه؟ ولماذا يختفى من نحب بل من نكره لصالح ظهور جديد للجنسين ؟ دون كيخوتى يقرأ كتب الفروسية ذات الخيال الجامح، ويعتقد أن كل ما يقرؤه حقيقى، ويقرر محاكاته، أى يعيش الخيال فى واقع لا يقبله. وبقراءة الرواية نرى أن دون كيخوتى يعرف كل شىء عن ثقافة عصره والعصور الماضية، فيختلط فى عقله الذى جن بالقراءة الخيال بالواقع، يدهش الناس بعلمه وجنونه معًا. ويخرج من قريته وبيته بحثًا عن المغامرة ليعيش حياة الفرسان المشّائين بكل ما فيها من خيال جامح قدمته كتب الفروسية (وكل كتب الأدب والمعرفة كما نفهم من وراء سطور العمل) . إنسان يريد أن يعيش الشعر فى الواقع فيعترضه الواقع، فيسقط عليه تحولات سحرية، تزول بعد قليل ليتكشف وجه الواقع. وتصبح المغامرات الوهمية خطًا وهميًا بين الواقع والخيال، تستمد منهما شخصية دون كيخوتى (ثم مئات الشخصيات الواقعية، وعلى رأسها خادمه سانشو بانثا) أبعادها النفسية، بل أدوات التعرف على ذاتها وذوات الآخرين.

ويتحول هذا الخط الوهمى إلى تقنية بديعة تتمثل فى المكان، مثل آخر نُزُل (فندق صغير) ظهر فى العمل فى قسمه الأول، حيث يجتمع من الشخوص ما كاد يمثل كل إسبانيا ذلك الزمان، فى سلسلة من الأحداث يختلط فيها الخيال بالواقع إلى حد المفارقة المضحكة والعميقة الدلالة، أو فى المغامرة مثل مغامرة خوذة (ممبرينو)، التى تحوّل فيها طشت حلاق لا يهش ولا ينش إلى محور أحداث لا حصر لها عبر التحولات بين الواقع والخيال أو بين الشعرية ولوجستية الحياة . لا شىء له دلالة إلا كما نراه، بين واقعه وخيالنا، بل أمانينا.

أخيرًا أود أن أقول شيئًا من باب الفكاهة، إن شخصية أحمد رجب " عبده مشتاق" يرتديها سانشو بانثا؛ إذ يمنيه دون كيخوتى بتعيينه حاكمًا على إحدى الجزر أو الولايات أو المقاطعات التى سوف يغزوها، ومعه سيده دائمًا "مشتاق" لأن يعامل معاملة فارس مشاء، وعندما يسخر منهما الدوق، ويحقق لكل منهما أمنيته فى سخرية، تتحول السخرية إلى حقيقة بشكل مدهش (دون أن يكون الدوق مجنونا، وإن كاد يجن)، لكنهما على عكس عبده مشتاق اليوم، يهربان من تلك الحقيقة، إنقاذًا لحريتهما؛ لأن الحرية أسمى أشواق الإنسان (أمر لم يعرفه تمامًا حتى اليوم عبده مشتاق المصرى).

أقدم لكم السيد الشريف العبقرى دون كيخوتى الشهير بين العرب باسم "دون كيشوت"، حتى يتعزى الجميع فى فشله، كما فعل ثربانتس الذى أخرج لنا فشله هذا العمل العظيم، فمن فضلكم افشلوا مثله، على الأقل.

تنويهات لا بد منها

أولاً: شاع أن ثربانتس فى عمله هذا يعادى الإسلام، فما حقيقة ذلك؟ إن معاداة دين عظيم مثل الإسلام (أو حتى أى دين) لا يمكن إلا أن يكون عملاً عنصريًا، وفعلاً من أفعال التعصب الأعمى، ولا يمكن لعمل عظيم مثل الكيخوتى- أثبت لعدة قرون أصالته الإنسانية الرفيعة على مستوى العالم بكل أديانه وأجناسه- أن يبشر بالعنصرية والتعصب. إذن لماذا خرجت هذه الشائعة؟ ثربانتس يقدم أبدع صورة لحاضر إسبانيا فى عصره، بكل إخلاص وواقعية ملفوفة فى جو رائع من الخيال، والإسبان حتى صدور القسم الأول من هذا العمل يعيشون ومعهم الموريسيكيون الذين يذهبون إلى الكنائس أمام الجميع ثم يحولون بيوتهم إلى مساجد فى السر، ومع صدور القسم الثانى عام ١٦١٥ طرد ملك إسبانيا كل الموريسكيين

من إسبانيا. الموريسكيون هم العرب الذين بقوا فى إسبانيا، ودخل معظمهم المسيحية ظاهرًا وظلوا على إسلامهم، يتكلمون إسبانية خاصة بهم هى الأعجمية مع بعض العربية في السر. هذا الوجود الموريسكى مصحوب بمحاكم التفتيش التى تستعمل الإرهاب ضد كل دين غير المسيحية الكاثوليكية، حتى ضد المذاهب المسيحية الأخرى، وتحمل سيفًا لرقيب رهيب مسلط ضد كل شيء حتى كتب الإبداع، وهذا هو الجو الذى فى ظله أصدر ثربانتس روايته. أراد ثربانتس أن يقدم الواقع الإسبانى كما هو فى جو مذهل من السخرية، حتى من أعلى سلطة كنسية، فهو يشبه تبادل بردعة حمار سانشو ببردعة حمار الحلاق، بتبادل الكاردينالات السنوى لملابسهم، ومع ذلك لم يسخر قط من الإسلام، وإنما فى بعض المشاهد النادرة فى هذا العمل الضخم يقدم تصور الجهلاء (وهم أغلبية) الخاطئ للإسلام، حتى فى بعض الأحيان نقلاً عن كتب الفروسية. فمثلاً أحد الفرسان ينتشل صنمًا لمحمد (يقصد الرسول صلى الله عليه وسلم)، لأن مسيحيى إسبانيا يتصورون أن معتقد المسلمين حول الرسول هو نفس معتقدهم حول المسيح الذى تملأ تماثيله الكنائس. الخلاصة أن العبارات القليلة والنادرة ضد الإسلام، هى معتقدات شعبية إسبانية، لها ما يبررها من حرب لألف عام بين إسلام إسبانيا ومسيحيتها، وليست آراء الكاتب، الذى يعلن احترامه للعرب والإسلام فى ذكاء نادر فى موقفين غاية الأهمية، أولهما زعمه أن الرواية كلها على لسان عربى مسلم هو سيدى حامدى بن إنجيلين، والثانى موقف ثار فيه دون كيخوتى وأشهر سيفه ضد راوى إحدى الحكايات عندما أساء للنظام القضائى فى الإسلام، بل إن دون كيخوتى رغم معتقده فى عدم صدق نبى الإسلام حول المسيح والمسيحية، يناصر الأضعف دون النظر للدين. ودون كيخوتى هنا يكشف عن المعتقدات الشعبية الخاطئة ضد الإسلام، التى ترى فيه مسيحية أخرى منحرفة لا أكثر ولا أقل. من هذا المنطلق نحن أمام عمل ذى أبعاد إنسانية تسخر من

تلك التصورات دون حساب، لإرساء مبدأ الحب والتسامح، حتى إن سانشو يقابل الموريسكى جاره دون أن يبلغ عنه السلطات، مع رفضه مساعدته، لأنه عدو ملكه ووطنه. الروح الإنسانية فى العمل بسحر جماليات الأدب تبدد كل فكرة خاطئة، وتشيع روح التسامح، وتقف ضد إشهار الصليب ضد أعدائه المتصورين، لأنه كما تكرر الرواية، وراء الصليب يقف الشيطان، وذلك عندما يستخدم الصليب خارج العبادة.

من هذا الفهم يعد كتاب دون كيخوتى حوارًا بديعًا بين حضارات عصره يمتد نوره إلى اليوم، إنه يمثل عالمًا مسيحيًا لا يحسن رؤية الإسلام فى ظل نماذج جامدة شكلها الجهل أكثر من أى سبب آخر لتشكيلها، أما الإسلام فهو فى ذلك العصر أيضًا يحكم على المسيحية طبقًا لنفس النماذج الجامدة. وقد غذى هذه النماذج الحروب التى دارت بين دار الإسلام ودار المسيحية على أرض إسبانيا، ثم على أرض أوروبا فى زمن العثمانيين، النموذج الجامد المسيحى يرى فى الإسلام صورة منحرفة للمسيحية، أما النموذج الجامد الإسلامى فيرى المسيحية دينًا سماويًا صار وثنيًا. أما رواية دون كيخوتى فهى تسخر من النموذجين؛ لترى أن الإسلام مثله مثل المسيحية طريق للخير والأخلاق الفاضلة ومعرفة الله . والسخرية من النموذج الجامد تكشف عن النموذج الحقيقى الذى تتحرى عنه الرواية، فمثلاً فى قصة هروب ميليسندرا من سرقسطة، عند اكتشاف هربها يصل خبر هربها إلى ملك المدينة المسلم، فيأمر بدق أجراس أبراج كل المساجد .. هكذا يتكلم القصاص، وهكذا تصبح صورة المسجد لديهم: إنه نسخة محرفة من الكنيسة ... يصرخ دون كيخوتى ويقول : هذا لا، لا توجد أبراج وأجراس للمساجد، العرب تستخدم وسائل أخرى للتنبيه والإنذار ... الطبول والأبواق، وهنا يبعد الحروب والأسر عن الدين والمسجد، ويدخلها فى سياقها الحربى، وينتقل من السياق الحربى إلى السياق الحضارى، فيما ترمز إليه الكلمات الإسبانية ذات الأصل العربى.

أما الحوار بين الحضارات بشكله الجمالى فيأتى فى لعبة الراوى المتشابك، فثربانتس يتنحى بوصفه مؤلفًا للرواية ليحل محله راوٍ مؤلف عربى (سيدى حامدى ابن إنجيلين) وكتابة هذه الرواية العربية تصل إلى القارئ عبر مترجم، وهناك حوار مستمر بين المترجم الكاثوليكى والمؤلف العربى المسلم، ويدير هذا الحوار ويعلق عليه المؤلف المتنحى وهو – كما قلنا – ثربانتس نفسه، إنه حوار بين أفكار وأديان يقوم على أسس تصيب مرة وتخطئ مرة، وبين الخطأ والصواب تبرز الحقيقة الإنسانية الكبرى التى تجعل من دون كيخوتى بطلاً لكل الأجناس ولكل اللغات .

تصل أحيانًا شرارات هذا الحوار المفتوح إلى ذروة السخرية من قبح الواقع، لدرجة أن ترجع الرواية الحرب بين المسلمين والكاثوليكيين إلى حرب بين هاجر وضرتها سارة، ومع هذا السبب الكامن فإن أنصار سارة (الكاثوليكيين) يحاربون أيضا أبناء سارة، فسانشو باعتباره مسيحيًا كاثوليكيًا رومانيًا قديمًا يعلن إيمانه هكذا "إننى مطيع لأمنا الكنيسة وأكره اليهود ... "، لكن عندما يقابل جاره العربى يحتضنه ولا يبلغ عنه، بل يجهش بالبكاء مع قريته عند وداع ابنة هذا العربى لنفيها خارج إسبانيا، وعاشقها الفارس الإسبانى الوارث والنبيل يتحول إلى موريسكى (عربى) من أجلها.

رواية دون كيخوتى تتنقل على شواطئ المتوسط من إستانبول إلى تونس والجزائر إلى جميع أنحاء إسبانيا، ومنها إلى إيطاليا وقبرص، وهناك فرنسا وألمانيا. إنها عمل فذ يفتح أبوابًا واسعة اليوم للحوار بين الحضارات، مسقطًا الصراع، محولاً له إلى كوميديا سوداء تتفك بروعة السخرية إلى ابتسامة ولقاء ومحبة بين البشر من كل الأجناس. لا تنسى مأساة السود والعبودية، ولا تترك العالم الجديد فى الأمريكتين دون ذكر، بجانب إشادتها بروعة دور مصر فى خلق نظام الرهبنة وغيره من القيم، بل مصر هى رمز الرفاهة والهيبة.

هذا العمل المترجم يقدم هذا النص العظيم لأول مرة بالعربية عن الإسبانية كاملاً غير منقوص، مع احترام قدر إمكانات المترجم لحرفية العمل الأصلى، دون إهمال ضرورة أدبية النص العربى وشاعريته . أعتقد أننى أقدم خدمة كبرى أولاً للثقافة العربية، وثانيًا للثقافة الإنسانية وبصفة خاصة إلى جانبها المتوسطى. نحن اليوم فى حاجة لمادة جليلة لحوار الحضارات لن يكون الكيخوتى إلا أنصع صفحاتها. وأخيرًا أحرف قولاً للإمام الشافعى عن هذا العمل : "من لم يقرأ الكيخوتى لم يقرأ رواية قط"(*). هل أبالغ؟ لا، بل هذا رأى أعظم الروائيين فى العالم.

الكيخوتى بين يديك أيها القارئ العزيز، فلتضحك معه ملء شدقيك، وإذا كانت هناك لحظات حزن، فما أسرع ما تبددها فى صفحة تالية، إن ثربانتس كان فى قمة تعاسته يريد إسعاد البشر إلى أبد الآبدين ... آمين .

ثانيا: لا بد من معرفة الآتى:

أ) كلمة "دون" لقب تشريفى من اللاتينية **Dominus**، ويعنى السيد المبجل، فى عصر ثربانتس لم يكن ثربانتس نفسه يحلم أن يحمله، أى أنه لقب يمنح لقلة من النبلاء والأمراء، لكنه اليوم يستعمله الجميع، ولأنه لقب فهو يسبق كلمة السيد، لنقول **Don Senor**، فكأنه تكرار لعبارة السيد، ومثله للأنثى "دونيا".

ب) معظم الأسماء الغريبة لفرسان وساحرات تكاد تحمل فقط دلالات الحدث المرتبطة به، لأن معظمها لفرسان أو سحرة أو أمراء أو ملوك وملكات أو حتى خيل من كتب الفروسية، مع ورود أسماء تاريخية لأشخاص ومدن ومؤلفات ووقائع، وعمومًا السياق يكشف دائمًا كما ذكرت عن دلالتها.

(*) القول المنسوب للشافعى: "من لم يتزوج قبطية (مصرية) فليس بمحصن" أى كأنه لم يتزوج مطلقا. (التحرير)

ج) قمت بالاحتفاظ بإهداء ثربانتس إلى دوق بيخار وبمقدمة المؤلف حسب ترجمة المرحوم الدكتور عبد العزيز الأهواني لهما، مضيفًا إليهما الفصل الرابع عشر من القسم الأول، وذلك تخليدًا لذكراه، وعرفانًا بفضله؛ لدوره الضروري الذي هو وراء كل علاقة عربية معاصرة (من الجانب العربي) بالثقافة الإسبانية، وكل العاملين في هذا الحقل من تلامذته، أو ممن وجدوا الطريق ممهدًا بفضله. أظن أن ذلك كان واضحًا في الإهداء، مع العلم أنني لم أفكر قبل ذلك قط في إهداء أي عمل من أعمالي، لكن دون كيخوتي استثناء، ولا شك أن ترجمته أيضًا كذلك. لقد كان دون كيخوتي مهذبًا جدًا، فهل من بأس أن أشبهه في إهداء عملي، والإهداء تهذيب، علمه لي الكيخوتات الثلاثة المهدى إليهم الترجمة، التي ذكرتني بهم، رحمهم الله جميعًا.

د) ترجمة الأهواني استخدمت لغة جزلة راقية، تكاد تتخاصم مع السخرية الصارخة وشعبيتها التي عمد إليها المؤلف، ومع ذلك فهي منهج عصر الأهواني في استخدام أسلوب عربي رفيع، بصرف النظر عن طبيعة النص، وقد انعكس ذلك على طريقة تعريب الأسماء، دون النفاذ إلى استخدام المؤلف لها في لعبة موسيقية غير منظورة.

هـ) ترجمة عبد الرحمن بدوي (وهي معاصرة تتأخر بضع سنوات عن ترجمة الأهواني)، تمثل منهج الترجمة المدرسية أي الحرفية، فافتقدت النفس الأدبية، وأصبح العمل جسمًا لغويًا بغير روح، كما أن تعريب الأسماء بعيد تمامًا عن أصلها الإسباني، ودون أي تقريب لها من العربية، مما أدى إلى غربة الأسماء. المترجم قدم العمل كاملاً، لكنه غير قابل للقراءة الأدبية، وقد علمت بوجود ترجمة سورية كاملة عند تقديم هذا العمل للطبع بعد عامين من المراجعة.

و) أما ترجمتى هذه فإننى أترك الحكم عليها للقارئ؛ لأننى كنت أفكر فيه كـــل لحظة خلال عام كامل، وأردت أن أنقل إليه أفـــراح العمـــل التـــى أهـــداها ثربانتس للإنسانية. بذلت جهدًا جبارًا لنص يهرب من مترجمه ويراوغـــه، ويخفى كنوزه ويظهرها فى تيار متقطع، وعلى المترجم أن يشبه قاطف ثمار تخفيها أوراق الشجرة، وعليه أن ينتظر هبات الريح لتكشف له عن الثمرات مع الصبر والانتظار والتدريج. من ثمّ، فليست هذه كل ثمار العمل الأصلى، لكن أيضًا ستجد ثمارًا لا يحملها العمل الأصلى، هى عبقرية اللغة العربيـــة، التى تأبى إلا أن تقول كلمتها الإبداعية داخل النص، وهـــى أيـــضًا اجتهـــاد المترجم، فمهما حاول احترام الأصل، لن يتنازل عن احترام الـــذات، أعنـــى ذات المترجم .

ز) أقدم الشكر للمركز القومى للترجمة الذى أعاد نشر هذا العمل فى طبعة جديدة.

سليمان العطار

إهداء

إلى دوق بيخار

مركيز جبل العيون، كونت بنى القصر وبنيارس، فيكونت
بلد القصير، سيد قرى كبللا وكويل وبرغيللوس

إنكم - يا صاحب السعادة - لحرصكم الشديد على تشجيع الفنـــون الجميلـــة، وخاصة ما كان نبيلاً لا يهبط إلى مستوى الطَّغَام، تحسنون اســتقبال كــل أنــواع الكتب. لهذا قررت أن أخرج إلى النور " السيد العبقرى دون كيخوتى دى لامنــشا" يرعاه اسمكم الكريم اللامع. وإنى لأعترف بأن كتابى قد عرى مــن زينـــة العلــم والبلاغة التى تتحلى بها الكتب التى تخرج من بيوت أهل العلم من الرجال، ومـــع هذا فإنى أتوسل إليكم - بما أدين به من ولاء لعظمـــتكم - أن تتلطفـــوا فتـــشملوه برعايتكم، ليصبح موضعًا للتقدير عند هؤلاء الذين اعتادوا - متجاوزين حدودهم- أن يحكموا على آثار الغير أحكامًا قاسية جاهزة، وإنى لعلى ثقة مـــن أن النظـــرة الحصيفة لسعادتكم سوف تتغاضى عما فى هديتى من تفاهة وتقصير لما فيها مـــن حسن النية.

ميجيل دى ثربانتس سابيدرا

المقدمة

أيها القارئ الخلى البال، صدقنى – دون قَسَم – إذا قلت لك إننى وددت أن يكون هذا الكتاب بين ثمار الفكر أجمل وأبرع وأكمل كتاب تخيله متخيل، ولكننى لم أستطع أن أفلت من سنة الطبيعة التى تقرر أن كل كائن لا يلد إلا شبيهه . وإذن فماذا يستطيع أن يلد عقلى العقيم العاجز إلا تاريخًا لابن ضاو منكمش، صاحب نزوات وأفكار متضاربة لا تخطر بخيال إنسان غيره ؟ وهل شأنه فى ذلك إلا كشأن ابن يولد فى السجن(*)، تقض المتاعب مضجعه من كل جانب، وتزعجه الأحزان من كل ناحية ؟ إن السكينة وطيب العيش، وجمال الطبيعة، وإشراق السماء، وتنغيم الجداول، وهدوء النفس، كل هذا يستنزل الوحى، ويجبر عرائس الفن على أن تنجب وتجود على الدنيا بكل ما هو رائع جميل.(**) ولقد يحدث أن يرزق أب بطفل قبيح غبى، ولكن حبه له يلقى على عينيه غطاء يصده عن رؤية نقائصه، ثم تتحول هذه النقائص إلى فضائل ومزايا، ثم يتحدث الأب بعد ذلك إلى أصدقائه عن شمائل ابنه ونوادره. أما عن نفسى، فليس موقفى من دون كيخوتى موقف الأب من ابنه كما هو منتظر، وإنما موقف الرجل من ابن زوجته.

وإذن، فلن أسير على ما جرى به العرف، ولن أتوسل إليك أيها القارئ العزيز، والدموع تطفر من عينى كما يفعل غيرى، ملتمسًا منك الصفح، وغض الطرف عن النقائص التى سوف تراها فى ابنى هذا، ثم إنك لست لهذا الابن قريبًا

(*) يرى بعض الشراح أن ثربانتس وضع خطة كتابه هذا وهو سجين، فالإشارة هنا – فى رأيهم – حقيقة لا مجازًا.

(**) يشير إلى أنه محروم من ذلك، فكيف يبدع؟

أو صديقًا، ولك حياتك التى تتصرف فيها، ولك حرية الإرادة فى أوسع معانيها، وأنت فى منزلك الذى تدبره كما يدبر الملك أمواله، وأنت تعرف ما يتمثل به الناس فى قولهم : " ما دمت تحت الطيلسان فأنا أقتل السلطان" (*). وجميع هذا يخلصك ويعفيك من كل تورط أو التزام، وبذلك تستطيع أن تقول فى هذا الكتاب كل ما يخطر ببالك، دون خوف من عقاب أو طمع فى ثواب.

ولقد وددت أن أقدم إليك هذه القصة عارية مجردة، دون مقدمة تحليها، ودون فيض متزاحم من مقطوعات شعرية، بين تسبيحات ومأثورات ومدائح، توضع فى أوائل الكتب حسب العادة الجارية؛ ذلك لأننى تعرضت لكثير من العنت والمشقة حين هممت بصنع هذه المقدمة التى تقرؤها بما لم أتعرض لمثله فى تأليف الكتاب نفسه، فلقد أمسكت بالقلم مرارًا كى أكتبها، ثم وضعت القلم؛ لأننى لم أعرف ماذا أكتب. وبينما أنا حائر، والورق أمامى، والقلم فوق أذنى، ومرفقى على الدرج، ومعصمى تحت خدى أفكر فيما أقول، دخل على غير انتظار صديق لى ذكى بارع، فلما رآنى مهمومًا سألنى عن السبب، ولم أخف الأمر عليه، وذكرت له أننى أفكر فى المقدمة التى ينبغى أن أضعها لقصة دون كيخوتى، وأننى فى حرج جعلنى لا أرغب فى كتابتها، بل لا أرغب فى أن أنشر على الناس سيرة فارس نبيل كهذا. "وكيف تريد(**) منى ألا أقع فى الحرج حين يرى المشرع الأزلى الذى نسميه (الجمهور) أننى أخرج إليه الآن بعد غياب سنوات طويلة من الصمت والنسيان، أعرض عليه ثمرة العمر كله، بهذه السيرة الجافة جفاف الخلفاء، البعيدة عن الابتكار، الهزيلة الأسلوب، الفقيرة المعانى، الخالية من التحقيق والإتقان ؟ وماذا

(*) مغزى المثل أن الإنسان بينه وبين نفسه يقول ما يشاء.

(**) يلاحظ أن المؤلف انتقل فجأة من القارئ إلى الزائر فى خطابه دون تمهيد، ويقول رودريجس مارين شارح دون كيخوتى: إن تلك من عادات ثربانتس، فلا حاجة لإضافة عبارة "قلت له" التى وضعت فى بعض نشرات الكتاب.

يقول هذا الجمهور حين يرى سيرتى قد خلت هوامشها من الشروح، وخلا ختامها من التعليقات التى أراها فى الكتب الأخرى، حتى ما كان منها خرافيًا أو علميًا أليست تلك الكتب تمتلئ بعبارات لأرسطو وأفلاطون، وسائر ذلك الرعيل من الفلاسفة، فيعجب بها القراء، وينظرون إلى مؤلفيها نظرتهم إلى رجال العلم والبلاغة والاطلاع الواسع؟ ثم ماذا حين ينقلون نصوصًا من التوراة والإنجيل، أليس يقول الناس إنهم مثل سانت توماس وكبار أئمة الكنيسة علمًا، ويعجبون بعبقريتهم التى ترسم فى سطر صورة لمحب مذهول، وتسجل فى آخر آية دينية، فيصير ذلك متعة للسامع والقارئ؟ وقد افتقر كتابى إلى هذا كله، فليس لدى ما أثبته فى الهوامش أو أقيده فى الخاتمة، ولا أعرف مؤلفين أتبعهم لأثبت - كما يفعل غيرى - أسماءهم فى أول الكتاب، مرتبة حسب حروف الهجاء، تبدأ باسم أرسطو وتنتهى باسم زينوفون وزولوس أو زوكوس(*)، على الرغم من أن أحدهم كان سليط اللسان والآخر كان رسامًا. وفوق ذلك فإن كتابى تنقصه مقطوعات شعرية يصدّر بها، وخاصة تلك التى يحمل ناظموها ألقاب: الدوق، والمركيز، والكونت، والأسقف، أو من يكون ناظموها من السيدات العظيمات والشواعر الشهيرات. ومع كل هذا فلست أجهل أننى لو طلبت منظومات من بعض زملائى لظفرت منهم بما أريد، ولكان نظمهم فى مستوى لا يبلغه أصحاب الأسماء المشهورة فى وطننا إسبانيا !" ثم مضيت قائلاً: " لهذا كله قررت أيها السيد الصديق أن يبقى السيد دون كيخوتى حبيس الوثائق المحفوظة فى لامنشا حتى يهبه الله من يستوفى له كل هذه الحلى التى تنقصنى، فأنا أشعر بعجزى عن استيفائها، لافتقار وسائلى الأدبية وضعفها، ثم لأننى بطبيعتى كسول قليل النشاط، بحيث لا أستطيع السعى جريًا وراء مؤلفين يكتبون لى ما أستطيع أنا أن أكتبه دونهم، ومن هنا جاء التوقف والارتباك الذى تجدنى فيه، ما سمعته الآن يكفى لأن يجعلنى فى هذا الموقف ".

(*) كلها فى الإسبانية على حرف z آخر حروف الهجاء.

وما إن سمع صديقى هذا القول حتى ضرب جبهته بكفه، وانطلق فى ضحك متصل ثم قال لى :

سبحان الله ! لقد كنت خــلال معرفتى الطويلة لك أحسبك دائمًا ذكيًا لبقًا فى كل ما يصدر عنك من أمور، واليوم– أيها الأخ – ينكشف عنى هذا الوهم الخادع، فأدرك أنك من البعد عن هذا بمقدار بعد الأرض عن السماء، وإلا فكيف يمكن لهذه الأمور الهينة اليسيرة الحل أن تشل من هو فى مثل قدرتك ونضجك، ومن هو كفء لتحطيم صعوبات تفوقها؟ أقسم أن هذا لم يجئ من نقص فى الموهبة، وإنما من زيادة فى الكسل، وانقطـــاع عـــن الاسترســـال والانتباه. أو تريد أن تعرف الحق فيما أقول ؟ إذن فأصغ إلى، وانظر كيف أستطيع فى غمضة عين أن أحل كل مشاكلك، وأن أداوى العلل التى تقول إنها أوقفتك، وحالت بينك وبين أن تخرج إلى الناس قصة صاحبك الـــشهير دون كيخوتى، الذى هو المرآة والآية الناصعة للفروسية المشّاءة كلها(*).

فسألته بعد أن سمعت كلامه :

قل، كيف ترى فى ملء الفراغ الذى يخيفنى، وفى إضاءة الظلام الذى أتخبط فيه ؟

فأجابنى قائلاً :

أما عن المنظومات والمأثورات والمدائح التى تنقصك فى أول الكتاب، والتى ينبغى أن تكون صادرة عن شخصيات جليلة شهيرة، فتستطيع علاجها بأن تبـــذل أنت بعض الجهد فى نظمها بنفسك، ثم تسندها بعد ذلك إلى أى الأسمـــاء إن

(*) اختار المرحوم الأهوانى الجوّالة، واستبدلت بها فى ترجمتى المشّاءة.

شئت، إلى (برست خوان) صاحب الهند الغربية، أو إلى إمبراطور ترابسندا، وهما فيما سمعت شاعران كبيران، فإذا لم يكونا كذلك، وطعن عليك بعض الأدعياء وحملة الشهادات، وأعلنوا الشك فى حقيقة هذا الأمر، فلا تقم لهم وزنًا، فإنهم لو أثبتوا عليك الكذب لما قطعت فى هذا الكذب يدك التى تكتب بها.

أما فيما يتصل بما تثبته فى الهوامش من ذكر المؤلفات والمؤلفين الذين تستشهد فى تاريخك بأقوالهم وعباراتهم، فليس إلا أن تعمل على أن تجىء فى مواضعها المناسبة بعض جمل لاتينية تحفظها من قبل، أو تستطيع العثور عليها دون مشقة، فعند الحديث عن الحرية والعبودية مثلاً تستطيع أن تضع:

Non bene pro toto libertas venditur auro [*] وتذكر إزاءها فى الهامش اسم هوراس، أو اسم قائلها. وإذا تحدثت عن سطوة الموت فاستشهد بالقول: [**] Pallida mors aequo pulsat pede pauperum tadernas, Regumque turres، فإذا جاء ذكر الصداقة والحب اللذين أمر الله أن نعامل بهما أعداءنا، فادخل إلى الكتاب المقدس، فلن يكلفك ذلك إلا يسيرًا، واذكر كلام الله نفسه إن شئت: [***] Ego autem dico vobis : diligite Inimicos vestros. فإذا تعرضت لذكر الأفكار الخبيثة فاهرع إلى الإنجيل وانقل[****] De corde exeunt cogitationes male، فإذا جئت إلى ذكر الأصدقاء وقلة وفائهم، فلديك (كاتون) الذى يعطيك شطريه:

(*) معناها: لا يحسن بكم أن تبيعوا حريتكم ولو بذهب الأرض جميعًا.
(**) معناها: إن الموت الشاحب اللون يغزو أكواخ المساكين، كما يقتحم قصور الملوك.
(***) نصها العربى: أما أنا فأقول لكم: أحبوا أعداءكم.
(****) ترجمتها: من القلب تخرج الأفكار الرديئة.

Donec eric felix, multos numerabis amisos,

Tempora si fuerint nubila, Solus eris.(*)

وبهذه اللاتينيات ومثيلاتها ربما عدك الناس إمامًا فى اللغة والنحو، وشـرف الإمامة اللغوية شىء غير يسير، ونفعها غير قليل فى أيامنا هذه.

أما فيما يتصل بوضع تعليقات فى آخر الكتاب، فليس من شك فى أنه أمـر تستطيعه على الوجه التالى: إذا ذكرت أحد العمالقة فى كتابـك فاجعلـه العمـلاق جالوت، وبهذا لا تتكلف شيئًا يذكر، إذ تستطيع أن تقـول: "العمـلاق جـالوت أو جليات كان فلسطينيًا، قتله الملك داود بضربة من حجر ضخم قذفه بـه فـى وادى البُطم، كما ورد ذلك فى كتاب الملوك" فى الفصل المذكور فيه.

وزيادة على ذلك، لكى تثبت أنك عالم بصير بتاريخ البشر، وبوصف العالم، تحين الفرصة بحيث يرد فى كتابك ذكر نهر "تاجو"، فإنك سـتجد أمامـك تعليقـة رائعة هى: "أخذ نهر تاجو اسمه من اسم ملك حكم إسبانيا، وهو ينبع من موضـع كذا، وينتهى فى البحر المحيط، ويلثم الأسوار الشهيرة لمدينة لشبونة، ومعروف أنه يحمل التبر فى رماله ... إلخ"

وإذا تعرضت لذكر اللصوص، فأنا أستطيع أن أقدم لك تـاريخ "كـاكو" الـذى أحفظه عن ظهر قلب، أو لذكر النساء العاهرات، فها هو الأسقف (مندنيـدو) تـستعير منه أخبار "لاميا" أو "لايدا" أو "فلورا"، وكلها اقتباسات تجعلك موضعًا للثقة، أما النـساء القاسيات فعندك أفيدو يهب لك "ميديا"، أما الـساحرات والنفاثـات فـى العقـد فـإن هوميروس لديه " كالبسو"، وفيرجيل لديه "سرس". أما القواد الشجعان، فـإن يوليـوس قيصر يستطيع أن يقدم لك نفسه، و بلوتارخ يقدم آلافًا منهم كالإسكندر. فـإذا تحـدثت

(*) ترجمتها: إذا كنت فى خير وجدت حولك أصدقاء كثيرين، فإذا عبس لك الزمن صرت وحيدًا.

عن الحب فإن أيسر معرفة باللغة التوسكانية تقع بك على ليون العبرى فتغــرف منــه، فإن شئت ألا تضرب فى أرض أجنبية فعندك فى بلدك (فونــسيكا) صــاحب "الحــب الإلهى"، يقدم إليك وإلى كل عبقرى ما يحتاج إليه وما يشتهيه من مادة.

وجملة القول، فليس عليك إلا أن تورد ما استطعت من هذه الأســماء، وأن تشير إلى هذه الكتب التى أخبرتك عنها، ثم اترك لى بعد ذلك أمر وضع الهــوامش والتعليقات، ولك علىَّ عهد الله أن أملأ لك الهوامش، وأسود لك أربع مــلازم فــى آخر الكتاب.

ولنرجع الآن إلى ثبت المؤلفين الذى تشتمل عليه كتب غيرك، ويفتقر إليــه كتابك، وعلاج ذلك فى غاية اليسر، استحضر كتابًا فيه قائمة تضم الأسماء كلها من الألف إلى الياء كما تقول، ثم ضع القائمة نفسها فى كتابك، ولا تلق بالاً لأحــد إذا وضح التزوير بأن كانت تشتمل على كتب لا حاجة إلى الاستشهاد بها فى كتابك . ولعل بعض الناس –رغم ذلك– يعتقد فى بساطة أنك قد استخدمتها كلها فى كتابــك السهل الواضح، ولو لم يكن لهذه القائمة الضخمة من فائدة إلا أنها تــضفى علــى كتابك مظهرًا من الجد لكفى، ثم إنك لن تجد على أى حال من يعنى نفسه بتحقيــق ما استخدمته منها وما لم تستخدمه، وفوق هذا فإننى أرى – إن صح ما أراه – أن كتابك لا يحتاج إلى شىء من كل ما زعمت أنه يحتاج إليه، لأنه من أوله إلى آخره تهجُّم على كتب الفروسية، وهى كتب لم تخطر لأرسطو على بال، ولم يقل شــيئًا عنها سان باسيليو، ولم يدركها شيشرون، ولا محل بين ما فيها من هراء وخرافات لشىء من صدق الحقيقة، أو من أرصاد الفلك، وليست تقيم وزنًا لطرائق الهندســة، ولا للأحكام التى تستخدمها البلاغة، وليس من هدفها أن تعظ أحدًا، إذ إنها تخلــط بين ما هو بشرى وما هو إلهى خلطًا لا يلائم عقلاً مسيحيًا، وكــل مــا ينبغــى أن تحرص عليه هو أن تحسن فن المحاكاة، وعلى قدر هذا الإحــسان يكــون حــسن كتابك. ثم إن كتابك هذا لا يتجه إلا إلى تقويض ما بلغته كتب الفروسية بين الناس

والدهماء من مكانة وسلطان، فما جدوى السعى وراء الفلاسفة والكتب المقدسة تستجديها الأقوال والآيات؟ وما انتفاعك بمنظومات الشعراء وعبارات البلاغيين وكرامات القديسين؟ لكن همك فى أن يخرج أسلوبك سهلاً موحيًا، وألفاظك دقيقة جيدة، وجُمَلك ذات جرس وجمال، وفى أن تحسن تصوير ما تعرض له بكل ما أوتيت من مقدرة. فاعمل على أن تكون أفكارك واضحة لا يشوبها لبس أو غموض، واجتهد أيضًا فى أن تكون قصتك هذه بحيث تضحك الحزين، تزيد الطرب طربًا، وبحيث تجعل الطيب لا يسخط عليها، والعاقل يكبر فنها، والرزين لا يحتقره، والحكيم يستحسنه. وأخيرًا، اجعل نصب عينيك هدم هذا البناء الواهى الأساس من كتب الفروسية التى إن مقتها ناس فقد فتن بها ناس أكثر، فإنك لو بلغت هذه الغاية لبلغت ما ليس بالقليل.

***

فى صمت شامل، كنت أستمع إلى ما يقوله صديقى هذا، ولقد تمكنت من نفسى أقواله تمكنًا جعلنى أقدرها ولا أجادله فيها، وأن أرى زيادة على ذلك أن أضعها بنصها مقدمة لهذا الكتاب، وإنك لتجد فيها أيها القارئ اللطيف عقل صديقى، وترى حسن حظى فى أن وجدت هذا النصيح فى ساعة الحاجة إليه، وتجد بسببها راحتك أنت فى قراءة هذه القصة، فهى قصة تتسم بالصدق والوضوح، وتسرد حياة السيد الشهير دون كيخوتى دى لامانشا، ذلك السيد الذى يعرف عنه سكان أرض (مونتيل) جميعًا أنه كان أكثر المحبين عفة، وأعظم الفرسان شجاعة فى تلك البقاع، منذ سنوات طويلة خلت. ولست أحب أن أبالغ فى فضل تعريفى إياك بهذا الفارس العظيم الشريف، ولكنى أحب أن تشكر لى تعريفى إياك بتابعه الشهير سانشو بانثا، الذى أعتقد أننى جمعت لك فيه كل ما تفرق فى أعداد كتب الفروسية الباطلة من محاسن الأتباع وظرفهم. وأختم داعيًا الله أن يهبك الصحة، وأن يشملنى برحمته، والسلام.

إلى كتاب دون كيخوتى:

أشعار من شعراء وهميين

فى الصفحات التالية أشعار مهداة لهذا الكتاب، ألفها ثربانتس بنفسه تعويضًا (على حد زعمه) عن عدم عثوره على عظيم يقدم لكتابه كعادة العصر، وقد نسب هذه الأشعار إلى شخصيات معروفة فى روايات الفروسية، وأضاف إليها بابيكا فرس (السيد) بطل أول ملحمة إسبانية. ونتحدث الآن سريعًا عن هذه الشخوص حسب ترتيب ورودها:

١ - أورجاندا المجهولة: ساحرة فى أشهر رواية فروسية تحمل اسم أهم بطل لتلك الروايات (أماديس دى جاولا)، وتوصف بالمجهولة لأنها كانت تتحول فى الصور، وتغير من شكلها وكينونتها فتُجهل، وسيظهر اسمها فى روايتنا عددا من المرات؛ وحيث إن السحر ارتبط بالحكمة فى روايات الفروسية، فهى فى هذه القصيدة تقدم نصائح لكتاب ثربانتس فى قصيدة (مبتورة القافية)، من نوع أدبى نشأ فى عصر الكاتب، باعتباره أحد تجليات التأثير العربى الذى قام على اللعب فى شكل القصيدة، وحرصت على إيراد القصيدة قريبة جدًا من الأصل، وعلى القارئ إكمال القوافى المبتورة فى لعبة أراها طريفة.

٢ - أماديس دى جاولا: راجع ما ذكرناه عنه فى (أورجاندا)، ويرد اسمه كثيرًا فى روايتنا، واشتهر بنسل من الفرسان استمر لأجيال، وانتشر فى كل أنحاء المعمورة، وهنا يشير إلى فصل من حياته حاكاه دون كيخوتى باعتباره

تقليدًا من تقاليد الفروسية، بالعزلة فى مكان قصى، والتوبة حتى ترضى عنه المحبوبة، تمامًا كما يفعل المتصوفة عندما تمر بهم حالات القبض (ضد البسط)، وتعنى توقف التجليات الإلهية.

٣ – دون بليانس اليونان: بطل أحد كتب الفروسية فى القرن السادس عشر (ظهرت طبعات الكتاب بين عامى ١٥٤٧ و ١٥٧٩).

٤ – السيدة أورياندا: محبوبة أماديس دى جاولا.

٥ – جاندالين: تم تعريفه فى عنوان القصيدة.

٦ – ألدونوسو: اسم وهمى لواحد من أنصاف الشعراء.

٧ – أورلاندو الضَّارى: بطل قصيدة تحمل اسمه نفسه عنوانًا، ألفها الشاعر "لودوفيكو أوريوستو".

٨ – الفارس ألفيبو: إحدى شخصيات كتاب الفروسية الذى حمل عنوان (مرآة الأمراء والفرسان) لمؤلفه أورتيديث دى كالا بورّا، ١٥٦٢.

٩ – سوليسدان: شخصية يبدو أنها وهمية مثل (ألدونوسو).

إلى كتاب دون كيخوتى دى لامانشا
أورجاندا المجهولة

إذا وصلت إلى فم ملىء بالبثو –

أيها الكتاب الفاحش المحظو –

ولا يقول لك ذو الشدق الواســـ –

أنك لا تحسن وضع الأصابـــ –

وإن تترك خبزك يستو –

سترى نفسك فى يد غير السَّو -

وبين يدى من فى الحما –

لا يرى شيئًا من ثقب الطّا –

ومع ذلك يدعى فى روا –

أنه يعرف كل وردة فى البها –

*

والتجربة خير أستا –

لتتخذ من الشجرة الطيبة الملا –

وإلى بيخر سبيل السلو –

حيث تدعوك شجرة الملو -

التى ثمارها أمراء الذُّو –

حيث نما من نجارها دو –

هو الإسكندر الأكبر الجد ـ

فإلى ظله بعزم من حد –

حيث ينصرك إله الحظ السد –

وتغنى هناك بمغامرا -

ابن لامانشا السيد بين السادا –

الذى بقراءات بطا –

انقلبت منه الرأس والحا –

وحفزته الفروسية والسلاح والسيدا -

إلى ركوب الصعب من المهما- .

ورابط الجأش فى الغراميا –

انتزع دولثينيا من بين التوبوسيا –

مثل أورلاندو الضّارى القسما –

بقوة الساعد ذى العضلا –.

*

ولا تطبع على صفحة الدر –

شعارا متغطرس الصنـــ –

فكلما زدت من صور التهاو –

راهنت على الساخر من التأو –

وإذا تواضعت فى المقاصـــ –

قطع لسان الساخر والناقـــ –

ولن يقول من هذا فارس قمرالد –(*)

هل هو هانيبال قرطا –

وأى ملك فرنسيسكو بإسْبَانـ –

الجميع يشكو الحظ والُدنــــ –

والسماء لا تبارك وتر –

من يخرج محتالاً يســـ –

مثل خوان لا تينو الأسو –

وأرفض التشدق باللاتينية لاترد –

وبالذكاء لا تَصِفْـــ

وبالفلسفة لا تفتح حنكـــ –

حتى لا يلوى أحدهم شفتـــ –

ويقول عن علم لد –

وابتسامة ترتسم بين أذن –

لا تضحك بالنفاق علـــ –

واترك الفضول بين يد –

وحياة الغير لا تطرقـــ –

ومن الكياسة أن تتركـــ –

وكل (اللى لا يودى ولا يجيب)

وأذى الناس لا تتركـــ –

(*) فارس قمر الدجنة هو تعريب لاسم دون البارو دى لونا، وكان هو وهانيبال وفرنسيسكو شخصيات تاريخية سيئة الحظ.

واتركه للمازح الشغـــ –

حتى لا تحرق نفسك باللهـــ –

ومن يسعى لينال السمعة الطيبـــ –

عليه ألا يطبع سخافاته الخائبـــ –

فينال اللوم والنظرات المؤنبـــ –

ومن الطيش والخيبـــ –

أن يكون من زجاج بيتـــ –

وتمسك بالحجارة يد –

وترمى بها بيت جار لـــ –

ودع الرجل العاقل اللبى –

إذا ألف للناس كأدى –

أن يفعل بحذر عجى –

والذى تخرج للناس أوراقـــ –

كى تسلى النساء ما قالت أشداقـــ –

فإنه لا يكتب إلا الجنون وإملاقـــ –

من أماديس دى جاولا
إلى دون كيخوتى دى لامانشا

أنت يا من قمت بمحاكاة الحياة الدّامعة
التى عشتها مهجورًا ومغضوبًا عليه
على المنحدر العظيم للصخرة الفقيرة
ومع ذلك، سعيدًا بالخلوة لجهاد النفس

*

أنت يا من أعطتك عيناك الشراب
فملأت كنوسك بفيضها المالح
وحرمت نفسك من الفضة والقصدير والنحاس
لتمنحك الأرض من غذائها التراب

*

عش مطمئنا إلى أبد الآبدين
وخلا ذلك، لا أقل من السماء الرابعة
مسرحًا تصير لجيادك تسابق أبولو الأشقر

*

وسوف تحمل فى شفافية لقب الشجاع
ومهما ابتعدت بك السماء فوطنك الأول
لم يزل لك الوطن، ومؤلفك الحكيم وحيدًا وفريدًا

من بلياتس اليونان
إلى دون كيخوتى دى لامانشا

حطمت، وقطعت، ودمرت، وقلت، وفعلت
أكثر من أى فارس مشّاء على سطح الكوكب
كنت قويًا، كنت شجاعًا، كنت متغطرسًا
وثأرت لألف عدوان، وأزلت منها مائة ألف

*

أنا منحت الشهرة مآثر الخلود
وكنت عاشقا مهذبًا ومدللاً
وكان كل مارد عندى قزمًا
وكل تحدٍّ فى كل الأوقات أهلاً

*

وحنكتى من ناصية الرأس
قلبت لعبة الحظ لصالحى

*

ومع أن حظى تسنم دائمًا
فوق قرن القمر فى مطلعه
فقد حسد أمجادك، أوه، أيها الكيخوتى العظيم !

من جاندالين خادم دروع أماديس دى جاولا

إلى سانشو باثنا خادم دروع دون كيخوتى

سونيتا

سلمت أيها الفتى المشهور، يا من وضعه إله الحظ،

فى عمل حمل الدروع،

فقمت به بيسر وحنكة،

وختمته دون هفوة

*

الفأس والمنجل قليلاً ما يحولان

دون الممارسة المشّاءة، والتى بها اتهم

ذلك المغرور (فيك) الذى يحاول وطء القمر.

أحسد حمارك، واسمك

تمامًا مثلما أحسد خرجك

فكلها أظهرت براعة سماوية لحصافتك

*

مرة أخرى سلمت، أوه سانشو، أيها الرجل الطيب،

وفقط لك، اوبيديو إسبانيينا،

دون غيرك، يكن التعظيم والاحترام

بفتح رأسك عند تقبيل يده للسلام !

من ألدونوسو، شاعر مُشوَّش، إلى سانشو باثنا، وروثينانتى

أنا سانشو باثنا حامل درو –

– المانشاوى دون كيخو –

– عفّرت قدم –

– حتى أعيش فطنة السلا –

– مثل بيّادييجو فى صمت دون كلا –

- كسبب لوجوده يهرب فى سلا -

– وكان مرّة فى هروبـــ –

– قد سجل إحساس ثلثتينا القواد –

– وفى رأيى إنه كتاب سماو –

– لوغطى أكثر الجسم الآدمـــ –

إلى روثينانتى

– أنا روثينانتى نار على علـــ –

– حفيد بابيكا العظيم جواد السّى –

– لآثام نحا فتـــ –

- صرت تحت سلطة دون كيخوتـــ -

– أكسب السباق مع أبناء جلدتـــ –

لكن لهذا لا تفوتنى حبة شعـــ -

التقطها ولو بظفرى الخطـــ -

تعلمت هذا من لاثاريّو الماكـــ -

حتى يمتلئ بالنبيذ الفاخـــ -

شربه من وراء الأعمى بأنبوب نبات شعـــ - (*)

(*) يشير إلى بطل رواية كان يخدع سيده الأعمى ويشرب النبيذ أثناء شرب سيده له، بأنبوب من قصب الشعير، دون أن يحس سيده، أثناء شربه أيضًا بنفس الطريقة التى علمها له خادمه المحتال لاثاريّو.

من أورلاندو الغضوب إلى دون كيخوتى
دى لامانشا

وإن لم تكن من أزواج فونسا فليس لك ثان
وإن كنت وحيدًا فبين ألف من الأزواج الوحيد
وما كان أحدهم قادرًا أن يصل حيث أنت
الغالب دون استثناء غير المغلوب

*

أورلاندو أنا كيخوتى ! من أجل أنخليكا
همت فى بحار بعيدة
مقدمًا لإله الشهرة فى معبد حبها قرابين
من الشجاعة التى احترمها النسيان

*

ومع ذلك فلست قادرًا أن أساويك
إلا فى الجنون رفيق وقائعك وشهرتك
حيث مثلى فقدت العقل والأمخاخ

*

لكن ستكون مثلى إن روضت
العربى وابن (ثيتا) الغضوب

الذى يصفنا اليوم بالنظائر
فى الحب التعيس الوقائع

من الفارس ألفيبو إلى دون كيخوتى دى لامانشا

سونيتا

لم يتعادل مع سيفك سيفى

أيها الفيبو الإسبانى والأرستقراطى الفضولى

ولا وصلت قوة يدى إلى المجد السامى ليدك

أى شعاع كان حيث يولد اليوم ويموت

*

تضاءلت عندى الإمبراطوريات المَلكيَّة

والتى تعب (الشرق) الأحمر فى عرضها علىَّ

وتركتها حتى أرى الوجه الملكى

لكلاريديانا فجرى صاحب الحسن

*

أحببتها فى معجزة وحيدة ونادرة

يتضاءل أمام غضبها الجحيم

الذى يرهب ساعدى لأنه روَّض غضبه

*

لكنكم أنت ابن الأصول كيخوتى المضىء الشفاف

بدولثينيا صرت الخلود

وهى بك صارت المشهورة الشريفة الحكيمة

من سوليسدان إلى

دون كيخوتى دى لامانشا

سونيتا

مع أنك ياسيد كيخوتى لك عقل مسكوب

مملوء بالسفاهات

فلن تنال التوبيخ من أحد

كإنسان ذى أعمال بلهاء وتافهة

*

سوف تسير مآثرك فى الفضاء

فكم سعيت فى إزالة المظالم

متلقيًا ألف "علقة" بالنبابيت

على يد أسرى أشرار أو من أناس تافهين

*

وإذا سيدتك الجميلة دولثينيا

كانت قد ارتكبت ضدك الجحود

ولم تقابل همومك بحسن اللقاء

*

فلتكن التسلية والعزاء فى هذا الإصر

أن سانشو بانثا كان قوادًا

تافهًا هو وقاسية هى وأنت غير عاشق

من السيدة أوريانا
إلى دولثينيا دل توبوسو
سونيتا

أوه، دولثينيا الجميلة يا من ملكت
بأكثر الراحة وأعلى الرزانة
قلعتى ميرافلورس(*) فى نفس التوبوسو
فهل تقايضينى لندن بقريتك؟

*

أوه، من برغباتك وريا شك
نفسًا وجسمًا يتزين وبالفارس
الشهير الذى أسعدت يتعشق
يبحث عن معركة ليس لها بكفء!

*

أوه، من كان يهرب بطهارة
من السيد أماديس كما فعلت
مع الشريف المهذب دون كيخوتى !

*

أوه، هكذا كنت أصير محسودة لا حاسدة
وسعيدة طوال الوقت الذى حزنته
وأتمتع بالمسرات دون شائبة

(*) اسم قلعة قريبة من لندن حيث كانت السيدة أوريانا تعيش.

حوار بين بابيكا وروثينانتى

ب : كيف أنت بمثل هذه النحافة، روثينانتى؟

ر : عمل كثير وطعام قليل.

ب : إذن، ماذا عن الشعير؟ وماذا عن التبن؟

ر : لا يترك لى سيدى منها، ولو (مَلْوَ بق !)

ب : (إخْص عليك!) عديم التربية، فلسانك كحمار يتجرأ على سيده بالتجريح.

ر : والحمار يظل الحمار من المهد إلى الأكفان، تودين مشاهدة ذلك ؟ انظــرى لــه عاشقًا .

ب : هل الحب (حَمْرَنَة)؟

ر : ليس من الكياسة، على الأقل.

ب : هل أنت ميتافيزيقى؟

ر : المسألة أننى لا آكل.

ب : هل تشكو من خادم الدروع؟

ر : ليس بما يكفى، لكن كيف لا أشكو من عذاباتى، إذا كان السيد وخادمه (أو كبير خدمه) خيول عمل مسكينة الأصل تمامًا مثل روثينانتى؟

الفصل الأول
عبارة عن ظروف هذا الشريف المشهور
دون كيخوتى اللامنشاوى

منذ وقت قريب، كان يعيش فى قرية من قرى لا مانشا- لا أود ذكر اسمها- شريف من الأعيان ذوى رماح المستودعات والدروع القديمة والجياد العويلة، وكلاب الصيد العداءة. القدر فى المطبخ يألف لحم البقر الخشن أكثر من لحم الضأن الطَّرِى، ومسقعة من لحم البقر المفروم بالملح والخل والبصل فى معظم الليالى، وذلك مع عجة بالبيض وحلويات الحيوان أيام السبت والعدس أيام الجمع، وأفراخ يمام - فوق ما سبق- أيام الآحاد. كان هذا الطعام يستهلك ثلاثة أرباع دخله، والباقى كان يستهلك فى الملابس من عباءة وسراويل قطيفة لأيام الأعياد بجانب البنتوفلو المستخدم فى نفس الغرض، أما باقى أيام الأسبوع فكان يتباهى بثوبه الرقيق الحاشية. وكان عنده أمة (ربة بيت) فى بيته تجاوزت الأربعين، وابنة أخت لم تبلغ العشرين، وصبى خادم فى البيت والغيط، ويعد له الحصان للركوب ويهذب الأشجار. يقارب عمر شريفنا العين الخمسين(*)، طبيعته جارفة، جاف الجسم، يابس الوجه، ممن يسهرون الليالى، ويعشقون الصيد. ويودون القول إنه كان يكنى باسم "كيخادا"(**) أو "كيسادا"(**)، وفى هذا بعض الخلاف بين المؤلفين الذين يكتبون عنه، لكن مع الاحتمالات التى يفتحها التكهن يمكن أن يترك للفهم إنه كان يسمى "كيخانا" (**).

(*) عين مفرد أعيان، والترجمة الحرفية للكلمة "ابن عز"، واخترنا كلمة شريف بمعنى عين.

(**) يمكن استبدال أسماء عربية بهذه الأسماء طبقًا لأسلوب المؤلف الساخر، ومنهج بطل هذه القصة فى الأسماء كالآتى: عصيدة، مهلبية. دلالات مطبخية أو لا معنى لها على الإطلاق، غير أصالة دون كيخوتى الذى يحاول أن يجمع بين أحوال الأشياء القديمة والمستجدة معًا فى تشكيل الأسماء والألقاب.

لا يهم-على العموم- ذلك فى الكثير أو فى القليل حكايتنا: فخلال قصها لن تخرج أبدا عن مجرى الحقيقة.

من ثم، فلتعرف أن العين السالف الذكر، خلال أوقات فراغه (وهى تشغل معظم أيام السنة) كان يكرس نفسه لقراءة كتب الفروسية(*)، بكل مزاج واستهواء، حتى إنه نسى ممارسة الصيد من كل اتجاه، كما نسى إدارة أملاكه، وبلغ تشوفه وهوسه فى هذا الكثير لدرجة أن باع كثيرًا من القراريط من أرض البذر؛ كى يشترى كتب الفروسية التى يقرأها، وهكذا أحضر إلى بيته أكبر قدر استطاع الحصول عليه منها. ولم يبد له من بينها أفضل من تلك الكتب التى ألفها فليثيانو دى سيلبا الكاتب المشهور، بسبب نصاعة نثره، وتشابك حججه التى تشبه الجواهر، وأكثر من ذلك عندما يصل إلى قراءة تلك الحركات للكر والفر، وخطابات التحدى، أو حيث كان يجد مكتوبًا فى صفحات كثيرة: "عقل دون العقل الذى يصير العقل بى، حتى إن العقل منى يضعف، فمن العقل أن أشكو حلاوتكم أيها المحبوب". وأيضًا عندما كان يقرأ: السماوات السامية لسماويتكم سماويًا مع النجوم تدعم قلاع سماك، وتجعلك جديرة بالجدارة التى بها عظمتكم جديرة".

لهذه الأسباب فقد الفارس البائس عقله، وكان يسهر الليالى لفهم تلك العبارات وتفريغ ما فى أحشائها من معنى، ما كان لأرسطو نفسه من سبيل لتفريغه

(*) كتب الفروسية عبارة عن روايات خيالية تقوم على الوهم والعجائبية، أى تتحدث عن وقائع مستحيلة الحدوث تقع أو يقوم بها فرسان لهم قدرات مذهلة، الواحد منهم قادر على هزيمة جيش أو محاربة مارد فى سهولة وجبروت، وذلك بإلهام محبوبة معبودة وقاسية. يصلون بقوة ساعدهم إلى حكم الممالك والإمبراطوريات، ولكل فارس خادم حامل لدروعه.أفسدت هذه الروايات عقول العامة بالتخاريف والعيش فى الوهم، أسماء فرسان هذه الروايات وخدمهم وخيولهم وجمهرة من السحرة تملأ رواية دون كيخوتى الذى حاكاهم بطلها فى سيرهم فى الأرض بحثًا عن المغامرات الخارقة، وثربانتس فى روايته دون كيخوتى يسخر من هذه الروايات الوهمية، ويحاول شفاء العامة من جنون سمومها الذى أصاب بطل روايته بالجنون.

وفهمه، حتى لو بعث خصيصًا من أجل ذلك. ولم تطب نفسه بجروح كان يـصاب بها دون بليانس ويصيب بها الآخرين، لأنه كان يتخيل أن الأطبـاء الـذين كـانوا يشفون جراحه مهما كانوا أعظم الأساتذة فى الطب، فإنهم لن يتركـوا جـسمه إلا مليئًا بالندوب والعلامات، لكن مع كل هذا كان يحمد لمؤلف القصة الوعد، مع تلك المغامرة التى لا تنتهى، بمواصلة سردها بعد هذا الكتاب حتى النهاية، وفى مـرات كثيرة كان يمر على خاطره الرغبة فى الإمساك بالريشة وكتابتها كمـا لـو كـان الكاتب نفسه يكتبها حسب وعده، ومما لا شك فيه أنه كان قادرًا علـى ذلـك فـى إنجاز، لو لم تعفه تفاكير كبرى ومستمرة. فقد دخل فى مناظرات عدة مرات مـع قسيس قريته (كان رجلاً علامة تخرج من جويمعة ثيجوينثا) حول من هو الفارس الأفضل: بالميرين إنجلترا أم أماديس دى جاولا، لكن الأسطى نيكولاس حلاق نفس القرية، كان يقول إن أى فارس لا يعدل ديل فيبو، وإذا كان أحد يمكن مقارنته بـه فهو دون جالاور، شقيق أماديس دى جاولا، لأنه توافرت فيه مستقرة كل الشروط لكل شيء، فلم يكن فارسًا متصنع الدلال ولا كثير البكاء مثل أخيه، وفيمـا يتعلـق بالجسارة فلم يكن قط فى مؤخرة القوم.

وفى كلمة قاطعة، عبأ نفسه فى قراءته تعبئة حتى كانت تمر عليه لياليه من الصباح حتى الصباح، وأيامه من الغسق إلى الشفق دون توقف عن القراءة، وهكذا من قلة النوم وكثرة القراءة جف منه المخ، حتى إنه مضى يفقد التمييـز، وامـتلأ بفانتازيا كل ما كان يقرأ فـى الكتـب، مـن سـحر المـشاجرات، والمعـارك، والمبارزات، والجروح، والمغازلات، وقصص الغـرام، والعواصـف، والهـذيان المستحيل، بهذه الطريقة استقر فى خياله أنها حقيقة كل تلك الآلة لهذه الطنطنة التى هى من صنع الأحلام، وهذا اللون من مخترعات ما يقرأ حتى إنه بالنسبة له، لـم تكن هناك تواريخ أكثر يقينا فى العالم إلا ما يقرأه فى تلك الكتب. وكان يقـول إن

السيِّد روى دياس كان فارسًا ممتازًا، ولكنه لم يبلغ مرتبة "الفارس ذى السيف المحمى"، الذى بضربة واحدة شطر ماردين متوحشين فى هول. وكان هواه مع برناردو ديل كاربيو، لأنه فى رونسفال قتل رودان المسحور، كما قدر صنعة هرقل عندما خنق أنتيو، ابن الإلهة الأرض، بين ذراعيه. وكان يتحدث عن محاسن المارد مورجانتى، فمع كونه من ذلك الجيل من العمالقة، الذين كانوا جميعًا فى غاية البذاءة والجفاء، خرج وحده بشوشا حسن التربية. لكن، فوق الجميع، كان حسن الظن فى رينالدوس دى مونتالبان، وخاصة عندما سرق فى مغامرة بحرية صنما لمحمد كان كله من الذهب حسبما تقول الرواية. ولله دره حينما عاون ببعض الركلات للخائن جالالون، ولخادمته، بل لابنة أخيه باعتبارها صدقة.

بالفعل، بعقل فقد التمييز أخذ فى الولوج إلى أكثر أنواع التفكير غرابة، مما لم يفعل مجنون فى العالم قط من قبل، وظهر له أنه من المناسب، والضرورى لرفع شأن شرفه، وخدمة جمهورية أفلاطونياته، أن يصير "فارسًا مشّاء"، ويذهب إلى كل مكان فى العالم بأسلحته وجواده بحثًا عن المغامرات، وممارسة كل ذلك الذى سبق له قراءته مما يمارسه المشاءون، كاشفًا كل نوع من أنواع الضر، ملقيًا بنفسه فى الأحداث والمخاطر، إذ عندما ينفض منها سوف يقبض فى المقابل الاسم الخالد والشهرة. كان يتخيل المسكين بأنه قد تم تتويجه بالقيمة التى يمثلها ذراعه، على الأقل ملكًا فى إمبراطورية "ترابيسوندا"، وهكذا بتلك التفاكير اللذيذة، وغارقًا فى الانبساط الذى يحسه فيها، أسرع إلى تحويل ما كان يرغب فيه إلى فعل. وأول ما فعل كان تنظيف أسلحة تركها أجداد أجداده، مهملة صدئة لقرون طويلة فى أحد الأركان. نظفها، وعدل فيها بأفضل ما استطاع، لكنه رأى نقصًا عظيمًا حيث لم تكن تضم خوذة بتطريزها كاملاً، لكن نفخ من فنّه فيها الروح، فبورق من الكرتون صنع نوعًا ما نصف خوذة أعلى، ولبَّسه بالخوذة القديمة، فبدت مثل خوذة كاملة.

وفى الحقيقة، حتى يثبت أنها كانت قوية، ويمكنها الثبات فى المخاطر أمام ضربات السيوف، أخرج سيفه، وضربها ضربتين، وفى أول ضربة، فى لحظة ضاع جهد أسبوع مما فعل فى إصلاحها، ولم يترك نفسه تيأس للسهولة التى طاحت بها فى نثار، ولكى يؤمن نفسه من هذا الخطر، عاد لعملها من جديد، وأضاف إليها من الداخل بعض قضبان من الحديد، وبهذه الطريقة أمسى راضيًا عن قوة مقاومتها، دون الرغبة فى إعادة التجربة عليها، وفوضها لحماية رأسه، ورأى فيها خوذة أكثر من دقيقة الصنع كاملته.

عند ذلك، ذهب للبحث عن جواده، ومع أنه كان منحولاً فى أصالة الشعر المنحول ومبقعًا مثل شطرنج جواد المهرج الإيطالى جونيلا، ويطل عظمه من جلده، فقد بدا له أن لا جواد الإسكندر الأكبر المسمى بوسيفيلا ولا جواد البطل الملحمى السِّيد" يتساوى به. مرت عليه أيام أربعة وهو يفكر أى اسم يطلقه عليه، لأنه (طبقًا لما كان يقول لنفسه) لا يوجد سبب أن يكون جواد فارس بهذه الشهرة والامتياز مثله، بدون اسم معروف. وهكذا سعى إلى أن يستقر على اسم له، يعلن عن حال الحصان من قبل، ومن بعد أن غير صاحبه وصار لفارس مشاء، (وهذا ما صار هو إليه)، ومن ثم أصبح معقولاً جدًّا، بعد أن غير سيده حاله، أن يغير أيضًا من اسمه، لينال المكان المشهور والدوى، كما يتناسب مع النظام الجديد، والممارسة الجديدة التى التحق بها هذا الصاحب، وهكذا بعد الأسماء الكثيرة التى صنعها، وشطبها، وهجرها، وأضافها، وتخلص منها، أعاد بناءها فى ذاكرته، وخياله، وفى النهاية وصل إلى تسميته "روثينانتى"، اسم- فى نظره - رنان شديد الإيقاع، كبير المغزى، يتضمن ما كان عليه من قبل "روثين"، وما هو عليه حاله الآن: أول روثين بين كل روثينات العالم(*). منتهيًا من وضع اسم-على تمام

(*) روثين ROCIN جواد عديم النبالة، يستخدم للعمل، وأيضا حجمه أقل من حجم الجواد النبيل.

مزاجه- لجواده أحب أن يضع اسمًا لنفسه، وفى التفكير بهذا أمضى ثمانيـــة أيـــام، وفى النهاية وصل إلى تسمية نفسه "دون كيخوتى"، وهذا الاسم الجديد "كيخـــوتى"- دون شك وكما سبق القول - وراء ترجيح مؤلفى هذه القصة الحقيقية لاسمه القديم (كيخادا) على الاسم (كيسادا). لكن، متذكرين الجسور أماديس، لم يكتـــف بتـــسمية نفسه أماديس دون زخرفة، بل أضاف اسم مملكته ووطنـــه، وســـمى أمـــاديس دى جاولا، هكذا أحب، بوصفه فارسًا رفيع المقام أن يضيف إلى اسمه، فتـــسمى "دون كيخوتي" دى لا مانشا، وبهذا- فيما يرى- كان يعلن على الملأ سلـــساله ووطنـــه، ويكرم هذا الوطن بأن يأخذ منه بقية اسمه.

بعد أن تم له تنظيف أسلحته، وتحويل نصف الخوذة إلى خوذة، وإعطاء اسم للحصان، ولنفسه، وصل إلى فهمه أنه لم يعد ينقصه شـــيء إلا ســـيدة يقـــع فـــى غرامها، لأن الفارس المشاء دون غراميات يكون كشجرة من غير أوراق، ومـــن غير ثمر، وجسمًا من غير روح. كان يقول لنفسه: أنا، لو لسوء آثامى أو لحـــسن حظى، لو ألتقى هناك بأحد المردة - كما يحدث عادة للفرسان المـــشائين- فأوقعـــه مهزومًا فى مبارزة، أو أشق جسمه إلى شطرين، أو فى النهايـــة أتغلـــب عليـــه، وأجعله يستسلم لى. أليس معنى ذلك أننى أمتلك رسولاً أبعثه معتمـــدًا منـــى، كـــى يدخل ويسجد على ركبتيه أمام سيدتى الحلوة، ليقول لها بصوت مستسلم ومتواضع: "أنا يا سيدتى كارا كاليامبرو، سيد جزيرة مالييندرانيا، من هزمه فى معركة فريـــدة الفارس المحمود الثناء كما لم يثن على فارس قط، دون كيخـــوتى دى لا مانـــشا، الذى أرسلنى كى أقدم نفسى أمام سماحتكم، حتى أكون فى خدمة عظمتكم طبقًا لما شئتم؟ أوه! كم انبسطت أسارير فارسنا عندما أنهى هذا الخطاب! وأكثر عندما وجد من يمنحها اسم سيدته! وطبقًا لما يظنونه، كانت تعيش فى قرية قريبة من قريتـــه، صبية تفلح الأرض، ذات حسن وبهاء، قد وقع فى غرامها بعض الوقت، وحـــسب

فهمه، هى لم تعرف بحبه لها قط، ولم تتذوق له طعمًا. كانت تسمى ألدونثا لورينثو، وقد حلى له أن يعطيها لقب سيدة أفكاره، وصانعًا لها اسمًا لا يبتعد كثيرًا عن اسمها، يرنو إلى اسم أميرة أو سيدة عظيمة ويبلغه، إذ سماها "دولثينيا دل توبوسو"، لأنها كانت من أهل توبوسو، اسم – حسب رؤاه – موسيقى سريع الذيوع، له مغزى، ككل اسم وضعه لنفسه ولكل أشيائه.

الفصل الثانى
عبارة عن أول خروج
للعبقرى دون كيخوتى من قريته

بعد تمام اتخاذ كل تلك التجهيزات لم يحب الانتظار وقتًا أطول لكى يحـول إلى فعل ما كان من تفاكير، وقد وقع تحت ضغط إحساسه بالفراغ الـذى يعانيـه العالم لتأخره فى الخروج لمّا كانت هناك مثالب يفكر فى إزالتها، والتواءات للعـدل عليه عدلها، ولا معقول يحتاج للتعقيل، وتسلط للتلطيف، وديون للسداد. وهكذا دون إخطار لأحد، ودون أن يراه أحد، فى صباح قبل أن تشرق الشمس، فى يـوم مـن أيام يولية الحارة، تسلح بكل أسلحته، وامتطى روثينانتى، وارتدى خوذتـه سـيئة التركيب، واحتضن بصدره درعه، وامتشق رمحه، ومن الباب المزيـف لإحـدى الحظائر خرج إلى الفضاء الريفى، برضا بالغ الاتساع وقصف للبهجة، من رؤيتـه بداية تنفيذ رغبته النبيلة بكل سهولة. لكن لم يكد يرى نفسه فى فضاء الريف حتـى وثبت عليه أفكار رهيبة، ومن ثم كاد ينصرف عن مشروعه الذى لم يبدأ، وكان أن مر على ذاكرته أنه لم يكن فارسًا منصبًا، وطبقًا لقانون الفروسية ليس مـن حقـه القتال مع أى فارس، وحتى لو كان فارسًا فعليه حمل الـسلاح الأبـيض فحـسب، باعتباره فارسًا مستجدًّا دون شعار على الدرع، ذلك الشعار الذى عليـه الانتظـار حتى يكتسبه بجهده. هذه التفاكير جعلته يتردد فى تحقيق هدفه، لكن بتمكن جنونـه أكثر، اقترح على نفسه أن ينصبه فارسًا أول شخص يـصادفه، محاكيًـا فرسـانًا كثيرين فعلوا نفس الشىء حسبما قرأ فى الكتب التى كان يجلبها لبيته. وفيما يتعلق

بحكاية السلاح الأبيض، فكر فى أن ينظف أسلحته بطريقة عندما يتم إنجازها ستصير كلها بيضاء ناصعة البياض كفروة الدب القطبى(*)، وبهذا هدأ باله وتابع طريقه، دون أن يغيره بطريق آخر إلا حسبما شاء معتقدًا أن فى هذا تكمن قوة المغامرات.

منطلقًا فى طريقه مغامرنا الجديد مكلمًا نفسه قائلاً: فى الأزمنة الآتية عندما تخرج إلى النور قصتى الحقيقية التى تحكى أفعالى الذائعة الصيت، فمن يشك فى أن الحكيم الذى سوف يكتبها، عندما يصل إلى قص هذا الخروج الأول الشديد التبكير فى الصباح، هذا الصباح، لن يكتب هذه السطور؟: "لم يكد أبولو الأشقر فى حمرة ينشر على وجه الأرض المنبسطة الواسعة فتائل شعره الجميل، ولم تكد تبدأ العصيفورات الملونة عزف رباب ألسنتها فى تحية بهرمونية عذبة، ترحب خلالها بقدوم غادة الغسق الوردى التى غادرت سريرها النضر للزوج الغيور عبر أبواب وبلكونات أفق لامانشا نحو الفانين لاستعراض جمالها، عندما كان الفارس المشهور دون كيخوتى دى لامانشا يغادر ريش الكتابة الكسولة، وقد صعد فوق الجواد الشهير روثينانتى، وبدأ السير مخترقًا الحقول القديمة والمعروفة لمونتييل". وكان فى الحقيقة يعبر تلك الحقول، وأضاف قائلاً: "سعيد ذلك الدهر والزمان، وسعيد ذلك المكان حيث ستخرج إلى النور محاسن أعمالى الشهيرة، الجديرة بالنقش على البرونز، والنحت على المرمر، والرسم على الألواح، من أجل ذاكرة القابل من الأيام. أوه، أنت، أيها الحكيم الساحر، تكن من تكون، من سيكون من نصيبك أن تصير الراوى المسجل لهذه القصة ذات التاريخ الطائر فى الآفاق. أتوسل إليك ألا تنسى روثينانتى صديقى الأبدى فى كل طريق لى وسبيل". ثم عاد للكلام كما لو

(*) السخرية هنا من فهم دون كيخوتى للسلاح الأبيض، ويقصد به سلاح العامة الذى يخلو من اسم الفارس والجهة التى ينتمى إليها، وشعاره، وقد فهم من البياض اللون لا الخلو من الأشياء المذكورة.

كان بالفعل عاشقًا: "أوه أميرتى دولثينيا، سيدة هذا القلب الأسير. كم حزنًا كنتِ أنت فيه السبب، عندما صرفتنى عنك ملومًا محسورًا، مع الإصرار الصارم على نفيــى فلا أظهر بين يدى جمالك الفتان؟ أصلى لكم سيدتى أن تذكرينى، قلبًا هو ملك لكم، يعانى عذابات كثيرة بحبكم".

مع هذا سار ينثر هذه الترهات، كلها على نفس الطريقة التــى علمتهــا لــه كتبه، محاكيًا بقدر ما ساعدته لهجته اللغوية. مع هذا سار بطيئًا بينما تدخل الشمس متسارعة وبضرام كبير، كان كافيًا أن يسيل الرءوس لو كان بقى له شىء منها.

تقريبًا، سار كل ذلك اليوم دون أن يحدث له شىء يستحق أن يحكــى، ممــا أثار يأسه؛ لأنه ود أن يصادفه العجل، العجل من يجرب معــه شــجاعة ذراعــه القوى. بعض الرواة المؤلفين يقولون إن أول مغامرة هبطت عليه كانــت مغــامرة ميناء لابيثى، وآخرون غيرهم يقولون إنها كانت مغامرة طواحين الرياح، لكن الذى استطعت تحريه فى هذه الحالة، والذى وجدته مكتوبًا فى تقارير لامانشا السنوية أنه سار طول ذلك اليوم، وعند إمساء الليل، أمسى هو وروثينانتى تعبانين، و"ميتــين" من الجوع، وأنه ناظر فى كل ناحية بحثًا عن أى بيت أو أى حظيرة لرعاة؛ حيــث ينامان ليلتهما، وحيث كان يمكن علاج جوعهما الكبير، وقــضاء حاجتهمــا، رأى ليس بعيدًا عن الطريق الذى كان يسلكه نزلاً، يبدو على البعد مثل نجمة، فاتجه إليه ليس إلى أبوابه، وإنما إلى قلاعه التى كانت له قلاع الخلاص.

كان بالصدفة على الباب امرأتان صبيتان، من النساء اللائى كن نساء بحق، وكانتا تتجهان إلى إشبيلية مع بعض البغالين، الذين قرروا قضاء تلك الليلــة فــى النزل، ولما كان مغامرنا كل ما كان يفكر أو يرى أو يتخيل، يبدو له واقعًا يحــدث على الطريقة التى سبق له قراءتها، فإنه بمجرد أن رأى النزل تمثل له قلعــة لهــا أربعة أبراج وأعمدة من فضة براقة، دون أن ينقص القلعة تلك القنطرة المتحركــة

والقبو العميق، وكل ما يضاف إلى ذلك مما يشبه تلك القلاع المرسومة فى الكتب. كان يصل مقتربا من النزل الذى بدا له قلعة، وعلى قرب منه أوقف عنان روثينانتى، منتظرًا أن يشرع أحد الأقزام من بين الأسوار فى نفخ البوق كى يعطى إشارة بوصول الفارس إلى القلعة. ولكنه عندما رأى أنهم قد تأخروا، وكان روثينانتى متعجلاً للوصول إلى الحظيرة، تحرك نحو القلعة، ورأى الفتاتين اللاهيتين اللتين كانتا هناك، وقد ظهرتا له باعتبارهما وصيفتى استقبال وسيمتين أو سيدتين طريفتين أمام باب القلعة تتمالحان. خلال ذلك حدث أن راعى خنازير كان يمضى ململمًا قطيعًا من الخنازير (دون اعتذار، فهكذا كانت تسمى تلك الحيوانات). نفخ فى بوق على إشارة صوته تتجمع حيواناته، وفى الحال تمثل لدون كيخوتى ما كان يرغب، من أن أحد الأقزام أطلق الإشارة إلى القلعة بوصوله، وهكذا برضا غريب وصل إلى النزل. بالنسبة للسيدتين، كما رأتا وصول رجل بهذا الحظ من السلاح، ومعه رمح وعليه درع، اتجهتا للدخول وقد ملأهما الخوف، لكن دون كيخوتى، مفسرًا هربهما بالخوف، نزع قناع خوذته الورقى عن وجهه الجاف المغبر، مع نية طيبة وصوت مطمئن، قال لهما:

– **فخامتكما لا تهربا، ولا تخشيا أى سوء، فإن نظام الفروسية الذى ألتحق به يأمر بألا أمس أحدًا بسوء، فما بالكما بوصيفتين كما ينم مظهركما.**

كانت الفتاتان تنظران إليه بعيون تفتش عن وجهه، الذى مازال قناع الخوذة الرديئة يغطيه، لكن سمعاه يسميهما وصيفتين، أمر بعيد عن مهنتهما، لم يستطيعا كتم الضحك، وبطريقة جعلت دون كيخوتى يشعر بالخزى، ويقول لهما:

– **إن الاتزان فضيلة الحسناوات، وإن الضحك لأسباب هينة سفاهة، ولا أقول ذلك لكما حتى أخفض روحكما المعنوية أو لإبراز عكس ما ترغبان، إنما غرضى شيء آخر هو خدمتكما.**

لغته غير المفهومة من الصبيتين، والهيئة لفارسنا كانتا تنميان موجة الضحك، وفيه الغضب، حتى أنذر الموقف بالشر لولا خروج صاحب النزل، رجل مع كونه سمينًا، فهو مسالم، وعند رؤيته هذه الصورة المفتعلة، المسلحة بأسلحة متباينة العصور، مثلما كانت عدة الحصان والرمح والدرع، والدرقة التى تغطى ثيابه، لم يجد ما يمنعه من مشاركة الصبيتين الروقان. لكن بالفعل، خائفًا من آلة الحرب لكثرة أدواتها المتحجرة، قرر أن يتحدث معه بمنتهى الراحة، وهكذا قال له:

– فخامتكم، أيها السيد الفارس، عليكم بالبحث عن فندق، غير هذا المكان (لأنه فى هذا النزل لا يوجد أى سرير)، يكون به سرير، وكل ما تشتهون بوفرة.

وعندما رأى دون كيخوتى تواضع قائد القلعة كما كان يبدو له هو ونزله، أجابه:

– بالنسبة لى أيها القشتالى، أى شئ يكفى، لأننى أرعى السلاح، وبالقتال أرتاح...

ظن المضيف أنه يقصد بالقشتالى، أنه من أهل قشتالة الطيبين، دون أن يخطر على باله أنه لا يشير إلى الجغرافيا، إنما إلى معنى الكلمة: "القلعة"(*). هذا الظن جعله يود إخباره أنه من الأندلس ومن أهل شاطئ سانلوكار هناك وليس أقل لصوصية من اللص الشهير كاكو، وأنه ليس أقل شرًا من تلميذ من السفلة، من ثم أجابه:

– إذن سيكون سريرك من أعواد الصنوبر الصلبة، ونومك دائمًا السهر، وكائنًا بهذا الحال سوف تحسن الركوب، مع ضمان أنك ستجد فى هذا الكوخ المناسبة بل المناسبات حتى يجفوك النوم عامًا كاملاً، فبالأحرى ليلة واحدة.

(*) هنا تورية، فكلمة قشتالى تحمل معنى سيد القلعة **castillo**، أو من أهل مملكة قشتالة **castilla**.

قائلاً هذا تقدم وأخذ بركاب دون كيخوتى، الذى ترجل بصعوبة بالغة وجهد جهيد، مثله مثل من قضى يومه دون طعام أو شراب، ومن ثم قال لصاحب النـــزل أن يقدم أكبر عناية لجواده، لأنه خير من أكل الشعير فى هذا العالم. فنظر صاحب النزل للحصان، ولم يبد له على شيء مما قال عنه دون كيخوتى، بل ولا نصف ما قال، ثم وضعه فى الإسطبل، وعاد ليرى بماذا يأمر ضيفه، الذى كان خلال ذلـــك مستسلمًا للمرأتين، وهما تجردانه من سلاحه، بعدما تصالحا معه. ورغـــم أنهمـــا تمكنتا من خلع درعه، وتجريده من سيفه، فإنهما لم يعرفا ولم يستطيعا بـــأى حـــال من الأحوال نزع الطوق الحديدى عن رقبته أو الخوذة معكوسة الترقيع، التى كانت مربوطة إليه بأشرطة خضراء، كان من الضرورى قصها لاستحالة فـــك عقـــدها، الأمر الذى لم يوافق عليه بأى حال من الأحوال، وهكذا بقى طوال الليل بـــالخوذة على رأسه، فكانت صورته الظريفة الغريبة أظرف ما يمكن أن يمـــر علـــى بـــال وأغربه، أما هو الذى كان يتخيل أن إحضار المرأتين وحملهما إليه لخلع ملابـــسه من بين سيدات القلعة وأميراتها كان تكريمًا له، من ثمَّ قال فى استلطاف:

لم يحظ من قبل فارس من الفرســـان

بما يحظ به من سيدتين من النســـوان

دون كيخوتى السيد فارس الفرسان

يرعاه فى ود من الوصيفـــات اثنتان

كما فعلن مثله لروثين العـــدنـــان

أوه روثينانتى، وهذا سيداتى اسم جوادى، أما اسمى فهو دون كيخـــوتى دى لامانشا، مع أننى كنت أود ألا أكشف عن اسمى حتى تكشف عنه أعمالى الشجاعة

فى خدمتكما. ولكن كشف اسمى قبل الأوان كان بهدف تطويع هذه الأبيات من القصيدة البطولية القديمة للشاعر لانثاروتى للظرف الراهن، لكن سيأتى الزمان الذى فيه سموكما تأمراننى فأطيع، واضعًا قوة سيفى لتكشف عن رغبتى فى خدمتكما.

الفتاتان اللتان لم تهيئهما نشأتهما لسماع هذا اللون من البلاغة، لم تجيباه ولو بكلمة، فقط سألتاه عما إذا كان يحب أن يأكل شيئًا، أجابهما دون كيخوتى :

– يمكننى أن آكل أى شيء، لأنه حسب فهمى كل الأكل يتساوى.

وبالصدفة كان يوم جمعة، ولم يكن بكل النزل سوى سميكات من نوع يطلقون عليه فى قشتالة " أباديخو" وفى الأندلس " بكالاو " وفى أجزاء أخرى "كوراديو" وبعض المناطق تسميه " تروشويلا"، فسألاه عما إذا كان فخامته بالصدفة يمكن أن يشتهى أكل تروشويلا، حيث لا يوجد فى النزل غيرها، أجاب دون كيخوتى:

– كما أنها أسماك صغيرة، لا بأس بها، فهى مثل القطع النقدية المعدنية الفكة، وسمكة كبيرة مثل قيمة الفكة مجمدة، فعشرة ملاليم فكّة عندى تساوى قرشًا مجمدًا، وهذه السميكات مثل اللحم البتلو وهو خير من الكندوز، كما أن لحم الحمل خير من الضأن، عمومًا فليكن مادام لا يمكن حمل السلاح دون صلاح المعدة .

فرشوا له المائدة على باب النزل، وأحضر له صاحب النزل طبقًا من أسوأ البكالاو تمليحًا وطبخًا، ورغيفًا من الخبز أسود ومقززًا مثل أسلحته، لكن كل الأمر كان مادة للضحك لرؤيته يأكل بالخوذة على رأسه وحوافها مسدلة على وجهه. لم

يكن قادرًا على وضع شىء فى فمه، إذ لم يوجد شخص آخر يناوله ويـضعه لـه، وهكذا قامت بهذه المهمة إحدى السيدتين. لكن إعطاءه مشروبًا كـان مـستحيلاً إلا بوضع طرف أنبوبة غاب فى فمه، كان صاحب النزل يصب فيها النبيذ من طرفها الآخر. تحمل كل هذا بصبر نظير ألا يقص أشرطة الخوذة، وبينما هم كـذلك، إذا برجل مهنته خصاء الخنازير، يطـل عليهم وقد صفر بناى من قصب الغاب أربع تصفيرات أو خمس، بها تأكد لدى دون كيخوتى أنه فى إحدى القـلاع المـشهورة بالفعل، وأنهم يخدمونه على المائدة بصحبة الموسيقى، وأن السميكات كانت سـمكًا كبيرًا، والخبز الأسود خبز قمح طرى، والمرأتين الخليعتـين سـيدتان، وصـاحب النزل صاحب القلعة، ومن هنا طاب قلبه بالخروج من قريته وبدء المغامرات، لكن الشىء الذى كان يقض مضجعه ألا يرى نفسه فارسًا منصبًا، وما تـراءى لـه أنـه لا يستطيع أن يقحم نفسه فى مغامرة أى مغامرة دون شرعية تنصيبه، وتلقى أمر التنصيب.

الفصل الثالث

حيث تحكى الطريقة المستظرفة التى تم بها تنصيب دون كيخوتى فارسًا

وعندما أتعبه الفكر فى هذا الأمر، أسرع فى عشائه وأنهاه، وطلب صاحب النزل وناداه، وحبس نفسه معه فى الإسطبل، وركع أمامه وهو يعلك القول:

– لن أنهض أبدًا من ركوعى أيها الفارس الجسور، حتى يهبنى حسن أدبكم هبة أحب أن أطلب منكم منحها لى، وستكون سببًا فى ثناء الدنيا عليكم، وعونًا لكل الإنسانية.

احتار صاحب النزل أن رأى ضيفه عند قدميه، يسمعه تلك العبارات ويرددها عليه، فظل ينظر إليه دون أن يعرف ماذا يفعل أو بماذا يرد عليه، وألحَّ أن ينهض على قدميه، لكنه رفض فى إباء حتى يسمع ما سيردده عليه، ويقبل أن يمنحه بغيتّه، قال:

– لم أكن أنتظر أقل من ذلك من أعطاف عظمتكم يا سيدى، وأقول لكم إن "الهبة" التى طلبتها ستكون منحة لى منكم، وهى أن تنصبونى فارسًا غدًا، وسوف أسهر على سلاحى الليلة لمباركته فى مصلى قلعتكم، وغدًا كما سبق لى القول يتم إنجاز ما اشتهيت، فأستطيع الانطلاق فى أركان الدنيا الأربعة، باحثًا عن المغامرة لصالح المعوز والمضطر، وهذا هو واجب الفروسية

والفرسان المشائين مثلى، الذين يميلــون برغبــاهم نحــو تلــك الجلائــل من الأعمال.

وكما كان صاحب النزل -حسب ما قيل من قبل- به خبث وشــيطنة، وقــد تكهن بنقص عقل فارسنا، انتهى بتصديق ما قال من مثل هذه الأشياء، ولكى ينــال موضوعًا للضحك فى تلك الليلة، قرر متابعة المزحة، وهكذا قال لــه إنــه كــان مصيبًا جدًا فى رغبته، وأن هذا الهدف المطلوب منه هو مــن محاســن الفرســان الرئيسيين مثله، كما يقول مظهره، ويبرز للأنظار محضره، وأنه شخصيا فى صباه كان قد تفرغ لهذا النوع من الفروسية، متجولاً فى أنحاء عديدة من العــالم، باحثًــا عن المغامرة، دون أن يترك التجول حتى فى براجيل مالقــة، وجــزر ريــاران، ومروج إشبيلية، وأسواق شقوبية، وحقول زيتون بلنسية، ورندة غرناطة، وشــاطئ سانلوكار، وبرارى قرطبة، وساحات طليطلة، وأجزاء أخرى، حيث مــارس خفــة قدميه، وبصيرة يديه، مرتكبًا كثيرًا من الانحرافات، باحثًا عن غراميات مع كثــرة من النساء الأرامل، ومحطمًا قلوب بعض الصبايا، ومخادعًا بعض القصر، وصار معروفًا لظهوره فى كل المجالس وأمام كل المحاكم الموجودة فى كل إسبانيا تقريبًا، وأخيرًا جاء للاعتصام بقلعته هذه؛ حيث كان يعيش بأمواله وأموال الغير، آويًا فيها كل الفرسان المشائين، من أى درجة وفى أى ظرف كان، فقط لشغفه الشديد بهــم، وحتى يشاركوه فى ممتلكاته مقابل إرضاء هذه الرغبة. وقال له أيضًا إنه فى قلعته هذه لا توجد مصلى للسهر لمباركة أسلحته؛ حيث كانوا قد هــدموها لبنائهــا مــن جديد، لكن فى حالة الضرورة فهو يعرف أنه يمكن السهر للصلاة فــى أى مكــان كان، وفى تلك الليلة يمكنه السهر فى فناء من أفنية القلعة، حتى يــأتى الــصباح، ولأن الله تمت خدمته بالسهر، سيقومون بعمل الشعائر الواجبــة، ليــصير منــصبًا فارسًا، وفارسًا جدا، ما بعده من مزيد.

وسأله هل أحضر معه نقودًا، فأجاب دون كيخوتى إنه لا يحمل منها مليمًا؛ لأنه لم يقرأ قط فى تواريخ الفرسان المشائين ما يفيد حملهم نقودًا. قال صاحب النزل تعليقًا على ذلك إنه خدع نفسه، فرغم أن التواريخ لم تكتبه؛ حيث بدا لمؤلفى هذه التواريخ أنه لم يكن ضروريًا كتابة أمر بهذا القدر من الوضوح والضرورة، مثل حمل النقود والقمصان النظيفة، ومن ثم فإن عدم الكتابة لا يعنى عدم إحضارهم النقود، وليكن واثقًا ومتحققًا أن كل الفرسان المشائين فى كتب كثيرة كانت أكياس نقودهم مملوءة جيدًا بالنقود، احتياطًا لأى شىء قد يحدث لهم. كذلك فإنهم يحملون قمصانًا، وصندوق أدوية لشفاء الجروح التى تستقبلها أجسامهم، لأنه فى أحيان كثيرة بالبرارى والصحارى حيث يقاتلون ويخرجون جرحى، لن يجدوا من يداويهم، إذا لم يكن لهم رفيق صديق حكيم وساحر يخف لنجدتهم، مستنزلاً من الهواء فوق إحدى السحابات صبية أو قزمًا يحمل فى اليد قنينة ماء، له خصيصة شفاء كل جرح أو قرح يُتذوق قطرة منه، فيعودون وكأنهم قط لم يصابوا بسوء، لكن فى حالة عدم توافر ذلك، فإن الفرسان فى الماضى كانوا تأكيدًا يجعلون خادمهم ممونًا ببعض النقود والأشياء الضرورية مثل اللفائف والمراهم للتداوى، وفى حالة عدم وجود خدم لهؤلاء الفرسان (وهذا قليل ونادر)، فكانوا هم أنفسهم الذين يحملون هذه الأشياء فى خرج بالغ الخفة، لا يكاد يبين، فوق الجزء الخلفى من ظهر الحصان، حتى يظهر وكأنه شىء أكثر أهمية، لأنه دون ظروف كهذه فإن حمل خرج لم يكن مسموحًا به للفرسان المشائين، ولهذا فإنه ينصحه، بل إنه يأمره لكونه سوف يتبناه بالتنصيب، ألا يغادر المكان قبل إحضار النقود والمؤن اللازمة بأسرع ما يمكن، ولسوف يرى أى خير سيعود عليه من حملها، ولا سيما عندما يكون أقل توقعًا لذلك الخير.

وعده دون كيخوتى بالعمل بما نصحه فى دقة تامة، وهكذا أمـره صـاحب النزل كيف يسهر مباركًا أسلحته فى حظيرة واسعة مفتوحة كانت بجانب النـزل،. حمل دون كيخوتى كل أسلحته، ووضعها على حافة حوض على جانب بئر هناك، محتضنًا درعه، شاهرًا رمحه، وفى فتوة لطيفة شرع يتمشى بعـرض الحـوض، عندما كان الليل يغلق أبوابه بالظلام.

حكى صاحب النزل لكل من كان في نزله عن جنون ضيفه، وعـن السـهر على الأسلحة وتنصيب الفروسية الذى كان ينتظره. ولإعجابهم بهذا النوع الغريـب من الجنون، ذهبوا للنظر إليه من بعيد، ورأوا أنه فى لمحات هادئة كـان يتمـشى أحيانًا، وأحيانًا أخرى مقربًا منه رمحه، كان يضع عينيـه فـى أسـلحته، دون أن ينزعها عنها لوقت ليس بالقصير. كان الليل قد بدأ يسد الأفق بالظلام، لكن لفـرط وضوح القمر، حتى إنه كان يمكنه منافسة من أقرضته الضوء(*)، وبهذه الطريقـة فإن كل ما كان يرتكبه الفارس الجديد من أفعال كان مرئيًا جيدًا من الجميـع. بـدا لأحد البغالين الذين كانوا فى النزل الذهاب للحصول على ماء لقافلته، وكـان مـن الضرورى أن يرفع أسلحة دون كيخوتى من فوق الحوض، وعندما رآه هذا مقـبلاً قال له بصوت عال:

- أوه، أنت، كنت من تكون، أيها الفارس المتجرئ، انظر ماذا تفعل، أتصل أن تمس أسلحة أعظم فارس مشّاء ممن حملوا سـيفًا، لا تلمـسها إذا أردت ألا تفقد حياتك ثمنًا لتجرئك.

لم يصحُ خيال البغال بهذه الكلمات (وكان الأفضل أن يصحو لأنـه أصـح لصحته)، وقبل أن يبدأ، أمسك بأحزمة السلاح ورماها بعيدًا عنه. رأى منـه ذلـك

(*) يقصد الشمس التى تضفى من ضوئها على القمر نوره.

دون كيخوتى، فرفع عينيه إلى السماء مفكرًا (على ما بدا) فـــى ســـيدته دولثينيـــا، وقال:

– النجدة يا سيدتى، فى هذه الإهانة الأولى التى تعرض لقلب خـــادمكم، فـــلا أضعف فى أول لحظة حرجة بفضل كرمك وعنايتك.

وعندما انتهى من قول ذلك وأمثاله من الأقوال، ألقى بالدرع وأشهر الـــرمح بيديه الاثنتين، وبه ضرب البغال ضربة عظيمة فوق رأسه فـــسقط حـــسيرًا علـــى الأرض، فلم يحتج لتثنية الضربة من يد أستاذ تصح بها الأمراض. ومنتهيًا من ذلك جمع أسلحته كما كانت، وواصل تمشيته بنفس هدوئـــه الأول. وبعـــد قليـــل، دون معرفة ما حصل (لأن البغال حتى تلك اللحظة كان فى إغماء لم يزل) وصل آخـــر بنفس نية تروية ظمأ بغاله، وعندما أزال الأسلحة لإفساح الحوض، ودون أن يتكلم أو يطلب نجدة من أحد ألقى الدرع، وأشهر مرة أخرى الرمح – ودون أن يطقطـــق فى يده– أوقع به ثلاث ضربات على الرأس، لأن الرابعة فتحتها. وعلى الـــضجيج جاء كل الناس الذين فى النزل وبينهم صاحبه، عند رؤية دون كيخوتى لذلك، أفسح الدرع وأشهر السيف، وقال:

– آه، يا سيدة الحسن، القوة والصلابة لقلب متخاذل! هذا هو الوقت الـــذى ينتظر الفارس أسيرك منك أن تحولى بصرك نحوه، وهو يخوض تلك المغـــامرة الهائلة.

بدا له مع هذه الكلمات أنه تلقى كل الحمية، حتى لو أن كل البغالين فى الـــدنيا بأسرها تكاثروا عليه، فلن يزحزح قدمًا للخلف. كل رفقاء البغالين الجرحى، والـــذين رأوا زملاءهم فى هذه الحال بدأوا من بعيد يمطرون دون كيخوتى بالحجارة، وهـــذا احتمى بدرعه بقدر ما أمكنه، ولم يجرؤ على الابتعاد عن الحوض، حتى لا يحـــزن

أسلحته بالتخلى عنها. صاحب النزل أطلق الصرخات بأن يتركوه، لأنه سبق أن قال لهم إنه مجنون، ولكونه مجنونا، فلا حرج عليه لو قتلهم جميعًا. أيضًا كان دون كيخوتى يصيح بأعلى من صيحات صاحب النزل واصفًا لهم بأنهم غدارون وخونة، وبأن سيد القلعة صعلوك، وأنه فارس شروليد، حيث يوافق على مثل هذه المعاملة للفرسان المشائين، وأنه لو كان قد تلقى التنصيب لكان سوف يجعله يدرك غدره، لكن أنتم السفلة المبتذلون، فلا أعيركم التفاتًا، ألقوا بحجارتكم، روحوا واذهبوا، واعتدوا علىَّ ما استطعتم، ولسوف ترون ثمن ما تحملون من حمق وتجرؤ.

كان يقول ذلك بألمعية شديدة، حتى إنه سكب خوفًا مرعبًا فى قلوب مهاجميه، وهكذا بهذا وبحض صاحب النزل توقفوا عن رجمه، وهو تركهم يسحبون جرحاهم، وعاد للسهر على أسلحته بنفس ما سبق له من هدوء وسكينة نفس.

لم يبد لصاحب النزل السخرية من ضيفه باعتباره أمرًا طيبًا، وقرر اختصار الوقت بتقليده نظام الفروسية الأسود، قبل أن تحدث مصيبة أخرى. وهكذا، راح إليه، واعتذر لسفاهة تلك الناس المنحطة فى تعاملها معه من وراء ظهره، لكن عادوا عن تجرئهم بعقاب كاف. ثم قال له إنه، كما سبق أن قال له بأنه، لا توجد مصلى فى القلعة، وفيما يتعلق بما بقى من إجراءات فإن المصلى غير ضرورية، وأن لمسة التنصيب باعتباره فارسًا عبارة عن ضربة على الرقبة وأخرى على الظهر طبقًا لمعلوماته عن شعائر تلقى نظام الفروسية وتعليماتها، وأن هذا يمكن إجراؤه فى وسط الحقول، أما فيما يتعلق بالسهر على الأسلحة، فساعتان كافيتان مع أنه قضى أربع ساعات. اعتقد فى صدق كل هذا دون كيخوتى، وقال إنه سيكون هناك حالاً لطاعته، وعليه أن يختم بأسرع وقت ممكن إجراءات التنصيب، حتى لو هوجم مرة أخرى، وقد رأى نفسه وقد تم تنصيبه، فلا يفكر أن يترك أحدًا حيًا بتلك القلعة، ما عدا من يأمره بتركهم أحياء احترامًا له.

صاحب القلعة وقد تلقى التحذير وتهيبه، أحضر عندئذ كتابًا، حيث كان يسجل التبن والشعير الذى يعطيه للبغالين، وصبيًا عريفًا يحمل شمعة، وبحضور السيدتين السالف ذكرهما، ووصلوا حيث كان دون كيخوتى، وأمره سيد القلعة بالركوع، وبدأ يقرأ فى كتابه (كما لو كان يردد صلاة خالصة)، وفى منتصف هذه الأسطورة أطلق يده بضربة هائلة على قفاه، وعلى ظهره ضربه ضربة خفيفة بعد أن وقف خلفه وبيده نفس سيف دون كيخوتى، ودائمًا فى تمتمة كما لو كان يصلى. منتهيًا من هذا أمر إحدى السيدتين بتقليده السيف، والتى فعلت ذلك فى انغماس وحنكة، لأنه كان بينهم وبين الانفجار، ضاحكين، حاجز خفيف فى كل خطوة فى الحفل الشعائرى، لكن أفاعيل هذا الفارس المستجد التى رأوها منذ قليل حبست الضحك فى الأفواه، وعند تقليده السيف قالت السيدة الطيبة:

– فليجعل الله فى فخامتكم فارسًا محظوظًا، وليمنحك السعد فى معاركك.

سألها دون كيخوتى عن اسمها، لأنه يعرف من الآن فصاعدًا واجباته تجاه من قدموا له فضلاً، ولأنه يفكر فى منحها شطرًا من التكريم الذى سيبلغه بإقدام ذراعه. أجابت بتواضع شديد أن اسمها تولوزا، وأنها ابنة إسكافى من أهل طليطلة، يعيش فى أطناب ميدان سانشو بينايا، وأنها حيثما كانت سوف تخدمه وتتخذه سيدًا. أجابها دون كيخوتى، طالبًا منها تقديم جميل له حبًّا فيه، بأن تلتحف السيادة وتضع قبل اسمها لقب تلك السيادة فتصير "دونيا تولوزا". وعدته بذلك، أما الثانية فقد وضعت المهماز لحذائه، مما دفعه إلى تكرار حواره مع من قلدته السيف، سألها عن اسمها، وقالت له إنها تسمى مولينيرا، وإنها ابنة لطحان محترم فى إنتيقيره، فرجاها دون كيخوتى أن تتسمى بلقب السيادة "دونيا مولينيرا" كى تسدى له بهذا خدمة وجميلاً.

وهكذا تم بضربة واحدة وسرعة شعائر احتفال لم يسبق له مثيل حتى تلــك اللحظة، أما دون كيخوتى فلم يصبر لحظة حتى رؤى فوق جواده خارجًا بحثًا عن المغامرات، وعندما وضع العدة والركاب فوق روثينانتى، وصعد عليه، ومحتــضنًا مضيفه، قال له أشياء غريبة ليس من السهل التوفيق فى ذكرها، شاكرًا له تنــصيبه فارسًا. صاحب النزل، وقد رآه بعيدًا عن النزل، وإن لم يكن أقل بلاغة حتـــى لـــو قلت كلماته، رد على كلمات دون كيخوتى دون أن يطلب منه تكاليف إقامته، وتركه يذهب مصحوبًا بالسعد.

الفصل الرابع
عما حدث لفارسنا عندما خرج من النزل

خرج دون كيخوتى من النزل ساعة انفجار الفجر، نشيطًا مبتهجًا، حين رأى نفسه فارسًا منصبًا، حتى إنه من التلذذ كانت تدور به حول هيكل الجواد أحزمة السرج. لكن مرت على باله نصائح مضيفه حول المؤن ماسة الضرورة، والتى كان عليه أن يحملها معه، وبصفة خاصة أمر النقود والقمصان، فقرر العودة إلى بيته، وإعداد كل شيء، بجانب الخادم الذى فكر فى أن يكون ذلك الجار الأجير، والذى كان فقيرًا وصاحب أولاد، لكنه كان الأنسب لخادم فارس فيما يتعلق بمهنة الدارع التى هى صلب تلك الخدمة. بهذا التفكير قاد روثينانتى نحو قريته فى طريق تحفظه ذاكرة الجواد، الذى فى تشوق بدأ السير فكان لا يضع لنفسه قدمًا على الأرض.

لم يكن قد سار كثيرًا عندما بدا له على يده اليمنى داخل كثافة غابة هناك خروج أصوات حساسة كما لو كانت لشخص يشكو، ولم يكد يسمعها حتى قال:

– الشكر للسماء للفضل الذى تهبنى، من ثم، فسريعًا تقدم لى المناسبة، حيث أستطيع إنجاز ما تفرضه علىَّ فروسيتى، وحيث أستطيع جنى ثمرة رغباتى الطيبة. هذه الأصوات دون شك لمضطر أو مضطرة فى حاجة لتقديم يد منّى وعون.

ومحولاً العنان، قاد روثينانتى فى الاتجاه الذى بدا له أن الأصوات تـصدر عنه، وعندما خطا خطوات قليلة فى الغابة، وجد فرسا مربوطًا لشجرة بلوط، ومربوط لشجرة أخرى صبى، عارى الجزء الأعلى من الجسم، عمره يكاد يصل إلى الخمسة عشر، كان مصدر الأصوات، لم تكن تصدر بغير سبب، فقد كان فلاح حسن الهيئة يضربه بسوط دون توقف، ومع كل ضربة سوط كان يوجه إليه تأنيبًا ونصيحة، لأنه كان يقول:

– احفظ اللسان، وأشهر العينين.

وكان الصبى يجيب:

– لن أفعلها مرة أخرى يا سيدى، بحق الله لن أفعلها مرة أخرى وأعدك أننى من الآن فصاعدًا سوف أعتنى أكثر بالقطيع.

وعندما رأى دون كيخوتى ما كان يحدث قال بصوت غاضب:

– فارس قليل الأدب، ويبدو سيئًا تحدى من لا يستطيع الدفاع عن نفسه. اصعد على جوادك والتقط رمحك (أيضًا كان له رمح مركون على شجرة البلوط حيث كانت الفرس مربوطة) فإننى سوف أجعلك تعرف كم هو جبان ما تفعله.

الفلاح الذى رأى ذلك الشخص المدجج بالسلاح هابطًا عليه، وقد شهر الرمح فى وجهه، مات من الخوف، ورد بكلمات طيبة :

– أيها السيد الفارس، هذا الصبى المعاقب هو خادمى، ويخدمنى فى رعاية قطيع من الغنم لى فى هذه المنطقة، وهو مهمل إلى حد أننى أفقد كل يوم واحدة من الغنم، ولأنى أعاقبه على إهماله أو شروره، يقول إنى أفعل ذلك فعل البائسين حتى لا أدفع له أجره الذى أدين له به، فهو كاذب علىَّ وعلى الله.

قال دون كيخوتى:

- **تكذب أمامى أيها الفلاح الخرب الذمة! بحق الشمس التى تضىء لنا لسوف أنفذ هذا الرمح فى جسمك حتى يخترقك خارجًا من ظهرك إذا لم تدفع له دون تمحك، وإذا لم تفعل، فبالله الذى به تقوم حياتنا لسوف أقضى عليكم وأصفى حياتكم فى هذه اللحظة. فك وثاقه، هيا!**

خفض الفلاح رأسه، ودون أن يفتح فمه فك قيود خادمه، الذى سأله دون كيخوتي: بكم يدين لكم سيدك؟ قال له بتسعة شهور بمعدل سبعة ريالات شهريا. عمل دون كيخوتى الحسبة، ووجدها فى جملتها ثلاثة وستين ريالاً، قال للفلاح أن يدفعها فورًا إذا لم يرد أن يموت. أجاب الفلاح المرتعد إنه بحق ما يجرى له الآن واليمين التى أقسمها - حتى تلك اللحظة لم يكن قد أقسم على شيء!- أن الدين لم يكن بهذا القدر، لأنه ينبغى أن يستنزل منه ثمن ثلاثة أحذية، وقيمة ريال دفعه له نظير فصده مرتين عندما كان مريضًا.

أجاب دون كيخوتى:

- **كل هذا جيد، لكن الحذاء والفصد ستكون مقابل ضربات السوط التى جلدته بها دون ذنب، فإذا كان مزق جلد الأحذية التى أعطيتها له، فأنت قد مزقت جلده، وإذا كان الحلاق قد أسال بعض دمه عندما كان مريضًا، فقد أسلت أنت دمه صحيحًا، ولهذا فهو لا يدين لك بشيء.**

- **المؤلم يا سيدى الفارس أننى ليس معى نقود هنا، فلتأت معى يا أندرس إلى بيتى، وسأدفع لك ريالاً فوق ريال.**

قال الصبى:

– أذهب معه بعد ذلك؟ يا سنة مطينة! لا يا سيدى، ولا حتى يخطر على بالى! لأنه بمجرد أن ينفرد بى سوف يسلخ جلدى كما فعلوا مع القديس بارتولوميه.

أجاب دون كيخوتى:

– لن يفعل بك ذلك، فقد أمرته أن يُكنَّ لى احترام كلمته، وأن يقسم بقانون الفروسية الذى لقنه أن يفعل، وبهذا سأطلق سراحه وأضمن أن يدفع.

قال الصبى:

– تروَّ فخامتكم، فسيدى ليس فارسًا، ولم يلقن تعاليم الفروسية، إنه خوان ألدودو الغنى، من أهل الكينتنار.

قال دون كيخوتى:

– هذا لا يهم فآل ألدودو يمكن أن يكونوا فرسانًا مادام الإنسان ابن أعماله وليس ابن سلساله.

قال أندرس:

– هذا حق، لكن سيدى هذا، لأى أعمال هو ابن، حين ينكر أجرى وعرقى وعملى؟

أجاب الفلاح:

– لا أنكر– أيها الأخ أندرس– وامنحنى سرور الحضور معى، وأقسم بكل أنظمة الفروسية التى توجد فى العالم أن أدفع لكم كما قلت ريالاً فوق ريال، معطرة مبخرة.

قال دون كيخوتى:

– فيما يتعلق بالعطر والبخور، فإننى أعفيك منها على أن تدفعها على هيئة ريالات، وبهذا أكتفى، وأنظر فى إنجازه، طبقًا لقسمك، وإذا لم تفعل بنفس القسم أقسم لك أننى سأعود للبحث عنك وعقابك، وسوف أجدك حتى لو اختبأت ببراعة تفوق براعة (السحلية)، وإذا أردت أن تعرف من يأمرك بذلك، حتى تبقى حقًّا مجبرًا على الوفاء، فلتعلم أننى البطل دون كيخوتى دى لامانشا، كاشف المظالم والأمور الباطلة، أستودعكم الله، ولا تتراجع عن تفكيرك الموعود والمقسم عليه، فليس وراء ذلك إلا الندامة.

عندما قال ذلك، همز روثينانتى، وفى لحيظات غادرهما. تابعه الفلاح بعينيه، وعندما رأى أنه جاوز الغابة واختفى عن الأنظار دار نحو خادمه أندرس وقال له:

– تعال هنا يا بنى، أنا أحب أن أدفع لكم ما قلت بدفعه، كما أمرنى هذا الكاشف للغمم.

قال أندرس:

– بهذا أقسم أنا، كما أن فخامتكم ستمضون فى إنجاز أمر هذا الفارس الطيب، أحياه الله ألف عام، وطبقًا لأنه بطل وقاض طيب، فليحيا "روكى"، إذا لم تدفع لى، وليعد ولينفذ حكمه الذى به نطق.

وممسكًا له من ذراعه عاد إلى ربطه لشجرة البلوط، حيث ساطه بعض السياط، وتركه قريبًا من الموت، وقال له:

– عليك– يا سيد أندرس– بنداء كاشف الغمم، كي ترى أنه لن يكشف شيئًا؛ لأنه لم يكمل ما بدأ، ولأنني تعتريني الرغبة في سلخ جلدك حيًّا لتجسيم ما كنت تخافه.

لكن في النهاية فك وثاقه، وأعطاه تصريحًا بالذهاب للبحث عن قاضيه، كي ينفذ منطوق الحكم. وانصرف أندرس مهينًا، مقسمًا أن يذهب للبحث عن البطل دون كيخوتي دي لامانشا كي يقص عليه ما حدث نقطة نقطة، وأن على سيده أن يدفع له ما عليه سبع مرات غرامة. لكن مع كل هذا انصرف باكيًا بينما كان سيده يضحك. وبهذه الطريقة قضى البطل دون كيخوتي على الظلم، وهو الذي كان شديد السرور بما جرى، مترائيًا له أن أقر عيون فروسيته وأرسى مبادئها، وفي رضى عظيم عن نفسه سار نحو قريته يقول بنصف صوت:

– الآن تستطيع أن تسميها سعيدة فوق السعيدات، وحسناء فوق كل حسناوات النساء اللاتي يعشن على سطح الأرض، دولثينيا دل توبوسو! لقد اتفق مع بختك والتصق به الحصول على الفارس الشجاع والمسمى فارسًا اسمًا على مسمى في الحاضر والمستقبل دون كيخوتي دي لامانشا طبقًا لمشيئتك وإرادتك، ذلك الفارس الذي كما يعلم العالم كله أنه بالأمس تم تلقينه نظام الفروسية، واليوم قد محا الانحراف الأكبر والعدوان الأخطر الذي شكل باطلاً، وارتكب فعلاً من أفعال القسوة، اليوم سحب السوط من ذلك العدو عديم الرحمة، والذي دون مناسبة كان يضرب هذا الصبي. مفكرًا في هذا، وصل إلى طريق له أربعة مفترقات، وهنا مر بخياله حيث يصل الفرسان المشاءون إلى مفترق الطرق فيفكرون أيها يسلكون،

وحتى يحاكيهم بقى بعض الوقت ساكنًا، وفى نهاية التفكير فى الأمر جيدًا أطلق عنان روثينانتى، تاركًا إرادته تحت إدارة "روثين" الذى حاول أول محاولة له، والتى كانت السير نحو حظيرته. وعندما انتهى من السير ميلين، اكتشف دون كيخوتى قافلة عظيمة من الناس، وكما عرف فيما بعد، فقد كانوا جمعًا من التجار الطليطليين فى طريقهم لمرسية لشراء الحرير. كانوا ستة، يتحركون حاملين مظلات تقيهم الشمس، ومعهم من الخدم الراكبين (فوق ظهور الخيل) أربعة، ومن الخدم الراجلين ثلاثة صبيان يسوقون البغال. لم يكد يلمحهم دون كيخوتى حتى تخيل أنهم سيكونون موضوع مغامرة جديدة، وحتى يحاكى فى كل شيء – مادام بدا له فى الإمكان– الخطوات التى كان قد قرأها فى كتبه، فكر فى أن يتخذ أحد المواقف التقليدية المناسبة للمقام. وهكذا، فى زهو متلطف وحماس، ثبت قدميه فى الركاب، وقبض على الرمح، وأحكم الدرع على الصدر، ووضع نفسه فى معترض الطريق، ومضى ينتظر وصول هؤلاء الفرسان المشّائين، حيث كان هؤلاء قد تراءوا له هكذا طبقًا لتمييزه لهيئتهم. ولما حاذوه حتى صار يسمعهم ويراهم، رفع كيخوتى صوته، وفى لهجة متغطرسة قال:

– الجميع لن يواصل السير، أو يعترف الجميع أنه لا يوجد فى العالم كله فتاة أكثر حسنًا من إمبراطورة دى لامانشا التى لا نظير لها، دولثينيا دل توبوسو.

وقف التجار على صوت تلك العبارات، ورؤية ذلك الشخص الغريب الصورة الذى يقولها، وبالصورة والعبارات شرعوا فى إدراك جنون صاحبهما، لكنهم أحبوا أن يروا بهدوء إلى أين سينتهى ذلك الاعتراف الذى يطلبه منهم. أحدهم وكان ابن نكتة وشديد الصراحة، قال له:

– أيها السيد الفارس، نحن لا نعرف من هى تلك السيدة الطيبة التى تـذكرها، فأرنا إياها، فإذا كانت بالجمال الذى تعنيه، فإننا بنفس رضية ودون ضغط سوف نعترف بالحقيقة التى تطلبها منا.

أجابه دون كيخوتي:

– إذا أريتكم إياها، فما فائدة الاعتراف بحقيقة تكون بكل هذا الوضوح؟ الأهمية تكمن فى التصديق دون أن تروها، ومن ثم الاعتراف والتأكيد والقسم والدفاع عن جمالها، فإذا أنكرتم فأنتم فى معركة معى أيها الخلق المتغطرس المتشامخ. والآن هيا إلى المبارزة واحدًا واحدًا طبقًا لتعاليم الفروسية، أو فلتقبلوا جميعًا كما هى عادة وسلوك السيئين من أهل السوء، وهاأنذا أترقبكم وانتظركم، واثقًا من أن الصواب بجانبي.

أجابه التاجر:

– أيها السيد الفارس، أتضرع لفخامتكم باسم كل هؤلاء الأمراء، والذين نحن هنا، وحتى لا نحمل ضمائرنا الاعتراف بشيء لم يسمع به قط، ولم ير من جانبنا، فضلاً عن أنه سوف يكون بخسًا لكل إمبراطورة وملكة للقرية ولاسترامادورا، فلتجعلنا – نحن خدم فخامتكم نرى صورة لهذه السيدة حتى لو كان حجم الصورة صغيرًا مثل حبة قمح، فالخيط السبيل للبكرة، وبهذا سوف نبقى مقتنعين وواثقين، وفخامتكم سترضى وتجاب إلى ما تطلب، فوق ذلك أعتقد أننا منحازون لك، حتى لو أرتنا الصورة أنها عوراء فى واحدة من عينيها ومن العين الأخرى يتدفق كبريت أصفر سائل أو متحجر، فمع كل هذا هدفنا إرضاؤك بأن نقول لصالحك كل ما تبغى.

أجاب دون كيخوتى مشتعلاً بالغضب:

– لا يتدفق منها– أيها الحقير الوقح– لا يتدفق منها– أقول – ما تقول، بل العنبر، والغالية بين بياض القطن، وليست عوراء ولا حدباء، وإنما فى استقامة غصن البان، لكنكم سوف تدفعون ثمن الإفك العظيم الذى به نطقتم ضد الجمال العظيم لسيدتى.

وعند تمام قوله هذا، اندفع شاهرًا رمحه فى اتجاه محاوره، بغضب شديد وغيظ، وإذا كان لحسن الحظ لم يقتله، فبفضل تعثره فى الطريق. لقد كبا روثينانتى ووقع سيده معه متدحرجًا على الأرض كجوال جيد الاستدارة، وعندما أحب النهوض، لم يستطع بأى حال من الأحوال، فقد حولته إلى معوق أثقال أسلحته القديمة بجانب الرمح والدرع والمهاميز والخوذة، وبينما كان يناضل للنهوض دون أن يقدر مضى يقول:

– لا تهربوا أيها الناس الجبناء المبتذلون، انتظروا، فإنه لم تكن مسئوليتى أن ترونى هنا ممددًا على الأرض، وإنما هى مسئولية الحصان.

أحد صبيان البغال ممن كانوا هناك، كان من الواضح توافر بعض سوء النية عنده، مستمعًا إلى أقوال الشهيد، الممدد على الأرض، المليئة بالغطرسة، لم يستطع تحملها دون أن يجيبه عنها بركلة فى الضلوع. وعندما وصل إليه انتزع منه الرمح، وبعد أن كسره إلى رميحات صغيرة بدأ يلهب جسم صاحبنا دون كيخوتى بضربات كثيرة حتى إنها رغم دروعه، قد طحنته مثلما تطحن حبات القمح الأولى عند إدارة الطاحونة. أطلق سادة الصبى الصرخات بأن يتركه وألا يسرف فى ضربه، لكن الصبى كان شديد الحفيظة، ولم يرد أن يترك مائدة اللعب قبل أن يفنى آخر ما تبقى له من ثورة الغضب. وقد استعان بباقى عُقل الرمح المكسور، حتى

انتهى إلى جعلها تتلاشى فوق جسم الشهيد المسكين الممدد فــوق أرض المعركـــة، ومع كل هذه العاصفة من ضرب العصى التى صار إليها الرمح، والتى كانت ترى فى صعود وهبوط فوقه، لم يغلق فمه مهدذا السماء والأرض، وهؤلاء الآثمين كما تراءوا له.

تعب الصبى البغال، وواصل التجار السير فى طريقهم متسامرين بقص حكاية عقل الرمح التى تبددت على الجسم المسكين، والذى بعد أن رأى نفسه وحيدًا، عـــاد يجرب عما إذا كان يستطيع النهوض، لكن إذا لم يستطعه وهو سليم معـــافى، كيــف يستطيعه وهو مطحون مضعضع؟ ومع ذلك قد اعتبر نفسه سعيد الحظ، إذ بدا لـــه أن تلك كانت نازلة أصلية من نوازل الفرسان المشائين، وعزاها إلى الحصان، ولم يكن ممكنًا له خلال كل هذا النهوض بجسمه المثقل فى كل جزء منه.

الفصل الخامس

حيث تتم مواصلة قصة النازلة التى ألمت بفارسنا

وهكذا عندما رأى أنه بالفعل غير قادر على الحركة قرر الاستعانة بدوائـه المعتاد، والذى كان التفكير فى خطوة جديدة يأخذها من كتبه، واستحـضر جنونـه لذاكرته موقف بالدوبينوس مع الماركيز دى مانتوا، عندما تركه كارلوتوجريجا فى الغابة، وهى قصة معروفة حتى للأطفال، ولم يكن يجهلها الصبيان، ومحتفل بهـا ومصدق من الشيوخ، وهكذا، مع إبراز شعور قوى بدأ يتمرغ فى الأرض، ويقول بهمة كسيرة نَفْس ما يقولون إن الفارس الجريح كان يقوله فى الغابة:

أين أنت سيدتى؟

ألا يؤلمك ضرى؟

أم لا تعرفين عنه، سيدتى!

أم أنك زائفة من غير ولاء؟

بهذه الطريقة واصل القصيدة الشعرية القصصية حتى تلك الأبيات التى تقول:

أوه، أيها الماركيز دى مانتوا النبيل،

عـمـى وسيـــدى بالـــدم!

وأراد له الحظ عندما وصل إلى هذا البيت أن يمر من هناك فلاح من نفـس قريته، وجار له، كان ينقل حملاً من القمح إلى الطاحونة، والذى عند رؤيته لـذلك

الرجل ممددًا هناك اقترب منه وسأله من يكون؟ وماذا يحس من مرض؟ حتى إنــه كان يشكو بكل الحزن. دون كيخوتى اعتقد – دون أدنى شك– أن ذلك الرجل كان الماركيز دى مانتوا، عمه، وهكذا لم يجبه بشيء آخر سوى مواصلة ترتيل أشـــعار الرومانث (القصة)، حيث كان يخطره بالنازلة التى حلت بـــه، وغراميـــات ابـــن الإمبراطور مع زوجته، كل هذا بنفس الطريقة التى يفصلها الرومانث.

أعجب الفلاح بسماع ذلك الهذيان، أثناء انتهائه من خلع الخوذة التى صارت قطعًا صغيرة ممزقة بفضل ضربات العكاكيز التى صار إليها رمحه، ثـــم تنظيـــف وجهه الذى كان مغطى بالتراب، وبمجرد إتمام تنظيفه عرفه وقال له:

– سيد كيخانا – هكذا كان يجب أن يسمى عندما كان عنده عقل، ولم يتحول بعد من أحد الأعيان الوقورين إلى فارس مشَّاء – من فعل بفخامتكم هذا؟

لكنه واصل مع الرومانث عندما سأله، وعندما رأى الرجل الطيب منه ذلـــك خلع عنه الدرع وغطاء الظهر بأفضل ما استطاع ليرى عما إذا كانت به جـــروح، لكن لم ير دمًا أو أى أثر لجرح. حاول إنهاضه من سقطته، وليس بجهد قليـــل مـــا بذله لوضعه فوق حماره، لكونه مطية أكثر سلاسة. جمع الأســـلحة حتـــى نـــشارة الرمح، وحملها فوق روثينانتى الذى أخذ بعنانه كما أخذ بمقود الحمار، وساقهم نحو قريتهم، وقد أخذ منه التفكير كل مأخذ لما سمعه مـــن هـــذيان كـــان يرتلـــه دون كيخوتى. ولم يكن دون كيخوتى أقل تفكيرًا، وكان جيد الطحـــن والدشـــيش، فلـــم يستطع أن يصلب عوده فوق الحمار، ومن لحظة لأخرى كان يطلق تنهيدة تصَّاعد للسماء، بطريقة جعلت الفلاح يسأله من جديد عن أى مرض يشكو؟ ولم يظهـــر إلا الشيطان يستحضر فى ذاكرته القصص التى توافق أحداث حياته، لأنه عنـــد تلـــك النقطة ناسيًا قصة بالدوبينوس تذكر قصة العربى ابن سراج مـــع عمـــدة إنتيقيـــرة

رودريجودى نارنايس عندما اعتقله، وحمله أسيرًا إلى مقرعموديتــه. وبالــصدفة، عندما سأله الفلاح مرة أخرى عن حاله وبماذا يحــس؟ أجابــه بــنفس الكلمــات والعبارات التى أجاب بها ابن سراج على نفس السؤال من رودريجو دى ناربايس، على الطريقة التى قرأ بها القصة المنشورة فى كتــاب واحــد مــع روايــة ديانــا لخورخى مونتيمايو، مستغلاً موافقتها لحاله، لدرجة أن الفلاح ألقى للشيطان كل ما يسمع من آلة دائمة الدوران بتفاهات، حملته إلى معرفة أن جــاره كــان مجنونًــا، فأسرع بالسير للوصول إلى القرية حتى يخفف غيظه الذى كــان يــسببه لــه دون كيخوتى بأشعاره الملحمية، التى قال فى نهايتها:

– فلتعرف فخامتكم، سنيور دون رودريجو دى ناربــايس، أن هــذه الــشريفة الحسناء التى حدثتكم عنها، هى الآن دولثينيا الجميلة دل توبوسو، والتى من أجلها قمت وأقوم وسأقوم بالأفعال المشهورة للفروسية، والتى عند رؤيتــها سوف ترى أنها لن يرى لها مثيل فى الدنيا.

أجاب الفلاح على ذلك:

– فلينظر فخامتكم، أيها السيد الآثم فى حقي، أنا لست دون دى ناربايس، ولا الماركيز دى مانتوا، وإنما أنا بدرو ألسونسو جــارك، ولــيس فخــامتكم بالدوبينوس ولا ابن سراج، إنما أنت السيد المبجل كيخانا.

أجاب دون كيخوتى:

– أنا أعرف من أكون، وأعرف ماذا يمكن أن أكون، ليس فقط من ذكرت، وإنمــا أيضا فرسان الإثنى عشر النظائر المشهورون والفرسان التسعة أشهر، من ثم فإن كل أمجاد هؤلاء معًا، وأمجاد كل واحد منهم على حدة سوف تفوقها أمجادى.

خلال هذه الدردشة وغيرها وصلوا إلى القرية، عند ساعة حلـول الظـلام، لكن الفلاح انتظر قليلاً حتى يُليِّل الليل أكثر، فلا يرو السيد المطحون فارسًا بهـذه الدرجة من السوء. وعند حلول الساعة المناسبة دخـل القريـة، وفـي بيـت دون كيخوتى الذى كان يضج تمامًا بالجلبة، حيث كان القسيس وحلاق القريـة صـديقا دون كيخوتى يسمعان أمته بصوتها العالى:

– ماذا يبدو لفخامتكم أيها السيد الجامعى بيروبيريس – هكذا كـان يـسمى القسيس – الكارثة التى حلت بسيدى، مرت ثلاثة أيام دون أن يظهر هو أو روثين أو الدرع أو الرمح أو الأسلحة، كم أنا تعيسة! ماذا أفهم من ذلك، وهذه هى الحقيقة أخت حقيقة أننى ولدت لأموت: إن تلك الكتب اللعينـة عن الفروسية التى يملكها، وتعود على قراءتها، من الطبيعى أنها قلبت عقله، والآن أتذكر أننى سمعته كثيرًا يكلم نفسه وأنه يريد أن يكون فارسًا مـشَّاءً، ويريد الذهاب بحثًا عن المغامرات بتلك العوالم، وسواء أكانت تلك الكتـب بهدى من الشيطان أو بارابايس، فإنها قد دمرت العقل الأكثر ذكاء فى كـل لامانشا.

ابنة الأخت كانت تردد نفس الشىء بل إنها أضافت شيئًا:

– فلتعرف، أيها السيد الحلاق نيكولاس – وكان هذا اسم الحلاق– لقد حدث فى مرات كثيرة للسيد عمى بينما كان يقرأ فى تلك الكتب التى لا تعـرف الرحمة من المغامرات يومين بليلتيهما، انتهى بإلقاء الكتاب ووضع يده علـى السيف ومضى يطعن فى الجدران، وعندما تعب، قال إنه قتل أربعة عمـاليق كأنهم أربعة أبراج، وأطلق على العرق الذى أغرق جسمه من التعب أنه دم

الجروح التى أصابته فى المعركة، من ثم شرب إبريقًا كبيرًا من الماء البارد، وقال إنه شفاه وعاد هادئًا،يقول إن ذلك الماء كان مشروبًا عظيم الفائدة أحضره الحكيم أسكيفى، ساحر عظيم وصديق له. لكن أشعر بالذنب، لأنى لم أبلغ فخامتكم بترهات السيد خالى، لعلاجه قبل أن يكون قد وصل لما وصل إليه، وحرق هذه الكتب المحرمة، التى يملك منها الكثير الجدير بالإحراق كما تحرق كتب التجديف بالدين.

قال القسيس:

– هذا ما أقول به أيضًا، وصدقينى أنه لن يمر يوم غد دون أن يحدث ذلك فى حدث عام علنى، ويوصى بحرقها بالنار لأن قراءتها لا تعطى فرصة لصديقى الطيب أن يفعل ما وجب عليه فعله.

كل هذا كان يسمعه الفلاح ودون كيخوتى، مما ساعد الفلاح على فهم مرض جاره، وهكذا بدأ رفع عقيرته بالقول:

– افتحوا فخامتكم للسيد بالدوبينوس والسيد الماركيز دى مانتوا، الذى يأتى به بليغ الجروح، وللسيد العربى ابن سراج، والذى يحضره أسيرًا البطل رودريجو نارباييس، عمدة أنتيقيرة.

على هذه الكلمات خرج الجميع، وكما عرف البعض صديقهم والبعض سيدهم وخالهم، الذى لم يكن قد ترجل بعد عن الحمار، لأنه لم يكن يستطيع، جروا لاحتضانه، فقال:

– فليعلم الجميع أننى أعود بجروح بليغة، بسبب حصانى، احملونى إلى سريرى، ونادوا على الحكيمة أورجاندا إذا كان ذلك ممكنًا لعلاج وتضميد جروحى.

عند هذا قالت الأمة:

- انظروا فى ساعة نحس أرشدنى قلبى أن سيدى تقابل قدميه عشرات، اصعد فخامتكم مُسلِّمًا، وبدون حضور"أورجادا"(*) هذه، نحن سوف نعرف هنا علاجكم، وأكرر: ملعونة مرة أخرى، ومائة مرة، كتب الفروسية تلك التى أعجزت فخامتكم إلى هذا الحد!

حملوه فى الحال إلى السرير، وبحثوا عن الجروح لعلاجها، فلم يجدوا جرحًا واحدًا، فقال هو إن كل ما عنده هو الطحن، بسبب سقطة عظيمة برفقة سقطة روثينانتى، جواده، أثناء قتالهما مع عشرة عمالقة خارقين جسورين، مما يمكن أن يوجد فى شطر كبير من الأرض. قال القسيس:

- تا!تا! توجد عمالقة داخل الرقص؟ أقسم بوجهى أننى سأحرقها غدًا قبل أن يحل الليل.

سائلين دون كيخوتى ألف سؤال، لم يحب أن يجيب عن أى منها غير طلبه لطعام ثم يتركونه ينام، فالنوم هو ما كان يعنيه أكثر من أى شىء فى العالم. وقد حدث، وأبلغ القسيس عن طريق الفلاح عن الحالة التى عثر فيها على دون كيخوتى. حكى له كل شىء، مع الترهات التى سمعها عندما وجده وعندما أحضره، مما أرسى رغبة أكبر فى القسيس الجامعى أن يفعل فى اليوم التالى ما قد فعل، إذ ذهب لمناداة صديقه الحلاق الأسطى نيكولاس، ومعًا ذهبا إلى بيت دون كيخوتى.

(*) تصحيف أورجاندا، الساحرة التى ذكرها دون كيخوتى، مستخرجًا لها من كتب الفروسية التى قرأها.

الفصل السادس

عن الفحص الطريف والعظيم الذى قام به القسيس والحلاق فى مكتبة شريفنا العبقرى

الذى مازال نائمًا(*) حتى الآن، طلب من ابنة الأخت مفتاح الغرفة التى بها الكتب المرتكبة للجريمة. أعطته مع صاحبه الحلاق المفتاح فى رضى وانشراح، دخلوها جميعًا ومعهم الأمة ووجدوا أكثر من مائة مجلد كبير حسنة التجليد، مع كتب أخرى صغيرة لا تقل عددًا. وعندما رأتها الأمة عادت للخروج سريعًا من الغرفة، ثم رجعت مع طاس ماء مقدس ورشاش، وقالت:

خذ فخامتكم أيها السيد الجامعى، رش هذه الغرفة حتى لا يوجد هنا أى ساحر من هؤلاء السحرة الذين يملأون تلك الكتب، والذين يسحروننا، وذلك عقابًا من ألوان العقاب التى نرغب فى إيقاعها عليهم بطردهم من العالم.

بساطة الأمة أضحكت القسيس، وطلب من الحلاق أن يمضى فى فحص تلك الكتب كتابًا كتابًا، لمعرفة ماذا تعالج من موضوعات، فمن الممكن العثور على بعضها مما لا يستحق عذاب النار بالحرق، قالت ابنة الأخت:

لا، لا يوجد أى سبب للغفران لأى منها، لأنها جميعا تسببت فى إيقاع الضرر، والأفضل إلقاؤها من النافذة فى الفناء، وعمل كوم منها، ثم إشعال النار فيها، وإذا لم تفعلوا احملوها إلى الحظيرة، وهناك يشب الحريق، ولن يضايق الدخان أحدًا.

(*) يقرأ هذا الفصل فى استمرارية لآخر كلمة (وجملة) فى الفصل السابق.

قالت الأمة نفس القول، كانت رغبة الاثنتين قتـل هـؤلاء الأبريـاء، لكـن القسيس لم يوافقهما دون أن تقرأ عناوينها على الأقل، أول ما وقع فى يد الأسـطى نيكولاس كان "رباعية أماديس دى جاولا"، قال القسيس:

هذا يبدو سرًا من الأسرار، فطبقًا لما سمعت من قول إن هذا الكتـاب هـو أول كتاب فروسية طبع فى إسبانيا، وكل الكتب الأخرى تفرعت عنه، وهكـذا حسبما أرى فهو مثل مشروع عقيدة لأحد المذاهب الدينية الشريرة، ولـذا وجب علينا الحكم عليه بالنار.

قال الحلاق:

لا يا سيدى، فأنا قد سمعتهم يقولون إنه أفضل الكتب من هذا الجنس، وهكـذا باعتباره وحيدًا فى فنه يستحق الغفران.

قال القسيس:

هذا حق، ولهذا السبب فإنى أهبه الحياة مؤقتًا، فلنر الآخر الذى بجواره.

قال الحلاق:

هو "مغامرات إسبلنديان" الابن الشرعى لأماديس دى جاولا.

قال القسيس:

– فى الحقيقة لا يمكن تقدير الابن بقدر الأب، خذى أيتها السيدة الأمـة هـذا الكتاب وألقيه من النافذة هذه بعد فتحها، إلى الحظـيرة، وضـعى حجـر الأساس لكوم الحريق الذى يجب إشعاله.

وهكذا فعلت الأمة بكل الرضى، وهكذا تطير فروسية إسبلنديان نحو الحظيرة تنتظر بكل الصبر النار التى كانت تتهددها.

قال القسيس: استمر.

قال الحلاق: وهذا التالى هو "أماديس اليونان"، أيضًا كل الكتب بهذا الجانب، حسب اعتقادى، من نفس سلالة أماديس.

قال القسيس: من ثم فليلق بها جميعًا إلى الحظيرة، ففى مقايضة حرق الملكة بنتيكنيسترا، والراعى درانيل، وقصائده الرعوية، والعبارات المشيطنة والمتقلبة لمؤلفها، سأحرق معها الأب الذى أنجبنى، إذا كان يتهادى فى صورة فارس مشاء.

قال الحلاق: أنا مع هذا الرأى

قالت ابنة الأخت: وأنا أيضًا.

قالت الأمة: هذا هو الكلام هيا بهم إلى الحظيرة.

أعطوها الكتب وكانت كثيرة، فاختصرت هبوط السلم وألقتهم إلى أسفل من النافذة.

قال القسيس: وماذا فى هذا البرميل؟

أجاب الحلاق: هذا "دون أوليبانتى دى لاورا".

قال القسيس: مؤلف هذا الكتاب هو نفس مؤلف "حديقة الأزهار"، وفى الحقيقة لا يعرف أى الكتابين أكثر صدقًا أو بالأحرى، أقل كذبًا، فقط أعرف القول بأنه سيذهب إلى الحظيرة لتفاهاته وغطرسته.

قال الحلاق: وهذا التالى "فلوريسمارتى دى أركانيا".

أجاب القسيس: هناك فيه السيد فلوريسمارتي؟ من ثم، صدقًا، يجب أن يستقر فورًا فى الحظيرة، رغم ميلاده الغريب، ومغامراته الشهيرة، فإن عقم وجفاف أسلوبه، لا يترك مكانًا لشيء آخر، إلى الحظيرة به مع هذا الآخر أيها السيدة الأمة.

أجابت هي: كم يسرنى أيها السيد القسيس، وبكل البهجة أنفذ ما أنا به مأمورة.

قال الحلاق: هذا "الفارس بلاتير".

قال القسيس: هذا الكتاب قديم، ولا يوجد فيه شيء يساوى، فليصحب الباقين دون تردد.

وهكذا وقع، وفُتح كتاب آخر، ورأوا أنه يحمل عنوان "قارس الصليب".

من أجل الاسم كبير القداسة الذى يحمله يمكن غفران جهله، لكن أيضًا جرت العادة على القول: "وراء الصليب يكمن الشيطان" إلى النار.

التقط الحلاق كتابًا آخر، وقال:

هذا "مرآة الفروسية".

قال القسيس: أعرف فخامتكم، هناك يمضى فيه السيد رينالدو دى مونتالبان، مع أصدقائه ورفقائه، أكثر لصوصية من كاكو، والاثنى عشر النظائر، مع المؤرخ الحقيقى توربين، وفى الحقيقة فإنى بصدد الحكم عليهم بالنفى الأبدى، ولو حتى بهم قدر من اختراع الشهير ماتيو بوياردو، حيث نسج نسيجه الشاعر

المسيحى لودوبيكو أريوستو، الذى إن وجدته هنا، متحدثًا بلغة أخرى غير لغته، لن أكنَّ له أى احترام، لكن إذا تكلم بلغته سأضعه فوق رأسى.

هو عندى بالإيطالية، لكن لا أفهمه.

أجاب القسيس: لن يكون طيبًا حتى لو فهمته، هنا نغفر للسيد القبطان لأنه لم يحضره لإسبانيا، ويترجمه للإسبانية، فيفقد الكثير من قيمته الطبيعية، الشيء الذى يحدث لكل كتب الشعر التى يرغبون فى تحويلها إلى لغة أخرى،وبكل ما يضعون فى ذلك من حذر شديد وكفاءة بادية، فالأشعار أبدًا لن تصل إلى الأوج الذى بلغته فى ميلادها الأول، وأقول بالفعل، إن هذا الكتاب، وكل الكتب التى تعالج هذه الأشياء الفرنسية، تلقى وتودع فى بئر جاف، حتى مع اتفاق آراء أكثر حول النظر فيما ينبغى عمله معها، مستثنين"برناندو دل كاربيو" الذى يسلك معهم، وآخر يسمى "رونسفال"، فهذان إذا وصلا ليدى أسلمهما للأمة، أو للنار دون انتظار.

كل هذا وافق عليه الحلاق وأخذه مأخذًا طيبًا، وباعتباره عين الصواب، بأن القسيس كان مسيحيا بالغ التقوى، وصديقا حميمًا للحقيقة، ولن يجافيها أبدًا لأى سبب فى العالم وبفتح كتاب آخر رأى اسمه"بالميرين دى أوليبا" وبجواره كان"بالمرين دى إنجلترا"، الذى بمجرد أن رآه القسيس قال:

أوليبا(*) شجرة زيتون فى النهاية تشقق وتحرق، وأكثر من ذلك لايبقى لها رماد، وتلك النخلة الإنجليزية بالميرين دى إنجلترا(*)، تحفظ باعتبارها شيئًا فريدًا،

(*) أوليبا معناها شجرة زيتون، وبالميرين نخلة، كلمتان أصلهما لاتينى يترجمهما القسيس إلى الإسبانية.

ومن أجله تعد علبة مثل تلك التى وجدها الإسكندر فى تصفية "داريو" والتى أرسلها لتحفظ فيها أعمال الشاعر هرميروس. هذا الكتاب، أيها السيد الصديق، ذو سلطة وتحكم لشيئين: الشئ الأول؛ لأنه بذاته كتاب ممتاز، والشئ الآخر، المشهور أنه قد ألفه ملك فطن للبرتغال.وكل مغامرات قلعة ميراغواردا رائعة، وفيها براعة الحرفية، ورقة أسلوب البلاط ونصاعته، وهم يحافظون فيها على اللياقة والاحترام فيما يتحدث عنه الكتاب كما ويتم هذا باعتباره شيئًا أصيلاً ومفهومًا. أقول: ما لم تر غير رأيى، أيها السيد الأسطى نيكولاس إن هذا مع أماديس دى جاولا يبقيان بعيدًا عن النار، وكل ما بقى دون فحص أو بحث إلى الإعدام.

أجاب الحلاق: لا أيها السيد الصديق، فهذا الذى فى يدى هو السائر فى الآفاق "دون بليانس".

أجاب القسيس: من ثم هذا مع الجزء الثانى والثالث والرابع، تحتاج لقليل من الراوند لتطهير الحمية الزائدة عن الحد فيهما، ومن الضرورى أن يحذف من صفحاتها كل ما يتعلق بقلعة الشهرة، وقدر من السباب الهائل، مما يستدعى تأجيل نهايتها، وكما يتم إصلاحها، ستعامل برحمة أو بعدالة، وحتى يتم ذلك خذها، أيها الصديق، إلى بيتك، لكن لاتسمح لأحد بقراءتها.

قال الحلاق: هذا يسرنى.

ودون أن يرغب فى مزيد من تعب قراءة عناوين كتب فروسية، أمر الأمة أن تحمل كل الكتب الكبيرة وتلقى بها فى الحظيرة. ولم يقل ذلك إلى بلهاء أو صماء، وإنما إلى من ترغب فى إحراقها فى إنجاز تام للحريق، حتى إن تقل

الحمل مع نحافتها وضعفها لم يحل دون إمساكها بثمانية كتب وإلقائها دفعة واحدة من النافذة. ولحملها كتبًا دفعة واحدة فى كل مرة سقط منها كتاب تحت أقدام الحلاق، الذى استبدت به الرغبة لمعرفة من كان ورأى"تاريخ الفارس المشهور تيرانتى البلانكو".

قال القسيس، صارخًا: بحق الإله! هل يوجد هنا هذا التيرانتى البلانكو! أعطنى إياه، أيها الصديق، وأعترف أننى وجدت فيه كنزًا من السرور، ومنجمًا من إزجاء الفراغ. هنا يوجد دون كيريليزون دى مونتالبان وأخوه توماس دى مونتالبان والفارس فونيسكا فى المعركة التى خاضها الشجاع تيرانتى مع الكلب الضخم المخيف، ونوادر الوصيفة بلاثير دمييبيدا، وغراميات الأرملة ربوسادا وأكاذيبها، والسيدة الإمبراطورة وعشقها لخادمها. أقول لكم الحق، أيها الصديق، السيد الصديق، إنه بأسلوبه يعد خير كتاب فى العالم، فيه يأكل الفرسان وينامون فى بيوتهم، ويكتبون وصية قبل أن يموتوا، مع أشياء أخرى تفتقد فى كل باقى كتب هذا الجنس. مع كل هذا، أقول لكم إن جدارة مؤلفه فى أنه لم يصنع صبيانيات كثيرة فى حيله، تلقى به فى السجن كل أيام حياته. احمله إلى البيت واقرأه، وسترى كم هو حقيقى كل ما قلته.

أجاب الحلاق: هكذا سيكون، لكن، ماذا سنفعل بهذه الكتب الصغيرة التى بقيت؟

قال القسيس: هذه لا يجوز أن تكون فروسية، إنما كتب شعر.

وبفتح أحدها، رأى أنه كان "ديانا" للكاتب خورخى مونتمايور، فقال معتقدًا أن الكتب الباقية كانت من نفس النوع:

– هذه لا تستحق الحريق، مثل الأخرى؛ لأنها لا تحقق الضرر الذى حققته كتب الفروسية، فهى كتب توسع الإدراك دون أضرار وسيطة.

قالت ابنة الأخت: آى، سيدى! سيكون خيرًا أن تأمروا فخامتكم بإحراقها، مثل الكتب الأخرى؛ لأنه لن نكون قد فعلنا الكثير، إذا شفينا السيد عمى من مرض الفروسية، ليقرأ هذه الكتب ليتراءى له أنه أحد الرعاة، يضرب فى الغابات والبرارى مغنيًّا وعازفًا، والذى سيكون أسوأ أن يصير شاعرًا، فحسب ما يقولون، ذلك هو المرض الذى لا شفاء له، يلتصق بصاحبه التصاقًا.

قال القسيس: ماتقوله هذه الصبية حق، وسيكون خيرًا، أن نبعد عن صديقنا تلك العثرة، وهذا الاحتمال القادم. ومن ثم، فلنبدأ بديانا دى مونتمايور، يبدو لى ألا تحرق، وإنما نجرده من صفحات مثل "فيليثيا" الحكيمة، والماء المسحور، وتقريبًا كل الأشعار الطويلة، وتبقى سالمة نثرياته، وشرف أن يكون أول الكتب من جنسه.

قال الحلاق: وهذا التالى هو "لادياناالمسماة"الثانية دى السلمنقى"، وهذا الآخر الذى يحمل نفس الاسم، ومؤلفه"خيل بولو".

أجاب القسيس: من ثم، فكتاب السلمنقى يصاحب ويبارك كتب الحظيرة، وكتاب خيل بولو، يحفظ كما لو كان نفس الإله"أبولو"، وواصل أيها السيد الصديق، ولنسرع فقد تأخر الوقت.

قال الحلاق وهو يفتح: هذا الكتاب آخر "الكتب العشر فى سعود الحب" تأليف أنطونيو دى لوفراسو، شاعر سرديتيا.

قال القسيس: بحق تعاليم الكهنوت التى لقنت فمنذ أبولو كان أبولو، وعرائس الشعر هن عرائس الشعر،وأن الشعراء هم الشعراء، فمثل هذا الكتاب الظريف الهاذى لم يؤلف مثله، وفى طريقته هو الأفضل، والفريد بين كم كبير من جنسه مما قد خرج إلى نور العالم، والذى لم يقرأه عليه أن يعى أنه لم يقرأ شيئًا ذا ظرف ولطف. أعطنى إياه ياصديقى، ما أرفع قيمة أن وجدته، فكما لو كانوا يقدمون لى حلة كهنوت من ساتان فلورنسا الثمين.

ووضعه على جانب بكل ذوق، وواصل الحلاق قائلاً:

وتلك التالية هى"راعى أبرس"، و"عرائس أينارس"، "وإحباطات الغيرة".

قال القسيس: لا شيء يعمل غير تسليمها إلى الذراع العلمانية للأمة، ولا تسألنى لماذا، لأننا هكذا لن ننتهى.

– والتالى هو"راعى فيليدا".

قال القسيس: ليس هذا هو الراعى وإنما هو رجل بلاط حريص جدا، احفظه باعتباره حلية ثمينة.

قال الحلاق: وهذا الكبير الذى يلى معنون "كنز أشعار عديدة".

قال القسيس: لو أنها ليست كثيرة، كانت ستكون مقدرة أكثر، ضرورى أن ينفض وينظف هذا الكتاب من أشياء كثيرة منحطة المستوى والتى توجد

وسط أشياء عظيمة. احفظه لأن مؤلفه صديقى، واحترامًا لأشياء أكثر بطولية ورفعة فى أعماله الأخرى المكتوبة.

قال الحلاق: وهذا "ديوان أغانى لوبث مالدونادو" .

قال القسيس: أيضًا، المؤلف صديق عظيم لى، وأشعاره من فيه معجبة لمن يسمعها، فكم لصوته نعومة وهو يرتلها، حتى تسحر. وإن كان هناك إطناب فى قصائده الرعوية، لكن الجيد لم يكن قط مطنبًا: احفظه مع الكتب المختارة. لكن أى كتاب ذلك بجواره؟

قال الحلاق: "لاجالاتيا" لميجيل ثربانتس

- إنه صديق عظيم لى منذ سنوات طويلة، وأعلم أنه موهوب فى التعاسات أكثر من الأشعار، كتابه به شيء من اختراع لطيف، يقترح شيئًا، ولا يختم شيئًا، فمن الضرورى الانتظار حتى يصدر الجزء الثانى الذى به يعد، ربما مع التقويم يبلغ كل أسباب الرحمة به، تلك التى ننكرها عليه الآن، وبين الكتب الأخرى خذه سجينًا فى بيتك.

قال الحلاق: أيها السيد الصديق، إن هذا سرور لى، وهنا يوجد ثلاثة، كلها معًا، "ملحمة الأراوكانو" للشاعر ألونسو أرثيا، "والأوسترِيادا" للشاعر خوان روفو بمحكمة قرطبة، و"مونسرات" بقلم كريستوبال دى برويس الشاعر البلنسى.

– كل هذه الكتب الثلاثة، هى الأفضل بين ما كتب من الشعر البطولى فى كل إسبانيا، ويمكنهم منافسة أشهر ما كتب فى إيطاليا من نفس النوع، احفظها كما لو كانت ألذ الأشعار الثمينة العزيزة فى إسبانيا.

تعب القسيس من رؤية كتب أكثر، وهكذا، بعين مغمضة أحب أن يحرق كل ما بقى، لكن كان فى يد الحلاق أحدها مفتوحًا وعنوانه "دموع أنخليكا".

قال القسيس: كنت سأبكيها أنا لو أحرق هذا الكتاب، لأن مؤلفه كان بين أشهر شعراء العالم، وليس فقط فى إسبانيا، وكان محظوظًا عند ترجمته بعض قصص أوفيديو إلى الإسبانية، فجاءت رائعة.

الفصل السابع

عن الخروج الثانى لفارسنا الهمام
دون كيخوتى دى لامانشا

وبينما هم فى فحصهم وإحصائهم لمكتبته، بدأ دون كيخوتى يطلق الصيحات، قائلاً:

– هنا، هنا أيها الفرسان الأبطال، هنا يصبح لزامًا عليكم إظهار بأس سواعدكم الخارقة، حيث كسب رجال البلاط معظم جوائز المسابقة.

حتى يهرعوا نحو تلك الجلبة والضجيج لم تستمر عملية فحص ما تبقى من الكتب وهكذا يظنون أن قصيدة "لا كاروليا"،(*) و"أسد إسبانيا" مع أعمال "الإمبراطور" لمؤلفها دون لويس دى أبيلا، كلها ذهبت إلى النار دون أن يراها أو يسمعها أحد، لكن مما لا شك فيه أن الحظ لو أسعدها لبقيت مع ما بقى، وربما لو رآها القسيس ما كان قد تم تنفيذ هذا الحكم القاسى عليها.

وعندما وصلوا إلى دون كيخوتى، كان قد غادر السرير، مواصلاً صيحاته فى انطلاق، مثخنًا كل الفراغ بضربات السيف وطعناته. وقد كان شديد اليقظة كما لو كان لم يكد يغادر النوم فى السرير. احتضنوه، وبالقوة أعادوه للسرير، وبعد أن هدأ قليلاً، عاد للحديث مع القسيس قائلاً:

(*) لاكاروليا، من تأليف خير ونيمو سامبر(١٥٦٠)، أما قصيدة أسد إسبانيا، فهى للشاعر بدرو دى بكسيًا (١٥٨٦)، ويظن الدارسون أن ثربانتس قد أخطأ اسم القصيدة، ويظنون أنه يشير إلى قصيدة لويس ثاباتا (كارلوس المشهور) المنشورة عام ١٥٦٦ .

قل لى يا سيدى القمص توربين، أليس عارًا كبيرًا لمن نسميهم الاثنى عشر النظائر أن يتركوا رجال البلاط يكسبون هذه المسابقة دون أن يهشوا أو ينشوا، ونحن المغامرون الذين كسبنا الجائزة فى الأيام الثلاثة الماضية.

قال القسيس: فلتتفضل بالصمت فخامتكم، تعالى الله، سوف يجعل الحظ يتعدل، وما نخسره اليوم نكسبه غدًا، والآن "خذ بالك" من صحة فخامتكم، لأنه يبدو لى أنك من الضرورى أن تكون فى غاية التعب إذا كنت غائر الجروح.

قال دون كيخوتى: جروح لا، لكنى مطحون ومضعضع، ولا شك فى ذلك، حيث إن هذا الفاسد دون رودان، طحننى بضربات عكاز فوق جذع شجرة البلوط، وكل هذا بسبب الحسد؛ لأنه يرى أننى الوحيد الكفء لشجاعته. لكن لن أسمى نفسى بعد اليوم رينالدو دى مونتالبان، إذا لم أجعله يدفع الثمن بمجرد أن أغادر هذا السرير، ولن تنفعه حيل سحره. أما فى هذه الساعة، فأحضروا لى طعامًا، فهو بغيتى الآن، واتركوا أمر الثأر لى.

وهكذا كان، أعطوه الطعام، وعاد إلى النوم فى ونام، وهم حوله يعجبون من جنونه.

فى تلك الليلة أحرقت الأمة كل ما كان بالحظيرة من كتب، بأن أشعلت فيها النار، دون استثناء تلك التى استحقت الحفظ فى سجل الخلود فقد وجب عليها أيضًا الحرق والتضرم مع غيرها بسبب سوء حظها وكسل المفتش، وهكذا صار فعلاً وحقيقة قول المثل "يا ما فى السجن مظاليم".

أحد العلاجات التى لجأ إليها القسيس والحلاق لشفاء صاحبهم فى ذلك الوقت كان تسوير غرفة الكتب وتغطيتها؛ لأنه عندما ينهض ولا يجدها (ليس من العجب

تحقيق الأرب بزوال السبب)، سيقولون له بأن ساحرًا قد حملها مع الغرفة نفسها وكل ما حولها. وهكذا كان، فى اللحظة والأوان. وبعد يومين نهض دون كيخوتى، وأول ما فعل أن نزل ليرى كتبه فلم يجد الغرفة حيث تركها. أخذ يتجول من مكان لآخر باحثًا عنها، وعاد إلى حيث تعود أن يرى الغرفة واتجه إلى حيث كان بابها، وأخذ يدفع بيده، ويحاول ويعيد الكرة، وبعد مرور وقت على هذا، دون أن ينطق بكلمة التفت إلى أمته وسألها: "فى أى اتجاه كانت غرفة الكتب". الأمة التى كانت تلقت التعليمات جيدًا أجابته قائلة:

أى غرفة أو أى شيء عنه تبحث فخامتكم؟ لقد انتهى، لم يعد هناك غرفة أو كتب، لأن كل شيء قد حمله الشيطان بنفسه.

قالت ابنة الأخت: لم يكن الشيطان، إنما كان ساحرًا جاء إلى هنا فوق سحابة فى إحدى الليالى، بعد ذلك اليوم الذى رحلت فيه فخامتكم عنا، ومترجلاً عن ثعبان، فى مظهر فارس دخل الغرفة، ولا أعرف ماذا فعل بالداخل، فبعد بعض الوقت خرج طائرًا من السقف، وترك البيت مليئًا بالدخان، وعندما اتفقنا أن ننظر ماذا ترك وراءه، لم نر لا كتابًا ولا غرفة. فقط أتذكر ومثلى الأمة أن هذا العجوز الشرير عند رحيله قال بأصوات منكرة أنه بفضل عداوة سرية بينه وبين صاحب هذه الكتب والغرفة، فعل ما تراه قد فعل فى هذا البيت. قال أيضًا أن اسمه كان مونياتون.

قال دون كيخوتى: أقول أنا "فريستون".

أجابت الأمة: لا أعرف، عما إذا كان يسمى فريستون أو فريتون، فقط أعرف أن اسمه ينتهى بمقطع "تون".

قال دون كيخوتى: هكذا يكون، هذا ساحر حكيم، عدو عظيم لى، به ضغينة ضدى، لأنه يعرف بفنونه وسحره أننى آت حتمًا، لأتجول فى الأزمنة، للقتال فى معركة فريدة مع فارس ينحاز له، وأننى سأتغلب عليه، دون أن يستطيع الحيلولة بينى وبينه، ولهذا يحاول أن يفعل ضدى كل تلك الأشياء المائعة التى فى مقدوره، وأعده أنا أنه سيفشل فى الوقوف ضد إرادة السماء أو الحيلولة دون نفاذ أوامرها.

قالت ابنة الأخت: من يشك فى ذلك؟. لكن، من يلقى بفخامتكم، سيدى العم، فى تلك المضايق؟ أليس من الأفضل أن تبقى مسالمًا فى بيتكم، فلا تضرب فى الأرض بحثًا عن خبز مستحيل فى السماء، دون اعتبار أن كثيرين ذهبوا بحثًا عن الصوف فعادوا منحولين الوبر

أجاب دون كيخوتى آه، يا ابنة أختى، كم ساءت حساباتك! فقبل أن ينحلوا وبرى سأكون قد نتفت لحى كل من يتخيل مس طرف شعرة لى.

لم يحبا الرد عليه أكثر، لأنهما رأيتا أن حمى غضبه بدأت فى الاشتعال.

من ثم، كان الحال أنه بقى فى البيت خمسة عشر يوما هادئًا، دون أن يعطى أى دليل على عودته لترهاته الأولى، وقد قضى تلك الأيام فى "حواديت" بالغة الطرافة واللطافة مع صاحبيه القسيس والحلاق، وفيها كان يقول إن أكثر ما يحتاجه العالم هم الفرسان المشاءون، وأن الفروسية المشاءة تبعث من جديد فيه. القسيس كان يعارضه مرة، ويوافقه مرة أخرى؛ لأنه بدون تلك الصنعة كان سيعجز عن التفاهم معه. وفى ذلك الوقت بحث دون كيخوتى عن فلاح جار له، رجل بر (إذا كان من الممكن إعطاء هذا اللقب لرجل فقير)، وإن كان يحمل قليلاً من الملح فى

جمجمته. باختصار، أغراه كثيرًا ووعده بأجمل الوعود، حتى إن القروى المسكين وافق على الخروج معه باعتباره خادمًا يخدمه. كان دون كيخوتى يقول له بين أشياء أخرى، عليه أن يستعد للذهاب معه بنفس رضية، لأنه يمكن أن تقع له فى إحدى الجزر مغامرة، بعد هزيمة فرسانها التافهين، فيعينه حاكمًا عليها. مع هذه الوعود وأمثالها، سانشو بانثا، وهذا كان اسم الفلاح، ترك زوجته وأولاده، واستقر فى خدمة جاره.

عند ذلك أعطى دون كيخوتى الأمر بتدبير النقود، بائعًا بعض الأشياء راهنًا أخرى، باخسًا قيمة أشيائه، حتى توفر له مبلغ معقول. كذلك دبر درعًا يمتد بعد الصدر للذراع اليسرى، وقد اقترضه من صديق له، ومرقعًا خوذته الممزقة ما استطاعه، أبلغ خادمه سانشو عن اليوم والساعة اللذين حددهما للخروج إلى الطريق، حتى يستعد بما يلزمه من ضروريات. وفوق كل شيء، كلفه بحمل خرج، فأجابه سانشو أنه سوف يفعل، وأنه أيضًا سوف يركب حمارًا قويًا كان فى حوزته، فليس لديه عادة المشى دون كلل على قدميه. وفيما يتعلق بموضوع الحمار كان لدون كيخوتى وقفة باحثًا فى خياله عما لو يذكر أى فارس مشاء صحب خادمه على حمار. لكن لم يرد على ذاكرته قط أحد منهم، ومع كل هذا، بهدف تحقيق أفضل ركوب للخادم أجاز الأمر على أن ينتزع جوادًا من أول قليل أدب يصادفه ليحل محل الحمار. تزود بالقمصان وبالأشياء الأخرى التى استطاع، طبقًا لنصيحة صاحب النزل التى سبق وقدمها له. وعند الحصول على كل هذا منجزًا ومفعولاً، ودون أن يودع بانثا أولاده وزوجته ولا دون كيخوتى ابنة أخته وأمته، فى إحدى الليالى خرجا دون أن يراهما أحد، وسارا فى تلك الليلة سيرًا طويلاً، وعند الفجر، وقر فى ذهنيهما أن أحدًا لن يعثر عليهما، ولو سعى وراءهما بحثًا وتنقيبًا.

ومضى سانشو بانثا على حماره مثل بطريرك، مع خرجه وقربة نبيذه وتعروه الرغبة العظيمة فى أن يرى نفسه حاكمًا لجزيرة كما وعده سيده. أصاب دون كيخوتى فى أخذ نفس المنحدر والطريق الذى سبق له أخذه فى رحلته الأولى، وكان عبر برارى مونتييل، والتى كان يسير بها دون ثقل كبير، كما حدث له من قبل، لأنها كانت ساعة انبثاق الصباح، ولم تكن أشعة الشمس قد اشتدت حتى تؤذى، إلا ما عرض من بعض لسعاتها، فلم يصبهما تعب ولا نصب. قال حول هذا سانشو بانثا لسيده:

انظر فخامتكم، أيها السيد الفارس المشاء، لا تنس أمر الجزيرة الذى وعدتنى به، ومن جهتى سأعرف كيف أحكمها مهما كبرت.

وعلى هذا أجاب دون كيخوتى:

يجب أن تعرف أيها الصديق سانشوبانثا، أنها كانت عادة ملتزمة جدا للفرسان المشائين القدماء، أن ينصبوا خدمهم حكامًا للجزر أو الممالك التى يكسبونها، وأنا عازم على ألا أنقض تلك العادة الشكورة، بل أتمادى فيها وأزيد، لأنهم فى بعض الأحيان، وربما فى معظم الأحيان، كانوا ينتظرون حتى يصير خدمهم هرمين شيوخًا، وهنا بعد أن يفيض بهم كيل الخدمة، والمرور بأيام شدة وليالى سوداء، كانوا يعطونهم لقب كونت أو على الأكثر ماركيز لأحد الوديان أو الأقاليم، وربما أكثر من ذلك أو أقل، لكن إذا أحياك وأحيانى الله، على الأرجح قبل مرور ستة أيام من كسبى مملكة أو أكثر يلحقون بها، ويتناسبون مع ما أرغبه لك سأتوجك ملكًا على واحدة منها. ولا تستكثر أن تحدث أشياء وأشياء لهؤلاء الفرسان، بطرقهم التى لم تَر عينُ مثلها ولم تخطر على قلب بشر، من ثم فما أسهل من أن أنجز لك أكثر مما وعدتك به.

أجاب سانشوبانثا: بهذه الطريقة، إذا صرت ملكًا بإحدى المعجزات التى تقول عنها فخامتكم، فعلى الأقل سوف تأتى خوانًا غيترث حشاشة قلبى لتصير ملكة، وأبنائى ليصيروا أمراء.

أجاب دون كيخوتى: من يشك فى ذلك؟.

أجاب سانشوبانثا: أنا أشك فيه، لأنى أعرف، ولو أمطر الله ممالك فوق الأرض، أن لا مملكة سوف يستقر تاجها بخير فوق رأس مارى غيترث. ولتعرف سيدى، أنها لا تساوى درهمين بوصفها ملكة، وربما يليق عليها أكثر لقب كونتيسة، ومع ذلك، فى هذه الحالة، فليلطف الله!

أجاب دون كيخوتى: اترك الأمر لله، سانشو ولسوف يعطيك ما يناسبك حتى ترضى، لكن لا تخفض من روحك كثيرًا، حتى ينتهى أمرك إلى قبول وظيفة آمر بإقليم أو شيء أقل.

أجاب سانشو: لا، لن أفعل، يا سيدي بخاصة، ولى فى فخامتكم سيد عظيم يعرف إعطائى ما هو لصالحى وأستطيع تحمله.

الفصل الثامن

عن النجاح الذى أحرزه الفارس الهمام دون كيخوتى فى المغامرة المخيفة، والتى لا تخطر على بال مطلقًا مع طواحين الرياح وأحداث أخرى جديرة بأن يسر الخاطر تذكرها

وبينما هم فيما كانوا فيه، اكتشفوا ثلاثين أو أربعين من طـواحين الريـاح، والتى كانت فى تلك البطاح، وما أن رآها دون كيخوتى حتى نطق ولخادمه قال:

- الحظ يمضى مرشدًا لنا إلى أفضل أشياء تتجاوز ما طمحـت رغباتنـا إليـه، لأنه،انظر هناك يا صديقى سانشوبانثا، حيث يتكشف ثلاثون أو أكثر قليلاً من المردة الخارقين، والذين معهم أفكر فى شن معركة، ونزع حياة جميعهم، وبإزاحتهم سنبدأ فى اقتناء الثروة، فتلك حرب طيبة، وهى خدمة جليلـة لله أن لا نبقى من هذه الذرية أحدًا فوق سطح الأرض.

أية مردة ؟- قال سانشو بانثا.

- أولئك الذين تراهم هناك - أجاب سيده- بأذرع طويلة، من المعتاد أن تبلـغ حوالى فرسخين.

- انظر فخامتكم - أجاب سانشو- فهذه التى ترى هناك ليست عمالقة، وإنمـا هى طواحين هواء، وما يبدو كأذرع ليس إلا أجنحة المراوح، التى عنـدما تضربها الرياح تدير الطاحونة.

- يبدو لى جيدًا - أجاب دون كيخوتي-، أنك لست على علم بمجريات مثل هذه المغامرات، إنهم مردة، وإذا كنت خائفًا ابتعد واشغل نفسك بالصلوات فى هذا الفضاء، وسأذهب لأدخل معهم فى معركة وحشية وغير متكافئة.

منتهيًا من قول ذلك، ألهب جواده روثينانتى بالمهاميز، دون أن يأبه بصرخات خادمه سانشو، التى كانت تحذره من أنها يقينًا طواحين هواء، وأن من يتجه لقتالهم ليسوا مردة. لكنه مضى شديد الاقتناع من أنهم مردة، ولم يسمع صرخات خادمه، ولم يشرع فى رؤية ما كان أمامه مع شدة اقترابه من الطواحين، وبدأ المعركة بقوله بأصوات عنيفة:

- لا تهربوا أيها الجبناء، أيتها المخلوقات التافهة، فإن فارسًا واحدًا فقط هو الذى يهاجمكم.

وهنا ارتفع بعض الشيء هبوب الريح، وبدأت الأجنحة العظيمة فى الحركة والدوران، وما أن رأى ذلك دون كيخوتى حتى قال:

- ولو حركتم أذرعًا أطول من ذراعى المارد برياريو، فإنكم ثمن ذلك لى سوف تدفعون.

وعند قوله هذا، وموصيًا على نفسه سيدته دولثينيا من أعماق قلبه، طالبًا منها أن تكون فى نجدته فى مثل تلك الضائقة، ودارعًا صدره جيدًا بدرعه، شارعًا رمحه من قاعدته الحديدية على يمين صدره، دفع روثينانتى بأقصى سرعة، وتناطح مع أول طاحونة أمامه، طاعنًا بالرمح فى أحد أجنحتها، فحركته الرياح فى ضراوة، فجعل من الرمح نشارة، شادًا إليه خلفه الفرس وفارسه، الذى انقلب يدور حول نفسه فى تلك البطاح. وخف سانشوبانثا لنجدته، دافعًا حماره نحوه بأقصى سرعة، وعندما لحق به وجده عاجزًا عن النهوض، لقوة السقطة التى أصابته مع روثينانتى.

– لا قوة إلا بالله! – قال سانشو –. ألم أقل لفخامتكم أن تتروى جيدًا فيما تصنع، فلم يكونوا إلا طواحين رياح، وأنكم لا يمكنكم تجاهل ذلك إلا إذا كنتم تحملون تلك العماليق الأخرى فى رأسكم.

– اخرس، أيها الصديق سانشو– أجاب دون كيخوتى–، فإن أمور الحرب، أكثر من أى أمور أخرى، مشدودة إلى تقلب مستمر أكثر بكثير مما أظن، والحقيقة، أن ذلك الحكيم فريستون الذى سرق الغرفة والكتب، قد مسخ هؤلاء المردة طواحين، حتى يحرمنى من مجد التغلب عليهم، للعداوة التى يكنها لى، لكن فى نهاية النهايات، فإن فنونه الشريرة لن تقدر إلا على القليل ضد قوة سيفى.

– فليكن بقدرة الله– قال سانشوبانثا.

وعندما ساعده على النهوض عاد للصعود على روثينانتى، الذى كان نصف مكسور الكتفين. وفى حديثهما عن هذه المغامرة المنتهية، واصلا الطريق عبر مينا لابيثى، لأنه هناك كما قال دون كيخوتى ليس ممكنًا تجنب العثور على مغامرات كثيرة ومتنوعة، لكونه مكان عبور كثيف، ومع ذلك فقد مضى مهمومًا لفقدانه الرمح، وحاكيًا ذلك لخادمه قال:

– أتذكر أننى قرأت أن فارسًا إسبانيًا اسمه دييجو بيريث دى بارجاس، عند كسر سيفه فى إحدى المعارك نزع غصنًا أو جذعًا من شجرة بلوط وبه صنع الأعاجيب فى ذلك اليوم، حيث سحق جمعًا من العرب الأندلسيين، ولهذا نال لقب (الساحق)، وهكذا صار لقبًا له ولنسله منذ ذلك اليوم حتى الآن. وأنا أقول ذلك لأننى عند أول شجرة بلوط أو حور أفكر فى نزع جذع آخر فى

مثل قوة ذلك الجذع القديم حسب تخيلى له، وأفكر أن أحدث به مثل تلك الأمجاد، التى تنال أنت الحظ الوفير باستحقاق الحضور لرؤيتها، وبأن تكون شاهدًا على أشياء لا يكاد المرء يصدقها.

- بعون الله- قال سانشو-، أنا أصدق كل ما تقوله فخامتكم، لكن اعتدل قليلاً؛ لأنك تمضى منحرفًا إلى جانب، وينبغى أن يكون ذلك من إعياء طحنة السقطة.

- تلك هى الحقيقة- أجاب دون كيخوتى، وإذا كنت لا أشكو من الألم، لأنه ليس من المفترض أن يشكو الفرسان المشاءون من أى جرح، حتى لو خرجت منه أمعاؤهم.

- نعم، إن الأمر كذلك، وليس من حقى التعليق- أجاب سانشو-، لكن يعلم الله أنه يريحنى أن تشكو إذا آلمك شيء. وبالنسبة لى أقر بأننى لابد أن أشكو لأقل ألم يصيبنى، إذا لم يكن مقررًا أيضًا ألا يشكو خدم الفرسان المشائين.

لم يفت دون كيخوتى الضحك من بساطة خادمه، وهكذا قال له بأنه يمكنه الشكوى كما يحلو له، برغبته أو غصبًا عنه، فهو حتى تلك اللحظة لم يقرأ شيئًا مضادًا ضمن تعاليم الفروسية. قال له سانشو فلينظر فى أمر أن ساعة الطعام قد أزفت.

قال له سيده إنه ليس فى حاجة للطعام، ويمكنه الأكل عندما يتراءى له. مع هذا التصريح، ثبت نفسه سانشو واعتدل فوق حماره، وأخرج من الخرج ما كان قد وضعه فيه، مضى سائرًا يأكل فى بطء خلف سيده، وبين الحين والحين يميل على فيه قربة النبيذ بكل التلذذ، حتى يمكن أن يكون موضع حسد أكثر رواد حانات مالقة دلالاً. وعندما كان يمضى على هذا الحال، مقربًا المسافة بين الجرعة

والجرعة من النبيذ، لم يكن يخطر على باله أو يذكر أى وعد من الوعـود التـى وعده بها سيده، ولا كان يبذل أى جهد فى السير باحثًا عن المغامرات مهما كانـت خطيرة بل سار بكل الراحة.

باختصار، أمضيا تلك الليلة فى أجمة بين أشجار، نزع منها دون كيخـوتى فرعًا جافًا يكاد يكون رمحًا، ودرعه بالحديد الذى انتزعه من الرمح الذى انكسر فى المغامرة السالفة. طوال تلك الليلة لم ينم دون كيخوتى مفكرًا فى سيدته دولثينيا، حتى يوافق ما قرأه من أن الفرسان كانوا يقضون الليالى دون نوم فـى الغابـات، والفيافى وقد سرى عنهم ذكر سيداتهم المحبوبات. ولم يمض سانشو بانثـا الليلـة هكذا، فكما كانت معدته مملوءة، وليس بماء الشكوريا، فقد أمضاها فى نوم هنـىء طول الوقت، ولم يكن ليستيقظ منه، لولا أن نادى عليه سـيده، حتـى مـع أشـعة الشمس التى تسقط على وجهه أو تغريد الطيور التى اندفعت فى بهجة شديدة لتحية وصول اليوم الجديد، وعندما نهض تحسس القربة، فوجـدها أنحـف مـن الليلـة السابقة، فتخاذل قلبه، لما بدا له أنهم ليسوا فى طريق به يمكـن تعـويض النبيـذ المسكوب فى معدته. لم يرغب دون كيخوتى فى الإفطار لأنه كما يقولـون، كـان يتغذى بالذكريات. انحرفا إلى طريقهما الذى كان يبدأ نحو مينا لابيثى، وبجهد عند الثالثة بعد الظهر لاح لهما. فقال دون كيخوتى عند رؤيته:

– هنا، أيها الأخ سانشوبانثا يمكننا غمس أيدينا حتى الكوع فى ذلـك المسمى مغامرات. لكن أحذر، مهما رأيتنى فى أعظم الأخطار فى العالم، لا ينبغـى أن تضع يدك على سيفك للدفاع عنى، إذا لم تر أن الذين يهاجموننى من السفلة والمنحطين، فى تلك الحالة يمكن أن تساعدنى، لكن لو كانوا فرسانًا، فلـيس مشروعًا ولست مخولاً مساعدتى طبقًا لقوانين الفروسـية، حـتى تـصبح منصبًا فارسًا.

– على فكرة، سيدى– أجاب سانشو–، ستكون مطاعًا جدًا فى هذا، فوق ذلك فيما يخصنى فأنا مسالم، وعدو لتوريطى فى الضجيج والعجيج أو الأزمات، لكن هناك حقيقة واضحة، أننى فيما يتعلق بالدفاع عن نفسى فلن أراعى شيرًا تلك القوانين، لأن قوانين السماء والأرض تسمح لكل من كان أن يدافع عن نفسه ضد من يريد أن يعتدى عليه.

– لا أقول غير ذلك– أجاب دون كيخوتى–، وسوف أراعى ذلك أيضًا جيدًا، كما يراعى التقى صلاة الأحد.

وبينما هما فى هذا الحوار والحديث، أطل على الطريق راهبان من النظام الرهبانى سان بنيتو، وكانا فارسين كل منهما يمتطى هجانًا سريع الجرى، ولم يكن ذلك الهجان أكثر من بغلة صغيرة. كانا يضعان واقيًا للعين من الشمس، بجانب مظلات تظلهما. خلفهما كانت تتقدم عربة مع أربعة أو خمسة أشخاص على ظهر الخيل فى صحبتها مع صبيين للبغال يسيران على الأقدام. كانت فى العربة كما عرف بعد ذلك سيدة من بيثكايا تتجه إلى أشبيلية، حيث كان زوجها فى طريقه إلى أمريكا، إذ تم تعيينه فى منصب كبير الشرف. ولم يكن الراهبان على علاقة بها، مع أنهما كانا يسلكان نفس الطريق. لكن لم يكد دون كيخوتى يلمحهما حتى قال لخادمه:

– إما أننى أخدع نفسى أو أننى أمام المغامرة الأشهر فيما رأى الناس؛ لأن هذه الأشباح السوداء يجب أن تكون، وهى كذلك، دون شك، لسحرة يحملون إحدى الأميرات أسيرة فى تلك العربة، ومن اللازم القضاء على هذه الجريمة بكل سطوتى.

– سيكون ذلك أسوأ من طواحين الرياح–قال سانشو–. انظر يا سيدى، فهذان راهبان من سان بنيتو، أما العربة فلابد أن تكون لبعض المسافرين. فانظر لقولى لك وانظر جيدًا فيما تفعل، فلا يكن الشيطان هو الذى يخدعك.

- لقد انتهى وقلت لك يا سانشو- أجاب دون كيخوتي-، أنك تعرف القليل عن ألاعيب المغامرات: الذى أقوله هو الحقيقة ولسوف ترى الآن.

وعند قوله هذا تقدم واعترض الطريق من حيث كان الراهبان يقبلان. وعند وصوله قريبًا منهما وبدا له أنهما يمكنهما سماع ما سيقوله لهما، رفع صوته وقال:

- أيها الناس المشيطنة والخارقة، فلتتركا فى الحال حُرّات سمو الأميرات اللائى هن سجينات لديكما، وإذا لم تفعلا فاستعدا لاستقبال الموت كعقاب عادل لعملكما السيئ.

توقف الراهبان وبقيا مذهولين من صورة دون كيخوتى ومن عباراته والتى ردا عليها:

- أيها السيد الفارس، نحن لسنا مشيطنين ولا خارقين وإنما نحن اثنان من رجال الدين لنظام سان بنيتو نمضى فى طريقنا، ولا نعرف إذا كان فى هذه العربة توجد أميرات أسيرات أو لا توجد.

- لا تجدى معى الكلمات اللينة، فأنا أعرفكما سفلة غدارين- قال دون كيخوتى.

ودون أن ينتظر إجابة منهما دفع روثينانتى إلى الأمام وأشهر رمحه وطعن به الراهب الأول بكل وحشية وقوة حتى إن الراهب إن لم يكن قد ترك نفسه يقع من فوق ظهر البغلة كان سيرغمه على السقوط بعنف بل عميق الجروح إن لم يسقط ميتًا. رجل الدين الثانى الذى رأى الطريقة التى كان يعامل بها رفيقه دق برجليه قلاع بغلته السريعة، وبدأ يجرى بسبب تلك الحملة أخف من الريح نفسها.

سانشو بانثا، الذى رأى الراهب على الأرض، نزل بخفة من على حماره، وهجم عليه وبدأ فى خلع ثيابه الدينية، عندما كان قد وصل فى تلك اللحظة الصبيان اللذان يعتنيان ببغلتى الراهبين وسألاه لماذا يقوم بتعرية الراهب. أجابهما سانشو إن الذى يفعله هو واجبه الشرعى لتصفية بقايا المعركة التى خاضها سيده وكسبها.

الصبيان اللذان لم يكونا يعرفان العبث الساخر أو ما يقال عن التصفية أو المعارك، وقد رأيا دون كيخوتى قد انحرف بعيدًا عن المكان مخاطبًا السيدات اللائى فى العربة، هجما على سانشو وألقياه على الأرض، دون أن يتركا شعرة فى لحيته دون نتف، وانهالا عليه طحنا بالركلات، وتركاه ممدًا على الأرض بدون حس أو نفس، وظلا هكذا دون توقف ولو للحظة، وعاد الراهب للركوب وكله خوف وجبن، وعلى الوجه لم يبق لون، وعندما وجد نفسه على ظهر الدابة، اندفع خلف رفيقه الذى كان ينتظره على مسافة غير قريبة، ومن هناك كان يراقب، فى انتظار كيف تتوقف تلك الهجمة، ودون رغبة فى ترقب نهاية ما كان قد بدأ من أحداث، واصل الراهبان الطريق، يحثان الخطى، كأن وراءهما الشيطان فى ظهريهما.

دون كيخوتى كان - كما سبق القول- يخاطب سيدة العربة قائلاً لها:

- إن جمالكم يا سيدتى كفيل بأن يحقق لشخصها أى أمنية تخطر على بالها، لأن دناءة اللصوص مختطفيها جاثمة مهزومة وكسيرة فوق الأرض، بقوة ساعدى هذا، وإن لم يكن يضيرك معرفة اسم محررك، فاعلمى أن اسمى دون كيخوتى دى لامانشا، فارس مشاء ومغامر، وأسير من ليس لها نظير، الجميلة دونيا دولثينيا دل توبوسو، وباعتباره ثمنًا للجميل الذى استقبلتيه منى، لا أريد شيئًا آخر غير أن تعودى إلى التوبوسو، ومن طرف أثبتى حضورك أمام تلك السيدة، واحكى لها ما صنعت من أجل حريتك.

كل ما كان يقوله دون كيخوتى كان يسمعه أحد خدم العربة، وكان من بيثكايا، والذى عندما رأى هذا لا يدع العربة تتقدم، وإنما لابد أن تدور إلى الخلف كما كان يقول نحو التوبوسو، ذهب إلى دون كيخوتى، وأمسكه من الرمح، وقال له بلغة إسبانية رديئة، قد اختلطت بها لغة بيثكايا فصارت أردأ:

– هيا أيها الفارس، ما أسوأ ما تفعل، بحق الله الذى (خالقنى)، إذا لم تترك (عربة)، هكذا تقتل نفسك لأنى من بيثكايا.

رغم هذا، فهمه دون كيخوتى جيدًا، وبسكينة عميقة أجابه:

– إذا كنت فارسًا– وأنت لست كذلك– كنت قد عاقبتك على سفالتك وجرأتك، أيها المخلوق التافه.

وعلى هذا أجاب الخادم البثكاوى:

– أنا، لا فارس؟ أحلف بالله أنك تكذب باعتبارك مسيحيا، فإذا الرمح تطلق، والسيف تسحب، سترى كيف سريعًا تحمل الماء للقط(*)، وأنا بيثكاوى فى الأرض، وشريف فى البحر، وشريف من أجل الشيطان، وتكذب إذا قلت شيئًا آخر.

– الآن سوف ترى، كما كان يقول أجراخس أحد فرسان أماديس.

وملقيًا بالرمح فوق الأرض، سحب سيفه، وعدل درعه محكمًا له، وهجم على البيثكاوى بعزم سحب روحه من جسمه. البيثكاوى رآه هكذا مقبلاً، على الرغم من أنه كان يود الترجل عن البغلة، والتى كانت من رديئات بغلات الإيجار، ولم يكن عليه أن يثق فيها، لكنه لم يستطع فعل شيء سوى سحب سيفه، ورأى

(*) المثل يقول: أحمل القط للماء، ويعنى الانتصار أو كسب أمر بالغ الصعوبة والخطر. ولأن هذا يخلط فى الإسبانية قلب المثل.

جيدًا أنه كان قريبًا من العربة حيث استطاع أخذ "حشية"، أدت له وظيفة الدرع، وهنا هجم كل منهما على الآخر، كما لو كانا عدوين هالكين. باقي الناس، حاولت أن تقيم السلم بينهما، لكن لم يستطيعوا، لأن البيثكاوى بعباراته المهلهلة كان يقول لهم إن لم يتركوه يكمل معركته فسوف يقتل سيدته وكل الناس الذين قد يعوقونه. سيدة العربة متعجبة وخائفة مما كانت ترى، قالت لسائس العربة أن ينحرف عن هناك بعض المسافة، ومن بعيد شرعت تنظر للموقعة الصارمة الوطيس، والتي فيها أصاب البيثكاوى دون كيخوتى بطعنة عظيمة على الكتف، فوق الدرع، وعند تلك الطعنة التى تلقاها فارسنا دون دفاع، انشق درعه حتى خصره. دون كيخوتى الذى أحس بوطأة تلك الضربة الهائلة صرخ صرخة عظيمة، وهو يقول:

– سيدة روحى دولثينيا، يا زهرة الحسن، أنقذى فارسكم هذا، والذى فى سبيل إرضائكم يوجد فى هذا الضيق.

عند قول هذا، أحسن قبضته على السيف، وأحكم تغطية صدره بالدرع، وهجم على البيثكاوى، كل ذلك فى دفعة واحدة فى نفس الوقت، عازمًا على المغامرة بكل شئ فى ضربة واحدة.

البيثكاوى الذى رآه هكذا مقبلاً فى هجوم عليه، فهم جيدًا من حماسه همة شجاعته، وقرر أن يفعل نفس الشيء مثل دون كيخوتى، وهكذا انتظره محكمًا تغطية نفسه بحشيته، دون أن يستطيع المناورة ببغلته لا يمنة ولا يسرى، والتى أخذ منها التعب مأخذه، فلم تكن معدة لمثل هذه الصبيانيات، من ثم لم تقدم خطوة أو تؤخر. وكما سبق القول، أتى دون كيخوتى مهاجمًا البيثكاوى المحتاط، بالسيف مشهرًا، والعزم على شقه شطرين، وكذا كان البيثكاوى فى الانتظار رافعًا سيفه ومحتميًا بالحشية، وكل الملابسات كانت مخوفة ومعلقة اعتمادًا على تلك الضربات

القاصمة التى كان يتهدد بها أحدهما الآخر وسيدة العربة وباقى خادماتها كن يقدمن الدعوات والنذور لكل صور القديسين وبيوت العبادة فى إسـبانيا، كـى ينجـى الله خادمها، وينجيهن جميعًا من هذا الخطر العظيم الذى هن فيه قائمات. لكن الـضرر فى كل هذا، أنه عند تلك النقطة والنهاية، ترك مؤلف تلك الحكاية المعركة معلقـة، معتذرًا بأنه لم يجد شيئًا أكثر مكتوبا عن أمجاد دون كيخوتى، مما يمكن الرجـوع إليه. لكن الطيب فى الأمر حقيقة أن المؤلف الثانى لهذا العمل لم يستطع تـصديق أن تلك القصة الشائقة يمكن أن تسلم لقوانين النسيان، ولا أن عباقرة لامانـشا لـم يكونوا متشوفين بعض التشوف حتى لا يحوزوا فى سجلاتهم أو فى أماكن قراءتهم بعض الأوراق التى تعالج أحوال هذا الفارس المشهور، وهكذا بهذا الخيـال، لـم ييأس من أن يعثر على نهاية هذه القصة اللطيفة، وقد وافقت السماء قصده، فعثـر على ما أراد مما سيحكيه فى الجزء الثانى(*).

(*) الجزء الثانى من القسم الأول من هذه الرواية، والتى نشرت عام ١٦٠٥ فى أربعة أجزاء، كانت هنا نهاية الجزء الأول منها.

الفصل التاسع

حيث تختتم وتوضع نهاية للمعركة الفخيمة بين البيثكاوى الجسور والمنشاوى البطل الغيور

تاركين فى الجزء الأول البطل البيثكاوى، واللامع الشهرة دون كيخوتى بالسيوف مشهرة خارج أغمادها عارية، لإفراغ طعنتين قاتلتين على وتيرة واحدة أيهما تشق الجسم من أعلاه إلى أدناه، حتى إنهما إن أصابتا فى "المليان"، شق بهما الجسدَ - نصفين، كما يشق الرمان.

وفى هذه النقطة التى نما فيها الشك، وقفت تلك القصة المستلطفة، وبقيت مقطوعة غير موصولة، دون أن يقص علينا مؤلفها أنباء ما يمكن أن يقع، فيما بقى منها وانقطع.

سبب لى هذا أعظم الضيق، إلا أنه أيضًا بسط قراءتها لم يتحول إلى قبض، عند التفكير فى صعوبة الطريق المطروح للعثور على الكثير، حسب ظنى مما بقى من تلك القصة البهية الملذوذة. وبدا لى أنه الأمر المستحيل والخارق لطيب العادة أن مثل هذا الفارس الهمام سوف ينقصه أحد الحكماء كى يحمل على عاتقه كتابة أمجاده التى لم يسبق رؤية مثلها قط، وهو أمر لم ينقص أحدًا من الفرسان المشائين، الذين - كما يقول الناس- لا يذهبون إلى مغامراتهم، إلا وبصحبة كل منهم واحد أو اثنان من الحكماء - كما لو كان تقليدًا متبعًا - يكتب أو يكتبان أعمالهم بل يرسم أو يرسمان أدنى خاطرة تمر على فكرهم أو أصغر صغيرة من

صبيانياتهم، مهما كانت مخبأة فى البال، ولم يكن لزامًا أن يكون هذا الفارس الهمام بمثل هذا الحظ السيئ حتى ينقصه ما غمر "بلانير" وآخرين من أنداده . ومع هذا لم يكن قادرًا على الجنوح إلى الاعتقاد أن صفحات تلك القصة الرشيقة، قد بقيت بدون أطراف، فاسدة الحواف، وكان يلقى اللوم على الزمان بوباله، يلتهم ويستهلك كل الأشياء، مما تركها فى مكان مختبئ أو أنها تآكلت وتلاشت ككل شىء مهترئ.

من ناحية أخرى، بدا لى، حيث إنهم وجدوا بين كتبه بعض الكتب الحديثة مثل "إحباط الغيرة"، و"عرائس ورعاة إينارس"، فإن قصته أيضًا يجب أن تكون حديثة، وأنها إذا لم تكن مكتوبة، فسوف توجد فى ذاكرة أهل قريته، والقرى التى بها تحيط. هذا التفكير أثار فى نفسى اضطرابًا، وشوقًا لمعرفة واقع وحقيقة كل حياة ومعجزات إسبانيينا المشهور دون كيخوتى دى لا مانشا، ضوء الفروسية ومرآتها فى لامانشا، والأول فى عصرنا وفى هذه الأزمنة الرديئة، الذى شرع فى العمل والممارسة للفروسية المشاءة، لإزالة كل عدوان، ونجدة الآرامل، وحماية الصبايا، اللائى كن ينطلقن بسياطهن وجيادهن، من جبل إلى جبل ومن واد إلى واد، وبكل بكارتهن على عاتقهن، إذا صادف ألا يغتصبهن أحد الأنذال أو البلطجية ممن يحملون بلطة أو خوذة أو المردة الخارقين، فتبقى الصبية هى هى التى كانت فى الأزمان القديمة حتى تمام الثمانين عامًا، والتى لم تنم فيها يومًا تحت سقف، حتى تكون قد ماتت، وذهبت إلى القبر لم تمس كما ولدتها أمها. أقول - إذن- من أجل هؤلاء، ومن أجل أشياء أخرى محترمة، فإن همامنا دون كيخوتى جدير بثناء مستمر ومذكور، وأكثر من ذلك، لا يستطيع أحد أن ينكر علىّ الجهد والمساعى التى بذلت بحثًا عن نهاية هذه القصة الظريفة، مع أننى أعرف أن السماء، والحال، والحظ إذا لم يساعدونى سيبقى العالم ناقصًا، وبدون وسيلة لإزجاء الفراغ، واللذة التى يمكن أن تدوم ساعتين لمن يقرأها. وقد وقع أن وجدتها بهذه الطريقة:

كنت يومًا فى شارع (الكنا) بسوق طليطلة، ووصـــل صـــبى يبيـــع بعـــض الملفات والأوراق القديمة لتاجر حرير، وكما كنت هاويًا للقراءة، حتى لو كان لمـــا أجده من أوراق ممزقة فى الشارع، ولهذا الميل الطبيعى التقطت أحد الملفات التـــى كان يبيعها الصبى، ورأيتها مكتوبة بحروف عرفت أنها عربية. ولأنى وإن عرفت الحروف فلن أعرف قراءة الكلمات والجمل، مضيت أبحث عما لو كان هناك أحـــد الموريسيكيين الأعجميين لقراءة الأوراق، ولم يكن صعبًا العثور على مثـــل هـــذا المترجم فى طليطلة ممن يجيدون العربية والإسبانية. وفى النهاية هيأه لى الحـــظ، وما أن شرحت له بغيتى، ووضعت بين يديه الكتاب. فتحه من منتصفه، وقرأ بـــه قليلاً، وبدأ يضحك سألته عما يضحك، فقال من شيء مكتوب فى هذا الكتاب علـــى الهامش كحاشية. قلت له أن يقوله لى، وهو دون أن يتوقف عن الضحك قال:

– كما قلت لك، هذا موجود فى الهامش: "هذه السيدة دولثينيا دل توبوسو التى يشار إليها مرات عديدة فى هذه القصة يقال إن يدها كانت خير يد بين نساء لامانشا فى تمليح لحم الخنـــزير".

وعندما سمعته يقول "دولثينيا دل توبوسو"، بقيت مـــذهولاً وســـاكنًا؛ لأنـــه حينذاك تمثل لى أن تلك الأوراق تحتوى على قـــصة دون كيخـــوتى. مـــع هـــذا التصور، طلبت منه سرعة قراءة البداية، وفاعلاً ماطلبت، مرتجلاً العربية بترجمة إسبانية، قال إنها كانت تقول "قصة دون كيخوتى دى لامانشا"، تأليف سيدى حامدى بن إنجيلين، المؤرخ العربى. كان على أن أمارس أكبر الحرص، لتجنب الـــسعادة التى غمرتنى عندما وصل إلى مسامعى عنوان الكتاب، وساطيًا على تاجر الحرير اشتريت كل أوراق وملفات الصبى بنصف ريال، ولو كانت عنده فطنة، وعرف كم كنت أشتاق إلى ما فى أوراقه، كان فى إمكانه رفع الـــسعر إلـــى ســـتة ريـــالات،

وانصرفت مع الموريسكى إلى رواق الكنيسة الكبرى، ورجوته أن يحول هذه الأوراق وكل ما يتعلق فيها بدون كيخوتى إلى الإسبانية، دون أن يحذف منها شيئًا أو يضيف، دافعًا له ما أراد من أجر، فاكتفى بربعتين من الزبيب، وربعين من القمح، ووعد بترجمتها جيدًا وفى أمانة بأسرع ما يستطيع، لكننى، حتى أسهل الصفقة أكثر، وحتى لا أترك للهواء هذه اللقية النادرة، اصطحبته إلى بيتى، حيث، فى أكثر بقليل من شهر ونصف الشهر، أنهى العمل جميعه، بنفس الطريقة التى يظهر بها هنا.

وفى أول ورقة كانت مرسومة بشكل طبيعى جدًا معركة دون كيخوتى مع البيثكاوى، موضوعًا فى نفس الوضع الذى تحكيه القصة، السيوف مرفوعة فى الهواء، وأحدهما مغطى بدرعه والآخر بالحشية، وبغلة البيثكاوى بشكل مرئى رؤى العيان، وكانت تبرهن على أنها بغلة إيجارمن أجل التنشين عليها. البيثكاوى كان مكتوبًا على قدميه: " دون سانشو دى أثبيتيا"، والذى كان بغير شك لابد أن يكون اسمه، وعلى أقدام روثينانتى كان اسم آخر: "دون كيخوتى". وكان روثينانتى مرسومًا بشكل رائع متطاول وممدود، فى نحافة وتخفف، بارز العمود الفقرى، مسلول موسوم، يبرهن فى تفوق كم هو جدير بما يملك من مظهر وخصائص براعة بانطباق اسم روثينانتى عليه. بجواره كان مرسومًا سانشو بانثا الذى كان يمسك بخطام حماره مكتوبًا على قدميه "سانشو ثنكس"، ويجب أن يكون هذا اسمه، كما يؤكد الرسم الذى أبداه بكرش كبير، وقامة قصيرة، وسيقان طويلة، ولهذا استحق اسم بانثا(*)، مع اسم ثنكس؛ والقصة تسميه بهذين الاسمين بين الحين والحين.

وفى الصورة بعض الدقائق التى يجب وصفها، لكنها جميعًا قليلة الأهمية، فلا علاقة لها بأحوال القصة، مع أن كل دقيقة منها ليست سيئة حتى لكأنها تبدو حقيقية.

(*) ثنكس **Zancas** تريد القول: سيقان طويلة، وبانثا **Panza**: كرش. وهنا لعب بالكلمات للسخرية من سانشو، برسم كاريكاتورى.

ولا يمكن لأحد أن يعترض على حقائق هذه الصورة وصـــدقها، إلا بحجــة واحدة وهى أن مؤلفها عربى، لكونه أصيلاً فى تلك الأمة أنهم كذابون، ولو كـــان ذلك لكونهم أعداءنا الألداء، وليس بسبب ما يمكن إدراكه مـــن أن القــصة بقيــت ينقصها أكثر من الكثير. وهكذا يبدو لى، أنه عندما يمكن للقلـــم ويجـــب عليـــه أن ينغمس فى مدائح هذا الفارس الهمام، كان يظهر أنه بحرفية وصنعة يمر عليها فى صمت الكرام، أمر سيئ الفعل والنية، إذا كـــان لزامًـــا علـــى المـــؤرخين الدقـــة المنضبطة، والصدق، وعدم الانفعال، وأنه لا ينبغى لوى عنـــق طريـــق الحقيقـــة للمصلحة أو الخوف أو الحقد أو الهوى، لأن التاريخ للحقيقة أب، وللزمان صـــنو، وللأفعال مستودع، وعلى الماضى شاهد، وللحاضر مثال وتحذير، وللمستقبل نبوءة وبلاغ. لكن فى هذه القصة سوف يوجد كل ما تهدف من رغبات فى قراءة أكثـــر المستظرف ظرفًا، وإذا نقص فيها بعض الأشياء الطريفة، فسوف يكون بسبب كلب صيد مؤلفها وليس بسبب نقص الموضوع نفسه. وفى النهاية، فالجزء الثانى طبقًـــا للترجمة كان يبدأ بهذه الطريقة :

مشهرة ومرفوعة السيوف الصوارم للبطلين والمقاتلين الغاضبين، لـــم يكـــن يبدو غير أنهما كانا يهددان السماء والأرض وما تحت الثرى، وهكذا كانت منهمـــا الهيئة والعزم. وكان الأول الذى أفرغ ضربته كان البيثكاوى المحمـــوم الغـــضب، والذى أفرغها بقوة كبيرة، وزمجرة مثيرة، و لو لم ينحـــرف هـــذا الـــسيف فـــى الطريق، كانت تلك الطعنة كفيلة بوضع نهاية لمعركته الحاذقة، ولكـــل مغـــامرات فارسنا، لكن الحظ الطيب كان يدخره لجلائل الأمور، فقد لوى اتجاه سيف خصمه، حتى أن- وإن أصابت الطعنة الكتف الأيسر- إلا أنها لم تصبه بضرر أكثـــر مـــن نزع عدة هذا الجانب، قاذفة نحو الطريق شطرًا كبير من خوذته ونصف أذنه، وقد سقطا مع غيرهما إلى الأرض فى حالة يرثى لها، فتركته الطعنة كسيرًا حسيرًا.

فليرحمني الله!، ومن في مقدوره أن يحكي الآن في إحسان للحكي الغضب الذي دخل صدر بطلنا المنشاوي، عندما رأى نفسه واقفًا بتلك الطريقة. لا تقل شيئًا غير ما حدث بهذه الطريقة: اعتدل مرة أخرى مثبتًا نفسه في الركاب، وقابضًا أكثر على السيف بيديه الاثنتين، وبتلك الصورة الوحشية أفرغ طعنته في البيثكاوي، حيث وقعت في المليان فوق الحشية، وفوق الرأس، التي لم تكن مكان دفاع جيد من البيثكاوي، فسقط السيف عليها وعليه كأنه الجبل، وبدأ يتدفق الدم من الأنف ومن الفم، ومن الأذنين، وتمايل للسقوط من فوق البغلة إلى الأرض، وكان سيقع دون شك لولا تشبثه برقبتها، لكن مع هذا سحب قدميه من الركاب، من ثم فتح ذراعيه، والبغلة مذعورة من الضربة المهولة، هرولت جريًا في الحقول، لكنها بعد قفزة أو قفزتين سقطت بجانب صاحبها على الأرض.

وقف دون كيخوتي ينظر إليه في هدوء كبير، وكما قد رآه يسقط، قفز من على جواده، وفي خفة وصل إليه، غارزًا سن سيفه بين عينيه، وطلب منه الاستسلام وإن لا، سيقطع رقبته. كان البيثكاوي في غاية الكدر والتعكر، حتى أنه لم يقدر أن يجيبه ولو بكلمة، وهذا كان فيه حتفه، حيث كان دون كيخوتي مثل الأعمى لا يرى لولا أن سيدات العربة، واللائي كن حتى تلك اللحظة يراقبن غائبات عن الوعي هذه الموقعة، ذهبن إليه حيث كان وطلبن منه في غاية الظرف والملاطفة أن يقدم لهن معروفًا وفضلاً، بإعفاء خادمهن من الموت، وعلى هذا أجاب دون كيخوتي:

– بالتأكيد، أيتها السيدات الحسناوات، سأمضي في غاية الرضى إذ أستجيب لطلبكن بشرط وتأكيد، هو أن يعدني هذا الفارس بالذهاب إلى قرية

التوبوسو، ويمثل بين يدى التى لا نظير لها دونيا دولثينيا كرسول لى، حتى تحكم هى عليه بما تشاء.

السيدات الخائفات الوالهات، دون أن يعين بما كان يطلبه دون كيخوتى، ودون السؤال عمن تكون تلك الدولثينيا، وعدوه أن الخادم سوف ينفذ كل ما أمره به.

– إذن، ثقة فى هذه الكلمة، لن أصيبه بعد بأى أذى، مما يستحق نواله منى عن جدارة.

الفصل العاشر

عما اتفق وقوعه بعد لدون كيخوتى حول معركته مع البيثكاوى، وعن الخطر الذى تراءى لسانشو(*)

فى تلك اللحظة، كان قد نهض سانشو بانثا، بعض الشيء قد ساءت معاملة صبيا الراهبين له، وإن كان يقظًا للمعركة التى يخوضها سيده دون كيخوتى، داعيًا الله تعالى أن يمنحه النصر، ومعه يكسب جزيرة ينصبه عليها حاكمًا كما وعده من قبل. ولأنه رأى المعركة منتهية، وأن سيده يعود للصعود فوق روثينانتى، وصل ليمسك له الركاب، وقبل أن يمتطى الجواد ركع أمامه، وأمسك بيده وقبلها، ثم وجه إليه الحديث وقال:

– بوركت سيدى دون كيخوتى، بإعطائى حكم الجزيرة التى كسبتها فى هذه المعركة الحاسمة، ومهما كانت تلك الجزيرة كبيرة فإنى أحس بقوة أننى سوف أعرف أن أحكمها بنفس الحال والمنوال لأى آخر ممن حكموا جزر العالم.

وعلى هذا أجابه دون كيخوتى:

(*) حدث هنا بعض التعديل فى العنوان، حيث إن العنوان الذى وضعه ثربانتس للفصل فى أخريات حياته، لا علاقة له بأحداثه، ولم يفهم سبب تصرف ثربانتس، مما أعطى مبررًا لتعديل العنوان. وتعديل الأكاديمية الملكية للغة عام ١٧٨٠ كان" المحاورة اللطيفة التى دارت بين دون كيخوتى وسانشو" ولم آخذ بهذا التعديل لظهور نفس العنوان فى فصل قادم (الفصل الحادى والثلاثين).

- لتعلم أيها الأخ سانشو، أن هذه المغامرة والمغامرات الشبيهة بها، ليست من مغامرات الجزر، لكنها مفترقات طرق فيها لا يكسب إلا الخروج برأس مفتوح أو أذن مبتورة. التزم بالصبر، ستعرض لنا مغامرات حيث، ليس فقط سوف أتمكن من تنصيبك حاكمًا بل ما هو أكثر.

وبتقديم سانشو الشكر له، وتقبيل يده مرة أخرى، مع تقبيل صفائح الحديد التى تغطيه، ساعده على الصعود فوق روثينانتى، أما هو فصعد فوق حماره، وبدأ فى السير خلف سيده، والذى أطلق عنان جواده دون أن يودع أو يكلم أكثر سيدات العربة، واخترق غابة كانت هناك فى الجوار، ولحق به سانشو يخب ما استطاع بحماره لكن روثينانتى كان سريع الجرى، وعندما رأى نفسه والمسافة تتسع بين سيده وبينه صرخ فيه بأعلى صوته كى ينتظر، وهكذا فعل دون كيخوتى ممسكًا عنان روثينانتى حتى وصل خادمه وقد أخذ منه الإرهاق، والذى عند وصوله قال:

- يبدو لى ياسيدى أن نذهب للجوء بكنيسة حتى لا يتعرض لنا القانون، فكما قد بقى فى أسوأ حال ذلك الذى قاتلته، فقد ينقلون الواقعة للمحكمة التى تعاقب على جرائم البرارى والبطاح، فيقبضون علينا، ويقينًا إذا فعلوا ذلك فقبل كل شيء سوف يكلفنا باهظًا الخروج من السجن.

- اخرس - قال دون كيخوتى- أين رأيت أو قرأت أن فارسًا مشاء مثل أمام العدالة مهما ارتكب من إزهاق الأرواح.

- أنا لا أعرف شيئًا عن "إزهاق الأرواح"- أجاب سانشو- ولا فى كل حياتى أزهقت إحداها، فقط أعرف أن تلك المحكمة مختصة بمن يتشاجرون فى البرارى، وفى غير ذلك لا أقحم نفسى.

– إذن، لا تتضرر، أيها الصديق– أجاب دون كيخوتي–؛ فأنا قادر على إنقاذك حتى من يد الكلدانيين، وأسهل من ذلك محكمة البرارى تلك. لكن قل لي– وحياتك!(*)– هل رأيت فارسًا همامًا مثلى فى المكتشف من الأرض؟ هل قرأت فى التواريخ عن فارس آخر ألمع فى الهجوم، أو أكثر حماسًا فى المعاداة، أو أبصر بالطعن أو أكثر دراية فى جندلة الفرسان؟

– الحقيقة– أجاب سانشو– هي؛ أننى لم أقرأ أى تاريخ قط لأننى لا أعرف القراءة ولا الكتابة، لكن أجرؤ على المراهنة أنه لم يكن لى سيد طول حياتى أكثر جسارة منك. وليشأ الله القدير ألا تدفع ثمن هذه الجسارات أمام المحكمة التى عنها سبق وأن قلت. لكن ما أرجوه من فخامتكم هو أن تتداوى، فتلك الأذن تنزف دمًا كثيرًا، فأنا فى الخرج أحضرت لفائف وقليلاً من المرهم الأبيض.

– كل ما تحمله فى الخرج سيعفو عليه الزمان، لو كنت قد تذكرت إعداد قنينة– أجاب دون كيخوتى–، من بلسم فييرابراس، والذى قطرة منه توفر الوقت والدواء.

– أية قنينة، وأى بلسم ذلك؟ – قال سانشو.

– إنه بلسم – أجاب دون كيخوتى – عندى وصفته فى الذاكرة، ومعه لا يجب الخوف من الموت، ولا التفكير فى موت أحد بسبب أى جرح. وهكذا عندما أركبه، وأعطيه لك، فليس عليك أن تعمل أكثر مما سأقوله: عندما ترانى فى معركة وقد شقونى إلى شطرين من منتصف الجسم (كما يحدث فى العادة

(*) قسم بحياته.

كثيرًا) سوف تحمل برشاقة وبكثير من الحرص وقبل أن ينـــزف الدم ذلـــك الشطر الذى سقط على الأرض، وسوف تضعه على الشطر الآخر البـــاقى فوق الجواد، محتاطًا لأن تلصقه فى مكانه بالضبط وفى مساواة.. من ثم تعطينى مقدار جرعتين فى فمى من البلسم المذكور، وهنا سوف ترانى سليمًا صحيحًا أكثر من تفاحة.

– إذا وجد مثل هذا– قال بانثا– فأنا متنازل من الآن عـــن حكـــم الجزيـــرة الموعودة، ولا أريد ثمنًا لخدماتى الكثيرة والطيبة غير أن تعطـــينى فخـــامتكم الوصفة لهذا الليكور السماوى، والذى سوف تساوى الأوقية منه بالنسبة لى ريالين فأكثر فى أى مكان كان، ولن أحتاج بعد ذلك أن أمضى هذه الحيـــاة فى الكسب الشريف المرهق. لكن احتاج أن أعرف إذا كان سيكلف كثيرًا تركيبه.

– بأقل من ثلاثة ريالات يمكن تركيب أكثر من لترين – أجاب دون كيخوتى.

– يالى من آثم! – رد سانشو منفعلاً–، إذن ماذا تنتظر فخامتكم قبل أن تركبـــه وتعلمنى تركيبه؟

– أصمت أيها الصديق – أجاب دون كيخوتى – فأنا أفكر فى تعليمك أســـرارًا أكبر، ومنحك أفضالاً أجزل، لكن الآن فلنعالج الأذن لأنها تؤلمنى أكثر ممـــا كنت أحب.

سحب سانشو من الخرج الضمادات والمـــرهم. لكـــن عنـــدما أدرك دون كيخوتى أن خوذته ممزقة، كاد يفقد عقله، ووضع يده على السيف، وقـــال رافعًـــا عينيه للسماء:

- إنى أقسم بخالق كل شيء، وبالقديسين الأربعة أصحاب الأناجيل، وبكل مكتوب فيها بعدد حروفها أن أحيا حياة الماركيز دى مانتوا عندما أقسم بأن يثأر لموت ابن أخيه بالدوبينوس، والتى كانت ألا يأكل على مائدة أو يعاشر زوجته أو أشياء أخرى وإن كنت لا أذكرها لكنى أعبر عنها كأنى أذكرها، حتى أحقق ثأرًا تاما ممن صنعوا بى هذا الشيء المشين.

وعند سماع سانشو لهذا قال:

- لتعلم فخامتكم يا سيد دون كيخوتى، أنه إذا أنجز الفارس وعده، بما أمرته من الذهاب والمثول بين يدى سيدتى دولثينيا، سيكون قد التزم بما وجب عليه ولا يستحق عقوبة أخرى إلا إذا ارتكب جريمة أخرى.

- لقد تكلمت وأصبت ياحسان- أجاب دون كيخوتى- وهكذا أفك القسم فيما يتعلق بثأر جديد منه، لكنه سيظل ساريًا ومغلظًا من جديد حول أن أحيا تلك الحياة حتى أمزق خوذة فى مقام خوذتى وبجودها لأحد الفرسان. ولا تظن سانشو أننى أفعل ذلك باعتبارى شيئًا مثل دخان القش، فلى فيما أفعل خير مثال فى خوذة ممبرينو، التى كلفت المغوار ساكريبانتى غاليًا.

- فخامتكم، فلتذهب للشيطان تلك الأيمان، التى هى فى أذى للصحة، وفى إصر للضمير. وإذا لم يكن، قل لى الآن: إذا لم نصادف أيامًا طوالاً رجلاً مسلحًا بخوذة، فماذا علينا أن نفعل؟ هل علينا إنجاز القسم رغم كثرة العقبات والمتاعب، مثل النوم بالملابس كاملة، وعدم النوم فى المعمور من الأرض، وألف تعذيب للنفس آخر، مما يحتوى قسم ذلك العجوز المجنون الماركيز دى مانتوا، الذى تحب فخامتكم العمل به؟ ولتنظر فخامتكم جيدًا، حيث لا

يمضى رجال مسلحون عبر هذه الطرق، وإنما هناك بغالون وسائسو عربات، والذين فقط لا يرتدون خوذات، إنما لم يسمعوا عن وجودها طوال أيام حياتهم.

– تخدع نفسك بهذا – قال دون كيخوتى – لأنه لن يمضى علينا ساعتان فى هذه المفترقات حتى نرى مسلحين آخرين ممن يفدون على قلعة الباركا لغزو أنخليليكا لابيا.

– إلى العمل، إذن، وليكن كذلك – قال سانشو – وليقر عينك الله، حتى تقع الأمور لصالحنا، ويصل ذلك الزمان الذى تكسب فيه تلك الجزيرة، التى تكفينى عناء الطلب الملح، ولايهم أن أموت بعدها.

– لقد سبق وقلت لك سانشو، لا تعط ذلك أية أهمية، فعندما نفتقد جزيرة، فهناك مملكة الدنمرك أو مملكة سوبراديسا، واللتان سوف تأتيان مثل الخاتم فى الإصبع، ولأنها على أرض ثابتة فعليك بأن تبتهج أكثر. لكن لنترك ذلك لموسمه، وانظر عما إذا كنت قد أحضرت شيئًا فى هذا الخرج لنأكله، ثم نذهب للبحث عن قلعة نقضى بها تلك الليلة، ولنصنع البلسم الذى حدثتك عنه؛ لأننى أقسم لك بالله أن أذنى تؤلمنى جدا.

– هنا توجد بصلة وقليل من الجبن، ولا أعرف كم من كسر الخبز، لكن هذه الأشياء ليست طعامًا يليق بفارس شجاع مثل فخامتكم.

– كم تسىء الفهم – أجاب دون كيخوتى – أعلمك، سانشو، أنه شرف للفرسان المشائين ألا يأكلوا الشهرالكامل، أو يأكلوا ما تقع عليه أيديهم،

وكنت ستصبح واثقًا من ذلك إذا كنت قد قرأت قصصًا كثيرة مثلى، ومع كثرتها لم تشر إلى أن الفرسان المشائين يأكلون، إلا إذا كان بالصدفة فى بعض الولائم الفاخرة، التى يقيمونها لهم، وبقية الأيام تمضى بهم يعلكون الهواء. وإن لا ينبغى الفهم أنهم لا يأكلون ولا يقضون الضرورات الطبيعية، لأنهم بالفعل كانوا رجالاً مثلنا، كان عليهم – كما ينبغى الفهم – فى تجوالهم أطول وقت من حياتهم فى الغابات والبرارى بدون طباخ، فلم يكن طعامهم المعتاد أكثر من بعض الأطعمة الخشنة، مثل تلك التى تقدمها لى الآن. وهكذا – أيها الصديق سانشو – لا تشعر بالهم بسبب ما يبهجنى، إلا إذا أحببت أن تصنع عالمًا جديدًا تشد إليه الفرسان المشائين من خطامهم.

– عفوا، فخامتكم، فكما أنى لا أعرف القراءة ولا الكتابة، كما قلت من قبل، لا أعرف ولم أقع على قواعد مهنة الفروسية، ومن الآن فصاعدًا، سوف أمون الخرج بكل لون من الفواكه الجافة لفخامتكم، الذى هو فارس، وسأمونه لى – لأننى لست فارسًا – بأشياء ذات لحم وشحم.

– لا أقول أنا، سانشو – أجاب دون كيخوتى –، إنه مفروض على الفرسان المشائين أكل تلك الفاكهة التى تتحدث عنها، إنما غذاؤهم عادة فى أغلبه منها، ومن بعض الحشائش التى يجدونها فى البرارى، ويعرفونها جيدًا، وأنا أيضًا أعرفها.

– إنه فضل – أجاب سانشو – معرفة تلك الحشائش، فطبقًا لما أتخيل، فإنه سيصير ضروريًا فى أحد الأيام تطبيقها.

وهنا أخرج ما قال إنه يوجد فى الخرج، وأكل الاثنان فى سـلام وسـكينة. ولكن لرغبتهما البحث عن مكان يناما فيه تلك الليلة، أنهيا فى خفة طعامهما الفقير الجاف وامتطيا الدواب، وأسرعا نحو المعمور قبل أن يقدم الليـل . لكـن رحلـت عنهم الشمس والأمل فى بلوغ غايتهما، بجوار بعض أكواخ رعاة الماعز، وقـررا قضاء ليلتهما هناك مع غيظ سانشو من عدم اللحاق بالمعمور، وبهجة سيده بـالنوم ملتحفا السماء، لظنه أن ذلك حدث إيجابى يسهل عليه ابتلاء الفروسية له.

الفصل الحادى عشر

عما وقع لدون كيخوتى مع بعض رعاة الماعز

استقبل من رعاة الماعز بروح طيبة بينما كان سانشو يجد مراحًا ومستقرًا بأفضل ما يكون لروثينانتى وحماره، ثم راح خلف الرائحة التى تبثها مودّعة لها من جسمها بعض شرائح لحم الماعز التى كانت تغلى فى قدر كبير، وقد أراد عند تلك اللحظة أن يرى عما إذا كانت قد نضجت لنقلها من القدر إلى المعدة، إلا أنه أحجم عن فعل ذلك، لأن الرعاة رفعوها عن النار، وفرشوا على الأرض "سطيح خروف"، ورتبوا بسرعة مائدتهم الزهيدة، ودعوا الاثنين إليها، بدلائل على حرارة الدعوة بقدر ما ملكوا من حرارة. جلس حول السطيح ستة منهم، وهم الذين كانوا فى الحظيرة. وقد بدأوا برجاء إلى دون كيخوتى بأن يجلس على مذود متحرك مقلوب بينما بقى سانشو واقفًا كى يقدم له كأسًا من الشراب، وكان الكأس عبارة عن قرن حيوان. وعندما رآه سيده واقفًا قال له:

– لأنك ترى، سانشو، البر الذى يكمن فى الفروسية المشاءة، وطبقًا لهذا فالذين فى أى شأن من شئونها ينغمسون ويلقون فى الحال التكريم والتقدير من العالم، ولهذا أحب أن تجلس هنا بجوارى وفى صحبة هؤلاء الناس الطيبين، وأن تصير نفس الشىء الذى أكونه مهما كنت سيدك بلا منازع، من ثمّ تأكل من طبقى وتشرب من حيث أشرب، لأنه يمكن أن يقال عن الفروسية المشاءة ما يمكن أن يقال عن الحب، أن كل الأشياء تتساوى.

– فضل عظيم! – قال سانشو–، لكن أعرف أن أقول لفخامتكم أنه كما أننى لدى طعام جيد، فأيضًا أفضل أن آكله واقفًا ووحدى فأكون النظير

لإمبراطور جالس. وهكذا إذا قلت الحق، فالطعام يلذ لى أكثر كـــثيرًا – فى ركنى المنعزل بعيدًا عن الترحيب والاحترامات، ولو كـــان الطعـــام خبـــزًا وبصلاً، عن الديوك الرومى على موائد أخرى، حيث يصبح إجباريًا المـــضغ ببطء، والشرب بإقلال، مسح الفم بعد كل لقمة، لا عطس ولا ســـعال إذا أحببت أن أعطس أو أسعل، ولا أفعل أى شىء مما تستجلبه الوحدة والحرية معهما. هكذا، يا سيدى العزيز، فهذا التكريم الذى تريد أن تهـــبنى لكـــونى وزيرًا ولصيقًا بالفروسية المشاءة، مثلما حالى باعتبارى خادمًا لفخـــامتكم، حوّله إلى أشياء أخرى تكون أروح لى وأكثر فائدة، فهذا التكريم وإن كنت أحسن الظن فيه إلا أننى أتنازل عنه منذ الآن وحتى نهاية العالم.

– ومع كل هذا، يجب أن تجلس، لأن من تواضع لله رفع.

وممسكًا له من ذراعه أجبره على الجلوس.

لم يفهم الرعاة تلك اللغة بمفرداتها من خادم إلى فارس مشاء، ولـــم يفعلـــوا شيئًا آخر غير الأكل والصمت، والنظر إلى ضيفيهما اللذين كان كل منهمـــا يلـــتهم شريحة من اللحم فى حجم قبضة اليد ابتلاعًا بكل الرغبة والشهية. وبانتهاء اللحـــم، وضعوا فوق السطيح بعض ثمار "أبو فروة" المملح ونصف مكعب من الجبن شديد الصلابة كما لو كان مصنوعًا من ملاط المونة الجافة. وخلال ذلك لم يكن القـــرن كسولاً، فقد كان يدور حول السطيح دورات ودورات (إذا ملئ أفـــرغ، وإذا أفـــرغ يملأ مثل قادوس الساقية) فبسهولة تم إفراغ من زق إلى زقين من الـــشراب كانـــا هناك ظاهرين للعيان. وبعد أن شبعت بطن دون كيخوتى، ملأ قبضته من ثمار أبى فروة، وناظرًا إليها بعمق، أطلق مثل هذه العبارات:

- ذلك العصر وتلك القرون التى أطلق عليها القدماء اسم الذهبية كانت بهيجة، ولم تسمَّ ذهبية لأن بها كان الذهب، الذى يقدر جدا فى عصرنا هذا، عصر الحديد، وكان يمكن الحصول عليه فى العصر الماضى السعيد دون تعب اللهم إلا جهل من كانوا يعيشون فيه هاتين الكلمتين: ملكك وملكى. كان فى ذلك العصر المقدس كل شيء مشاع. لم يكن ضروريًا بالنسبة لأى أحد للحصول على غذائه المعتاد ممارسة أى عمل سوى أن يمد يده لشجرة البلوط الوطيدة الفروع والسيقان حتى يبلغها، وهى دون ثمن تدعوه إلى ثمارها الحلوة الناضجة. والينابيع الصافية، والأنهار الجارية كانت تقدم نفسها هبة إليهم بأمواهها الوفيرة واللذيذة الشفافة. وفى ثقوب أشجار الصنوبر وفجوات الأشجار كانت تشكل جمهوريتها النحلات الشغالات الفطنات، مقدمة لأى يد، دون غرض، محصولها الخصب ناتج عملها الأحلى من الحلاوة. وأشجار الفلين الشجاعة، دون أى تصنع سوى المجاملة، تفصل عن جسمها قلفها وقشورها العريضة والخفيفة لتغطية أسقف البيوت فوق أعمدة من فروع مغروزة، ليس إلا بغرض الدفاع ضد انعدام رحمة السماء(*). كانت الحياة حينذاك كلها سلام، كلها صداقة، كلها تواد وتراحم، وحتى ذلك الحين، لم تكن قد تجرأت السن الثقيل للمحراث الأحدب على فتح أو زيارة الأحشاء الرحيمة لأمنا الأولى التى كانت، دون أن تكون مجبرة، تمنح بكل أجزاء حرمها الخصب والشاسع و الذى كان قادرًا على الإشباع حتى التخمة، وتغذية وإبهاج الأبناء الذين كانوا حينذاك قادرين عليها. فى ذلك الزمان، كانت تسير من واد إلى واد، ومن ربوة إلى ربوة، الصبايا الجميلات

(*) السماء هنا هى المطر والظروف الجوية.

البسيطات بجدائل أو شعر محلول دون حاجة إلى الملابس غير ما هو ضرورى لتغطية ما تقتضى الأمانة بأمانة، وتحب دائمًا أن يغطى، ولم تكن حلى زينتهن مما يستعمل الآن، من أرجوان فينيقيا، أو كل ألوان الحرير الذائب النعومـــة، وإنما بعض أوراق الخروع الخضراء أو حشائش منسوجة، وبها على الأرجح كن يمضين فخيمات، ومتناسقات، مثلما يمضين اليوم سيدات البلاط بتلـــك الاختراعات المتغيرة والغريبة التى تقدمها لهن حياة البطالة المتطلعة. وفى ذلك الزمان، كان الناس يعبرون عما فى نفوسهم من جمال، كمــا تــدرك تلــك النفوس ذلك الجمال، دون البحث عن اللف والدوران البلاغى من كلمات للثناء. لم يكن هناك الغش ولا الخداع ولا الخبث الذى يختـلط بالحقيقـــة والصراحة. وكانت العدالة بتمام عناصر العدالة دون الجرأة علـــى تعكـــير صفوها أو إغضابها بالمجاملات والمصالح والعدالة الآن كثيرًا ما تنتهك وتعكر وتطارد. وقانون التلبيس حتى ذلك الزمان لم يكن قــد اســتقر فى وعـــى القاضى، لأنه حينئذ لم يكن على أحد أن يقاضى أو على أحد أن يتقاضـــى. الصبايا والأمانة كن يمضين – كما قلت من قبل– حيث شئن، وحيـــدات فريدات، دون خوف من أن ينتهكهن سعى عديم الحياء وشهوانى، فيكـــون ضياعهن وليد مزاجهن وحر إرادتهن. والآن فى قرون زماننا الكريهة، ليست واحدة منهن آمنة، حتى لو كانت فى بروج مشيدة؛ لأنه هناك عبر الفرجات والهواء ومع حمية الرغبة اللعينة، تدخل عليهم دابة الهوى، وتقضى علـــيهن بكل الترحيب من جانبهن. ومن أجل أمنهن، مع مضى الوقت وتزايد الشر، تكون نظام الفرسان المشائين، للدفاع عن الصبايا، وإعطاء المرفأ للآرامـــل، وإنقاذ اليتامى، والمضطرين. وأنا أنتمى إلى هذا النظام أيها الإخوة الماعزيون،

الذين أشكر لهم وليمتهم، وترحيبهم بي وبخادم شعارى ودروعى. وحتى لو كان قانونًا طبيعيًا أن يرحب كل الأحياء إجبارًا بالفرسان المشائين، لكن لمعرفتى أنكم دون معرفة مارستم هذا الغرض الواجب من ترحيب وعطاء لى، فقد توافرت الأسباب أن أشكركم بكل ما يمكننى من إرادة على إرادتكم.

كل هذه الخطبة الحماسية (والتى يمكن تمامًا فهم عذرها) إلقاها فارسنا؛ لأن ثمرات أبى فروة التى قدموها له، استحضرت لذاكرته ذلك الزمان الذهبى، وحفزته على أن يقدم كل هذا الإيضاح للرعاة الماعزيين، والذين دون أن يجيبوه بكلمة مضوا ينصتون له فى بلاهة واستغراق. وفى نفس الوقت كان سانشو صامتًا يأكل أبا فروة، فى زيارة متكررة للزق الثانى؛ لأن النبيذ كاد يثلج معلقًا فى الزق على فرع شجرة فلين.

وكما تأخر دون كيخوتى فى إنهاء كلامه، فإنه عند نهاية العشاء قال أحد الرعاة:

– أيها السيد الفارس المشاء، بكل الحقيقة نطقت، وبأكثر منها تستطيع، من أننا قد استضفناك حال رؤياك، وبكل الإرادة، والآن نحب ممالحتكم وإقرار عينكم، بغناء رفيق لنا، لن يتأخر فى الوصول إلى هنا، وهو صبى فطن وعاشق مستهام، وفوق هذا، فإنه يعرف القراءة والكتابة، وعازف ربابة، لا يوجد مرغوب أكثر منه.

وبمجرد أن أنهى الراعى قوله، سمع صوت ربابة، وفى برهة وصل من كان يعزف عليها، وكان صبيًا فى زهرة الثانية والعشرين، بالغ سماحة الوجه. سأله رفقاؤه عما إذا كان قد تناول عشاءه، فأجاب بالإيجاب، فقال له من إلى العشاء كان يدعوه:

– من ثمّ، أنطونيو، يمكنك أن تغنينا قليلاً، حتى يعلم هذا السيد الضيف أنه أيضًا يوجد فى الجبال والغابات من يعرف الموسيقى. وقد حدثناه عــن قــدراتك الرائعة، ونرغب فى أن تبرهن عليها، وتغنينا بحق، وهكذا أتضرع إليــك أن تجلس وتغنى رومانث عشيقاتك، الذى ألفه عمك البار، وأعجب كثيرًا كل أهل القرية. أجاب الفتى:

– ما أكثر ما يسرنى.

ودون التماس أكثر، جلس على قاعدة بقايا جذع شجرة بلوط، ومعــدلاً مــن ربابته، وبعد ذلك بقليل بكل اللطف، بدأ فى الغناء قائلاً المقول بهذه الطريقة:

أنتونيو

أنا عليم، أوليًا! بعشقك لى

حتى لو لم تقوليه صراحة لى

ولو كان ذلك بالعيون

آه، يا ألسنة العشق الخرساء

*

ولأنى عليم بأنك عليمة

بيقين حبك لى

فلم يكن قط من السعد

أن يعلن الحب فيحد

*

والحق يقال، فقد يكون

أوليًا، أنك لُمحت لى فى سكون

أن روحك من برونز

وصدرك الأبيض من مرمر

*

وهناك فى السديم بين اللوم والعتبي

وضلالات أمانتك الحسنى

قد يكشف الأمل

شاطئ ثوبك

*

أحسنى توازن الطُّعم

وإيمانى أنك قط ما استطعت

إنقاص حبك لى بصمتك

ولا زيادته بإرادتك

*

وإذا كان الحب دماثة

ولديك منها القليل

فإن نهاية آمالى

ستكون حسب أمانى خيالى

*

وإذا كانت خدمة المحبوب الشرط

لجعل أحد الصدور حليمًا

فإن بعض ما منحت من خدمة

دعمتْ صفى بإنجازى لك شرطى

*

ولو نظرت فى الأمر

أكثر من مرة لرأيت

فى أننى أرتدى لك لباس العيد

فى كل يوم بعد العيد

*

وإذا كان الحب والوسامة

يسيران فى طريق واحد

فإننى أحببت أمام عينيك

أن أبدو وسيمًا على مدى الزمان

*

أترك الرقص بسببك

ولم تؤثر عليك ألحاني

التي استمعت إليها على غير موعد

مع غناء ديك منتصف الليل

*

لا أحكي ثناءاتي

مما عبرت به عن جمالك

فمع أنها حقيقية

إلا أنها تحولني إلى المستفز لغضبك.

*

تيريزا دل بيروكال

متغزلاً بك نهرتني :

"هل خُيِّل لك هكذا أنك تعشق ملاكًا

أم أن الحقيقة أنك تعشق نسناسًا

*

فغزلك يرجع للكثير وشعرها الزائف قد استعير

ولحسنها بالزلفى للعقل يدير

سراب يخدع حتى كيوبيد الضرير"

تيريزا دل بيروكال

فى الثناء عليك قالت لى:

"هل تظن أنك تعشق ملاكًا

أم أنك تمضى فى عشق قرد

*

بفضل الكثير الذى عنها تقول

فماذا عن شعرها المستعار؟

وماذا عن حسنها المتزلف؟

مما يخدع حتى الحب نفسه"

*

كذبت ما قالت وغضبت

استعدت علىَّ ابن عمها

تحدانى وأنت تعرفين كاليقين

ماذا فعلت، وماذا فعل.

*

لا أحبك الآن من الحب أكوامًا،

ولا أسعى لخطبتك وإن كنت أخدمك

بسبب أمور العشق

فإن حسن قصدى بلا حدود

*

الكنيسة بها شراك نير

قد رفعت قيودها من حرير

ضعى رقبتك فى خناقها

وسوف ترين كيف أضع رقبتى معك.

*

وحيث لا تفعلين، من هنا أقسم

بالقديس الأكثر بركة

ألا أخرج من تلك الجبال

إلا للرهبنة

*

بهذا وضع نهاية لغنائه ذلك الراعى، ومع أن دون كيخوتى رجاه أن يغنى المزيد، إلا أن سانشو لم يوافقه؛ لأنها كانت ساعة النوم فيها أنسب من الاستماع للغناء. وهكذا قال لسيده:

– فخامتكم تستطيعون أن تعدل لنفسك مكانًا مريحًا، بالطبع حيث عليكم قضاء هذه الليلة، فإن العمل الذى يقوم به هؤلاء الرجال الطيبون طوال اليوم لا يسمح لهم قضاء الليالى يغنون.

– أفهمك سانشو– قال دون كيخوتى ردًا عليه–، فإنك تلمح لى أن زيارات الزق تتطلب تعويضًا من النوم أكثر من الموسيقى.

– يعلم الله تبارك بنا جميعًا– أجاب سانشو.

– لا أنكر ذلك– أجاب دون كيخوتى–، لكن عدل لنفسك أنت مكانًا مريحًا حيثما شئت، فالذين يمارسون الفروسية يبدون أكثر راحة ساهرين منهم نائمين. لكن مع كل هذا، سيكون خيرًا، أن تعالج لى من جديد هذه الأذن، فإنها تؤلمنى أكثر من الضرورى.

أدى سانشو ما أمره به، وعند رؤية أحد الرعاة للجرح، قال له عليه ألا يحمل همًا لأنه سوف يضع له دواء سوف يشفيه بسهولة. وهكذا أخذ بعض أوراق نبات إكليل الجبل، والتى كانت تملأ البر هناك، ثم مضغها وخلطها بالملح، ومغطيًا بها الأذن ربطها بضمادة جيدًا، وأكد له أنه لن يحتاج لدواء آخر، وكان بالفعل كذلك.

الفصل الثانى عشر
عما حكاه أحد الرعاة للذين كانوا فى صحبة دون كيخوتى

وهكذا وهم على هذه الحال، وصل فتى آخر، ممن يحضرون التموين والإمداد، وقال:

– هل تعلمون ما يحدث فى القرية، أيها الرفقاء؟

كيف لنا أن نعلمه؟ أجاب واحد منهم.

– إذن اعرفوا– واصل الفتى – أنه قد مات هذا الصباح ذلك الطالب الراعى ذو الشهرة والصيت المسمى جريسوستمو، ويشاع أنه مات بسبب عشقه لتلك الصبية الشيطانية مارثيلا ابنة غييرمو الثرى، تلك التى تتسكع فى ثياب راعية عبر هذه المجاهل. فقال أحدهم:

– تقول من أجل مارثيلا؟

– أقول من أجل هذه– أجاب الفتى الراعى– وكان من الطيب أن أوصى فى وصيته بأن يدفن فى البرارى بطريقة المسلمين، وأن يكون ذلك تحت قدم شجرة الصنوبر، حيث توجد عين القرنق؛ لأنه حسب المشهور، وهم يقولون أنه قال، إن ذلك المكان كان موضع لقائه الأول بوجهها. وأيضًا أوصى بأشياء أخرى، يقول رجال دين القرية أنهم لن يأخذوا بها، وليس من الخير تنفيذها؛ لأنها تبدو وثنية. وعلى هذا يرد ذلك الطالب صديقه الحميم

أمبروسيو، والذى أيضًا لبس ثوب الرعاة أنه يجب الوفاء بكل وصـيته دون نقصان، تمامًا مثلما وصى جريسوستمو، وحول هذا يثور القيل والقـال فى القرية، لكن حسبما يقال، فى النهاية سوف ينجز مـا يريـده أمبروسـيو، وكذلك كل أصدقائه الرعاة، وغدًا سوف يدفنونه فى أبهة عظيمة فى نفـس المكان الذى حدثتكم عنه. وأنا واثق شخصيًا أنه أمر يـستحق المـشاهدة، وعلى الأقل فأنا لن أتغيب عن الذهاب لرؤيته، حتى لو عرفت أن ذلك يحول بينى وبين العودة للقرية.

– جميعنا سوف نفعل نفس الشيء– أجاب الرعاة– وسوف نعمل قرعة عمـن عليه أن يبقى منا لرعاية ماعز الجميع.

– خير ما تقول، بدرو– قال أحدهم– لكن ليس ضروريا عمـل القرعـة لأنى سأبقى هنا بالنيابة عن الجميع، ولا تأخذوه باعتباره جميلاً أو لأنى أخلو مـن الفضول لكن قدمى الذى دخل فيه ساق نبـات مـشطوف لا يـسمح لى بالسير.

– ومع هذا، فهو جميل جدير بالشكر– أجاب بدرو.

ودون كيخوتى هنا رجا بدرو أن يقول له من ذلك الميت ومن تلك الراعية، وعلى هذا أجابه بدرو أن الميت كان عينًا من أولاد الأعيان الأغنياء، وأحد أبنـاء قرية من قرى هذه الجبال. وقد كان طالبًا لسنوات طويلة فى سلمنقة، وقد عاد فـى نهايتها إلى القرية مع بصيرة حكيم وقارئ كبير. وبشكل رئيسى كانوا يقولون إنـه كان عليمًا بالنجوم، وكل ما يحدث هناك فى السماء ذات الشمس والقمر؛ لأنه كـان يخبرنا بدقة عن (خجل) الشمس والقمر.

– اسمه (كسوف) يا صديقي وليس (خجل)، وهو إظلام هذين الجسمين الأكثر إنارة – قال دون كيخوتي.

لكن بدرو لا يعير هذه الصبيانيات انتباهه، فواصل حكايته قائلاً:

– وكان أيضًا يتنبأ عندما تكون السنة سنة خير، أو سنة (عقيقة).

– تريد القول (عقيمة) يا صديقي– قال دون كيخوتي.

– عقيقة أو عقيمة– قال بدرو– فكل تنبؤاته كانت تصدق. وأقول، مع هذا الذى كان يقول، نال مصداقية عند أبيه وأصدقاء أبيه الأثرياء جدًا؛ لأنهم كانوا يعملون بما ينصحهم به، عند قوله لهم: "ازرعوا هذا العام شعيرًا، وليس قمحًا، وفى ذلك العام حمصًا وليس شعيرًا، والعام القادم سيكون محصول الزيت جيدًا، وفى الأعوام الثلاثة التالية لن تجنى قطرة زيت".

– هذا العلم يسمى علم الفلك– قال دون كيخوتي.

– لا أعرف كيف يسمى – أجاب بدرو– لكن أعرف أنه كان يعرف كل ذلك، وأكثر. وأخيرًا لم تمض شهور كثيرة منذ وصوله من سلمنقة، حتى أمسى لابسًا ثياب راع، من تلك السترة الجلد إلى العصا، بعد أن خلع الثياب الفضفاضة للطلاب، وشاركه فى ذلك صديقه الحميم أمبروسيو، والذى كان زميله فى الدراسة. وقد أنسيت القول إن ذلك المتوفى جريسوستمو كان رجل أزجال، وكان يؤلف تلك الأناشيد الريفية لميلاد السيد المسيح، والمسرحيات الدينية، ليوم الإله، والتى كان يمثلها فتيان قريتنا، والجميع كان يمتدح كمال تلك المسرحيات. وعندما رأى أهل القرية هذا اللباس غير

المتوقع من الدارسين الاثنين أصابتهم الدهشة، ولم يستطيعوا تخمين سبب هذا التغيير الغريب. وفى ذلك الوقت مات والد صاحبنا جريسوستمو، وقد ورث ثروة كبيرة من عقارات وأراض، و قطعان من الماشية، وكمية هائلة من النقود، ولكل هذا بقى هذا الفتى مالكًا مطلق التصرف. والحقيقة فقد كان يستحق كل ذلك؛ لأنه كان رفيق خير ورجل بر، وصديقًا للخيرين، وكان له وجه المبروكين. وبعد أن عرف أنه لم يغير ملابسه إلا ليجول فى البرارى وراء تلك الراعية مارثيلا، التى أشار إليها رفيقنا الراعى من قبل، والتى هام بها المسكين ميتنا جريسوستمو. وأحب أن أقول لك الآن، لأنه من الأفضل أن تعرف من كانت تلك السارقة للقلوب، فربما (ولم ربما؟) لم تسمع طوال أيام حياتك شيئًا مثيلاً، ولن تسمع حتى لو عشت أطول من (سارنا)(*).

- تقصد (سارة) زوجة إبراهيم- رد دون كيخوتى، ولم يستطع تحمل استبدال الحروف ببعضها على لسان الراعى.

- (السارنا) تعيش أكثر من اللازم- أجاب بدرو-، وإذا مضيت هكذا فى مقاطعة لى واعتراض فى كل خطوة من مفردات كلامى لن ننتهى من الحكاية فى عام.

- عفوًا يا صديقى- قال دون كيخوتى-، حيث لأنه يوجد فرق كبير بين (سارنا) و (سارة) قلتُ ما قلت لكن أجبتم أفضل إجابة لأن (السارنا) تعيش أكثر من (سارة)، من ثم واصلوا قصتكم ولن أقاطعكم بعد ذلك.

(*) مرض معد يصيب الإنسان بحبوب تملأ الجسم (ماعدا الظهر)، وقد انتقل للإنسان من هنود أمريكا، ولم يكن له علاج حتى سنوات قليلة، فكان يصاحب الإنسان طوال حياته.

– أقول، إذن، سيد روحى وقلبي– قال الراعي–، إنه فى قريتنا كان يوجد فلاح أكثر ثراء من والد (جريسوستمو) وكان يسمى (غييرمو)، والذى أعطاه الله (رزقه الله أكثر آمين) من بين الثروات الكثيرة والعظيمة ابنة ماتت أمها عند ولادتها، وكانت الأم أكثر النساء شرفًا فى كل المنطقة. ولا يظهر لى منها الآن إلا ما أراه بها من وجه كامل المعانى تنبثق منه الشمس والقمر فى كلا الخدين، وفوق كل شيء كانت بارة وصديقة للفقراء الأمر الذى يجعلنى أعتقد أن روحها فى هذه اللحظة تتقلب فى التلذذ بوجه الله فى العالم الآخر.ورغم موت هذه السيدة الطيبة فلم تبق الحياة على زوجها (غييرمو) والذى ترك وراءه ابنته (مرثيلا)، صبية وغنية تحت وصاية عم لها يشتغل قُمُّصًا ورجل بر فى قريتنا. نشأت الطفلة بجمال خلاب كان يجعلنا نتذكر جمال أمها بل ينبئ بأن يفوقه رغم سمو جمال الأم، وهكذا كان، حيث إنها عندما بلغت الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمرها لم يكن ينظر إليها أحد دون أن يكبر لله الذى خلقها بمثل هذا الجمال، والأغلبية بقيت عاشقة ومضيعة بغرامها. وقد حافظ عليها عمها بغيرة شديدة وبأغلاق كثيرة، لكن مع كل هذا، شهرة حسنها الفتان اشتعلت حريقًا حتى أن ليس فقط أهل قريتنا بل والقرى المحيطة بنا على بعد فراسخ بعيدة علموا بجمالها وثرائها الفاحش وأكثر، جاء أفضل الشباب إلى عمها راجين وطالبين وملحين فى الطلب بأن يزوجهم ابنة أخيه. لكنه بوصفه مسيحيًا تقيًا، رغم أنه يرغب فى تزويجها، حيث رآها فى السن المناسبة إلا أنه لم يحب أن يفعل ذلك دون موافقتها، وهو فى كل هذا لم يضع عينيه على المكاسب والمحاصيل التى كانت تقدمها له ثروة الفتاة حين أجل زواجها. وخذها ثقة أن هذا قيل فى أكثر من

دائرة من حلقات القيل والقال بالقرية، فى مدح هذا القسيس التقى، وأحب أن تعلم أيها السيد المشاء، أنه فى مثل تلك القرى الصغيرة، فإنهم يحشرون أنوفهم فى كل شيء، ويتمتمون بكل ما يحدث. وخذها حقيقة مثلما أفعل أن رجل الدين هذا كان بالفعل تقيًا وكثيرًا حتى إنه يرغم النمامين على ذكره بخير، وبخاصة فى قريتنا.

- هذا حق- قال دون كيخوتي- واصل لأن قصتك طريفة جدًا، وأنت بدرو، أيها الرجل الطيب، تقصها بكثير من اللطف.

- لا حرمني الله من لطفه، فهو اللطيف لا غيره. وفيما تبقى من القصة، تعرفون أنه، ولو أن العم كان يعرض على ابنة الأخ الكثير من الخطاب الذين يطلبونها امرأة لهم، قاصًا عليها محاسن كل منهم، راجيًا لها التفكير والاختيار على حسب ذوقها، لكنها قط لم تجبه بشيء غير أنها لا تستطيع حمل مسئولية الزواج، لكونها ما زالت بعد صغيرة السن. ومع هذه الأعذار التى بدت مقبولة، كان العم يتركها دون أن يلح عليها، منتظرًا أن تتقدم قليلاً فى السن، من ثم سوف تعرف اختيار رفيق حياتها، حسب رغبتها. ولأنه كان يقول- محسنًا القول كثيرًا- إنه على الآباء ألا يفرضوا على أبنائهم شيئًا من حال ضد إرادتهم. لكن انظر ما سأحكي، لقد حدث ما كان لا يخطر على بالى عندما أصبحت ذات يوم مارثيلا الناعمة لتمسى راعية، وبغير إذن من عمها أو سبق إنذار لأهل القرية، واتجهت إلى البراري- ضد نصيحة الجميع بالإقلاع عن هذا- مع صبايا القرية الأخريات، وبدأت ترعى قطيعها بنفسها. وهكذا، كما خرجت إلى العيان، ورؤى جمالها جهارًا على المكشوف، فلن أعرف أن أقول

لكم جيدًا كم من الفتيان الأغنياء منهم الأعيان والمزارعون قد لبسوا حلة جريسوستمو، وراحوا يغازلونها بتلك البرارى، وواحد منهم- كما سبق القول- كان ميتنا، والذين كانوا يقولون عنه إنه ترك حبها، ليعبدها. ولا تظن عن مارثيلا؛ لأنها منحت نفسها الحرية والحياة الطليقة، أنه قد صدر عنها- بأى حال من الأحوال أو بأى طريقة من الطرق- أى مؤشر أو حتى علامة على إشانة عرضها أو عفتها، فقبل كل شيء، كانت غيرتها الحارسة لشرفها فائقة فعلى كثرة من يخدمونها ويطلبونها، لم يفخر أحدهم، ولن يستطيع-بحق- أن يفخر، بأنها قد أعطته أدنى أمل ضئيل لتحقيق رغبته. ومع أنها لا تهرب أو تتجنب صحبة الرعاة والدردشة معهم، وتعاملهم بأدب وصداقة، إلا أنها إذا توصلت إلى اكتشاف قصد أى منهم، حتى لو كان قصدًا مقدسًا وعادلاً مثل الزواج، فإنها تلقيهم عنها كما لو كانت آلة منجانيق. وبهذه الطريقة تحدث أذى بهذه الأرض أكثر مما لو كان قد دخلها الطاعون؛ لأن ملاحتها وحسنها تجتذبان قلوب من يحاولون خدمتها وعشقها، لكن تمردها، وما تسببه من إحباط، يقودهم إلى اليأس، ولا يعرفون ماذا يقولون لها، ويتسامعون بمناداتها بالقاسية والناكرة للجميل، وما شابه ذلك من كنى مما يعبرون به عن لسان حالهم تجاه تساميها. وإذا وجدت يومًا- يا سيدى- قريبًا من هنا سوف ترى قمم هذه الجبال وقعور الوديان تصدح بآهات هؤلاء المحبطين الذين يطاردونها. وليس بعيدًا عن هنا، مكان حيث يوجد حوالى دستين من أشجار الزان الشواهق، لا تخلو إحداها من اسم مارثيلا منحوتًا ومكتوبًا، وفوقه قد نحت تاج يعلوه على نفس الشجرة كما لو كان يقول عاشقها إن مارثيلا ترتديه عن استحقاق باسم كل الجمال الإنسانى. وهنا يتنهد راع، وهناك يتأوه آخر،

وغير هناك تسمع أغنيات غزلية، وأقرب تسرى أغاني اليأس. أحدهم عليه قضاء كل ساعات الليل جالسًا تحت قدمى بلوطة أو صنوبرة، لا تغمض عيناه الباكية مستغرقًا محمولاً عبر أفكاره، حتى تعثر عليه شمس الصباح. وآخر، لا تمر عليه ساعات -دون توقف أو هدنة لتنهداته، فى وسط رمضاء القيلولة الأكثر غضبًا للصيف، متمددًا فوق الرمال المتضرمة، مرسلاً شكاياته للسماء. وعلى هذا، وذاك، وهؤلاء وأولئك، تنتصر مارثيلا الجميلة، وكلنا الذين نعرفها ننتظر إلى أين سوف يبطل شممها، ومن سيكون السعيد، الذى سوف يخترق هذا الشرط المفزع، ويتمتع بهذا الحسن الخارق. ولأن كل ما حكيته لك حق معلوم، فإننى أفهم أنه أيضًا حق ما حكاه فتانا الراعى أنه يُحكى عن سبب موت جريسوستمو. وهكذا، فإنى أنصحكم يا سيدى، لا تضيعوا فرصة حضور دفنه، فسيكون مشهدًا، لأن جريسوستمو له أصدقاء كثيرون، وذلك المكان الذى أوصى أن يدفن فيه ليس على بعد أكثر من نصف فرسخ من هنا.

- بحرص سوف لا أضيع الفرصة- قال دون كيخوتي- وأشكر ما وهبتنى من سرور بحكاية هذه القصة اللذيذة.

- أوه!- رد الراعي-، مع أننى لا أعرف ولا حتى نصف حالات عشاق مارثيلا وما حدث لهم، إلا أننا غدًا قد نصادف أحد الرعاة يحكيها لنا. والآن من الأفضل أن تذهب لتنام تحت سقف؛ لأن برد الليل قد يضر الجرح، رغم أن ما وضعت لكم من دواء لا يخشى معه الأشياء العارضة الضارة.

سانشو بانثا، الذى كان يصدر لعنة الشياطين ضد ثرثرة الراعى الكثيرة، طلب أيضًا من سيده أن يدخل وينام فى كوخ بدرو. وهكذا كان، ومضى الليل كله

يتذكـــر سيدته دولثينيـــا فى محـــاكاة لعشـــاق مارثيلا. وأخذ سانـــشوبانثا لنفـــسه مهادًا بين روثينانتى وحماره، ونام ليس باعتباره عاشقًا معذبًا، وإنما باعتباره رجلاً مطحونًا بالركلات.

الفصل الثالث عشر

حيث تنتهى قصة مارثيلا الراعية، مع أحداث أخرى

وما أن كاد يتكشف اليوم عبر بلكونات المشرق، حتى نهض خمسة من الرعاة الستة، وذهبوا لإيقاظ دون كيخوتى، كى يقولوا له إذا كان حتى تلك اللحظة على نية الذهاب لرؤية الدفن الذائع لجريسوستمو، وهم سوف يكونون فى صحبته. دون كيخوتى الذى لم يكن يرغب فى شيء أكثر، نهض وأمر سانشو بوضع العدة فوق الجواد فى الحال، وهذا نفذ الأمر بكل همة، وأخذوا فى التو واللحظة طريقهم، ولم يكادوا يقطعون ربع فرسخ حتى رأوا عند عبورهم "مدقا"، ستة رعاة يتوجهون نحوهم وقد ارتدى كل منهم سترة سوداء، وتاجًا من إكليل من أوراق السرو والدفلى المرة. وكان كل راع فيهم يحمل "نبوتًا" غليظًا (من شجر شرابة الراعى) فى يده. وكان يقدم معهم رجلان مهذبان على ظهر الخيل، بعدة كاملة للطريق فى صحبتهما ثلاثة صبيان من الخدم يسيرون على القدم.

وعند بلوغهم جميعًا نفس النقطة من الطريق حيا بعضهم بعضًا فى أدب، وتساءلوا فيما بينهم عن وجهة كل فريق منهم، فعرفوا أن الكل منساق نحو مكان الدفن، وهكذا شرعوا فى السير معًا.

أحد الراكبين على الجواد متحدثًا مع زميله قال له:

– يظهر لى، يا سيد بيبالدو، أن نأخذ مأخذًا طيبًا تأخرنا حتى نرى هذا الدفن المشهود، والذى لا يمكن إلا أن يكون مشهودًا، طبقًا لهؤلاء الرعاة الذين حكوا لنا غرائب أمر ذلك الراعى المتوفى، وغرائب الراعية القاتلة.

– وكذلك أرى الأمر– أجاب بيبالدو– ولا أقول بتأخرنا يومًا بل أربعة أيام مقابل رؤيته.

سألهما دون كيخوتى عما سمعوا عن مارثيلا وجريسوستمو. العابر قال إنهما فى هذا الصباح التقيا بهؤلاء الرعاة، ولأنهما رأياهم فى مثل هذه الثياب الحزينة، سألاهم عن مناسبة المضى فى الطريق بهذه الثياب، فحكى له أحدهم معددًا غرابة وحسن راعية اسمها مارثيلا، وهيام الكثيرين بها، مع موت هذا الجريسوستمو، الذى نسلك طريقنا نحو جنازته. وأخيرًا حكى كل ما حكاه بدرو إلى دون كيخوتى.

وتوقفت هذه الدردشة، لتبدأ أخرى، عندما سأل من كان يسمى بيبالدو دون كيخوتى عن مناسبة سيره مسلحًا كل هذا التسلح فى أرض يسودها السلام.

وعلى هذا أجاب دون كيخوتى:

– إن تعاليم ما أمارسه من حياة لا تسمح لى بالسير بطريقة أخرى. والحياة الرافهة، والدلال والراحة بالنسبة لى، قد تم اختراعها لرجال البلاط المسترخين، لكن المجاهدة والقلق والسلاح اخترعت وصنعت من أجل هؤلاء الذين يسميهم العالم الفرسان المشائين، ومن بينهم أنا، وإن لم أكن بذلك جدير، وأصغر الجميع شأنًا.

لم يكادوا يسمعون منه ذلك حتى رأوا فيه مجنونًا، و ليتحروا أكثر، ويروا أى نوع من الجنون كان جنونه، عاد بيبالدو لسؤاله ماذا تريد أن تقول كلمات "فرسان مشاءون".

- لم تقرأوا فخامتكم- أجاب دون كيخوتي- التقارير السنوية وتواريخ إنجلترا، حيث تعالج أمجاد الملك آرثر الذائعة الصيت، والتي يعالجها استكمالاً الرومانث الإسباني، والذى نسميه "الملك أرتوس"(*)، و يؤثر عنه ويشيع فى كل تلك المملكة البريطانية، ما يحكي أن ذلك الملك لم يمت، وأنه بفعل السحر تحول إلى غراب، ومع مضى الزمن سوف يعود لكى يحكم مملكته ويستعيد سيطرته عليها وعلى صولجان ملكه، ولهذا السبب لا يباح قتل أى غراب على يد أى إنجليزى. من ثم فى زمن ذلك الملك العادل تم تشكيل ذلك النظام المشهور لفروسية فرسان المائدة المستديرة، وفى نفس الوقت وقعت قصص الغرام والتى تحكى هناك بين دون لانثاروتى دل لاجو مع الملكة كينتانيونا، وعن هذا انبثق ذلك الرومانث المعروف، والمغنى به فى بلدنا إسبانيا:

لم يكن قط فارس

تفانت النساء فى خدمته

كما كان لانثاروتى

عندما أهلَّ من بريطانيا

مع هذا التقدم المعسول والناعم لحبهما، والأعمال المجيدة. من ثمّ، منذ ذلك الحين، مضى هذا النظام من الفروسية ينتقل أبًا عن جد، ويمتد، ويخلد فى أماكن عديدة وكثيرة من العالم، وفيها اشتهر وعرف الشجاع أماديس دى جاولا، مع جميع ابنائه، وأحفاده، حتى الجيل الخامس، والبطل فليسمارتى دى إركانيا، والآخر الذى

(*) ذاع صيت هذه الأسطورة، وانتقلت إلى الأدب العالمى فى العصور الوسطى، ومن ثم الأدب الإسبانى، وترددت كثيرًا فى روايات الفروسية.

لا يحصى مجده ثناء تيرانتى البلانكو، وتقريبًا فى أيامنا رأينا واتصلنا وسمعنا عن الفارس القاهر البطل دون بليانس اليونان. هذا- سادتى- هو الفارس المشاء، والذى ذكرت عن نظام فروسيته، وفيها - كما سبق لى القول فى مرة سابقة- أسلك محترفًا، مهما كنت آثمًا، وأقل ما ذكرت من هؤلاء الفرسان احترافًا. وهكذا، أمضى مع كل أنواع الوحشة، والأماكن غير المعمورة بحثًا عن المغامرات مع روح معدة لتقديم ساعدى، وشخصى إلى أكثر تلك المغامرات خطرًا مما قد يتيحه لى الحظ فى مساعدة الضعفاء والمضطرين.

بهذه العبارة أدرك فى الحال عابرو السبيل أن دون كيخوتى كان ناقص التمييز، وهذا هو نوع الجنون الذى يتسيده، والذى استدعى تعجبهم، تمامًا مثل كل من يكتشف هذا الجنون لأول مرة.

وبيبالدو- والذى كان شخصًا فطنًا ومرحًا- أحب أن يعطيه فرصة كى يتقدم فى ترهاته حتى يقضى القليل من الطريق الذى بقى للوصول إلى مكان الدفن، حسبما قالوا، دون ملل. من ثم قال له:

- يظهر لى يا سيدى الفارس المشاء، أن فخامتكم احترفتم واحدة من أكثر المهن صعوبة على وجه الأرض، وظنى أنها أصعب من نظام الرهبان الكرتوزيين المتشددين فى رهبانيتهم.

- صعبة إلى هذا الحد، ذلك أمر ممكن- أجاب صاحبنا دون كيخوتى-، لكن الذى لا أشك فيه قدر قيراطين أنها ضرورية للعالم. لأنه إذا أردت قول الحق، فإن الجندى الذى يضع موضع التنفيذ أمر قائده لا يعمل أقل مما يعمل قائده الذى أصدر إليه الأمر. أحب القول إن رجال الدين يطلبون من السماء خير الأرض بكل هدوء وسلام، أما نحن الجنود والفرسان فنضع موضع التنفيذ ما

يطلبونه من السماء، مدافعين عنه بسواعدنا وظبا سيوفنا، وليس فوقنا سقف المعبد، بل السماء المفتوحة، كأهداف لتصويب أشعة الشمس غير المحتملة فى الصيف، وثلوج الشتاء الصوارم. وبهذا نحن وزراء الله فى الأرض، وسواعده التى يحقق بها العدل. وكما أن أشياء الحرب، وما يتصل بها وينتمى إليهـــا لا يمكن وضعها موضع التنفيذ إلا بالعرق والمثابرة والمجاهدة، فإنه يتبع ذلك، أن الذين يمارسونها– دون شك– ملزمون بجهد أكبر من أولئك الذين، فى سلام هادئ، وراحة، يمضون فى التضرع لله أن ينعم على المعوزين. لا أود القـــول ولم يمر على بالى، أن حال الفارس وسلوكه أفضل من حال الراهب الحبيس وسلوكه، فقط أريد الإشارة إلى أنه، بحق الذى يعانى، وبدون شك، هو أكثر مجاهدة، ومجالدة، ومعاناة للجوع، والعطش، والبؤس، ومواجهة للتـــدمير، والفقر؛ لأنه لا مجال لريبة فى أن الفرسان المشائين الماضين قد مروا بكثير من العناء فى حياتهم. وإذا كان بعضهم صعد وصار إمبراطورًا بقوة ساعده، فثقة أن ذلك كلفه نسبة عالية من دمه وعرقه، وإذا كان الذين صعدوا إلى مثـــل هذه الدرجة قد عازهم سحرة وحكماء لمساعدتهم، فإنهم كانـــت ســـوف تخدعهم أمانيهم وتخيب آمالهم.

– أنا مع هذا الرأى– أجاب العابر– لكن هناك شيئًا واحدًا بين أشيائهم الكثيرة يبدو لى بالغ السوء من جانب هؤلاء الفرسان المشائين، وهو أنهم فى حالـــة خوضهم لمعركة كبيرة وخطيرة، وفيها يرى للعيان خطر فقدان الحياة، فإنهم فى هذه اللحظة القتالية لا يفكرون فى التوكل على الله، كما هو من واجب المسيحى عند الخطر، ولكنهم يتركون أمرهم وتوكلهم على سيداتهم، بكـــل رغبة وإخلاص كما لو كن آلهة: إنه شىء أظنه تهب منه رائحة الشرك.

- أيها السيد- أجاب دون كيخوتى- إن هذا هو الحد الذى لا يمكن النـــزول عنه، وسوف يقع الفارس فى حال أسوأ إن نزل، فتلك عادة واتباع، أنه عند اقتحام جلائل أعمال السلاح، تتمثل أمامه سيدته، فيدير النظر إليها فى حنان وحب، كما لو كان يطلب منها مناصرته ومنحه المرفأ فى حرج الشك أمام الخطر الذى يقتحمه، ومع أن أحدًا لا يسمعه، فهو مجبر على قـــول بعـــض الكلمات من بين الأسنان، وفيها يسلم أمره إليها من أعماق القلب، ومـــن هذا لدينا أمثلة لا يمكن إحصاؤها فى التواريخ. ولا ينبغى أن يفهم أن هـــذا معناه لزوم عدم تسليم الأمر لله، فدائمًا يبقى وقت ومكان لعمل ذلك، أثناء المواجهة والقتال.

- مع كل هذا- قال العابر- يبقى عندى شيء من الشك، ففى مرات كثيرة فى مطالعاتى رأيت أنه ما أكثر أن يتبادل فارسان الكلمات ومع كلمة أو أخرى يشتعل غضبهما، فيتواجهان بجواديهما لا يفصل بينهما إلا المساحة اللازمة فى مثل هذه المواجهة، من ثم يجريان بأسرع ما يمكن، فيعودان للالتقاء فى نقطة منتصف المسافة بينهما، صارخًا كل منهما باسم سيدته، والمعتاد أن يحـــدث عند تلك النقطة أن يسقط أحدهما عن جواده، وقد اخترقتـــه قنـــاة رمـــح خصمه بطنًا لظهر، أما هذا فلولا تشبثه بعرف جواده لكان قد سقط أيـــضًا على الأرض. وأنا لا أعرف كيف يتاح لمن مات منهما أن يذكر اســـم الله خلال هذه المعركة الخاطفة. فكان الأفضل بدلاً من الكلمات التى استهلكها مسلمًا نفسه لسيدته أن ينطق باسم الله كما يجب ويفترض على المـــسيحى. وفيما أعلم أكثر، فليس كل الفرسان المشائين عشاقًا ولهم سيدات يسلمون أمرهم إليهن.

- هذا لا يمكن أن يكون-أجاب دون كيخوتى، أقول إنه لا يمكــن أن يوجــد فارس مشاء دون أن توجد له سيدة؛ لأن العشق بالنسبة لهم أصيل وطبيعى مثل النجوم فى السماء، ومن الثابت أنه لم يكتب تاريخ لفارس مشاء دون أن يشار إلى غرامياته، ولو حدث ولم يكن الفارس عاشقًا فهــو دخيــل غــير شرعى، ويكون قد دخل إلى قلعة الفروسية من النوافذ وليس من البــاب، مثلما يفعل السطاة واللصوص.

- ومع كل هذا- قال العابر- يبدو لى إذا لم أكن سيئ الذاكرة، أنى قــرأت أن دون جلاور شقيق البطل أماديس دى جاولا لم تكن له قط سيدة يشار إليها، ويسلم لها نفسه، ومع هذا فلا يساء النظر إليه، وكان فارسًا همامًا مشهورًا.

وعلى هذا أجاب دون كيخوتى فارسنا الهمام:

- سيدي! إن ظهور طائر سمان وحيد لا يعنى قدوم الصيف. لكن أكثر من هذا، أنا أعلم أنه كان فارسًا صب العشق فى السر، أما حبه لكل سيدة تعرض له فكان صفة طبيعية فيه. لكن، باختصار، متحريًا ذلك جيدًا، فإنه كانت لــه سيدة وحيدة جعل منها سيدة إرادته، وكان يسلم روحه لها كثيرًا، وفى سرية تامة؛ لأنه تميز بين الفرسان بالكتمان.

- إذن، إذا كان جوهريا أن يكون كل فارس مشاء عاشقًا- قال العابر- فإنــه يمكن الحدس بأن فخامتكم أيضًا عاشق لكونكم منتميًا للنظام. وإذا كــان فخامتكم لا تتميزون بالكتمان مثل دون جلاور، فإننى أتوسل إليك باســم كل الصحبة، وباسمى، أن تقول لنا اسم، ووطن، ومزايا، وجمال ســيدتك،

التى ستصير سعيدة الحظ، بأن يعرف كل العالم أنها معشوقة، لفارس همام مثلكم كما ينبئ مظهركم.

وهنا نفث دون كيخوتى تنهيدة عظيمة وقال:

– لا أستطيع التيقن من أن عدوتى الحلوة سوف يعجبها أو لا يعجبها أن يعرف كل العالم أننى أخدمها دون العالمين، فقط أعرف القول، مجيبًا على ما تطلبه منى فى اعتدال واتزان، أن اسمها دولثينيا، وأن وطنها توبوسو، إحدى قرى لامانشا، ومزاياها تلحقها على الأقل بالأميرات، فهى ملكتى وسيدتى، أما جمالها ففوق كل جمال النساء، فكل محاسن الجمال المستحيلة والموهومة صارت عندها حقائق، مما يتغنى به الشعراء وصفًا لمحبوباتهم، الشعر الذهبى، والجبهة حقول أزهار، والحواجب أقواس قزح، والعيون شموس والخدود ورود، والشفتان الأحمر من المرجان، واللؤلؤ أسنان، والعنق من مرمر نعمان، والصدر رخام الأوثان، ومن العاج اليدان، أما بطاح الجليد فلونها الأبيض، هذا ما تراه فيها من الظاهر عين الإنسان، أما ما تحت الملابس فتخفيه العفة، لكنه نظير لما وصف حسب ظنى وتقديرى، ومن الفطنة ألا يوصف وألا تتضمنه الاستعارات والتشبيهات.

– والآن نريد أن نعرف عن الحسب والنسب وأصل السلالة – أجاب بيبالدو.

وعليه أجاب دون كيخوتى:

– ليست من أسر كورثيوس أو جايوس أو ثيبيونيس الرومانية القديمة، ولا من أسر كولوناس أو أوثيناس الرومانية الحديثة، ولا من أسر مونكاداس أوريكيسنس القطالونية، ولا من ربيّاس أو بيّانوباس فى بلنسية، ولا

بالافوسس أو نوثاس، أو روكابرتس، أو كورياس، أو لوناس، أو ألاجونس أو أورياس، أو فوثس، أو عراس فى أراجون، ولا ثرداس، أو مانريكس، أو مندوثا، أو جوثمانس فى قشتالة، ولا النكاستروس، أو باياس، أو منسس فى البرتغال، لكنها من عائلة توبوسو دى لامانشا، سلالة وإن كانت حديثة إلا أنها بداية كريمة لأكثر العائلات بريقًا فى القرون القادمة ولا يسعفنى فى ذلك إلا ما تنطبق عليه الشروط التى وضعها ثربينو فى شعره عند قدمى النصب التذكارى لأسلحة أورلاندو:

لا أحد يقدر على حملها

إلا الكفء لملاقاة روردان

– مع أن أسرتى كاتشو بينس دى لاريدو(*)– أجاب العابر– فلن أجسر على مقارنتها بأسرة توبوسو دى لامانشا، بالرغم، والحق يقال، إن مثل هذا اللقب لم يرد قط على مسامعى حتى الآن.

– كيف يمكن ألا يرد هذا على مسامعكم! أجاب دون كيخوتى.

بكل انتباه سار الجميع ينصتون للحوار بين الاثنين، ومع أنه، حتى نفس رعاة الماعز وزملائهم عرفوا النقص الفائق فى التمييز لصاحبنا دون كيخوتى، إلا أن سانشو بانثا كان يعتقد أن كل ما يقوله سيده صدق لمعرفته من كان، ولمعرفته له منذ ميلاده، وإن شاب ذلك شك فلم يكن إلا حول الجميلة دولثينيا دل توبوسو؛ لأن مثل هذا الاسم ومثل تلك الأميرة لم يصله قط عنها أى خبر على الإطلاق، مع كونه يعيش قريبًا من قريتها. فى هذا الجدل مضوا حتى رأوا عبر الفرجة بين

(*) كان هذا اللقب يستخدم للسخرية من محدثى النعمة والمدعين فى القرن السادس عشر.

جبلين انحدار حوالى عشرين راعيًا، وكلهم بستر ســوداء و تيجــان من الــسَّرْوْ، أو الزرنب. وبين أيدى ستة منهم ألــواح، مغطــاة بكثيــر مــن أنــواع الزهــور والأغصان. وعند رؤية ذلك قال أحد الرعاة.

– هؤلاء هم الذين يحضرون جثمان جريسوستمو، وسفح ذلك الجبــل هــو المكان الذى أوصى بدفنه فيه. وبهذا أسرعوا نحو الوصول للمكان. ووصلوا لحظة أن وضع الرعاة الألواح على الأرض، وكان أربعة منهم يحفرون بفئــوس حــادة القبر على جانب صنوبرة متينة.

وتقابل الجمعان فى أدب جم، من ثمّ، دون كيخوتى، ومن كانوا قادمين معــه شرعوا فى النظر إلى الألواح، وعليها جثمان مغطى بالزهور، مرتديًا ثياب الرعاة، وعمره يناهز الثلاثين، ومع موته، يظهر أنه عندما كان حيًا تمتع بوجــه جميــل، ومظهر رشيق. وحوله فوق نفس الألواح كانت توجد بعض الكتب وأوراق كثيرة، بعضها سائب وبعضها فى حزم. وهكذا كل من كان ينظر أو يحفر القبر والآخرون التزموا صمتًا عجيبًا حتى قال واحد ممن أحضروا الميت لآخر:

– انظر جيدًا أمبروسيو، إذا كان هذا هو المكان الذى أوصى به جريــسوستمو، وهل تود إنجاز وصيته بالضبط.

– هذا هو – أجاب أمبروسيو – فكم حكى لى فيها مرات عديدة صديقى التعس قصة تعاسته. وهنا حكى لى أنه كان قد رأى لأول مرة تلك العدوة الفتاكة للسلالة الإنسانية، وهنا أيضًا كان مكان تصريحه لها بحبه فى أمانة العاشقين، وهنا كان آخر مرة يلتقى بمارثيلا لتحسم النهاية بالإحباط والتجبر، وكان فى ذلك ختام مأساة حياته البائسة. وهنا، تذكارًا لتعاسته الكــثيرة، أحــب أن نودعه فى أحشاء النسيان الأبدى.

وملتفتًا إلى دون كيخوتى وللعابرين، واصل القول:

- هذا الجثمان، سادتى، والذى تنظرون إليه بعيون رحيمة، كان مستودعًا لنفس وضعت فيها السماء شطرًا من غيثها. هذا جثمان جريسوستمو، وكان وحيدًا فى العبقرية، فريدًا فى التهذيب، مبالغًا فى اللطف، عنقاء فى الصداقة، عظيمًا دون حد، جادًا دون ادعاء، مرحًا دون إسفاف، وأخيرًا، كان الأول فى كل شئ طيب، ولم يكن له ثان فى كل شئ تعيس. أحب فصد، وعبد فلم يقبل منه، وتضرع إلى وحش من النساء، وألح على رخام، وجرى خلف الرياح، صرخ ولا صدى، خدم من أساء إليه، ومنه تلقى جائزة بتقديمه قربانًا إلى الموت فى منتصف سباق الحياة، ذلك السباق الذى أنهته راعية، حاول تخليدها حتى تعيش فى ذاكرة الناس، الأمر الذى يمكن أن تبرهن عليه تمامًا تلك الأوراق التى تنظرون إليها، إذا لم يكن قد أمرنى بإسلامها إلى النار فى لحظة إسلام جسمه إلى الأرض.

- إنكم أشد قسوة على هذه الأوراق وظلمًا من صاحبها نفسه - قال بيبالدو، من ثم، فليس عدلاً أو صوابًا أن تنجز إرادة من يأمر بأمور تجانب العقل. وهكذا يا سيد امبروسيو، وإن منحت جثمان صديقك للأرض، فلن تحب أن تمنح كتاباته للنسيان، فما كان سيكون طيبًا فى حق أوجستو قيصر لو وافق على تنفيذ ما تركه الإلهى (مانتوانو) فى وصيته من تعليمات، فصديقك تحت وطأة العدوان عليه أمر، وليس خيرًا أن تنجزوا بغير فطنة ما أمر، فقبل ذلك فكر معطيًا الحياة لهذه الأوراق، حتى تخلد قسوة مارثيلا، لتصبح مثلاً للأزمان القادمة، يعيشونها، حتى يبتعدوا ويهربوا من الوقوع فى مثل هذه المهاوى، فأنا على علم، ومعى كل من إلى هنا أتينا، بقصة عاشقكم هذا،

وصديقكم اليائس، ونعرف صداقتكما، ومناسبة موته، وما تركه فى وصيته عندما انتهت حياته، ومن هذه القصة المؤلمة يمكن أن نستخرج الحد الـــذى وصلت إليه قسوة مارثيلا، وما كان عليه غرام جريـــسوستمو بها،وصـــدق صداقتكم مع المصير الذى ينالونه أولئك الذين يطلقون العنان وهم يجرون فى الطريق الذى يلقى به إلى عيونهم الحب الهـــاذى. بـــالأمس عرفنـــا بمـــوت جريسوستمو، وأنه فى هذا المكان يجـــب أن يـــدفن، وهكـــذا بالفـــضول والإشفاق، انحرفنا عن الطريق المستقيم لسفرنا، واتفقنا على أن نأتى لنـــرى بالعين ما أحزننا بالسمع. ومقابل هذا الحزن، والرغبة التى ولدت فينا لمعالجته إذا استطعنا، نتوسل إليك – أمبروسيو الفطن! –، وعـــنى أتوســـل إليـــك شخصيا، أن تمنحنى بعض هذه الأوراق مودعًا فكرة حرقها.

ودون أن ينتظر جواب الراعى، مد يده، وأخذ بعضها مما كان أكثـــر قربًـــا إليه، فقال أمبروسيو عند رؤيته يفعل ذلك: – من باب الأدب، فلتبق – أيها السيد – مع الأوراق التى أخذتها، لكن التفكير فى عدم حرق ما بقى، أمر مستحيل.

بيبالدو، وكان يود أن يعرف ماذا تقول الأوراق، فتح فى تلك اللحظة واحدة منها ورأى أنها تقول: "أغنية يائسة". سمعه أمبروسيو يقرأ هـــذا العنـــوان تحملـــه الورقة، قال:

– هذه آخر ورقة كتبها صديقى التعس، وحيث ترون، يا سيدى، النهاية الـــتى حملته إليها تعاسته اقرأوها. والكل يسمع حتى ينتبهوا من حفر القبر.

سأفعل بكل الرضى – قال بيبالدو.

وكما كان الجميع لديهم نفس الرغبة، تحلقوا به، واستمعوا إليه يقول ماهو آت.

الفصل الرابع عشر(*)

وفيه الشعر الحزين الذى نظمه الراعى المتوفى، وحوادث أخرى غير منتظرة

" إنك أيتها الظالمة تريدين أن يذاع بين الناس نبأ قسوتك وغلظ قلبك، وأن ينتقل خبره من لسان إلى لسان، وإنى لفاعل ذلك. فإن الجحيم نفسه قد ملأ صدرى بشهيق وزفير غيَّر جَرْسَ صوتى إلى مألوف أنغامها. وإنى لأجهد فى أن أعبر عن آلام نفسى وعن أفعالك معى، ولكن صوتى يرافقه دائماً نغمِ ذلك الزفير الرهيب، وتنبعث معه كذلك قطع من أحشائى التى تتمزق. فانصتى إذن، وأصيخى بسمعك إلى اللغط المضطرب – ولا أقول النغم المتميز – الذى تدفعه حمى الغيظ من أعماق صدرى الحانق، فيخرج تنفيسًا عن نفسى وتحقيرًا لك.

" إن زئير الأسد، وعواء الذئب المفترس، والفحيح المخيف للحية الرقطاء، وصراخ الوحوش، ونعيب الغراب الذى يُزجر، وصخب الريح يصك البحر المضطرب، والخوار المكظوم للثور المهزوم، والهديل الباكى للحمامة اليتيمة، والتصويت الحزين للبومة المحسودة، وعويل كل تلك الجماعة السوداء فى قاع الجحيم، كل ذلك يمتزج مع آلام نفسى، ويخرج فى نغمة واحدة معها، فتختلط علىّ الحواس وتخفى المعانى. أقول كل هذا لا يكفى للتعبير عن الألم الذى أحمله، والذى يلتمس وسائل جديدة يترجم بها عن حقيقته.

(*) هذا الفصل مختار من بين الفصول التى ترجمها الراحل العظيم عبد العزيز الأهوانى.

" وما لهذه الأنَّات العجيبة التى أصدرها من نظير، فلن يسمع أبدا أبونا نهـر التاجو أصداء حزينة كهذه تتردد على رماله، ولن تسمعها غابات الزيتـون علـى ضفاف الوادى الكبير. هنالك على القمم الصخرية العالية، وفى الأغوار السحيقة، وفى الوديان المظلمة، أو فى السواحل الجرداء التى لا تطرقها أقدام البشر، وفـى الأماكن التى لا تعرف أشعة الشمس إليها سبيلاً، وبين جماعات الوحوش السامة المفترسة التى تعيش فى التيه الليبى. فى كل الأماكن سوف تتوزع وتنتشر أحزانى العنيفة ميتة اللسان ولكنها حية الكلمات. وفى الصحارى المجدبـة سـوف يرتفـع صوت بؤسى يتردد صداه المبحوح، يحمل فى ثناياه خبر قسوتك التى لا نظير لها، ويذيع ظلمك فى الدنيا الواسعة حظى العاثر المنكود.

" الإعراض يقتل، والشك كان حقيقة أو وهمًا يهلك الصبر، والغيرة أشـد فتكًـا وإهلاكًا. والهجر الطويل ينغص الحياة، وخوف المرء أن ينسى يجعله لا يهنأ فى حيـاة سعيدة، وفى كل واحد من هذا موت محقق. وأنا – وتلك معجزة لم تُرَ قط – أعيش

" غيورًا، مهجورًا، محتقرًا، مرّجحًا صحة الشكوك القاتلة، أعـيش وسـط لهيب النسيان وتأخذنى ألوان العذاب المختلفة، ولا يرتفع بصرى إلى ظـل مـن أمل، ولا أحاول ذلك. بل إننى لكى أشد من عزمى على النضال أقسمت أن أفـارق الأمل إلى الأبد.

"هل يمكن أن يجتمع فى وقت واحد الأمل والخوف، وهل من المـصلحة أن يجتمعا إذا كانت أسباب الخوف أكثر يقيناً؟ وهل كان ينبغى علىّ أن أغمض عينـى عن شبح الغيرة الفظيع الماثل أمامى، ما دمت أراه فى آلاف الجراح المفتحة فـى روحى، من ذا الذى لا يفتح الأبواب لسوء الظن إذا رأى الاحتقـار سـافرًا، ورأى الشكوك قد انقلبت – وياله من انقلاب – إلى حقائق، ورأى الحقيقة النقية قد انقلبـت

إلى أكاذيب؟ أيتها الغيرة، إنك وحش مفترس فى عالم الحب، هلمى ضعى الأصفاد الحديدية فى يدى"، وأنت أيها الإعراض قيدنى بالقيود المفتولة. فإن الآلام هى التى تخنق ذكراكِ وتتيح النصر العنيف.

"وأخيرًا أموت، وأنا مصر على أوهامى؛ لأننى لم أنتظر خيرًا سواء فى الحياة أو الموت. سوف أقول إن أهل الحب على حق ويقين. وأن الروح تظفر بالحرية إذا ظفر بها أسر الحب الظالم الغشوم منذ الأزل. وسأقول إن عدوتى الظالمة لى تتصف بجمال الروح كما تتصف بجمال الجسد، وأن ظلمها كان نتيجة لذنوبى أنا، وأن الحب بالإساءة إلينا والتعذيب يحوط مملكته بالسلام والعدل. وإنى لأقدم للفناء جسمى وروحى، دون مجد ولا خير مأمول، أقدمها ومعى هذه الأفكار وهذه القيود الثقال، متعجلاً المهلة التعيسة التى وهبها لى الإعراض.

" أنت، يا من علِّمت بقسوتك قلبى كيف يقسو بى على هذه الحياة البغيضة إلى، إنك لترين قلبى يقدم إليك بجرحه العميق الأدلة الواضحة على فرحه وغبطته لما يلقاه منك. فإذا حدث أن غامت عيناك الصافيتان بسبب موتى فاصرفيهما عن ذلك؛ لأننى لا أحب أن تستريح نفسك بأنك قد دفعت ثمنًا لإسلاب روحى التى ظفرت بها. وإنه لمن السذاجة بمكان أن أذكر لك أن ابتساماتك فى ساعة العسرة دليل على أن موتى عيد لديك، وإنى لأعلم أن مجدك العالى سيكون فى أن أصل سريعًا إلى خاتمة حياتى.

" أقبلوا إذن فقد حان الوقت، أقبلوا من أعماق الجحيم، أقبل يا طَنْطَال ومعك الظمأ، أقبل يا سيزيف ومعك صخرتك الثقيلة، أقبل يا تسيو بنسرك المقدس، أقبل يا إجيوس بعجلتك ولا تتمهل، وأنتن أيضًا أيتها الأخوات، اللائى لا تكففن عن العمل. هيا جميعًا فصبوا فى قلبى أنواع العذاب، ثم غنوا فى أصوات خافتة، أغانى

الرثاء الحزينة الأليمة على هذا الجسد الذى رفض أن يدفن دفنًا شــرعيًا، هــذا إذا استحق الرثاء من قتل نفسه بيده. وأنت يا صـــاحب الجحــيم، ياحامــل الــرءوس الثلاث، ويا حملة أنواع العذاب النارى الــذى لا يحــصى، ويــا أيتهــا الأبالــسة والوحوش أكملوا جميعًا النغم الموسيقى ليكون متساوقًا، فان احتفالاً أفضل من هذا – فيما أعتقد – لا يمكن أن يوجد لمصرع محب.

" أيتها القصيدة البائسة، لا تشتكى ألم الفراق حين تتركين صحبتى الحزينة، فان حجة ميلادك يزيدها، شقائى ويؤيدها، فلا تحزنى ولو كنت القبر"

واستحسن المستمعون قصيدة (جريسوستمو)(*). ولكن بيبالدو الذى قرأهــا أعلن أنها لا تستقيم وما سمعه عن مارثيلا وعن حسن خلقهــا وصـــلاحها. فــإن صاحب القصيدة يشكو من الغيرة والشك والصد، وكل ذلك يتنافى مع ما اشــتهرت به مارثيلا من أنها موضع الثقة وحسن السمعة. فرد على ذلك أمبروسيو بما يعلمه عن أسرار صاحبه قائلاً:

– لكى أريحك يا سيدى من هذا الشك، أحب أن تعلم أن هذا البائس حين كتب هذه القصيدة كان مبتعدًا عن مارثيلا، ابتعد عنها بمحض إرادته، ليرى هــل يحس بالأعراض التى تلازم البعاد دائمًا. وبما أن المحب على البعد يرهقه كل شىء ويطارده كل نوع من الخوف فكذلك أرهقت (جريسوستمو) الغيرة المتخيلة والشكوك المخوفة، وفعلت به ما تفعله الحقــائق. وبــذلك ظلــت الشهرة التى تمتعت بها مارثيلا من أنها طيبة النفس شهرة حقيقية فى موضعها الصحيح، ولو صار الحسد نفسه شخصًا لما استطاع أن ينــال مــن شــأن مارثيلا، إذا استثنينا ما فيها من قسوة ومن بعض غلظة وغطرسة.

(*) ترجم المرحوم عبد العزيز الأهوانى القصيدة فى صورة نثرية.

فقال بيبالدو:

- هذا حق.

وأراد أن يقرأ ورقة مما سلم من النار لولا أن استوقفته رؤيا عجيبة حسبما خيل اليه، تجلت فجأة أمام عينيه من فوق قمة الصخرة التى يحفرون القبر في أسفلها، تجلت الراعية مارثيلا بجمالها الرائع الذى تجاوز حدود ما اشتهرت به. ونظر إليها من لم يرها من قبل فأخذته الروعة والسكون. أما الذين اعتادوا رؤيتها فقد كانوا أيضًا مشدوهين بما لا يقل عمن لم يروها. ولم يكد يراها أمبروسيو حتى خاطبها والغيظ يثيره وقال لها:

- أيتها الغول الذى تعيش فى هذه الجبال، أتراك أقبلت لتكون رؤيتك وحدها كفيلة بأن يتدفق الدم من جراح هذا البائس الذى أزهقت روحه بقسوتك؟ أم تراك أقبلت لتباركى وتمجدى هذه الشنائع التى فعلتها لغلظة طبيعتك، أم تراك أقبلت لتطلى من هذا العلو كما أطل شبيهك نيرون القاسى على الحريق الذى أحرق به روما؟ أم تراك أقبلت لتطئى بأقدامك هذه الأشلاء كما فعلت الابنة العاقة بأبيها (تاركينو). اذكرى لنا سريعًا لأى شىء جئت؟ وماذا تشتهين؟ وسأجعل أصدقاء جريسوستمو هؤلاء يطيعون أوامرك رغم موت صاحبهم؛ لأننى أعلم أنه لم يعص لك أمرًا مدى حياته.

فردت مارثيلا قائلة :

- لم أجئ أمبروسيو لشىء مما ذكرت، وإنما جئت لأرد بنفسى على الخطايا التى يتهمنى بها الحانقون علىّ بسبب آلامهم هم وبسبب موت(جريسوستمو)، ولأفهمهم أنهم جميعًا مخطئون ولذلك أرجو من كل حاضر أن ينصت إلى،

وليس إقناع العقلاء مما يحتاج معه إلى وقت طويل أو كلام كثير. لقد خلقتنى السماء - كما تقولون - جميلة إلى حد يجعلكم تندفعون بهذا الجمال إلى الشعور بالحب نحوى دون أن يكون لكم سلطان على أنفسكم، ثم تقولون، بل تريدون أن أكون مجبرة على أن أبادلكم حبًا بما تظهرون من حب. إنى لأفهم بالعقل الطبيعى الذى وهبه الله لى أن كل جميل محبوب، ولكننى لا أفهم به أن يكون المحبوب لجماله مجبرًا نتيجة لهذا أن يحب من يحبه. ثم ماذا يكون الأمر لو أن محب الجمال كان قبيحًا، والقبح جدير بالكراهية؟ فليس أبعد عن الحق من قولهم " أحبك لجمالك، فأحببنى ولو كنت قبيحًا" ثم لو فرض أن الجمال فى الجانبين جاء فى مستوى واحد فليس من الضرورى أن تتساوى الرغبتان، فليس كل جمال مما يثير الحب، إن بعض الجمال يسر العين ولكنه لا يأسر القلب، ولو كان كل جمال يثير الحب ويخضع الإرادة، لأصبحت الإرادات مضطربة حائرة لا تعرف أين تقف، إذ أن الأشياء الجميلة لا حصر لها فالرغبات تبعًا لذلك لا حصر لها أيضًا. والحب الحقيقى لا يتجزأ كما سمعتهم يقولون وأنه يجئ تلقائيا من غير تكلف، فإذا كان الأمر على ما أعتقد، فلماذا تريدون أن يذعن قلبى بالقوة وأن يجبر، لا لشئ إلا لقولكم إنكم تحبوننى جدًا؟ وإلا فقولوا لى، لو أن السماء خلقتنى قبيحة هل يكون من العدل أن أشكوكم لأنكم لا تحبوننى؟ وفوق ذلك فإنه يجب أن تتذكروا أننى لم أختر الجمال الذى أملكه، وإنما هو هبة تفضلت به علىّ السماء دون أن أطلبه أو أختاره، وبما أن الأفعى لا تعد مذنبة بسبب أنها تحمل الحمة التى تقتل، لأنها هبة الطبيعة، كذلك أنا لا أستحق أن ألام بسبب جمالى. وإن الجمال فى المرأة العفيفة كالنار المستكنة أو السيف المرهف، لا تحرق تلك ولا

يقطع هذا إلا من يدنو منها. إن الشرف والفضائل هى زينة الروح، وبدونها لا ينبغى أن يعد الجسد جميلاً ولو كان جميلاً. وما دامت العفة إحدى الفضائل التى تزين الجسد والروح وتهبها الجمال فلماذا تفرط فيها من تُحِبّ لجمالها، لا لشئ إلا لتحقيق اللذة التى يطلبها الطالب بكل الوسائل والحيل. لقد ولدت حرة، ولكى أستطيع أن أعيش حرة اخترت حياة الوحدة فى الحقول. فأشجار هذه الجبال هى أهلى، والمياه الصافية فى هذه الجداول هى مرآتى وإلى الأشجار والمياه أفضى بأفكارى وأرى جمالى. أنا نار مستكنة وسيف وضع بعيدًا، والذين أثار منظرى حبهم كشفت عنهم الأوهام بأفعالى وبكلماتى، فإذا كانت تعيش بالآمال فإننى لم أعط جريسوستمو ولم أعط غيره شيئًا من أمل، فإذا قتلوا أنفسهم بعد ذلكم فحقهم أن يقولوا إن عنادهم هو الذى جنى عليهم لا قسوتى، وإذا اعترض علىَّ بأن نواياه كانت شريفة، وأننى لذلك أكون مجبرة على أن أستجيب لها، قلت ما سبق أن قلته لجريسوستمو نفسه فى نفس هذا المكان الذى يحفر فيه الآن قبره حين كشف لى نيته الطيبة، قلت له إن نيتى أن أعيش فى عزلة دائمة، وأن أترك التراب وحده يستمتع بثمرة احتشامى وغنائم جمالى فإذا أبى بعد هذه الصراحة إلا أن يلح وراء الأمل وإلا أن يجرى سفينته ضد الريح فهل يستكثر عليه أن يغرق فى خليج طيشه. إن أنا أطعته فقد غششته، وإن أنا حققت له أغراضه فقد حققت ما هو ضد أمانى وخططى. لقد عاند وهو عليم بالحقيقة، ولقد يئس دون أن يكون مكروهًا. فانظروا الآن هل كان محقًا حين حملنى الذنب فيما حمل من آلام؟ إنما يشكو من خُدع، ويندب خيبة الأمل من وعد بالآمال وليثق من أدعوه، ويزدهى من أقبله، أما من لم أعده أو أخدعه أو

أدعوه أو أقبله فلا حق له أن يقول إنى قاسية أو قاتلة. إن السماء حتى الآن لم تكتب على أن أحب أحدًا، والقول بأن الحب اختيارى قول مرفوض. هذه مصارحة عامة أقدمها كى ينتفع بها من يطلبنى لخاصة نفسه، ولكى يفهم منذ الآن أنه إذا مات أحد فى سبيلى فلن يكون ذلك عن غيرة ولا خيبة أمـــل؛ لأن من لا يحب أحدًا لا يثير الغيرة عند أحد، ومن كشف لهم الحقائق لم يجز لهم التحدث عن الصدود ومن يدعونى وحشًا وغولاً خير له أن يترك هـــذا الشر والباطل. والذى يتهمنى بالجحود خير له ألا يقدم لى فضلاً. ولينصرف عنى من يجهلنى وليتجنبنى من يصفنى بالقسوة. لا تبحثوا عـــن وحـــش ولا تخدموا جحودًا ولا تتقربوا من قاس ولا تتبعوا مجهولاً بحال من الأحوال وإذا كان اندفاع جريسوستمو ونفاد صبره قتلاه فلماذا يحمل صيانتى وتواضـــعى وسلوكى ذنب ذلك؟ وإذا كنت احتفظ بنقائى بين جماعة الشجر فلماذا يراد بى أن أفقد هذا النقاء بين جماعة الناس؟ إن لدى – كما تعلمون – ثروتـــى الخاصة فلست بطامعة فى ثروة أحد، وأنا أتمتع بحرية لا أريد أن أقيدها بأحد، لا أحب أحداً ولا أخدع هذا، ولا أسعى وراء ذاك، ولا أسخر من شخص ولا أترضى شخصًا، وإنى لراضية بالسهر على عنزاتى، أقصى ما أطمع فيـــه العيش فى هذه الجبال فإذا طمعت فى شئ فوق هذا فهو أن أتأمل الـــسماء الجميلة، طريق الروح إلى مهبطها الأول.

وبعد أن قالت هذا ولت ظهرها، دون أن تنتظر ردًا، ودخلت فى مكـــان كثيـــف من جبل هنالك قريب، وتركت الحاضرين جميعًا مذهولين لما رأوا من عقلها وجمالهـــا – ونزعت ببعضهم الرغبة فى اتباعها غير متعظين بالمصارحة العلنية التى ســـمعوها – وهؤلاء هم الذين جرحوا بسهم نافذ من شعاع عينيهـــا الجميلتـــين. ولمـــا رأى دون

كيخوتى منهم ما رأى عدّه مما يدخل فى نطاق الفروسية، وهو نصرة العائل فى ساعة الضيق، فوضع يده على مقبض سيفه ونادى بصوت جلى مرتفع :

– من اجترأ على أن يتبع مارثيلا الجميلة تعرض لغضبى مهما يكن مركزه وشأنه. لقد أوضحت بكلماتها أنها لا تحمل ذنبًا قل أو كثر – فى موت جريسوستمو. وأنها تعيش أبعد ما تكون عن المشاركة فى رغبات من يحبونها، فمن العدل إذن ألا يتبعها أو يطاردها أحد، بل يجب أن تنال التقدير والتشريف من كل أخيار هذه الدنيا، وقد وضح أنها الوحيدة بين البشر التى تريد أن تعيش فى براءة وسلامة.

فلم يتحرك أحد من الرعاة، إما إذعانًا لتهديد دون كيخوتى، وإما لأن امبروسيو طلب منهم أن يفرغوا مما يجب عليهم نحو صديقهم الميت . وظل القوم هنالك حتى أتموا الحفر وحرقوا الأوراق ووضعوا الجثمان فى مرقده بين الدموع والحسرات، وأغلقوا القبر بصخرة ضخمة منتظرين أن يستبدلوا بها فيما بعد لوحًا منحوتًا فكر أمبروسيو أن يوصى بعمله، وأن تنقش عليه هذه الأبيات.

هنا يرقد الجثمان البائس لواحد من المحبين،

كان راعيًا، وقد قتله أن حبه لم يقابل بحب.

قتلته يد القسوة من جميلة ظالمة جحود،

زادت بها ضراوة الشر فى مملكة الحب.

ونثروا بعد ذلك على القبر كثيرًا من الأزهار والأغصان. وتقدموا جميعًا إلى أمبروسيو صديق الميت بتعازيهم، ثم استأذنوا منه فى الانصراف وكذلك فعل بيبالدو ورفيقه. واستأذن دون كيخوتى من مضيفيه وممن رافقوه فى الطريق،

فرجوه هؤلاء أن يذهب معهم إلى إشبيلية، فهى المكان المختار للمغامرات، إذ أنها تعرض فى الشارع وخلف كل ركن ما لا يوجد فى أى مكان آخر. فشكرهم دون كيخوتى على ما يظهرونه من نصيحة ومن كرم، وقال إنه لا يريد فى وقته هذا أن يذهب إلى أشبيلية بل أن يبقى حتى يطهر من اللصوص المعتدين هذه الجبال التى اشتهرت بأنها مكتظة بهم. ولم يرد المسافرون أن يلحوا عليه؛ لأنهم رأوا الجد فى تصميمه. ثم عادوا يودعونه من جديد. وتركوه ومضوا فى سبيلهم، وهم يتحدثون عن قصة مارثيلا و جريسوستمو وعن جنون دون كيخوتى. أما هو فقد قرر أن يمضى باحثًا عن الراعية مارثيلا ليعرض عليها كل ما يستطيع من خدمات. ولكن الأمور لم تستقم له على ما أراد كما سنقص ذلك فى هذا التاريخ(*). وهنا ننتهى من القسم الثانى.

(*) يترجم الدكتور الأهوانى historia بكلمة تاريخ، وهى بالطبع ترجمة صحيحة، ولكنى اخترت – كما يرى القارىء طوال العمل – ترجمتها (قصة) مرة و(حكاية) مرة أخرى، وفى بعض سياقات أخرى (تاريخ)، وأنا أفضل فى هذا السياق أن تكون (هذه القصة). وكان هذا الفصل نهاية القسم الثانى لأول نشرة للرواية.

الفصل الخامس عشر

حيث تحكى المغامرة المنكودة التى تعثر بها دون كيخوتى عندما صادف بعض أهل يانجواس من الرعاة القساة

يحكى الحكيم سيدى حامدى بن إنجيلين أن دون كيخوتى، إذ ودع مضيفيه، وكل من كانوا فى جنازة الراعى جريسوستمو، دخل هو وخادمه نفس الغابة التى رأوا الراعية مارثيلا تدخلها، وبعد أن سارا أكثر من ساعتين بحثًا عنها فى كل اتجاه دون العثور عليها، انتهوا إلى النزول بمرج نضر الحشائش يجرى به نهر سلس الجريان، يروى ببرد مائه غُلَّة العطشان، فدعاهم فى إجبار إلى قضاء ساعات قيظ القيلولة التى كانت تبدأ فى الدخول بقوة. ترجل دون كيخوتى وسانشو، وتركا روثينانتى والحمار طليقين يرعيان الكلأ، وأجهزا على الخرج يخرجان ما به من موجود الطعام وأكلا معًا فى سلام ووئام، دون شعائر أو خصام بين الصبى وسيده المقدام.

لم يثقل سانشو بالقيود روثينانتى واثقًا من أنه تام الوداعة وقليل الشبق حتى أن كل أفراس مراعى قرطبة لن تغرينه على فعل السوء. ويشاء الحظ والشيطان (الذى لا ينام فى كل المرات) أن ترتع فى ذلك الوادى ترتعى بعض الأفراس الرهوان الجليقيات(*)، يملكها بعض الرعاة اليانجواسيين، الذين من عادتهم قضاء

(*) الأنثى الجليقية مشهورة بجمالها الجذاب.

القيلولة مع قوافلهم فى أماكن ومواضع العشب والماء، والمكان الذى أصاب دون كيخوتى النزول فيه صادف موافقة عادتهم المعهودة. وحدث عندئذ أن وافق ذلك رغبة روثينانتى فى التسرية عن نفسه مع السيدات الأفراس. وهكذا عندما شم رائحتهن خرج عن معهود طبيعته وحسن سيرته. ودون تصريح من صاحبه، أسرع فى خبب مهتاج، وذهب للتواصل بحاجته معهن. لكن الذى ظهر وبان، أنهن من اللازم أن كن يشتهين المرعى أكثر من اشتهائه، فاستقبلنه بالركلات والأسنان، وبهذه الطريقة لم يمض وقت طويل حتى انفلت حزام السرج، وسقط عنه على الأرض، ورؤى ظهره عاريًا دون كساء، لكن ما كان عليه أن يعانيه أكثر، هو أن الرعاة عندما رأوا منه من مهاجمة لأفراسهم، حضروا بعصيهم، وأمطروه بالضربات، حتى سقط على الأرض كسيرًا من فرط الأذى.

وعندما كان يجرى نحوهم دون كيخوتى وسانشو ينهجان، وقد شاهدا العلقة التى أخذها روثينانتى الغلبان، قال دون كيخوتى لسانشو :

– **طبقًا لما أرى، صديقى سانشو، هؤلاء ليسوا فرسانًا، بل أوغاد بلا أصل. أقول ذلك؛ لأنك تستطيع أن تشارك فى الثأر الواجب للعدوان الذى شنوه أمام أعيننا على روثينانتى.**

– **أى شيطان لأى ثأر عنه تتحدث – أجاب سانشو – إذا كان هؤلاء أكثر من عشرين، ونحن إثنان لا أكثر، وربما لسنا أكثر من واحد ونصف الواحد.**

– **أنا كفيل بمائة – أجاب دون كيخوتى.**

ودون كلمة أكثر، أخذ بيده سيفه وأشهره نحو اليانجواسيين، ومستثارًا ومحتذيًا مثال سيده فعل سانشو نفس الشىء، وكى يبدأ : طعن دون كيخوتى أحدهم، ففتح له ثوبًا من الجلد كان يرتديه شاقا له مع شطر كبير من ظهره.

اليانجواسيون، الذين رأوا سوء المعاملة من ذلكما الرجلين، بينما هم كثــرة، لجأوا إلى عصيهم وتحلقوهما وانهالوا عليهما ضربًا فى حنق وغيظ. وفى الحقيقة، أنه مع ثانى ضربة سقط سانشو على الأرض، ولم يحتمل دون كيخوتى أكثر مــن سانشو مع حذقه وشجاعته. وشاء حظه أن يسقط بين قدمى روثينانتى، الذى لم يكن قد نهض بعد، حيث تتساقط عليه العصى الحانقة التى شرع فى رؤيتها تمسك بهــا أيد خشنة غاضبة. وعندما رأى اليانجواسيون الذكرى السيئة التى أحدثوها بجــسم الرجلين، حملوا قافلتهم وبكل ما ملكوا من سرعة أخذوا طريقهم، مخلفين وراءهــم المغامرين الاثنين فى حالة بائسة، وأسوأ هيئة.

أول من استرد حسه كان سانشو بانثا ليجد نفسه بجوار سيده، فقال بــصوت مريض وحزين:

– سيدى دون كيخوتى! أوه، سيدى دون كيخوتى!

ماذا تريد، سانشو أيها الأخ؟ – أجاب دون كيخوتى، وبنفس الصوت المخنــث المتألم لسانشو.

– كنت أود لو كان ممكنًا – أجاب سانشو بانثا – أن تقدم لى فخامتكم جرعتين من ذلك المشروب لذلك الرجل القبيح (بلاس)(*)، إذا كان فى متناول يــد فخامتكم هنا، فعلّه يجبر العظام مثلما يشفى الجراح.

– لو كان فى يدى الآن، ما أتعسنى! هل كان ينقصنا شىء؟ – قال دون كيخوتى – لكن أقسم لك، سانشو بانثا، أنه قبل مرور يومين، إذا لم يشأ القدر لنــا شئيًا آخر، سيكون فى يدى أو فلتشل يداى.

(*) فيبرا بلاس اسم مخترع المشروب السحرى الذى سبق أن كلمه عنه دون كيخوتى.

-إذن، متى سوف نستطيع تحريك أقدامنا حسبما يتراءى لفخامتكم – أجـــاب سانشو بانثا.

-عن نفسى أعرف أن أقول – أجاب الفارس المطحون دون كيخوتى- إننى لا أعرف تحديد نهاية مثل تلك الآلام. لكن أنا أحمل ذنب كل شيء، فما كـــان على أن أضع يدى على السيف ضد رجال لم يكونوا فرسانًا مسلحين مثلى، وأعتقد أنه جزاء على خرق قوانين الفروسية، سمح إله المعارك أن يقع علـــى هذا العقاب. ومن أجل هذا، من المناسب أن تعرف ما سأقوله الآن عن أمرنا الراهن؛ لأنه مهم لسلامة كلينا؛ وهو أنه عندما ترى وَغْدًا مثل هؤلاء يمارس عدوانًا، فلا تنتظر أن أضع يدى على السيف لرده، لأننى لن أفعل ذلك بأى حال من الأحوال، وإنما أنت من سوف يضع يده على سيفه، كى تعاقـــب حسب ذوقك، وإذا جاء لمعاونته والدفاع عنه فرسان، فأنا ســـوف أعـــرف الدفاع عنك، وهزيمتهم، بكل قوتى؛ فقد رأيت بألف شاهد وتجربـــة إلى أى حد يبلغ بأس ساعدى.

إلى هذه الدرجة، بقى مغرورًا السيد المسكين بتغلبه على البيثكاوى الباســـل. ولم يعجب سانشو بانثا قرار سيده وتحذيره، فتجاهله قائلاً:

– سيدى، أنا رجل مسالم، وأليف، وهادئ، وقادر على مداراة أية إهانة؛ لأنـــى عندى زوجة وأبناء، علىَّ إعالتهم وتنشئتهم. وهكذا فعلىَّ فخامتكم أيضا أن تعرفوا – لأنى لا أملك أن آمر- أننى لن أضع يدى بأى حال من الأحـــوال على سيفى لا ضد فلاح ولا ضد فارس، وأنه من الآن فصاعدًا، أطلب من الله الصفح عن كل عدوان علىَّ، كان أو قد يكون، مـــن شـــخص رفيـــع

المستوى أوخفيضه، أو من غنى أو فقير، من الأعيان المعفين من الضرائب أو من غيرهم من العامة دافعى الضرائب دون استثناء لأية حالة أو أى شرط.

وعندما سمع سيده هذا، أجابه:

- أريد أن آخذ نفسى لأتكلم قليلاً براحتى، وأن يسكن بعض الشىء الألم الذى أحس به فى هذا الضلع، حتى أفهمك، بانثا، الخطأ الذى أنت فيه. تعال هنا أيها الآثم: إذا عادت إلى صالحنا ريح الحظ التى هى حتى الآن تهب ضدنا، حتى تدفع قلوع الرغبة، فنصل آمنين، ودون عقاب إلى السيطرة على أحد الموانئ، بالجزر التى بها وعدتك. فماذا سيكون شأنك، إذا كسبت أنا الجزيرة، وجعلتك سيدًا لها؟ من ثم فإنك تمضى فى جعل ذلك محالاً، لعدم فروسيتك أو رغبتك فى أن تصير فارسًا أو امتلاك البأس والنية لأن تثأر لإهاناتك، وتدافع عن سيادتك؛ لأنك يجب أن تعرف أنه فى الممالك والأقاليم الحديثة الغزو، لا تهدأ لسكانها نفوس، ولا يأخذون صف السيد الجديد، إذا لم يأخذهم الخوف من إحداث جديد لتغيير الأوضاع، عائدين، كما يقولون - لتجريب حظهم، وهكذا، فمن الضرورى، للحاكم الجديد أن يكون لديه بصر به يعرف كيف يحكم، وشجاعة للردع والدفاع فى مواجهة أى حدث.

أجاب سانشو:

- كنت أود أن أنال ما تحدثنى عنه فخامتكم من ذلك البصر وتلك الشجاعة فيما حدث لنا الآن؛ لكن أقسم لكم، بإخلاص رجل مسكين، أننى فى أمس الحاجة إلى لزقة أو لبخة أكثر من حاجتى للنقاش. ولتنظر فخامتكم عما إذا

كنت تستطيع النهوض، ولنساعد روثينانق، وإن كان لا يستحق المساعدة؛ لأنه كان السبب الرئيسى لكل هذه المطحنة. لم أكن أظن قط فيه السوء؛ فقد نظرت له دائمًا باعتباره شخصًا مسالمًا ونقيا مثلى. وفى النهاية، وكما يقولون عن ضرورة مضى وقت كبير حتى نعرف الشخص، لا يوجد شىء مضمون فى هذه الحياة. من يخطر على باله أنه بعد تلك الطعنات التى أنزلها فخامتكم بذلك الفارس المشاء المسكين، سوف يتبعها فى الحال ودون تأخير تلك العاصفة الكبرى من ضربات العصى التى أفرغت أحمالها فوق ظهورنا؟

أجاب دون كيخوتى :

- ومع هذا فظهرك، سانشو، من المفهوم أنه معد لمثل تلك العاصفة، لكن ظهرى المخلوق من أرق نسيج السينابافا والحرير الهولندى، سوف يحس بالطبع أكثر آلام هذه العثرة. أتخيل؛ أقول أتخيل، لا لأننى أعرف يقينًا أن تلك المتاعب لصيقة بحمل السلاح للقتال، وإذا لم يكن ذلك كذلك لتركت نفسى أموت كمدًا.

وعلى هذا أجاب الخادم :

- سيدى، لقد فهمت أن هذه العثرات هى محصول الفروسية، لكن قل لى فخامتكم عما إذا كانت تحدث كثيرًا أو أن لها مواسم محدودة تقع فيها؛ لأنه يبدو لى أنه بجنى محصولين صرنا غير نافعين للثالث، إذا لم ينجدنا الله برحمته الواسعة.

- لتعرف، أيها الصديق سانشو- أن حياة الفرسان المشائين مربوطة بألف خطر وتعاسة، وبهذا لا أكثر ولا أقل فهى مؤهلة بالتوازى لجعل الفرسان المشائين ملوكًا وأباطرة، كما أثبتته التجربة مع فرسان كثيرين ومتعددين، عندى كل

تواريخهم. ويمكننى الآن أن أقص عليك من أنبائهم إن مكننى الألم، حاكيًا عن بعضهم ممن صعدوا إلى أعلى الدرجات فقط بشجاعة سواعدهم، وهؤلاء أنفسهم قبل الصعود وبعده رأوا أنفسهم فى سيل من المصائب والبؤس؛ فالبطل أماديس دى جاولا وقع فى يد عدوه الساحر أركلاوس، والذى قد عرف أنه، عند وقوعه سجينًا لديه، قام بضربه مائتى سوط بعنان جواده، بعد أن ربطه إلى عمود أحد الأفنية. وفوق ذلك، يوجد مؤلف مجهول- ليس قليل المصداقية - يقول إن الفارس دى فيبو وقع فى سفح إحدى القلاع خلال شرك نصب له، وعند سقوطه وجد نفسه مقيدًا من القدمين واليدين، وفى هوة سحيقة، وهناك وضعوا له ذلك الشيء المسمى حقنة شرجية بها ماء مثلج ورمل، فكاد يسلم الروح، ولولا أن امتدت له يد النجدة من حكيم عظيم السحر، صديق له، فانتشلته من تلك المحنة، لما مرت الأمور بسلام مع ذلك الفارس المسكين. وهكذا، أستطيع أن أسلك نفسى بين هؤلاء الرجال الفضلاء الذين مروا بأهوال كبرى، ليست بمثل ما يمر بنا الآن. وأقول هذا حتى أجعل منك سانشو عارفًا بأن الجراح التى تحدثها آلة تصادف وجودها فى اليد ليست إهانة، وهذا مكتوب فى قانون المبارزة بعبارات واضحة: إذا (الجزمجى) ضرب آخر بالقالب الذى فى يده، فلا يعد المضروب قد ضرب بنبوت؛ لأن القالب مصنوع من نفس مادته وهى الخشب. أقول هذا حتى لا تظن أننا قد جرحت كرامتنا مع أننا فى تلك الضائقة قد طُحنا؛ لأن الأسلحة التى أحضرها هؤلاء الرجال لم تكن شيئًا سوى عصيانهم بوصفهم رعاة، ولم يحمل أحدهم حسبما أتذكر خنجرًا أو سيفًا أو رمحًا.

- لم يعطونى فرصة - قال سانشو- كى أرى جيدًا، لأننى لم أكد أضع يدى على سيفى البتار، حتى ألهبوا أكتافى بعصيهم بطريقة سلبت من عينى البصر، ومن قدمى القدرة على حملى، بينما كانت تنحدر الضربات على ظهرى الــذى أرقد عليه الآن، وعلى غيره من أجزاء جسمى فلا تجعلنى أفكر عما إذا كان ذلك إهانة من عدمه، وأما لسعات العصا فهى بنفس الألم التى كانت تسقط به ستبقى محفورة فى ذاكرتى، كما هى مطبوعة على ظهرى.

وعلى هذا أجاب دون كيخوتى:

- مع كل هذا أنقل إلى علمك أيها الأخ بانثا أنه لا توجد ذكرى إلا ويمحوهــا الزمان ولا يوجد ألم إلا ويفنيه الموت .

أجاب سانشو:

- من ثم، أى تعاسة كبرى يمكن أن تكون أكثرمن تلك التى تنتظر الزمن ليفنيها والموت لينهيها؟ وإذا كانت تعاستنا من النوع الذى يشفيه الدهان مــرتين بأحد المراهم فلن تكون سيئة، لكنى أمضى مكتشفًا أن مــراهم مستــشفى كاملة لا تكاد تبلغ بها مبلغ الشفاء.

أجاب دون كيخوتى :

- أعرض عن هذا، واستدع القوة من ضعفك، سانشو، وهذا ما سوف أصنعه، ولنر حال روثينانتى، فعلى ما يظهر لى أن المسكين لم ينل الشطر الأصغر من تلك التعاسة.

أجاب سانشو :

- لا ينبغى التعجب من ذلك، فهو فارس مشاء همام، لكن ما أعجب له أن حمارى كان يتمتع بنفس الحرية لكنه خرج من المعركة دون غرم، وخرجنا نحن دون أضلاع.

قال دون كيخوتى:

- دائمًا دع أبواب السعد مفتوحة لكل تعاسة، حتى تأتى بالعزاء . أقول هذا؛ لأن هذه الدويبة يمكنها الآن أن تسد ثلمة روثينانتى الآن، ليحملنى من هنا إلى إحدى القلاع لمداواة جروحى . وفوق هذا، لن يكون عارًا لى ركوبه، فأنا أتذكر أننى قرأت أن ذلك العجوز الطيب سلينو مؤدب ومربى إله الضحك المرح كان، عندما دخل المدينة ذات المائة باب، يركب حمارًا وسيمًا فى تلذذ وفخار فارس .

أجاب سانشو :

- من حقه أن يكون فارسًا فوق حمار، لكن هناك فرقًا أن تمضى هكذا فوق الحمار وبين أن تمضى كمولد هجين مثل كيس من الزبالة.

وعلى هذا أجاب دون كيخوتى :

- إن جروح معركة قبل أن تكون سببًا فى سلب الشرف تمنح أكبر الشرف، وهكذا، صديقى بانثا، توقف عن الحوار معى وانهض كما سبق وقلت لك بقدر ما يمكنك من قوة، وضعنى بالطريقة التى تعجبك أكثر فوق حمارك، وهيا بنا من هنا قبل قدوم الليل، فيسطون علينا فى هذا المكان غير المعمور .

قال بانثا :

– كيف ؟ وقد سمعت من فخامتكم أنه معتاد من الفرسان المشائين أن ينـــاموا فى القفار والصحارى معظم العام، وأن ذلك محبب لديهم .

قال دون كيخوتى:

– هذا عندما لا يكون لديهم سبيل آخر، أو عندما يكونون عاشـــقين، وهنـــاك حقيقة ثابتة، وهي أن فارسًا بقى فوق صخرة، تحت الشمس أو الظل، وتحت قسوة السماء عامين دون أن تعرف سيدته. وأحد هؤلاء كان أماديس عندما أطلق على نفسه بلتينبروس، وعاش فوق صخرة اسمها الصخرة الفقيرة، لمدة ثمانية أعوام أو ثمانية أشهر، أمر لا أتذكره جيدًا : يكفى أنـــه كـــان هنـــاك للتوبة، لسبب لا أدريه يتعلق بفعل شيء لا طعم له من جانب السيدة أوريانا لكن لنترك هذا سانشو، وتوقف قبل أن تحدث مصيبة أخـــرى، وهيـــا إلى الحمار وروثينانتى .

– حتى هنا، قد أصير شيطانًا، – قال سانشو .

ونافثا ثلاثين آى، وستين تنهيدة، ومائة وعشرين لعنة وشـــقاقًا ضـــد مـــن أحضره إلى هناك، نهض ليبقى منقلاً فى منتصف الطريق مثل قوس تركى، غيـــر قادر على الاعتدال؛ ومع هذا عمل ما لزم من إعداد حماره، والذى كـــان يمـــضى شارد البال أيضًا لفرط ما نال من حرية فى ذلك اليوم. من ثم، انهض روثينـــانتى، الذى لو كان له لسان يشكو به، لكانت شكوى سانشو وسيده فى المرتبة الثانية بعـــد شكواه. باختصار، أراح سانشو دون كيخوتى فوق الحمار، وأمسك بمقود حمـــاره مع عنان روثينانتى من خلفه، فى اتجاه يقارب ما ظنه الطريق الملكـــى. ولحـــسن

الحظ، سارت أموره من حسن إلى أحسن، وهو يمضي موجهًا القافلة، فبعد فرسخ قصير صادف الطريق، وبه اكتشف نزلاً، لكن لنكده، وسرور دون كيخوتي لم يكن النزل إلا قلعة. أصر سانشو أن ما يراه ليس إلا نزلاً، وأصر سيده على أنه قلعة وقد طال الجدل بينهما ليصلا دون أن ينهياه، وهناك دخل سانشو دون سؤال أو استفهام عما يكون المكان، ساحبًا خلفه قافلته.

الفصل السادس عشر
عما حدث للعبقرى عين الأعيان فى النزل الذى تخيله قلعة

صاحب النزل، الذى رأى دون كيخوتى حمولة على الحمار، سأل سانشو، عما به من ضر. وهذا أجاب بأن لا شيء سوى أنه سقط من فوق صخرة، فترضَّضت ضلوعه. وكان لصاحب النزل زوجة، لا تنطبق عليها شروط أمثالها من زوجات أصحاب الفنادق، فهى بطبعها باردة، وتتألم لمصائب الآخرين، وهكذا هرعت حينذاك لعلاج دون كيخوتى، ودعت ابنة لها، صبية بكر، ذات هيئة بديعة كى تساعدها فى علاج ضيفها. وكان يخدم فى النزل شابة استورية، عوراء، والعين الأخرى لم تكن فى كامل الصحة. والحقيقة أن رشاقة جسمها كانت تصلح باقى أخطائه، فلم يكن يتجاوز طولها من القدمين إلى الرأس الستة أشبار، أما ظهرها الذى كان يثقلها بعض الشيء فيجعلها تنظر إلى الأرض دون أن ترغب فى ذلك. هذه الشابة اللطيفة، ساعدت الابنة الصبية، والاثنتان أعدتا سريرًا بائسًا لدون كيخوتى فى قاعة على السطح، كل المؤشرات تدل على أنها كانت لسنوات طويلة مخزنًا للقش. وكان يسكن نفس الغرفة بغّال أعد سريره على مسافة من سرير دون كيخوتى فارسنا المشهور. وكان هذا السرير مفروشًا بأكسية البغال وعدتها، وهو- على هذا- أفضل بكثير من سرير دون كيخوتى الذى ركبوه من أربعة ألواح خشبية زلقة تصل دكتين من مقاسين مختلفين فى العرض والارتفاع و(مرتبة)، على الأرجح فى سُمك مفرش، محشوة بالبندق كما يبدو مظهرها، الذى لا ينبئ أنها مصنوعة من الصوف المهلهل، وعند جسها لصلابتها تبدو وكأنها من الحجر

الصوان، وكان فوقها ملاءتان من جلد صناعة الدروع، ولحاف خيوطه المنسولة، لا يفلت منها خيط لمن شاء أن يعدها.

في هذا السرير اللعين تمدد دون كيخوتى، وهنا قامت زوجة صاحب النزل وابنتها بتكميد جسمه ودهانه، من فوق لتحت، حاملة لهما قنديلاً للإضاءة الشابة ماريتورنس، هكذا كانت تسمى الخادمة الأستورية. وعندما رأت السيدة عند الدهان انتشار نمش الكدمات فى كل مكان، قالت إن ما ترى ليس سقطة بقدر ما هى ضربات.

قال سانشو:

- لم تكن ضربات، وإنما الصخرة كانت بها نتوءات كثيرة مدببة، وعثرات متتاليات، وكل نتوء أو عثرة صار كدمة من تلك الكدمات.

ثم أضاف:

- سيدتي الفخيمة، فلتقومى بما تفعلين بطريقة تبقى على بعض المراهم والدهان، فلن يعدم من يحتاجها، فأنا أيضًا يؤلمنى ظهرى بعض الألم.

أجابت السيدة:

- بهذه الطريقة فأنت أيضًا قد كبوت من الصخرة.

قال سانشو بانثا:

- لم أسقط، لكن من هلع رؤية سيدى يسقط، آلمنى جسمى كما لو كانوا قد صبوا عليَّ ألف ضربة نبُوت.

قالت الابنة:

- هذا ممكن جدًا، فقد حدث لى مرات كثيرة أن أحلم بسقوطي من أعلى برج نحو الأرض، وإن كنت قط لا أبلغها أثناء سقوطى، لكن عند استيقاظى أجد نفسى مطحونة مرهقة كما لو كنت قد سقطت حقيقة.

أجاب سانشو بانثا:

- **وهنا يكمن العجب، فأنا دون الدخول فى أى حلم، بل كنت مستيقظًا أكثر مما أنا عليه الآن، أجد نفسى بكدمات ليست أقل كثيرًا من كدماته.**

سألت الأستورية ماريتورنس:

- **ما اسم هذا الفارس؟**

أجاب سانشو بانثا:

- **دون كيخوتى دى لامانشا، وهو فارس مغامر، وأحد أفضل وأقوى الفرسان ممن رأينا هنا منذ أزمان طويلة.**

ردت الشابة:

- **ما هو الفارس المغامر؟**

أجاب سانشو بانثا:

- **إلى هذا الحد أنت جديدة على هذا العالم حتى لا تعرفين؟ إذن، لتعلمى معنى الفارس المغامر فى كلمتين: هو من يُرى مجلودًا، أو إمبراطورًا؛ اليوم هو أتعس مخلوق فى الدنيا، والأكثر عوزًا، وغدًا سيحمل تاجين أو ثلاثة تيجان لممالك، يهبها لخادمه.**

قالت سيدة النزل:

- **إذن، كيف تكون خادمًا لمثل هذا السيد العظيم بينما لا تملك ولا حتى مقاطعة صغيرة كما ينبئ مظهرك؟**

أجاب سانشو:

– مازال الوقت مبكرًا لهذا، فلم نخرج بحثًا عن المغامرات إلا من شهر، وحتى الآن لم تصادفنا أى مغامرة. وربما يبحث الإنسان عن شيء، فيصادفه غيره. والحقيقة، أنه إذا شفي سيدى من جرحه أو سقطته، وإذا لم أبْقَ بسببها معوقًا، لن أقايض آمالى بأعظم رتبة فى إسبانيا أو لقب.

كان دون كيخوتى متنبهًا تمامًا عند استماعه لهذا الحوار، واعتدل جالسًا ما استطاع وأخذ بيد سيدة النزل وقال لها:

– صدقينى، أيتها السيدة الحسناء، يمكنك أن تعتبرى نفسك محظوظة، لكونكم استضفتمونى فى قلعتكم هذه، والأمر أنه، إذا لم امتدح نفسى، فلأن مدح الذات منقصة، كما يقولون، لكن خادمى قد يقول لكم من أنا. فقط أقول إن ما قدمتموه لى من خدمات سيبقى مكتوبًا إلى الأبد فى ذاكرتى عرفانًا بالجميل الذى لن أنساه مادمت حيًا. وإذا لم يكن الحب قد ملكنى أسيرًا مستسلمًا، وخاضعًا لقوانينه، ولعيون تلك الحسناء الناكرة للجميل التى أردد اسمها فى صمت فمى، إذعانًا لإرادة السموات العلى، لصارت عيون تلك البكر الحسناء ابنتكم مالكة لعنان حريتى.

وعند سماع عبارات المشاء الفارس من سيدة النزل وابنتها أثناء سماع ماريتورنس الطيبة معهما لها، فهمنها كما لو كانت رطانة إغريقية، فبقين فى ذهول الحيرة، لكنهن أدركن جيدًا أنها تأخذ اتجاه تقديم القرابين والغزل، وكما لم يكن معتادات على هذه البلاغة، نظرن إليه فى تعجب، وإن بدا لهن رجلاً آخر ممن اعتدن رؤيتهم بهن يتغزلون. شكرت له السيدة وابنتها كلماته بعبارات تجارية، وانصرفتا، وبقيت ماريتورنس حتى عالجت سانشو الذى لم يكن أقل حاجة للعلاج من سيده.

كان البغال قد اتفق فى تلك الليلة مع ماريتورنس على أن يلهوا معًا، وهـــى أعطته كلمتها أن تأتى إلى مخدعه وتستجيب لإشباع ملذاته حسبما يأمرها، عند نوم أصحاب النزل، وسكون ضيوفه. ويحسب لهذه الشابة الطيبة الأصل، أنها لم تعـــط كلمة قط دون إنجازها، حتى لو أعطتها فى العراء أو دون شهود؛ لأنها كانت تعتد بنفسها باعتبارها واحدة من علية الأعيان، ولم يكن مهينًا لها العمل بالنزل؛ لأنهـــا كانت تقول إن بعض التعاسات والأحداث الحزينة، هى التى حملتهـــا علـــى ذلـــك العمل. سرير دون كيخوتى الصلب، الضيق، الحقير، الزائف، كان فـــى منتـــصف ذلك الإسطبل الذى تسقفه النجوم، وبجواره رتب سانشو رقدته على حـــصير مـــن السمار المر، وبطانية كانت تدل على أنها من قبل كانت من خيش متهرئ أكثر من كونها من الصوف. ويلى مخدع سانشو مخدع البغّال، وكمـــا ســـبق القـــول كـــان مصنوعًا من عدة وزينة أفضل بغلين من بغاله الاثنى عشر، السمينة البراقة البشرة الذائعة الصيت، لأنه كان واحدًا من البغالين الأغنياء، كما يقول مؤلف هذه القصة، والذى خص هذا البغال بذكر خاص؛ لأنه كان يعرفه طيب المعرفـــة، وإن كـــانوا يقولون إنه يمت له ببعض صلة القرابة. فضلاً عن أنه كان مؤرخًا فضوليًا وشـــديد الضبط لكل شيء، وحسن التأمل، فهو لا يترك تفصيلة تمر دون ذكرها حتى لـــو كانت من صغائر الأمور أو أدناها، الأمر الذى يعد مثلاً للمؤرخين الجـــادين فـــى الاحتذاء، عندما يحكون لنا الأحداث قصيرة موجزة لا تكاد تحرك الشفاه، تـــاركين فى المحبرة سواء أكان نتيجة إهمال أو خبث أو جهل- الشيء الأكثر جوهرية من الحدث. وسلمت ألف مرة يدا مؤلف كتاب "تابلانتى دى ريكامونتى"، ومعه مؤلـــف ذلك الكتاب الآخر الذى يحكى أعمال الكونت توميّاس، فبأى انضباط يصفان كـــل شيء! وأقول، : بعد أن زار البغّال قطيع بغاله، وقدم لها وجبتها الثانية عـــاد إلـــى مهده البغالى، وتمدد فى انتظار ماريتورنس. وهنا كان سانشو قد تم دهانه وتمدده،

ومع محاولته النوم، لم تطاوعه آلام ضلوعه. أما ضلوع دون كيخوتى فقد تركت آلامها عينيه مفتوحتين مثل أرنب برى. كان كل النزل فى سكون الصمت، ولم يكن به من ضوء سوى ما يعطيه مصباح معلق بالباب الخارجى، متوسطًا له.

هذا الهدوء الرائع، وأفكار فارسنا التى يستحضرها دائمًا من الأحداث التى تحكى فى كل فقرة من الكتب، المؤلفة لتعاساته، جالبًا لخياله واحدة من شطحات الجنون الغريبة، التى يمكن تخيلها إلى حد التوهم بوجودها، وكان أن تخيل وصوله إلى قلعة عظيمة (وقد سبق القول إنه يتخيل كل فندق أو نزل ينزل به قلعة)، وأن ابنة الفندقى كانت ابنة لصاحب القلعة، قد قهرتها رجولته، فوقعت فى غرامه، ووعدته من وراء ظهر أبويها أن تأتى للرقاد بجواره لقضاء وقت طيب معه، وآخذا هذه الترهة، والتى هى من صنع يديه، يقينية وواقعة، بدأ ينوشه الهم، ويفكر فى المأزق الخطر، الذى سوف يختبر وفاءه، واستقر فى قلبه ألا يرتكب أية خيانة ضد سيدته دولثينيا دل توبوسو، حتى لو أن الملكة جنيف مع السيدة قهرمانتها كانتانيونا مثُلا أمامه يغريانه.

وأثناء تفكيره فى هذه الترهات، وصل الوقت وحانت ساعة (بالنسبة له كانت ساعة نحس) وصول الأستورية، والتى دخلت الغرفة ذات السكان الثلاثة، بحثًا عن البغّال، بخطوات رقيقة حذرة الكياسة، فى قميص، حافية القدمين، وقد جمعت شعرها داخل شبكة من خيوط القطن. ولم تكد تتجاوز إلى الداخل الباب، حتى أحس دون كيخوتى بها، جالسًا على السرير بالرغم من المراهم والألم المرير الذى يجتاح ضلوعه، مد يديه لاستقبال فتاته الحسناء. و الأستورية فى مواجهة هذا الترحيب صامتة بذراعيها مفتوحتين بحثًا عن حبيبها البغال، وقعت يداها مصادفة فى يدى دون كيخوتى، والذى قبض على معصمها بقوة، وجرها إليه، دون أن تجسر على فتح فمها بكلمة، وأجلسها على السرير. وهنا لمس القميص الذى رآه من أرق

الحرير، وهو من الخيش، وفى معاصمها كانت بعض الغوايش من الزجاج وحسبها من جواهر الشرق ولؤلؤه. والشعر الذى بطريقة ما يحاكى عرف الفرس تراءت له خيوطًا براقة لامعة من ذهب جزيرة العرب، شعاعها يطفئ أشعة الشمس. أما أنفاسها، التى كانت دون شك لها رائحة (السلطة الباردة البايته) فقد فاح لأنفه من فمها عبقًا ناعمًا وعطريًا، وأخيرًا، فإنه رسمها فى خياله فى نفس الصورة التى قرأها فى كتبه عن أميرة أخرى جاءت لرؤية الفارس الجريح مدفوعة بحبها، وقد تزينت بكل مارآه فى الأستورية. وكم كان أعمى فارسنا المسكين، حتى أن لا اللمس ولا النفس ولا أشياء أخرى لصيقة بذات الشابة الطيبة الأصل، وصلت إلى إحباطه، مع أنها أشياء مما يدفع لتقيؤ أى شخص آخر ما لم يكن بغالاً، وعلى عكس ما يتوقع، ظن أنه يملك بين ذراعيه إلهة الحسن والجمال، فتشبث بها أشد تشبث، وبصوت مبحوح الحب، هامس بدأ يناجيها:

– أيتها السيدة الحسناء السامية المقام، كنت أود أن أكون بحال يمكننى من رد أفضالكم العظيمة على بالسماح لى برؤية حسنكم، لكن الحظ شاء، والحظ لا يتعب من مطاردة الأبرار، إلقائى فى هذا السرير مطحونًا ومرهقًا، ومع إرادتى فى أن أرضى إرادتكم، استحال على ذلك لحالى. وأكثر، يضيف لهذه الاستحالة، استحالة أخرى أكبر، هى وفائى الموعود إلى منعدمة النظير دولثينيا دل توبوسو، سيدة أفكارى الخفية الوحيدة، وإذا لم يكن ذلك حائلاً بيننا، ما كنت أكون هذا الفارس الأبله، الذى يترك هذه المناسبة البديعة تضيع من بين يديه على الرغم من أن كرمكم العظيم أتاحها لى.

كانت ماريتورنس فى كرب شديد، يتصبب منها العرق، وقد رأت نفسها فى قبضة دون كيخوتى دون أن تفهم أو تتنبه لما يقول من عبارات، وكانت تحاول

دون أن تنطق بكلمة الفكاك من قبضته. الطيب فى سلوك البغّال، والذى أيقظ دخول عشيقته رغباته السوداوية، عندما أحس بها عند عبورها الباب، أنه مضى يسمع ما استطاع كل ما كان يقوله دون كيخوتى. وفى غيرة من أن الأستورية لم تــف لــه بكلمتها، أخذ يقترب من سرير دون كيخوتى، وبقى شاخصًا، حتى يرى إلــى مــا سوف تنتهى إليه هذه العبارات، التى لم يستطع فهمها، لكــن عنــدما رأى الــشابة تناضل للفكاك منه، وأن دون كيخوتى يجهد لإبقائها. بدا له أنها دعابة أقرب إلــى الشرك والخدعة. رفع يده وهوى بقبضته على الفك الــشحيح للفــارس العاشــق، فاستحم فمه فى الدم. ولم يكتف بهذا، بل صعد فوق ضلوعه، وأخذ يتمشى رَمْحًــا من رأسه إلى قدميه، ومن قدميه إلى رأسه. والسرير الذى كــان ضــعيفًا بعــض الشيء، وليس له أساس ثابت، لم يستطع أن يتحمل الحمل الإضافى للبغّال، فتساقط مكومًا فوق الأرض، محدثًا ضجة مدوية أيقظت صاحب النزل، الــذى أدرك فــى الحال أن السبب هو السعى الليلى لماريتورنس؛ لأنه نادى عليها عاليًا و لم يكن من مجيب. ومع هذه الريبة، نهض، وأشعل قنديلاً، وذهب حيث أحس بالتعارك. وعند رؤية الشابة أن سيدها قادم، وأن الظروف بالغة السوء، انكمــشت داخــل فــراش سانشو بانثا فزعة مضطربة. وهذا كان حتى تلك اللحظة يغط فى النوم، وملتــصقة به تكومت وتكورت. دخل صاحب النزل قائلاً:

– أين أنت أيتها العاهرة؟ إنى واثق أن ذلك من صنائعك.

عند هذا استيقظ سانشو؟ وأحس بتلك الكرة تعلوه تقريبًا، وظــن أنــه يمــر بكابوس، فأخذ يحرك يديه بلكمات فى كل جهة، وبين بعض تلك الأهــداف التــى بلغتها لكماته أصاب ماريتورنس لا أدرى بكم منها، و متأثرة بــالألم، ومدفوعــة باصطناع الشرف قالت لسانشو رد ضرباته مضاعفة، فسرقت بالإكراه من عينيــه النوم، وعندما رأى أنه يعامل بهذه الطريقة ودون أن يعرف ممن، فلــم يملــك إلا

محاولة النهوض بقدر ما استطاع وهنا وجد نفسه وماريتورنس فى حالة احتضان، وبدأ الإثنان يتناوشان مناوشة هى الأفكه والأكثر تحديًا فى الدنيا. وعلى ضوء قنديل صاحب النزل الذى أهَلَّ رأى البغّال ماذا يجرى لعشيقته، فهرع لتقديم النجدة الواجبة تاركًا دون كيخوتى. ونفس الشيء صنعه صاحب النزل، لكن مع اختلاف فى القصد والنية؛ لأنه هرع لعقاب الشابة، لاعتقاده أنها وحدها كانت سبب كل هذا التناغم والانسجام. وهكذا كما يقال "القط وراء الفأر، والفأر وراء الحبل، والحبل وراء النبوت" فقد أخذ البغّال يلاطم سانشو بضرباته، وسانشو يلاطم الشابة، والشابة تلاطمه، والفندقى يضرب الشابة، والجميع مسرف فى أداء مهمته فى سرعة خاطفة، فلم يمنحوا أنفسهم لحظة راحة أو سكون، وجاء الخير عندما انطفأ قنديل صاحب النزل، وكما سادهم الظلام تبادلوا فيما بينهم اللطمات دون شفقة، والجميع يضرب الجميع (عميانى)، وكانوا حيث تسقط أيديهم، لا يتركون شيئًا سليمًا.

وتصادف أن نزل تلك الليلة حارس تابع للمحكمة التى تعاقب على جرائم البرارى والبطاح فى دائرتها القديمة بطليطلة، والذى عند استماعه إلى الدورى الغريب للمشاجرة، أمسك صولجانه، والصندوق المعدنى لرتبه، ودخل فى الظلام إلى الغرفة قائلاً:

- سلموا أنفسكم للعدالة، سلموا أنفسكم للأخوة المقدسة.

وأول من أصطدم به كان شهيد اللكمات دون كيخوتى، حيث وجده فى سريره المكوم على الرض، ممددًا وفمه إلى أعلى بلا حراك أو حس، فمد يده متحسسًا لحيته دون أن يتوقف عند ترديد " إلى العدالة!" لكن عندما وجد من

يتحسسه لا يهش ولا ينش، أدرك أنه ميت، والذين كانوا داخل الغرفة قتلـــة: ومـــع هذا الشك تعسف القول:

- **فليغلق باب النـــزل، ولا يغادره أحد، فقد مات رجل هنا .**

هذا الصوت أفزع الجميع، وكل غادر المعركة فى المنعطف الـــذى عنـــده فاجأه صوت الحارس. انسحب الفندقى إلى غرفة نومه، والبغال إلى براذع سريره، والشابة إلى حظيرتها، فقط التعيسان دون كيخوتى وسانشو لم يستطيعا الانتقال من مكانهما. أفلتت يد الحارس لحية دون كيخوتى، وخرج بحثًا عن مـــصباح، للبحـــث عن المجرمين والقبض عليهم، لكن لم يجد لأن صاحب النزل، فـــى خبـــث، كـــتم أنفاس المصباح عندما انسحب إلى مقره، فلجأ الحارس إلى المدفأة، وبكثيـــر مـــن الجهد والوقت أشعل مصباحًا آخر.

الفصل السابع عشر

حيث تتتابع الجهود التى لاتحصى التى بذلها الجسور دون كيخوتى، وخادمه الطيب سانشو بانثا فى النزل الذى لسوء مآله ظنه قلعة

أفاق خلال هذا الوقت دون كيخوتى من إغمائه، وبنفس نغمة الصوت التـــى نادى بها خادمه بالأمس عندما كان ممددًا فى وادى العصي(*)، بدأ يناديه قائلاً:

– سانشو، أيها الصديق، هل أنت نائم هل أنت نائم، سانشو صديقى؟

– أجاب سانشو:

– كيف أنام– تبًا لى –، وأنا ملئ بالنكد والحنـــق، ولا أرى إلا أن الـــشياطين سكنتنى هذه الليلة؟

رد كيخوتى:

– تستطيع أن تثق فيما تقول دون شك، لأن هذه القلعة إما مسكونة، وإما أنـــا قليل التمييز. ولأنه يجب أن تعرف، لكن الذى أود قوله لك الآن، عليك أن تقسم بالاحتفاظ به سرًا إلى ما بعد موتى.

قال سانشو:

– نعم، أقسم.

(*) إشارة لعصى الرعاة اليانجواسيين، ومكان ضربهم له بها.

رد دون كيخوتى،

- أطلب منك ذلك، لأنى عدو لمن يسلب كرامة أحد.

عاد سانشو للقول:

- أقول الآن: نعم، أقسم أننى سأكتمه إلى ما بعد موتك، وأصلى لله أن أتمكن من كشفه غدًا.

أجابه دون كيخوتى:

- هل أسأت إليك، سانشو، حتى تود أن ترانى ميتًا فى أقرب فرصة.

رد سانشو:

- ليس من أجل هذا، إنما أنا عدو لحفظ الأسرار كثيرًا من الوقت، ولا أحب أن تتعفن لطول حفظها.

- ليكن السبب ما يكون - قال دون كيخوتى -، فإنى أثق أكثر فى حبك وأدبك، ومن ثَمَّ، عليك أن تعرف أنه قد حدث لى الليلة واحدة من أغرب المغامرات التى أعرف مدى ثمانتها، وحتى أحكيها لك باختصار، أتت لى منذ قليل ابنة صاحب القلعة، وهى غادة أبدع فى الخلقة وأجمل فى الشكل من كل نساء الشطر الأكبر من الأرض. ماذا أقص عليك عن زينتها؟ وعن ذكائها الرائع؟ وماذا عن أشياء أخرى تحت الثياب، وفاء لسيدتى دولثينيا دل توبوسو، لن أبوح بها وأصمت عنها؟ فقط أود أن أقول لك، أن السماء حسدتنى لهذا الخير العميم، وتلك النعمة التى وضعتها بنفسها فى يدى، أو ربما، (وهذا يقين جدًا) كما قلت، هذه القلعة مسحورة، ففى الوقت الذى كنت معها فى مناجاة متبادلة بالغة الحلاوة، والتودد، ودون أن أرى أو

أعرف امتدت يد ملتصقة بذراع عملاق هائل، وأراحت على فكي لكمة حتى غطى فمي كله الدم مثل حمّام، ثم بعد ذلك طحنني، ولهذا فأنا أسوأ من ألمس عندما اعتدى علينا البغالون ذلك الاعتداء الذى تعرفه؛ بسبب طيش روثينانتى. ومن هذا، أخمن أن كنز حسن هذه الغادة مرصود تحت حماية عربى مسحور، وأنه ليس موعودًا لى.

أجاب سانشو:

– ولا لى أيضًا، لأنه أكثر من أربعمائة عربى قد أهلكونى ضربًا، حتى أن طحن العصى كان تورتة وكحك العيد. لكن قل لى سيدى، كيف تسمى هذه المغامرة الطيبة والنادرة، حيث صرنا إلى ما صرنا إليه؟ ومع ذلك، فخامتكم أقل ضرًّا، لوقوع هذه الحسناء الفريدة، التى كانت بين يديك، لكن أنا، ماذا كان بين يدى غير اللكمات الأكبر فيما استقبلته فى حياتى حسب ظنى؟ ما أتعسنى، وما أتعس الأم التى ولدتنى، فأنا لست فارسًا مشاء، ولا أفكر أن أكونه بتاتًا، ويصيبنى النصيب الأوفر من مصائب المغامرات وطحينها.

أجاب دون كيخوتى:

– إذن، أنت ضربت الضرب المبرح أيضًا؟

قال سانشو:

– ألم أقل أن نعم، تبًّا لسلالتى!

قال دون كيخوتى:

– لا تحزن يا صديقى، سوف أركب الآن البلسم الثمين، وبه سوف نشفى قبل أن يرتد إلينا البصر.

وهنا كان الحارس قد انتهى من إشعال القنديل، ودخل ليرى من كان يظنه ميتًا، وعندما رآه سانشو آتيًا فى جلباب قصير، وعلى رأسه منديل ملفوف عليها، وفى يده قنديل، وبوجه فيه صرامة، سأل سانشو سيده:

- ألا يمكن أن يكون هو العربى المسحور، يعود إلينا لعقابنا لإكمال سعادتنا، إذ نسى إتحافنا ببعض اللكمات المكتوبة علينا؟

أجاب دون كيخوتى:

- لا يمكن أن يكون العربى، لأن المسحورين لايتركون لأحد أن يراهم.

قال سانشو:

- لايتركون لأحد أن يراهم، لكنهم يتركون لمن شاء حظه العاثر الإحساس بهم، وإذا لم تصدق يخبرك ظهرى.

أجاب دون كيخوتى:

- وظهرى أيضًا، لكن هذا ليس مؤشرًا حتى نعتقد أن هذا الذى يظهر للعين هو العربى المسحور.

وصل الحارس، وكما رآهما يتحاوران تلك المحاورة الهادئة، اعترته الحيرة. حقًا، فدون كيخوتى حتى الآن كان فمه متجهًا إلى أعلى، دون قدرة على الحراك، بسبب طحنه. اقترب منه الحارس، وقال له:

- من ثم، كيف حالك، أيها الرجل الطيب؟

أجاب دون كيخوتى:

- لو كنت مكانك لتكلمت فى أدب أكثر. هل تجسر على مخاطبة الفرسان المشائين فى هذه الديار بهذا الأسلوب، أيها الوقح؟

الشرطى رأى نفسه تساء معاملته من رجل زرى المنظر، ولم يستطع التحمل، فألقى القنديل بكل زيته فى الهواء حتى ارتطم برأس دون كيخوتى، وتركها مشدوخة، وهنا ساد الظلام، وولاهما ظهره وانصرف. قال سانشو بانثا:

- لاشك عندى سيدى، أن هذا هو العربى المسحور، وعليه أن يحتفظ بالكنز لآخرين، ولنا اللكمات وضربات القنديل.

أجاب دون كيخوتى:

- هو ما تقول، ولا ينبغى إعارة أى اهتمام لتلك الأشياء السحرية، ولا يوجد سبب للغضب أو الخصام معها، فهى لأنها غير مرئية وفانتازية، فلن نجد من نثأر منه، ولو بذلنا كل المحاولات. انهض، سانشو، إن تستطيع، وأطلب قائد القلعة هذه، واسعى للحصول على قليل من الزيت، والنبيذ والملح وورق الإكليل، لصنع البلسم الشافى المعافى، فالحق أنه ضرورى لنا الآن، فجرحى ينزف دمًا كثيرًا، ذلك الجرح الذى أحدثه الشبح الوشيك الانصراف.

نهض سانشو مع ألم فظيع فى العظام، وتسلل فى الظلام إلى غرفة صاحب النزل، وهناك التقى بالحارس مستطلعًا بأذنيه إلى أى مدى سوف يصل عدوه وعدو العدالة. قال له سانشو:

- أيها السيد الذى كن ماشئت، افعل بنا خيرًا وكن لنا نفعًا، أعطنا قليلاً من أوراق الإكليل، والزيت والملح والنبيذ، فهذا ضرورى لعلاج واحد من أحسن الفرسان المشائين الذين يمكن أن يوجدوا على سطح الأرض، والذى

يرقد على ذلك السرير بجروح بالغة على يد العربى المسحور الموجود فى هذا النـــزل.

وعندما سمع الحارس مثل هذا الكلام اعتبره رجلاً خلت رأسه مـــن المـــخ، ولأن الساعة كانت قرب الشروق، فتح باب النزل ونادى على صاحبه، وقـــال لـــه عما يطلبه ذلك الرجل الأبله، وفى الحال أمده الفندقى بكل ما يطلب، وحملـــه إلـــى دون كيخوتى، الذى كان يضغط رأسه بيده، شاكيًا من ألم ضربة القنديل بها، التـــى لم تسبب له أذى أكثر من نتوءين متورمين بزيادة، ظنّهما دمًا، و لم يكن إلا عرقه المتصبب بسبب حمية العاصفة السالفة.

باختصار، تناول العناصر الأولية، ومنها عمل مركبًا خالطًا لهـــا جميعًـــا، وطابخًا لها فترة متطاولة حتى بدا له أنها نضجت، وهنا طلب قنينة يـــصب فيهـــا مركبه، ولما لم يجدها قرر أن يصبه فى كوز أو فى صفيحة زيـــت، وقـــد وهبـــه الفندقى ما طلب بسرور، من ثم ترنم فوق الكوز ثمانين صلاة (أبانـــا الـــذى فـــى السماء) ثم صلاة (العذراء الأم) مرات غزيرة العدد، ومن بعـــدها شـــعار العقيـــدة وتهليلها، ومع كل كلمة كان يرسم الصليب، رسم التبريك، وكل ذلك فى حـــضور سانشو والفندقى والحارس، ولم يظهر البغّال الذى راح إلى بغاله يرعاها، بعـــد أن اطمأن بعد خوف. منتهيًا من هذا قرر أن يجرب على نفسه هذا البلسم الثمين مـــن حيث مصداقيته طبقًا لتخيله لها، وهكذا شرب منه مما لم يتـــسع لـــه الكـــوز بعـــد امتلائه، وبقى فى "حلّة" الطبيخ، وكان تقريبًا نصف لتر، وبمجرد أن شربه بدأ فـــى التقيؤ، حتى لم يبق فى معدته شيء، ومع لهفة وتهيج التقيؤ غرق فى العرق، ممـــا دعاه لأن يطلب منهم أن يغطوه ويتركوه وحده. وفعلوا ما طلب وبقى نائمًا ثـــلاث ساعات، بعدها استيقظ، شاعرًا براحة فائقة فى جسمه، وقد خفت -بهذا- رضوضه، وظن أنه استعاد صحته، وهكذا أعتقد بأنه نجح فى تركيب بلسم فييرابراس، وبهـــذا

الدواء من الآن فصاعدًا، يمكنه أن يدخل، دون خوف من الجروح أو الرضوض والقروح، فى معارك ومبارزات مهما كانت خطورتها.

سانشو بانثا الذى نظر إلى تحسن سيده باعتباره معجزة، رجاه أن يسقيه ما بقى فى حلة الطبيخ، ولم تكن كمية قليلة. صرح له دون كيخوتى بذلك فتناول الحلة بين يديه، وفى ثقة، وبأفضل هيئة، صب ما بها فى جوفه صبًا، واستقبلتها معدته بأقل مما فعلت معدة سيده من حسن البلاء والترحيب؛ لأن معدة سانشو المسكين لم تكن رهيفة حساسة مثل معدة دون كيخوتى، ولهذا أول ما تقيأ نال منه الغثيان والسوداوية، وعرق بعد عرق مع إغماء، فقرّ فى ذهنه جيدًا، أن ساعته الأخيرة قد حانت بحق، من ثم، إذ رأى نفسه فى هذه الحال من الضعف وسوء المآل، لعن البلسم، ولص الأرواح الذى به ابتلاه. وعندما نظر إليه دون كيخوتى ورآه فيما هو فيه، قال له:

– أعتقد، سانشو، أن كل هذا الضنى قد أصابك لعدم كونك فارسًا منصبًا، لأننى أفكر أن هذا البلسم ليس لمن هم ليسوا كذلك.

– وإذا كنتم تعرفون ذلك فخامتكم–أجاب سانشو– فلم وافقت على أن أشربه؟ فما أتعسنى، وأتعس كل من يمتّ لى بقرابة!

وأثناء ذلك، اكتمل مفعول المشروب المهلك، وأفرغ الخادم المسكين ما فى الجوف ليجف، فى عملية صرف، عبر القنالين ، وفى سرعة تتالى القذف، حتى أن حصيرة السمار المر، وبطانية الصوف قديم العهد أنهيا صلاحيتهما المتهالكة، فلم يعد لهما نفع. عرق سانشو، وتصبب منه العرق، مع إغماءة من بعدها إغماءة، وحوادث أخرى بناءة، حتى أن الجميع– وليس هو فقط– ظنوا أنه يموت. استمرت هذه الزوبعة والضعضعة ساعتين من الزمان، بقى بعدها ليس كسيده معافى بل

مطحونًا تالفًا، غير قادر على الوقوف أو التماسك، لكن دون كيخوتي –الذى كما سبق القول – كان قد أحس بالشفاء والراحة، أحب عندها الرحيل بحثًا عن المغامرة والقتال، وظهر له أن كل وقت يتأخره هناك معناه أنه يحرم العالم منه، كما يحرم المضطرين إلى عونه وإيوائه، وأكثر يحرمه هو من اليقين والثقة فى بلسمه. وهكذا مرغمًا تحت تلك الرغبة، أعد ركاب روثينانتى بنفسه، ووضع على الحمار برذعته مساعدة لخادمه فى محنته، بل أكثر قام بتلبيسه ملابسه، ووضعه فوق حماره، وامتطى هو الجواد، حين رأى رمحًا بالغ الطول فى أحد أركان النزل، فانتزعه كى يكون له رمحًا.

كان جميع النزلاء ينظرون إليه، وقد تجاوز عددهم العشرين، أيضًا تابعته ابنة صاحب النزل بنظرها، وهو أيضًا لم ينزل عنها عينه، نافثًا تنهيدة بين الفينة والفينة، وكانت كل تنهيدة تكاد تشد أحشاءه من أعمق أعماقها، والجميع يظن أنها تنهيدات تصدر عن ألمه الذى فى الضلوع، وعلى الأقل كان هذا ظن من رآه بالأمس يستقبل المراهم والدهان.

وعندما استقر الاثنان كل على مطيته بباب النزل نادى دون كيخوتى على الفندقى وقال له بصوت هادئ وقور:

– لقد كانت النعم التى استقبلتها فى قلعتكم أيها القائد كثيرة وعميمة، وسأظل شاكرًا لها طول أيام حياتى، وإذا استطيع ردها، بإنصافكم من أى سافل يكون قد أساء إليكم، ولتعلموا أن حرفتى ليست إلا رد كرامة من يعجز عن ردها بنفسه، والثأر لمن يصيبهم الظلم، وعقاب من يرتكبون الخيانة والغدر. فلتراجع ذاكرتك، فإن عثرت على شيء من هذا فكله إلىّ، وليس أكثر من

أن تقوله لى، وأقسم بشرف نظام الفروسية الذى أنتسب إليه، أنى سوف أردكم راضيًا مرضيا، وقد دفعت إليك ديونك.

أجابه الفندقى بنفس الهدوء:

– أيها السيد الفارس، لا أحتاج لانتقام فخامتكم لى من أى عدوان كان، لأنى أعرف أن أختار الثأر المناسب، عندما يعن ببالى. لكن حاجتى هى أن تدفع لى تكاليف الليلة التى قضيتها هنا فى النزل،و ثمن التبن والشعير لدابتيكما الاثنتين، وثمن عشائكما و السرير.

أجاب دون كيخوتى:

– إذن، هل هذا نزل؟

أجاب الفندقى:

– وفى غاية الأمانة.

رد دون كيخوتى:

– لقد عشت مخدوعًا إلى هذا الحد ففى الحقيقة ظننت أننى كنت فى قلعة، وهذا ليس بسيئ، لكن حيث إن المكان ليس قلعة، وانما هو فندق صغير، فالممكن عمله الآن هو إعفائى من الدفع، لأنى لا أستطيع خرق تعليمات نظام الفرسان المشائين، وعنهم أعرف بكل اليقين (دون أن أقرأ حتى الآن أى شيء مخالف) أنهم لم يدفعوا قط لنزل أو لفندق، ولا ثمن أى شيء يباع فى أى مكان كان، فالجميع يدينون لهم شرعًا وقانونًا بتقديم كل ترحيب ممكن ثمنًا لجهدهم الذى لا يمكن لأحد أن يعانيه فى البحث عن المغامرات ليل نهار، شتاء وصيفًا،

راجلين وركبانًا تحت سطوة الجوع والعطش والبرد والحر، متعرضين لكل الحوادث التى تهبط من السماء والأحداث التى تقع على الأرض.

أجاب صاحب النزل:

- ما أقل علاقتى بما تقول! ادفع لى ما تدين به للنزل، ولنترك الحكاوى والفروسية، فليس لى التزام آخر غير تحصيل حقوقى.

رد عليه دون كيخوتى:

- إنك أحمق، ومضيف سيئ.

همز روثينانتى برجليه، وشرع رمحه الطويل، وخرج من النزل، دون أن يوقفه أحد، وهو دون أن ينظر عما إذا كان خادمه يتبعه، ابتعد مسافة بعيدة، والفندقى عندما رآه يرحل دون أن يدفع له، هرع إلى سانشو كى يدفع، والذى قال إن سيده لم يرغب فى الدفع وهو يحذوه، لكونه تابعًا لفارس مشاء، فإن نفس القاعدة والقانون ينطبقان عليه تمامًا مثل سيده، من عدم الدفع لأى مطعم أو فندق. واستاء كثيرًا من هذا صاحب النزل، وهدده بأنه إن لم يدفع، فسوف يقبض منه بطريقة سوف تثقل عليه وتؤلمه. وعلى هذا رد سانشو، بأن قانون الفروسية الذى لقنه سيده يلزم بعدم دفع درهم واحد لأحد، ولو كلفه ذلك حياته، حتى لا تضيع بين الناس بسببه تلك القيم القديمة الطيبة للفرسان المشائين، أو يشكو من سلوكه خدم هؤلاء الذين مازالوا فى رحم الغيب بتضييعه هذا الحق العادل.

وشاء الحظ العاثر لسانشو المسكين أن وجد بين من كانوا فى النزل ، أربعة نساجين من سقوبية، وثلاثة أبارين من حى الأمهار بقرطبة، واثنان من سوق أشبيلية، وكلهم مرح، حسن النية، لعوب متخابث، وكما لو كانت تدفعهم روح

واحدة وتحفزهم، اقتربوا من سانشو، وخلعوه من حماره، ودخل أحدهم إحدى الغرف لإحضار بطانية أحد النزلاء، وألقوه فوق البطانية، ورفعوا عيونهم فاكتشفوا أن السقف كان أكثر انخفاضًا مما يحتاجه العمل المزمع، فقرروا الخروج إلى الإسطبل، الذى كان حد سقفه السماء، وهناك وضعوا سانشو فى وسط البطانية، وبدأوا يقذفونه لأعلى، يلهون به كما لو كان كلب مهرجان (أو سيرك)(*).

الصرخات التى كان يطلقها بائس البطانية الهزازة وصلت إلى مسامع سيده، والذى عند توقفه للإنصات بانتباه، ظن أن مغامرة جديدة تطرق بابه، حتى عرف بوضوح أن الصراخ صادر من تابعه، ولاويًا العنان أجهد الجواد رمحًا، وعاد للنزل، ليجده مغلقًا، فدار حوله باحثًا عن فجوة للدخول، لكنه ما أن وصل إلى الحظيرة التى لم تكن جدرانها عالية، حتى رأى اللعبة البذيئة التى يصنعونها مع خادمه. ورآه يعلو ويهبط فى الهواء فى ظرف ورشاقة، ويقينى أنه لو غادره غضبه لمات على روحه من الضحك. جرب أن يصعد إلى السور هابطًا إليه مباشرة من على حصانه، لكنه لما به من طحن ورضوض لم يستطع أن يفعل، وهكذا معتليًا جواده أطلق سيلاً من القذف والشتائم مما لا يمكن الإصابة بكتابتها، ضد من يلهون بسانشو متقاذفين له، أما هم فلم يدعوا ضحكهم وعبثهم، ولا الطيار سانشو ترك صرخاته الشاكية، المختلطة بالتهديدات والتوسلات، لكن كل هذا أفاد أقل من القليل، أو لم يفد حتى أودعوه الأرض لمحض تعبهم. أحضروا هناك حماره، ووضعوه فوقه، ولفوه بعباءته، وماريتورنس الشفوقة، عند رؤيتها له بكل هذا التهاوى والتعب، رأت أنه من البر نجدته بكوز من الماء، وهكذا أحضرت له

(*) (أو سيرك) من إضافة المترجم لتقريب هذه الصورة عن عادة فى بعض الكرنفالات لتقاذف الكلاب فى الهواء، مثلما يفعل الكبار فى عالم اليوم مع الأطفال أحيانًا.

الماء من البئر ليكون أكثر بردًا وسلامًا. التقطه سانشو، رافعًا له إلى فمه، لكنه توقف على صرخات سيده، قائلاً له:

– سانشو يا ولدى، لا تشرب ماء يا ولدى، لا تشرب وأراه كوز مشروب المهالك–، فقط بشرب قطرتين من هذا سوف تنقه وتصح، لا تشك فى ذلك.

أدار سانشو عينيه فى اتجاه هذه الصرخات، كما لو كان يقلبهما، ورد عليه بصرخات أعلى:

– هل نسيتم فخامتكم أننى لست فارسًا، أم أنك تود أن أتقيأ بعض ما بقى لى من أحشاء بعد إفراغ معظمها أمس؟ احتفظ بكوزك مع الشياطين، ودعنى لحالى.

وعندما انتهى من قول هذا، بدأ بنية أن يجرع كل ما فى الكوز، ولكن عند أول جرعة وجده ماء، فلم يرغب فى مواصلة الشرب، ورجا ماريتورنس أن تحضر له نبيذًا، وهكذا فعلت بإرادة كاملة، ودفعت ثمن النبيذ من حر مالها، لأنه بالفعل يقال عنها، إنها مع سعيها الليلى فى فراش بعض الزبائن، كان يعمر قلبها ظلال من الايمان وبقايا مسيحية. وعندما شرب سانشو النبيذ ضرب حماره بعقب قدميه، وفتحوا له باب النزل على مصراعيه، وخرج مسرورًا لأنه لم يدفع شيئًا، وأنه حقق عزمه وإرادته، حتى لو كان على حساب الكفيل المعتاد له، وهو ظهره. حقًا لقد احتفظ الفندقى بخرجه، فى مقابل ما يدين به له، لكن سانشو لم يلاحظ غياب الخرج، لخروجه مضطربًا. وأراد صاحب النزل أن يغلق الباب جيدًا بالمزاليج، لرؤيته دون كيخوتى وتابعه بالخارج، لكن أصحاب البطانية الهزازة لم يوافقوه، لأنهم من القوم الذين لا يساوى عندهم دون كيخوتى درهمين حتى لو كان حقًا فارسًا مشاء من فرسان الدائرة المستديرة.

الفصل الثامن عشر
حيث تحكى أحاديث سانشو بانثا إلى سيده دون كيخوتى، مع مغامرات أخرى جديرة بأن تقص

وصل سانشو بانثا إلى سيده ذابلاً ومغشيًا عليه، إلى حد عدم قدرته على لكز حماره، وعندما رآه دون كيخوتى على هذا الحال، نطق وقال:

– الآن لم أكد انتهى من الإيمان، أيها الطيب سانشو، بأن تلك القلعة أو ذلك النزل مسحور مسكون دون شك، لأن هؤلاء الذى اتخذوا منك فى قسوة أداة للتلهى والعبث، ماذا يمكن أن يكونوا غير أشباح، وأناس من عالم آخر؟ ويؤكد ذلك أن رأيت أننى عندما كنت بجوار سور الإسطبل ناظرًا إلى فصول مأساتك الحزينة، لم يكن ممكنًا لى الصعود على السور، ولا حتى الترجل عن روثينانتى، لأنه كان مؤكدًا أنهم وضعونى تحت تأثير سحرهم، وأقسم لك بحق من أكون أنا، أننى لو كنت استطعت تسنم السور أو الترجل، لانتقمت لك من هؤلاء الأنذال الأشقياء انتقامًا كانوا به سيتذكرون ملهاقم أبد الآبدين، حتى لو كان ذلك كما أعرف ضد قانون الفروسية، الذى كما ذكرت لك مرارًا لا يبيح أن يضع فارس يده ضد من ليس هو بفارس، إذا لم يكن ذلك دفاعًا عن حياته وشخصه، فى حال المداهمة أو الضرورة القصوى.

- أيضًا لو أقدر أنا على الانتقام لانتقمت، سواء كنت فارسًا منصبًا أو غير منصب، لكن لم استطع، مع أنني يقر فى نفسى أن من هو بى لم يكونوا أشباحًا، ولا رجالاً مسحورين، كما تقول فخامتكم، وإنما هم رجال من لحم وعظم مثلنا، وكلهم، طبقًا لما سمعت عندما كانوا يتنادون أثناء تقاذفهم بى، لهم أسماء، فهذا يسمى بيدرو مارتينس، وذاك تينوريو أرناندس، أما الفندقى فقد سمعتهم ينادونه خوان بالوميكى دى ثوردو. هكذا، يا سيدى، عدم القدرة على صعود السور أو الترجل عن الحصان لم يكن سحرًا، وإنما هو أمر آخر. والذى استنتجته نظيفًا من الأوشاب فى هذا كله أن المغامرات التى نمضى بحثًا عنها فى النهاية والختام ليست إلا سببًا إلى الغرامات والرغامات، التى تجعلنا نعجز عن تمييز قدمنا اليمنى(*) من القدم الآخرى، والذى سيكون أفضل وأصوب طبق فهمى المحدود هو العودة إلى قريتنا، وخاصة أننا فى موسم الحصاد، وتدبير العيش، وعلينا ترك المضى من خيبة إلى نائبة، ومن حفرة إلى منحدر، كما يقولون.

أجاب دون كيخوتى:

- ما أقل ما تعرف سانشو عن كيد الفروسية! أصمت واصبر، وسيصل اليوم الذى ترى فيه بعينك شرف مواصلة هذا المراس. وإذا لم يكن، قل لى: أى سرور أعظم فى الدنيا أو أى رضا يتساوى مع تغلّبك فى معركة والانتصار على عدو؟ دون شك لا يوجد لهذا نظير.

(*) يشير إلى مثل إسبانى من أصل عربى يتفاءل بالدخول للأماكن والأحداث بالقدم اليمنى.

أجاب سانشو:

– هكذا ينبغى أن يكون بفرض أننى لا أعرف، وفقط أعرف أنه بعد أن صرنا فارسين مشائين، أو صرته فخامتكم (فأنا لا يجب أن أدخل فى مثل هذا العدد الشريف) لم تكن لنا الغلبة فى أى معركة، إذا استثنينا المعركة مع البيثكاوى، وحتى مع هذه خرجت فاقد نصف أذن، ونصف خوذة، وبعدها كل شىء كان ضرب نبابيت فى ضرب نبابيت، وفوقها لكمات، مع تميزى بالطيران فى الهواء هابطًا صاعدًا، على يد أشخاص مسحورين لا أستطيع الثأر منهم، حتى أعرف إلى أى مدى يصل السرور والرضا بالانتصار على عدو، كما تقول فخامتكم .

– تلك هى الحسرة التى أصابتنى، وينبغى أن تصيبك، سانشو– أجاب دون كيخوتى– لكنى سأحاول الحصول على سيف فى يدى، مصنوع بأستاذية، فلا يصيب من يحمله أى جنس من أجناس السحر، وقد يسعدنى الحظ بسيف أماديس الذى به سمى فارس السيف المتضرم، وقد كان واحدًا من أفضل السيوف التى حملها الفرسان فى العالم، لأنه كانت له هذه الميزة السالفة الذكر، وكان يقطع مثل السكين، ولم يكن هناك سلاح مهما كان قويًا أو مسحورًا له القدرة على الوقوف فى مواجهته.

– أنا المحظوظ سأكون لو حدث هذا ووجدت فخامتكم سيفًا مثيلاً – قال سانشو – لأنه فقط سوف يكون فى خدمة الفرسان الرسميين مثل البلسم، أما الخدم فلا اعتبار لهم.

– لا تخف من ذلك، سانشو – أجاب دون كيخوتى، فالله سوف يفرجها عليك.

في هذا الحديث والحال كان يسير دون كيخوتى وتابعــه، عنــدما رأى دون كيخوتى فى الطريق سحابة من الغبار كثيفة وعظيمة تتحرك نحوهما، وهناك قــال لسانشو:

– هذا هو اليوم، أوه، سانشو، الذى فيه ينبغى رؤية الخير الذى يدخره لى حظى، هذا هو اليوم، أقول، الذى فيه ينبغى أن أثبت فيه قوة ساعدى أكثر من أى يوم آخر، وفيه على إنجاز أعمال ستبقى خالدة فى كتاب (الشهرة) عبر كل القرون القادمة. هل ترى هذا الغبار الذى يتصاعد هناك سانشو؟ إنــه قــد اعتقد سحابة تغطى جيشًا لجبًا من أجناس وأناس متعددة ولا حصر لها، وها هو هناك فى مشيته العسكرية .

– طبقا لحسابك، ينبغى أن يكونا جيشين– قال سانشو – لأنه من الجهة المقابلة تتصاعد سحابة أخرى مثيلة من الغبار.

عاد دون كيخوتى للنظر، ورأى أن الأمر صحيح وحقيقى، فــاهتز طربًــا، معتقدًا دون أدنى شك أنهما جيشان يتجهان للاشتباك واللقاء فــى منتــصف ذلــك السهل. ولأنه كان يحتفظ فى كل ساعة أو لحظة بوهم فانتازى للمعارك، وأعمــال السحر، والوقائع، والجنون، والغراميات، والتحديات مما يحكى فى كتب الفروسية، وكلما تكلم، أو فكر أو فعل يتوجه إلى أشياء مشابهة، والغبرة التى رآها كان يثيرها قطيعان كبيران من النعاج والكباش، يسيران فى اتجاهين متضادين من نفس هــذا الطريق، ومع الغبار لم يكن من الممكن رؤيتهما حتى اقتربا. وبإلحاح شديد، كــان يؤكد دون كيخوتى أنهما جيشان، الأمر الذى وصل بسانشو إلى تصديقه، فقال له:

– سيدى، إذن، ماذا علينا أن نفعل؟

قال دون كيخوتى:

– ماذا ؟ مناصرة ومساعدة الجيش الذى يعانى ضيقًا وعجزًا. وينبغى أن تعرف، سانشو، أن ذلك الذى يأتى أمامنا يقوده ويرشده الإمبراطور اليفانفـــارون، سيد الجزيرة الكبرى ترابوبانا (وأحيانًا تسمى صقلية)، وهذا الجيش الآخـــر الذى يأتى من ظهرى هو عدوه ملك الغرامنط (الليبيين الجنوبيين) المـــسمى بنتابولين ذا الذراع المشمر، لأنه يدخل المعارك دائمًا بذراعه اليمنى عاريًا.

سأل سانشو :

–ولماذا يريد كل منهما السوء بالآخر؟

أجاب دون كيخوتى:

– يريد كل منهما السوء بالآخر، لأن هذا المسمى اليفانفارون كافر وثنى، وهو مغرم بابنة بنتابولين، وهى كاملة الحسن والجمال ومسيحية، وأبوها لا يريد تسليمها إلى الملك الوثنى حتى يترك شرع نبيُّه المزيف(*)، ويعـــود إلى ديـــن المسيحية.

قال سانشو :

(*) فى الأصل "شرع النبى المزيف ماووما"، وكلمة "ماووما" هى اسم "محمد" رسول الله (عليه الصلاة والسلام) فى الإسبانية القديمة والحديثة. وقد آثرت وضع العبارة كاملة فى الهامش لأمانة الترجمة، وليعرف القارئ أن العبارة تطرح تصور أوروبا عامة وإسبانيا خاصة عن الإسلام باعتباره مذهبًا مسيحيا منحرفًا، وهو تصور يرفضه ثربانتس المؤلف فى ثنايا عمله، وينتقد الكنيسة انتقادًا مريرًا رغم التفتيش، وهنا تخرج العبارة من فم مجنون يرى كل الأشياء بعكس حقيقتها، فكأن ثربانتس يمدح الإسلام ونبيه(صلى الله عليه وسلم) فى صورة الذم، كما تقول البلاغة العربية.

– أقسم بذقنى، إذا لم يحسن القتال بنتابولين، لسوف أساعده بقدر ما أستطيع.

قال دون كيخوتى :

– فى هذا، تفعل ما يجب عليك، لأنه للدخول فى مثل هذه المعارك ليس شرطًا أن تكون فارسًا منصبًا.

قال سانشو:

– وصل إلى مداركى هذا جيدًا، لكن، أين نضع الحمار، حتى نضمن العودة والعثور عليه بعد انتهاء المعركة؟ لأن دخولها على مثل هذه المطية، لا أظن أنه معتاد حتى الآن.

قال دون كيخوتى :

– هذا حق، والذى تستطيع عمله له هو أن تتركه لحظة، وسواء يفقد أو لا يفقد، لأنها ستكون كثيرة الخيول التى سوف نحصل عليها بعد أن نخرج منتصرين، وفوق ذلك هناك خطر على روثينانتى، فقد يستبدل به آخر. لكن كن يقظًا وانظر، فأنا أريد أن أعلمك برؤساء الفرسان بهذين الجيشين، وحتى تراهم أفضل، وتلحظ كل شيء عنهم، دعنا نصعد إلى تلك الربوة، فمن هناك يمكن رؤية الجيشين بجلاء.

وعند وصولهما إلى الربوة، و تسنم ظهرها، رؤى جيدًا القطيعان اللذان صنع منهما دون كيخوتى جيشين، نعم كانت سحابات الغبار التى تتصاعد تعكر الرؤية وتغمها لكن، مع كل هذا، ناظرًا فى خياله إلى مالا كان يرى ومالا كان يوجد، بدأ يصرخ عاليًا ويقول:

– هذا الفارس الذى تراه هناك فى أسلحته الصفراء الفاقع لونها، والذى يرسم على درعه أسدًا متوجًا، أسيرًا تحت أقدام غادة حسناء هو لاوركالكو، سيد جسر الفضة، والآخر صاحب أسلحة أزهار الذهب، والذى يرسم على درعة ثلاثة تيجان من الفضة على أرض زرقاء هو المخوف ميكوكوليمبو الدوق الأعظم لدوقية كيروثيا، والآخر من الأعضاء العمالقة، والذى يقف عند يده اليمنى، هو دائمًا غير الهياب (برانداباربران) دى بوليش، سيد الجزر العربية الثلاث، والذى يأتى مرتديًا جلد الثعبان، وفى درعه باب، وحسب ما هو مشهور، فهى إحدى بوابات المعبد الذى دمره شمشون، والذى بموته انتقم من أعدائه. لكن حول بصرك إلى ذلك الجانب الآخر، وسترى فى المواجهة هذا الجيش الآخر، حيث الغالب دائمًا وأبدًا غير مغلوب تيمونيل دى كاركاخونا، أمير بيثكايا الجديدة، والذى يأتى مسلحًا بأسلحة ذات أربعة ألوان الأزرق والأخضر والأبيض والأصفر، وعلى درعه قط من ذهب على أرضية أخذت لون الأسُود، مع كلمة تقول: "ميو"، إنه أول اسم سيدته، وحسبما يقال، هى التى لا نظير لها ميولينا ابنة الدوق (الفينكيبكين) دل الغرب، والآخر الذى يثقل ويقهر فرس العمالقة (الفانا)، ويحمل الأسلحة البيضاء مثل الثلج، مع الدرع الأبيض، والذى لا رتبة له، إنه فارس مستجد، فرنسي الوطن، اسمه بيير بابين، سيد بارونية دى أوتريكى، والآخر، الذى يهمز خاصرتى فرسه بقدمين لهما حدوة حصان، وقد زينت الفرس الجامحة بالألوان، وكأنما هى حمار وحشى، تكمله أسلحته المرصعة بالفضة والزمرد الأزرق، إنه الجبار الدوق (دى نيربيا) المسمى (إسبارتافيلاردو دل

بوسكى)، والذى يحضر رمزًا لرتبته درعًا عليه حقل كرفس، بكلمة إسبانية تقول " لأقفو حظى".

وعلى هذا الحال مضى يذكر أسماء فرسان كثيرين، من هذه الكتيبة أو تلك مما كان يتخيل، ولكل أعطى السلاح، والألوان، والرتب، وشعارات مرتجلة، مما يملأ خيال مجنون، لم تر العين قط مثله، ودون توقف واصل قائلاً :

- وهذه الكتيبة على الحافة مكونة فى تشكيل من أمم متعددة، هنا من يشربون المياه العذبة لنهر خانتو (طروادة) الشهير، من ثم، الجبليون الذين يطأون أرض ماسيليكوس الأفريقية، وبعد هؤلاء الذين يغربلون الذهب فى بلاد العرب السعيدة، وهؤلاء من يتمتعون بالشطآن المشهورة والمنعشة لنهر (ترمودونتى) الصافى، والآخرون هنا هم من يستنزفون نهر (الباكتولو) المذهب عبر طرق متعددة وكثيرة، من ثَمّ يأتى النوميديون المشكوك فى وعودهم، يليهم الفرس، أصحاب الأقواس والسهام المصوبة، بعدهم أهل (بارتا)، و(ميديا) يكرون ويفرون، وإلى جانبهم العرب ذوى البيوت المتحركة والخيام، ثم أهل ثيتا القساة بيض البشرة، وأهل أثيوبيا ذوو الشفاه المشقوقة، وأمم أخرى لا نهاية لها، أعرف وجوهها وأراها دون تذكر أسمائها. وفى هذه الكتيبة الأخرى، الذين يشربون من الماء الجارى الكريستالى لنهر (أوليبيفرو) المسمى بيتس، والذين يصقلون وجوهم ويجلونها بمياه نهر تاجه الليكورية التى هى دائمًا لذيذة ومذهبة، والذين يستمتعون بالمياه اللذيذة لنهر شنيل السماوى، والذين يقطنون طرطوسة ذات المروج الخضر الوفيرة الحشائش، والذين يمرحون فى مروج شريش السندسية، وأهل لامانشا

الأغنياء والمتوجون بسنابل شقراء، أما الذين بملابس حديدية فهم بقايا أثرية لسلالة القوط، والذين يستحمون فى نهر (بسُرْجه) الشهير بمياهـه سلسة الجريان، والذين يرعون القطعان فى مجاهل وادى يانا، والذين يرتعدون من البرد فى جبال البرانس ذات الغابات، ومن ندف الثلج فى أبينينو الشاهق، أخيرًا، فهناك من كل ما تضمه أوربا وتحتويه.

فليرحمنا الله! كم من أقاليم نطق، وكم من أمم سمى، معطيًا لكل منها فى إيجاز عجيب ما تتمتع به من صفات. والكل مما استوعب من الكتب الكاذبة التى قرأها وتشرّب. وكان سانشو بانثا معلقًا مع كلماته، دون أن يفوه بكلمة، مديرًا رأسه بين لحظة وأخرى لمحاولة رؤية الفرسان والعمالقة الذين يعددهم سيده، وكما أنه لم يكتشف شيئًا، قال له:

– فليركبنى عفريت لو كان هناك عملاق أو فارس مما تقول فخامتكم، والذى أظنه ما دمت لا أرى شيئًا، أن الأمر ليس إلا سحرًا كسحر أمس وأشباحه.

– كيف تقول هذا؟– أجاب دون كيخوتِي– ألا تسمع صهيل الخيل، ودق الطبول، ونفخ الأبواق ؟

– لا أسمع شيئًا – قال سانشو – إلا ثغاء كثيفا لنعاج وكباش.

وكانت تلك هى الحقيقة، لأن القطيعين كانا قد اقتربا منهما، وقد علق دون كيخوتى قائلاً:

– هو الخوف الذى يملؤك، سانشو، فقد جعلك كمن لا يرى أو يسمع كما ينبغى، لأن تأثير الخوف، سانشو، يعوق الحواس، ويجعل الأشياء تبدو على غير

هيئتها، وإذا كنت بكل هذا الخوف، انسحب وخذ جانبًا، ودعني وحدى، فأنا وحدى كفيل بترجيح كفة النصر للجانب الذى سوف أهبه عونى.

ولم ينته من قول ذلك، حتى همز روثينانتى، وركز رمحه فى ركيزته وانحدر مندفعًا من فوق الربوة كشعاع.

صرخ إليه سانشو قائلاً :

– عد فخامتكم، سيدى دون كيخوتى، بحق الإله إنها كباش ونعاج، تلك التى ستهاجمها، ما أتعس الوالد الذى أنجبني! أى جنون هذا؟ انظر فلا عملاق أو فارس، ولا قطط ولا سلاح، ولا دروع مقسمة أو كاملة، ولا زخارف زرقاء أو مشيطنة، ماذا أنت فاعل، يالله الغفور لذنوبى !

لم ينفع هذا فى إثنائه عن عزمه، بل على العكس مضى يزعق، قائلاً :

– أيا، أيها الفرسان، الذين تتبعون، وتنتسبون لأعلام الإمبراطور الشجاع بنتابولين ذى الذراع المشمر، اتبعونى جميعًا، وسترون كيف أثأر لكم بسهولة شديدة من عدوكم أليفا نفارون الصقلى !

وخلال قوله ذلك كان قد توسط كتيبة النعاج، وبدأ يطعن بالرمح مقاتليها بكل شجاعة وعنف، كما لو كان حقًا يطعن فى أعداء من عالم البشر. الرعاة وأصحاب القطعان، صرخوا فيه أن يتوقف عما يفعل، وعندما رأوا أن لا جدوى من صرخاتهم، أعدوا مقاليعهم، وبدأ يعالجون صمم أذنيه بأحجار فى حجم قبضة اليد. دون كيخوتى لم تشفه الأحجار، ومضى يصول ويجول قائلاً :

– أين أنت أيها النذل أليفانفارون؟ أقبل إلى، فأنا فارس واحد، يرغب فى نزالك رجلاً لرجل، لاختبار قوتك، وسلبك الروح من بين جنبيك، عقابًا لك على تحديك بنتابولين،أيها الليبى الجنوبى.

فى هذه اللحظة وصلته حصوة ثقيلة من حصى قاع النهير، فأصابت جنبــه، لتدفن ضلعين من أضلاعه فى أحشائه: ولما رأى كسوره، ظن أنه ميت بما لا يدع مجالاً للشك، أو أنه بليغ الجروح، فتذكر بلسمه، وأخرج الكوز، ووضعه على فمه، وبدأ يلقى فى معدته بالليكور، وقبل أن يتجرع ما يبدو له كافيًا لعلاجه، وصلت إليه حبة لوز ضخمة من الحجر، فأصابت يده والكوز فى مقتل فتناثر الكــوز شــظايا، ومعه إلى عرض الطريق ثلاث أو أربع أسنان وضروس طارت من فمه، وتدغدغ من اليد إصبعان. كان هذا مفعول الضربة الأولى، أما الثانية فقد ألقت به من علـــى الجواد إلى الأرض. هرع إليه الرعاة، فظنوا أنه مات، وهكذا بأسرع ما استطاعوا لملموا قطعانهم، وحملوا الغنم القتيلة، وقد تجاوزت السبع غنمات، ودون أن ينظروا وراءهم حثّوا مطيهم واندفعوا هاربين.

وخلال ذلك كله، ظل سانشو فوق الربوة يرى حماقات وجنون ســيده كمــا كانت تدور، ناتفًا شعيرات ذقنه، لاعنًا ساعة تعرفه عليه بفعــل حظــه المنكــود. وعندما شاهده صريعًا على الأرض، بعد انصراف الرعاة، هبط من الربوة وأدركه فى حال بالغ السوء، لكنه لم يكن فاقد الوعى. قال له:

- ألم أقل لك أنا، سيدى دون كيخوتى، أن عد، لأن من سوف تهاجم لم يكـــن جيشًا، وإنما هو قطيع من الأغنام.

- إنه من فعل عدوى اللص حكيم السحر، فقد أخفـــى الجيـــوش ومـــسخها. ولتعرف سانشو أنه بالنسبة لهؤلاء، يستطيعون أن يصورونا فى أى صـــورة شاءوا، وهذا اللعين الذى يطاردنى، حاسدًا المجد الذى كنت سأبلغه فى هذه المعركة، مسخ كتائب الأعداء نعاجًا. وإذا لم يكن كذلك، اصـــنع جمـــيلاً، واستحلفك بحياتى أن تفعله، حتى لا تخبط، وحتى أجعلك ترى أن ما أقولـــه

حق، اصعد على حمارك، واتبعهم فى فطنة، وسوف ترى أنهم عندما يبتعدون عن هنا قليلاً، سوف يعودون إلى صورهم الأولى. لكن لا تذهب الآن، فأنا فى حاجة إلى عونك وفضلك: اقترب منى، وانظركم ضرسًا وسنة تنقصنى، حيث يبدو لى أنه لم يبق لى أىٌ منها فى فمى .

اقترب منه سانشو لدرجة أن عيونه كادت تدخل فى فمه، وكانت لحظة اكتمال عمل البلسم فى معدة دون كيخوتى، وعند وصول سانشو للنظر فى الفم، أطلق الجوف كل ما به رشاشًا مثل خرطوش بندقية، ليصبه جميعًا على لحية التابع الريفى، فقال :

– أيتها العذراء مريم! ما هذا الذى أصابنى ؟ دون شك ذلك الآثم جريح جرح الموت القاتل، فهو يقذف من فمه دمًا.

ولكن حينما حاول إصلاح شأنه وتنظيف وجهه، وشرع يرى من اللون والطعم والرائحة أنه لم يكن دمًا، وإنما هو بلسم الكوز، الذى كان قد رآه وهو يشربه، اجتاحه التقزز والقرف، مما قلب معدته، فأفرغ كل أمعائه فى وجه سيده نفسه، فبقى الاثنان معًا مثل جوهرتين. هرع سانشو إلى الخرج للبحث عن فوطة لتنظيف سيده، وبعض المراهم لعلاجه، ولما لم يجدها كاد يفقد عقله، ولعن نفسه من جديد، واستقر فى نفسه أن يترك سيده، ويعود إلى قريته، ولو فقد أجر ما قدمه من خدمات، وآمال حكم الجزيرة الموعودة.

نهض أثناء ذلك دون كيخوتى، ووضع يده اليسرى فى فمه، حتى يضمن ألا يطير منه ما بقى من أسنان، ووضع يده الأخرى على عنان روثينانتى، الذى لم يتحرك قيد أنملة من جوار سيده (وكان بمثل هذا الولاء، وبراعة الأداء)، ثم تحرك

متوجهًا نحو تابعه. وجده قد انحنى بصدره فوق حماره، بيد استند عليها خده، على طريقة المفكرين، وقد بدا عليه حزن عظيم. قال له:

- ليس الرجل أكثر رجولة من رجل آخر، إن لم يفعل أكثر مما يفعله هذا الآخر. فلتعرف ذلك، سانشو. وإن كل الأعاصير التى تعصف بنا هى إشارات عن قرب صفاء الجو وسكون الرياح، وسوف يصادفنا السعد، لأنه ليس ممكنًا أن يدوم البؤس أو تدوم النعمة. وبإمعان النظر، فإن استمرار البؤس طويلاً، يعنى قرب قدوم النعمة. من ثمّ، لا عليك من بأس للتعاسات التى تقع لى، ما دام لم يصبك شيء منها.

- وكيف لا ؟ قال سانشو-. فهل تصادف أن الذى تقاذفوه أمس بالبطانية المزازة كان شخصًا آخر غير ابن أبي؟ والخرج الذى فقدته اليوم مع كل حاجياتى، كان لآخر غيرى ؟

- هل فقدت، سانشو، الخرج ؟

- نعم فقدته - قال سانشو .

- بهذا فليس لدينا ما نأكله اليوم ؟ قال دون كيخوتى .

- قد يكون هذا، لو لم توجد فى هذه المروج الحشائش التى تعرفها فخامتكم، والتى تمثل احتياطى للمشائين الفرسان التعساء، ممن تنتمى إليهم فخامتكم.

- ومع هذا - أجاب دون كيخوتِ-، أحب على قلبى الآن أن آكل ربع رطل من الخبز أو كسرًا منه مع رأسين من السردين المجفف، فذلك خير عندى من كل الحشائش التى وصفها الطبيب ديمقريدس، حتى لو كانت تلك البديعة

الصور فى ترجمة الدكتور (لاجونا) لكتاب هذا الطبيب. لكن دعنا من هذا، واركب حمارك ثم اتبعنى، سانشو أيها الطيب، فالله رازق كل شـــيء، لـــن ينسانا، ولا سيما أننا نمضى فى خدمته. إنه لا ينسى أن يـــرزق الذبابـــة فى الهواء، ولا الديدان فى جوف الأرض، ولا صغار الضفادع فى المـــاء، وهـــو رحمن رحيم، حتى إنه يخرج الشمس من المشرق للأخيار والأشرار، وعلـــى الظالمين وأهل العدل معًا تهطل الأمطار .

- لقد خلقت لتكون واعظًا وليس فارسًا مشاء — قال سانشو .

- سانشو، الفرسان المشاؤون يعرفون عن كل شيء بل واجبهم تلك المعرفة، (ولنبحث عن مكان يؤوينا هذه الليلة، وليشأ الله ألا تكون به بطـــاطين، ولا قاذفون للبطاطين، ولا أشباح، ولا عرب مسحورون) سانشو- قـــال دون كيخوتي-، لأن الفارس المشاء فى الأزمان القديمة كان يقف فى معسكر ملكى يؤم الصلاة، أو يعظ الجنود كما لو كان خريج جامعة باريس، وهذا معنـــاه أن الرمح لا يفل سن القلم، وأن القلم يفل سن الرمح .

- حسنا، فليكن ما شئتم فخامتكم ولنرحل الآن من هنا بحثًا عن مكان يؤوينـــا هذه الليلة، ولتكن مشيئة الله ألا يوجد به بطاطين هـــزازة أو قـــذافوها، أو أشباح أو عرب مسحورون، أما إذا وجد كل هذا، فسأكون قـــد وهبـــت الشيطان ما جاءت به الريح.

- سلم أمرك لله، وسر حيث شئت يا ولدى، فهذه المـــرة أود أن أتـــرك ذلـــك لاختيارك. والآن أعطنى يدك، وجس بإصبعك فمى، لتعد الأسنان والضروس الناقصة، فى هذا الجانب الأيمن فى الفك الأعلى، حيث أشعر بالألم هناك.

– أدخل سانشو الإصبع ومضى يجس، ثم قال :

– كم ضرسا تعودت فخامتكم أن تحمل فى هذا الموضع ؟

أجابه دون كيخوتى:

– أربعة، فضلاً عن ضرس العقل، كانت كلها ضروسًا كاملة ومكملة.

رد سانشو:

– تأمل جيدًا ما تقول يا سيدى .

أجاب دون كيخوتى :

– أقول أربعة إن لم تكن خمسة، لأننى لم أخلع طوال حياتى سنة أو ضرسًا من فمى، كما لم تتآكل منها واحدة بسبب السوس أو أى مرض.

قال سانشو :

– إذن، فى هذه البقعة السفلى، لا يوجد غير ضرسين ونصف الضرس، وأعلى لا يوجد أى نصف أو أى ضرس، فالمكان فى نعومة كف اليد .

قال دون كيخوتى مستمعًا البشرى الحزينة من تابعه :

– لاحظ لى! كم كنت أود أن أفقد ذراعًا، على ألا يكون الذراع الذى أحمل به السيف، ولا أفقد سنة أو ضرسًا. لأنى أود إخبارك سانشو، أن فمًا دون أضراس مثل طاحونة دون رحى، بل يجب تقدير قيمة السنة أكثر مما تساوى لؤلؤة. لكن هذا قدرنا، نحن من نمارس هذا العمل القاسى للفروسية. اركب حمارك يا صديقى، وقدنى، فإنى سأتابع خطواتك، حيثما، شاء لك هواك أن تخطو.

وهكذا فعل سانشو، حيث سار فى الاتجاه الذى يبدو له فيه إمكانية وجود مأوى، دون أن يخرج عن الطريق الملكى، الذى كان فى ذلك الموضع ممتدًا فى استقامة.

الفصل التاسع عشر

حول ما حكاه سانشو بانثا لسيده، وحول المغامرة التى وقع عليها دون كيخوتى مع جثمان ميت، مع أحداث أخرى ذائعة الصيت

قال سانشو:

– الظاهر لى، سيدى أنا، أن كل التعاسات التى وقعت لنا هذه الأيام، دون أدنى شك كانت عقابًا على إثم مخالفة تعاليم الفروسية الذى ارتكبته فخامتكم بعدم الوفاء بالقسم بألا تأكل على مائدة ولو كانت تجلس عليها الملكة (فالجور)، وكل ما يتبع هذا، وكل ما أقسمت فخامتكم أن تقوم بإنجازه حتى انتزاع خوذة (مالاندرينو) أو ذلك العربى، الذى لا أتذكر اسمه جيدًا.

قال دون كيخوتى:

– معك كثير من الحق سانشو، لكن، كى أصدقك القول، فقد إمّحى كله من ذاكرتى، وأيضًا أنت تحمل إثم عدم تذكيرى فى الوقت المناسب، مما سبب لك واقعة البطانية، لكنى سوف أصلح الأمر، ففى الفروسية طرق لحل أى مشكلة.

أجاب سانشو:

– وهل أقسمت أنا على هذا؟

قال دون كيخوتى:

– لا يهم ألا تكون قد أقسمت: وعلى حد فهمى أن من يشارك المشائين لن تكون واثقًا جيدًا عما عليهم أن يفعلوا، وبين نعم، ولا، فلا بأس من البحث عن علاج.

قال سانشو:

- إذن كان الأمر كذلك، فلتنظر فخامتكم فى ألا تعود إلى النسيان، حتى لا تعود للأشباح شهوة مماحكى مرة أخرى، أو مماحكة فخامتكم إذا رأت منك التمادى فى فقدان الذاكرة.

وبين كلمة وأخرى أخذ بهم الليل فـــى منتـــصف الطريـــق، دون أن يجـــدا أو يكتشفا مكانًا لقضاء الليل. والأسوأ من ذلك، أنهما كانـــا ميتـــين مـــن الجـــوع، فبضياع الخرج فقدا الزاد والزواد. وحتى يكتمل لهما ذلك البـــؤس، وقعـــت لهمـــا مغامرة حقيقية وليس لحيل السحر ذنب فيها. وكان أن أحاطهمـــا الليـــل بـــبعض ظلامه، لكنهما مع الظلام استمرا فى السير بينما يظن سانشو أنه مازال فى الطريق الملكى، وأنه على بعد فرسخ أو فرسخين سوف يجد - كما هـــو طبيعـــي- فنـــدقًا أو نزلاً. وعلى هذا الحال، الليل مظلم، والخادم جائع، ودون كيخوتى يشتهى بعض الطعام، واصلاً مسيرتهما إلى أن ظهرت كوكبة من الأنوار تتجه نحوهم من بعيد، كما لو كانت نجومًا تتحرك، فتجمد سانشو حين رآها، وفقد دون كيخوتى تماســكه، وأمسك ذلك بعنق حماره، وهذا بعنان حصانه الضئيل، وبقيا ســاكنين لرؤيـــة مـــا سينتهى إليه ذلك المشهد. رأيا الأضواء فى اقتراب نحوهما، وكلما اقتربـــت أكثـــر أخذ حجمها يكبر ويكبر. وهنا ارتعد سانشو حتى صار كالزئبق، ووقف شعر دون كيخوتى الذى قال فى محاولة للتشجع:

- دون شك، سانشو، هذه ستكون مغامرة عظيمة الشأن، وعلى أن أظهر كـــل شجاعتى وقوتى.

- ما أتعسنى أنا!، إذا تصادف أن شخوص هذه المغامرة كـــانوا أشـــباحًا كمـــا يتكشف لى، فأين لى من أضلاع تتحمل؟

قال دون كيخوتى:

- **مهما كانوا من أعتى الأشباح، فلن أوافق على أن يلمسوا شعرة منك، وإذا كانوا قد عبثوا بك فى المرة السابقة فلأننى لم أستطع القفز على جدران الإصطبل، ولكننا الآن فى ساحة مفتوحة، حيث أستطيع فيها أن أصول بسيفى وأجول.**

قال سانشو:

- **وإذا وقعنا فى نفس موقف المرة الأخرى، فماذا تجدى الساحة المفتوحة؟**

أجاب دون كيخوتى:

- **سانشو، أرجوك، مع كل هذا، أن ترفع من روحك، فإن التجربة سوف تكشف لك عما أنا قادر عليه.**

- **سوف أرفع من روحى، إن أراد الله - قال سانشو.**

وعندما أخذ كلاهما جانب الطريق، عادا للنظر فى يقظة، إلى ما عساه يكون أمر تلك الأنوار. وهناك على مسافة محدودة، رأيا كوكبة من المشاة المرتدين قمصاناً، أدى مرآهم المخوف إلى بث الرعب فى سانشو بانثا من كل جانب، حتى بدأت تصطك أسنانه سنة بسنة كمن يعانى من برد دور الحمى، وازداد الفزع واصطكاك الأسنان عندما رأيا ما كان، فى مخالفة للمنظر الذى حسبا أن كانا منذ قليل قد رأيا: اكتشفا عشرين لابسين قميصًا على عشرين دابة وكل منهم بيده شعلة متلهبة، وخلفهم عربة مكللة بشعارات الحداد، وخلفها ستة آخرون يمتطون دوابًا، ويرتدون ثياب الحداد حتى أقدام بغلاتهم، والتى عرفوا أنها ليست جيادًا لهدوء مشيتها. وذوى القمصان مضوا فى تمتمة فيما بينهم بصوت خفيض وشفوق. هذا

المشهد الغريب، وفى مثل هذه الساعة بهذا المكان غير المعمور، كانت كافية لبث الرعب فى قلب سانشو، بل أكثر فى قلب سيده. وهكذا كان حال دون كيخوتى، عندما كان سانشو تمامًا روع قلبه معاكسًا لروع قلب سيده، فقد خطر بقلب هذا أنه أمام إحدى مغامرات كتبه عندما تمثلت له واقعًا داخل خياله.

تصور أن العربة حمالة بها جريح حالته خطيرة أو بها فارس قتيل، ادخر القدر له حظ الثأر له، ودون مزيد من الكلام ركز رمحه الطويل، وضبط وضعه على الحصان وفى لمعان باسل وحسن هيئة قفز إلى قارعة الطريق معترضًا عنوة مسيرة ذوى القمصان، وعندما رآهم على مقربة، زعق وقال:

– توقفوا أيها الفرسان، أو ما كنتم عليه من شأن أو ألقاب، وأخبرونى من أنتم، ومن أين أتيتم، وإلى أين تتوجهون، وماذا تحملون فوق هذه الحمالة، فإن الدلائل تشير إلى أنكم ارتكبتم جرمًا، أو ارتكب ضدكم أحد جرمًا، ومن المناسب والضرورى، أن أعرف ما حدث حتى أعاقبكم نظير جرمكم أو اقتص لكم ممن اعتدى عليكم.

أجاب أحد ذوى القمصان:

– نحن فى عجلة، والفندق بعيد، ولا نستطيع الوقوف لإجابة كل تساؤلاتكم.

وهمز بغلته، وتقدم إلى الأمام. اغتاظ دون كيخوتى فى ضراوة من هذه الإجابة وأمسك بخطام البغلة، فأوقفها، وقال:

– قف، وكن أكثر أدبًا، وأجبنى على كل ما سألتك، وإذا لم يكن، فهذا إعلان للحرب منكم جميعًا ضدى.

كانت البغلة تجفل، وعندما أمسك بخطامها فزعت، حتى أنها رفعت أقدامها، وطرحت صاحبها على الأرض لترتطم بها عجيزته. وكان هناك فتى يمشى على قدميه عندما رأى ذا القميص يسقط، شرع يسب دون كيخوتى، والذى أخذته الحمية، ودون انتظار، شرع رمحه الطويل، وطعن به أحد لابسى الحداد، وبجرح بليغ سقط على الأرض. هنا اتجه عزمه نحو الآخرين، وكان مشهدًا يستحق الفرجة مع الخفة والسرعة التى بها كان يهاجم ويطعن ليست إلا لأن روثينانتى فى تلك اللحظة قد ولدت له أجنحة، بها كان يتحرك فى خفة وفخار. كل أصحاب القمصان كانوا أناسًا هيابين، وغير مسلحين. وهكذا، فى كل يسر تركوا المعمعة وطفقوا يجرون فى الحقول، بشعلاتهم مضاءة، فلم يكن مظهرهم إلا مثل من يرتدون الأقنعة يهزلون بالجرى من فرط البهجة والاحتفال فى كرنفال. أما أصحاب ثياب الحداد فى اضطراب وتعثر بأثوابهم التى تغطى بطن أقدامهم، لم يستطيعوا حراكًا، فظل دون كيخوتى يلهبهم ضربًا برمحه مستعملاً له كنبوت حتى أرغمهم على الحركة، وقد ظنوا أن هذا لا يمكن أن يكون رجلاً، إنما هو شيطان من جهنم، قد انفلت من هناك كى ينتزع منهم جسم الميت الذى يحملون فى العربة.

كان سانشو يشاهد كل ذلك متعجبًا من جرأة سيده، وكان يقول لنفسه: "من المؤكد أن سيدى شجاع وباسل كما يقول". وكانت هناك شعلة مضاءة بجانب الأول الذى أسقطته البغلة، وعلى ضوئها استطاع أن يراه دون كيخوتى، وعندما وصل إليه، وضع سن الرمح على وجهه، وطلب منه الاستسلام، وإذا لم يفعل سوف يقتله. وعلى هذا أجاب صاحب القميص:

– أنا مستسلم إلى حد البشم، فأنا غير قادر على الحركة، وعندى رجل مكسورة، فأتضرع لفخامتكم إذا كنتم فارسًا مسيحيا ألا تقتلنى، حتى لا

ترتكب إثمًا كبيرًا، فأنا حاصل على الشهادة الجامعية فى الدين، وقد تلقيت التعليمات الكهنوتية الأولى.

أجابه دون كيخوتى:

– لكونك من الكنيسة، أى شياطين أحضرتك هنا؟

أجاب الرجل:

– مِن، يا سيدى، سوء بختى.

قال دون كيخوتى:

– وشيء آخر أكبر يتهددكم، إذا لم تجبنى على كل ما بدأت بسؤالك عنه.

قال الرجل:

– حالاً ستصير راضيًا بتلقى الإجابة، مع أننى سبق لى القول أننى خريج جامعة، فأنا ليس معى إلا البكالوريا، واسمى ألونسو لوبث، وأنا من أهل (الكوبنداس)، وأنا قادم من (بايسة) مع أحد عشر قسيسًا آخرين، أولئك الذين هربوا بالمشاعل، ونتوجه إلى (سقوبية) بصحبة جثمان ميت، مودع فى هذه العربة، وهو لفارس مات فى مدينة بايسة وهناك أعدوا الجثمان للدفن حيث نحمله إلى (سقوبية) مدينته، التى فيها نشأ.

سأل دون كيخوتى:

– ومن قتله؟

قال حامل البكالوريا:

– الله، بواسطة حمى وبائية سلطها عليه.

قال دون كيخوتى:

– وعلى هذه الحال فقد أعفانى ربى من واجب الاقتصاص لموت هذا الفارس، لو كان آخر قد قتله، لكن أن قتله من قتله يجعلنى أصمت وأهز كتفــى، لأنى كنت سأفعل نفس الشيء لو قتلنى شخصيا. وأحب أن تعرف نيافتكم أنــنى فارس من لامانشا، واسمى دون كيخوتى، وما أصنعه فى حياتى هو السير فى أرجاء الدنيا، لإصلاح آثار الظلم ورد كل عدوان.

– لا أدرى كيف تفعل ذلك المسمى (إصلاح آثار الظلم)، فأنا بالفعل قد أوقعت أنت بى ظلمًا – قال القسيس صاحب البكالوريا والقميص–، تاركًا رجلــى مكسورة، والتى من بعد لن تعود مستقيمة كما كانت طول أيــام حيــاتى، والعدوان الذى دشدشنى، كان قد تركنى معتدى عليه، بحال أصبح فى ظله معتدى عليه طوال حياتى، وكم كان بؤسًا عظيمًا مصادفتنا لــك بــالطريق الذى تبحث فيه عن المغامرات.

قال دون كيخوتى:

– ليست كل الأشياء تحدث بنفس الطريقة. الضرر كان، أيها السيد صــاحب البكالوريا، ألونسو لوبث، فى القدوم، كما قدمت، ليلاً، فى ثياب من قمصان كهنوتية بيضاء، بمشاعل متأججة، متمتمين الصلوات، وعليكم غطاء الحداد، حتى أن المشهد بدا شيئًا مخوفًا، قد جاء من العالم الآخر، وفى ظل هذا لم أكن قادرًا على عدم الوفاء بواجباتى التى لا مفر منها، من مهــاجمتكم، وكنــت

سأهاجمكم حتى لو عرفت أنكم شياطين جهنم أنفسهم، وقد رأيت فيكم هذه الصورة، وما كنت لأرى غيرها فى هيئتكم.

قال القسيس:

– هكذا شاء لى الحظ، أتوسل إلى فخامتكم أيها الفارس المشاء (وما كان مشيك لى إلا بؤسًا)، ساعدنى على الخروج من تحت هذه البغلة، التى تحجز رجلىّ بين الركاب والبرذعة.

قال دون كيخوتى:

– جرجرتنى فى حديث حتى الصباح! إلى متى كنت تنتظر أن تخبرنى بمأزقك العضال؟ وهنا نادى على سانشو بأعلى صوته كى يأتى لكن هذا لم يسرع المجئ، لأنه كان مشغولاً بتفريغ دابة الاحتياطى الذى كان يحمله هؤلاء السادة الكرام من أطايب أشياء الطعام. صنع سانشو كيسًا من عباءته ووضع فيه كل ما اتسع له الكيس وما استطاع تفريغه فيه، وحمله على حماره، ثم هرع إلى زعيق سيده، وساعد على إخراج السيد خريج البكالوريا من مأزقه تحت وطأة بغلته، ثم وضعوه فوقها، وأسلموه الشعلة، وطلب منه دون كيخوتى أن يتبع أصحابه فى هربهم، طالبًا منهم المغفرة لما ارتكبه ضدهم من عدوان، لم يكن فى يده إلا أن يرتكبه. وقال سانشو أيضًا:

– وإذا تصادف وأحب هؤلاء السادة معرفة البطل الذى فعل فيهم ما فعل، فقل لهم نيافتكم أنه المشهور دون كيخوتى دى لامانشا، والذى يطلق عليه اسم آخر هو (فارس الصورة الحزينة).

هنا انصرف قسيس البكالوريا، وسأل دون كيخوتى خادمه سانشو عن دوافعه لتسميته (فارس الصورة الحزينة)، وبصفة خاصة الآن وليس قبل ذلك.
أجاب سانشو:

– سأخبرك، لأننى حملقت فيك برهة على ضوء الشعلة التى يحملها ذلك العابر المنكود، وفى الحقيقة رأيت لفخامتكم أسوأ صورة منذ لحظة أن بدأت أحملق، وهى صورة لم يسبق لى قط أن رأيتكم عليها، وربما كان وراءها إرهاق هذه المعركة، أو فقدان الأضراس والأسنان.

أجاب دون كيخوتى:

– ليس هذا، إنما الحكيم الذى يجب أن يحمل على عاتقه كتابة تاريخ بطولاتى بدا له أنه من الأفضل أن اتخذ كنية كما كان يحدث للفرسان السالفين، فمنهم من كان يسمى (فارس السيف المتضرم)، ومنهم (صاحب القرن الوحيد)، ومنهم (فارس العذارى)، ومنهم (فارس الطائر أبى الهول)، ومنهم آخر (فارس الصنبور)، وغيره (فارس الموت). هذه الكنى ذاعت مع دوران الأرض. وهكذا أقول، أن الحكيم الراهن الذكر، قام ببث هذا على لسانك وفكرك الآن فنطقت باسمى (فارس الصورة الحزينة)، وهو ما أفكر فى أن أسمى به نفسى من الآن فصاعدًا، وحتى يوافق شن طبقه فإنى سأجعلهم يرسمون على درعى صورة شديدة الحزن.

قال سانشو:

– لا يوجد سبب لإنفاق المال والوقت لعمل هذه الصورة، وإنما ما ينبغى عمله هو أن تكشف فخامتكم عن صورتكم ووجهكم لمن ينظر إليكم، ودون

تردد أو صورة مرسومة أو درع سوف يسمونك (فارس الصورة الحزينة)، وصدقنى، فأنا أقول كل الحق، وأعدك يا سيدى (وليكن ما يقال ساخرًا)، أن الجوع وسقوط الضروس قد صنع لك صورة بائسة، وكما سبق لى القول فإنها تعفى بكل سهولة من رسم الصورة الحزينة.

ضحك دون كيخوتى من ظرف سانشو، ومع هذا قرر أن يسمى بهذا الاسم عند إمكان رسم درعه أو ترسه الذى تخيله. أضاف سانشو قاطعًا أفكار سيده:

- أنسيت أن أذكركم أن فخامتكم بقى الآن تحت الحرمان الكنسى لأنكم وضعتم يدكم بشكل فيه عنف على شيء مقدس.

أجاب دون كيخوتى:

- لا أفهم هذا اللاتينى، لكن أعرف تمامًا أننى لم أضع يدى، لكنى وضعت رمحى الطويل هذا، وأكثر من ذلك أنا لم أفكر فى العدوان على قساوسة أو أشياء كنسية، مما أحترم وأجل باعتباره رجلاً كاثوليكيًا، ومسيحيًا مؤمنًا، وإنما على أشباح ومردة من العالم الآخر. وعندما حدث ذلك كذلك، فإنى أتذكر (السيد روى دياث)، عند كسر كرسى سفير ذلك الملك أمام قداسة البابا، والذى حرمه لهذا من الكنيسة، مع ذلك خرج من هناك كما لو كان تلقى تكريمًا، وأثبت بطولة.

(ومن بعيد) سمع قسيس البكالوريا ذلك، فمضى فى طريقه دون أن ينطق بكلمة.

أراد دون كيخوتى أن يعرف عما إذا كان الجثمان فى العربة عبارة عن عظام أو أنه طازج، فلم يوافق سانشو، وقال:

- سيدى لقد ختمت هذه المغامرة الخطيرة ناجيًا من أدنى خطر، بخلاف كل ما رأيت من مغامرات سابقة، وهؤلاء الناس مع أنهم هزموا وأفزعوا، يجب أن نضع فى الحساب أن الذى هزمهم هو شخص واحد، ولو فكروا فى ذلك، فقد يشعرون بالخجل والخزى، فيعودون لجمع شملهم، ومهاجمتنا، وتكون لهم الكرة علينا دون تذكير بما فات. والحمار فى أنسب حال، والجبل قريب، والجوع كئيب الأثقال، وليس أمامنا إلا الانسحاب مثل مر السحاب (كما يقولون)، وليذهب الميت إلى الدفن، وليذهب الحى لملء البطن.

ودفع سانشو حماره، راجيًا سيده أن يتبعه، وحيث إنه تراءى له جانب الصواب عند سانشو، تبعه دون معاودة الحوار. وبعد السير مسافة قصيرة بين جبلين، وجدا أنفسهما فى واد فسيح خبأته الجبال. وهناك ترجلا، وربت سانشو على حماره، وأخرج طعامًا أكلاه متمددين على الحشائش الخضراء، بشهية وتلذذ من فرط الجوع، أكلا الوجبات الثلاث المتأخرة دفعة واحدة، فشبعا بطعامهما الجاف، الذى كان يحمله السادة القساوسة (وما أقل ما يتركون طعامهم لأحد) على بغلة الاحتياطى الغذائى. لكن حدثت لهم واقعة بؤس، رأى فيها سانشو مصيبة أسوأ من جميع ما مضى من مصائب، وكانت أنهم لم يكن لديهم نبيذ للشرب، ولا حتى ماء يبل جفاف الأفواه، ومثقلين بالعطش، قال سانشو عندما رأى المرج الذى فيه ينزلون يموج بالحشائش الخضراء الغزيرة قال ما سوف نسمع فى الفصل التالى.

الفصل العشرون

حول المغامرة التى لم ير ولم يسمع بمثلها قط، والتى انتهت مع أقل مخاطرة من جانب الفارس الذى تعرفه كل الدنيا: دون كيخوتى دى لامانشا

قال سانشو:

– ليس ممكنًا يا سيدى إلا أن تكون تلك الحشائش شاهدًا على وجود نبع أو نهير قريب هو الذى يللها فى نضرة، من ثم، فمن الخير أن نتقدم قليلاً، حتى نصادف ما نطفئ به جمرة عطشنا الذى يرهقنا، ويسبب يقينًا من الألم ما يفوق عضة الجوع.

بدت المشورة مقبولة عند دون كيخوتى، فأخذ بعنان روثينانتى، وأخذ سانشو بخطام حماره بعد أن وضعا عليه ما تبقى من الطعام، واستأنفا السير فى المرج إلى الأمام متحسسين بأقدامهما الطريق، لأن ظلام الليل لم يدعهما يريان أى شيء، لكن ما أن سارا مائتى خطوة، حتى سمعا هديرًا قويًا للماء، كما لو كان ينصب من شلال شاهق الصخور. ابتهجا كثيرًا بالهدير، وتوقفا للإنصات من أى جهة يأتى، فسمعا دون توقع دويًا آخر أمات الرضا بقرب الماء، وخاصة عند سانشو الذى كان هيابًا خائر العزم بطبيعته. وأقول إن ما سمعاه كان دقات ذات إيقاع منتظم، مع صرير معين لحديد، وسلاسل، فى صحبة الدوى الغاضب للماء، مما يملأ أى

قلب بالفزع باستثناء قلب دون كيخوتى. كان الليل – كما قلنا– مظلمًا، وقد نجحا فى الدخول إلى قلب عدد من الأشجار العالية، كان حفيف أوراقها المخيف والرهيف صناعة رياح رخية هادئة، حتى أن الوحدة، طبيعة المكان، الظلام، هدير الماء، مع وشوشة الأوراق، كل هذا سبب الفزع والرعب، وخاصة عندما رأيا أن الدقات لا تتوقف، وأن الرياح لا تنام، ولا النهار يقدم، بالإضافة إلى جهلهما بالمكان حيث يوجدان. لكن دون كيخوتى فى صحبة قلبه الجسور، وثب فوق روثينانتى، واحتضن الترس ولمس الرمح الطويل، وقال:

– سانشو صديقى، لتعلم أننى ولدت بمشيئة الله فى عصر الحديد، لكى أبعث منه عصر الذهب، أو العصر الذهبى، كما تعودوا القول فى تسميته. إننى ذلك الذى ادخرت له المخاطر، ومحاسن الأمجاد، والفعال الباسلة. وأقول مرة أخرى إننى باعث فرسان المائدة المستديرة، واثنى عشر فارسًا، وتسعة الشهرة، وأنا الذى يلقى إلى النسيان (لوس باتيرس)، و(لوس تابلانتس أوليبانتس)، و(تيرانتس)، و(لوس فيبوس)، و(بليانس)، وكل تلك المجموعات المشهورة من الفرسان المشائين فى العصور السوالف، مقدمًا على ما أنا فيه من أعمال عظيمة وعجيبة، مع اللعب بالسلاح، بشكل يعتم ويغطى أكثر أعمالهم وضوحًا وبريقًا. وأنت أيها التابع الوفى والشرعى، لاحظ جيدًا غياهب هذه الليلة، وصمتها العجيب، ودويها الأصم والمحير لهذه الأشجار، والهدير المخيف لتلك المياه، والتى جئنا بحثًا عنها فيما يبدو من تدفقها وانهراقها من الذرى العالية للقمر، وهذه الدقات التى لا تتوقف كى تجرحنا مسمعًا وتسئ، فكل تلك الأشياء معًا، وكل واحدة منها على حدة كافية لبث الخوف والرعب والفزع فى صدر نفس إله الحرب (مارس)، ولاسيما فى

صدور من لم يتدربوا على مثل هذه المغامرات والأحداث. ولكن كــل مــا أصوره لك يتحول إلى حافز منبه لروحي، مما يجعل قلبي يمــور فى صــدرى بالرغبة فى اقتحام هذه المغامرة، على خطر مصاعبها وعقباتها البادية. من هنا، احكم قليلاً حزام سرج روثينانتى، وابق هنا تحت رعاية الله، وانتظرنى ثلاثة أيام لا أكثر، وإذا لم أعد، عد أنت إلى قريتنا، ومن هناك ستقوم من أجلــى بعمل طيب وفضل بالذهاب إلى التوبوسو، حيث تخبر سيدتى فريدة الجمال دولثينيا، أن فارسها الأسير مات لارتكاب أفعال تجعله جديرًا بأن يطلقــوا عليه (كيخوتى دولثينيا).

عندما سمع سانشو كلام سيده بكى بأعظم ود وحنان عرفه إنسان، والتفــت إليه يقول:

- سيدى، لا أدرى لماذا تريد فخامتكم نيل حظ ركوب هذه المغامرة المخوفــة. الآن نحن بالليل، وهنا لا يرانا أحد، ومن الممكن تغيير الطريق فننحرف عن الخطر، حتى لو لم نشرب ثلاثة أيام، مع انعدام من يرانا فيتهمنا بالجبن. وقد سمعت قسيس قريتنا يعظ، وأنت تعرفه جيدًا، وقد قال من بحث عن الخطــر هلك فيه، وهكذا فليس من الخير جس نبض الله بارتكاب هذا العمل شديد الحماقة، حيث لا مهرب إلا بمعجزة، وحتى ما صنعته السماء بإنقاذك من أن تكون كرة يتقاذفونها ببطانية، مثلما حدث لى، ثم إخراجك سليمًا معافى من مغامرة مع عدد غفير من الأعداء، مثل من كانوا يرافقون الميت، فإذا كــان كل هذا لا يلين قلبك الصلد، فافعل من أجلى مفكرًا فى أنك لــن تكــاد فخامتكم تغادرنى، حتى يشرع خوف نفسى يجعلها نهبًا لمن شاءها. وأنا مــن خرجت من ديارى، وتركت زوجتى وعيالى، من أجل خدمتك، كنت أظــن

أننى أساوى شيئًا أكثر بالنسبة لك، وليس هذا الشأن الأقل. وكما يقولون الطمع يشق بطن الجوال، وقد مسحت من على ظهر الوجود لى آمـــالى فى تلك الجزيرة السوداء المشئومة التى بها وعدتنى، وتبدلنى بها، ما تريـــده الآن من هجرى فى مكان قفر ناء، ردًا لجميل خدمتى كما ترى عيونى وتشهد. من أجل الله الأحد، يا سيدى، لا تعمل ضدى هذه الإساءة، وإذا كنت عازمًـــا لابد على ذلك، فأجله حتى الصباح، ومن المعرفة التى تعلمتها عندما كنـــت راعيًا، فلن يتأخر الصباح أكثر من ثلاث ساعات، لأن فم الدب الأصـــغر الآن فوق رأسه، تاركًا وراءه منذ زمن منتصف الليل عند ذراعه اليسرى فى خط واحد.

قال دون كيخوتى:

– كيف يمكن لك سانشو، رؤية الخط من الفم، أو الرأس التى تقـــول، فالليـــل مظلم تمامًا، ولا أرى نجمة واحدة فى السماء.

قال سانشو:

– هو هذا، لكن الخوف له عيون كثيرة، فيرى الأشياء تحت الأرض، وأسهل منها عندما تكون فوقها فى السماء، ورغم ذلك، بمراجعة مجرى الأمور جيدًا، من السهل إدراك قرب النهار.

أجاب دون كيخوتى:

– ليبق على النهار ما يبقى، فلا ينبغى القول لى الآن، أو فى أى وقت، إن التوسل والدموع يمكن أن توقفانى عن فعل ما على فعله على أسلوب الفارس، وبناء عليه أرجوك، سانشو، أن تمكث. لقد وقر الله فى قلبى أن أقوم بهذه المغامرة المخوفة، والتى لا يرى لها مثيل، وهو سوف يرعى سلامتى، ويتكفل بالتسرية

عنك فى أحزانك. والذى عليك بفعله الآن هو إحكام حزام سرج روثينانتى، ثم تبقى هنا، وسوف أعود إليك سريعًا، حيا أو ميتًا.

وعند رؤية سانشو العزم الأخير لسيده، وكم هانت عليه الدموع والتوسلات والنصائح قرر استخدام صناعة التحايل، وجعله ينتظر حتى طلوع النهار. وقد تمكن. فعند إحكام حزام الحصان، ربط قدميه الاثنتين بقيد حماره دون أن يحس به فى كل خفة، حتى إن دون كيخوتى عندما أراد التحرك، لم يستطع؛ لأن الجواد لم يستطع التحرك إلا فى قفزات محلك سر. وعند رؤية سانشو الواقعة الناجحة لخبثه قال:

– إيا، سيدى، لقد اهتزت السماء لدموعى، وصلواتى، فأمرت بألا يقدر روثينانتى على الحركة، وإذا أردت التمادى فى ركوب الرأس والعناد، فافعل، وسيكون فى ذلك إغضاب القدر، وركل الإبر، كما تقول العبر.

وعلى هذا الحال، أصاب اليأس دون كيخوتى، لعدم جدوى كثرة همز الجواد، دون أن يخطر على باله المكيدة، فرأى الأجدى أن يهدأ حتى يصبح أو أن يتحرك روثينانتى، معتقدًا دون شك، أن السبب شئ آخر غير صنعته وتحايل سانشو، وهكذا، قال:

– هكذا الأمر، سانشو، روثينانتى غير قادر على الحركة، وعلىَّ الانتظار حتى يبتسم النهار، وإن كنت سوف أبكى تأخره والانتظار.

قال سانشو:

– ليس لك أن تبكى، فسوف أسرى عنك وأسليك، بحواديت من هنا حتى الصباح، إذا لم تكن ترغب فى الترجل والنوم على هذا الحشيش الأخضر بعض الوقت، كعادة الفارس المشاء، حتى تجد نفسك فى الغد مستريحًا، وكامل الاستعداد لركوب هذه المغامرة الفريدة الوجود، التى هى فى انتظارك.

قال دون كيخوتى:

– ماذا تعنى بالرحيل أو النوم؟ ألست لحسن حظى من الفرسان الذين يجدون راحتهم فى الأخطار؟ نم أنت، فقد ولدت للنوم، أو افعل ما شئت، أما أنا فسأفعل ما يتناسب، مع طموحاتى حسبما أراها لنفسى.

أجاب سانشو:

– لا تغضب، سيدى، فلم أقل ما يستدعى كل هذا.

ومقتربًا منه، وضع يدًا له على مقدمة السرج، وأخرى على مؤخرته، واستند على فخذ سيده الأسير دون أن يجسر على أن يبارحه قيد أنملة، فهذا مبلغ خوفه من الدقات التى فى توال حتى تلك اللحظة. قال له دون كيخوتى أن يحكى له حدوتة حتى يتسلى، كما وعده، فقال سانشو إنه فاعل إذا زايله الخوف مما كان يسمع.

– لكن مع كل هذا، سأجبر نفسى على حكاية حدوتة، فإذا أحسنت روايتها ولم تتسرب من يدى، فهى أفكه الحواديت وأحسنها، فكن لى فخامتكم منصتًا، ولسوف نبدأ، ونقول: كان ياما كان، أفاض الله الخير والاحسان على كل إنسان، والسوء لمن أساء عقابه ضعفان. ولتعلم فخامتكم أن القدماء عندما أعطوا الحدوتة هذا المطلع، لم يكن أى شئ يطلع، وإنما قال كاتون ثثورينو، الرومانى: "الشر لمن جرى وراءه طالبًا". وهذا القول لما أنت فيه، خاتم إصبع فخامتكم لاتلقيه، فلا تذهب طلبًا للشر، فى أى بر، فقط فى طريق آخر نعود، فلا أحد يجبرنا على المضى فى هذا الطريق، حيث تسطو علينا المخاوف والرعود.

قال دون كيخوتى:

– واصل حكايتك، سانشو، واترك الطريق الذى علينا اتباعه لى.

واصل سانشو:

– إذن، أقول، فى مكان من استريمادورا، كان هناك راعى ماعز، أريد القول، إنه كان يرعى الماعز. وهذا الراعى أو الماعزى، كما أقول فى قصتى، اسمه لــوبى رويث، وكان يمضى مغرمًا براعية اسمها (برج الفجر) وهذه الراعية (بــرج الفجر) كانت ابنة لثرى صاحب قطعان من الماشية والأغنام، وهذا الثــرى صاحب القطعان...

قال دون كيخوتى:

– إذا أخذت تحكى على هذا المنوال، مكررًا كل ماتقول مرتين، فلن تنتــهى فى يومين، فقص علىَّ فى تتابع باعتبارك رجلاً فاهمًا، وإلا فلا تقل شيئًا.

أجاب سانشو:

– على نفس منوال حكايتى، تحكى كل الحواديت فى قريتى، ولا أعرف حكايتها على غير هذه الطريقة، إذا لم يكن فخامتكم يطلب منى اختراع حكايات مبتدعة.

قال دون كيخوتى:

– قل كما شئت، فالحظ شاء ألا أستطيع ترك الاستماع إليك.

واصل سانشو:

– وهكذا، ياسيدى ومالك نفسى، كما سبق القول، كان هذا الراعــى يمــضى مغرمًا بالراعية (برج الفجر)، وكانت صبية فظة، صلدة، بها بعض الرجولة، لأنها كان لها شارب خفيف، أكاد أراه الآن.

قال دون كيخوتى:

- إذن أنت تعرفها؟

أجاب سانشو:

- لم أعرفها، لكن الذى حكى لى الحدوتة، قال إنها واقعية وحقيقية، فكلما حكاها لآخر كان يستطيع التأكيد والقسم، أنه رأى كل شئ. وهكذا مرت الأيام، وجاءت الأيام، والشيطان الذى لا ينام، ويعكر صفوالأنام، جعل حب الراعى يتحول إلى بغض وخصام. وكان السبب فى ذلك، كما لاكت ألسنة السوء، بعض الغيرة التى استثارتها الفتاة فيه، ونما عنده من الشك إلى تصور المحظورات، وكان الكثير مما أضمره لها من العداء، جعله لا يرغب فى رؤيتها مغادرًا الأرض التى تقع عينه عليها فيها. و(برج الفجر) التى رأت نفسها مهانة من لوبى، ولد حبها له، مع أنها من قبل لم تكن تحبه قط.

قال دون كيخوتى:

- هذا طبيعى، فتلك خليقة النساء، يتمردن على من يحبهن، ويحببن من يعاديهن. استمر، سانشو.

قال سانشو:

- وحدث أن الراعى نفذ طويته، ودفع أمامه معيزاته، وضرب فى برارى استريمادورا، للعبور إلى ممالك البرتغال. (برج الفجر)، والتى عرفت بالأمر، سارت خلفه، وتابعته سائرة على أقدامها، متجردة من حذائها، عيونها عليه من بعيد، بيدها عصا، وفى رقبتها خرج، تحمل فيه حسبما اشتهر كسرة من مرآة، وشطرًا من مشط، وقنينة لا أدرى ماذا، بها من مساحيق زينة الوجه، لكن لتحمل ما تحمل، فأنا لا أريد فى هذه اللحظة التحرى عنه، فقط قيل،

إن الراعى وصل فى سيره إلى نهر يانه، وفى ذلك الوقت، فاض النـــهر، دون حد أو وصاية أو قهر، وفى المكان من الشاطئ الذى إليه وصل لم يكن هناك قارب أو مركب، ولا ملاح يعبر به وقطيعه إلى الـــشاطئ الآخـــر، وهـــذا أحفظه، إذ رأى (برج الفجر) قادمة تقترب، وكانت سوف تزيـــد غيظتـــه بدموعها وتوسلاتها، لكنه سار وقتًا ينظر، حتى رأى صيادًا له مركب، صغير لا يتسع إلا لشخص وماعز واحد، ومع هذا خاطبه واتفق معه على تعديـــة ثلاثمائة ماعز. حمل الصياد ماعزًا، وعاد فحمل أخرى، ثم عاود الكرة لحمل الثالثة، وهنا كر لحمل ماعز أخرى. وخذ بال فخامتكم الآن من كل مـــاعز يحملها الصياد لأنك لو فقدت ماعزًا من ذاكرتك انتهت الحكاية، ويـــصبح مستحيلاً حكاية كلمة أكثر منها. وهنا أواصل القص وأقول: إن الـــصياد المعداوى، فى الضفة الأخرى تلطخ بالطين والوحل، وطال زمـــن الرحلـــة ذهابًا وإيابًا. ومع ذلك، عاد من أجل ماعز أخرى، وأخرى، وأخرى.

قال دون كيخوتى:

– اعتبر أنه عبر بها جميعًا، ولاتواصل الذهاب والإياب بهذه الطريقة، فلن تنتـــهى من تعديتها فى عام.

قال سانشو:

– كم ماعزًا عبرت حتى الآن؟

أجاب دون كيخوتى:

– وأنا بأى شيطان كيف أعرف؟

قال سانشو:

– ها هو ما قلت، فبحق الله لقد انتهت الحكاية، ولا يجب الاستمرار فيهـا إلى الأمام.

أجاب دون كيخوتى:

– كيف يكون ذلك؟ فهل هو جوهرى فى الحكاية أن نعرف عدد المـاعز الـتى عبرت إلى آخرها، حتى أن لو سقطت واحدة من العدد لا يمكـن مواصـلة الحكاية؟

أجاب سانشو:

– بأى حال من الأحوال لا، يا سيدى، فقط عندما سألت فخامتكم عن العدد، وأجبتنى بأنك لا تعرف، فى نفس هذه اللحظة ضاع من ذاكرتى ما بقى من الحكاية، وبكل صدق فقد كان ما بقى هذا مليئًا بالحق والإمتاع.

قال دون كيخوتى:

– وهذا معناه أن الحدوتة انتهت.

قال سانشو:

– منتهية وفانية مثل أمى.

قال دون كيخوتى:

– أقول لك الحق، إنك قد حكيت قصة من أجدّ القصص أو الحواديت، حتى إن أحدًا فى العالم ما كان يستطيع تخيلها، وأن طريقة روايتها تجعل منها قـصة لم

يسمع ولم ير مثلها قط فى الحياة، لكن لم أكن انتظر شيئًا آخر من خطابك، حتى إننى لا أتعجب من ذلك، فلربما كانت هذه الـــضربات المنتظمـــة دون توقف هى سبب تشويش المخ عندك.

أجاب سانشو:

– كل شيء ممكن، لكن ما أعرف فيما يتعلق بحكايتى، لا يوجد ما يقال أكثـــر، فهى تنتهى عندما يبدأ خطأ عد عبور الماعز.

قال دون كيخوتى:

– فلتنته حيثما تشاء، ومبروك، ولنر هل يمكن أن يتحرك روثينانتى.

عاد يهمزه، وعاد للوثب محلك سر. لقد كان مقيدًا بشكل رائع.

وبينما هم على هذه الحال، بدا أن برد الصباح قد أتى أو أنه بالفعل قد أتى، أو أن سانشو قد تعشى ببعض الطعام المسهل، أو أنها ضرورات الطبيعة (وهو ما ينبغى الاعتقاد فيه أكثر) أو أنها الرغبة والإدارة لعمل ما لا يستطيع آخر أن يعمله من أجله، لكن الخوف كان عظيمًا حتى استقر فى قلبه، فلا يجرؤ أن يبتعـــد عـــن سيده قلامة ظفر. لكنه فكر فى أن الامتناع عن عمل ما يجب عملـــه كـــان أيـــضًا مستحيلاً، وهكذا لإقامة السلام بين الخوف والرغبة سحب يده اليمنى التـــى كانـــت تقبض على مؤخرة السرج، وبها فى مهارة، ودون حس، حل تكة سرواله، دون أية مساعدة من يده الأخرى، وبفكها سقط السروال إلى تحت عند قدميه باعتباره قيـــدًا لهما، ثم رفع القميص بأفضل ما استطاع، وكشف عجيزتيه للهـــواء، ولـــم تكونـــا صغيرتين عند تقوسه بهما خلفه. عندما تم إنجاز ذلك (وهو ما ظنـــه أعظـــم مـــا يستطيع فعله للخروج من هذه الزنقة الفظيعة والفجيعة)، واجهته مشكلة أكبر، وهى

أنه لا يستطيع دفع ما فى بطنه للخارج دون انفجارات صوتية وضجيج، وبدأ يضغط أسنانه، ويوتر كتفيه، ململمًا النفس إلى الداخل بأفضل ما استطاع، لكن مع كل هذه المساعى الطيبة كان تعيس الحظ، حتى إنه فى نهاية النهايات مضى يحدث بعض الضجيج، المختلف تمامًا عن الضجيج الآخر الذى سبب له كل الخوف، وسمعه دون كيخوتى، وقال:

– ما هذا الهدير، سانشو؟

قال سانشو:

– لا أعرف يا سيدى، لعله شيء جديد، فالمغامرات والتعاسات لا تبدأ بمقدمات صغيرة.

عاد مرة أخرى لتجريب حظه، ووقع له الأمر بشكل طيب، فلم يصدر منه صوت أو ضجيج أكثر من المرة السابقة. لكن دون كيخوتى، كانت حاسة الشم عنده قوية، مثلها مثل حاسة السمع. وسانشو كان شديد القرب منه كأنما خاطوه به، وتقريبًا كانت الأبخرة تصعد إلى أعلى فى خط مستقيم، ولم يكن ممكنًا إعفاء بعض خطوط البخار من الوصول إلى أنفه. وما كادت تصل حتى طلب النجدة، ضاغطًا عليها بين أصابعه، وبلهجة خنف، قال فى قرف:

– يبدو لى، سانشو، أن الخوف بك عظيم.

أجاب سانشو:

– نعم بى، لكن، فى أى مظهر شرعت فى رؤيته الآن كما لم تفعل قط طوال الليل؟

أجاب دون كيخوتى:

– الآن أكثر من أى وقت مضى تصدر منك رائحة، وليست رائحة العنبر.

قال سانشو:

– من الممكن أن يكون، لكن لا ذنب لى، لأن فخامتكم تحملنى إلى أحداث لم تجر عليها عادتى، وفى أوقات غير مناسبة.

قال دون كيخوتى:

– تقهقر ثلاث أو أربع خطوات إلى الوراء يا صديقى (كل هذا دون أن يـــرحم أنفه من قبض أصابعه عليها)، ومن الآن فصاعدًا، خذ حذرك من نفـــسك، وما عليك من واجبات نحوى، ولا بد أن كثرة التحاور معك والتبسط، قد أنتجت فقدان احترامك لى.

أجاب سانشو:

– أراهن على أن فخامتكم تظن أننى أرسلت من داخل شخصى...شيئًا لا ينبغى إرساله.

رد دون كيخوتى:

– من الأسوأ ذكرك له، صديقى سانشو.

وخلال هذه الأحاديث، وأمثالها، قضى الليلة سيد، ومـــسود، وعنـــدما رأى سانشو هرولة الصباح نحوهما، فى كثير من التحسيس فـــك روثينـــانتى، وربـــط السروال. ولما رأى روثينانتى نفسه حرًا، رغم أنه لم يكن منه جزء مستيقظ، أحس بالتراجع عن هذا، وبدأ يضرب بيديه، لأنه لم يعرف قط (اللهم عفـــوك) الجمـــوح. وعندما رأى دون كيخوتى روثينانتى يتحرك، ظن أنها إشارة صحيحة كى ينطلـــق

فى مغامرته المخوفة. وهنا، كان قد انتهى من اكتشاف جلاء الفجر، وظهـر كـل شىء مختلفًا، فرأى دون كيخوتى نفسه فى وسط أشجار شاهقة مـن الفلـين، ذات فروع كثيفة مما كان يجعل الظل ظلامًا دامسًا. ورأى أن الـدقات مـستمرة دون تحديد مصدرها. ودون مزيد من التوقف همز روثينانتى، ومستديرًا لتوديع سانشو، أمره أن ينتظر ثلاثة أيام على الأكثر، فإن لم يعد، فعليه التأكد من أن الله قد اختاره لخدمته، وأنه قضى نحبه فى تلك المغامرة الخطرة. وكـرر لـه أمـر الرسـالة، والسفارة، التى عليه أن يحملها من طرفه إلى سيدته دولثينيا، وفيما يتعلق بدفع أجر خدمته، فلا عليه من بأس، لأنه ترك وصية مكتوبة قبل خروجه مـن داره، حيـث سيجدها كريمة فى كل ما يتعلق براتبه، كنسبة من إرثه، مقابل كـل المـدة التـى خدمها، لكن إذا نجاه الله من ذلك الخطر سليمًا معافى دون خـسائر، فعليـه أخـذ موضوع الجزيرة مأخذ الصدق والحقيقة. ومن جديد، عاد سانشو للبكاء، مـستمعًا مرة أخرى للعبارات الرثائية لسيده الشريف، وقرر ألا يتركه حتـى آخـر لحظـة وخاتمة لهذا الأمر.

من هذه الدموع، ومن العزم الشريف لسانشو بانثا يستنبط المؤلف أنه ينبغى أن يكون ابن أصل كريمًا أو مسيحيًا قديمًا. مشاعره رققت بعـض الـشيء مـن مشاعر سيده، لكن ليس كثيرًا، لدرجة إظهار ضعف، أى ضعف. ومتجنبًا الموقف ما استطاع أخذ طريقًا فى الاتجاه الآتية منه الدقات حسبما تراءى له. تابعه سانشو على قدميه، ممسكًا كعادته بخطام حماره، صديقه الدائم فى المـسرات والملمـات. وبعد أن سارا وقتًا ليس بالقصير، بين هذه الأشجار الظليلة من الفلين، ودخلا فـى مرج صغير تحت سفح بعض التلال الصخرية السامقة، ومن فوقها كان تتـسارع ضربات قوية للماء. وتحت تلك الصخور كانت هناك بيوت متواضعة البناء، تبـدو أطلالاً أكثر منها بيوتًا، ومن بينها كان يصدر الدوى والضجيج لهذا الدق الايقاعى

الرتيب، واضطرب روثينانتي بين هدير الماء والدقات، والتي حتى تلك اللحظة لـم تتوقف، فقام دون كيخوتي بتهدئته، وتهادى به شيئًا فشيئًا نحو البيوت، مسلمًا حياته من كل قلبه لسيدته، حتى تكون نصيرته في هذا اليوم الصعب والمهمـة القاسـية، أيضًا في طريقه أسلم نفسه لله بألا ينساه، وعلى جانبه كان سانشو لا يفارقه ماطًـا عنقه وعينيه ليرى من بين أرجل روثينانتي، حتى يرى إذا كان سوف يرى ذلـك المخوف المهول الذى كان يترقبه. وما أن سار من كان يسير، مائة خطـوة مـن الخطو اليسير، حتى كان منعطف، وهنا ظهر مكشوفًا ونابضًا، السبب فـي ذلـك الصوت القارع، والذى لا سبب غيره يمكن أن يكون، لذلك الـصوت الـذى كـان بالنسبة لهم العجيج المفزع، والمالك لنواصي خوفهم وتعلق آذانهم به طوال الليـل. لقد كانت (فقط ما تسمع أيها القارئ، ليس إلا للإثقال عليـك وإغـضابك!) سـت مطارق لضرب النسيج تدور بالماء متبادلة في دورانها هي ما كانت تصدر من دق وضجيج.

عندما رأى دون كيخوتي ما هي، خرس وانشل، من أعلى إلى أسفل. ونظر إلى سانشو انحنت منه الرأس على الصدر، علامة الخجل والحيـاء، ورآه منـتفخ الأشداق، والفم غاص بالضحك، مع علامات واضحة عن رغبته في الانفجار بـه، ولم تستطع أحزان دون كيخوتي أن تكبح جماح دون كيخوتي عند رؤيته لـه مـن كبح جماح الضحك، ولما رأى سانشو أن سيده قد بدأ، فتح السد، حتى إنه اضـطر أن يضغط على فكيه بقبضتيه كي يهدئ من روع الانفجار. هدأ نفسه أربع مرات، وعاد للضحك بعدها أربعًا بنفس القوة الأولى، مما أثـار شـيطان دون كيخـوتي، وظهر ذلك أكثر عندما سمعه يقول ساخرًا: "عليك أن تعرف، أوه سانـشو، أيهـا الصديق! أنني ولدت بمشيئة السماء في عصر الحديد، لأبعث منه العصر الذهبي أو عصر الذهب. أنا من ادخرته السماء للأخطـار والأمجـاد العظيمـة، والأفعـال

الكريمة..." ومن هنا مضى يكرر من الذاكرة كل أقوال دون كيخوتى، التى فاه بها عندما سمعا الدق لأول مرة.

أدرك دون كيخوتى أن سانشو كان يسخر منه، فاغتاظ وغضب إلى حد نزع رمحه الطويل وضرب سانشو بقناته ضربتين، استقرا على ظهره، ولو أصابتا رأسه، لتحرر دون كيخوتى من دفع أجره إليه، إن لم يصيره إلى ورثته. ورأى سانشو أنه لا يجنى من سخريته إلا الشر، الذى خشى أن يتمادى فيه سيده، فقال بكل ذل:

– اهدأ فخامتكم فوالله لست جادًّا.

أجاب دون كيخوتى:

– ولأنك، من ثم، تسخر، فأنا لا أسخر. تعال هنا أيها السيد المرح، إذا لم تكن هذه مطارق لضرب النسيج، وكانت مغامرة خطرة، ألم أظهر الروح القتالية لشنها ووضع نهاية لها؟ هل على أن أميز الأصوات، وأعرف هل هى لمطارق أو لغيرها لمجرد كونى من أكون؟ وأكثر، فأنا لم أرها فى حياتى قط، وتلك حقيقة تعفينى من التعرف عليها، بينما أنت القروى الخرب ولدت ونشأت فى رحابها. وإن لم يكن الأمر كذلك، حوِّل هذه المطارق الستة إلى ست عمالقة، واقذف بى بين لحاهم جميعًا دفعة واحدة، أو واحدًا واحدًا، فإذا لم أجندلهم زرع البصل، فاسخر منى ما شئت.

كان رد سانشو على هذا أن قال:

– لا سبيل إلا اعترافى بأنى قد تعديت الحدود فى خفتى، لكن قل لى فخامتكم، وقد ساد بيننا الآن السلام، أخرجك الله من كل المغامرات سليمًا معافى، كما

أخرجك من هذه: ألم يكن شيئًا مضحكًا، ويستحق أن يُحكى ذلك الخوف الذى أصابنا؟ على الأقل خوفى أنا، فأنا أعــرف أن فخــامتكم لا تعــرف الخوف، ولا تستطيع التمييز بين الفزع والرعب.

أجاب دون كيخوتى:

- لا أنكر. ما حدث لنا ليس أمرًا غير جدير بإثارة الضحك، لكنه ليس جديرًا بأن يحكى، فليس كل الناس من الفطنة، كى تضع الأشياء فى موضعها.

قال سانشو:

- ولكن على الأقل سيدى عرف أين يضع رمحه الطويل فى موضــعه، حينمــا صوب على رأسى، وضربنى على ظهرى، بفضل الله، وسعيى نحو المراوغــة. لكن مرحي! (كل شىء يطلع فى الغسيل)، هذا مثل سمعته، مثل غيره: (من يحبك يبكيك)، وأكثر، فالسادة العظام تجرى عادتهم بعد توبيخ الخادم ببعض الكلمات الجارحة، أن يحسنوا إليه ببعض الملابس القديمة، لكنى لا أعــرف ماذا تعودوا من إحسان بعد ضربه بالعصا أو ما يشبهها، إذا لم يكن إحــدى الجزر أو الممالك فوق البر لو كان السيد من المشائين.

قال دون كيخوتى:

- يمكن أن يضرب الحظ، فيصير، فيصبح الحلم علمًا، واغفر لى ما حدث، لأنك رجل لماح وتعرف أن البدائه الأولى والحركات ليست فى يد الإنسان، وهــا أنا أحذرك من الآن فصاعدًا من شىء، حتى تكف عن الكلام الكثير معــى، وحسبما قرأت فى كتب الفروسية التى لا تحصى، لم أجد تابعًا يتحدث كثيرًا

مع سيده، مثلما تفعل أنت معى. والحقيقة أن ما ينقصنى وينقصك، أنك تقدرنى أقل مما ينبغى، وأنا أقدرك أكثر. وكان جاندولين تابع أماديس، كونت لإحدى الجزر، ويقرأ عنه، أنه كان دائمًا يكلم سيده وقبعته فى يده خفيض الرأس منحنى الجسم على طريقة الأتراك. أيضًا، ماذا نقول عن جاسبان تابع دون جالوار، كان شديد الصمت، وحتى نوضح لكلينا صمته العجيب، لم يذكر اسمه غير مرة واحدة طوال تلك القصة العظيمة والصادقة؟ من كل ما قلت تم شرع الفرق بين المالك والغلام، والسيد والخدام، والفارس والتابع. وعلى هذا، من الآن فصاعدًا، علينا التعامل بمزيد من الاحترام، دون هزر أو مزاح، لأنه على أى الأحوال إن غضبت منك، فالدائرة تدور على الضعيف. والنعم والأفضال التى وعدتك بها، ستصلك فى وقتها، وإن لم تصل فراتبك ليس عرضة للضياع كما سبق أن قلت لك.

قال سانشو:

– كل ما تقوله فخامتكم طيب، لكنى أريد أن أعرف (إذا لم يصل وقت النعم، ووصل زمن الراتب) كم يكسب تابع فارس مشاء فى ذلكم الوقت والزمان، وهل يدفعون له مشاهرة أو مياومة مثل عمال البناء؟

أجاب دون كيخوتى:

– أعتقد أن تابعًا قط لم يصل إلى قبض راتب، وإنما دائمًا يتلقى النعم، وإذا كنت قد أبلغتك بأمر الراتب أو تركته بالوصية فى منزلى، إنما هو تحسُّبُ لما يمكن أن يقع، ولا أدرى كيف تمارس مثل هذه الشئون فى الفروسية خلال زمننا الملئ بالمصائب، وعليه فلم أحب مهما قل السبب أن أعذب نفسى فى العالم

الآخر. وأريد أن تعرف سانشو، أنه فى ذلك العالم لا توجد حالة أكثر تعرضًا للخطر من حالة المغامرين.

قال سانشو:

- هذا حق، فضجيج مطارق ضرب النسيج يمكنه أن يحرك ويثير فقط قلب فارس مشاء بطل مثل فخامتكم. لكن يمكنك التأكد من أننى بعد ذلك، لن أفتح فمى متظرفًا حول ما يخص فخامتكم، إن لم يكن من أجل تكريمكم، فلكونكم سيدى ومالك أمرى بحكم الطبيعة.

أجاب دون كيخوتى:

- بهذه الطريقة ستنال الخير فى حياتك فوق وجه الأرض، فإن احترام السيد شرع تاليًا لاحترام الوالدين.

الفصل الحادى والعشرون

يعالج المغامرة العظيمة والمغنم الثمين لخوذة ممبرينو، مع وقائع أخرى لفارسنا الذى لا يغلب

وبينما هم على هذه الحال، بدأت السماء تمطر رذاذًا، فأحب سانشو الدخول فى طاحونة المطارق، لكن دون كيخوتى كان يُكِن لها بغضًا بسبب هذه الخدعة الثقيلة الظل، فلم يرغب الدخول بأى حال من الأحوال، وهكذا انحرفا فى الطريق على اليد اليمنى، فوجدا أنفسهما فى طريق آخر غير الطريق الذى سارا فيه أمس، وبعد مضى وقت قصير، اكتشف دون كيخوتى قدوم رجل راكب، وكان على رأسه شىء يلمع كما كان من الذهب، ولم يكد يراه، حتى التفت إلى سانشو وكلمه:

– يبدو لى، سانشو، أنه لا يوجد مثل ولم يكن حقيقيًا، لأن الأمثال أحكام استخرجت من التجربة نفسها، والتجربة أم كل العلوم، وخاصة المثل الذى يقول: "كلما أقفل باب، فتح آخر". أقول، لأنه إذا كان بالأمس أقفل الحظ الباب الذى كنا نبحث عنه، بخدعة مطارق ضرب النسيج، فهو الآن يفتح لنا بابًا على مصراعيه، لمغامرة أخرى أفضل وأضمن، وإذا لم أفلح فى اقتحامها فسيكون ذنبى شخصيًا، دون أن أستطيع تعليلها بقلة معرفتى للمطارق، ولا بظلام الليل. أقول هذا، لأننى إن لم أكن أخدع نفسى، فإن القادم نحونا يرتدى خوذة (ممبرينو)(*)، التى كانت موضوع قسمى كما تعرف.

(*) ممبرينو، ملك عربى أندلسى، كانت له خوذة مسحورة، انتزعها منه الفارس مونتاليانو، واستخدمها لحمايته فى مبارزاته مع فرسان مسلمين ومسيحيين.

قال سانشو:

– انظر سيدى جيدًا فيما تقول، وأكثر فيما تعمل، فلا أود مواجهة مطارق أخرى لضرب النسيج، والتى انتهت بالذهاب بعقولنا ودقها.

أجاب دون كيخوتى:

– رعاك الشيطان! كيف تمضى من الخوذة إلى المطارق؟

قال سانشو:

– أنا لا أعرف شيئًا، لكن صدقنى، إذا كنت قادرًا على كثرة الكلام كما كنت من قبل، ربما كنت قد ذكرت لك من الأسباب ما يرى فخامتكم أنكم مخدوع فيما تقول.

قال دون كيخوتى:

– كيف أخدع نفسى فيما أقول، أيها الخائن الشكاك؟ قل لى، ألا ترى ذلك الفارس القادم نحونا على جواد، بنى ببقع سوداء، وعلى رأسه خوذة من ذهب؟

قال سانشو:

– ما أراه وألمحه، ليس إلا رجلاً على حمار، بنى مثل حمارى، وفوق رأس الرجل شىء يلمع.

قال دون كيخوتى:

– من ثم، ذلك الشىء هو خوذة ممبرينو. خذ جانبًا، ودعنى معه وحده. وسوف ترى كيف أختم هذه المغامرة دون نطق كلمة توفيرًا للوقت، وستقع فى يدى الخوذة التى طالما حلمت بها.

أجاب سانشو:

- سوف أكون حريصًا على أن آخذ جانبًا، لكن أدعو الله أن ينتهى الأمر نـــدًّا و(عودًا) وليس مطارق، كما أكرر القول.

قال دون كيخوتى:

- لقد قلت لك أيها الأخ ألا تذكر، ولو بفكرك، أكثر أمر المطارق، وإلا سوف أقسم، ولن أقول أكثر، أننى سوف أطرق لك روحك وأسحقها.

صمت سانشو حتى لا ينجز سيده هذا القسم، الذى ألقاه فى وجهه مـــستديرًا دوارًا مثل كرة.

وكان فحوى أمر الخوذة والجواد والفارس فيما يرى دون كيخوتى هـــو مـــا يلى: إن هذه المنطقة بها قريتان، إحداهما صغيرة جدًا، وليس بها حانوت أو حلاق، أما القرية الأخرى المجاورة، فكان بها كل شيء، وهكذا فإن حلاق هـــذه القريـــة الكبرى كان يقدم خدماته للقرية الصغرى، التى احتاج بها مريض إلى عملية فـــصد دم، واحتاج آخر لحلاقة ذقنه. ولهذا كان الحلاق مقبلاً، وقد أحضر معه (طـــشت) من النحاس الأصفر عدة لعمله، وتصادف أن أمطرت الدنيا، وحتى لا تبتل قبعتـــه وضع (الطشت) فوق رأسه لحماية القبعة التى كانت جديدة فيما يبدو. ولمـــا كـــان الطشت نظيفًا، فقد برق صفاره على بعد نصف فرسخ. كان الحلاق يركب حمـــارًا بنى اللون كما قال سانشو، وذلك ما رآه دون كيخوتى جوادًا بنفس اللـــون، فوقـــه فارس، بخوذة من ذهب: فكل شئ كان يراه يصوره فـــى كـــل صـــورة شـــاعتها فروسيته، لا تخرج عنها، وعن أفكاره المتخبطة. وعندما رأى الفـــارس المـــسكين يقترب منه، رمح بروثينانتى، دون أن يوجه إليه عبارة واحدة، وقرر أن ينفذ فيـــه

رمحه بطنا لظهره، لكن عند وصوله إليه دون أن يهدئ من سرعة جرى حصانه، وقال له:

– دافع عن نفسك أيها المخلوق البائس، أو سلمنى بكامل إرادتك الشيء الذى يخصنى بكل حجة وحجاج.

والحلاق دون أن يمر على باله، وهو غفل عن أى خشية، رأى ذلك الشبح يقدم نحوه، ولم يجد أمامه ما يفعله لتجنب ضربة الرمح غير ترك نفسه يسقط من على الحمار، وما أن لمس الأرض حتى هب واقفًا أخف من غزال شارد، وانطلق يجرى فى ذلك السهل المنبسط، حتى إن الريح نفسها لم تكن لتدركه. وقد ترك (الطشت) على الأرض، وقد رضى به دون كيخوتى، وقال إن هذا الوثنى قد أحسن التصرف محاكيا حيوان (القندس)، والذى عندما يجد نفسه مطاردًا بالصيادين، فإنه يلقم بفمه (شوشة) ذيله (التى يطارده الصيادون من أجلها)، ويقطعها بأسنانه، ويتركها لهم بفطرته السليمة، عندما يعرف بتلك المطاردة. وأمر سانشو أن يلتقط الخوذة من الأرض، وهذا عندما وجدها فى يده، قال:

–يالله ! إن الطشت جيد، ويساوى ريالاً مثمنًا يعادل الدينار (المرابطى).

وعند تسليمه لسيده، لبسه فى رأسه، وأخذ يديره فيها ويعدله، باحثًا عن موافقته لمقاس رأسه واستقراره عليها، ولما لم يوفق، قال:

– مما لا شك فيه، أن هذا الوثنى، قد صهر الخوذة، وأعاد صبها على مقاس رأسه، التى ينبغى أن تكون رأسًا كبيرة جدا، وأسوأ من ذلك أن الخوذة ينقصها النصف الأسفل.

وعندما سمع سانشو تسمية (الطشت) بالخوذة، لم يتمكن من إمساك نفسه عن الضحك، لكن تذكر حمى غضب سيده، فكتم ضحكه في منتصفه. قال له دون كيخوتي:

– من أى شيء تضحك؟

أجاب سانشو:

– أضحك عند تصورى الرأس الكبيرة للوثنى صاحب هذه الخوذة، التى بينها وبين (طشت) الحلاق شبه.

– هل تعرف سانشو فيم أفكر؟ إن هذه القطعة المشهورة لهذه الخوذة المسحورة (التى وقعت فى حادث غريب فى يد من لم يعرف قدرها، ودون أن يدرى ماذا كان يفعل، عندما رآها من الذهب الخالص، قد قام بصهر النصف الآخر للانتفاع بثمنه) هى ما تبقى، قد صبه الرجل بهذا الشكل الذى يشبه (طشت) الحلاق كما تقول، لكن بالنسبة لى، فمهما كان الأمر، فلن يضير تحولها لأنى أعرف قيمتها، وسوف أعدل من شأنها مع أول حداد يصادفنا فى الطريق، ومعه إن واتانا الحظ، سوف يتم إصلاحها فى إحسان لا يجعل للخوذة التى أهداها إله الحدادة إلى إله الحرب أى تفوق بل لن تلحق بخوذتنا فى شيء، وحتى ذلك الوقت سوف استعملها لتؤدى بعض الوظيفة، وهذا أفضل من لا شيء، فعلى الأقل سوف تكون كافية لحجب الحجارة عن رأسى.

قال سانشو:

– هذا صحيح إذا لم يلقوا الحجارة بالمقاليع، كما حدث فى القتال بين الجيشين، عندما اقتلعوا أضراس فخامتكم، وفتتوا كوز البلسم المبارك الذى جعلنى أتقيأ كل لحم بطنى.

- لم يؤلمنى فقدان البلسم، فأنت تعرف، سانشو- قال دون كيخوتى- إننى أحمل الوصفة فى ذاكرتى.

أجابه سانشو:

- وأيضًا أعرفها أنا الآخر، لكن إذا صنعته، فلن أذقه بعد ذلك فى حياتى، حتى لو كانت آخر ساعة فى حياتى، وأكثر، فأنا لن أضع نفسى فى موقف يجعلنى أحتاجه، لأننى أفكر فى أن أحافظ على نفسى بحواسى الخمس جميعًا بعيدًا عن أن يجرحنى أحد أو أجرح أحدًا. أما أن يعودوا لتقاذفى فى الهواء داخل بطانية فلا تعليق، فمثل هذه الكبوة يمكن توقع تكرارها، فإن وقعت فلن أفعل شيئًا غير هز أكتافى، ووقف أنفاسى، وإغلاق عينى، وترك نفسى للحظ، وإرادة البطانية، حيثما شاءت قذفى وتقليبى.

أجاب دون كيخوتى:

- أنت مسيحى غير تقى، لأنك لا تنسى الأسيّة أبدًا، تلك التى ألحقوها بك فى إحدى المرات، فأنت تعرف أن القلوب النبيلة والكريمة لا تعير الصبيانيات انتباهًا. فهل خرجت من هذا بقدم تعرج، أو ضلع مكسور أو رأس مشجوج حتى لا تنسى تلك المزحة؟ وإذا لم تتسع بالموضوع، فقد كان مزحة وتزجية لوقت الفراغ، وإذا لم أكن أفهم الأمر هكذا، لعدت إلى هناك، ولكنت ارتكبت فى الانتقام لك من الأذى أكثر مما فعل الإغريق من أجل هيلانة المختطفة. والتى لو كانت فى هذه الأيام، أو كانت سيدتى دولثينيا فى أيامها، لضمنت هيلانة شهرة أقل مما تنال الآن.

وهنا أطلق تنهيدة وطار فوق السحاب. وقال سانشو:

– إذا لم يمكن الأخذ بالثأر، فلنأخذ الأمور على أنها مزحة، لكننى أعرف معنى تلك المزحة، وأعرف أيضًا أنها لن تسقط من ذاكرتى، ولن ينمحى أثرها فى ظهرى. لكن إذا تركنا هذا جانبًا، قل لى فخامتكم ماذا سنفعل بهذا الجواد البنى المبرقش، والذى يشبه حمارًا بنى اللون؛ وقد تركه صاحبه (مارتينو)(*)، الذى هزمته فخامتكم، وأطلق ساقيه للريح موليًا شطر (بيادييجو)(*)، ولا يوجد أى دليل على نية العودة أبدًا إلى هنا. سوف أنتف ذقنى إذا لم يكن أصيلاً هذا الجواد المبرقش!

أجاب دون كيخوتى:

– لم أتعود قط حمل غنائم ممن أهزمهم، وليس من قوانين الفروسية انتزاع خيول المهزومين وتركهم راجلين، إذا لم يكن الغالب قد فقد جواده فى المعركة، ففى هذه الحالة يأخذ جواد المهزوم باعتباره غنيمة حرب. وبهذا أترك، سانشو، هذا الجواد أو الحمار، أو ما تحب أن يكونه، فصاحبه عندما يرانا ابتعدنا عن هنا، سوف يعود فى طلبه.

أجاب سانشو:

– الله يعلم أننى أود أن أحمله، أو على الأقل مقايضته بحمارى، الذى أراه ليس على مستوى المسئولية. وحقًا، فإن قوانين الفروسية المتشددة لن تسمح لى بمقايضة حمار بآخر، لكن أود أن أعرف إمكانية مقايضة برذعة وعدة ببرذعة وعدة.

(*) مارتينو: فلان، ذلك المجهول. أما الاتجاه إلى المكان بيادييجو فتعنى الفرار دون عودة.

أجاب دون كيخوتى:

- فيما يتعلق بهذا فإنى لست على يقين، وفى حالة الشك، حتى يتبين لك الحـــق، فإنى أقول بالإمكانية فى حالة الحاجة القصوى.

قال سانشو :

- كم هى قصوى حاجتى! فشدة حاجة ظهر حمارى لو كانت لى ما احتجت شيئًا أكثر ضرورة.

وهنا، مخولاً بهذا التصريح، أقام حفل تبادل الثيـــاب المقدســـة الكنـــسى(*)، وصار حماره بألف زينة، تاركًا مظهره وقد تحسن بالثلث والخمس. وعندما انفض من ذلك، تناولا الغداء من مخازن العدو مما كان على ظهر حمار الحلاق، وشـــربا من ماء نهير المطارق، دون النظر إليه، لما كانا يكنان من بغض له، بـــسبب مـــا أحدثه لهما من خوف وفزع.

ولما أحسا بالاستجمام بل وهدوء البال من أى انـــشغال أو همـــوم، ركبـــا الدواب، ودون أن يحددا لأنفسهما طريقًا، حتى يصيرا فارسين مشاعين إلى أقصى الحدود، ومن ثم، تركا لروثينانتى القيادة، طبقًا لما يعن له من إرادة، تعنو لها خلفها إرادة سيده، وإرادة الحمار، التى دائمًا تتبعها حيثما شاءت فى حب وحسن رفقـــة. وعلى هذا الحال عادا إلى الطريق الملكى، وسارا فيه خلف حظهما، دون أى تدخل يحدد لهما اتجاهًا.

وبينما هم فى طريقهم ماضون قال سانشو لسيده:

(*) حفل سنوى يقام فى الكنيسة، يتبادل فيه الكاردينالات ملابسهم الكنسية، يقارن به ثربانتس تبادل البراذع.

– سيدى، هل تمنحنى فخامتكم رخصة للتحدث معكم قليلاً؟ فبعد الأمر الخشن بالصمت تعفنت أربعة أشياء فى معدتى، وواحدة من هذه الأربعة هى الآن على طرف لسانى لا تريد أن تضيع أو تتلف.

قال دون كيخوتى:

– قلها، لكن بمختصر العبارة التى إن طالت سمجت.

أجاب سانشو:

– إذن أقول يا سيدى، إنه على مدى أيام من التفكير فى أقل القليل من جنى المكسب والحصول من المشى بحثًا عن هذه المغامرات التى تفتش عنها فخامتكم فى مفترقات هذه الطرق المقفرة حيث تحقق فيها الانتصارات وحسن النهايات فى مواجهة أعظم الأخطار، ومع ذلك فلا يوجد من يشهدها أو يعرف عنها خبرًا، وهكذا تتلاشى فى الصمت الأبدى، فى تعاكس مع قصد فخامتكم، وتضاد مع ما تستحق هذه المعارك من فخار. ومن هنا يبدو لى أفضل(إلا أن يبدو لفخامتكم رأى آخر) أن نذهب لخدمة أحد الأباطرة أو أمير من كبار الأمراء، ممن يكون فى حالة حرب. وفى خدمته تبرهنون فخامتكم على بسالة شخصكم، وبأس قوتكم وحسن فطنتكم، وحينما يشهد السيد الذى نخدمه ذلك، فسوف يكافئنا بما نستحق، وهنا لن نعدم من يكتب مفاخر فخامتكم، للذكرى الخالدة. وفيما يتعلق بمفاخرى فلا أقول شيئًا، فلن تخرج عن حدود الاتباع، مع أننى أعرف، أنه إذا كان قد جرت العادة الفروسية على مفاخر الخدم، فلن يبقى أمرى فى طى الضياع والنسيان.

أجاب دون كيخوتي:

– لقد أخطأك العيب، سانشو، لكن قبل ذلك لابد من السير فى هذا العالم سبيلاً لنيل القبول، باحثين عن مغامرات تعطى اسمًا وشهرة حتى إنه عند الذهاب إلى بلاط أحد الملوك، أكون قد غدوت الفارس المعروف بأعماله، فلا يكاد يدخل المدينة ويراه الفتيان على بابها حتى تتبعه عيونهم ويحيطون به هاتفين "هذا هو فارس الشمس"، أو فارس الثعبان أو يذكرون شعارات أخرى تنم عن المفاخر العظيمة. وقد يقولون: هذا من انتصر فى معركة فريدة على العملاق (باكابرونو) ذى القوى المتين"، ومن فك سحر مملوك فارس العظيم بعد تسعمائة عام مسحورًا. وهكذا من يد إلى يد، يسيرون معلنين عن أعماله، وعلى هذا الضجيج الذى يثيره الفتيان والناس الآخرون، يطل ملك هذه المملكة من نوافذ قصره.ومن ثم، يرى الفارس متعرفًا عليه من سلاحه أو من شعار ترسه، فلا يملك إلا القول "إيا، فليحيا! ليخرج كل الفرسان الموجودين الآن فى البلاط جميعًا لاستقبال زهرة الفروسية، ذلك الذى يهل من هناك." وبهذا الأمر، يخرج الجميع، وينحدر الملك إلى منتصف السلم، مستقبلاً له، فى احتضان حار، ثم يقبله قبلة التحية والسلام فى الوجه، ثم يصطحبه من يده إلى غرفة الملكة، حيث يجدها الفارس مع الأميرة ابنتها، والتى لابد أن تكون واحدة من أجمل حسناوات الفتيات وأكملهن تكوينًا على وجه البسيطة. يحدث بعد ذلك أن تضع عينيها على الفارس، ويضع عينيه عليها، فيظهر كل واحد منهما فى عيون الآخر ملاكًا أكثر منه إنسانًا دون أن يعلما كيف كان أو كيف لم يكن يجدان أنفسهما مرتبطين برباط الحب وقد وقعا فى شباكه المعقدة أسيرين، ويمتلئ قلبهما بالحزن، لعدم

معرفتهما كيف يتبادلان الكلام لكشف أشواقهما ومشاعرهما. ومن هنـــاك، يحملونه دون شك إلى غرفة، من غرف القصر تم تعديلها لراحتـــه فى أجمـــل شكل، ثم يخلع عن نفسه ملابس الحرب، ويرتدى ما أحضروه له من عبـــاءة فخيمة من (الإسكارتا). وإذا كان بديع المنظر فى زيه العسكرى، فهو بمثـــل هذه الوسامة بل أكثر فى عباءته الملكية.وعند قدوم الليل يتعشى مع الملـــك والملكة والأميرة، حيث لا يرفع عينه عنها طوال الوقت، ناظرًا إليها مع كل سانحة، وهى ستفعل نفس الشىء بكل الحيلة، لأنها، وكما سبق لنا القـــول، فتاة لماحة. وما أن ترفع المائدة، إلا ويدخل دون مناسبة من باب الصالة، قزم قبيح صغير، وخلف القزم، سيدة له حسناء تسير بين عملاقين، تطرح مسألة وضعها حكيم معرق القدم، من يجد لها جوابًا يكون أفضل فارس فى الـــدنيا، ويأمر الملك كل الحضور بتجربة حظهم ولم يستطع أحد العثور على الإجابة والحل إلا الفارس الضيف، لترفع أسهم شهرته، ويرتفع رضا الأميرة لسمو اختيارها. ومن حسن الطالع أن هذا الملك أو الأمير، أو من كـــان، يعـــيش حربًا شديدة الوطيس، مع ملك آخر فى مثل جبروته، والفـــارس الـــضيف يطلب من مليكه (فى آخر بضعة أيام قضاها فى البلاط) تصريحًا بأن يكون فى خدمته بخوض تلك الحرب. يعطيه الملك ما يطلب بكـــل ســـرور، ويقبـــل الفارس يده لما يحبوه من نعمة. وفى نفس الليلة يودع سيدته الأمـــيرة، عـــبر قضبان أسوار حديقة تطل عليها غرفة نومها، وقد ناجاها من قبل عدة مرات فى نفس المكان، بفضل وسيطة تتسم بالحكمة، وهى وصيفة موضـــع ثقـــة الأميرة. يرسل هو تنهداته، ويغشى عليها هى، وترش عليها المياه الوصيفة، التى تقلق لاقتراب الصباح، ولا تحب أن يكتشف أحد سر العاشقين من أجل

شرف سيدها. وأخيرًا تفيق الأميرة، وتسلم يدها البضة البيضاء للفارس عبر القضبان، فيقبلها آلاف وآلاف المرات، ويجعلها تستحم فى دموعه. ويتم التعاهد بينهما على أن يخطر كل منهما الآخر بما يقع له من خير أو شر، وترجوه الأميرة أن يوقف ما انتواه، على الأقل بالقدر الذى يستطيع، ويعدها بذلك مقسمًا كل القسم، ويعود لتقبيل يدها، ويودعها بكل مشاعره، حتى لم يكن ينقصه إلا القليل ليسلم الروح بين يديها. يذهب إلى غرفته،ويلقى بنفسه على سريره، لا يستطيع النوم لآلام الهجران، ثم يستيقظ مبكرًا، ويذهب إلى الملك يودعه ثم إلى الملكة فالأميرة، حيث يقولون له إن الأميرة ليست على غير استعداد لاستقبال زيارات،ويرى أن ذلك بسبب ألم الرحيل، فينفطر قلبه، ويكاد لولا القليل يكشف سر مشاعره. تراه الوصيفة الوسيطة، وتلاحظ كل شئ، وتذهب لتخبر سيدها، والتى تستقبلها بالدموع، وتقول لها إن واحدة من أعظم الآلام ألا تعرف من هو فارسها، وهل هو نسل الملوك أم لا، وتؤكد لها وصيفتها بأنه لا يمكن لشخص يحمل كل هذا الخلق من دماثة ورجولة وشجاعة دون أن يكون ذاتًا ملكية، وذات جد وهيبة. ويسرى هذا عن الأميرة القلقة، وتحاول أن تتعزى حتى لا يبدو عليها من المؤشرات غير المرغوبة أمام والديها، وفى نهاية اليوم الثانى، تتمكن من الخروج للناس. والفارس غائب، يقاتل فى الحرب ويهزم الملك، ويمتلك مدنًا كثيرة ويكلل بالنصر فى معارك غزيرة، ويعود للبلاط، ويرى سيدته، حيث اعتاد أن يراها، ويتفق معها على أن يطلب يدها من أبيها، مقابل خدماته، ولكن أباها لا يرغب فى تزويجها له لأنه لا يعرف من هو. ومع كل هذا، سواء باختطافها أو بغير ذلك تصير الأميرة زوجة له، ويكون ذلك من

حظ أبيها، لأنه تحرى عن أمر الفارس، فوجده ابن ملك باسل لمملكة لا أعرف ما هى، وأظن أنها توجد على الخريطة. ويموت الأب وترث الأميرة العرش، ويبقى الفارس ملكًا بين كلمتين: مات الملك،يحيا الملك. وهنا يدخل تقديم النعم إلى التابع، وإلى كل من ساعده للوصول إلى هذا المنصب السامى، ويزوج تابعه لوصيفة الأميرة، والتى كانت المساعد والعون فى حبه(*) وهى ابنة دوق كبير.

قال سانشو:

– لا أخدعكم فى شىء، هذا مطلبى، والذى أتمسك به، وسوف يتحقق طبقًا لما تقول فخامتكم ولكم تحت اسم (الفارس ذى الصورة الحزينة).

أجابه دون كيخوتى:

– لا تشك فى ذلك سانشو، لأنه بنفس الخطى التى قصصتها عليك وبنفس الطريقة يرتقى من قبل الفرسان المشائين إلى رتب الملوك والأباطرة. والذى ينقصنا الآن البحث عن أحد الملوك المسيحيين أو الوثنيين ممن تعتورهم إحدى الحروب، بشرط أن تكون عنده ابنة حسناء، لكن يجب الانتظار وقتًا كافيًا قبل التفكير فى ذلك، لأننى كما أخبرتك على أن أنال الشهرة فى أنحاء أخرى حتى تصل تلك الشهرة للبلاط. أيضًا ينقصنى شىء آخر: بافتراض وجود ملك فى حالة حرب وله ابنة حسناء، مع حصولى على الشهرة تفوق المعقول وتملأ الكون،لا أعرف كيف العثور على صلب ملكى أو عمومة

(*) يقول الكاتب "كانت الثالثة" فى حبه. والشخص الثالث معروف جدا فى الأدب العربى سلبيًا وإيجابيًا: المساعد، أو الرسول، أو القوادة، أو الرقيب، أو العذول...إلخ.

بعيدة على الأقل لإمبراطور، لأن الملك لن يرغب فى تزويجى ابنته، إذا لم يكن أولاً قد تأكد من ذلك مهما كانت جدارة أمجادى، ولهذا النقص أخشى فقدان ما أستحقه بجهد ساعدى. ومن الحق، فأنا من الأعيان ومن عائلة معروفة بمركزها وممتلكاتها، وباستحقاق خمسمائة راتب، ومن الممكن أن يجد الحكيم الذى سيكتب سيرتى سلسال قرابتى وأجد فى شخصى الحفيد الخامس أو السادس لأحد الملوك. لأنه من المعروف، سانشو، أنه هناك طريقتان للأنساب فى العالم: البعض ممن ينحدرون من صلب ملوك أو أمراء قد تلاشى اسمهم تدريجيًا، ليصبح سنًا لقمة هرم مقلوب، وآخرون بدايتهم وضيعة، ويمضون فى الصعود درجة بعد درجة حتى يصلوا، إلى أن يصيروا سادة عظامًا،حتى يصير الفرق أن هناك من كان،وهو الآن لا يكون، ثم من يكون الآن، وهو من قبل لم يكن. ويمكن أن أكون أنا من هؤلاء، الذين بتحرى أصلهم فيعرفون أن أصلى عظيم وشهير، الأمر الذى يرضى الملك الذى سيكون حمى لى. وإذا لم يرض، فإن الأميرة سوف تحبنى بطريقة تجعلها تقبلنى سيدًا لها وزوجًا، على غير رضا أبيها، حتى لو علمت بوضوح أننى ابن سقاء، وإن لا، فلا سبيل إلا اختطافها وحملها حيثما شئت، والزمن أو الموت كفيل بتهدئة غضب الوالدين.

قال سانشو:

– هنا ينطبق جيدًا على ما قاله بعض الجفاة القساة" لا تطلب بالتراضى، ما يمكن أخذه بالقوة"، مع أن القول الآخر ينطبق أفضل وهو يقول:"خير لك القفز على الأسوار من رجاء الكرماء". أقول ذلك لأن السيد الملك حماك، إذا لم

يرغم على تسليمك سيدتى الأميرة، فلا حل إلا اختطافها والابتعاد بها. لكن الضرر سيقع خلال انتظار حلول السلام والمصالحة والتمتع بعدها بالمملكة، للتابع المسكين الذى من الممكن أن يتضور جوعًا حتى تحل عليه النعم. هذا إذا لم تخرج الوصيفة وسيطة الحب، والتى ينبغى أن تكون زوجة لــه، مــع الأميرة لتصحبه فى أيام بؤسه، حتى تأمر السماء بأمر آخر، وحسب ظنى أن السيد فى حالة خروجها يستطيع الأمر بأن تصير زوجة شرعية للتابع.

رد دون كيخوتى:

– هذا لا يوجد من يحول دون وقوعه.

أجاب سانشو:

– ما دام الأمر كذلك، فليس أمامى سوى أن أدعو لكم الله، وأترك الحظ يجرى حيث يحملك إلى خير الطرق.

قال دون كيخوتى:

– آمين، فليقيِّض الله لى ما أرغب وما ترغب، وخرب الله بيــت مــن يخــرب المسيرة.

قال سانشو:

– توكلنا على الله، فأنا مسيحى قديم(*)، ويكفينى رتبة الكونت.

(*) مسيحى قديم فى مقابلة المسيحى الجديد ممن ارتد عن اليهودية والإسلام إلى المسيحية، وقد صار المسيحى القديم مميزًا بثقة الكنيسة والدولة.

قال دون كيخوتى:

- وهى فوق حاجتك، وإن لم تنلها فلا تهتم بالأمر، لأننى إذا أصير ملكًا، فمن السهل أن أسلكك فى النبلاء،دون أن تضطر لشراء لقب نبيل أو حتى تضطر لخدمتى. لأنه لجعلك (كونت)، لابد أن ترتدى ثوب الفارس، وليقل من شاء ما يقول، فسيدعونك بصاحب السعادة، حتى لو رغمت أنوفهم.

رد سانشو:

- خذها كلمة أننى سوف أضىء اللقب الموسوم منكم.

قال دون كيخوتى:

- قل المرسوم وليس المرسوم.

قال سانشو:

- لا باس، ليكن كذلك، وأقول بأننى أعرف جيدًا أن أكون اسمًا على مسمى عندما أصير (كونت)، وأحلف بحياتى، أننى لبعض الوقت كنت ساعيًا لرابطة دينية وكان زى الساعى لائقًا جدًّا علىَّ حتى أن الجميع كانوا يقولون إن لى حضورا يمكننى من أن أصير كبير سعاة لنفس الرابطة.إذن، فماذا فى أن أتحلى بثياب الدوقية أو بالذهب واللؤلؤ، مما يعتاد من كونت فى زياراته الخارجية الرسمية؟ سيقبل الناس مئات الفراسخ لمشاهدتى.

قال دون كيخوتى:

- ستكون حسن المظهر، لكن من الضرورى أن تهذب لحيتك كثيرًا، فهى كثيفة وسيئة المظهر، وإذا لم تهذبها بموس كل يومين على الأقل، فإن أصلك سيكشفه من يراك على بعد مرمى بندقية.

قال سانشو:

– وماذا أكثر من اصطناع حلاق براتب فى بيتى؟ بل أكثر، لو كان ضروريًا سوف أجعله يسير خلفى مثل سائس لرجل عظيم.

– قل لى – سأل دون كيخوتى – كيف تعرف أن العظماء يحملون خلفهم سائسًا؟

قال سانشو:

– سأقول لك كيف؛ فى السنوات السابقة، قضيت شهرًا فى البلاط، رأيت سيدًا صغير الحجم جدًا يتنـزه، قالوا عنه إنه كبير القدر جدًا، وكان هناك رجل يمشى خلفه راكبًا، جيئة وذهابًا كما يفعل سيده، حتى بدا ذيلاً له. سألت لم وكيف أن هذا الرجل لا يتوازى مع من يتقدمه ويرافقه، وإنما دائمًا يسير خلفه. أجابونى أنه سائسه، وأن كل كبير يحمل خلفه شيئًا مثيلاً. منذ ذلك الحين أعرف هذا جيدًا ولا أنساه قط.

قال دون كيخوتى:

– أقول أنت صائب، وهكذا يمكنك حمل حلاق كسائس، فالعادات لم تولد جميعًا دفعة واحدة، أو تخترع فى يوم واحد، ويمكنك أن تكون أول كونت يحمل خلفه حلاقه، وإن من نسلمه ذقننا أقرب لثقتنا ممن يسرج لنا الجواد.

قال سانشو:

– ليبق شأن الحلاق على عاتقى، أما على عاتق فخامتكم محاولة تسنم الملك وتعيينى (كونت).

أجاب دون كيخوتى:

– هكذا سيكون.

وعندما رفعا عيونهما شاهدا ما سوف نقصه ونحكيه فى الفصل التالى.

الفصل الثانى والعشرون

عن الحرية التى منحها دون كيخوتى لكثير من التعساء الذين كانوا يحملونهم ضد رضاهم إلى حيث لا يريدون الذهاب

يحكى سيدى حامدى بن إنجيلين، المؤلف العربى المانشاوى(*)، فى هذه القصة شديدة الجدية، والمختصرة القول، والعذبة والمصورة فى الخيال، أنه بعد أن انقضت تلك المحاورة المذكورة فى آخر الفصل الواحد والعشرين، بين الذائع الصيت دون كيخوتى دى لامانشا، وخادمه سانشو بانثا، رفع دون كيخوتى عينه، فرأى فى الطريق اثنى عشر رجلاً قادمين على الأقدام، (ملضومين مثل مسبحة) فى سلسلة من الحديد تخترم أعناقهم، والجميع بقيود فى الأيدى. ومعهم يقدم رجلان على خيول، وآخران يسيران راجلين. الراكبان يحملان بنادق ذات عجلات الإشعال،(**) أما الرّاجلان فيحملان نبالاً وسيوفًا. وعندما رآهم سانشو بانثا قال:

– هذه سلسلة المحكوم عليهم بالتجديف فى السفن، وهم الذين يغصبهم الملك، ويذهبون إلى البحرية.

سأل دون كيخوتى:

– كيف يغصبهم الملك؟ هل من الممكن أن يفرض الملك على أحد شيئًا غصبًا؟

(*) مانشاوى صيغة نسبة عربية، للإشارة إلى أهل دى لامانشا أرض دون كيخوتى.

(**) بنادق قديمة بها حامل يصدم عجلة لإصدار شرر لإشعال البارود.

أجاب سانشو:

– لا أقول هذا، لكنهم أناس يحكم عليهم بخدمة أسطول الملك مقابل جرائمهم، وينفذ الحكم غصبًا.

أجاب دون كيخوتى:

– باختصار، ليكون الأمر ما يكون، إلا أن هؤلاء الناس يسيرون غصبًا وليس بإرادهم، حتى لو كانوا مدانين.

قال سانشو:

– أحذركم بأن العدالة هى الملك نفسه، وأن أى إرغام أو غصب لأمثال هؤلاء ليس أكثر من عقوبة على جرائمهم.

وبينما هم كذلك وصلت سلسلة المحكوم عليهم، وطلب دون كيخوتى بعبارات مهذبة من الذين كانوا فى حراستهم، أن يتفضلوا بإخباره عن سبب أو أسباب حمل هؤلاء الناس بهذه الطريقة. أحد الحراس الراكبين أجاب بأنهم ملزمون بالتجديف فى الأسطول، فى خدمة جلالة الملك، وهم فى طريقهم للسفن، وأنه ليس لديه ما يقوله أكثر، وأنه ليس له أن يعرف أكثر .

أجاب دون كيخوتى:

– رغم ذلك، أحب أن أعرف كل شيء عن كل واحد منهم، وعن سبب شقائه.

وأضاف لهذه العبارة عبارات أخرى شديدة الرقة حتى يحضهم أن يقولوا له ما كان يود معرفته، فأجابه الحارس الآخر الراكب قائلاً:

- حتى لو كنا نحمل معنا هنا السجل، ونص حكم كل واحد من هؤلاء المتعوسين، فليس هذا الوقت المناسب لوقوفنا لاستخراج البيانات وقراءتها، فلتتجه فخامتكم إليهم واسألهم أنفسهم، فليقولوا ما تريد لو شاءوا؛ لأنهم خلق يستلذون بفعل الشر والتحدث عنه.

وبهذا التصريح، والذى كان سيعطيه دون كيخوتى لنفسه، ما لم يعطوه له، اقترب من السلسلة، وسأل الأول عن الآثام التى حملته إلى هذا السوء المريع. أجابه أنه يمضى فى قيوده لأنه عاشق.

أجاب دون كيخوتى:

- لهذا ليس أكثر؟ إذا كانوا يحملون العشاق إلى الأسطول، فما أطول ما يمكن أن أعانيه من التجديف هناك.

قال الشقى:

- ليست الغراميات التى تفكر فيها فخامتكم، فغرامياتى هى أننى عشقت سلة غسيل مملوءة بالملابس البيضاء، وقد احتضنتها إلى صدرى بقوة، وإن لم تكن العدالة قد انتزعتها منى، لما أبعدها عن حضنى حتى هذه اللحظة وكان التلبس بالجريمة، حائلاً دون تعذيبى لانتزاع الاعتراف. فكانت الجريمة ثابتة، فأرحت ظهرى بمئة وضمنت ثلاثًا فى الأغربة(*)، وهكذا يكتمل العمل.

سأل دون كيخوتى:

- ما هى الأغربة.

(*) هذه لغة المجرمين المحترفين، فالمئة مئة سوط، والثلاث ثلاث سنوات عمل فى الأسطول، والأغربة من أصل عربى، تشير إلى السفن بسبب دهانها بالقار الأسود.

أجاب الشقى:

– السفن.

كان فتى فى حوالى الرابعة والعشرين من عمره، وقال إنه من أهل (بيدرايتا). وسأل دون كيخوتى نفس السؤال للشقى الثانى، والذى لم يجب بكلمة، فقد كان حزينًا وهائم الوجه، وقد أجاب عنه الأول وقال:

– إن جريرته أنه طائر الكنارى المغنى، أقصد لأنه موسيقى ومطرب.

– كيف؟ – كرر دون كيخوتى– هل يذهبون إلى الأسطول أيضًا لكونهم موسيقيين ومطربين؟

أجاب الشقى:

– نعم يا سيدى، فليس شيء أسوأ من الغناء وقت الفراغ.

قال دون كيخوتى:

– ومع ذلك، فقد سمعت أن "من غَنَّى لا يتعنَّى".

قال الشقى:

– هنا الأمر مقلوب، فمن يغنى مرة، يبكى طول العمر.

قال دون كيخوتى:

– لا أفهم ما تقول .

– لكن أحد الحراس قال له:

– سيدى الفارس، بين هؤلاء الناس (الغناء فى الفزع) هو معايرة لاعترافه بالتعذيب. فهذا الآثم عذبوه فاعترف، بأنه نشال أربعاوى، أى لص الدواب ذات الأربع، ولاعترافه حكموا عليه بست سنوات فى الأسطول، وفوقها مائتى سوط، يحملها الآن على ظهره، ويمضى دائمًا حزينًا ومتفكرًا، لأن اللصوص الذين بقوا هناك حيث كان، وغيرهم ممن يشرفنا هنا يسيئون معاملته، ويتلافونه ويسخرون منه ويقللون من شأنه، لأنه اعترف، ولم تكن عنده همة الإنكار، فهم يقولون إن لفظ الإنكار (لا) لا يزيد فى الحروف عن لفظ الاعتراف (أى)(*)، وإنه لمجرم محظوظ الذى على لسانه تعتمد حياته أو موته، ولا تعتمد على الشهود والأدلة، وأنا أرى أنهم لا يجانبون الصواب كثيرًا.

أجاب دون كيخوتى:

– وأنا أيضًا.

وهنا اتجه للثالث، وسأله نفس ماسأل الآخرين عنه، والذى سريعًا، ودون تعكر أجاب وقال:

– إنى أتجه لتنفيذ عقوبة خمس سنوات على السفن الطنانة بسبب عدم امتلاكى لبضع قطع من النقود.

قال دون كيخوتى:

– أنا أدفع لك ضعف ما تحتاج من نقود لتحريرك من هذه المحنة.

(*) نعم ولا فى الإسبانية كلمتان، كل منهما من حرفين، ولهذا نستخدم (أى) هنا بمعنى نعم لتستقيم الفكرة.

أجاب الشقى:

– ما تعرضه، مثل من يملك الكثير من النقود فى منتصف خليج، وهو يموت من الجوع دون أن يعرف من أين يشترى القوت. لأننى لو كان لدى هذه النقود التى تعرضها على فخامتكم الآن، لرشوت ريشة كاتب المحكمة، وأنعشت بها عبقرية وكيل النيابة، بطريقة كانت ستجعلنى الآن فى ميدان سوق المدور فى طليطلة، وليس فى الطريق مسحوبًا من عنقى ككلب الصيد، لكن الله أكبر، وصبرًا وكفى.

ومر دون كيخوتى بالرابع، وكان رجلاً ذا وجه محترم، ولحية بيضاء تستقر على صدره، والذى عندما سمع السؤال عن سبب قدومه معهم أجهش بالبكاء، ولم يجب بكلمة، لكن الشقى الخامس صار لسانًا له، وقال:

– هذا الرجل الشريف يذهب بحكم أربع سنوات فى الأسطول، بعد أن زفُّوه فى الشوارع المأهولة بالمارة فى ثياب فخيمة فوق مطية(*).

قال سانشو بانشا:

– طبقًا لظنى، فإن هذا معناه أنه ارتكب الفحشاء.

أجاب الشقى:

– هو ذاك؛ والذنب الذى من أجله حكموا عليه بهذا الحكم هو أنه كان سمسار آذان، بل سمسار الجسم بأكمله. بالفعل، أريد القول إن هذا الرجل قواد، وفى نفس الوقت لأن له سمت الساحر.

(*) جزء من عقاب المحكوم عليهم بالجلد قبل تنفيذه.

قال دون كيخوتي:

- إذا لم تكن قد أضفت له هذا السمت، ما استحق السخرة فى الأسطول لكونه قوادًا فحسب، بل كونه كذلك يجعله مستحقًا رتبة الجنرال البحـــرى؛ لأن مهنة القوادة ليست أى كلام بل هى مهنة الكياسة، كما أنها ضرورية للغاية فى الجمهورية المثالية جيدة التنظيم، ولا ينبغى أن يمارسها إلا أولاد النـــاس المحترمين، وفوق ذلك، يجب أن يكون هناك ملاحظون ومفتشون لاختيارهم، كما يحدث فى المهن الأخرى، على أن يكون عددهم محدودًا ومعروفًا مثـــل سماسرة أى سوق، وبهذه الطريقة يتم تجنب شرور كثيرة تنجم عن ممارســـة هذه المهنة عبر أناس بلهاء وقليلى الذكاء، مثل الغلامات قلـــيلات الـــشأن والغلمان والمهرجين، بما هم عليه من صغر السن وقلة التجربة، حتى إنهـــم حينما تحين ساعة ضرورة وحاجة إلى براعة التصرف تبرد اللقمة بين يـــدهم والفم، أثناء بحثهم عن يدهم اليمنى.(*) أود أن أواصل شرح الفكرة وتقديم العلل والأسباب، لأنه يناسب اختيار من عليهم ممارسة هذه المهنة المهمـــة فى الجمهورية المثالية، لكن يضيق بى المقام الآن، وربما فى يوم قادم أقول كـــل شيء لمن يستطيع تولى الأمر ومعالجته. فقط أقول الآن، إن الأسف الـــذى سببته لى رؤية هذه الشعيرات البيضاء والوجه السمح فى كل هذا العناء لأنه قواد، قد أنسانى اتهامه بالسحر، خاصة أننى أعلم أنه لا يوجد أى ســـحر فى العالم يمكنه تغيير الإرادة وغصبها كما يفكر بعض البسطاء، فإرادتنا حـــرة، ولا يوجد عُشْبُ أو سحر قادر على تسييرها عنوة، والذى تقوم به بعـــض

(*) تعبير يشير إلى الجهل والإهمال.

النساء من البسطاء العقل، والكذابون الأشرار من تجهيز خلطـــات وسمـــوم يتحول الرجال بها الى مجانين الغرام، موحين بذلك، أنهم لديهم القوة علـــى إيقاع الرجال فى الحب، الأمر الذى أرى استحالته لاستحالة سلب الإرادة.

وهنا علق العجوز الطيب:

- هو كما تقول، ففى الحقيقة يا سيدى، أنه فيما يتعلق بتهمة الـــسحر، فأنـــا برىء، أما تهمة القوادة فلم أستطع إنكارها، ولم أكن أظن قط أن القـــوادة عمل سيئ، فلم يكن لى من قصد غير أن يبتهج الناس ويعيـــشوا فى ســـلام وهدوء، دون ضيق أو ألم، ولكن لم تفدنى هذه النوايا الطيبة فى الحيلولة بينى وبين الذهاب إلى حيث لا أنتظر أن أعود، فقد أثقلت السنون كاهلى مـــع مرض تعسر البول، الذى لا يجعلنى أستريح ولو للحظة.

وهنا عاد إلى نشيجه كما كان فى الأول، حتى إن سانشو أشفق عليه كثيـــرًا، وأخرج ريالاً من أربعة ريالات يصرها فى حجره، وأعطاها له صدقة.

وتقدم دون كيخوتى وسأل آخر عن جريمته، والذى أجابه ليس بأقـــل مـــن السابق وجاهة بل بأكثر:

- يحملوننى لأننى فسقت مع ابنتى عمى وخدعتهما بزيادة، وفعلت نفس الشيء مع ابنتى عم أناس آخرين؛ باختصار خدعت الجميع خداعًا أدى إلى زيـــادة الذرية بشكل تتعقد فيه الأنساب وتختلط، بما يعجز الشيطان عن الفهـــم . وقد ثبت على الاتهام دون أن يناصرنى أحد ولم تكن معى نقود ورأيت نفسى على حافة حبل المشنقة، وحكموا علىَّ بالسخرة فى الأسطول لستة أعـــوام. واتفقت مع الحكم لأنه عقاب لإثمى، وأنا ما زلت فى شرخ الشباب، والحياة

طويلة، ومع طولها سأطول كل شيء. وإذا كان فخامتكم، أيهـا الفـارس، قادرًا على تقديم النجدة إلى هؤلاء البائسات، فإن الله سيكافئك فى جنـات النعيم، ونحن على الأرض سنحرص فى صلواتنا على التضرع لله من أجـل حياة وصحة فخامتكم، فهيئتكم جديرة بالعمر الطويل والصحة الوافرة.

وكان هذا الشخص الشقى يرتدى ثياب الدارس، وقد وصفه أحـد الحـراس بأنه كان خطيبًا بليغًا مع إجادة اللاتينية رقيقة الحاشية. خلف هؤلاء، جـاء الـدور على رجل حسن المظهر جدًا، فى الثلاثين من عمره، ولا ينقصه إلا أنه عند التطلع تنحرف إحدى عينيه فى اتجاه العين الأخرى قليلاً. وكانت قيوده تختلف عن قيـود الآخرين، لأن بقدميه وجدت سلسلة كبيرة جدًا توشح كل جسمه مـع نيـرين فـى رقبته، أحدهما وصل بالسلسلة والآخر يسمى (حارس الصديق) أو (قدم الـصديق)، تنزل منه قضبان حديد تحزم الخصر، وأخرى تتصل بكلبش، أغلق علـى اليـدين بقفل غليظ، بطريقة تحول بين اليد والوصول إلى الفم، وبين الـرأس وانخفاضـها لتمس اليدين، فسأل دون كيخوتى عن كيف أن هذا الرجل يحمل من القيود الغزيرة أكثر من الآخرين. أجابه الحارس، بأنه يحمل من الجـرائم أكثـر مـن الآخـرين مجتمعين، وأنه جسور جدًا وشرير شهير، فهم مع حملهم له بتلك القيود لا تطمـئن نفوسهم إليه، ويخشون من هربه.

- وأى جرائم يمكن أن يكون قد ارتكبها- قال دون كيخـوتى- مادامـت لا تستحق عقوبة أكثر من الذهاب إلى الأسطول؟

أجاب الحارس:

– إن عقوبته عشر سنين، وهى مثل الموت المدنى، ويكفى أن تعرف أن هذا الرجل الطيب هو الشهير خينيس دى باسامونتى، ويطلقون عليه اسمًا آخر (خينيثُو دى بارابيًا).

قال المجرم:

– أيها الشرطى، تمهل قليلاً، فلسنا بصدد تمييز الأسماء والألقاب على عواهنها: فأنا اسمى خينيس ولست (خينيثيو)، ولقبى باسامونتى وليس (بارابيا)، كما تقول فخامتكم، ولن يكون عملاً قليلاً، أن تنظر إلى نفسك قبل أن تعيب الآخرين.

أجاب الشرطى:

– تكلم بنفخة أقل، أيها اللص المتغطرس، إذا لم ترغب فى إسكاتك بطريقة لن تتحملها.

أجاب الشقى:

– فيما يبدو جيدًا أن المرء تجرى حياته طبقًا لإرادة الله، لكن سيأتى اليوم الذى يعرف فيه أحد الناس عما إذا كنت أسمى أولاً أسمى خينيثيو دى بارابيًا.

قال الحارس:

– إذن، أيها الكذاب، ألا يطلقون عليك هذا الاسم؟

أجاب خينيس:

– نعم، لكنى سأعمل على ألا ينادونى به أو سوف أنتف لحيتى فى مكان لسانى. وأنت أيها الفارس إذا كان لديك ما تعطيه لنا فافعل لنا أو اذهب بسلامة الله، فإنه مما

يغضب حبك الجم لمعرفة حيوات الآخرين، وإذا أردت أن تعرف شيئًا عن حياتى، فأنا خنينيس دى باسامونتى، الذى توجد حياته مكتوبة بإبهام يدى هذه.

قال الشرطى:

– إنه يقول الحقيقة، فهو بنفسه كتب سيرته الذاتية، حتى لم يبق شىء لم يسجله، وقد ترك الكتاب مرهونًا فى السجن مقابل مائتى ريال.

– وأنا أفكر فى فك الرهن ولو كان أضعاف هذا المبلغ.

– هل هو جدير بكل هذا؟

قال خنينيس مجيبًا:

– نعم فقد جعل السنة سوداء لكتاب (لا ثاريو دى ترمس) ولكل ما كتب من هذا النوع من الكتب أو سوف يكتب. والذى أعرف أن أقوله لفخامتكم، إنه يعالج حقائق، وهى حقائق جميلة ورائعة حتى لا توجد أكاذيب(*) تعدلها.

سأل دون كيخوتى:

– وماعنوان الكتاب؟

أجاب:

حياة خنينيس باسامونتى.

سأل دون كيخوتى:

– وهل هو كامل؟

(*) تذكرنا هذه العبارة بالقول العربى "أجمل الكلام أكذبه".

رد الشقى:

– كيف يمكن أن يكون كاملاً، إذا لم تكن حياتى قد اكتملت بعد؟ وإنما كتب فيه تاريخ حياتى منذ ميلادى حتى هذه النقطة التى يحملونني فيها إلى الأسطول مرة أخرى.

قال دون كيخوتى:

– إذا حكم عليك قبل ذلك بالسخرة فى الأسطول؟

أجاب الشقى:

– كى أخدم الرب والملك، كنت هناك مرة أخرى لمدة أربع سنوات، وأعرف طعم البسكويت والسوط، ولا يضايقنى كثيرًا الذهاب إلى هناك، لأنى هناك سأجد الوقت لإكمال كتابى، فقد بقى الكثير لأقوله، ويتمتع أسطول إسبانيا بهدوء أكثر من الحاجة للكتابة، مع عدم حاجتى لهدوء أكثر لما أريد كتابته لحفظى له عن ظهر قلب.

قال دون كيخوتى:

– تبدو كفؤًا!

أجاب خينيس:

– وتعيس الحظ، لأن تعاسة الحظ تطارد العبقرية الرفيعة.

قال الشرطى:

– إنها تطارد الأشرار.

أجاب باسامونتي:

– لقد سبق أن قلت لك، فإنهم لم يسلموك ما بيدك من عصا حتى تسئ بها معاملة البؤساء، الذين هم نحن، وإنما حتى تقودنا حيث يأمر جلالة الملـــك. وإذا لم يكن فبحياة.. ويكفي، أنه من الممكن أن النظافة يمكن أن تزيل البقع الـــتي حدثت في النـــزل، وهنا سوف يصمت الجميع ويعيشون بخير، ويتكلمـــون أفضل، وهيا فلنرحل عن هنا، فإن ما يحدث لنا فيه كثير من الشماتة.

رفع الشرطي العصا لضرب باسامونتي، كرد علـــى تهديداتـــه، لكـــن دون كيخوتي توسطهما، ورجاه ألا يسئ معاملته، فإن من يحمل كل هذه القيـــود، لـــيس غريبًا أن ينطلق لسانه. ثم استدار إلى أصحاب القيود وقال:

– أيها الأخوة الأعزاء لقد استنتجت الخلاصة من كل ما قلتم لي، وهي مع أنهم عاقبوكم بذنوبكم، فإن العقوبات التي سوف تعانون منها لا توافق مزاجكم كثيرًا، وإنكم تسيرون إليها راغبين عنها جدا، وضد إرادتكم، فمن الممكن، انهيار أحدكم أمام التعذيب، أو نقص المال عند هذا، أو انعدام النصير عنـــد ذاك أو سوء التمييز عند القاضي هو سبب ضياعكم وعدم نيلكم ما يتفـــق والعدالة التي تنشدونها. وكل هذا يتمثل أمامي في الذاكرة، حتى إنه يخاطبني ويغريني بل ويجبرني أن أظهر لكم العاطفة التي من أجلها أرسلتني السماء إلى هذه الأرض، وجعلتني أمارس فوقها نظام الفروسية الذي أمارس، والقـــسم الذي صار بالفروسية عهدًا أن أكون في صف المحتاجين والمظلومين ضد مـــن هم أكبر منهم وأقوى. لكن لأنني أعرف أن بعض الفطنة هو أن كل ما يمكن تحقيقه بالطيب لا يجب اغتصابه؛ أعني أنني أود أن التمس من هؤلاء السادة

الحراس، وعلى رأسهم الشرطى رئيسهم بكل تبجيل أن يطلقوا سـراحكم ويتركوكم تذهبون فى سلام، ولن يعدموا وجود آخرين لخدمـة الملـك فى فرص وظروف أفضل، لأنه يبدو لى أمرًا قاسيًا أن يتخذ عبيدًا من جعلتـهم الطبيعة أحرارًا. هذا وبصفة خاصة – أضاف دون كيخـوتى – أن هـؤلاء المساكين لم يرتكبوا شيئًا ضد شخوصكم أيها السادة الحراس. وفى الآخـرة سيجد كل مذنب ما اقترف أمامه، والله فى السماء لا يهمل فى عقاب الشرير أو فى مكافأة الطيبين، وليس طيبًا أن يقوم الرجال الشرفاء بدور الجلاد مـع الرجال الآخرين دون أن يعود عليهم ذلك بعائد. أطلب هذا بكل وداعـة وهدوء، فإن أنجزتم شكرت، وإن لا، وبنفس رضية، فإن هذا الـرمح وذاك السيف، وقوة ساعدى سوف تجبركم على فعله بالقوة.

أجاب الشرطى:

– حماقة بديعة! وكم هى حسنة تلك الطرافة التى تمخضت نهايتها عن فأر، يـود أن نترك رهائن الملك، كما لو كانت لنا سلطة إطلاق سـراحهم أو كمـا كانت لديه سلطة إصدار الأوامر لنا. أمض فخامتكم أيها السيد فى طريقك، ولتهنأ بسيرك فيه، وعدل هذا الطشت الذى فوق رأسك حتى يـستقر، ولا تبحث عن ثلاث أرجل للقط.

قال دون كيخوتى:

– أنتم القط والفأر، والشرير.

ولم ينته من قول ذلك، حتى طعنه بسرعة، فلم يتمكن من الدفاع عن نفـسه، وسقط على الأرض بجروح بليغة بضربة رمح، وقد صار هذا فـى صـالحه لأن

البندقية الوحيدة كانت مع هذا الصريع. باقى الحراس بقوا مشدوهين وجامدين أمام هذا الحدث غير المنتظر، لكن عندما عادوا إلى أنفسهم، وضع الراكب يـده علـى سيفه، والراجل على نباله، وهاجما دون كيخوتى، الذى كان ينتظرهما فى هـدوء. وكان من المؤكد أنه كان سيلقى مصيرًا سيئًا لو أن الأشقياء لم يتحركوا وقـد رأوا الفرصة التى تتاح لهم لنيل حريتهم، فحاولوا تحطيم قيـودهم لاغتنامهـا.وكانـت الفوضى الناجمة عن كسر السلاسل وهجوم الحارسين علـى دون كيخـوتى مـع محاولتهم مهاجمة الأشقياء حتى لا يخرجوا من قيودهم، ومهاجمـة دون كيخـوتى لهما، كافية لعدم تمكينهما من عمل شىء ذى بال. ساعد سانشو من ناحيته فى فـك قيود باسامونتى، وكان أول من تحرر من قيوده داخل الحملة، وقـد هجـم علـى الشرطى الصريع وأخذ منه السيف والبندقية، وبها كان يصوب فى اتجـاه حـارس ويهزها فى اتجاه الآخر، دون أن يطلق رصاصة واحدة، وهكذا لم يبق أى حارس فى أرض المعركة وولوا الفرار. وهنا أصاب سانشو الحـزن، لأنـه تمثـل لـه الهاربون، كما لو كانوا يسرعون لنقل الخبز إلى محكمة الأخوة المقدسة، الخاصـة بجرائم البرارى والقفار، فيخرج هؤلاء، يدقون أجراسهم، بحثًا عن الجناة. قال هذا لسيده، ورجاه بأن ينسحبوا سريعًا من المكان على أن يكمنوا فى السلاسل الجبليـة التى كانت قريبة.

قال دون كيخوتى:

– هذا جيد، لكنى أعرف ما يناسب عمله الآن.

ونادى على كل المجرمين، والذين كانوا صاخبين أثناء تجريدهم الـشرطى الجريح من كل شىء حتى بقى عارى الجلد. تحلقوا حوله لكى يروا بماذا يأمرهم. وخاطبهم هكذا:

– كأى أناس طيبى الأصل عليكم شكر الخير الذى نالكم، وواحد من الآثام التى تغضب الله أكثر هو نكران الجميل. أقول هذا أيها السادة لأنكم رأيتم دون لبس وبالتجربة الناصعة ما نالكم منى من خير، وكرد للجميل، أريد منكم، كما هى إرادتى، أن تحملوا هذه السلسلة التى نزعتها عن أعناقكم، ثم تضعوا أنفسكم فى الطريق وتذهبوا إلى مدينة توبوسو، وهناك تمثلون أمام السيدة دولثينيا دل توبوسو، وتقولون لها إن فارسها صاحب الصورة الحزينة، يرسل إليها التحية، ثم تقصون عليها نقطة نقطة مجريات هذه المغامرة الشهيرة من أولها حتى تحريركم، وعند الانتهاء من ذلك، يمكنكم أن تذهبوا حيث شئتم مع الحظ السعيد.

أجاب نيابة عن الجميع خينيس باسامونتى، وقال:

– ما تأمر به فخامتكم يا سيدنا المحرر، من رابع مستحيلات إنجازه، لأننا لا نستطيع المضى معًا فى الطريق بل كل واحد على حدة منقسمين، وكل واحد وشأنه، محاولين أن نخفى أنفسنا فى أحشاء الأرض، حتى لا تعثر علينا الأخوة المقدسة، والتى سوف تخرج بحثًا عنا دون أدنى شك. والذى تستطيع فخامتكم عمله، ومن العدل أن تعمله، هو استبدال هذه الخدمة والضريبة الخاصة بالسيدة دولثينيا دل توبوسو بكمية محددة من الصلوات والدعوات الطيبات التى سوف نقوم بها وهبة منا لها، ولقصد فخامتكم من أمرنا بذلك، وهذا أمر يمكن إنجازه ليلاً أو نهارًا، أثناء راحتنا، فى السلام أو الحرب، لكن التفكير فى العودة إلى أوانى مصر(*)، أقصد أن نحمل السلسلة، ونتوجه إلى

(*) تعبير توراتى يشير للحياة الطيبة، وهو هنا للسخرية من دون كيخوتى.

طريق دل توبوسو، مثل التفكير فى أننا بالليل رغم أننا لم نتجاوز العاشـــرة صباحًا، أو مثل محاولة جنى الكمثرى من شجرة الدردار.

قال دون كيخوتى وقد غضب:

– إذن أقسم لهذا المدعو (ابن العاهرة) دون خينيثيو دى بـــاروبيو(*)، أو كما شئت أن تسمى أو شاءوا أن يسموك، أنك سوف تذهب وحـــدك، وذيلك بين رجليك، وحاملاً وحدك السلسلة.

باسامونتى، الذى لم يكن يتحمل كثيرًا، وقد أدرك أن دون كيخوتى لم يكـــن عاقلاً، لمثل تلك الحماقة الخاصة بإطلاق سراحهم، ولذا عندما رأى نفـــسه يعامـــل بهذه الطريقة، غمز بعينه لأصحاب الأشقياء، الذين تنحوا جانبًا، وأمطروا بالأحجار دون كيخوتى الذى لم يتمكن من تغطية نفسه وتجنبها، والمسكين روثينانتى لم يأبـــه لمهماز سيده كما لو صار تمثالاً من البرونز. وضع سانشو نفسه خلف حماره، وبه دافع عن نفسه ضد السحابة والأحجار التى كانت تمطر فوقهما. لم يمكـــن لـــدون كيخوتى التدرع حتى لا تصيبه أعداد الحصى، التى لا أعرف أن أحـــصيها، فـــى جسمه وبقوة كبيرة، فأسقطته على الأرض، ولم يكد يسقط حتى هجم عليه الدارس، وخلع الطشت عن رأسه، وضربه به ثلاث ضربات أو أربع على ظهره، ثم ضرب الطشت ضربات متوالية بالأرض حتى تطاير إلى شظايا، ثم نزعوا عنه ثوبًا كـــان يستر أسلحته، ثم أرادوا نزع جواربه، لكن منعهم درع ساقه. ونزعوا عن سانـــشو المعطف، وتركوه عاريًا، وقد تقاسموا فيما بينهم الغنائم التى جمعوها فى المعركة، واتجه كل واحد منهم في طريق، مع كل الحرص للهرب من الأخوة المقدسة، دون

(*) اسمه "بارابيا" حسب ما يطلقه عليه الناس، ومعناه" من أجل السلب والنهب"، وقد حرفه دون كيخوتى إلى "باروبيو" أى البطالة والصعلكة للمزيد من تحقيره.

أن يشغلهم موضوع حمل السلسلة إلى السيدة دولثينيا دل توبوســو. ولــم يبــق إلا الحمار وروثينانتى، ودون كيخوتى وسانشو. والحمار كان خفيض الرأس ومتفكرًا، نافضًا أذنيه بين الحين والحين ظانًا أن عاصفة الحجارة مازالت تهب على أذنيــه، وروثينانتى، الذى وقع أيضًا على الأرض من رمية حجر أخــرى، كــان متمــددًا بجوار سيده، وسانشو فى عريه خائفًا من محكمة الأخوة المقدسة، ودون كيخــوتى شديد الانكسار لما رأى نفسه وما هو عليه من حال سيئ بسبب نفس الذين قدم لهم أعظم الفضل والإحسان.

الفصل الثالث والعشرون

الذى حدث للفارس المشهور دون كيخوتى فى السلاسل الجبلية "سييراموورينا"، والتى كانت واحدة من أندر المغامرات التى تحكى فى هذه القصة الحقيقية

وعندما رأى دون كيخوتى ما هو فيه من سوء قال لخادمه:

– لقد سمعت سانشو دائمًا القول: إن الإحسان إلى المنحطين مثل إلقاء الماء فى البحر. وإذا أنا كنت قد صدقت ما قلته لى، كنت أعفيت نفسى من هذه الكآبة. لكن قد وقع المحظور، فمن الآن فصاعدًا، سوف أستعين بالصبر والاعتبار.

أجاب سانشو:

– سوف تستعين بالاعتبار، حين أصير أنا تركيًا(*)، لكنك تقول إذا كنت قد صدقتنى، كنت قد أعفيت نفسك من الأذى، صدقنى الآن وسوف تعفى من أذى آخر أكبر؛ لأنى أعلمك أنه لا يمكن ممارسة الفروسية مع محكمة الأخوة المقدسة، ولا يساوى عندها الفرسان المشاءون مهما كان عددهم نكلة، ولتعلم أن سهامهم(**) ترن فى مسامعى.

(*) أى عدو لإسبانيا والمسيحية، وهو الدور الذى تصور الناس من أمثال سانشو للإمبراطورية العثمانية.

(**) كانوا يربطون المحكوم عليهم، بالإعدام إلى شجرة ويلهبونهم بالسهام.

قال دون كيخوتى:

- بالطبع أنت جبان، سانشو، ولكن حتى لا تقول عنى بأنى عنيد، وأننى لا أعمل قط بنصائحك، فإننى هذه المرة أحب أن آخذ بنصيحتك، وابتعد عن الجموح الذى تخافه كثيرًا، لكن بشرط ألا تقول قط فى حياتى أو موتى أننى ابتعدت وانسحبت من هذا الخطر بسبب الخوف إنما لرغبتى فى الاستجابة لتوسلاتك، وإذا قلت شيئًا آخر فسوف تكون كاذبًا فيه، ومنذ الآن وحتى تكذب، ومنذ أن تكذب وحتى الآن، سأقول إنك تكذب وستكذب فى كل مرة تقول ذلك أو تفكر فيه. ولا تحاججنى أكثر، لأنه فقط التفكير فى أننى أرحل وانسحب من أى خطر، وخاصة من هذا النوع الذى يتردد بين نعم ولا، وتلوح فيه ظلال الخوف، يجعلنى أمكث وانتظر هنا وحدى، ليس فقط محكمة الأخوة المقدسة التى تتحدث عنها وتخافها بل إننى سوف انتظر أخوة القبائل الإثنى عشرة لإسرائيل، وأخوة مكابيوس السبعة وأخوة كاستور، وأخوة بولوكس، وكل الأخوّة والإخوة التى توجد على سطح الأرض.

أجاب سانشو:

- سيدى، إن الانسحاب ليس هو الهروب، وليس الانتظار هو الفطنة، عندما يكون الخطر أقوى من الأمل، وسلوك الحكماء هو أن ادخر اليوم لغدك، ولا تبدد كل ما تملك فى يوم واحد مخاطرًا. ولتعرف رغم أننى جهول وقروى فإننى حتى الآن لدى شيء مما يسمى حزم الأمور، وهكذا لن تندم على الأخذ بنصيحتى، فقط اصعد على روثينانتى، إذا كنت تستطيع، فإن لا سأساعدك، واتبعنى، فإن فؤادى ينبئنى أننا الآن نحتاج لأقدامنا أكثر من سواعدنا.

ركب دون كيخوتى دون أن يرد عليه بكلمة، وتقدم سانشو فوق حماره ودخلا من إحدى النواحى (لاسييرا مورينا)، مع نية سانشو أن يعبرها كلهـا ليتجـه إلـى (البيسو) أو إلى (المودابار ديل كاميو)، والاختباء هنـاك عـدة أيـام وراء أرضـها الوعرة، حتى لا يمكن العثور عليهما، لو بحثت عنهما محكمة الأخوّة المقدسـة. قـد هرب سانشو من سطو الأشقياء، على مؤونته التى كانت فوق حماره ممـا اعتبـره معجزة وسببًا للبهجة أمام ما كان يبحث عنه هؤلاء من أشياء، وما حملوه من غنائم.

وفى تلك الليلة وصلا إلى منتصف أحشاء جبال لاسييرا مورينا، حيث رأى سانشو المكان المناسب لقضاء تلك الليلة، بل لقضاء عدة أيام أخرى، علـى الأقـل تلك الأيام التى يسمح لهم فيها خزين الطعام بالبقاء، وهكـذا قـضيا ليلتهمـا بـين صخرتين، ملفوفتين بأشجار الفلين. لكن الحظ القاتل، الذى طبقًا لمعتقدات من فقدوا نور الإيمان يقوم بقيادة الناس فى كل شيء بل يطبخ كـل شـيء ويركبـه علـى طريقته، أمر خينيس باسامونتى الكذاب واللص المشهور، صـاحب القيـود التـى تحرر منها بفضل شجاعة دون كيخوتى وجنونه، أن يختبئ فى تلك الجبال محمولاً بالخوف من محكمة الأخوة المقدسة، وحق له كل الحق أن يخاف. وقـد أوصـله حظه وخوفه إلى نفس البقعة حيث استقر دون كيخوتى وسانشو بانثا، وفـى نفـس الساعة والوقت الذى مكنه من التعرف عليهما، فظل على حذر وتركهما ينامـان. وكما أن الأشرار دائمًا ناكرون للجميل، وحاجتهم فوق الواجب، والحاضـر فـوق المستقبل، فإن خينيس الذى لم يكن قط لديه عرفان بالجميل، ولا حسن النية، قـرر أن يسرق حمار سانشو بانثا، بعد أن ودع فكرة سرقة روثينانتى لأنه ثـوب رث لا يصلح للبيع أو للرهن. وهكذا وسانشو مستغرق فى نومه، سلبه حماره، وقبـل أن يظهر نور الصباح كان قد ابتعد مسافة تحول دون العثور عليه.

وانبلج الفجر يبهج الأرض، حاملاً الحزن لسانشو بانثا، لأنه أوحشه حماره البنى اللون، وقد رأى نفسه وحيدًا بدونه، فبدأ العديد الأكثر حزنًا وألمًا فى العالم، وكان هذا العديد صاخبًا حتى أنه أيقظ دون كيخوتى ليسمع ما كان يقول:

- يا ابن بطنى، وسليل بيتى، وحيلة أولادى، وهدية امرأتى، وكيد العذول، ومسلى همومى، وشريكى فى عبء أسرتى، بما كنت أكريك من ستة وعشرين درهمًا مرابطيًا هى نصف الزاد فى الحياة.

دون كيخوتى الذى رأى العديد، وعرف السبب، عزى سانشو بأرق العبارات التى واتته، وطلب منه الصبر والسلوان، واعدًا له بصك للمبادلة، بموجبه يعطيه ثلاثة حمير من الخمسة التى تركها فى بيته.

تعزى سانشو بهذا، ومسح دموعه، وهدأ نشيجه، وشكر دون كيخوتى على تنعمه عليه. وعند دخول دون كيخوتى تلك الأماكن الجبلية سعد قلبه، وقد بدا له أنها أرض المغامرات المنشودة. مركزًا فى الذاكرة الأحداث العجيبة، التى وقعت فى مثل هذه الوحشة والوعورة للفرسان المشائين. ومضى يفكر فى هذه الأشياء منغمسًا فيها وغائبًا عما سواها. وحتى سانشو لم يكن مهمومًا بشيء (بعد أن ظهر له أنه يسير فى أرض آمنة) إلا أن يشبع حاجة بطنه بما بقى من الطعام الذى تبقى من سطوه على قساوسة الجنازة، وعلى هذا الحال سار خلف سيده لاهيًا بإخراج الطعام من صرته حاشيًا به معدته، (وكأنه يمتطى حماره امتطاء النساء)(*) لا يساوى عنده- فيما هو فيه- العثور على مغامرة فلسًا واحدًا.

(*) بأن تجلس المرأة على الدابة مدلية رجليها معًا من جانب معطية ظهرها للجانب الآخر، أى أنها تجلس بعرض الدابة دون طولها.

وهنا رفع عينيه، فوجد سيده واقفًا، محاولاً التقاط، بسن رمحه، لفافة لا أدرى كيف كانت عند رؤيتها على الأرض، ولهذا أسرع لمساعدته إذا كان ذلك ضروريًا، وعندما وصل كان الرمح يحمل حشية وحقيبة ربطت إليها، كلتيهما رثة تالفة بشكل جزئى أو كلى، حتى أنهما فى حالة تفتت، لكنهما ثقيلتا الوزن كثيرًا، حتى إن سانشو اضطر إلى التقاطهما قبل أن يعودا للسقوط على الأرض، وطلب منه سيده أن يرى ماذا تحمل الحقيبة. وفعل ذلك سانشو على عجل، ومع أن الحقيبة كانت مغلقة بسلسلة وقفل، إلا أنه رأى ما بداخلها لتلفها وتمزقها. لقد كانت أربعة قمصان من الحرير الهولندى الرقيق، وملابس أخرى من الكتان لا تقل فخامة ونظافة، وصرة من منديل مربوط بها كوم صغير من الدنانير الذهبية، وعند رؤيتها قال:

– تبارك الله الذى وهبنا مغامرة غانمة.

وبمزيد من البحث، وجد كتابًا صغيرًا عبارة عن مفكرة حسنة التجليد. طلب منه دون كيخوتى أن يحتفظ بالنقود لنفسه. قبل سانشو يده لهذه المنحة التى أنعم بها عليه، وأفرغ ما فى الحقيبة من ملابس ووضعها فى كيس الخزين. وكل هذا يشهده دون كيخوتى، ويقول:

– يبدو لى سانشو (وليس ممكنًا أن يكون شيئًا آخر)، أن أحد السائرين ضل طريقه فى هذه السلاسل الجبلية؛ وأنهم سطوا عليه، ولابد أنهم قتلوه ثم دفنوه هنا فى مكان خفى.

أجاب سانشو:

– لا يمكن أن يكون الأمر كذلك، لأنهم لو كانوا لصوصًا لما تركوا هنا النقود.

قال دون كيخوتى:

- تقول الحق، ولهذا لن أخمن، ولن أفتى فيما يمكن أن يكون هذا، لكن انتظر: لنقرأ فى هذه المفكرة بعض الكتابة التى قد تساعدنا على قص أثر ومعرفة ما نود معرفته.

فتح المفكرة، وأول ما وجده فيها مكتوبًا فى شكل مسودة، مع أنها بخط جميل كان قصيدة، قرأها بصوت يتيح أيضًا لشانسو الاستماع. وقد كانت تقول:

إما أن الحب جهول

أو فى قسوة الغول

وإلا لم تكن آلامي

مثلها مثل لحظة إعدامي

من هذا الجنس الأصلد للعذاب

*

لكن إذا كان الحب الإله، فذلك هراء

لأنه لا يجهل شيئًا، وفى كامل العلم

وإذا كان الإله ليس قاسيًا، إذن من يأمر

بألمى المفزع الذى أقدسه وأحسه

*

وإذا أقول إنما هو أنتِ (فيلى)، فلست أصيب

لأن كل هذا الشر داخل كل الخير غريب

مثل استحالة أن يكون أمر السماء

*

فى العاجل لابد أن أموت، هذا أكيد

لأن الداء الذى يعز معرفة سببه

دواؤه ليس إلا بمعجزة تجده

قال سانشو:

– بهذه الأغنية الواجدة لا يمكن معرفة شيء، إلا إذا استخرجنا من (الفتلة) هنا البكرة.

سأل دون كيخوتى:

– وأى فتلة هنا؟

قال سانشو:

– يبدو لى أن فخامتكم قد ذكرت اسم امرأة (فتلة)[*].

قال دون كيخوتى:

– لم أقل إلا (فيلى)، وهذه دون شك هى السيدة التى يشكو منها السيد كاتب هذه القصيدة، وبحق لابد أن يكون شاعرًا ذا منطق، أو أكون أنا قليل العلم بالصنعة.

(*) سمع سانشو اسم المحبوبة "فيلى" على أنه "فتلة"، و هكذا تكون السخرية!

قال سانشو:

– إذن، أيضًا تفهمون فخامتكم فى الأغانى الوجدانية؟

قال دون كيخوتى:

– وأكثر مما تتخيل، وسوف تراه عندما تحمل خطابًا منى مكتوبًا بالشعر من أعلاه إلى أدناه لتسلمه لسيدتى دولثينيا دل توبوسو. لأنى أود أن تعرف، سانشو، أن جميع أو معظم الفرسان المشائين فى الأزمان الغابرة كانوا شعراء تروبادور كبارًا، كما كانوا من كبار الموسيقيين. لكن الحق يقال إن معظم أشعار الفرسان الغابرين كانت تعتمد على الإحساس أكثر من الصنعة والإتقان.

قال سانشو:

– لتواصل فخامتكم الآن القراءة، فلعلنا نجد شيئًا يرضى فضولنا.

قلب الصفحة دون كيخوتى، وقال:

– هذا يبدو أنه نثر بل خطاب.

سأل سانشو:

– هل خطاب مما يرسل من شخص إلى شخص؟

قال دون كيخوتى:

– فى البداية لا تبدو إلا غراميات.

قال سانشو:

– إذن، اقرأ فخامتكم بصوت عال، فأنا ألتذُّ جدًا بأشياء الحب هذه.

وعند القراءة بصوت عال، كما رجاه سانشو، رأى أنه يقول:

"إن وعدك المزيف، وحظي المنكود سوف يحملانني إلى حيث يصلك خبر موتي قبل همسات شكايتي. لقد هجرتني بسبب من هو أكثر مالاً، وليس بأفضل قدرًا. آه أيتها الناكرة للجميل. ولو كانت الفضيلة هي النقود، لما كنت أغمط سعادة الآخرين، وأبكي تعاستي. وكل ما شيده جمالك هدمته أعمالك. وبهذا الجمال رأيت فيك الملاك، وبهذه الأعمال رأيت فيك المرأة. ولتبقي في سلام يا صانعة حروبي. وحافظي على الدائرة التي تبقي خيانات زوجك مستورة عنك، حتى لا تندمي على ما فعلت، وحتى لا أرتكب أنا انتقامًا من النوع الذي لا أرغب".

وعندما انتهى دون كيخوتي من قراءة الخطاب قال:

– لا يمكن الاستنتاج من هذا أكثر مما استنتج من الأشعار، وهو أنه عاشق مهجور.

وبتصفح كل المفكرة تقريبًا لم يكن هناك أكثر من كتابات نثرية وأخرى شعرية، استطاع أن يقرأ بعضها وعجز عن قراءة بعضها الآخر، لكنها جميعًا ذات محتوى، كان شكوى وأحزانًا، وشكا، وقبولاً وجحودًا، وطاعة وتمردًا بشكل وقور مرة ومنتحب مرة أخرى. وبينما كان دون كيخوتي يتصفح الكتيب كان سانشو يفتش الحقيبة دون أن يترك ركنًا من غير تنقيب وفحص وتطلع، ولم توجد خياطة إلا وفكها، ولا خصلة صوف إلا نتفها، لأن الدنانير الذهب التي تجاوزت المائة أسالت لعابه وجعلته ألا تفوته فائتة أو يفلت منه نظر، لكنه لم يجد شيئًا أكثر، ومع هذا، فقد بارك تقاذفه بالبطانية، وتقيؤه بالبلسم، وتحايا العكاكيز، ولكمات البغّال،

وضياع الخرج، وسرقة حماره الغزل، وكل الجوع والعطش والتعب الذى مر بـه فى خدمة سيده الطيب، وبدا له أنه قد كوفئ أكثر من مكافأة بفضل ما استقبل مـن عطاء اللقية.

وبقى الفارس ذو الوجه الحزين تحدوه رغبة عظيمة فى معرفـة صـاحب الحقيبة، مستنبطًا أنه أحد العشاق النبلاء الذين انتهى غرامهم أسوأ نهايـة موئـسة بسبب كبرياء سيدته وسوء معاملتها، وذلك عندما فكر فى الشعر والخطابات وفـى النقود الذهبية والقمصان الفخيمة. ولم يكن من شخص قادر على الإخبار بشأنه فى هذا المكان المقفز الموحش، ومع ذلك فلم يتخلص من هاجس استمرار البحث عنـه بالسير إلى الأمام فى نفس الطريق الذى يختاره روثينانتى. وكان هذا دائمًـا مـع خيال يقظ للتعثر فى مغامرة لا يعدم وجودها بتلك الأحراش.

وعند قضاء وقت على هذا الحال، رأى فوق إحدى الذرا ما مثل أمام عينيه من رجل يقفز من صخرة إلى صخرة، ومن غصن إلى غصن بخفة غريبة. كـون فى نفسه صورته: كان عاريًا، بلحية سوداء وكثيفة، وشعر غزير ملتف، وقـدمين حافيتين، وساقين بلا أى غطاء أما الفخدان فيغطيهما بعض سروال، فيما يبدو مـن قطيفة شقراء داكنة، لكن كان عبارة عن مزق تكشف عـن لحمـه فـى مواضـع متعددة. كان عارى الرأس، ومع مروره بتلك الخفة المـذكورة إلا أن الفـارس ذا الصورة الحزينة قد استطاع رؤية كل هذه التفاصيل الدقيقة لكن لم يستطع متابعتـه وإن حاول، لأن روثينانتى لم يكن متعودًا على السير فى هـذه الأرض الـوعرة، فضلاً عن كونه بالخلقة قصير الخطو، رابط الجأش. هنا تخيـل دون كيخـوتى أن هذا هو صاحب الحشية والحقيبة، وقرر فى دخيلته البحث عنه، حتى لو عـرف أن عليه السير عامًا للعثور عليه، وهكذا طلب من سانشو أن يدور حول الـذُّرْوَة مـن

ناحية على أن يفعل هو نفس الشيء من ناحية أخرى، فلعلهما يصادفانه بهذا المسعى، رغم اختفاء أثره سريعًا من أمامهما. أجاب سانشو:

– لا أستطيع فعل ذلك، لأننى بانفصالى عن فخامتكم ينضم إلىَّ الخوف، الذى يسطو علىّ بألف جنس من الفزع والرؤى. ولتعلم أن هذا تحذير حتى لا تدعنى من الآن فصاعدًا ابتعد عنكم مسافة إصبع.

قال صاحب الصورة الحزينة:

– سيكون الأمر كذلك، وإنى فى غاية الرضا، لأنك فى داخلك تقدر شجاعتى، التى لن تغيب عنك، ولو غابت عنك روحك. وتعال الآن ورائى متمهلاً بقدر ما تستطيع، وأجعل من عينيك فوانيس، وسوف نلف حول هذه الذروة، فربما نصادف ذلك الرجل الذى رأيناه، والذى ليس غير صاحب لقيتنا.

أما ما أجاب به سانشو:

– من الأفضل كثيرًا عدم البحث عنه؛ لأننا لو وجدناه، وكان صاحب الدنانير فإن واجبى تنازلى عنها له؛ من ثَمّ، فخير من القيام بهذا المسعى غير المجدى، أن أمتلك أنا هذا المال، مع النية الطيبة بإعادته إلى صاحبه إذا ظهر بطريق آخر أقل تطفلاً وإرهاقًا، وربما يتم ذلك فى الوقت الذى أكون قد انتهيت من تبديده، ومن ثم يحررنى الملك من الدين. أجاب دون كيخوتى:

– تخدع نفسك بهذا؛ فلقد وقعنا فى شبهة معرفة صاحب المال، وواجبنا من الآن فصاعدًا البحث عنه وإعادته إليه، وعندما لا نبحث عنه فإن الشبهة القوية بأنه هو، سوف توقعنا تحت طائلة الإدانة كما لو كان هو هو. هكذا، سانشو أيها الصديق، لا يحزنك البحث عنه، بل إن الحزن سوف يفارقنى لو وجدته.

وهنا غمز روثينانتى، وتابعه سانشو كعادته، وعند الدوران حول شطر من القمة الجبلية، وجدا فى نهير بغلة مسرجة ومشدودة العنان ميتة، ونصف مأكولة من الكلاب، ومنقرة من الغربان، مما ثبت فى ذهنيهما أكثر الشبهة فى أن ذلك الفارّ كان صاحب الحقيبة والحشية.

وبينما هم ينظرون، سمعوا صفيرًا، كما لو كان لراع يرعى غنمه، وفجأة، وعلى يسارهما ظهر عدد من الماعز، وخلفها فوق ذروة الجبال المعّاز الذى يرعى بها، وكان رجلاً عجوزًا. نادى عليه دون كيخوتى، وطلب منه الهبوط إليهما. سألهما الرجل ماذا حملهما إلى هذا المكان الذى قل ما تطأه غير أقدام الماعز أو الذئاب أو الوحوش الأخرى. أجابه سانشو بأن ينزل وسوف يقصان عليه ما يرضى تطلعه. هبط المعّاز، وعند وصوله إلى حيث كان دون كيخوتى، قال:

– أراهن على أنكما تنظران إلى بغلة الكراء هذه، الميتة فى هذه الهوة. صدقانى أنها هنا على حالها منذ ستة شهور. أخبرانى، هل صادفكما صاحبها؟

أجاب دون كيخوتى:

– لم يصادفنا أحد، إنما فقط حشية وحقيبة، وجدناهما بعيدًا عن هذا المكان.

أجاب المعّاز:

– هذا نفس ما وجدته أيضًا، ولم أود قط مسهما أو الوصول إليهما، خوفًا من شؤمهما أو اتهامى بالسرقة، لأن الشيطان بارع، ويضع تحت قدمى الرجل سبب عثرته وسقوطه، دون أن يدرى كيف كان أو لم يكن.

أجاب سانشو:

– هذا نفس ما أقول به، فقد وجدتهما أنا أيضًا، ولم أحب الاقتراب منهما ولــو على مرمى حجر، وهناك تركتهما كما هما، وهما الآن هناك كما كانتا، فلا أرغب فى كلب بجلاجل(*).

قال دون كيخوتى:

– قل لى أيها الرجل الطيب، هل تعرف من صاحب هذه الأشياء؟

أجاب راعى الماعز:

ما يدخل ضمن ما أعرفه، أنه منذ ستة شهور تقريبًا، وصــل إلـى إحـدى حظائر الرعاة على بعد ثلاثة فراسخ من هنا، فتى ذو هيئة مليحة، وطلعــة بهيــة، راكبًا فوق نفس البغلة الميتة فى هذا المكان، ومعه نفس الحشية والحقيبــة، التــى تقول إنك وجدتها ولم تمسسها. وسألنا عن الجزء من هذه الجبال الأكثــر وعــورة وامتناعًا، وقلنا له إنه هذا الجزء حيث نقف الآن، وهذا حق لأنكما لو دخلتما نصف فرسخ إلى الأمام، فربما تعجزان عن الخروج، لأنه لايوجد طريق أو مدق يحمــل إلى ذلك المكان. وأقول إن الشاب بمجرد سماع إجابتنا لوى عنان بغلته وصار إلى حيث أشرنا عليه، تاركًا لنا جميعًا سعداء بهيئته، متعجبين من طلبه، ومن الــسرعة التى رأيناه ينصرف بها عنا إلى الجبل؛ ومنذ ذلك الحين لم نره قط، حتى حدث منذ أيام أنه خرج إلى طريق أحد زملائنا الرعاة، ودون كلمة وصل إليه، وضربه عددًا كبيرًا من اللكمات والركلات، وبعدها ذهب إلى حمارة خزينه وأتى على حملها من الخبز والجبن، وفى خفة غريبة عاد إلى الكمون فى الجبل. وعندما علمنــا ذلــك–

(*) لا أحب أن أوقع نفسى فى خطأ، أو تحت طائلة القانون.

نحن بعض الرعاة- خرجنا للبحث عنه يومين فى الجبل حيث أكثر جوانبه امتناعًا، وفى النهاية وجدناه مختبئًا فى تجويف بجذع شجرة غليظ وقوى. خرج إلينا بكل ألفة، والثياب منه ممزقة، والوجه لوحته الشمس وأمحت معالمه، ولم نكد نعرفه إلا بالملابس التى رغم تمزقها إنما هى نفس الملابس التى سبق وحدثتكم عنها، ومن ثم فهمنا أنه من عنه نبحث. قمنا بتحيته بأدب، وحكى لنا بعبارات بليغة عن أننا لا ينبغى أن نندهش من حاله، لأن هذا يناسبه لممارسة نوع من التوبة التى فرضتها عليه ذنوب اقترفها. رجوناه أن يقول لنا من هو، لكنا لم نفز بجواب. وقلنا له إنه عندما يحتاج إلى غذاء، فقط عليه أن يخبرنا كيف نعثر عليه، وسوف نحمله إليه بكل حب واهتمام، وإذا رغب فى الخروج لحمله بنفسه فليفعل، دون حاجة لاغتصابه من الرعاة. شكر لنا عرضنا، وطلب الغفران عن كل سطو مضى، ووافق على الخروج لطلب الغذاء من الآن فصاعدًا بالطواعية دون غصب أحد أو مضايقته. وفيما يتعلق بعيشه، ومكانه، قال إنه حيث تهب رياح الصدفة ينام كلما أدركه ليل، وأنهى حديثه بانتحاب حنون، جعلنا من كنا نسمعه نصاحبه البكاء حتى لو كنا من حجر، فى اعتبار بين حاله عندما رأيناه أول مرة وحاله عند رؤيته آنذاك. لأنه كما سبق القول، كان فتى مليحًا ولطيفًا، وفى عباراته المهذبة والبليغة يبدو أصله الكريم، حتى أنه مثل رجال البلاط لو قارناه بخشونتنا، لدرجة أن لطفه كان يكشف عن مدى تلك الخشونة. وعندما كان فى أفضل لحظات حديثه معنا، توقف وخرس لسانه، وغرس نظراته فى الأرض برهة طويلة، بينما بقينا فى ترقب معلقين به، فى انتظار ما ينتهى إليه هذا الشرود، بأسف ليس بالقليل، لما كان يصدر منه، من انشداه العيون وتثبيت النظرة فى الأرض دون أن يحرك رمشًا لوقت طويل، ومن إغلاقه لها مرات أخرى مع ضم الشفتين بقوة، وتقويس الحاجبين، حيث فهمنا أن نوبة من الجنون كانت قد اجتاحته. لكنه أكد صحة ما فكرنا فيه عندما رفع رأسه فى حمية شديدة، وألقى بنفسه مهاجمًا أقرب شخص منا

إليه، بكل عنف وغيظ، وإذا لم نكن فرقناهما لقتله باللكم والعض، حيث كان يفعــل ذلك قائلاً: "آه، فرناندو أيها المخنث! هنا، هنا، سوف تدفع لي ما صنعت يداك من سوء، وهاتان اليدان سوف ينزعان قلبك، حيث تستقر وتلجأ كل أنواع الشرور معًا، وبخاصة الغش والخداع! وإلى هذا أضاف عبارات أخرى كلها تصب فــي تقريــع ذلك المدعو فرناندو، ووصمه بالخنوثة والخيانة. وعند تخليص زميلنا، فــي جهــد جهيد، دون أن ينطق بكلمة ابتعد عنه، واختفى جاريًا مــا بــين هــذه الأحــراش والأشجار المتشابكة، واستحال علينا متابعته. ومن هذا علمنا أن الجنون يأتيه فــي نوبات، وأن شخصًا يسمى فرناندو قد أساء إليه، إساءة ثقيلة الوطأة لما حملته إليــه من مثل هذه النهاية. وكل هذا تأكد مرات عديدة حيث كان يخرج إلى الطريق، إلى الرعاة يقدمون له ما يطلب من طعام، إلا إنه في مرات عديدة كــان ينالــه مــنهم بالقوة، لأنه في نوبة الجنون لا يسمح لهم بتقديم الطعام لــه بكــل الرضــا، بــل باللكمات، وعندما يكون في حالة التعقل يطلبه بكل الأدب والامتنان، ويقدم غزيــر الشكر، وربما غزير الدموع. وفي الحقيقة، أقول لكمــا أيهــا الــسيدان- واصــل الراعي-، أنه بالأمس قررت أنا وأربعة من الشبان، اثنان منهمــا خادمــان لــي، والاثنان الآخران صديقان، البحث عنه حتى نجده، وعندما نجده نحمله بالرضــا أو بالقوة إلى مدينة المدبر، على بعد ثمانية فراسخ من هنا، وهناك نقوم بعلاجــه، إذا كان لمرضه علاج، ومعرفة حال تعقله عما إذا كان له أهل فنخبرهم بمأساته. هذا هو أيها السيدان ما أعرفه ردًا على سؤالكما، واعلما أن صــاحب الأشــياء التــي وجدتما هو نفس الشخص الذي رأيتماه يمر هنا في خفة عاريا (سبق أن أبلغه دون كيخوتي كيف رأى رجلاً يقفز بين صخور القمة الجبلية بخفة عاريًا).

وقد بقي دون كيخوتي مذهولاً مما سمع من المعــاز، وزادت رغبتــه فــي معرفة من كان هذا المجنون التعيس، وقرر في دخيلته ما كان مقررًا فيها من قبل، وهو البحث عنه في كل الجبل دون أن يترك ركنًا أو كهفًا دون النظر فيــه حتــي

يجده. لكن الحظ حقق له أفضل مما كان قد فكر فيه أو انتظره، لأنه في نفس تلك اللحظة ظهر من أحد شقوق تل الفتى، قادمًا إلى حيث كانوا، متكلمًا إلى نفسه بأشياء لم تكن مفهومة لهم عن قرب بأكثر منها عن بعد. وثيابه مثلما رسمها الراعى، فقط عندما اقترب، رأى دون كيخوتى قميصًا جلديًا ممزقًا مدبوغًا بالعنبر، مما أدى به إلى الفهم أن مثل هذه الثياب لا يرتديها من كان هملاً بلا أصل.

وعند وصول الفتى حياهم بصوت أجش مبحوح، لكن بأدب جم. رد عليه دون كيخوتى التحية ليس بأقل رهافة، ونزل من على روثينانتى بطريقة لطيفة ومتهللة ومضى يحتضنه وبقى ضامًا له إليه برهة طويلة بين ذراعيه، كما لو كان صديقًا قديمًا. والآخر، والذى يمكن أن نسميه (الكسير ذو الصورة الحسيرة) مثلما أن دون كيخوتى (ذا الصورة الحزينة) بعد أن ترك نفسه لأحضان دون كيخوتى، أبعده قليلاً عنه، وواضعًا يديه على كتفى دون كيخوتى، نظر إليه مليًا كما لو كان يود أن يرى إذا كان يعرفه، دون أن يكون مندهشًا من رؤية هيئة وصورة وسلاح دون كيخوتى، أقل من دهشة دون كيخوتى لرؤيته. باختصار، الأول الذى تكلم بعد الاحتضان كان (الكسير) وقال ما سيقال فيما يأتى من مقال.

الفصل الرابع والعشرون

حيث تتوالى مغامرة "لاسييرا مورينا"

تقول القصة إن إنصات دون كيخوتى كان عظيمًا عند استماعه إلى فـــارس الجبل لابس الأسمال، والذى واصل ما كان يقوله بقوله:

- سيدى، كن من تكون، فأنا لا أعرفك، لكنى أشكر لك الحفاوة والأدب الذى منك لقيتِ، وكنت أود أن أكون فى حال تمكننى من أن أقابل ما قدمتموه لى من ترحاب بأفضل الجزاء، لكن حظى لم يرد أن يمنحنى مـــا أجـــازى بـــه الإحسان أكثر من طيب المنى والرجاء.

أجاب دون كيخوتى:

- كل ما آمل هو خدمتكم بما أملك، وقد كنت قد قررت ألا أغادر هذه الجبال حتى ألقاكم، ومعرفة هل الألم الذى تبديه غرابة حياتكم له دواء؟ وإذا كان ممكنًا البحث عن هذا الدواء، بحثت عنه ما وسعنى. وعندما تكون تعاستكم من النوع المقفل الأبواب أمام كل جنس من الـــسلوى، فـــإننى أفكـــر فى مساعدتك بأن أبكى من أجلها وانتحب بأفضل ما أستطيع، وحتى الآن فإن عزاء بعض التعاسة أن تجد من يألم بها. وإذا كان طيب محاولتى يستحق بعض الوفاء له بالشكر باعتباره نوعًا من السلوك المهذب، فإنى أتوسل إليك أيهـــا السيد، بحق ما أراه فيكم من تهذيب كثير، ومع التوسل استحلفكم بالشىء الذى أحببته أكثر من حياتك أو مازلت تحبه أن تقول لى من أنت؟ وما سبب

دفعكم للحضور للعيش وللموت فى هذه الوحشة مثل حيوان برى، ومن ثم سوف تموت بين هذه الحيوانات بعيدًا عن حقيقتك التى تكشف عنها ملابسك، وشخصك؟ وأقسم- أضاف دون كيخوتى- بتعاليم الفروسية التى لقنت، مع عدم جدارتى وإثمى، وبحق عهد الفارس المشاء، إذا ما أسعدتمونى بخدمتكم بالسلاح الذى إليه تنتمى كينونتى، فإننى إما أن أعالج تعاستكم إذا كان لها علاج أو أساعدكم بالبكاء كما وعدتكم.

(فارس الغابة) الذى استمع بهذا الشكل كلام فارس الصورة الحزينة لم يفعل أكثر من النظر إليه ثم إعادة النظر إليه، ثم العودة إلى النظر تصعيدًا وهبوطًا، وبعد أن أحسن النظر إليه قال:

- إذا كان لديكم ما تعطونه لى لآكل (حبًا فى الله) فافعلوا، وبعد أن آكل سأفعل كل ما تطلب، اعترافًا بهذه الرغبات الودية التى أظهرتموها جميعًا لى.

وهنا، أخرج سانشو من صرته، والمعّاز من جعبته، ما به أشبع (الكسير) جوعه، أكل ما أعطوه له مثل شخص أصابه الخبل، مسرعًا حتى إن كل لقمة لم تكن تترك وقتًا أو مكانًا للأخرى، فقبل أن يمضغ يبتلع، وأثناء طعامه لم ينطق - هو ومن يحيطون به ينظرون - كلمة واحدة، وبعد أن انتهى من الأكل أشار عليهم أن يتبعوه، ففعلوا، وحملهم إلى مرج صغير أخضر بعد أن داروا حول صخرة منحرفة عن المكان الذى كانوا فيه قليلاً. وعند إدراكهم له استلقى على الحشائش، وكلهم فعلوا مثل ما فعل، كل هذا دون أن يتكلم أحد، وعندما استقر (الكسير) فى مقعده قال:

- إذا أحببتم أن أقول لكم فى عبارات قصيرة، أيها السادة، هول تعاستى، فعليكم أن تعدونى بألا تقاطعونى بأى سؤال أو أى شيء آخر حيث ينقطع خيط قصتى بذلك عند النقطة التى توقفون عندها.

هذه العبارات من (الكسير) أعادت إلى ذاكرة دون كيخوتى (الحدوتة) التى حكاها له تابعه، التى عندما لم يصب فى عد الماعز التى عبرت النهر، توقفت القصة وصارت معلقة عند هذه النقطة. لكن لنعد إلى (الكسير) الذى واصل الكلام:

- هذا الاحتياط الذى أطلبه لأنى أود أن أمر بالقصة بشكل مختصر، لأنها قصة تعاستى التى يؤدى استحضارى لها عبر الذاكرة إلى عدم إفادتى بشيء سوى إضافة تعاسات جديدة، وبينما لا تسألوننى أنتهى منها أسرع، وبالطبع لن أترك قص أى فصل منها أو تفصيلة تهم فى إشباع كامل رغبتكم فيما تودون معرفته.

وعده دون كيخوتى بذلك نيابة عن نفسه وعن الجميع، وهو بهذا التأكيد انبرى يحكى ويقول:

- اسمى كاردينيو، وموطنى مدينة من أحسن مدن الأندلس، ونسبى نبيل، وأبوىّ غنيان، وتعاستى أغنى، وكان على أبوىّ وسلسال أجدادى أن يبكوها، فلم يستطع التخفيف منها ثراؤهم، فشفاء تعاسات القدر يعز على كل ثروات الأرض. وكان يعيش على نفس هذه الأرض سماء هى القدر نفسه، وقد وضعت كل حبى فى هذه السماء مجدًا به أصبت كل ما أصبو إليه. تلك السماء هى حسن (لوسيندا)، فتاة نبيلة لكنها ليست غنية مثلى، لكنها أكثر حظًا وأقل ثباتًا مما خيله لى تفكيرى، أحببت (لوسيندا) هذه، وأغرمت بها وعبدتها منذ صباى الغض وسنوات عمرى الأولى، وهى أحبتنى بكل تلك السلاسة والروح الحلوة التى كانت تسمح بها سنواتها القليلة. أسرتانا علمتا بغرامنا، ولم يضايق أحدًا منهما، لأنهما رأيا أنه مع تقدم الأيام حبٌ ليس له

نهاية إلا زواجنا، الأمر الذى تدعمه المساواة بيننا حسبًا ومالاً. وكبر العمـــر ومعه الحب فيما بيننا، حتى إن والد (لوسيندا) من باب الاحترام المفهوم بات مضطرًا إلى منعى من دخول بيته، محاكيًا فى ذلك والدى تلك الفتاة المدعوة (تسبى) التى تغنى بها الشعراء. وكان هذا المنع مثل إضافة شعلة إلى شـــعلة، وخلط رغبة برغبة، لأنه إذا كان قد فرض الصمت على اللسان، فلم يفعل ذلك مع القلم، الذى يملك من الحرية ما لاتملك الألسنة من حـــسن تعـــبير وإفهام عما هو حبيس فى سجن الروح، ففى كثير من الأحيان يؤدى حضور المحبوب إلى إخراس ما نود قوله وما عزمنا بقوة على التعبير عنه، مهما كان اللسان شديد الجرأة والبسالة. أى، أيتها السموات، كم من الأوراق كتبت لها! كم من الأغانى ألفت ومن الأشعار العاشقة! وكم استقبلت منها الجواب الرقيق الشريف! حيث كانت النفس تعلن وتنقل مشاعرها، وترسم رغباتها المشتعلة، وتسرى عن ذاكرتها، وتجمُّ إرادتها! وبالفعل، عند رؤيـــة نفـــسى ولهانًا، وأن روحى تذوى وتستهلك بالرغبة فى رؤيتها، قـــررت أن أضـــع موضع التنفيذ، ووضع حد فاصل بعمل ما بدا لى أنه أنسب، وهـــو طلـــب يدها من أبيها كى أخرج بجائزتى المشتهاة، والتى أستحقها بنيـــل المحبوبـــة بوصفها زوجة شرعية. وقد فعلت، فأجابنى أبوها بأنه يشكر لى إرادتـــى فى تشريفه، برغبتى فى نيل أكثر ما يملكه ثمانة، لكن لكون والدى حيًّا، فحقـــه العادل أن يقوم هو بطلب يدها لى، لأن الأمر إذا لم يتم بكل الرضا وكامل الإرادة، فإن لوسيندا ليست المرأة التى تسلب فى الظلام، وإن أبى سيفعل ما أطلبه منه، وبهذا القصد، وفى نفس اللحظة توجهت إلى أبى لكى أعبر له عن رغبتى، وعند لحظة دخولى غرفته حيث كان، رأيته وفى يده خطاب مفتـــوح

سلمه لى قبل أن أنطق بكلمة وقال: "فى هذا الخطاب، كاردينيو، سوف ترى ما يود الدوق ريكاردو من الإنعام به عليك". هذا الدوق ريكاردو، أيها السادة، والذى لابد أنكم تعرفونه، هو أحد كبراء إسبانيا، وله ولايته فى أفضل إقطاعات الأندلس. التقطت الخطاب وقرأته، وكان باهظ الثمن، حتى بدا لى أنه من الشرور أن يسمح أبى بإنجاز ما جاء فيه من طلب، وهو إرسالى إلى مقر الدوق، لأنه يود أن أكون رفيقًا، لا خادمًا، لابنه الأكبر، وأنه قد أخذ على عاتقه أن يضعنى الموضع الذى يتناسب مع تقديره الذى يكنه لشخصى. قرأت الخطاب، وأصابنى خرس أثناء قراءتى له، وازداد هذا الحال عندما سمعت أبى يقول لى: "من الآن وحتى مرور يومين سوف ترحل، كاردينيو، استجابة لإرادة الدوق، وأشكر الله بأن فتح عليك الطريق إلى بلوغ ما أرى أنك تستحقه". وأضاف إلى هذا من الأسباب التى يطلقها أب نصوح، وحانت ساعة رحيلى، وكلمت (لوسيندا) فى إحدى تلك الليالى، وحكيت لها كل ما كان يجرى، ونفس الشيء فعلته مع أبيها، وتوسلت إليه أن يتريث عددًا من الأيام، وأن يؤجل اتخاذ قرار فيما يتعلق بزواج ابنته حتى أعرف ماذا يريد ريكاردو، ووعدنى الأب بأن يفعل، أما هى فقد أكدت وعد أبيها بألف أيمان، وألف شهقة إغماء. ووصلت إلى مقر الدوق. قوبلت أفضل مقابلة، وعوملت أجمل معاملة، وبالطبع بدأ الحسد يمارس صنعته، فقد أسرَّ حسدهم ضدى الخدم القدماء، وقد بدا لهم أن الدلائل على أن الدوق سوف يفضلنى عليهم، سوف تضرُّ بهم، لكن الذى سر بقدومى كان الابن الثانى للدوق، واسمه فرناندو، وهو صبى مرح، ورجل لطيف، وفى وقت قصير أحب أن أكون صديقه الأقرب، شيء كان يعلنه على الجميع، ومع أن

الابن الأكبر أحبنى كثيرًا، وغمرنى بفضله، فإنه لم يصل إلى المدى الذى وصل إليه دون فرناندو فى حبه لى ومعاملتى. من ثمّ، وكما يحدث بين الأصدقاء لا يوجد سر، دون أن يسر، وبالتالى فإن الخصوصيات بينى وبين دون فرناندو لم تعد معه خصوصيات لكونه صديقًا، ومن ثمّ كان يصارحنى بكـــل أفكـــاره وخواطره، وخاصة ما تعلق بشأن عشقه الذى كان يقلقه. كان يحب كـــثيرًا إحدى الفلاحات، من أتباع أبيه، وأبواها كانا فاحشَى الثراء، وكانت وافرة الجمال، والعفة، والكياسة، ولا أحد ممن يعرفونها يمكن أن يحدد فى أى هذه الصفات كانت أكمل، وأيها يفوق الأخرى فى الامتياز. هذه الأخلاقيـــات للفلاحة قللت من رغائب دون فرناندو فيها إلى أقصى حد، لكنه قرر حـــتى يقهر عفتها ويغزوها رغم فطنتها أن يعدها بالزواج، لأن سلوك أى طريقـــة أخرى معها كان مستحيلاً. وهكذا مدفوعًا بصداقتى له، حاولت أن أعوقـــه وأبعده عن مثل هذه الفعلة، وقد استخدمت أفضل الأسانيد والحجاج الـــتى عرفتها، وسقت كل الأمثلة التى أمكنتنى، لكنى رأيت أنه لا يرعوى، فقررت أن أنقل القصة إلى الدوق ريكاردو أبيه، لكن فرناندو، بوصفه شابًا لئيمًـــا وكيسًا، ارعوى وخشى من هذا، لأنه رأى أننى كنت مجبرًا بوصفى خادمًـــا أمينًا ألا أترك شيئًا قد يضر بشرف سيدى الدوق مستورًا، وهكـــذا حـــتى يصرف نظرى ويخدعنى، قال لى إنه لا يجد علاجًا أفضل لنسيان هذا الجمال سوى الغياب بعيدًا عنه لبعض الشهور، وأحب أن يحقق ذلك بأن أصحبه إلى بيت والدى، بحجة نسوقها إلى الدوق، وهى أننا نذهب لرؤية وشراء بعض الخيول الكريمة التى توجد فى مدينتى، وهى أمهات لأفضل خيول العالم. وما إن سمعت منه ذلك حتى تحركت عواطفى، ووافقت ولو كان قـــراره لـــيس

مخلصًا، وكان السبب فى ذلك فكرة صائبة فى حل مشاكلى، وهـــى إتاحـــة الفرصة لى لرؤية (لوسيندا). ومع هذا التفكير وتلك الرغبة، وافقت علـــى وجهة نظره، طالبًا منه أن يضعها موضع التنفيذ فى أقرب وقت ممكن، لأنـــه بالفعل يقوم الغياب بممارسة صنعته، حتى فى مواجهة أعتى الأفكار رسوخًا. وكان عندما جاء ليخبرنى بشأنه كان قد تمتع بالفلاحة تحت اســم الـــزوج المنتظر، وكان يتوقع كشف أمره، خائفًا يترقب، خاصة مما ســيفعله أبـــوه الدوق عندما يعرف بهذه النذالة. وحدث أنه، كما إن الحب بين الـــصبيان ليس إلا اشتهاء، فليس له من نهاية إلا اللذة، التى بتحققها ينتهى كل شـــىء (ولابد أن يتراجع ذلك الشىء الذى كان يبدو حبًّا لأنـــه لا يـــستطيع أن يتجاوز الحد الذى وضعته الطبيعة،التى لم تضع حدًا للحب الحقيقى)، أريـــد القول كما أن دون فرناندو وقد انتهى من تحقيق لذته مع الفلاحـــة، فقـــد خمدت رغائبه، وابتردت حميته، وإذا كان فى الأول افتعل فكرة الرحيل حتى يشفى منها، فهو الآن حقًّا يرحل حتى لا يفى بهـــا. منحـــه الـــدوق الإذن، وأرسلنى فى صحبته. ووصلنا إلى مدينتى واستقبله أبى بما يجـــب، وحينـــذاك رأيت (لوسيندا)، وعادت للحياة (مع أنها لم تمت ولم تذبل) رغائبى، والـــتى أعلمت بها دون فرناندو، وذلك من أجل سوء مصيرى، حيث بدا لى طبقًـــا لقانون الصداقة الذى كان يدلل عليه، أنه لا ينبغى على أن أخفى عنه شيئًا. امتدحت أمامه جمال وملاحة وفطنة (لوسيندا)، حتى إن مدائحى حركت فيه الرغبة لرؤية صبية تتزين بمثل هذه الصفات، وحققت له رغبته لسوء حظى، عندما أريتها له فى إحدى الليالى، على ضوء شمعة من إحدى النوافذ، الـــتى تعودنا نحن الاثنان عندها على اللقاء والكلام معًا، رآها فى قميص نومهـــا،

فانطفأ بجمالها كل جمال رآه من قبل أن يراها. خرس، فقد عقلـه، وبقـي مأخوذًا، وأخيرًا شديد العشق، مما سوف ترون فيما سأحكيه لكم عن تعاستى، وحتى أشعل أكثر رغبته (التى عنى أخفاها، وإن كانت السماء وحدها تراها) شاء الحظ أن يجد فى أحد الأيام بطاقة منها تطلب منى أن أطلب يدها من أبيها، وفى حيطة وشرف وعشق، قال لى عند قراءتها، إن فى (لوسيندا) واحدة توجد كل اللطائف للجمال والذكاء التى تتوزع بين كل النساء وتبقى فيها مجتمعة. ولأقول الحقيقة، فإننى عندما سمعت اسم (لوسيندا) مثنى عليه من فم دون فرناندو، أثقل علىَّ ذلك السماع، وبدأت أخاف وأغار منه، لأنه لم تكن تمر لحظة دون أن يعبر عن رغبته فى أن نتكلم عن (لوسيندا)، وكان هو الذى يحفز الحوار حولها، ولو كان ذلك غصبًا، الأمر الذى أيقظ فى نفسى لا أدرى كم من الغيرة، ولم يكن ذلك لخوف منى من انقلاب (لوسيندا) ضدى فى عطائها وحبها، ولكن شاء حظى أن أخشى مما كان موضع ثقتى. حاول دون فرناندو أن يقرأ الأوراق التى كانت ترسلها لى (لوسيندا)، والتى أرسلها إليها ثم التى تجيب بها على هذه، بحجة أن حكمتنا كانت تعجبه جدا. وحدث حينذاك أن طلبت منى (لوسيندا) كتاب فروسية لتقرأه، لأنها كانت شديدة الإعجاب به، وهو كتاب أماديس دى جاولا.

لم يكد يطرق مسامع دون كيخوتى اسم كتاب فروسية إلا انبرى يقول:

– لو كان فخامتكم قال لى فى البداية إن فخامة السيدة (لوسيندا) كانت تهوى كتب الفروسية، لما احتجت إلى المبالغة فى وصف سمو إدراكها، وإذا كانت

تنقصها القدرة على تذوق مثل هذه الأسطورة اللذيذة لأماديس، لما حظيت بمثل هذه الروعة التى رسمت -سيدي- بها صورتها. ولهذا، فإنه بالنسبة لى لا حاجة بك إلى استلهام كلمات أكثر كى تعلن لى عن حسنها وشجاعتها وذكائها، وفقط لمعرفتى بهوايتها هذه، أضمن لك أنها أجمل وأفطن امرأة فى الدنيا. وأنا كنت أود من فخامتكم لو أرسلتم، مع كتاب أماديس دى جاولا، الكتاب الممتاز (روجيل دى اليونان)، والذى أعرف أنه كان سيعجب السيدة (لوسيندا) جدا حين قراءتها فيه عن (دورايدا) و(جاريا) وعن كياسة الراعى (دارينيل)، وأشعاره المعجبة من قصائد رعوية هو من كان يغنيها ويمسرحها بكل رهافة وذكاء واندماج. لكن سوف يأتى زمن يصلح هذا النقص عندما توافقون فخامتكم على مصاحبتى إلى قريتى، حيث يمكننى أن أعطيكم ثلاثمائة كتاب، وهى هدية الروح والسلوى لحياتى، وإن كنت أعرف فى داخلى أننى لا أملك واحدًا منها الآن بفضل عمل سحرة حاقدين أشرار. وسامحنى فخامتكم لخرقنا ما وعدنا من عدم مقاطعتكم، حيث عند سماعى شيئًا عن الفروسية والفرسان المشائين، فليس فى يدى تجنب الحديث عنهم، كما لا تستطيع أشعة الشمس تجنب تدفئة الكون، وأشعة القمر ترطيبه. إذن، عفوًا، ولتواصل، فهذا هو المهم الآن.

وخلال كلام دون كيخوتى، سقطت رأس كاردينيو على صدره، معطيًا من الإشارات ما يدل على أنه كان مستغرقًا فى التفكير. ورغم أن دون كيخوتى قد طلب منه مرتين أن يواصل الحكاية، لم يرفع رأسه عن صدره، ولم يجب بكلمة. لكن بعد برهة طالت رفعها وقال:

- لا أستطيع أن أنزع من تفكيرى، ولن ينـــزعه أحد فى العالم من رأسى، ولــن يوجد من يقنعنى بشيء آخر، وسيصبح أحمق من يحاول أن يجعلنى أفهــم أو أعتقد العكس من أن عهر المايسترو الخبيث (إليسابات) قد حــول الملكــة (ماداسيما) إلى خليلة له.

أجاب دون كيخوتى فى غضب شديد:

- أقسم بأغلظ الأيمان (وقاذفًا بالكلام كعادته) تلك فرية كــبرى، أو إفــك، وبعبارة أفضل: الملكة (ماداسيما) كانت سيدة عظيمة، وليس من الممكــن إدعاء أن مثل هذه الأميرة السامية تجعل من مثل هذا الجراح الجزار خليلاً، ومن يفهم العكس يكذب مثل كل السفلة الشريرين، وأنا سوف أجعلــه لا يرعوى، على القدم أو على الجواد، مسلحًا أو غير مسلح، ليلاً أو نهــارًا، كما يشاء أن أبارزه.

كان ينظر إليه كاردينيو بكل انتباه، وخلال ذلك كان قد أصابه دور الجنون، ولم يكن قادرًا على مواصلة حكايته، ومثله دون كيخوتى على الاستماع له بعــد أن قال ماقاله عن (ماداسيما) مما كدره وأغضبه. ما أعجب تلك الحال! لقد ثــار مــن أجلها كما لو كانت سيدته حقا، وأصلاً: هكذا سيطرت عليه كتبه التى حُكِمَ عليهــا بالكفر. وأقول، حيث إن كاردينيو كان مجنونًا، وسمع عن نفسه كذاب وسافل مــع إهانات مشابهة، بدا له أن السخرية كانت جارحة، ورفع حجرًا وجده بجانبه، وقذف به فى صدر دون كيخوتى فى ضربة قاصمة ألقت به على ظهره. سانــشو بانثــا، عند رؤيته ما جرى لسيده هاجم المجنون بقبضة يده، واستقبله (الكسير) بلكمة ألقت به على الأرض مخلوعًا من قدميه. وحاول المعّاز أن يدافع عنه، فجرى لــه مــا جرى لهما. وبعد أن تركهم جميعًا مغلوبين مطحونين، غادرهم، ومضى فى هدوء

رائق إلى الكمون فى الجبال. نهض سانشو، وبكل الغيظ من رؤية نفسه معاقبًا دون استحقاق للعقاب، هرع إلى الانتقام من المعَّاز، قائلاً له إنه يحمل الوزر، لأنه لم يحذرهما من أن ذلك الرجل يأخذه الجنون على حين غرة بين الحين والحين، فلو عرفا ذلك، لكانا احتاطا للأمر. وأجاب المعَّاز بأنه سبق وأن حذرهما حينما ذكر الأمر، وإنه إذا لم يكن سمع ما قاله المعَّاز حول هذا الشأن، فليس ذنبه. رد عليه سانشو، وعلى المعَّاز للرد على الرد، وكانت نهاية الردود تبادل نتف اللحى، واللكمات، ولو لم يتدخل دون كيخوتى بالسلام بينهما لمزق كلاهما الآخر. قال سانشو ممسكًا بلباب المعَّاز:

- أفتنى فخامتكم، أيها الفارس ذو الصورة الحزينة، فى هذا؛ هو قروى مثلى، وليس منصبًا فارسًا، ومن ثم من حقى أن أشفى غليلى منه لما فعله بى، متعاركًا معه يدًا ليد، ورجلاً لرجل.

قال دون كيخوتى:

- هو كذلك، لكنى أعرف أنه ليس له أى ذنب فيما حدث.

بهذا صفى ما بينهما، وعاد دون كيخوتى لسؤال المعَّاز، عما إذا كان ممكنًا العثور على كاردينيو، لأنه بقى عنده عظيم الرغبة فى سماع بقية الحكاية. قال له المعَّاز ما سبق أن قاله له فى الأول، من أنه لا يعرف يقينًا مقره، لكن إن سار كثيرًا فى تلك الجبال، فلن يعدم فرصة العثور عليه بعقله أو بدونه.

الفصل الخامس والعشرون

عبارة عن الأحداث الغريبة التى وقعت فى سييرا مورينا للفارس الهمام دى لامانشا، وعن محاكاته لتوبة بيل تنبروس

ودع دون كيخوتى المعّاز، وصعد على روثينانتى، وأمر سانشو أن يتبعه. نفذ هذا الأمر فى اكتئاب، ومضيا يدخلان شيئًا فشيئًا فى أكثر أجزاء الجبل وعورة، بينما كان سانشو يموت من الرغبة فى الثرثرة مع سيده، الذى ود لو يبدأ بالكلام، حتى لا يعرضه-فيما لو بدأ هو- لمخالفة ما سبق أن أمره به، وعندما لم يطق صبرًا، نطق وقال:

- سيدى دون كيخوتى، ألتمس منكم البركة والإذن لأنى أود منذ هذه اللحظة أن أعود إلى بيتى، وأبنائى، وزوجتى، فعلى الأقل سأتكلم وأناقش كل ما يعن لى، لأن إرادة فخامتكم فى أن أسير معكم فى هذا الجو المستوحش ليلاً ونهارًا دون أن أتكلم عندما أحب، يساوى عندى أن أدفن حيًا. وإذا شاء القدر أن تتكلم الحيوانات كما كانت تتكلم أيام (جيسوبتى)(*) لكان الأمر أقل سوءًا، حيث كنت سأثرثر مع حمارى (قبل أن يسرقوه)(**) أو حتى مع روثينانتى،

(*) يحرف سانشو الأسماء دائمًا ويصف الكلمات، والاسم الذى حرفه هو (أيسوب) بطل كثير من الحواديت الخرافية.

(**) إضافة المترجم، حيث إن حمار سانشو يعود للظهور نتيجة سهو أو لأى سبب كان، رغم أنه سرق واختفى.

حول كل ما يمر ببالى، وبهذا كنت أبدد كآبتى، وإنه لشيء فظيع، يعلو على قدرة الصبر، المشى فى الأرض بحثًا عن المغامرات طول الحياة، وعدم العثور إلا على الركلات، والتقاذف بالبطانية، ورشق الطـوب، ودق اللكمـات، ومع كل هذا علينا أن نخيط فمنا، دون أن يجرؤ المرء على قـول مـا هـو مصرور فى قلبه، كما لو كان أخرس.

أجاب دون كيخوتى:

– أفهمك، سانشو، أنت تموت من أجل رفع الحظر الذى أفرضه على لـسانك. لقد رفع، وقل ما شئت، بشرط ألا يدوم رفع الحجر أكثر من الفترة الـتى سوف نقضيها فى الجبل.

قال سانشو:

– فليكن كذلك، ولأتكلم الآن، والله وحده يعلم ما سيكون فى المستقبل، وبدءًا من التمتع بهذا الجواز أقول؛ ماذا أغضب فخامتكم إلى هذا الحد من أجـل الملكة (ماخيماسا)، أو كما يكون اسمها؟ وماذا يهم أن يكون ذلك الراهب صديقها أو لا يكون؟ فلو تجاوزت الأمر ولم تنصب نفسك قاضـيًا، لكـان المجنون أكمل القصة، وكنا وفرنا على أنفسنا شر ضربة الحجر، والركلات، والصفعات الستة.

أجاب دون كيخوتى:

– بصدق، سانشو، لو كنت تعرف ما أعرف عن مدى شرف وعظمـة الملكـة (ماداسيما)، فأنا أعرف أنك كنت سوف تقول بأننى التزمت صبرًا عظيمًا،

لأنى لم أحطم ذلك الفم الذى خرجت منه هذه الإفكيات، فالقول أو حتى التفكير فى أن ملكة ترافق جراحًا لهو إفك عظيم. وحقيقة الأمر، أن ذلك المايسترو (إليسابات) الذى ذكره المجنون كان رجلاً شديد الذكاء، وحسن المشورة، وخدم وصيفًا وطبيبًا للملكة؛ لكن التفكير فى أنها كانت خليلته ليس إلا فرية تستحق أقصى العقاب. ولأنك ترى أن كاردينيو لم يعرف ما قال، عليك أن تحذر، فهو حين قال ما قال كان فى نوبة الجنون.

قال سانشو:

- هذا ما أقوله أنا؛ ومن ثَمّ، فلم يكن مفهومًا اعتبار ما ينطق به مجنون، لأنه لولا أن الحظ الطيب وجه الحجر إلى صدرك، وانحرف به عن رأسك، لكان الأمر غير الأمر بسبب الغضب من أجل سيدتى هذه التى شاء الله لها أن تبتذل، والأعجب أن كاردينيو ما كان سيحاسب لجنونه.

- الغضبة من أجل شرف سيدة ضد مجنون أو عاقل واجب إجبارى على الفارس المشاء، وبصفة خاصة إذا كانت السيدة ملكة ذات شأن عظيم مثل الملكة (ماداسيما)، التى أهواها لفضائلها الطيبة، فبصرف النظر عن جمالها، كانت ذكية وافرة الذكاء، وحمولة لمصائب الزمان، التى قرعتها كثيرًا، أما نصائح وصحبة المايسترو (إليسابات)، فكانت ذات نفع كبير لإنجاز أعمالها فى كياسة وصبر. واستغل ذلك الدهماء الجهلة، وسيئو النوايا للقول بأنها كانت خليلته، وأكرر أنهم يكذبون، وسيكذبون مائتى مرة أخرى فيما فيه يفكرون ويقولون.

أجاب سانشو:

– أنا لا أقول بهذا، ولا أفكر فيه، كما يفعلون، لكنهم فى الآخـــرة ســيجدونه محضرًا، وسوف يأكلون ما صنعوا من خبز، و إذا كانا خليلين أو لم يكونـــا، فالله سوف يحاسبهما؛ أما أنا فلم أكد أعد من حقل عنبى، ولا أعرف شيئًا؛ فلست صاحب معرفة بحياة الآخرين، وإن من يشترى ويكذب، فى كيــسه سوف ينكب. وليكونوا ما كانوا، فقد ولدونى عاريًا، وأعـــيش عاريًـــا، لا مكسب ولا خسارة. فماذا يعنينى؟ والكثير يظن بوجود الشحم، دون رؤية المسواك. لكن من يستطيع أن يُركـــّب أبوابًا للفضاء؟ وما أكثر ما افتـــروا على الله كذبًا.

قال دون كيخوتى:

– فليرحمنى الله، فكم من الحماقات تنظم مسبحة! ما علاقة ما نقول بالأمثال الـــتى تسلسلها؟ بحياتك، سانشو، لتصمت من الآن وفيما يـــأتى فلتنـــشغل (بمتابعـــة روثينانتى)(*)، ولا تتدخل فيما لا يعنيك. ولتفهم بحواسك الخمس جميعًا، أن كل ما صنعت، وأصنع، أو سوف أصنع، يتفق تمامًا ومنطق الفروسية ويتفـــق مـــع قواعدها، التى أعرفها أفضل من كثير من الفرسان الذين يمارسونها فى العالم.

أجاب سانشو:

– سيدى، هل هى قاعدة صحيحة للفروسية أن نسير تائهين بهذه الجبـــال دون هدف أو طريق بحثًا عن مجنون، قد يكمل لو وجدناه ما كان قد بـــدأ، ولا أقصد قصته إنما رأس فخامتكم وضلوعى، منتهيًا بتكسيرها من كل جانب؟

(*) يعود لذكر الحمار، وهذا التعديل من المترجم.

قال دون كيخوتى:

- اسكت، أقولها لك مرة أخرى، سانشو؛ لأنى أعلمك أنه لم نأت إلى هنا فقط للبحث عن هذا المجنون، وإنما فى هذا المكان أود تحقيق بعض الأمجاد بها أكتسب اسمًا خالدًا، وشهرة فى كل العمور من الأرض، وبهذا أضع طابع الكمال والشهرة على كل ما يتعلق بالمشّاء الفارس.

سأل سانشو:

- وتلك الأمجاد تعرض لخطر عظيم؟

أجاب صاحب الصورة الحزينة:

- لا، ولكن أمر الزهر يتوقف عليكم فى مسعاكم، وقد يحدث أن يخرج الرقم الخاسر مكان الرقم الرابح.

قال سانشو:

- مسعاى؟

قال دون كيخوتى:

- نعم، لأنك لو عدت سريعًا من حيث سوف أرسلك، سوف تعجل بانتهاء آلامى، وحالاً سوف يبدأ المجد. وحتى لا تبقى معلقًا، فى انتظار ما ينتهى إليه كلامى، أود أن تعرف أن (أماديس دى جاولا) كان واحدًا من أكثر الفرسان المشائين كمالاً. ولم أحسن القول عندما قلت (واحدًا من..) بل كان الوحيد، الأول، الأوحد، سيد كل فرسان عصره. ساء العام، وساء الشهر الذى قال فيه (دون بليانس)، وكل من شاركه القول، أن أحدًا كان

يساويه، إنهم يخدعون أنفسهم وأقسم على ذلك. وأقول فى نفس الوقت، إن الرسام الذى يريد أن ينتهى إلى الشهرة فى فنه، عليــه أن يحــاول محاكــاة الأعمال الأصلية لكل الفنانين الذين هم آحاد فى الفن حسب ما يعرف ذلك الرسام. ونفس القاعدة تنطبق على كل المهن أو الممارسات ذات الشأن التى تزين البلاد والممالك. وهكذا ينبغى أن يفعل بل يفعل كل من يريد أن يعمل اسمًا يرتبط بالدهاء والمقاومة، بتقليد (أوليــسيس)، والــذى يرســم لنــا (هوميروس) فى شخصه وأعماله صورة حية للدهاء والمقاومة، كما أظهر لنا أيضًا (فيرجيل) فى شخص (ايناس)، شجاعة ابن بــر، وحكمــة القبطــان الشجاع والذكى، ولم يقم الشاعران برسمهما أو وصفهما كما كانا بل كما ينبغى أن يكونا، ليصيرا مثلاً للأجيال التالية فى فضائلهما. وكان أمــاديس بنفس الطريقة، هو شمال البوصلة، ونجم الهداية، وشمس شــجعان الفرســان ومغرميهم، الذى علينا جميعًا أن نحاكيه نحن من ننضوى تحت علــم الحــب والفروسية. وإذا كان الأمر هكذا، وهو كذلك، فإننى أجد، أيها الــصديق سانشو، أن الفارس الذى يحاكيه، يكون قد صار الأكثر قربًا من الكمال فى الفروسية، وأحد الأشياء التى أثبت فيها ذلــك الفــارس أكثــر كياســته، وشجاعته، وبسالته، ومقاومته، وثبات جأشه، وغرامه،كان عندما اعتــزل مغضوبًا عليه من السيدة (أوريانا)، فى (الصخرة الفقيرة) للتوبة، مغيرًا اسمــه إلى (بيل تنبروس)(*)، اسم مناسب فى معناه ومبناه للحياة التى اختارها بمحض إرادته. من ثم، أســهل لى أن أحاكيــه مــن أن أشــق جــسم عمــلاق، أو أقطع رأس أفعى، أو أقتل الغيلان، أو أقهر الجيوش، أو أشل الأســاطيل،

(*) الاسم يعنى: الغياهب الجميلة.

أو أفك عمل السحر والأباطيل. وهذه الأماكن معدة لمثل هذا الشأن، ولا يوجد سبب لتفويت الفرصة التى أسلمتنى طوعًا ناصيتها.

قال سانشو:

– ماذا تريد أن تصنع، بالفعل، فى هذا المكان النائى؟

أجاب دون كيخوتى

– ألم أقل لك بالفعل أننى أحب أن أحاكى أماديس، جاعلاً من نفسى يائسًا، ومخبولاً، وطائر الغضب، مقلدًا أيضًا معه (روردان) العنيف عندما رأى إشارات على سطح نبع أن (إنخيليكا الجميلة) قد ارتكبت فحشًا مع (موديرو)، مما كدّره حتى الجنون، فخلع الأشجار، وعكّر الأمواه الصافية للينابيع، وقتل رعاة، وذبح قطعانًا من الأغنام، وحرق الأكواخ، وهدم البيوت، وسحل الأفراس، وارتكب ألف صلافة مما يستحق الاسم الخالد والكتابة الممجدة؟ ومع أننى لا أفكر فى تقليد (روردان) أو (أورلاندو) أو (روتولاندو) تلك الأسماء (الثلاثة) التى اشتهر بها، أقول لن أقلده حرفيًّا فى كل جنون ارتكب أو نطق أو فكر، بل سوف أُجْمل كيفما استطعت فيما أراه جوهريًا. ومن الممكن أن أكتفى بتقليد أماديس، الذى حقق أعظم الشهرة دون جنون مؤذٍ اللهم إلا جنون البكاء والمشاعر.

قال سانشو:

– يبدو لى أن الفرسان الذين فعلوا ما فعلوا، كانوا فى حالة استفزاز، وكان لديهم سبب لارتكاب تلك الحماقات، وأعمال التوبة والتكفير عن الذنوب،

لكن فخامتكم، أى سبب يدفعكم للجنون؟ أى سيدة غضبت عليك، أو أى إشارات تجعلكم تدركون أن السيدة (دولثينيا دل توبوسو) قد ارتكبت أعمالاً صبيانية مع أحد المسلمين أو النصارى؟

قال دون كيخوتى:

- هنا يكمن السر، وتلك هى رهافة ما أفعل، فإن جنون فارس مشّاء لسبب، لا يحمل وجاهة أو طرافة. واللمسة الخاصة بى أن أختل دون سبب، وأفهم سيدتى، أننى إذا كنت أفعل ذلك على (الناشف)، فماذا يكون الشأن لو هناك بلل؟ لكن لدى سبب فائض، وهو تلك الغيبة الطويلة لسيدتى الدائمة (دولثينيا دل توبوسو)، وكما سمعت ذلك الراعى المعروف لكلينا (أمبروسيو) يقول إن الغائب عليه أن ينتظر كل الشرور ويخافها. وهكذا، أيها الصديق سانشو، لا تبدد الوقت فى نصيحتى بأن أهجر هذه المحاكاة النادرة والسعيدة والتى لم يسبق أن رآها أحد. فأنا مجنون، علىّ أن أكون مجنونًا حتى تعود إلىّ بالجواب لخطاب أفكر فى إرساله معك إلى سيدتى دولثينيا؛ وإذا كان الجواب عكس ما أشتهى سأجن حقًا، وحال كونى هكذا فلن أحس شيئًا، أما إذا كان طبقًا لما استحقه منها بما أنا عليه من صدق، فسوف ينتهى جنونى، وتكمل توبتى. وهكذا مهما كان ردها فالنتيجة واحدة، فإذا كان خيرًا سأخرج من الصراع والمجاهدة، وإذا كان عكس ذلك فلن أحس شيئًا لجنونى. لكن قل لى، سانشو، هل تحافظ جيدًا على خوذة (ممبرينو)، التى رأيتك ترفعها من الأرض عندما أراد ذلك التعيس تكسيرها إلى شظايا؟ لكن لم يستطع أن يفعل ليثبت جوهر عنصرها.

وعلى هذا أجاب سانشو:

– تعالى الله أيها السيد الفارس ذو الصورة الحزينة، فأنا لا أستطيع أن أتحمل أو أصبر على بعض الأشياء التى تقولها، والتى بفضلها أتخيل أن كل ما تقوله عن الفروسية وغزو ممالك وإمبراطوريات، ووهب جزر، وغيرها من النعم والأمجاد باعتبارها عادة الفرسان المشائين ليس إلا شيئًا تهب به الرياح والأكاذيب، وكلها أخطاء أو أخطال أو كما نسميه؛ لأن الذى يسمع فخامتكم تقول عن (طشت) حلاق أنه خوذة ممبرينو، دون الخروج من هذا الخطأ أربعة أيام، ماذا يمكن أن يُظَن غير أن الذى يقول هذا ويؤكده يجب أن يكون مشئوم العقل؟ (الطشت) أحمله فى صّرتى، مزخرفًا، نعم أحمله حتى أعدله فى بيتى لحلق ذقنى فيه، إذا شاء الله أن أعود يومًا لرؤية زوجتى وأولادى.

قال دون كيخوتى:

– انظر، سانشو، أقسم لك، بمن به أقسمت أنت من قبل، أنك تملك أقصر فهم ونظر بين كل خدم الفرسان فى العالم كله. هل من الممكن على قدر ما صحبتنى أنك لم تعرف أن كل أشياء الفرسان المشائين تبدو تخاريف وحماقات واختلالاً، وأنها كلها تأتى على العكس؟ وليس ذلك لأنها كذلك، وإنما لأنه يسير بيننا دائمًا زمرة من السحرة، يغيرون كل أشيائنا ويقايضونها، ويصورونها حيث شاءوا، وطبقًا لرغبتهم لإرضائنا أو تدميرنا، وهكذا فما يبدو لك (طشت) حلاق، يبدو لى خوذة ممبرينو، ولآخر سوف يبدو شيئًا آخر. وكأن عناية خاصة إلهية أُلْهِمَهَا الحكيم الذى يختص بى، أن جعل الجميع يرى (طشت) حلاق، ما هو واقعًا وحقيقة خوذة ممبرينو، بسبب

حسن تقديره حتى لا يطاردنى كل العالم لنـــزعها عنى، لكن كمــا أنهـــم لا يرون إلا (طشت) حلاق، فلا يحاولون انتزاعه مثلما ثبت جيدًا مـــن ذلـــك الشخص الذى حاول كسره، لكنه تركه على الأرض دون أن يحمله، وأقسم أنه لو كان قد عرف حقيقته لما تركه. فاحفظه، يا صـــديقى، فأنـــا الآن لا أحتاجه، فعلىّ أن أخلع كل أسلحتى، وأبقى عاريًا كما ولدتنى أمى، ما دمت أجد إرادتى تتجه نحو توبة روردان أكثر من توبة أماديس.

ووصلا إلى سفح جبل عالٍ خلال تبادل هذا الحديث، وظهر كما لـــو كـــان صخرة ضخمة منحوتة، وحيدًا فى علوه بين كل الجبال التى تحيط به. وكان يجرى فى أدناه نهير سلس، وأحاط به من كل الجهات مـــرج شـــديد الخـــضرة، غزيـــر الحشائش، يقر عين من يراه. وكان هناك كثافة من الأشـــجار البريـــة والنباتـــات والأزهار، التى تجعل من المكان فردوسًا. اختار هذا المكان الفارس ذو الـــصورة الحزينة ليكون مقر توبته، وهكذا عندما رآه بدأ يقول فى صوت عال كما لو كـــان بغير مخ:

- أوه، أيتها السموات! هذا هو المكان الذى أفوضه بى، واختاره لبكاء التعاسة التى أودعتموها فى أنتم أنفسكم. هذا هو المكان حيث مزاج عينى ســـوف يسبب فيضان هذا النهير وسرورى، مع تنهدات عميقـــة ســـوف تحـــرك باستمرار أوراق هذه الأشجار، باعتبارها إشارة وشاهدًا علـــى الألم الـــذى يعانيه قلبى الولهان. أوه، أنتم، كنتم من تكونوا، أيتها الآلهة القاســـية الـــتى تتخذ من هذا المكان منازل، فلتسمعوا شكوى هذا العاشق التعيس، الـــذى أحضره للتوجع غياب طويل وغيرة متصورة، بين تلك الأحراش، وللشكوى للمعاملة القاسية لهذه الجاحدة الجميلة، والحد الأقصى والنهاية لكل حـــسن

إنساني! أوه، أنتن أيتها الجنيات وعرائس الغابة، اللائى اعتـــدن العـــيش فى كثافة غابات الجبال، وأنتن أيتها الحيوانات من الجن الممسوخ الفاسق الماجن، ممن أنتن–ودون أمل–معشوقات، لا تعكرن قط سكينتكن العذبة، من أجل مساعدتى فى ندب تعاستى، أو على الأقل لا تتعبن من الاســـتماع إلى. أوه، "دولثينيا دل توبوسو، يا نهار ليلى، ومجد ألمى، وشمال بوصلة طريقى، ونجـــم سعدى، لتمنحك السماء القبول عندما يتحقق أن تطلبى منها شيئًا، ولتعتبرى المكان والحالة، وهما ما حملنى إليهما غيابك عنى، ولتجيبينى بألفاظ طيبة، مما أنا جدير به نظير إخلاصى ووفائي! أيتها الأشجار المستوحشة الوحيدة، من الآن فصاعدًا فلتكن الرفقة لوحدتى، وامنحننى مؤشرًا باهتزازات أغصانكن على أن وجودى لا يضايقكن. أوه، تابعى، الرفيق الرقيق لى فى الخير والشر، ضع فى ذاكرتك جيدًا ما سوف ترانى فاعلاً، حتى تقصه وترتله على من هى السبب الشامل لوقوعه.

وعند قوله هذا، نزل عن روثينانتى، وفى لحظة انتزع عنانــــه، والـــسرج، وضاربًا له بكفه على فخذيه، وقال له:

– يمنحك الحرية من يفتقدها، أيها الجواد السامى بأعمالك، التعـــيس بحظـــك! اذهب حيث شئت، فإنه مكتوب على جبهتك أنـــه لم ينـــاظرك فى الخفـــة (الأيبوجريفو) للفـــارس (اســـتولفو) ولا المـــسمى (فرونتينـــو) للفـــارس (برادامنتى)، وإن كلفه باهظًا.

وعندما رأى سانشو ذلك قال:

– بورك من أعفانى من انتزاع البرذعة عن حمارى الأغبش، ولم يجعلنى فى حاجـــة إلى توديعه بضربات من كفى على فخذيه، كما لم يلزمنى بقول شيء له عند

الوداع أو مدحه، لكن لو كان هنا الآن، لما وافقت على أن ينزع عنه أحـــد البرذعة، فلا سبب لذلك؛ لأنه لم تمسه نزوات الحب واليأس، لعدم مرورها على سيده. وفى الحقيقة أيها السيد الفارس ذو الصورة الحزينـــة، إذا كـــان رحيلى وجنونك أمورًا حقيقية، فالأفضل أن أسرج روثينانتى ليحـــل محـــل حمارى الأغبش؛ لأن فى ذلك توفيرًا للوقت فى الذهاب والعودة، لأننى لـــو رحلت على قدمى فلا أعرف متى سأصل، ومتى سأعود، لأنني- وباختصار سيئ السير.

أجاب دون كيخوتى:

- أقول، افعل ما تحب، فلا يبدو لى تفكيرك سيئًا، وأنت سوف ترحل خلال ثلاثة أيام من الآن، لأنى أحب أن ترى ما أفعل وما أقول من أجلها، حتى تقوله لها.

قال سانشو:

- وماذا يمكن أن أرى أكثر مما رأيت؟

أجاب دون كيخوتى:

- أنت داخل فى الحكاية جيدًا. الآن سوف أمزق ثيابى، وأبعثر أسلحتى ثم أنـــاطح تلك الصخور، مع أشياء أخرى من هذا النمط مما سوف يدهشك.

قال سانشو:

- بحق الله، فلتتأمل، ماذا سوف تثمر تلك النطحات؟ فإنك يمكـــن أن تـــصل إلى إحدى الصخور، وتصوب رأسك إلى إحدى النقاط عليها، ثم النطحة، سوف تسحق آلة تلك التوبة بأكملها، وعلى ما يبدو لى، مادام الأمر اعتساف التوبة

ومحاكاة وهزل، فعليك أن تنطح شيئًا طريًا مثل الماء أو القطن، ودع على عاتقى إبلاغ سيدتى أنك نطحت سن صخرة، أكثر صلابة من الماس.

أجاب دون كيخوتى:

– أشكر لك نيتك الطيبة، أيها الصديق سانشو، لكنى أحبك أن تعرف أن كل تلك الأشياء التى أعملها ليست هزلاً، لكنها حقيقية جدا؛ لأنها إذا كانت شيئًا آخر فستصبح ضد تعاليم الفروسية، التى تأمرنا بعدم ارتكاب أية كذبة، أو ارتكاب ذنوب ما قبل الفروسية، بجانب أن عمل شيء بديل عن آخر هو الكذب نفسه. وهكذا فإن نطحاتى لابد أن تكون حقيقية، وفى الصميم، وقيمة، دون أية سوفسطائية أو فانتازية. وسيكون ضروريًا أن تترك لى بعض الضمادات لأعالج بها نفسى، فالحظ شاء أن نعدم البلسم الذى فقدناه.

أجاب سانشو:

– بل أكثر، فقد فقدنا أيضًا مع الحمار الضمادات وكل شيء، وألتمس من فخامتكم ألا تذكروا بعد ذلك هذا الدواء الملعون، فمجرد أن يطرق أذنى ذكره، فإنه يقلب روحى وليس معدتى فحسب. وفوق ذلك، فقد مضت الأيام الثلاثة التى وعدتنى أن أرى فيها نهاية الجنون الذى تمارسه، وبالتالى فإنى أقر بأننى رأيت منك كل أعمال الجنون، وأنها قد انقضت، ونالت التقدير، وسأحكى العجائب لسيدتى، لأننى لدى رغبة كبيرة فى العودة، وانتزاعكم من موقف (المطهر) الذى سأترككم فيه.

قال دون كيخوتى:

– هل تسميه، سانشو، مطهر؟. الأفضل أن تسميه جهنم، أو أى شيء أسوأ من جهنم.

أجاب سانشو:

- من دخل النار، فهو خارد(*) فيها.

قال دون كيخوتى:

- لا أفهم معنى خارد، تلك التى تقول.

- خارد، معناها أن من دخل النار، لا يخرج منها، و يدوم فيها أبدًا. وهو عكس ما يحدث لفخامتكم، وبالنسبة لى لا توافقنى المهاميز إذا حملت روثينانتى، وسوف أحصى حقا فى التوبوسو، وأمام سيدتى دولثينيا، التى سوف أقول لها كل أفعال الجنون، والحماقات (وكليهما واحد)، التى ارتكبتها فخامتكم، والتى ستواصل ارتكابها، وسوف ألين قلبها حتى يصبح ألين من (جوانتى)، حتى لو وجدتها أصلب من عود شجرة فلين، وسوف أعود بردها العذب المعسَّل، طائرًا فى الهواء مثل ساحر، وسأخرج فخامتكم من هذا المطهر، والذى يشبه الجحيم، ولا أظن أن فخامتكم له قول آخر.

قال صاحب الصورة الحزينة:

- هذا هو الحق، لكن قل لى، ماذا نفعل لنكتب لها الرسالة؟

أضاف سانشو:

- ولنكتب أيضًا أمر تسليمى الجحوش الثلاثة.

(*) يشير سانشو إلى عبارة لاتينية، تردد فى الصلوات على أرواح الموتى، وربما قد سمعها من وعاظ القرية، وقد حرفها، فبدلاً من "خالد" وضع "خارد"، وهذا التمثيل العربى لتصحيفات سانشو اجتهاد من المترجم.

قال دون كيخوتى:

- سيمضى كل شيء مولجًا فى كل شيء، وسيكون جيدًا، أن نكتب علـــى ورق الشجر كما كان يفعل القدماء، لعدم وجود ورق، أو نكتب على ألواح مـــن الشمع، مع صعوبة الحصول على الشمع هنا مثله مثل الورق، مع أنه أفضل، بل أفضل من الأفضل، ما ورد على ذاكرتى من أن نكتب لها فى الدفتر الذى كان ملك كاردينيو، وأنت سوف تحرص على أن تنقل ما كتبناه علـــى ورق جيد وبخط حسن، عندما تصادف أول معلم صبية، وإذا لم تـــصادفه فليفعـــل ذلك أى كاتب كنيسة، ولا تعطيه لنقل الخطاب إلى كاتب وثائق، ممن يكتبون خطًا مشبكًا تتداخل حلقاته وكلماته فلا يفهمها حتى الشيطان نفسه.

قال سانشو:

- وماذا نفعل فى نقل التوقيع؟

قال دون كيخوتى:

- لم يحدث قط أن وقع أماديس خطابًا.

أجاب سانشو:

- معقول، لكن أمر تسليم الجحوش يجب توقيعه بالحتم، فإذا نقل، سوف يقولون أن التوقيع مزيف، وسوف أبقى بدون جحوش.

- أمر التسليم يتم تسليمه كما هو فى الدفتر، ولن تكون هناك عقبـــة فى إنجـــازه، بمجرد أن تراه ابنة أختى وفيما يتعلق بالرسالة الغرامية سوف تضع باعتبـــاره توقيعًا: "ملك يديكم حتى الموت، الفارس صاحب الصورة الحزينـــة". ولـــن

يكون له قيمة كبيرة، أن تكتبها يد غريبة، لأن مـــا أعـــرف أن أتـــذكره، أن دولثينيا لا تعرف القراءة أو الكتابة، ولم تر طول حياتها خطابًا منى أو خطًا لى، لأن حبى لها، وحبها لى، من نوع الحب الأفلاطـــونى دائمًـــا، ولم يتجـــاوز فى مفهومه غير النظرة الشريفة. وحتى هذه النظرة كانت بين الفينـــة والفينـــة، وأحلف بكل صدق، أن الأمرظل هكذا لمدة اثنى عشر عامًا من حبى لها أكثر من "نور عينى، التى سيأكلها التراب"، وفى هذه المدة لم أرها أكثر مـــن أربـــع مرات، ومن الممكن أنها فى أول مرة رأيتها، أنها لم ترنى، هكذا يكون الصون والخدور، مما نشأها عليه أبوها لورينثو كورتشويلو، وأمها الدونثا نوجالس.

قال سانشو :

– تا،تا! ابنة لورينثوكورتشويلو هى السيدة دولثينيا دل توبوسو، والتى يطلقـــون عليها اسمًا آخر هو (الدونثا لورينثو)؟

قال دون كيخوتى:

– هذه هى، والتى تستحق أن تكون سيدة الكون.

قال سانشو:

– أعرفها تمامًا، وأعرف أقول لك إنها فى رمى الرمح تعادل أقوى فتى فى القريـــة. يحيا المعطى الوهاب! إنها صبية ولا كل الصبايا، قول على فعل، وشعر صدرها نافر، حتى إنها قادرة على أن تنتشل من الوحل لحية أى فارس مشاء أو بسبيله إلى المشى، ما دام اتخذها سيدة له. أوه، ابنة العاهرة(*) أى قلعـــة هـــى، وأى

(*) هذه العبارة لا تستعمل هنا بمعناها العادى للإهانة، وإنما كانت تستعمل للمدح أو للتدليل والتودد، ولها فى العامية المصرية الآن نفس هذا الاستعمال.

دويّ! وأعرف أقول إنها فى أحد الأيام تسنمت برج جرس الكنيسة فى القرية ونادت على بعض الصبيان الذين كانوا سائرين فى أرض محروثة لأبيها، ومع أنهم كانوا هناك على بعد نصف فرسخ، فقد سمعوها كما لو كانوا واقفين أسفل البرج. وأفضل ما تتميز به أنها ليست ممن يتصنعون الكلفة، لأنها بها كثير من سجايا نساء البلاط، حيث تتمازح مع الجميع، وتحول كل شيء إلى سخرية وملاحة. الآن أقول، أيها الفارس صاحب الصورة الحزينة، إنه ليس فقط تستطيع ويجب أن تجن بها بأفعالك، ولكن عن جدارة. مع هذا، عليك باليأس، وأن تشنق نفسك، وكل من قد يعرف، سوف يقول، لقد أحسن، وإن كان يروح كل فعله من أجل عيون الشيطان. وأتمنى أن أرانى شاقًا الطريق إليها، فقط كى أراها، فقد مضت أيام كثيرة دون أن أراها، وينبغى أن تكون قد تغير حالها، لأن المشى الكثير فى الحقول، والشمس، ولفح الريح يستهلك كثيرًا وجوه النساء. وأعترف لفخامتكم بحقيقة، سيدى دون كيخوتى: أننى حتى الآن كنت فى جهل عظيم، فقد كنت أظن فى يقين أن السيدة دولثينيا كانت أميرة، وقد أوقعت فخامتكم فى غرامها، أو أنها شيء مشابه يستحق تلك الهدايا التى أرسلتها لها، من الوفود، مثل ذلك البيثكاوى، أو أولئك المجرمين المسخرين فى الأسطول، وآخرين كثيرين ممن ينبغى أن يكون قد أرسلتهم فى كل انتصار من انتصاراتك التى ينبغى أن تكون قد كانت قبل التحاقى بخدمتك بصفتى تابعًا. لكن باعتبار كل هذا، ماذا يعنى أمام السيدة الدونثا لورينثو، أعنى القول، السيدة دولثينيا دل توبوسو أن يذهب إليها، ويركع بين يديها، أولئك المهزومون الذين أرسلتهم وسوف ترسلهم إليها؟ لأن موعد وصولهم إليها قد يوافق لحظة نفضها الكتان، أو درسها القمح، وهم سوف يخجلون وراءها، بينما تضحك منهم أو تغضب من الهدية.

قال دون كيخوتى:

- لقد قلت كثيرًا قبل ذلك، سانشو، إنك ثرثار كبير جدا، وإن ذكاءك معـــدوم، وإن تذاكيت المرة بعد المرة، لكن حتى ترى كم أنت أحمق، وكم أنـــا فطـــن، أحب أن تسمع هذه النادرة. أعرف أنه كان هناك امـــرأة أرملـــة، صـــبية، متحررة، غنية، وقبل أى شيء طروب، وقعت فى غرام رجل فقـــير، بـــدين، غليظ البدن، وقد عرف ذلك سيد هذا الرجل الفقير، فقال يومًا لهذه الأرملة الطيبة، من باب الود الأخوى: "كم أنا متعجب، يا سيدتى، ولـــيس لـــسبب بسيط أتعجب، فامرأة بنت ناس بكل هذا الجمال والثراء مثـــل فخـــامتكم، تعشق رجلاً همِلاً، متواضع الأصل، أبله مثل فلان، مع أنه فى هذا البيت يوجد الأساتذة، والوجهاء، والجهابذة، ممن من بينهم يمكنك الاختيار، مثل من يختار الأحلى من ثمار الكمثرى"، ويقول: "هذه الكمثراية تعجبنى، وتلك لا تـــروق لى". لكنها أجابت بكل ملاحة وسلاسة: "فخامتكم، يا سيدى، مخدوع كـــل الخداع، وتفكر بالأسلوب العتيق، لكن أعلم أنه يعرف من الفلسفة أكثر من أرسطو، فيما اخترته من أجله". وهكذا، سانشو، فيما أحبيـــت دولثينيـــا دل توبوسو من أجله، فهى تساوى أسمى أميرة فى العالم. وليس كل الشعراء اللائى يتغزلن بالنساء تحت أسماء، اختاروها لهن عفو الإرادة، كـــانوا علـــى علاقـــة بأولئك النساء. هل تظن أن العديدات من أمثال (أمـــاريليس)، و(فيلـــيس) و(سيلبا)، و(ديانا)، و(جالاتيا)، و(فيليداس)، والأخريات اللائى يملأن الكتب، والرومانث، ودكاكين الحلاقين، والمسارح الكوميدية، كن حقًا سيدات مـــن لحم وعظم، وعشيقات لمن يتغزل بهن أو قد تغزل؟ لا، بالتأكيد، إنما الأكثرية منهن مصطنعات لإعطاء ذاتية لأشعارهم، وحتى ينظر الناس إليهم باعتبـــارهم

عشاقًا، وأنهم لديهم الشجاعة للعشق. وهكذا، يكفينى أن أتصور، وأعتقد أن فضل الدونثا لورينثو هو الجمال والأمانة، أما النسب، فقليل الأهمية، فإنهم لن يمضوا للاستعلام عنه حتى يخلعوا عليها خلع المجد، وهى عندى أسمى أميرة فى العالم. لأنك، سانشو، عليك أن تعرف، إذا لم تكن تعرف، أن هناك شيئين يستثيران الحب، أكثر من أى شيء آخر، هما الحسن الفائق، والسمعة الطيبة، وهذان الشيئان يتوفران بفيض فى دولثينيا وكمال، لأنه فيما يتعلق بالحسن، فلا امرأة تناظرها، وفيما يتعلق بالسمعة فالقليل ممن يلحق بها. وحتى أنهى هذا، أنا أتخيل أن كل ما أقوله هو مثلما أقوله، بلا زيادة أو نقصان، وأننى أرسمها فى خيالى كما أرغب أن تكون، فى الجمال والأصالة، ولا تلحق بها فى هذا هيلينا، ولا تدركها لوكريثيا، ولا أى من النساء المشهورات فى العصور الفائتة الإغريقية أو البربرية، أو اللاتينية. وليقل كل واحد ما يحب، فلو لامنى الجهلاء، فلن يعاقبنى الحكماء.

أجاب سانشو:

- أقول فى كل هذا، فخامتكم معكم الحق، وأنا حمار، لكنى لا أدرى لماذا أنطق (حمار) من فمى، حيث إنه لا ينبغى ذكر سيرة الحبل فى بيت المشنوق. لكن، هيا إلى الخطاب، ثم وداعًا، وأخرس.

أخرج دون كيخوتى دفتر المذكرات، واتخذ جانبًا، وفى هدوء شديد بدأ يكتب الخطاب، وحين أنهاه نادى علىَّ سانشو، وقال إنه يريد أن يقرأه عليه، حتى يحفظه، فربما يضيع منه فى الطريق، فهو بسبب تعاسته عليه أن يخاف من كل شيء. أجابه على هذا سانشو:

– أكتبه فخامتكم مرتين أو ثلاث مرات فى الدفتر، وأعطنى إياه، وسوف أحمله فى حفظ حريص، لأن التفكير فى أن أحفظ الرسالة فى ذاكرتى هراء، فهى ضعيفة، فأنا أنسى كثيرًا اسمى. ومع هذا اقرأها فخامتكم، فإن هذا سوف يبهجنى كثيرًا، فهى لابد أن تكون النموذج.

قال دون كيخوتى:

– استمع فهى تقول: مكتوب من دون كيخوتى إلى دولثينيا دل توبوسو سيدتى المليكة السامية. الجريح سن رمح الافتقاد، والمقروح أنسجة الفؤاد، يرسل إليك ياعذبة العذوبة، دولثينيا دل توبوسو، التحية، التى لا يجد من يحييه بها. وإذا كان حسنك يهوّن من شأنى، وقدرك ليس علىّ يثنى، وكبرياؤك صقل لى، فحالى أن أتكفل بالمعاناة، ولن أستطيع أن أصلب عودى فى هذه المحنة، التى بجانب ضراوتها، تستعر ديمومتها. حامل دروعى الطيب سانشو سوف يحكى لك كل شيء: أوه، أيتها الجميلة، ناكرة الجميل، والحبيبة المعادية لى! فبسببك أنتظر أن تنقذينى، لأنى ملكك، وإذا لا، افعلى ما يحلو لك، فبإنهاء حياتى أكون قد أشبعت قسوتك، ورغباتى.

ملكك حتى الموت

الفارس ذو الصورة الحزينة

وعندما استمع سانشو الرسالة قال:

– بحياة أبى، إنها أسمى ما سمعت فى حياتى. اللعنة لى! كيف تقول، فخامتكم، كما شاء لك القول فيما تريد أن تقول؟ وكيف تلتئم الرسالة مع دلالة توقيع

(الفارس ذو الصورة الحزينة)! أقول إن فخامتكم هو الشيطان نفسه، فلا يوجد ما لا تحسن.

أجاب دون كيخوتى:

– كل شيء ضرورى لمهنة الفارس.

قال سانشو:

– إذن، اقلب الصفحة، وضع أمر تسليم الجحوش الثلاثة، ووقعه بكل وضوح، حتى يتعرفوا على التوقيع حال رؤيته.

قال دون كيخوتى:

– بكل سرور

وحين انتهى من كتابته، قرأه، وهو يقول:

– "سوف تأمرين، سيدتى ابنة أختى، بتسليم سانشو بانثا، تابعى، انصياعًا لهذه المقايضة الجحشية، ثلاثة من الخمسة، التى تركتها فى البيت تحت رعاية فخامتكم. وهذه الثلاثة حجوش آمركم بفك قيودها ودفعها نظير نفس العدد من الجحوش التى تسلمتها هنا عينًا وعدًّا، وبهذا، وبإيصال التسليم تكون تلك العملية مشروعة. كتب فى أحشاء جبال سييراامورينا فى الثانى والعشرين من أغسطس من العام الجارى".

قال سانشو:

– ممتاز، وقعها فخامتكم.

قال دون كيخوتى:

– ليس من الضرورى توقيعها، يكفى مجرد أنها بخطى لتسليم ثلاثمائة جحش، وليس فقط ثلاثة.

أجاب سانشو:

– أنا أثق فى فخامتكم. دعنى اذهب لإسراج روثينانتى، وأستعد لمباركتى، وبعدها، أرحل، دون رؤية السفاهات التى عليك ارتكابها، ويمكننى القول إننى رأيت منها الكثير، ولا أحتاج لأكثر.

– على الأقل، سانشو، أريدك أن ترانى عاريًا، ومرتكبًا دستة أو دستتين من أفاعيل الجنون، والتى لن تستغرق أكثر من نصف ساعة، لأنك إن تراها بعينيك، يمكنك أن تقسم دون حنث، فى حال ما تود إضافته، وأؤكد لك أنك لن تقول مهما قلت أكثر مما أفكر فى عمله.

– من أجل خاطر الرب، يا سيدى، لا تجعلنى أراك عاريًا، فسوف يؤسفنى كثيرًا، ولن أستطيع أن أتجنب البكاء، ورأسى لا يتحمل بعد نحيبى بالأمس على حمارى، وإذا أردت ارتكاب أى خبل، فليكن بملابسك، وليكن سريعًا ومناسبًا لغرضه. وأفضل عدم رؤية شيء من هذا لعدم ضرورته، حتى أسرع فى طريق العودة، كما سبق لى القول، مع الأخبار الطيبة التى ترغب فيها وتستحقها، وإذا لم تبخع السيدة دولثينيا، وإذا لم ترد كما يجب، فإنى أقسم أن ألتزم الجدية ما استطعت، حتى انتزع حسن الجواب من أحشائها بالركلات

والصفعات. لأنه، من يحتمل أن فارسًا مشاء، بكل هـذه الـشهرة مـثلكم، يتحول إلى مجنون، دون سبب أو مبرر من أجل امرأة..؟ تلك السيدة، أرجـو ألا تجبرنى أن أقول فيها ما تكره، لأنى بالله لسوف آتى (بعاليها واطيها)، ولو بارت بضاعتى. فأنا لها! ما أسوأ ما تعرفني! ومن يعرفنى صام عن لحمى الـذى لا يؤكل. أقسم.

قال دون كيخوتى:

- سانشو، على ما يبدو، أنك لست بأعقل منى.

أجاب سانشو:

- لست بمثل هذا الجنون، لكنى أكثر حمية. لكن لندع هذا، ماذا سـوف تأكـل فخامتكم حتى أعود؟ أعليك الخروج إلى الطريق مثل كاردينيو لانتزاع الطعام من الرعاة؟

أجاب دون كيخوتى:

- حتى لو كنت أملك طعامًا، فلن آكل إلا الحشائش والثمار التى توجد فى هـذا المرج، وما تقذف به لى هذه الأشجار، فلطافة ما أقوم به فى عدم الأكل، ومـا شابه من خشونة الزهد.

- وداعًا، إذن. لكن تعرف مم أخاف؟ أن أضل عن طريق العودة إلى هذا المكان، الذى فيه أترككم الآن، فهو مختبئ.

– تنبه جيدًا للعلامات، وأنا سأحاول ألا أبتعد عن هذه المنطقة–قال دون كيخوتي–، وسوف أعنى بتسلق هذه الصخور العالية لترقب قدومك. لكن الأضمن حتى لا تجرحني وتتوه، هو أن تقطع بعض نباتات الرَّتَم– وهي كثيرة هنا– وتلقي بها وراءك على مسافات منتظمة، حتى تخرج إلى الفضاء المكشوف، وهي سوف تفيدك باعتبارها علامات ومعالم، مثل خيط التيه لتيسيو.

أجاب سانشو بانثا:

– هكذا سأفعل.

وبعد قطع بعض النباتات، طلب مباركة سيده، دون التنازل عن إدرار الدمع فيما بينهما، ثم استودع سيده الله. وامتطى روثينانتي بينما كان سيده يوصيه عليه كثيرًا، ناظرًا إليه نظرته إلى نفس نفسه، ثم اتخذ الطريق نحو الأرض المنبسطة ناثرًا فروع الرتم كل مسافة كما نصحه سيده. وهكذا رحل، وسيده في تلك اللحظة يؤرقه أن يجعله يشهد زوجًا من حماقاته. ولم يسر أكثر من مائة خطوة حتى التفت وقال:

– أقول بأن فخامتكم أحسن القول، بأنني حتى أحلف دون حنث، ودون حمل على الضمير، إنني رأيتكم ترتكبون الحماقات، سيكون من الطيب، أن أرى ولو حتى حماقة واحدة، وإن كان بقاؤك هنا من الحماقات الكبرى التي رأيت.

قال دون كيخوتي:

– ألم أقله لك أنا؟ انتظر سانشو، وسوف أفعل في أقل من الوقت الذي تستغرقه صلاة.

وخالعًا السراويل بأسرع ما أمكنه، بقى منه اللحم وكفولـــة رضـــيع، ودون مقدمات ضرب الهواء ببعض الركلات، ومتشقلبًا مرتين، رأسه أسفل وقدماه إلـــى السماء، أدار سانشو عنان روثينانتى، حيث اكتشف أشياء، لم يحب أن يراها ثانية، وأحس بالرضا والانبساط، من أنه يمكنه القسم بأن سيده أمـــسى مجنونـــا. وهكـــذا فلنتركه يذهب حتى عودته التى ستكون خاطفة السرعة.

الفصل السادس والعشرون
حيث تستمر رقائق العشق فى مجاهدات دون كيخوتى فى سييرامورينا

ونعود لحكاية ما صنع صاحب الصورة الحزينة بعد أن رأى نفسه وحيدًا، تقول القصة إن دون كيخوتى حالمًا أنهى شقلبته ونصفه الأسفل عار، بينما الأعلى مكسوّ، ورأى أن سانشو مضى دون أن يحب أن يرى سفاهات أكثر، صعد على سنّ صخرة عالية، وهناك عاد للتفكير، فيما فكر فيه من قبل مرات كثيرة، دون حسم، ماذا أفضل، وأدخل إلى الغرض: تقليد روردان فى جنونه الغاضب، أم أماديس فى جنونه الأسيان، ومحدثًا دخيلة نفسه كان يقول" "إذا كان روردان فارسًا عظيمًا، وجسورًا، كما يقول الجميع، فأى معجزة، أن يكون مسحورًا، ولا يمكن لأحد قتله دون وضع دبوس (ثمنه لا يزيد على درهم)، فى كعبه، وكان يرتدى دائمًا حذاء بسبعة نعال من الحديد؟ ولم تجده فى شيء فى معركته مع برناردو ديل كاربيو، الذى أغرقه بين ذراعيه فى رونسفال. لكن لنترك أمر شجاعته لأمر آخر، وهو فقدان العقل، وبالتأكيد، فإنه قد فقده بالإشارات التى رآها فى النبع، وبالأخبار التى أعطاها له الراعى، من أن أنخيليكا قد نامت أكثر من قيلولتين مع ميدورو، الشاب المسلم ذى الشعر الأجعد، والذى يعمل خادمًا عند أرجامانتى، فإذا كان فهم أن الأمر حقيقة، وأن سيدته قد ارتكبت خيانة مذلة ضده، فليس بكثير أن يجن، فلم أحاكيه فى الجنون، إن لم أكن محاكيًا له فى أسباب الجنون. لأن سيدتى دولثينيا دل توبوسو، أجسر علىّ أن أقسم أنها لم تر مسلمًا فى حياتها بل لم تر حتى ملابس

مسلم، و أنها اليوم ما زالت كما ولدتها أمها. فإذا ما جننت جنون رودان الغضوب بسببها، فمعناه أننى أتخيل صورة أخرى لها مما يعد عدوانًا صريحًا ضدها. ومن ناحية أخرى، أرى أن أماديس دى جاولا، دون أن يفقد العقل، ودون حماقات، لحق بالشهرة العالية باعتباره عاشقًا، لأن ما فعل، طبقًا لقصته، لم يكن أكثر من أن رأى نفسه مطرودًا من قبل سيدته أوريانا، التى أمرته ألا يظهر فى حضرتها حتى تريد هى ذلك، مما دعاه للاعتزال إلى الصخرة الفقيرة، فى صحبة ناسك، وهنا تجاوز حدوده فى البكاء، وفى تسليم أمره إلى الله، حتى أنجدته السماء، فى ذروة المحنة والاحتياج. وإذا كان ذلك حقًا، وهو حق، فلم أتكلف جهد عريى من كل شيء، وجلب الاكتئاب لهذه الأشجار، التى لم تؤذنى فى شيء، وليس على أن أعكر المياه الصافية لهذه النهيرات، التى تمدنى بالشراب العذب عندما أحب. عاشت ذكرى أماديس، وليكن مثلاً لدون كيخوتى دى لامانشا فى كل ما يستطيع من محاكاة له، الذى سيقال عنه ما قيل عن الآخر: إذا لم يكن أنجز أشياء عظيمة، فقد مات من أجلها، وإذا لم أكن متعوسًا أو مطرودًا من دولثينيا دل توبوسو، يكفينى كما قلت، أن أكون غائبًا عنها. إذن، إلى العمل: احضرى إلى ذاكرتى يا أشياء أماديس، وعلمينى من أين أبدأ فى محاكاتك، واسلمى أمرى إلى الله، لكن، ماذا أصنع حول المسبحة، إذا لم تكن فى حوزتى؟

فى هذا سار فكره كما كان يسير، وكان أن مزق شريحة طويلة من حافة قميصه الدنيا، ذلك القميص الذى بقى معلقًا فوق جسمه، وصنع بها إحدى عشرة عقدة، أولاها كانت أكبر من الباقيات، وتلك خدمته باعتبارها مسبحة، الوقت الذى قضاه هناك، حيث سبح مليون تسبيحة ملائكية. والذى كان يرهقه افتقاد صحبة ناسك حتى يعترف له، ومعه يسرى عن نفسه، فتسلى بالتمشية بالمرج كاتبًا وحافرًا على لحاء الشجر، وعلى الرمال الناعمة، أشعارًا كثيرة، تتفق وأحزانه، وأخرى فى

الثناء على دولثينيا. لكن الأشعار التى أمكن وجودها كاملة، وأمكن قراءتها فيما بعد حين وجدوها هناك، لم تكن غير هذه الأبيات التى تلى:

أيتها الأشجار، والحشائش والنباتات

اللائى أنتن هنا حاضرات

باسقات، خضر وغزيرات

إن كنتن لا تبتهجن من أسايا

فلتسمعن المقدس من شكاوايا

ألمى لن يضج فى سكونكن

حتى لو كان فازع الشجن

وحتى من الحياة أهبكن حصتي

هنا حيث بكى دون كيخوتي

غيبتها عنه دولثينيا

دل توبوسو

*

هذا المكان تحت السماء وحده

حيث المحب الأعظم فى الولاء

من سيدته مستخف هنا وحده

فكان إلى شر البؤس جاء

دون أن يدرى كيف وأين الثواء

أحضره الحب وبدده

حب بالشر أوعده

حتى امتلأ الإناء بدمعتي

هنا حيث بكى دون كيخوتي

غيبتها عنه دولثينيا

دل توبوسو

*

باحثًا عن المغامرات

بين صلادة هذه الصخرات

لاعنًا ألف قسوة نادرات

بين الصخور والمنحنيات

يجد الحزين التعاسات

جرحه الحب بسوطه

وليس بلمسات بسطه

ولف قيده حول رقبتي

هنا حيث بكى دون كيخوتي

غيبتها عنه، دولثينيا

دل توبوسو

لم تكن ضحكاتهم قليلة من وجدوا هذه الأشعار، لإضافة التوبوسو إلى اسم دولثينيا، حيث إنهم تصوروا أن دون كيخوتى يجب أن يكون قد تصور أنه منهيًا كل مقطوعة باسم دولثينيا، لن تكون المقطوعة مفهومة دون زيادة (دل توبوسو) حتى لو كانت تفسد النظم، وكان هذا عين الحق حسبما اعترف فيما بعد. كتب أشعارًا أخرى كثيرة، لكنهم لم يستطيعوا قراءتها بالكامل مثلما تمكنوا من قراءة هذه المقطوعات الثلاث. بهذا، مع التنهدات، واستدعاء جن هذه الغابات من كل نوع مع جنياتها، وعرائس الأنهار من مائها، والصدى عروسة الأصوات الحزينة بكل آلامها وطراوتها، طالبًا منها أن تجيبه، وتعزيه وتستمع إليه وتواسيه(*)، وبالبحث عن بعض الحشائش يتغذى بها حتى يعود سانشو، والذى غاب ثلاثة أيام، عاشها ثلاثة أسابيع (فارس الصورة الحزينة)، حتى تبددت صورته، فلن تعرفه أمه التى ولدته.

وسيكون من الخير أن نتركه مع تنهداته وأشعاره، حتى نحكى ما حدث لسانشو فى مهمته، وكان أنه عند خروجه إلى الطريق الملكى، بدأ البحث عن الطريق إلى التوبوسو، وفى اليوم التالى وصل إلى النزل حيث تم تقاذفه بالبطانية، وعند رؤيته، رأى نفسه مرة أخرى يطير فى الهواء، فلم يحب الدخول، رغم أنها الساعة التى يمكنه بل يجب عليه فيها الدخول، لأنها ساعة الطعام، وكانت تحرقه الرغبة فى أكل شيء ساخن، حيث قضى أيامًا طويلة مع الأكل البارد.

هذه الحاجة دفعته للاقتراب من النزل، مع حيرته فى الدخول من عدمه، وبينما هو على هذه الحال خرج من النزل شخصان، وعندها عرفاه فى الحال. قال أحدهما للآخر:

(*) عروسة الصدى، هى عاشقة "ترسيس"، التى هجرها ورفضها.

– قل لى أيها الجامعى هذا الجواد، أليس عليه سانشو بانثا، والذى قالت عنه أمة مغامرنا، أنه خرج معه باعتباره خادمًا؟

– نعم هو– قال الجامعى– وهذا الجواد هو جواد صديقنا دون كيخوتى.

وعندما تعرفا عليه جيدًا، فهما لم يكونا إلا الحلاق والقسيس لنفس قريته، واللذان قاما بفحص الكتب ومحاكمتها. توجها إليه، بعد الانتهاء من التأكد من شخصيته تأكلهما الرغبة فى معرفة شيء عن دون كيخوتى. نادى عليه القسيس باسمه، قائلاً له:

– سانشو بانثا، أيها الصديق، أين سيدكم؟

وهنا تعرف عليهما سانشو بانثا، وقرر أن يخفى خبر مكان ومصير سيده، وهكذا أجابهما أن سيده تخلف فى أحد الأمكنة، لأمر مهم جدًا، وليس فى وسعه الكشف عنه، ولو كان الثمن التضحية بعينيه اللتين فى عرض وجهه.

قال الحلاق:

– لا، لا، سانشو بانثا، إذا لم تقل لنا أين تخلف عنك سيدك، فسوف نتخيل، بل نحن نتخيل، أنك قتلته وسرقته، وها أنت تأتى معتليًا جواده. فى الحقيقة، إن لم تقدم لنا مكان صاحب هذا الجواد، فيا لسواد ليلتك!

– لا مكان معى للتهديدات، فلست الرجل الذى يسرق أو يقتل أحدًا: كل نفس يقتلها قدرها أو قل قدر الله. سيدى فى قلب هذه الجبال يمارس التوبة بكل مزاج رائق.

من ثمّ، حكى لهما فى تدفق، ودون توقف حظهما من الأحداث، والمغامرات التى وقعت لهما، وكيف أنه يحمل خطابًا إلى السيدة دولثينيـا دل توبوسـو، ابنـة لورينثو كورتشويلو، والتى هو بها مغرم حتى تفتيت الكبد. وبقيا فى عجـب ممـا حكاه لهما سانشو، مع أنهما يعرفان جنون دون كيخوتى، وجنس هذا الجنـون، إلا أنهما لا يتوقفان عن العجب كلما سمعا عنه من جديد. طلبا من سانشو أن يريهمـا الخطاب الذى يحمله إلى السيدة دولثينيا دل توبوسو. قال لهما إنه مكتوب فى كتيب مذكرات، وأن أوامر سيده هو نسخه على ورقة فى أول مكان يصادفه للنسخ، ورد القسيس بأنه يريد رؤيته لنسخه بخط جميل. وضع سانشو بانئا يده فى حجره، بحثًا عن الدفتر، لكن لم يجده، ولن يمكنه أن يجده حتى لو بحث عنه إلى لحظـة كتابـة هذه القصة، لأن الدفتر بقى مع دون كيخوتى، ولم يسلمه لسانشو، وهذا لم يتـذكر أن يطلبه من سيده.

عندما رأى سانشو أنه لا يجد الكتاب تجمدت معالم وجهه جمـود المـوت، وانقلب هذا الجمود ليشمل بقية الجسم، فى سرعة خاطفة، وبدون مقدمات تـوترت قبضتا يده على لحيته لينزع من الجذور نصف شعراتها، وفى الحال، ودون توقف صفع وجهه بنصف دستة من اللكمات، حتى استحم الوجه واليد معًا بالدم. وعنـدما رأى القسيس والحلاق ما حدث، قالا له، أى سوء ألم به. أجاب سانشو:

– ليس ما ألم بى بل ما يلم، من فقدان ثلاثة جحوش، كل جحش منهم مثل القلعة، والأمر الذى يحدث له فى هذه اللحظة هو ضياع وثيقة مقايضتهم.

قال الحلاق:

– وكيف هذا؟

أجاب سانشو:

– فقدت دفتر المذكرات، حيث كتب خطابًا إلى دولثينيا، ووثيقة مكتوبة بخط سيدى وتوقيعه، يأمر فيها ابنة أخته تسليمى ثلاثة جحوش من أربعة أو خمسة يوجدون فى البيت.

وبعد هذا، حكى لهما عن ضياع حماره البنى. عزّاه القسيس، وقال له إنه بالعثور على سيده، فإنه سوف يجدد الوثيقة، وعلى ورق منفصل كما هو المعتاد، والجارى العمل به، لأن الوثائق التى تعمل فى دفتر مذكرات لا يؤخذ بها، ولا تدخل قط فى حيز التنفيذ.

بهذا تعزّى سانشو، وقال مادام الأمر كما أخبره القسيس فإنه لا يحزن كثيرًا لفقدان الرسالة لدولثينيا، لأنه يعرفها تقريبًا من الذاكرة، وبالتالى فهو قادر على نسخها من ذاكرته أينما، وعندما يشاء.

قال الحلاق:

– قلها إذن، سانشو، وبعدها ننسخها.

توقف سانشو بانثا كى يهرش فى رأسه حتى يستحضر الرسالة إلى ذاكرته، مائلاً مرة نحو اليسار متكئًا على قدم ومرة أخرى نحو اليمين متكئًا على القدم الأخرى، ومرات كان ينظر إلى الأرض، ومرات أخرى إلى السماء، وفى نهاية قرض نصف أنملة لإصبعه، تاركًا معلقين من يودون سماعها منه. قال عقب فترة طالت جدًا:

– بحق الإله، أيها السيد الجامعى، إن الشياطين تحمل عنى بعيدًا ذلك الشيء الذى يذكرنى بالخطاب، لكنه كان يقول فى البداية: "سيدتى المليئة السامية".

قال الحلاق:

- لن يقول "المليئة"، وإنما المليكة أو الرفيعة.

قال سانشو:

- هو هذا. وبعد ذلك، إذا لم أكن سيئ التذكر، يواصل ... إذا لم أكن سيئ التذكر "الملووح والأرق، والجريح يقبل منكم اليدين، ناكرة الجميل، الحسناء المغمورة". ولا أدرى ماذا كان يقول عن صحة التحية ومرضها، التى يرسلها لها، وهنا كان يهيم بالكلمات حتى انتهى: "ملكك حتى الموت، الفارس ذو الصورة الحزينة".

لم يكن سرورهما قليلاً من رؤية الذاكرة اللامعة لسانشو بانثا، وامتدحاها كثيرًا، وطلبا منه إعادة ترديد الخطاب مرتين، حتى يحفظاه فى ذاكرتهما مثله كى ينسخاه فى الوقت المناسب. عاد لترديده سانشو ثلاث مرات، ومرات ثلاث عاد إلى قول ثلاثة آلاف من الترهات. بعد هذا، حكى عن أشياء سيده، لكنه لم ينطق كلمة واحدة عن تقاذفه بالبطانية فى ذلك النزل، الذى أحجم عن دخوله. وقال أيضًا إن سيده، عند إحضاره له ردًا جميلاً من السيدة دولثينيا دل توبوسو، سوف يشرع فى طريق محاولة أن يصير إمبراطورًا، أو على الأقل، ملكًا، وهذا كان لديه ولدى سيده أكيد، وهو أمر سهل جدًا تحققه بفضل شجاعة شخصه، وقوة ساعده، وعندما يصير ذلك واقعًا، فسوف يزوجه سيده من إحدى وصيفات الإمبراطورة؛ لأنه حينذاك سيصير أرملاً، لأنه لا يمكن أن يدنو عن ذلك، حتى يتزوج هذه الوصيفة الوريثة لدولة على أرض صلبة وليس (جزيرًا)، أو جزيرة، مما لا يحب الآن أن يحكم. وعند قوله هذا فى تؤدة وراحة، منظفًا بين الحين والحين فتحات أنفه، مع قلة عقل وتمييز، حتى أن الاثنين أصابهما أعجب العجب من جديد، فى اعتبار للحدة التى وصل إليها جنون دون كيخوتى، من ثم اكتسح معه عقل هذا الرجل

المسكين. لم يحبا أن يتعبا أنفسهما بأن ينزعاه من الخطأ الواقع فيه، وقد بدا لهما، أن الأمر لم يكن عنده موضع أى شك فى ضميره، فالأفضل تركه فيه، وهما سيكون من أفضل متعهما الاستماع إلى تخاريفه الحمقاء. وهكذا، قالا له، أن يتضرع إلى الله بأن يمتع سيده بالصحة، وهى عنصر قوى وفاعل مع مرور الوقت فى جعله إمبراطورًا، كما يقول هو، أو على الأقل، أسقفًا أو رتبة عالية مماثلة. وقد أجاب على هذا سانشو:

– أيها السيدان، إذا الحظ أحاط بالأشياء بالطريقة التى تحول إرادة سيدى فى ألا يصير إمبراطورًا ليصير أسقفًا، أريد أن أعرف الآن ماذا اعتاد أن يهبه الأساقفة المشاءون إلى تابعيهم من حاملى دروعهم.

أجاب القسيس:

– اعتادوا أن يهبوهم بعض المنافع، مثل أحواز كنيسة،أو صندوق نذور، يدر عليهم دخلاً ثابتًا، مع الاشتراك فى إقامة الصلوات، وهو مصدر آخر للدخل فى مثل الأول.

أجاب سانشو:

– للحصول على هذا من الضرورى أن يكون التابع غير متزوج، وأن يعرف فى المعاونة فى الصلاة، على الأقل. ما أتعسنى، فأنا متزوج، ولا أعرف أبجد من هوز! ما مصيرى لو سيدى جاءته نزوة أن يصير أسقفًا، وليس إمبراطورًا، كما هى عادة ومصير الفرسان المشائين.

– لا تألم، صديقى سانشو– قال الحلاق –، فإننا سوف نتضرع لسيدك، وسوف ننصحه، ونضيء وعيه بأن يصير إمبراطورًا، وليس أسقفًا، لأن هذا أسهل له، فشجاعته تؤهله للسيادة أكثر من العبادة.

أجاب سانشو:

- هذا رأيي، لكن أعرف أقول إنه كفء لكل شيء. ومن ناحيتي، فإنني سأتوسل إلى الله أن يدفع به إلى بلاد يخدمونه فيها، وحيث يخلع عليَّ من النعم ما هو أكثر.

قال القسيس:

- أطلب هذا من الله في كياسة، وسأطلبه أنا بوصفي مسيحيًا تقيًا. والآن، علينا أن ندبر نظامًا لإخراج سيدك من هذه التوبة غير المجدية، والتي تقول إنه بقي قائمًا عليها،و حتى نفكر في الطريقة التي علينا اتباعها، وحتى نأكل- وقد حانت الساعة، من المستحسن أن ندخل النزل.

قال لهما سانشو أن يدخلا وسوف ينتظرهما بالخارج، وبعد ذلك سوف يقول لهما عن السبب، لأنه لا يدخل هذا النزل، ولا يناسبه الدخول، ولكنه يرجوهما أن يخرجا إليه حيث هو شيئًا يأكله، وأن تكون أكلة ساخنة، مع بعض الشعير لروثينانتي. دخلا، وتركاه، وبعد قليل، خرج إليه الحلاق بالطعام. بعد ذلك، وقد تدبرا الأمر بينهما جيدًا، وبالطريقة التي تحقق لهما ما يرغبان الحصول عليه، فقد مر على بال القسيس طريقة على مقاس مزاج دون كيخوتي، وعلى مقاس ما يبغيان إنجازه، وكان أن قال للحلاق، إنه سوف يرتدي ثياب سيدة على سفر، أما الحلاق فسوف يفعل ما يستطيع ليأخذ شكل الخادم لها، وهكذا يتوجهان لدون كيخوتي، حيث تدعي هي أنها سيدة ضعيفة وفي حالة اضطرار، وتطلب جميلاً منه، لن يستطيع التخلي عن تقديمه لها، بوصفه فارسًا مشاء يجير المضطرات. والجميل الذي فكر في طلبه، هو أن يصحبها، حيث تحمله، وأن يزيل عنها عدوانًا، شنه عليها فارس شرير ألوانًا وبشرط أن لنفسه خلال ذلك يقمع، بألا يسألها رفع البرقع، وألا يرغمها أن تكشف أمرها والشأن، حتى يزيل إصرها والعدوان،

ويمنحها من شر ذلك الفارس الأمان، وأنه يظن أن دون كيخوتى سيستجيب في الحال لكل ما يطلب منه بهذا المقال، وبهذا يخرجانه من هناك على هذا المنوال، ويحملونه إلى قريته، ويبحثون عن دواء لمصيبته، وغرابة جنونه وسطوته(*).

(*) تم سجع هذا الجزء الأخير لمحاكاة لغة القسيس، التى حاولت محاكاة لغة روايات الفروسية، وهى قريبة من لغة المقامات العربية.

الفصل السابع والعشرون
عن كيف حقق القسيس والحلاق قصدهما، مع أشياء أخرى جديرة بأن تحكى فى هذه القصة العظيمة.

لم يبد للحلاق اختراع القسيس سيئًا، بل إنهما أيضًا وضعاه موضع التنفيذ. طلبا من زوجة صاحب النزل تنورة، وخمارًا، والقسيس استخدم من ثوب جديد له فستانًا نسائيا، والحلاق صنع لحية هائلة من خصلة بنية أو حمراء لذيل ثور، كان يعلق صاحب النزل فيها المشط. سألتهما امرأة الفندقى، لماذا يطلبان هذه الأشياء. القسيس حكى لها باختصار عن جنون دون كيخوتى، وكيف يناسب هذا التنكر مقصد انتزاعه من الجبال حيث كان فى تلك اللحظة من الزمان. أدرك الفندقى وزوجته أن المجنون هو نزيلهم صاحب البلسم، وسيد التابع، الذى تقاذفه بعض الزبائن ببطانية، وحكوا للقسيس كل ما حدث لهم معه، دون أن يسكتوا عما سكت عنه سانشو. وباختصار، قامت زوجة صاحب النزل بإلباس القسيس، حتى لم يبق بعدُ ما ينقصه ليكون فى صورة امرأة. ألبسته تنُّورة من قماش رقيق، ذات حزام من قطيفة سوداء بعرض الكف، بها نقر مفتوحة مصفوفة، وصديرى جونلة أخضر، بحواش ذات لون أبيض مصفًّى تزينه، وكان هو والتنورة كما لو صارا من صنع زمن الملك بامبا(*)، لم يوافق القسيس على أن ينقبوه بالخمار، بل وضع على رأسه قلنسوة كاردينالية صغيرة (مثل الطاقية) من تيل وثير، كان يلبسها عند

(*) مجرد اسم امرأة، لكنه يرمز فى الموروث الشعبى إلى الفتاة المسترجلة "الفظة سيئة العشرة".

النوم ليلاً، وعصب جبهته برباط حرير تفته، منه انسدل شريط عريض آخر على الوجه حتى غطى اللحية، صانعًا هكذا بيشة أو برقعا، ثم وضع قبعته التى كانت عريضة لتصير مثل الشمسية، والتحف بالعباءة باعتبارها ملاءة، وصعد فى أنوثة على بغلته، ثم امتطى أيضا الحلاق بغلته الأخرى، بلحيته التى تصل إلى خاصرته، بشعر بين الأبيض والأحمر، كما لو كانت، مثلما سبق الذكر، مصنوعة من ذيل ثور موحل.

ودَّع بعضهم بعضًا، كما ودَّعا ماريتورنس التقية، ووعدت، مع أنها آثمة، أن تصلى صلاة التسبيح، حتى يلهمهما الله النجاح فى مثل هذه المهمة العسيرة والمخلصة، التى فيها يشرعان. لكن لم يكد يخرج القسيس من النزل حتى وردت على خاطره فكرة أنه أساء التصرف من لبس هذا الزى، فهو شيء غير مهذب أن يفعل قسيس ما فعل. وقد طال به الفكر، حتى قال للحلاق أن يقايضه الثوب، فالأكثر عدلاً أن يكون الحلاق الفتاة، ويكون القسيس تابعها، وهكذا يقل انتهاكه لمكانته، وإذا كان الحلاق لا يرغب فى ذلك، فإنه لن يواصل هذا الطريق، حتى لو اختطف الشيطان دون كيخوتى. وهما على هذا الحال وصل سانشو، وعندما رآهما فى هذه الثياب، لم يستطع أن يكتم الضحك. وبالفعل، استجاب الحلاق لكل ما طلب القسيس، وتبادلا أدوار الاختراع. أفهمه القسيس الطريقة التى يتبعها، والكلمات التى يجب أن يقولها لدون كيخوتى حتى يحفزه، ويجبره على أن يذهب معهما، ويترك ميله إلى المكان الذى اختاره لتوبته الفارغة. قال له الحلاق إنه سوف يضع الأمور فى نصابها دون حاجة لدروسه. لم يحب أن يرتدى الملابس فى الحال حتى يقتربوا من دون كيخوتى، وهكذا طبق ملابسه، على عكس القسيس الذى وضع اللحية، وواصلوا طريقهم يرشدهم سانشو بانثا، الذى كان يحكى لهما ما حدث مع المجنون الذى وجدوه فى السلاسل الجبلية، مخفيًا اللقية التى شملت الحقيبة، وما كان بها، ومع أن الفتى سانشو كان أبله فإنه بعض الشيء طماع جشع.

وفى اليوم التالى، وصلوا إلى المكان الذى نثر فيه سانشو أعواد الرتم حتى يصيب بدقة مكان دون كيخوتى، حيث تركه، وقال لهما إن هذه هى المدخل، من ثم قال لهما إنهما فى تلك النقطة يمكنهما ارتداء ملابس اختراع القسيس، إذا كان فى ذلك تحرير سيده، لأنهما سبق أن قالا له، إن هذه الخطة وتلك الملابس بهذه الطريقة كانت من الأهمية لإخراج سيده من تلك الحياة الصعبة التى اختارها، وأوصوه ألا يقول لسيده عمّن هما، وأنه لا يعرفهما، وإذا سأله- كما يجب أن يفعل-عما إذا كان أعطى الخطاب لدولثينيا، عليه أن يجيب بنعم، وأنها بسبب عدم إجادتها القراءة، أرسلت له الإجابة شفويا، قائلة إنه يؤلمها أن يقع فى التعاسة، وأنه فيما بعد عليه أن يأتى إليها ليراها، وهو شىء يهمها جدًا، لأنه بهذا، وبما يفكران فى قوله له كان لأمر مؤكد، هو أن يقتصر أمره على الحياة الرخية، ومعاونته بعدها على أن يبدأ الطريق ليصير إمبراطورًا، أو ملكًا، وأن عليه ألا يخشى من احتمال أن يصير أسقفا. استمع سانشو لكل شىء، وحفره حفرًا فى الذاكرة، وشكرهما كثيرًا، من سعيهما إلى نصح سيده أن يصير إمبراطورًا، وليس أسقفا، لأنه يفهم أن نعم الأباطرة لتابعيهم أبعد مدى من استطاعة الأساقفة المشائين. أيضًا، قال لهما إنه أفضل أن يتقدمهما ويعطيه رسالة سيدته، فهى كافية لإخراجه من هذا المكان، دون أن يكلفهم ذلك الجهد الجهيد. وبدا لهما طيبًا ما كان يقوله سانشو بانثا، وهكذا قررا انتظار عودته إليهما بأخبار سيده.

دخل سانشو عبر هذه الشقوق للسلاسل الجبلية، تاركًا هذين الاثنين، حيث كان يجرى نهير صغير، وأليف، تظلله بعض الصخور بظلال لطيفة منعشة، مشاركة لها فى ذلك بعض الأشجار التى كانت هناك. الحرارة، والنهار اللذان وصلا إلى هناك كانا ينتميان إلى شهر أغسطس، الذى يحمل فى تلك الأماكن الاشتعال والصهد اللافح، وكانت الساعة الثالثة مساء، فى مساعدة لجعل المكان

أكثر طراوة وقبولاً، فاستضافهما لانتظار عودة سانشو، وهكذا فعلا. وبينما كان الاثنان هناك في سكينة، تحت الظلال، وصل إلى مسامعهما صوت، دون أن يصاحبه نغم أي آلة أخرى كان يرن في عذوبة ودلال، مما جعل إعجابهما به ليس قليلاً، حيث تراءى لهما أن هذا ليس بالمكان الذي يمكن أن يوجد فيه من يحسن الغناء. ولأنه رغم ما تعودوا على قوله من أن الغابات والمراعي تضم رعاة لهم أصوات غاية في الحسن، فإن الواقع هو عدم صدق المقولة، تماماً مثل غيبة الشعر فيما يغنون، وما كانوا يسمعون هي أشعار منظومة لا تنتمي إلى غنامين خشنين، وإنما إلى غناء بلاطي رفيع، وتأكد ذلك بكون تلك الأشعار المغناة هي:

من يناوئ سعادتي؟

النفور

من يساعد تعاستي؟

الغيور

من يعجم صبري على الصعاب؟

الغياب

وبهذا السبيل أنا في العذاب

لا علاج أو دواء يستطاب

والأماني قبري تحت التراب

مع النفور والغيرة والغياب

*

من يسبب لى هذى الآلام؟

الغرام

ومن ينكر عليَّ الأمجاد؟

الحظوظ

ومن يوافق على ما بى من عذاب؟

السماء

من كل هذا استغضب

وموتى من هذا استغرب

حيث لألمى يستعذب

الغرام والحظوظ والسماء

*

ومن فى الحظ يعلى سهامى؟

تذوق الحمام

ومن يدرك عسل الغرام؟

تغير الأيام

ومن يشفيك من المنون؟

الجنون

هذا الطريق ليس من حسن الظنون

إرادة الشفاء من الشوق والأنين

الدواء: الموت، الهجرة، الجنون

الساعة، الزمن، الوحدة، الصوت، كل هذا مع حساسية المغني أدى إلى تعجبهما وسرورهما، هذان الاثنان المعلّقان فى انتظار سماع شيء آخر، لكنهما عند رؤيتهما استمرار الصمت، قررا الخروج، بحثًا عن هذا الموسيقى، الذى كان يغنى بهذا الصوت الجميل، وما إن شرعا فى تنفيذ القرار حتى أوقفهما نفس الصوت واصلا إلى أسماعهما من جديد، مغنيا هذه السوناتا:

أيتها الصداقة المقدسة

ذات الأجنحة الهفهافة

ظلك على الأرض يبارك الأرواح

بينما تصعدين للصالات العلوية

مبتهجة فى السماء

ومن هناك

عندما تحبين

تشيرين علينا بالسلام العادل

مغطى بحجاب

يترجمه البعض إلى حميَّة

تدفع نحو أعمال مجيدة، هى فى النهاية الشر

أوه، أيتها الصداقة

اهبطى من سمائك

أو حُولى بيننا وبين خداع

من يرتدى ملابسك التى تفتح الأبواب

وبها يدمر أخلص المقاصد

فإذا لم تخلعى عنه ظلالك

فما أسرع أن نرى العالم فى حرب وعراك

تنافرات فوضى الهيولى الأول

انتهى الغناء بتنهيدة عميقة، والاثنان فى تيقظ عادا فى انتظار عما إذا كان سوف يعود للغناء، لكن عندما رأيا أن موسيقى صوته عادت إلى نشيج، وآهات محزونة، اتفقا على معرفة من هذا الحزين المغرق فى حزنه، كما بدا من صوته ومن أناته، ولم يسيرا كثيرًا حتى رأيا خلف نتوء صخرة رجلاً بنفس الهيئة والصورة التى رسمها سانشو بانثا، عندما حكى لهما قصة كاردينيو، والذى كان عندما رأياه رجلاً بلا قفز أو وثب، ساكنًا برأس خفيضة تتكئ على الصدر، وفى هيئة إنسان غارق فى الفكر، دون أن يرفع عينيه لينظر إليهما، بعد أول نظرة، عندما وصلا فجأة، القسيس، وكان رجلاً حسن الحديث، وخاصة أنه يعرف محنته، ومن ثم عرفه بإشارات سانشو كمن قد سبق له التعرف عليه ما إن رآه، من ثم اقترب منه، وبعبارات مختصرة، ولكنها شديدة الكياسة، رجاه وأغراه أن يترك هذه

الحياة البائسة، لئلا يفقد الحياة نفسها، وتلك هي التعاسة كبرى التعاسات. في ذلك الوقت كان كاردينيو في كامل عقله، متحررًا من ذلك العارض العنيف الذي كثيرًا ما يخرجه من نفسه، وهكذا عندما رأى الاثنين في زي غير معتاد في تلك الوحشة، لم يستطع تجنب التعجب بعض الوقت، وأكثر عندما تكلما عن شأنه باعتباره أمرًا معروفًا (لأن العبارات التي قالها القسيس أوصلته لهذا الفهم)، وأجاب بهذه الطريقة:

- كنتما من تكونان، فإنني أيها السيدان أرى أن عناية السماء تنجد الطيبين، وحتى أيضًا الأشرار مرات كثيرة، وها هي ترسل إلى نجدتها، وإن لم أستحقها، في هذه الأماكن النائية المنعزلة عن حركة البشر، واضعة أمام عيني أسبابًا حية وعديدة تخلو منها الحياة التي أحياها في محاولة لإخراجي منها إلى ما هو أفضل، لكن كما أنهم لا يعرفون أنني أعرف أنه عند خروجي من هذا الضرر، عليَّ الوقوع في ضرر آخر أكبر، من ثمَّ عليهم النظر إلى باعتباري رجلاً ضعيف الحجة، بل أسوأ، ينظرون إلى باعتبار أنني بلا عقل.. ولن يكون عجيبًا، أن يكون الأمر هكذا، لأنني ألمح أن قوة خيال تعاساتي في كثافة قادرة على ضياعي، دون قدرة من جانبي على إعاقتها، وهكذا أصير، كحجر، خاليًا من أي حس عاقل أو معرفة، وأقع على الحقيقة عندما يحكي لي أحد ما حدث، ويعرض عليَّ إشارات وعلامات على الأشياء التي بدرت مني خلال سيطرة هذا الدور العارض علي، ولا أدري أكثر من التألم دون جدوى، ولعنة حظي دون فائدة، وأعتذر عن حماقات خبلي، حاكيًا سببها، عندما يحبون سماعها في إلحاح، وعندما يرى العقلاء السبب لا يتعجبون من أثره، وإذا لم يقدموا الدواء، فعلى الأقل لا يحملونني الذنب، متحولاً غضبهم

من ضراوتى إلى أسى على محنتى. وإذا كنتما أيها السيدان هنا لنفس الغرض، الذى جلب من قبل آخرين، فقبل المضى فى إغراءاتكما الفطنة، أرجوكما الاستماع إلى الحكاية التى تخلو من الكذب، عن ظروف غير المواتية، وعن انغماسى فى ويلات محنتى، لأنه بعد أن تفهما ضُرّى الذى كل عزاء عنه عاجز، ستوفران الجهد فى إقناعى.

والاثنان لم يكونا يرغبان شيئًا آخر غير معرفة سبب ضره من فمه مباشرة، وعليه فقد التمسا أن يحكى لهما، عارضين عليه ألا يقوما بأى شيء غير ما يريد فى أمر علاجه أو تعزيته، وبهذا بدأ الرجل الحزين قصته الأليمة، بنفس الكلمات والسياق الذى قصه على دون كيخوتى وراعى الماعز منذ أيام، عندما بقيت القصة ناقصة، عندما تجنب إكمالها بسبب انضباط فروسية دون كيخوتى، عند ذكر المايسترو اليسابات. والآن أراد الحظ الطيب، إيقاف نوبة الجنون نيسمح بحكايتها حتى نهايتها، وهكذا عندما وصلوا إلى نقطة البطاقة التى وجدها دون فرناندو فى كتاب "أماديس دى جاولا"، قال كاردينيو إنه يحفظها فى ذاكرته وكانت تقول:

من لوسيندا إلى كاردينيو

"كل يوم أكتشف فيكم قيمًا تجبرنى وتدفعنى إلى أن أقدّركم أكثر، وهكذا إذا أردت أن تخرجنى من هذا الدَّين دون أن أهدر شرفى، تستطيع أن تفعل بكل سهولة، فلى أب، وهو يعرفكم، ويحبنى كل الحب، والذي- دون ضغط علي- سوف ينجز، الذى من العدل أن يخصكم، إذا كنت تقدرنى، وكما أعتقد".

بهذه البطاقة، تحركت لطلب لوسيندا زوجة لى، وكما حكيت لكم، بها صارت لوسيندا فى رأى دون فرناندو واحدة من أذكى النساء وأكثرهن عقلاً فى

عصرها، وهذه البطاقة، هي التي أيقظت رغبته في تدميري، قبل أن يتحقق حلمي. وقلت لدون فرناندو عما يعدّل موقف والد لوسيندا، وهو أن يطلب أبي يــدها لــي، الأمر الذي لم أكن أجسر على طلبه منه، خائفاً من عدم موافقتــه، لــيس لأنـــه لا يعرف جيدًا كفاءة ونبالة وفضيلة وحسن لوسيندا، ولديها من المزايا الكافية لنبالـــة أي نسب في إسبانيا، بل لأنني كنت أدرك أنه لا يريد أن أتزوج بــسرعة قبــل أن يعرف ماذا سيصنع الدوق ريكاردو معي. في اختصار، قلت له، عليَّ ألا أغــامر بطلب ذلك من أبي، لهذه العقبة، وعقبات أخرى، كانت تملأنـــي بــالجبن، دون أن أعرف تلك العقبات تحديدًا، فقط بدا لي أن ما أرغبه لن يحدث أبدًا. ردا على هــذا كله، قال لي دون فرناندو إنه سيكلم أبي، وسيجعله يكلم والد لوسيندا. أوه، مــاريو الطموح! أو كاتيلينا القاسي! أوه، سيلا الفانتازي! أوه، جالالون الكذاب! أوه، بييدو الخائن! أوه، يهوذا الطماع! خائن، قاس، مُنتقِم، كذاب، أي أذى ألحقه بك من كشف لك بكل سلاسة أسرار قلبه وفرحته؟ أي عداء قدمته لكم؟ أي كلمــات قلتهــا لكــم ونصائح، كانت كلها لسموِّ شرفك؟ لكن، من أي شيء أشكو؟ ما أتعسني! لأنه شيء يقيني عندما يحضر المحن تيار النجوم، فكما أنها تهبط من أعلى إلى أســفل فـــي غضب وعنف، فلا توجد قوة على الأرض تستطيع إيقافها، ولا حيلة للإنسان تقدر على صدها. من يستطيع أن يخمن أن دون فرناندو، فارس لامــع ذكــي، مــدين لخدماتي، جبار لنيل كل ما تطلبه إليه رغائبه العشقية، وحيثما هاجته كان عليه أن يشبعها، فيمارس اغتصاب (كما اعتادوا القول) الغنمة الوحيدة التي نلتها، ولم أكــن بعد قد ملكتها؟ لكن بقيت كل هذه الاعتبارات جانبًا باعتبارها شيئًا لا يعول عليــه، ودون فائدة، ولنعقد الخيط المقطوع لقصتي.

أقول، وقد بدا لدون فرناندو أن حضوري غير مناسب لتنفيذ تفكيره الزائــف والشرير، قرر إرسالي إلى أخيه الأكبر، لطلب بعض النقود لدفع ثمن ستة خيــول

فى تحايل لهذا الغرض حتى أغيب (حتى يخرج بأفضل ما يمكــن مــن محاولتــه المؤذية)، وقد اشتراها فى نفس اليوم الذى وعد فيه بـالكلام مــع أبــى، وأراد أن أحضر له النقود، هل أستطيع أن أتوقع تلك الخيانة؟ هــل أســتطيع أن أتخيلهــا؟ بالتأكيد لا، من ثمّ، تطوعت بكل الســرور للسفر عندها، مغتبطًا بالصفقة الجيــدة. فى تلك الليلة تكلمت مع لوسيندا، وقلت لها عما اتفقت عليه يقينًــا مــع فرنانــدو، وعليها أن تمتلئ بالأمل بأن رغباتنا العادلة والطيبة سوف تتحقق، قالت لــى هــى بكل ثقة، مثل ثقتى فى خيانة دون فرناندو، أن على أن أحاول العودة سريعًا، لأنها كانت تعتقد أن إنجاز إرادتينا لن يتأخر إلا بمدى تأخر أبى فى الكلام مع أبيها. ولا أدرى ما حدث، فما إن قالت ذلك حتى امتلأت عيونها بالدموع، واخترقــت حلقهــا غصة، لم تدعها تقول كلمة واحدة، مما بدا لى أنها كانت تحاول قوله لى. وبقيــت متعجبًا من هذا الطارئ الجديد، الذى لم يسبق منها له مثيل قط معى، لأننــا دائمًــا نتحادث، فى المرات التى كان الحظ الطيب ومسعاى يمكننى من محادثتهــا، فــى فرحة وسرور، دون أن نخلط ثرثرتنا بالدموع، والتنهيدات والغيــرة، والــشكوك، والمخاوف. كل شىء كان يتجه لنمو حظى بأن أعطتنى إياها الــسماء باعتبارهــا سيدة لى، فقد بالغت فى جمالها، وملأتنى بالإعجاب بشجاعتها وذكائها. وكانت تعيد إلىَّ ثمن إعجابى، مثنية على ما بدا لها فىَّ باعتبارها عاشقة لى. وعلى هذا الحــال كنا نحكى لبعضنا مائة ألف من حكاوى الصبيانيات، ووقائع جيراننــا، ومعارفنــا، وما كان يدرك من أقصى درجات جرأتى كان أخذ يدها الجميلة البــضة البيــاض قسرًا، وإيصالها إلى فمى بقدر ما كان يسمح الفراغ بين قضبان السور الذى يفصل بيننا. لكن الليلة التى سبقت يوم رحيلى الحزين، بكت هــى، وتأوهــت، وتنهــدت، وذهبت تاركة إياى مليئًا بالحيرة والاضطراب، فزعًا من أن أرى علامات جديــدة وحزينة للألم والأسف فى لوسيندا، ولكنى حتى لا أحطم آمالى نسبت كل شىء إلى قوة الحب الذى تكنه لى، وألم الفراق بين من يتحابون.

فى النهاية، رحلت حزينًا ومتفكرًا، والنفس مليئة بالخيالات والـشكوك، دون أن أعرف فيمَ أشك، وماذا أتخيل. مؤشرات واضحة، كان يبرهن عليهـا الحـدث الحزين والتعاسة التى كانت تخفيها عنى. وصلت إلى المكان الذى أرسـلت إليـه، وسلمت الخطابات للأخ الأكبر لدون فرناندو، وقد استقبلت جيدًا، لكن لم أمكن مـن العودة عاجلاً، لأنه أمرنى بالانتظار، وكان ذلك لتنغيصى ثمانية أيام، ومن ناحيـة أخرى فإن الدوق لم يرنى، لأنه طلب النقود من أخيه على ألا يعلم أبوه، وكان كل شيء اختراعًا من المزيف دون فرناندو، لأن النقود لم تكن تـنقص الأخ الأكبـر لإعادتى فورًا إلى مدينتى. أمر الحب وسطوته وضعانى فى موقف من لا ينبغى أن يطيع، لأنه بدا لى مستحيلاً تحمل أيام عديدة غائبًا عن لوسـيندا، وخاصـة أنـى تركتها فى الحزن الذى حكيت عنه، ومع كل هذا أطعت بوصفى خادمًا مخلـصًا، وإن رأيت أن ذلك كان على حساب صحتى. ولكنى فى اليوم الرابـع لوصـولى، وصل رجل يبحث عنى، بخطاب سلمه لى، من عنوانه عرفت أنه من لوسيندا، لأن كلماته كانت من خطها. فتحته خائفًا وفزعًا، لأنه يجـب أن يكـون خطبًا عظيمًـا الذى حركها للكتابة لى فى غيبتى، وهى قليلة الكتابة لى فى حـضورى، وسـألت الرجل قبل قراءته، من الذى أعطاه له، والوقت الذى استغرقته فى الطريـق. قـال لى: إنه كان يمر بأحد شوارع المدينة ساعة منتصف النهار، فنادتـه سـيدة فائقـة الجمال من نافذة، وعيونها مخضلة بالدموع، وفى عجلة قالت له:

– أخى، إذا كنت تقيًا، كما يبدو عليكم، فبحق الله، أتوسل إليكم حمـل هـذه الرسالة العجل العجل إلى المكان والشخص المثبتين فى العنـوان، المعـروف جيدًا، وبهذا تقدم خدمة جليلة لله، ولن تعدم توفير سبل الراحة لكم للقيـام بذلك، خذ ما فى هذا المنديل، وقائلة هذا ألقت إلى من النافذة المنديل حيث صرَّت مائة ريال، وهذه القطعة من الحلى الذهبى التى أحضرها لكم، مـع

الخطاب الذى أعطيته لكم. وهنا دون انتظار إجابة أكثر، اختفت من النافذة، لكنها قبل ذلك رأتنى ألتقط الخطاب والمنديل، وبإشارات قلت لها إنى سأفعل ما أمرتنى. وبهذا، وقد رأيت أجرًا مرتفعًا لهذا العمل المتعلق بإحضاره إليك، وكما عرفت أنكم من يتوجه إليكم الخطاب فى عنوانه، لأننى يا سيدى أعرفكم جيدًا، وفوق ذلك مضطرا أمام دموع هذه السيدة الحسناء، قررت ألا أثق فى أى شخص آخر، وأحضر شخصيا لتسليمه لكم، بعد ست عشرة ساعة من تسلمه الوقت الذى استغرقه الطريق، الذى تعرف أنه ثمانية عشر فرسخًا. وأثناء حديث هذا البريد الجديد الشكور، كنت معلقًا بكلماته مرتعد الرجلين، وما كدت أحمل نفسى. بالفعل، فتحت الخطاب، ووجدته يحتوى على العبارات التالية: "الكلمة التى أعطاها لكم دون فرناندو بالكلام مع أبيك للكلام مع أبى، لقد أنجزها، لكن لصالحه أكثر من مصلحتنا.أعرف يا سيد أنه قد طلبنى زوجة، وأبى، مدفوعًا بالميزة التى يرى دون فرناندو يعلو بها عليك، وافق على طلبه، وبضرب العصى، فإنه من الآن وحتى مرور يومين، سوف تتم الدخلة، فى سرية، ودون مدعوين، وفقط السماء سوف تشهد، وبعض أهل البيت. الأمر الذى أبقى متخيلة له، إذا أمكنك الحضور، انظر ماذا ترى، وإذا كنت أحبكم بصدق أو لا، فإن واقعة هذه الصفقة، سوف تجعلك تدرك الحقيقة، لكم من الله الرضا، وأتمنى أن يصل هذا إلى يدكم، قبل أن ترى يدى مضمومة ليد من يعرف أسوأ معرفة كيف يحافظ على كلمة أعطاها".

هذه هى عبارات الخطاب فى جملتها، والتى حملتنى إلى الطريق، دون انتظار أى إجابة أخرى أو نقود من جديد، فقد عرفت جيدًا، أنه لم يكن أمر شراء

خيول، وإنما أمر شراء هواه، هو الذى أرسلنى إلى أخيه. وأحسست بالغضب ضد دون فرناندو، وحملته فى نفسى، مع الخوف من أن الشىء الثمين الذى جنيته بعد سنوات طوال من الحب والرغبة سوف يضيع، وصنع الغضب والخوف لى جناحين، حيث إننى فى اليوم التالى كنت فى مدينتى واصلاً إليها مثل الطائر، فى اللحظة المناسبة للكلام معها. دخلت سرًا إليها تاركًا بغلتى التى عليها أتيت فى منزل الرجل الطيب، الذى حمل إلىّ الخطاب، وشاء الحظ أن يحالفنى، ووجدت لوسيندا خلف السور، الشاهد على غرامنا. عرفت لوسيندا أنه كنت أنا، وعرفت أنها هى، لكنها لم تكن كما أعرفها، ولم أكن كما عرفتنى. لكن، من فى العالم يستطيع الفخار بأنه قد فهم، وعرف التفكير المضطرب والظرف المتغير لامرأة؟ لا أحد يقينًا. أقول إذن، إن لوسيندا بمجرد أن رأتنى قالت: "كاردينيو، إننى أرتدى ثوب العرس، وينتظرنى فى الصالة (دون فرناندو) الخائن، وأبى الجشع، مع شهود آخرين، سوف يشهدون موتى، وليس زواجى. لا تعكر نفسك، يا صديقى، فقط حاول أن تكون حاضرًا هذا الذبح، الذى إن لم توقفه كلماتى، ففى ثيابى خنجر مخبأ يستطيع أن يعوق أكثر القوى صرامة، واضعًا نهاية لحياتى، والبداية لمعرفتك كم تركزت إرادتى فى حبك، ولا تزال". أجبتها متعكرًا وفى عجل: "سيدتى، فلتصنع كلماتك صلب أعمالك، وإذا كنت تحملين خنجرًا لإثبات مصداقيتك، فإننى أحمل سيفًا للدفاع عنك، أو لقتل نفسى، إذا عادانا الحظ". لا أعتقد أنها استطاعت أن تسمع كل تلك العبارات، لأننى أحسست أنهم يتعجلونها بالنداء عليها، لأن العريس ينتظر. هكذا أغلقت ليلة أحزانى، وغربت شمس فرحتى، وبقيت دون ضوء فى عيونى، ودون خطاب فى فكرى. لم أنجح فى الدخول إلى منزلها، ولم أستطع التحرك إلى أى مكان، لكن واضعًا فى الاعتبار، كم هو مهم حضورى لما يحدث من احتمالات فى هذه المحنة، تحاملت على نفسى ما استطعت، ودخلت دارها،

وكما كنت أعرف جيدًا كل مداخلها ومخارجها، فإننى دخلت فى إعلان دون إسرار، ومع ذلك لم يرنى أحد، وهكذا خافيًا وجودى عنهم، حشرت نفسى فى فجوة نافذة تطل على الصالة مسدل عليها ستارة كثيفة ذات شريحتين، بينهما كنت أرى دون أن أُرى، كل ما يصير فى الصالة. من يستطيع أن يخّمن الآن وثبات قلبى بينما كنت هناك، والخواطر التى راودتنى، والاعتبارات التى حسبتها، كانت كثيرة ومثيرة، حتى لا يمكن التعبير عنها، بل لا ينبغى؟ يكفى أن تعرفوا أن العريس دخل الصالة، دون أى تزين أكثر من الملابس البسيطة التى اعتاد ارتداءها. وأحضر إشبيبنًا ابن عم للوسيندا، وفى كل الصالة، لم يكن هناك أى غريب، ما عدا خدم البيت. وبعد دخوله بقليل خرجت لوسيندا من غرفة، مصحوبة بأمها، وببعض وصيفاتها، مزينة ومعدلة بأفضل ما يكون لإبراز حسن قوامها وجمالها عن استحقاق، وكما ينبغى لكمال التكريم والسخاء البلاطى. تعلقى واختطاف روحى لم يمكنانى من ملاحظة ماذا كانت ترتدى بدقة، فقط أمكننى التنبه للألوان، وكانت الأحمر والأبيض، ولبريق الأحجار الكريمة والحلى فى الخمار ولكل الثوب، ولكل ما يزيد الجمال الفريد لشعرها الأشقر البديع، الذى دخل فى منافسة مع الأحجار الكريمة، وأضواء المشاعل الأربعة فى الصالة، وشعاع عينيها الذى كان يبهر كل الأضواء. أوه، أيتها الذاكرة القاتلة لبطالتي! ماذا يفيد تجسيم ذلك الجمال الفريد لتلك العدوة لى؟ أليس الأفضل أيتها الذاكرة القاسية أن تتذكرى وتجسمى ما فعلت حينذاك، حتى إذا انفعلت بهذا العدوان المعلن، فلا أقل من محاولة الانتقام أو فقدان الحياة؟ لا تتعبا أيها السيدان من هذا الندب الذى به أنتحب، فإن ألمى ليس من تلك الآلام التى يمكن حكايتها بيسر وبطريقة عابرة، فكل ظرف من ظروفه يستحق القص بخطاب طويل.

وعلى هذا أجابه القسيس، بأنه ليس فقط لا يتعبان بل يسرهما ذلك الإطناب الذى يقص به، لأن مثل ما يحكى لا يمكن أن يمر فى صمت، وأن أحاسيس الراوى لقصته لا تقل عن جوهر القصة. وواصل كاردينيو:

- وفى حال وجود الجميع فى الصالة دخل قسيس الكنيسة، وممسكًا لها بيديه الاثنين، لكى يمارس ما ينبغى ممارسته فى هذه الحال، قال: "تقبلين أيتها السيدة لوسيندا كزوج شرعى لك (دون فرناندو) الحاضر هنا بيننا، كما تأمر الكنيسة الأم المقدسة؟" أبرزت رأسى بين ضلفتى الستارة مع كل الرقبة، بمسامع شديدة الانتباه، وبروح محزونة شرعت فى الإنصات، منتظرًا فى إجابتها حكم إعدامى أو ميلادى. أوه، من كان يجرؤ حينذاك أن يخرج قائلاً فى علن: آه، لوسيندا، لوسيندا، انظرى ماذا تفعلين، وتذكرى ما تدينين به لى، وأنك لا يمكن أن تكونى لآخر! واعلمى أن قولك نعم، والقضاء على حياتى، هما شىء واحد. آه، أيها الخائن (دون فرناندو)، سارق أمجادى، موتى بالحياة! ماذا تريد؟ ماذا تسعى إليه؟ وأعتبر أنك لا تستطيع شرعيا الوصول إلى غاية رغباتك، لأن لوسيندا زوجتى، وأنا زوجها." آه، أى مجنون أنا! أنا الآن غائب وبعيد عن الخطر! أقول كان على أن أفعل الذى لم أفعل. الآن لأنى تركته يسرق حبيبتى الغالية، ألعن السارق، والذى كنت قادرًا على الانتقام منه، لو امتلكت قلبًا جسورًا لذلك، كما أمتلك قلبًا للشكوى! فى النهاية، كنت حينذاك جبانًا وتافهًا، وليس كثيرًا أن أموت الآن مخبولاً، ونادمًا، ومجنونًا. كان القسيس ينتظر إجابة لوسيندا، والتى توقفت زمنًا طويلاً قبل إعطائها، وعندما فكرتُ أنها سوف تسحب الخنجر لإثبات مصداقيتها، أو سوف تسحب لسانها لتقول بعض الحق، أو تحدث إحباطًا، يفيض منها لحسابى وسعادتى، وإذا بى أسمع ما قالت بصوت ضعيف،

متخاذل: نعم أقبل. نفس الشيء قاله (دون فرناندو)، وواضعًا فى إصبعها الخاتم، ليصبح قد انعقد عليهما رباط غير قابل للحل. واقترب العريس لاحتضان زوجته، بينما هى قد وضعت يدها على قلبها، وسقطت مغشيًا عليها بين يدى أمها. بقى أن أقول إننى برؤية "نعم" التى سمعتها رأيت آمالى مخدوعة، وكلمات لوسيندا ووعودها استحال الوفاء بما فيها من سعد لى فى أى زمن من الأزمان: وبقيت دون نصيح أو مجير، وصارت السماء عدوة للأرض التى تحملنى، تنكر علىَّ الهواء الذى أتنفسه، وتبيح الماء من عينى، والنار التى جعلتنى أشتعل جميعى، من غيظ الغيرة. اضطرب الجميع لإغماء لوسيندا، وفكت أمها أزرار صدرها حتى تتنفس، واكتشفت هناك ورقة مطوية، التقطها (دون فرناندو) فى الحال، وشرع فى قراءتها على ضوء أحد المشاعل، وبنهاية قراءته لها جلس على أحد الكراسى ووضع يده على خده، بمظهر رجل غارق فى الفكر، دون المشاركة فى جهودهم لإفاقة المغشى عليها. وعندما رأيت اضطراب كل أهل البيت، غامرت بالخروج، وإما رأونى أو لم يرونى، لكن بعزم أن يرونى، حتى يغدو العالم كله لمعرفة ما يتميز به قلبى من سخط عند عقاب الزائف (دون فرناندو)، والمتقلبة تلك الخائنة المغشى عليها، لكن حظى، ولعظيم بلائى، إذا كان لى بلاء، الذى كان ساهرًا على حراستى، أمرنى فى هذه اللحظة ترجيح العقل، الذى فقدته منذ تلك اللحظة وحتى الآن، وهكذا، دون رغبة فى الانتقام من أكبر أعدائى (وكان سهلاً الانتقام، إذا لم أفكر فى نفسى)، أحببت أن أفعل بيدى نفس الشيء ضدى، وتنفيذ العقوبة التى استحقاها فى حقى أنا، وبأكثر قسوة من المعتاد، لو كنت قد قتلتهما، لأن من يستقبل مثل هذه العقوبة ينتهى من الإحساس بها فى الحال، لكن عقوبتى المؤجلة هى قتل مستمر دون أن تنتهى الحياة. وفى النهاية، خرجت من ذلك البيت، وذهبت إلى البيت الآخر حيث

تركت بغلتى، وطلبت من صاحب البيت إسـراجها لى، وامتطيتـها، ودون توديعه، خرجت من المدينة، دون أن أجرؤ مثل لوط آخـر، إدارة الوجـه والنظر إليها، وعندما رأيتنى فى العراء وحدى، وظلام الليل يلفنى، وصـمته يستضيف شكواى، دون مراعاة أن يسمعنى أحـد أو يعـرفنى، وانطلـق الصوت، وانفلت اللسان فى لعنات كثيرة للوسيندا و (فرناندو)، كما لـو كان بها يسكن الإحساس بالعدوان الذى مارساه ضدى. وصفتها بالقاسية، الجاحدة، فثراء عدوى أقفل عيون إرادتها، لانتزاعها منى، وإهدائها إلى ذلك، الذى كان الحظ معه متحررًا وصريحًا، وفى وسط تلك اللعنات، والذم، كان الهرب إلى البحث عن عذر لها، فلم تكن أكثر من صبية سجينة بيت أبويها، مصنوعة ومتعودة على طاعتهما، وأرادت النـزول عند رغبتهما، فلم يفعلا أكثر من إعطائها زوجًا عظيم المكانة، ثريا جدا، ورجلاً لطيفًا، وإذا لم توافق فكان من الممكن التفكير، أنها عديمة العقل، أو أنها تعشق رجلاً آخر، وهمـا أمران ضد سمعتها الطيبة ورجاحة عقلها. ثم أعود إلى القول بأنه بفرض أنهـا قالت إننى كنت زوجها، وكانوا سيرون أنها باختيارها لى لم تسىء الاختيار، فإنهم لن يعذروها حال تقدم (دون فرناندو) الذى لم يكن بخيالهم حتى الحلم بتقدمه فى طلب يدها، إن قاسوا بالعقل طلبه، فهو زوج أفضل منى لابنتهم، لكنها كانت قادرة قبل تلك النقطة النهائية والقسرية لإعطاء يدها، علـى القول إننى سبق وأعطيتها يدى، وكنت سأحضر وأتفق معها فى كل ما تدعيه حول هذا الأمر. وفى النهاية حسمت أمرى، أنه كان حبًا ضـئيلاً وعقـلاً صغيرًا، وجشعًا عظيمًا، وطمعًا فى العظمة ما جعلها تنسى الكلمـات الـتى خدعتنى بها، وأنا فى لهو وثقة من آمالى اليقينية، ورغباتى الشريفة. مع هـذه الأصوات، وبهذا القلق، سريت ما بقى من تلك الليلـة، ودخلـت عنـد الإصباح إحدى أخوار تلك الجبال، وبها سرت ثلاثة أيام أخرى دون اتجاه أو

طريق، حتى وقفت فى بعض المروج التى لا أعرف مكانها فى هـذه الجبـال، وهناك سألت بعض الرعاة الطريق إلى أوعر مكان فيها، ودلونى على هـذا المكان. وحينذاك سرت نحوه، وقررت البقاء ما بقى لى من الحيـاة، وعنـد الدخول فيما هو أوعر ماتت بغلتى من التعب والجوع، أو للـتخلص مـن حمولتها عديمة الجدوى التى هى أنا. بقيت راجلاً، مستسلمًا للطبيعة، محترمًا بالجوع، دون أن أجد من ينجدنى أو حتى أفكر فى البحـث عنـه. وبهـذه الطريقة بقيت ما لا أدرى كم من الوقت ممددا على الأرض، فى نهايته نهضت دون جوع، ووجدت بجوارى بعض المعّازين، لا شك أنهم من سدوا حاجتى، لأنهم حكوا لى الطريقة التى وجدونى عليها، وكما كنـت أهـذى بـبعض الترهات والحماقات، التى تدل بوضوح على فقدانى عقلى، وأحسـست فى نفسى بعدها وحتى الآن أننى لا أمتلكه كاملاً فى كل الأوقات، وإنما مخبـولاً وضعيفًا، فارتكب ألف حماقة، ممزقًا ثيابى، صارخًا فى هذا الجو الموحش، لاعنًا حظى، مرددًا دون جدوى اسم عدوتى، دون أى خطاب آخـر أو محاولـة مختلفة سوى محاولة إنهاء الحياة صارخًا، وعندما أعود إلى نفسى، أجدنى متعبًا ومطحونًا، ولا أكاد أتحرك. ومسكنى الأكثر شيوعًا هو فجـوة فى شـجرة فلين، كافية لاستيعاب هذا الجسم البائس. رعـاة البقـر والمـاعز الـذين يتحركون فى هذه الجبال محفوزين بعامل الشفقة، يغذوننى، واضعين لى الطعام فى الطرقات، وعلى الصخور، حيث يظنون إمكانية مرورى، وعثورى عليه، وهكذا، ومع أننى قد ينقصنى العقل، إلا أن الحاجة الطبيعية يفرضها البقاء، من ثمّ تستيقظ فى الرغبة لتناوله باشتهاء. فى أحيان أخرى، يقولون لى عندما يقابلوننى كامل العقل إننى أخرج إلى الطرق، وأغتصبه قـسرًا، مـع أنهـم يقدمونه لى عن رضا، وربما أتوجه لفعل نفس الشىء مع الرعاة الذين هـم حظائر. بهذه الطريقة أقضى حياتى البائسة المتطرفة، حـتى تقـوم الـسماء

ببركتها بقيادتها نحو نهايتها المحتومة، أو مسح ذاكرتى حتى لا أتذكر حسن لوسيندا وخيانتها، وعدوان (دون فرناندو)، فإذا فعلت ذلك دون انتزاع حياتى، سوف يعود تفكيرى للتحسن، وإذ لم تفعل، فليس إلا التماس الرحمة المطلقة منها لروحى، ما دمت لا أملك الشجاعة أو القوة لانتشال الجسم من هذا الضيق الذى وضعت نفسى فيه بإرادتى راغبًا . هذه هى، أيها السيدان، القصة المريرة لمحنتى، وقولا لى هل أستطيع ذكرها بعواطف أقل مما رأيتم منى، ولا تتعبا أنفسكما فى إغرائى أو نصحى، بما يشير به عليكما العقل من خير ممكن أو من علاج محتمل، لأنه سوف يفيد معى مثلما يفيد مع مريض وصفة طبيب لا يطيقها. أنا لا أريد الصحة دون لوسيندا، مع أنها فضلت أن تصير غريبة، مع كونها لى أو هكذا يجب، وأنا فضلت أن أكون صاحب التعاسة مع قدرتى أن أصير صاحب السعادة. إنها أرادت بانقلابها على أن تستقر ضيعتى، وأنا أحب وسأحب بمحاولة الضياع أن أُشبع إرادتها، وسيكون هذا مثالاً فى المستقبل، حيث ينقصنى ما يزيد على حاجة كل التعساء، فى أن عزاءهم فى اليأس من المحبوب، واليأس منه عندى يشعل أعظم المشاعر والآلام، لأننى أفكر أن ذلك لن يتوقف حتى مع الموت.

وهنا وضع كاردينيو حدًا لثرثرته الطويلة، وقصته الغرامية التعيسة، وعندما كان القسيس يتحفز لأن يقول له بعض عبارات العزاء، علق الكلمات على لسانه، صوت وصل إلى مسامعهم، وقد سمعوه فى نبر يتوجّع، وكان يقول ما سوف يقال فى الجزء الرابع من هذا الحكى، الذى فى هذه النقطة كان قد أنهاه الحكيم والمؤرخ النبيه سيدى حامدى بن إنجيلين.

الفصل الثامن والعشرون

عبارة عن المغامرة الجديدة واللطيفة التى وقعت للقسيس والحلاق فى نفس سلسلة الجبال

ما أكثر انبساط ومحظوظية الأزمان التى قذفت للعالم أكثر الفرسان جسارة دون كيخوتى دى لامانشا، ولا عجب فيكفى عزمه وحبه فى إحياء وإعادة الفروسية المشّاءة إلى العالم، تقريبًا بعد أن صارت نظامًا ميتًا، مع أنها الآن ممتعة، وفى عصرنا هذا، لها احتياج للتسلية المرحة، ليس فقط لعذوبة قصتها الحقيقية، وإنما لحكاويها وفصولها، والتى هى من ناحية ليست أقل طعامة وصنعة وصدقًا من نفس التاريخ؛ فهى تُتابع سويَّهُ، وملويَّهُ، وخيطه المعذَّب الدوَّار، ولهذا تحكى أن القسيس بدأ يحفز نفسه لتعزية كاردينيو، ومنعه صوت وصل إلى مسامعه، متوجع النبر، وكان يقول:

– آه، يا إلهي! هل من الممكن أن أكون قد وجدت مكانًا لإخفاء الحمل الثقيل لهذا الجسم، الذى أقيمه على غير إرادتى! نعم، لو كان الجو الموحش لهذه الجبال المسلسلة لا يكذب. آى، ياللصحبة المحزونة، بل اللطيفة، لتلك الصخور والحشائش، والتى تقدمها لمقاصدى، فهى سوف تعطينى فرصة لإبلاغ محنتى للسماء مع الشّكايا، تلك المحنة التى لم يشهد مثلها أى إنسان، وإلا ما عدمتُ على كل وجه الأرض من يمكن أن ينتظر منه النصح عند الشك، والمواساة عند الشكوى، والعلاج عند استفحال الداء.

سمع القسيس كل تلك العبارات وفهمها، ومثله من كان معه، وهكذا كما بدا لهم أنها صادرة من هناك فى مكان قريب منهم، فإنهم نهضوا للبحث عن صاحبها، ولم يسيروا أكثر من عشرين خطوة، حتى وجدوا وراء صخرة جالسًا عند سفح جذع شجرة دردار فتى فى ملابس الفلاحين، والذى بسبب انحناء وجهه، لأنه كان يغسل قدميه فى نهير يجرى هناك، لم يقدروا أن يروه فى تلك اللحظة، فاقتربوا منه فى صمت شديد، حتى إنه لم يحس بهم، ولم يكن متنبهًا لشيء أكثر من غسيل قدميه، ولم تشبها شيئًا إلا قطعتين من الكريستال الأبيض كأنهما ولدتا بين صخور النهير. أخذهم بياض القدمين وجمالهما، وبدا لهم أنهما لم تصنعا لوطء الأرض أو للسير وراء المحراث أو الثيران، كما يشير ثوب صاحبهما، وهكذا عندما رأوا أنه غير منتبه لوجودهم، فإن القسيس الذى كان يتقدمهم أشار عليهم بالقبوع أو الاختفاء خلف بعض قطع الصخر التى كانت هناك، وهكذا فعل الجميع وهم ينظرون بانتباه إلى ما كان يفعل الفتى، والذى كان يحمل "كابوتيُو" بنى اللون بذيلين فوق كتفيه(*)، شديد الالتصاق بالجسم، بحزام عبارة عن فوطة بيضاء، وكان يحمل سراويل وحذاء برقبة من نسيج بنى، وعلى رأسه قبعة بنية، وكان الحذاء ناهضًا حتى منتصف ساق رجليه، ودون شك كان الأبيض المرمرى سوف يبرز فى النصف الآخر. انتهى من غسل الأقدام الحسناء، وجففها بقطعة قماش خمار سحبها من تحت القبعة، وعند الانتهاء رفع وجهه، وأتيح لمن ينظر إليه أن يرى حسنًا دون نظير حتى أن كاردينيو قال للقسيس:

– هذه ليست لوسيندا، إنه شخص سماوى.

(*) نوع من المعاطف، يتكون من شريحتين من قماش صوفى، متصلتين من أمام ومن الخلف، وعند اتصالهما فتحة لإدخال الرأس.

خلع الفتى القبعة، وهازًا الرأس من ناحية إلى ناحية أخـــرى، بـــدأ يتبعثـــر وينتثر شعر، نفس أشعة الشمس تحسده. ومع هذا أدركوا أن الذى ظنوا أنه فلاح لم يكن إلا امرأة رهيفة، أيضًا الأكثر حسنًا بين من رأت عيون الاثنين، وحتى عيـــون كاردينيو إذا لم يكن رأى لوسيندا، الذى بعد ذلك أكد أنه فقط جمال لوســـيندا هـــو الذى يمكن أن يتنازع مع جمالها. إن الشعر الطويل والأشقر لم يغطِّ فقط ظهرهـــا، وإنما لف عودها مغطيًا لها من كل ناحية، حتى اختصر جسمها إلى مجرد قدمين، هكذا كان الشعر بكل هذا الجمال والغزارة. وقد استخدمت اليدين بدلاً من المـــشط، وإذا كان القدمان فى الماء ظهرتا قطعًا من الكريستال، فإن اليدين داخـــل الـــشعر البديع كانتا قطعًا من الجليد الملفوف، ودفع الجميع الذين يشاهدونها إلى مزيد مـــن الإعجاب، والرغبة فى معرفتها. ولهذا قرروا الظهور، وعند حـــركتهم للوقـــوف رفعت رأسها الصبية الحسناء، وأزاحت الشعر عن عينيها بكلتا يديها، ورأت مـــن كانوا لضجة يحدثون، وبمجرد أن رأتهم، حتى نهضت على قـــدم، ودون انتظـــار لارتداء حذاء أو لم شعرها، أمسكت بكل سرعة صرة كما لـــو كانـــت لملابـــسها، وكانت بجانبها، وأرادت الشروع فى الهروب، مليئة بتعكير وكدر وفزع، ومـــا إن جرت ست خطوات، دون قدرة على معاناة وعورة الأرض بالقـــدمين الـــرهيفتين، سقطت على الأرض. وما إن رأى الثلاثة ذلك، حتى خرجوا إليها، وكان القـــسيس أول من قال لها:

– **توقفى يا سيدتى، كنت من تكونين، فمن ترين هنا لا نية لديهم إلا خدمتك، فلا مبرر لهذا الهروب الأحمق، لأن قدميك لا يتحملانه، ولا نحن نوافق عليه.**

على هذا، لم تجب بكلمة، جامدة مضطربة اقتربوا منها، وأمـــسك القـــسيس بيدها وواصل القول:

– سيدتى، ما ينكره ثوبك يكشف عنه شعرك، إشارات ليست بالقليلة إلى ما جعلك تتنكرين حاجبة جمالك فى رداء لا يليق، وأحضرك إلى وحشة كهذه، ومن ثم فحسن الطالع جعلنا نعثر عليك، فإذا لم نستطع أن نقدم الدواء لآلامك، فعلى الأقل نقدم المشورة، فليس من ألم يمكن أن يرهق إلى هذا الحد، ولا يصل إلى مبالغة أن يكون كذلك، بينما لا تنتهى الحياة، ولا تهربى متفادية الاستماع حتى للنصيحة التى توهب لمن يعانى. وهكذا، يا سيدتى، أو يا سيدى أو من تودين أن تكونيه، تخلصى من الفزع الذى سببته لك رؤيتنا، واحكى لنا عن مصيرك طيبًا كان أو لم يكن، فسوف تجدين فينا أو فى كل واحد من يساعدك على التوجُّع فى محنتك.

فى حال قول القسيس لهذه العبارات، صارت الفتاة المتنكرة فى صورة تمثال منحوت، ناظرة إلى الجميع، دون أن تحرك شفة أو تقول كلمة، كما لو كانت مثل قروى خشن، يعرضون عليه أشياء غريبة تفاجئه، ولم يرها قط من قبل. لكن يعود القسيس لمخاطبتها فى عبارات أخرى تهدف لإحداث نفس التأثير، فتطلق تنهيدة عميقة، ثم تقول:

– إذن، لم تكن وحشة هذه الجبال كافية لستر أمرى، كما لم يكن حل شعرى المبعثر سامحًا بأن يكذب لسانى، ومن العبث أن أدعى من جديد الآن الذى، إذا ما صدقتمونى فيه، سيكون من باب المجاملة، وليس لأى سبب آخر. مفترضين ذلك، أقول، سادتى، أشكر لكم عرضكم الذى قدمتموه، والذى يفرض على إجابة كل ما طلبتموه، وأخشى أن أثر محنتى قد يُملكم بجانب استدرار شفقتكم، لأنكم لن تجدوا دواء لمداواتها، ولا عزاء لسلواها. لكن، مع كل هذا، لم لا يترنح شرفى بين مقاصدكم، بعد أن عرفتم أننى امرأة،

ورأيتم أننى صبية وحيدة، فى هذا الرداء أشياء اجتمعت معًا، وكل شيء منها يمكنه أن يلقى إلى الأرض وحده، كل مصداقية شريفة، سأقول لكم ما كنت أود كتمانه لو استطعت.

قالت كل هذا دون توقف التى كانت تبدو امرأة فى كل هذا الحسن، بلسان طليق، وبصوت رقيق، حتى إن ذكاءها لم يدهشهم أقل من جمالها. وعندما عادوا إلى عرض خدمات جديدة، والتماسات فى أن تسمح لهم بالوفاء بها، هى دون أن تسمع التماسات أكثر، ارتدت حذاءها فى عفاف، ولملمت شعرها، وأراحت نفسها على مقعد عبارة عن صخرة، وتحلَّقها الرجال الثلاثة، بينما كانت تتكلف حبس بعض الدموع، التى انثالت إلى عينيها، وبصوت مطمئن وواضح بدأت قصة حياتها بهذه الطريقة:

– فى هذا الأندلس يوجد حوز مقاطعة يعطى اسمها لقب دوق، مما يضعه فى مصاف من يسموهم كبراء إسبانيا؛ وهذا له ولدان، الأكبر وارث لمقاطعة أبيه، وفيما يبدو لطباعه الطيبة، والأصغر لا أدرى لأى شيء هو وارث، اللهم إلا خيانات (بيدو) وأكاذيب (جالالون). ووالداى أتباع لهذا الدوق، متواضعان فى العرق والحسب، إلا أنهم أغنياء جدا، وإذا كان ما يملكه حسبهم، بقدر ما تملك أيديهم، ما كان ينقصهم شيء فيه يرغبون، وما كنت قد رأيتنى فى هذه المحنة، لأنه ربما ولد حظى الضئيل، مما لم يكن يملكونه، وهم مع عدم ميلادهم فى سمو البريق، لم يكونوا بهذا القدر من الانحطاط حتى يشتكوا من حالهم، ولا من العلو حتى ينزعوا عنى الخيال الذى يراودنى بأن تواضعهم سبب محنتى. وهم فى النهاية مزارعون، وأناس نقية لا يختلط بدمهم

أى دم سيئ السمعة، مسيحيون قدماء معرقون(*) كما تعودوا أن يقولـــوا، لكن ثراءهم الفاحش وحسن تعاملهم تدريجيا حملهم إلى درجة (الأعيان)(**)، بل الفرسان، ومع ذلك، كانوا يعتزون بى ابنة باعتبارى أكبر ثروة وأعزّ نبالة عندهم، كما أنهم لعدم وجود ابنة أو ابن يرثهم ويعطيهم لقب أبوين غيرى، أُغرموا بى ودلّلونى كما لم يدلل آباء ابنة لهم مطلقًا. كنت المرآة التى فيهـــا ينظرون، وعكاز شيخوختهم، والنفس التى بها يسيرون، أقيس لهـــم حـــتى السماء كل رغباتهم، التى لطيبتهم انطبقت عليها رغباتى لا تخالفها فى شىء. وبنفس الطريقة التى كنت بها سيدة ابتهاجهم وثروتهم، من أجلى يستجلبون الخدم ويطردونهم، حساب وسبب كل ما يزرع ويجنى كان يمر على يـــدىَّ؛ طاحونات الزيت ومعاصر النبيذ وعدد القطعان من مواشى وغنم وخلايـــا النحل، فى النهاية كل ذلك الذى يمكن أن يملكه مزارع غنى مثل أبى، وكنت أتصرف فى الحساب والمدبرة وسيدة كل شىء بإلحاح منى ورضا منهم، ومع ذلك لن أصيب فى حفظ هذه النعمة علىَّ بشكل طيب. والفترات القصيرة التى كانت تفيض من يومى، بعد أن أكون قد أصدرت أوامـــرى لرؤســـاء العمال والخوذية وعمال اليومية، كنت أقضيها فى أعمال منـــــزلية، وهـــى للصبايا مشروعة مثلما هى ضرورية، وتكون حسب ما تسنح الحاجة مـــن الإبرة إلى الحشية إلى المغزل مرات، وفى حين مرة حتى تستجم النفس، كنت أترك هذه الأعمال، وأشرح صدرى بقراءة كتاب ورع، أو أعزف الأرب،

(*) بعد حرب الاسترداد دخل عدد من المسلمين المسيحية وأطلق عليهم "المسيحيون الجدد" أما المنتصرون فى تلك الحرب فأطلقوا على أنفسهم لقب مميز "المسيحيون القدماء".

(**) الأعيان طبقة رسمية تعامل ماليًا وضرائبيًا معاملة خاصة، تتلو طبقة الفرسان.

لأن التجربة أثبتت لى أن الموسيقى تلم شتات النفس الممزقة، وتسرى عن إجهاد الروح. هذه كانت حياتى فى بيت والدى، ولم أحكها بصفة خاصة للتفاخر أو لإعطاء الانطباع أننى غنية، وإنما لأكشف كيف دون ذنب أتيت من تلك الحالة الطيبة التى ذكرت إلى الحالة التعيسة التى أجد نفسى فيها الآن. إذن، كنت أمضى حياتى فى هذه الانشغالات وفى حبس يقارن بحبس الدير، دون أن يرانى أحد إلا الخدم فى البيت، لأن الأيام التى أذهب فيها للصلاة، كنت أذهب فى الصباح الباكر، وبرفقة أمى وخادمات أخريات، وكاملة الغطاء والحشمة والصون، حتى لم تكن عيناى ترى أكثر من الأرض التى كانت تطأها قدماى، ومع كل هذا فإن عيون الحب أو عيون البطالة، إن أحسنا القول، والتى فى رشق سهامها لا يعادلها قوس، رأتنى مرتدية إلحاح طلب (دون فرناندو)، وهذا اسم الابن الأصغر للدوق الذى حدثتكم عنه.

وما أن ذكر برنين اسم (دون فرناندو) الذى كان تحكيه الحكاية حتى تغير لون وجه كاردينيو، وبدأ يرشح منه العرق، مع انحراف كبير فى المزاج، حتى إن القسيس والحلاق خافا- ناظرين إليه - أن يأتيه عارض الجنون ذاك، والذى سمعا أنه يعاوده بين الفينة والفينة. لكن كاردينيو لم يفعل شيئًا آخر غير العرق، وبقى ساكتًا ينظر من نقطة إلى أخرى فى هيئة المزارعة، متخيلاً من هى، ودون أن تتنبه لحركات كاردينيو واصلت قصتها، قائلة:

- لم ترنى عيونه جيدًا (طبقًا لما قال من بعد)، عندما بقى أسير حبى، وعندما أحس به وبعلامات. لكن حتى أنتهى بسرعة من الحكاية التى ليس بها حب؛ حكاية تعاساتى، أحب أن أتجاوز فى صمت المساعى التى قام بها دون فرناندو حتى يعلن لى إرادته. رشا كل خدم البيت، وهب وأهدى الهبات والنعم لأقاربى،

كل الأيام كانت حفلات وبهجة فى شارعى، وبالليل الموسيقى لم تدع أحدًا ينام، بطاقات المراسلة كانت تصل إلى يدىَّ، ولا أدرى كيف جاءت، كانت لا نهائية مليئة بعبارات الغرام، وبعروض بها الأيمان والوعود أقل من الكلمات. وكل هذا لم يجعلنى أضعف، بل ملأنى بالصلابة، كما لو كان عدوى المهلك، وكل الأعمال التى كان يرتكبها لإخضاعى لإرادته، كانت تنقلب إلى عكس مرادها، ليس لأنه كانت رقته معى سيئة، وليس لفيض الطلب ومبالغته، وإنما لأنه لا أدرى أى رضا كان يجتاحنى أن أرانى محبوبة ومعتبرة من فارس رفيع المقام مثل دون فرناندو، حتى إنه لم يكن يضايقنى أن أرى فى بطاقاته الغزل لى، وفى هذا، نحن النساء قبيحات، لأنه يبدو لى، أنه يسعدنا الاستماع إلى مناداتنا بالجميلة. لكن كان يعترض على كل ذلك عفافى والنصائح الدائمة التى كان يبثها لى والداى، واللذان عرفا على المكشوف إرادة دون فرناندو، لأنه كان لا يعنيه إذا عرف كل الناس. وكان يقول لى والداى، إنهما فقط يتركان شرفهما واسمهما ويستودعاهما بين يدى فضيلتى وصلاحى، وعلىَّ أن أضع فى الاعتبار عدم التكافؤ بينى وبين دون فرناندو، وهنا كنت قد شرعت فى رؤية أن تفكيره (مع أنه يقول شيئًا آخر) يسير فى اتجاه نزواته أكثر من صالحى، وإذا رغبت فى نصب عقبة بطريقة أو بأخرى حتى يترك ادعاءه غير العادل، يقول لى والداى أنهما سيزوجانى بعد ذلك مع من يعجبنى من أنبل الفرسان فى قريتنا وفى الجوار، فكل شىء يمكن توقعه مع ثروتهما الطائلة، وسمعتى الطيبة. مع هذه الوعود، ولصدق ما يقولان، كنت أحصن حذرى وتيقظى، ولم أرغب مطلقًا فى إجابة دون فرناندو بكلمة يمكن أن تظهر، ولو حتى من بعيد، دليلاً يقوى أمله فى إشباع

رغبته. كل تعففى هذا، والذى كان ينبغى أن يأخذه باعتباره نفورًا، لم يكن إلا لتقوية شهوته الشبقة، وهذا ما أحب أن أسمى به إرادته التى كان يظهرها، والتى لو كانت كما ينبغى أن تكون لما عرفتم بها الآن، لأنه كانت ستعدم مناسبة قولها. أخيرًا، دون فرناندو علم أن والدىَّ كانا يسعيان لتزويجى، وإزاحته عن أمل امتلاكى، أو على الأقل إحاطتى بحراس أكثر لحمايتى. وهذه المستجدات أو الشكوك كانت سببًا فى أن يعمل ما سوف تسمعان الآن. ففى ليلة من الليالى، عندما كنت فى مخدعى فى صحبة وصيفة لى دون وجود أحد ثالث، وكانت كل الأبواب مغلقة، حتى لا يصبح شرفى فى خطر بسبب عدم اليقظة أو الإهمال، ودون أن أعرف أو أتخيل كيف، فى وسط هذه الغلق والاحتياطات، وفى وحشة هذا الصمت والحبس، وجدته أمامى، ورؤيته جعلتنى اضطرب حتى سحبت البصر من عينى، وأخرست لسانى، وهكذا لم أكن قادرة على الصراخ، وفوق ذلك على ما أعتقد، أنه لم يكن يسمح لى بإصدار صرخاتى، لأنه فى الحال اقترب منى، وأخذنى بين ذراعيه (لأننى كما قلت لم تكن عندى قوة للدفاع عن نفسى، لما كنت فيه من الاضطراب)، وبدأ يردد لى تلك العبارات، ولا أدرى كيف من الممكن أن تكون لديه تلك الكفاءة فى الكذب، فهو يؤلف الكذبة فى خبرة تجعلها نسخة من الحقيقة. وقد دعم الخائن مصداقية كلماته بدموعه، ومقاصده بتنهداته، وأنا مسكينة وحيدة بين أهلى، لا خبرة لى فى مثل هذه الأشياء، وبدأت، ولا أدرى بأى طريقة، أستقبل – باعتبارها حقائق – غزارة من الأشياء الزائفات، لكن تصادف أن لم تحركنى عباراته إلى الشفقة عليه، وأقل منها دموعه وتنهداته، وهكذا متجاوزة ذلك الرعب الأول، عدت بعض

الوقت إلى استعادة عزمي المفقود، وفي قوة نفسية أكبر مما ظننت أني قـادرة عليه، وقلت له: "إذا كنتُ أيها السيد بين ذراعيك، فلست إلا بين ذراعـي أسد كاسر، وتحررى منهما سوف يعصمنى من أن تفعل أو تقول بهما شـيئًا يكون مساسًا بشرفى، لأنه هكذا من الممكن أن تمسه بالفعل والقول، كما أنه من الممكن تجنب ما انزلقت إليه بتحررى منهما. وإذا كنت تمتلك جـسمى محزِّما له بذراعيك، فإن روحى مقيدة برغباتي الشريفة، التي هـى شـديدة الاختلاف عن رغباتك، كما سوف ترى، إذا أردت أن تأخذنى بـالقوة أو تحمل رغباتك إلى التنفيذ. حقًا،إننى تابعة لدوقية أبيك، لكننى لست عبـدة لك، ولن تنال نبالة دمك أمجادًا بهتك شرفى، واستصغارى لبساطة حـسبى وتواضعه، فإني أعتز بنفسي بوصفي مزارعة وفلاحة في موازاة لك بوصفك سيدًا وفارسًا، ولن تنفعك قوتك معى، ولن تكون لها قيمـة ثرواتـك، ولا كلماتك قادرة على خداعى، ولا دموعك وتنهداتك بالكامل تؤثر فىّ. وإذا رأيت واحدة من تلك الأشياء التي قلتها فى الرجل الذى يقدمه لى والـداى بوصفه زوجًا، وكانت إرادته تنطبق مع إرادتى، بينما إرادتى تخـرج عـن إرادته، فإننى لكونى باقية على شرفى فإننى سوف أسلمه (حتى لو كـان دون رغبة أو رضا) ما تود أنت الحصول عليه بالقوة. وكل ما قلته إنه لن ينـال منى شيئًا أبدًا ولا يخطر على بال أحد ذلك إن لم يكن زوجى الشرعي". وقد أجابنى الفارس غير الوفى: "إذا كان لا يصلح معك إلا هذا لذاك، دوروتيا، سيدة الجميلات (دوروتيا كان اسم هذه التعيسة)، انظرى إلىَّ، فإنى أعطيك يدى أن أصير زوجك، وليكن شهود الزواج السموات، التي لا تخفى عليها خافية، وهذه الصورة لسيدتنا العذرا التي تضعينها على حائطك".

عندما سمع كاردينيو أنها تسمى دوروتيا، عاد من جديد إلى فزعه، وعاد للتيقن من رأيه الأول، لكنه لم يحب أن يقطع حبل القصة، ليعرف إلى أين ينتهى ما يعرف هو تقريبًا، فقط قال:

– هل دوروتيا هو اسمك يا سيدتى؟ لقد سمعت عن واحدة تحمل نفس الاسم، وربما نفس المحنة. واصلى، وسيأتى الوقت الذى أقول لك فيه شيئًا، سوف يفزعك فى نفس الدرجة التى بها سوف يحزنك.

عادت دوروتيا للتوقف عند عبارات كاردينيو، وفى ثوبه الغريب والممزق، ورجته، إذا كان يعرف شأنًا من شئونها، عليه أن يقوله لها فيما بعد، لأن الحظ إذا كان قد ترك شيئًا طيبًا لها فهو علو الروح لمعاناة أى كارثة تفاجئها، لأنها حسبما ترى أن ما تعانيه لا يستطيع أحد أن يجعله يزيد ولو نقطة بعد الذروة التى وصلها.

أجاب كاردينيو:

– لن أتأخر فى أن أقول لك ما أفكر فيه، إذا كان حقيقيا ما أتخيله، وحتى الآن هو كذلك، وإن كان لا يهمك معرفته.

أجابت دوروتيا:

– ليكن ما يكون، أما سر حكايتى، فقد أخذ دون فرناندو صورة كانت فى مخدعى، ووضعها باعتبارها شاهدًا على زواجنا ومع كلمات شديدة البراعة وأيمان غير عادية، أعطانى كلمته بوصفه زوجًا، مع أننى قبل أن ينتهى من قولها قلت له أن ينظر جيدًا فيما يفعل، وليعتبر غضب أبيه عندما يعلم أنه تزوج من إنسانة قروية متواضعة، وتابعة له، وألا يعميه حسنى، مهما كان، فليس له أن يجد فيه عذرًا كافيًا لهذا الخطأ، وإذا كان حبه لى يود أن يقدم

جميلاً، فعليه أن يتركنى لحظى عند مستوى طبقتى وما تستطيع إدراكه، لأن أى زواج غير متكافئ لا يدوم مع السرور الذى به بدأ. كل هذه العبارات التى ذكرتها، قلتها له، وغيرها الكثير مما لا أتذكر، لكنها لم تكن كافية كـــى يدع محاولته، وسار الأمر هكذا، حيث إنه لا يفكر فى الوفـــاء بمـــا وعـــد، فالرخيص لا توقف صفقته العيوب. وفى تلك المناسبة تمتمت خطابًا مختصرًا فى دخيلتى لنفسى: "إذا لم أكن الأولى المتواضعة التى ترقت عن طريق الزواج إلى علو المقـــام، ولن يكون دون فرناندو الأول الذى جعله الجمال أو الهوى الأعمى (وهو الأكثر تـــأكيدًا) يصـــاحب من لا يكافئ مستـــوى عظمته. من ثمّ إذا كنت لا أرتكب بدعة أو شيئًا يخرق العادة، فالأفضل النهوض إلى هذا الشرف الذى يقدمه لى الحظ، مع أنه فى هذا لا تدوم إرادة الحب الـــتى يظهرها لى إلا بدوام إنجاز رغبته، إلا أننى فى النهاية سأكون زوجته بعون الله. وإن أحب أن أطرده، رافضة عرضه، فسوف يستعمل القوة، وسوف أفقـــد شرفى، ودون عذر لهذا الذنب، الذى سوف يلصقه بى من لا يعـــرف مـــا حدث، وبأى حجج سوف أقنع والدىّ وغيرهما أن هذا الفارس دخل غرفتى دون موافقتى؟" كل هذه الأسانيد والردود قلّبتها بخيالى فى لحظة، وفوق كل شيء، منحنى هذا قوة وميلاً إلى ما كان دون أن أفكر فى ضـــياعى. فأيمـــان دون فرناندو، والشهود الذين وضعهم، والدموع التى كان يريقها، وبراعته ولطفه، كل هذه كانت أدلة على حبه الحقيقى لى، قادرة على أسـر هـــذا القلب الحر والمصون، وهو قلبى. ناديت على خادمتى لتكون شاهدًا أرضـــيًا بجوار شهود السماء، وعاد دون فرناندو إلى تأكيد وتكرار أيمانه، وأضـــاف للشهود الأول شهودًا جديدة، وأطلق ألف لعنة قادمة إذا لم ينجز ما وعدنى،

وعاد لترطيب عيونه، ونفخ التنهدات، وضغطات أكثر بين ذراعيه، اللتين لم يفلتاني لحظة منهما. ومع هذا، مع عودة الخادمة لمغـــادرة المخـــدع بكـــرًا، لأغادر أنا البكارة، وليتقلد هو موقع الخائن الغادر. اليـــوم التـــالى، لليلـــة تعاستى، (دون فرناندو)، لم يأت بتلك السرعة التى كنت أظن أنه سيهرع بها إلى فى الليلة التالية، لأنه بعد إنجاز ما تطلبه الشهوة، فإن أعظم لـــذة هـــى الابتعاد عمن منه أشبعها. أقول هذا، لأن دون فرناندو أســـرع للانفـــصال عنى، وبحيلة وصيفتى، وهى نفس من سبق لها إحضاره إلى مخدعى، فكان قبل أن يصبح الصباح فى الشـــارع. وعند توديعى (ليس بنفس الشدة والحماس اللذين بهما جاء)، قال لى أن أكون واثقة من أيمانه وثباته وصدقه، ولتصديق الكلمة بالفعل، خلع خاتمًا من إصبعه، ووضعه فى إصبعى. من ثم، ذهب هو، وبقيت أنا لا أعرف هل أنا حزينة أم سعيدة. وهذا أعرف قوله جيدًا: بقيت مضطربة ومتفكرة، تقريبًا خارج نفسى بهذا الحدث الجديد، ولم تكن عندى عزيمة، أو لم أتذكر، توبيخ وصيفتى لارتكابها خيانة حبس دون فرنانـــدو فى غرفتى، لأنه حتى تلك اللحظة لم أقرر، هل ما حدث لى شر أم خير. وقلـــت لدون فرناندو عند مغادرته، إنه بنفس الطريقة التى جاء بها، يمكنه رؤيتى فى بعض الليالى حيث يريد، لأننى صرت امرأته، حتى يرغب فى إعلان ذلـــك. لكن لم يأت فى أيّة ليلة كانت بعد ذلك، اللهم إلا تلك الليلـــة التاليـــة، ولم أستطع رؤيته فى الشارع، ولا فى الكنيسة لمدة أكثر من شهر، وعبثًا تعبت فى طلبه، رغم أنه كان فى المدينة، ومعظم الأيام كان يخرج للصيد، الذى كـــان مغرمًا جدًّا بممارسته. تلك الأيام، وتلك الساعات، أعرف جيدًا، أنها كانت بالنسبة لى مشئومة ومنحوسة، وفيها بدأ الشك يراودنى، وأفقد الاعتقاد فى

صدق دون فرناندو، وأتذكر أن وصيفتى سمعت التوبيخ لجرأتها، مما لم تسمعه من قبل، وأتذكر أننى كنت أقاوم دموعى، وتضعضع وجهى، حتى لا أعطى فرصة لوالدىَّ لسؤالى عن سبب أحزانى، وإرغامى على البحث عن أكاذيب أقولها لهما. وكل هذا وصل إلى حده، عند وصول الواحد إلى حيث يتعثـر الاحترام، ويقف شريف الكلام، وينفد الصبر، حيث خرجـت إلى الميـدان المكشوف أفكارى السرية. وهذا كان، لأنه منذ ذلك الحين وحـتى مـضى بعض الأيام، قيل فى بلدنا إن دون فرناندو فى مدينة قريبة، و هناك تزوج من فتاة بارعة الجمال إلى حد المبالغة، ومن أبوين نبيلين، ولكن ليـسا بـالثراء القادر على دفع دوطة مناسبة لهذا الزواج الراقى. وقالوا إن اسمها لوسيندا، مع أشياء أخرى وقعت عند زواجهما تثير الدهشة والاستغراب.

سمع كاردينيو اسم لوسيندا، ولم يفعل شيئًا أكثر من هـز أكتافـه، وعـض أصابعه، وتقويس حواجبه، وتاركًا ينبوع دموع يتدفق من عينيه منذ سماع اسـمها ولمدة وجيزة، ولم تترك دوروتيا القص بسبب هذا وواصلت القول:

– وصل هذا الخبر الحزين إلى مسامعى، وبدلاً من جمود قلبى عند سماعه، كـان الغضب والغيظ الذى اشتعل فى قلبى عظيمًا، وكان ينقص القليل للخـروج صارخة إلى الشارع، معلنة الغدر والخيانة التى ارتكبها فى حقى. وقد اعتدل هذا الغضب حينذاك، بأن أضع موضع التنفيذ ما قمت به بالفعل، من ارتداء هذه الثياب، التى أعطاها لى أحد الصبيان فى بيت العمال، وهو خادم لأبى، وقد حكيت له شأنى، وطلبت منه مصاحبتى للمدينة، الـتى أظـن أن بهـا عدوى. وهو بعد أن هاجم جرأتى، واستقبح عزمى، رأى تصميمى، فعرض

صحبتى، ولو حتى آخر العالم، كما قال. وفى كيس مخدة من الكتان وضعت ثوب امرأة، وبعض الحلي والنقود، لما يمكن أن يحدث، وفى صمت، وفى تلك الليلة، ودون إعلام وصيفتى الخائنة، خرجت من بيتى فى صحبة خادمى، وخيالات كثيرة، وأخذت طريقى نحو المدينة على الأقدام، يحملنى طيران الرغبة فى الوصول، ليس لإعاقة ما وقع، لكن على الأقل كى أقول (لدون فرناندو)، أن يقول لى: بأى قلب فعل ما فعل. وصلت فى يومين ونصف اليوم إلى المكان، وعند دخولى المدينة سألت عن بيت والدى لوسيندا. وأول من سألته أجابنى بأكثر مما أريد سماعه. قال لى عن البيت، وعن ما حدث فى الزفاف، وهو أمر منتشر فى كل المدينة، حتى إنهم يقيمون حلقات لحكايته فى كل مكان فيها. قال لى، إنه فى ليلة الزفاف بين لوسيندا ودون فرناندو، بعد أن أعطت الـ (نعم) وقعت فى إغماء عنيف، وعند وصول زوجها لفك أزرار صدرها حتى تتنفس، وجد ورقة مكتوبة بنفس خط لوسيندا، فيها كانت تقول وتعلن أنها لا يمكن أن تكون زوجة (لدون فرناندو)، لأنها كانت زوجة كاردينيو، (وحسبما قال لى الرجل، إن هذا كان فارسًا مرموقًا فى المدينة)، وإذا كانت قد أعطت الـ (نعم) (لدون فرناندو)، فهذا فقط حتى لا تخرج عن طوع والديها. وباختصار، قال لى تلك العبارات التى احتوتها الورقة كانت توحى بأنها قد نوت قتل نفسها بعد حفل الزواج، وذاكرة الأسباب التى من أجلها تغادر الحياة، وقد برهن على صدقها أن وجدوا خنجرًا، لا أدرى فى أى جزء من ملابسها. وقد رأى (دون فرناندو) أمام هذا أن لوسيندا خدعته وهزأت منه، ولم تعرف مقامه، وهجم عليها قبل أن تفيق، وبنفس الخنجر، الذى وجدوه حاول طعنها، وكان سيفعل لو لم يعقه

والدها وكل من كان حاضرًا هناك. وقالوا أكثر: وبعد ذلك، اختفــى دون فرناندو، وأن لوسيندا لم تفق حتى اليوم التالى، وحكت لوالديها كيف أنهــا زوجة حقيقية لكاردينيو ذاك، وعلمت أكثر من ذلك أن الكاردينيو، حسبما يقولون، كان حاضرًا الزفاف، وعندما رآها متزوجة، الأمر الذى لم يتوقــع حدوثه قط، خرج من المدينة يائسًا، تاركًا أولاً خطابًا شارحًا فيه العــدوان الذى أوقعته عليه لوسيندا، وأنه سوف يذهب حيث لا تراه عين إنسان. كل هذا كان معلنًا وعامًا فى كل المدينة، وأن الجميع يتحدث عنه، وقــد ازداد الحديث عندما اختفت لوسيندا من بيت أبويها، ومن المدينة، فقد والــداها العقل، ولا يعرفان وسيلة للعثور عليها. وعادت إلىّ آمالى، وتفاءلــت إن لم أجد دون فرناندو، فهذا خير من أن أجده متزوجًا، وتــراءى لى أن بــاب علاج ما حدث لى لم يكن مقفلاً تمامًا، وأن السماء قد وضعت هذه العقبــة أمام الزواج الثانى، حتى يعرف ما يدين به للزواج الأول، وأن يلتفت بوصفه مسيحيا أنه ملزم أمام النفس، أكثر من التزامه أمام القيم الإنــسانية الــتى وضعت بينه وبينى فروقًا. كل هذه الأشياء كانت تتقلب فى وهمى وخيــالى، وكنت أتعزى دون عزاء، مدعية آمالاً عريضة بعيدة عن الوعى، حتى أسرى عن حياتى التى أملها. وهنا، واجدة نفسى فى المدينة دون معرفة ماذا أفعل، حيث إن دون فرناندو لم يكن هناك، وصل إلى مسامعى "المنادى العام" يعلن عن جائزة لمن يجدنى، معطيًا علامات عن سنى، وعن نفس الثــوب الــذى أرتديه، وسمعت أنه كان قد هرب بى من بيت والدىَّ الخادم الذى يصحبنى، أمر قد أثَّر فى روحى عند رؤيتى إلى أى حد هبطت مصداقيتى، ليس فقــط بترك بيت أهلى، وإنما بمن قد تركت البيت من أجله، مع كونه كائنًا منحط

القدر، وكون الأمر إهانة لعقلى. وعند لحظة سماعى المنادى، خرجت من المدينة مع خادمى، الذى كان قد بدأ فى التردد فى صدق الإخلاص، الذى وعدنى به، وفى تلك الليلة دخلنا فى كثافة غابات تلك الجبال، مع خوف أن يجدونا. لكن، كما اعتادوا القول، إن المصيبة تنادى أختًا لها، وأن نهاية تعاسة، هو البداية لتعاسة أكبر، وهذا ما حدث لى، فخادمى الطيب وحتى تلك اللحظة مخلص وأمين، قد رآنى فى تلك الوحدة فكر فى أن يعبث معى، مدفوعًا بسفالة شأنه أكثر من اندفاعه وراء جمالى، وفيما تراءى له، أن هذا الخلاء يقدم له الفرصة. وبقليل من الحياء، وأقل من الخوف من الله أو الاحترام لى، طلب منى ممارسة الحب، وكما أجبته بكلمات قبيحة وعادلة، ضد قلة حياء غرضه، ترك جانبًا التوسلات التى حاول أولاً الاستفادة منها، وبدأ باستعمال الغصب. لكن السماء العادلة، التى تتجنب قليلاً أو تمامًا، أن تنظر وتظاهر المقاصد العادلة، قد ظاهرتنى، حتى إنه مع قلة قوتى، ومع جهد قليل، دفعته إلى هوَّة حيث تركته، ولا أدرى أحيًّا أم ميتًا كان، من ثم، وبخفة أكثر، كما استطاع إرهاقى وقفزى، دخلت فى هذه الجبال، دون أن أفكر فى شيء أكثر من الاختباء بها، هربًا من أبى، ومن هؤلاء الذين يسيرون بحثًا عنى، أملاً فى الجائزة. مع هذه الرغبة، أمضيت لا أدرى كم من الشهور، حيث وجدت صاحب قطعان قد حملنى باعتبارى خادمًا عنده فى مكان بمجاهل هذه السلاسل الجبلية، فقضيت فى خدمته باعتبارى غلامًا كل ذلك الوقت، محاولة أن أكون دائمًا فى المرعى حتى أخفى هذا الشعر، الذى قمتم باكتشافه دون أن يخطر على بالكم. عمومًا، كانت كل حيلى قد ضاعت دون فائدة، لأن سيدى اكتشف أننى لم أكن ذكرًا،

وولد فيه نفس السوء الذى تولد لخادمى، وكما أن الحظ ليس دائمًا مع جهــود العلاج، لم أجد هوة ولا هاوية، حيث أودع سيدى فيها، كما فعلت مع الخـــادم، وهكذا لم أجد صعوبة كبيرة فى الهرب والاختفاء هنـــا مـــن جديـــد وراء هـــذه الوعورة، كى أبتلى فيها قوتى وعثرى. أقول، وهكذا عدت للكمون، والبحـــث عن مكان لا أجد فيه عائقًا كى أبكى وأنتحب، وألتمس من الـــسماء أن تأســـى لشقائى، وأن تمنحنى الحيلة والعـــون للخـــروج منه، أو الخروج من الحيـــاة فى هذا الجو الموحش، دون أن تبقى أى ذكرى لهذا الحزن، الذى دون ذنب لصاحبته أعطى مادة كى يتم الحديث عنه والتمتمة فى أرضها، وفى أراض عنها غريبة.

الفصل التاسع والعشرون

عبارة عن الحيلة الظريفة والنظام الذى اتبع لإخراج فارسنا العاشق من توبته شديدة الوعورة، والتى وضع نفسه فيها

هذه هى، أيها السادة، القصة الحقيقية لمأساتى، احكموا الآن عما إذا كانت التنهدات التى أنصتم إليها، والكلمات التى سمعتموها، والدموع التى فاضت بها عينىّ، ذات مناسبة كافية للظهور بفيض أكبر، واعتبارًا لقيمة شقائى، ترون أنه من العبث محاولة التسرية عنى أو العزاء فيه. فقط أرجوكم (ما تستطيعون بسهولة أن تعملوه بل يجب) أن تنصحونى أين أمضى حياتى حيث ينتهى خوفى وفزعى من أن يعثر على من يبحث عنى، مع أننى أعرف مع كثرة حب والدىّ لى سأكون موضع ترحيب منهما، ولكن الخجل عظيم، أن أفكر فى أن أبدو أمامهما بغير ما كانا يفكران فى، وأفضل على ذلك أن أدفن إلى الأبد، ولا أن يرونى ناظرة إلى وجهيهما يريان فىّ وجهًا غريبًا عن الشرف الذى أدين به لهما طبقًا لوعودى.

سكتت عند هذا القول، وبدا وجهها مغطىّ بلون، يبرهن بوضوح كبير على مشاعر النفس وحيائها. من سمعوها حزنوا لحزنها وتعجبوا منه، ومع رغبة القسيس فى تعزيتها، ونصحها إلا أن كاردينيو، بادر بالكلام وقال:

– فى النهاية، يا سيدتى، أنت دوروتيا الحسناء، الابنة الوحيدة للثرى كليناردو.

بقيت دوروتيا مشدوهة عندما سمعت اسم أبيها، ورؤيتها ضآلة من يذكر اسمه، لأنه سبق القول إن كاردينيو كان رثّ الثياب، وقالت له:

– ومن أنتم، أيها الأخ حتى تعرف اسم أبي؟ لأنني حتى الآن، إذا لم أكن أسيء التذكر، وطول قصتي لم يرد على لساني.

أجاب كاردينيو:

– أنا تعيس الحظ حسبما تقولين سيدتي، والذى قالت عنه لوسيندا إنه زوجها. أنا المتعوس كاردينيو، الذى أحضرني لتروني كما ترونني: زريٌّ، عار، بلا مَعْلم للسلوى الإنسانية، بدون عقل، وهذا هو الأسوأ من كل ما فات، فلا أملكه إلا عندما يخطر ببال السماء إعطاؤه لي لفترة بسيطة، أقول أحضرني، لتروني هكذا، وفي النهاية، وضعي الشبيه لذلك الذى وضعت – سيدتي– أنت فيه. أنا، دوروتيا، الذى وجدتني شاهدًا على حقارات (دون فرناندو)، والذى انتظر حتى سماع الـ (نعم) فى أن تصير زوجة له، والتي نطقت بها لوسيندا. أنا الذى لم يجد الشجاعة لمعرفة إلى أى شيء ينتهى إغماؤها، ولا نتائج العثور على الورقة فى صدرها، لأن النفس لم تملك المعاناة فى أن ترى تلك التعاسات معًا، وهكذا هجرت البيت والصبر، وخطابًا تركته مع مضيف لي، والذى رجوته أن يضعه فى يد لوسيندا، ثم جئت لهذه الوحشة والوحدة، لقضاء ما بقى من الحياة، بعد أن غضبت عليها مثل عدوة مهلكة لي منذ تلك اللحظة. لكن الحظ لم يرد أن ينتزعها منى، مكتفيًا بانتزاع عقلي، ربما للعناية بي حتى ألقى السعد الذى جاءنى بالعثور عليكم، لكون ما قلتيه هو الحقيقة، وأعتقد أنه كذلك، وما حكيتيه فوق ذلك يمكن أن يكون

لكلينا خير قد أدخرته السماء، به أفضل حدث لكارثتينا فوق كل ما تخيلناه، لأن لوسيندا لعدم قدرتها على الزواج من (دون فرناندو)، لأنها زوجتى، ولا دون فرناندو منها، لأنه زوجك، وقد أعلنته هى على الجميع، وعليه، يمكننا الانتظار حتى نتبادل بيننا ما هو ملكنا، حيث حتى الآن لم توضع الأمـــور فى نصابها ولم يحل ما ربط. وبهذا العزاء، ولد أمل ليس بعيدًا، ولا مؤسّسًا على خيالات مختلطة، وأتوسل إليك، يا سيدتى، أن تتخـــذى قـــرارًا آخـــر فى تفكيركم الشريف، حيث إننى أفكر فى اتخاذه فى تفكيرى، مهيئًا لك انتظـــار الحظ الأطيب" وأنا أقسم لك بصدق الفارس وبوصفى مسيحيا، بألا أخذلك حتى أراك فى بيت (دون فرنانـــدو)، وإذا لم أســـتطع جذبــه بالعقـــل إلى الاعتراف بما يجب عليه، فإننى سوف أستعمل فى تلك اللحظة الحرية الـــتى تخولنى الفروسية لكونى فارسًا، وسوف أستطيع تحت تخويل عـــادل (واســـم أسرتك) أن أتحداه وبحق فى مقابل باطله الذى اقترفه ضدك، تاركًا الانتقـــام لعدوانه علىَّ للسماء ناهضًا إلى الانتقام لك فى الأرض.

مع ما قاله كاردينيو ظهر على دوروتيا الإعجاب، ولم تعرف أى شكر يمكن أن يرد على هذا العطاء، وأرادت أن تلقف قدميه لتقبيلهما، لكن كاردينيو لم يوافق، والجامعى انفعل مجيبًا على ما بين الاثنين، مجيزًا الكلمـــة الطيبـــة التـــى قالهـــا كاردينيو، ورجاهما، ونصحهما، وأغراهما أن يذهبا معه إلى قريته، حيـــث يمكـــن إصلاح الأمور التى تنقصهما، وهنا سوف يصدر أمر بالبحث عن (دون فرناندو)، وإما يحمل دوروتيا إلى أبويها أو يفعل ما يبدو لهما معًا أكثر مناســـبة. كـــاردينيو ودوروتيا شكراه، ووافقا على الفضل الذى به يخصهما. الحلاق الذى كـــان معلـــق

الأنفاس بكل هذا، ساهم بكلماته الحسنة، وعرض خدماته بإرادة لا تقل عــن إرادة القسيس فى كل ما هو فى صالحهما، وحكى فى اختصار السبب الذى حملهما إلــى هناك، مع غرابة جنون دون كيخوتى، وكيف كانا ينتظران حامل دروعــه، الــذى ذهب للبحث عنه، ومر على ذهن كاردينيو كما لو كان حلمًا العراك الذى دار بينه وبين دون كيخوتى، وحكاه للآخرين، لكن لم يعرف أن يقول سبب المسألة. وخلال ذلك سمعوا أصواتًا، وعرفوا أنها صادرة عن سانشو بانثا، الــذى، لعــدم العثــور عليهم حيث تركهم، كان ينادى عليهم عاليًا. خرجوا لمقابلتــه، وســألوه عــن دون كيخوتى، قال لهم كيف وجده عاريًا إلا من قميص، ضعيفًا، أصفر الوجــه، وميتًــا من الجوع، مطلقًا التنهدات لسيدته دولثينيا، ورغم أنه قال له إنها تأمره بــالخروج من ذلك المكان، وأن يذهب إلى التوبوسو، حيث ستبقى فى انتظــاره، أجابــه أنــه عازم على عدم الظهور أمام حسنها حتى يكون قــد أدى أمجــادًا تجعلــه جــديرًا بتلطفاتها. وإذا استمر هذا، فهناك خطر ألا يصبح إمبراطورًا، كما كان هو واجبه، ولا حتى أسقفًا، وهو أقل ما يمكن أن يصل إليه، ومن أجل هذا، عليهما فى النظــر فيما ينبغى عمله لإخراجه من هناك. الجامعى قال له ألا يأســف، لأنهــم ســوف يخرجونه من هناك، ومن السوء الذى يثقل عليــه. وحكــى حينهــا لكــارديني و دوروتيا، ما كانا قد دبراه لعلاج دون كيخوتى، أو على الأقل لحملــه إلــى بيتــه، وعلى هذا علقت دوروتيا بأنها سوف تقوم بدور الفتــاة المــضطرة أفــضل مــن الحلاق، وأكثر من ذلك فلديها ثياب لتقمص الدور بطريقة طبيعية، ولهــذا تركــوا على عاتقها تمثيل كل ما هو ضرورى، حتى تنفذ القصد، لأنها قرأت كتبًا كثيــرة للفروسية، وتعرف جيدًا الأسلوب الذى كانت تتبعه الفتيــات المــصونات، عنــدما يطلبن العون من الفرسان.

قال القسيس:

- إذن، لم نعد نحتاج لشيء سوى أن تنطلقى إليه، ولا شك أن الحظ الطيب يثبت أنه فى صالحنا، فها أنتما لكما دون انتظار- أيها السيد والسيدة- تفتح الأبواب لعلاج أمركما، وبالنسبة لنا ها أنتما تسهلان ما صعب علينا. هنا أخرجت دوروتيا ثوبًا كاملاً من نسيج رقيق ناعم من كيس مخدتها (الذى صار مخدَّة)، وطرحة من نسيج بديع أخضر، ومن علبة عقدًا وبعض الحلى، وفى لحظة تزينت لتأخذ شكل السيدة الغنية العظيمة. كل هذا قالت عنه إنها خرجت به معها من منزلها احتياطًا للظروف، وحتى اللحظة لم ترد مناسبة لاستعماله. وأعجب الجميع وسرهم ملاحتها العذبة وحسنها الفتان، وتيقنوا ضعف فهم دون فرناندو، رافضًا كل هذا الجمال، الذى كان أكثر من أعجب به سانشو بانثا لظهوره له (كما كان هكذا حقا وفعلاً) أنه لم ير كل أيام حياته مثل هذا المخلوق الجميل، وهنا سأل القسيس فى حماس كبير: من تكون تلك السيدة الحسناء، وهل هى التى كان يبحث عنها فى تلك المجاهل.

أجاب القسيس:

- هذه السيدة الحسناء، سانشو أيها الشقيق، كمن لا يذيع سرًا، هى الوريثة الشرعية فى سلسلة مستقيمة أبوية للمملكة العظمى (ميكوميكون)، والتى تأتى بحثًا عن سيدكم، طالبة منه هبة، هى أن يرفع عنها ضرًا أو عدوانًا، فعله ضدها عملاق شرير، وشهرة الفارس الهمام سيدكم، الذائعة فى كل المكتشف من غينيا أحضر هذه الأميرة بحثًا عنه.

قال بهذه المناسبة سانشو بانثا:

- بحث سعيد، وعطاء فريد، وأكثر، إذا كان سيدى بهذا الحظ، حتى يرفع هـــذا الضرر، ويقتل ابن الداعرة، ذلك المارد الذى تتحدث عنه فخامتكم، نعـــم سيقتله إن قابله، إذا لم يكن مجرد شبح: لأن سيدى ليس له سلطان علـــى الأشباح. لكن أريد أن ألتمس شيئًا من فخامتكم من بين أشياء، أيها السيد الجامعى، حتى لا يرغب سيدى فى أن يكون أسقفا، وهو ما أخافه، انـــصحه أن يتزوج بعد ذلك من هذه الأميرة، وهكذا يستحيل عليه تلقى التعـــاليم الأسقفية، وتسير أموره بخير مع إمبراطوريته، ومعى بكل رغباتى، الأمر الذى تأملته جيدًا، وأجد أنه ليس أمرًا طيبًا كثيرًا أن يصير سيدى أسقفا، لأننى لا فائدة منى للكنيسة، فأنا متزوج، وأن أسير الآن للحصول علـــى تبرعـــات للكنيسة، لإمكان الحصول على دخل، وأنا صاحب (عِيال) وزوجة، لهو أمر لا آخر له: ولهذا فاللمسة السحرية أن يتزوج سيدى من هذه السيدة، التى حتى الآن لا أدرى عن سماحتها، وبالتالى فلا أتكلم عنها باسمها.

أجاب القسيس:

- تسمى الأميرة ميكوميكونا، لأن اسم مملكتها (ميكوميكون)، فمن الطبع، أن تسمى هكذا.

أجاب سانشو:

- لا شك فى هذا، فقد رأيت كثيرين يحملون كلقب ونقب اسم المكان الـــذى ولدوا فيه. بدرو دى (القلعة)، خوان دى (أُبيدا)، دييجو دى (بلد الوليد)، وهذا نفس الشيء الذى لابد أنهم يستعملونه فى غينيا: أن تأخـــذ الملكـــات اسم ممالكهن.

قال القسيس:

– **هكذا ينبغي أن يكون، وبالنسبة لزواج سيدكم سوف أعمل معه كل قدراتي.**

وبقى سانشو راضيًا والقسيس متعجبًا من بساطته، ومن أن تلك البساطة توازى نفس ترهات سيده، فهو ليس لديه شك أن سيده سيصير إمبراطورًا.

وهنا امتطت دوروتيا بغلة القسيس، والحلاق ركّب فى اتقان لحية ذيل الثور على وجهه، وطلبا من سانشو أن يقودهما إلى حيث كان دون كيخوتى، وذكّراه بألا يقول بأنه يعرف الجامعي والحلاق، لأنه فى عدم معرفتهما تسهيل الطريق لسيده حتى يصير إمبراطورًا. وطبيعى ألا يرغب كاردينيو والقسيس فى صحبتهم، حتى لا يتذكر دون كيخوتى مشاجرته مع كاردينيو، أما القسيس فلم يكن حضوره ضروريًا فى هذه المرحلة، وقد تركاهم يذهبون أمامهما، وهما خلفهما سيرًا على الأقدام يتبعانهما شيئًا فشيئًا. لم ينس القسيس أن ينبه دوروتيا ما كان ينبغى عليها عمله، وردت عليه بألا ينشغل فإنها ستقوم بكل شيء نقطة نقطة، كما تتطلبه وترسمه كتب الفروسية. أمضوا ثلاثة أرباع الفرسخ سائرين، عندما اكتشفوا دون كيخوتى بين سلسلة من الصخور المتشابكة، وقد عاد لارتداء ملابسه، وإن كان لم يضع أسلحته، وهكذا رأته دوروتيا، حين أخبرها سانشو أن هذا هو دون كيخوتى. حفزت جوادها الملكى بالسوط، وهكذا فعل الحلاق حسن الالتحاء، وعند الاقتراب منه، قفز الحلاق من على بغلته، وأخذ بيد دوروتيا، والتى بنزولها من على بغلتها فى تلقائية ذهبت للركوع بين يدى دون كيخوتى، الذى استنكر ذلك وطلب منها القيام، بينما هى تلعب دورها بالتمام، مستمرة فى الخضوع وانبرت تقول بهذا الخنوع:

– **لن أقوم من هذا الركوع، أيها الفارس الهمام المسموع، حتى يقدم كرمكم وجميل فعالكم ما أطلبه من هبة، سوف تسير بها الألسنة والأسماع، امتداحًا**

لأريحيتكم وأمجادكم فى كل البقاع، للانتصار لأكثر من فتاة بين من تطلــع عليهن الشمس من الفتيات، وقوعًا تحت براثن العدوان والتعاسات، وقــد جاءت إليكم مهتدية بأريج اسمكم المشهور، بحثًا عنكم لتجــدوا لتعاســتها دواء، وعما إذا كانت سواعدكم القوية تستجيب فى انسجام لشهرتكم التى سوف تخلدها الأيام، فلا ترى مندوحة فى نصرة الفتاة المجروحة.

أجاب دون كيخوتى:

– لن أرد عليك بكلمة، ولن أسمع عن شأنك وعن تلك الملمة، حتى تنهضى من هذا الركوع.

أجابت الفتاة المستضعفة:

– لن أنهض، حتى أولاً وقبل كل شيء، أن أسمع أنكم قد وهبتم لى مطلبى.

أجاب دون كيخوتى:

– إنى أهب وأمنح، ما سوف يُنجز كما لم ينجز قط فعل فى إصلاح ضُرّ أو عار باسم مليكى، ووطنى، وتلك التى تملك مفاتيح قلبى وحريتى.

أجابت الفتاة المتألمة:

– لن يكون فى ضر أو عار كما تقولون، يا سيدى العظيم.

وبينما هما كذلك اقترب سانشو بانثا من مسامع سيده، وقال له فى بطء بطىء:

– الخير يا سيدى أن تمنحها الهبة التى تطلب، فليس الأمر أكثر من قتل مارد، ولا غير، وأن تلك التى تطلب هى الأميرة السامية ميكوميكونا، ملكة المملكــة الكبيرة ميكوميكون، الشهيرة فى أثيوبيا.

أجاب دون كيخوتى:

- لتكن من تكون، فإننى سأفعل ما يجب علىَّ، وما يمليه علىَّ ضميرى، طبقًا لعهد الفروسية.

وعائدًا إلى الفتاة قال:

- فلينهض جمالكم البارع، فإنى أمنحكم الهبة التى ترغبين فى طلبها منى.

قالت الفتاة:

- إذن، ما أطلب هو أن يأتى شخصكم العظيم معى حيث أحمله، وتعدنى ألا تدخل فى أى مغامرة أخرى، ولا عمل آخر من أعمال الفروسية حتى تثأر لى من خائن، اغتصب مملكتى ضد كل قانون سماوى، أو إنسانى.

أجاب دون كيخوتى:

- أقول، إذن، هكذا ستكون الهبة. وهكذا، سيدتى، من اليوم فصاعدًا يمكنك استبعاد الأحزان، التى ترهقك، وليستعيد أملك الضعيف بريقه وقوته، فبعون الله وذراعى، سوف ترين نفسك سريعًا مستعيدة مملكتك، جالسة على كرسى عرش دولتك القديمة والعظيمة، على الرغم، وفوق أنف كل الجبناء، الذين قد يودون الاعتراض. فإلى العمل، لأنهم كما يقولون: فى التأخير اعتاد أن يكمن الخطر.

الفتاة المضطرة المقهورة جاهدت لتقبيل يده وفى عناد، لكن دون كيخوتى الذى كان دائمًا الفارس المهذب الرصين لم يوافق بأى حال من الأحوال، وأمر سانشو أن يحضر روثينانتى مسرجًا، وبعدها يتولى تسليحه أكمل التسليح، وقد

كانت الأسلحة معلقة فى شجرة مثل صيد باستخدام تلك الأحزمة، التى أسقطها سانشو، وسلح سيده، والذى إذ رأى نفسه فى السلاح قال:

– فلنذهب من هنا باسم الله، للانتصار لهذه السيدة العظيمة.

كان الحلاق حتى تلك اللحظة راكعًا، مراعيًا أقصى المراعاة تجنب انفجاره ضاحكًا، وألا تسقط عنه اللحية، والتى بسقوطها تقف كل الأمور ولا يتحقق القصد والمطلوب. وهكذا إذ رأى الهبة وقد تم وهبها، وسعى دون كيخوتى الذى كان يعدها للذهاب لإنجازها، نهض وأخذ اليد الأخرى لسيدته، وبين الاثنين رفعاها فوق البغلة، وبعدها وثب دون كيخوتى فوق روثينانتى، واستراح الحلاق فوق مطيته، ولم يبق على القدم إلا سانشو، وتجددت عندها ذكرى ضياع حماره الذى كان فى احتياج إليه، ومع كل هذا، فقد سار منشرحًا، حيث بدا له أن سيده فى الطريق على مرمى حجر من أن يصير إمبراطورًا، لأنه كان يفكر دون أن تراوده الشكوك أنه سوف يتزوج تلك الأميرة، وأن يصير على الأقل ملكًا لميكوميكون. فقط كان يثقل عليه أن تلك المملكة كانت فى أرض السود، وأن رعايا الملك جميعًا يجب أن يكونوا سودًا، الأمر الذى وجد له علاجًا فى خياله، وقال لنفسه: وماذا على أن تكون رعيتى من السود؟ بل علىّ أن أحملهم إلى إسبانيا، وأبيعهم نقدًا، وأشترى بالنقود لقبًا أو مهنة، بها أعيش مستريحًا طول الحياة. لا، فلتتم هانئًا! فعندك العبقرية والكفاءة لتطويع الأشياء، لبيع ثلاثين أو عشرة آلاف من الرعية، وفى لحظة! بحق الإله سوف أبيعهم على عجل، الصغير سوف يرفع سعر الكبير، والبضاعة سوف فى السوق تطير، ومهما كانوا سودًا، فإننى سأحولهم إلى بيض وصفر من درهم إلى دينار. هيا أيها السود، فإنى أرضع إصبعى! كان يسير مع هذه الافكار طالبًا وراضيًا، حتى أنسى تعب الطريق.

كل هذا كان يراقبه القسيس وكاردينيو من وراء أغصان أيكة، ولم يعرفا ماذا يفعلان للانضمام إليهم .لكن القسيس وكان صاحب حيل، تخيل ماذا عليهما أن يفعلا فى ذلك الوقت، لتحقيق ما يرغبان، وبمقص كان يحمله فى صندوق معه، قص بسرعة لحية كاردينيو، وألبسه (كابوتيُو) بنيًا كان فى حوزته، وأعطاه معطفًا قصيرًا أسود وغيره فصار هكذا فى سروال قديم، وعليه جُبَّة، وغدا مختلفًا عن نفسه كثيرًا، حتى خيل لكاردينيو أنه ما كان ليتعرف على نفسه لو نظر فى مرآة، وبسهولة اختصرا الطريق، وخرجا إلى الطريق الملكى قبلهم، لأن الحشائش البرية، ووعورة تلك الأماكن لم تسمح لراكب أو راجل بالسير السريع. وبالفعل أخيرًا، كانوا فى السهل عند مخرج السلاسل الجبلية، وهكذا خرج دون كيخوتى ورفاقه، وشرع القسيس فى النظر إليهم بكل بطء، مصدرًا إشارات فى أنه كان يتعرف عليهم ويعرفهم شيئًا فشيئًا، ومع مرور وقت طيب فى النظر إليهم، اقترب منه فاتحًا ذراعيه، وقال:

– **من أجل خير وفضل العثور على مرآة الفروسية، وزهرة الظرف وقشدته، ومجير المضطرين ودوائهم، والجوهر الخامس للفرسان المشائين.**

وعند قوله هذا، كان يحتضن دون كيخوتى عند ركبته اليسرى، الذى فزع مما كان يرى ويسمع قوله وفعله، من ذلك الرجل، وشرع ينظر إليه باهتمام، وفى النهاية تعرف عليه، وبقى كما لو كان مرعوبًا من رؤيته، حتى إنه قال:

– **دعنى أيها الجامعى صاحب الفخامة، فليس من العقل أن أظل راكبًا على هذا الجواد، ونيافتكم تسيرون على القدم.**

قال القسيس:

– لن أوافق على هذا بأى حال، ابق عظمتكم على الجواد، و هكذا يتم إنجـــاز أعظم الأمجاد والمغامرات فى عصرنا الذى لم ير فيـــه مثلـــها، وبالنـــسبة لى، ولست إلا قسيسًا متواضعًا، يكفينى أن أركب على فخذى إحـــدى هـــاتين البغلتين لهذين اللذين يسيران مع فخامتكم، إذا لم يغضبهما، وبها سأحس أننى فارس فوق الجواد بيجاسو أو فوق الحمارة العنابى أو الفانا التى كان يركبها العربى المشهور (موشا راكى) الذى يرقد حتى الأن مسحورًا فى ذلك المنحدر (ثوليما)، القريب من هنا فى الكومبلوتو الكبير.

أجاب دون كيخوتى :

– عفوًا يا سيدى الجامعى فأنا أعرف أن سيدتى الأميرة، حفظها الله، من أجلـــى سوف تأمر خادمها أن يعطى فخامتكم مقعده على البغلة، وهو يـــستطيع أن يردف نفسه على فخذيها إذا كانت تتحمل.

أجابت الأميرة.

– نعم، سوف تتحمل على ما أعتقد، أيضًا أظن أنه ليس من الضرورى أن آمـــر السيد خادمى، وهو رجل مهذب وبلاطى، ولن يسمح لشخص كنسى أن يسير على قدميه مع إمكان أن يركب.

أجاب الحلاق:

– هذا هو.

وترجل الحلاق فورًا، ودعا القسيس لمقعده، الـــذى قبلـــه دون مزيـــد مـــن الرجاء، وكان شرًا أن يصعد الحلاق على فخذى البغلـــة، والتـــى كانـــت بالفعـــل

مؤجرة، وهذا يعنى أنها كانت عربيدة، وهذا يكفى، فقد رفعت قليلاً عجزها، ودفعت برفستين فى الهواء، ليستقرا فى صدر أو رأس الأسطى نيكولاس، ليرسل للشيطان خطة حمل دون كيخوتى إلى القرية. وهكذا فزع، فسقط على الأرض دون اهتمام باللحية التى سقطت معه على الأرض، وكما رأى نفسه بدونها لم يجد حلاً إلا تغطية وجهه بيديه شاكيًا من سقوط أضراسه. وكما رأى دون كيخوتى هذا الشاب الملتحى دون لحية ودون دم، ينزف من وجه ذلك الخادم الملقى على الأرض قال:

- يحيا الله، فتلك معجزة كبيرة إذ سقطت عنه اللحية، وانخلعت من جذورها، كما لو كان قد تعمدوا اقتلاعها. القسيس وقد رأى الخطر يحيق بملعوبه، أسرع إلى اللحية، واقترب بها حيث كان الأسطى نيكولاس، الذى كان يصرخ حتى تلك اللحظة، وفجأة قرب رأسه من صدره، وركبها له متمتمًا بدعاء مناسب للصق اللحية على مشهد منه، وعندما انتهى من تركيبها ابتعد، وبقى الخادم فى كامل السلامة والالتحاء، كما كان من قبل، مما أدهش دون كيخوتى، ورجا القسيس أن يعلمه هذا الدعاء عندما يمكن، فقد كان يفهم أن نفعه أكثر من لصق اللحى، وهو شفاء الجروح والتمزقات التى لابد أن يسببها نزع اللحية.

قال القسيس :

- وهو كذلك.

ثم وعده تعليمه له فى أول فرصة.

وهنا تمكنوا من أن يضعوا القسيس فوق البغلة، ولمسافة طويلة بقى الثلاثة خرسًا دون كلمة حتى وصلوا إلى النزل الذى كان على بعد فرسخين من مكان تلك

الواقعة. وهنا كان الراكبون دون كيخوتى والقسيس والفتاة، والراجلون كـــارديينو والحلاق وسانشو.

قال دون كيخوتى للفتاة:

– **عظمتكم أرشدينا حيث يتفق ورضاك السامى.**

وقبل أن تجيب قال الجامعى :

– **نحو أى مملكة تودين قيادتنا سموكم ؟ هل بالصدفة نحن الميكوميكون ؟ هذا ما يجب أن يكون وإلا فأنا قليل المعرفة بالممالك.**

هى، وكانت، منغمسة فى الملعوب، فهمت أن عليها أن تقول نعـــم، وهكـــذا قالت:

– **نعم، هو ذاك . فى اتجاه هذه المملكة طريقى.**

قال القسيس:

– **إذا كانت هى، فعلينا بعبور قريتى، ومن هناك سموك سوف تهبطين فى طريـــق كارتاخينا، حيث يمكن الإبحار مع الحظ السعيد، وإذا واتتكم الرياح وهـــدأ البحر وانعدمت العواصف يتم الوصول فى تسع سنين، حيث تكون علـــى مرمى البصر بحيرة ميونا، أقول، ميوتيدس، التى هى على بعد أقل من مائـــة يوم من مملكة عظمتك**

قالت هى:

– **فخامتك مخدوع، يا سيدى، لأننى غادرتها منذ أقل من سنتين، والحقيقة أن الجو كان بالغ السوء، ومع ذلك وصلت لأرى من كنت أرغب كثيرًا فى رؤيته،**

وهو السيد دون كيخوتى دى لا مانشا، والذى وصلت أخباره إلىَّ بمجرد أن وضعت قدمىّ فى إسبانيا، وهذه الأخبار حفزتنى أن أبحث عنه، وأعتمد على لطفه وأثق فى عدالة قوة ساعده الذى لا يهزم.

قال في ذلك دون كيخوتي:

- كفى، توقفا عن مديحى، لأن أكبر عدو لى هو النفاق ؛ ومع أن هـــذا لـــيس نفاقًا، أيضًا يغضب مسامعى الطاهرة مثل ذلك الحوار . والذى أعرف قوله، إما عندى شجاعة، أو ليس عندى، وإن كل ما هو عندى، ولـــيس عنـــدى علىّ أن أستخدمه فى خدمة سيدتى، حتى فقدان الحياة، وهكذا تاركين ذلك لوقته، ألتمس من السيد الجامعى أن يقول لى السبب الذى أحضره إلى هذه الجهات وحيدًا، ودون خدم، خفيفًا خفيفًا! إن هذا يرعبنى .

قال القسيس:

- سأجيبك عن ذلك باختصار؛ لأنك تعرف أيها السيد دون كيخـــوتى، أنـــنى والأسطى نيكولاس صديقنا، وحلاقنا، ذهبنا إلى أشبيلية لقبض مبلـــغ مـــن النقود، كان قد أرسلها لى قريب من لاس إندياس، وليست بالقليلة، فهـــى تتجاوز ستين ألف مثقال، من الفضة الخالصة، ليس أقل، وعنـــد مرورنـــا بالأمس، فى تلك الجهات، خرج لنا فى الطريق أربعة لصوص، وجردونا حتى من اللحى وقد ناسب الحلاق أن يضع مكانها لحى مستعارة، أما هذا الصبى الذى يسعى معنا – مشيرا إلى كاردينيو – فقد أشبعوه ضربًا. ومن الطريف، أنه معروف فى كل هذه الجهات، أن الذين سطوا علينا كانوا بعض المجرمين المحكوم عليهم بالسخرة فى الأسطول، ويقولون إن رجلاً بقرب نفس المكان

كان قد حررهم، وكان جسورًا حتى إنه أطلق سراحهم مع وجود الحـــرس وضابطهم، ومما لا شك فيه إنه إما مجنون أو شرير مثلهم أو رجل دون رحمة ودون ضمير، فقد أحب أن يطلق الذئب بـــين الحمـــلان، الثعلـــب بـــين الدجاجات، الذباب فوق العسل، ورغب فى غش العدالة، والمضى ضد إرادة الملك سيده الطبيعي، فقد كان ضد أوامره، ورغب – أقول – أن ينـــــزع عن الأسطول أقدامه، وإزعاج الإخوّة المقدسة التى تستريح منـــذ ســـنين، ورغب، أخيرًا، فى خسارة الروح دون أن يكسب الجسم.

وقد سبق لسانشو حكاية قصة هؤلاء المجرمين للقسيس والحلاق، وهى مـــن المغامرات التى انتهت بانتصار دون كيخوتى ومجده، وبهذا كان القسيس يشير إليها بثقة، حتى يعرف رد فعل دون كيخوتى عند الاستماع إليه، والذى كان يتغير لونـــه مع كل كلمة، ولم يكن يجرؤ على القول بأنه كان محررًا لهؤلاء الناس الطيبين.

قال القسيس:

– هذا هو الأمر، فيما يتعلق بمن سرقونا، رحمهم الله، وعفا عمـــن لم يتـــركهم يذهبون لتلقى العقاب.

الفصل الثلاثون

عبارة عن كياسة دوروتيا وأشياء كثيرة للطرب العظيم وإزجاء الفراغ

لم يكد ينتهي القسيس حتى قال سانشو:

- صدقني، إذن، أيها السيد الجامعي، أن الذى ارتكب هـذا المعـروف كـان سيدى، وليس لأنى لم أقل له قبلها أو أحذره أن ينظر فيما كان يفعل، وأنـه كان إثمًا تحريرهم، لأنهم جميعًا كان يمضون بجرائم كبيرة.

قال فى هذه اللحظة دون كيخوتى :

- أحمق، بالنسبة للفرسان المشائين، (بل لا يجوز عليهم التحـرى)، إذا كـان المستضعفون المقيدون المقهورون الذين يقابلونهم فى الطريق تسير أمـورهم بهذه الطريقة، أو أنهم فى هذه التعاسة سواء عن ذنب أو عن فـضل، فقـط عليهم مساعدتهم باعتبارهم مضطرين، واضعين العين فى أحوالهم، وليس فى جرائمهم. لقد صادفت مسبحة، سلسلة من أناس مهيضة وتعيسة، وصنعت معها ما يتطلبه منى دينى، وليأتِ بعد ذلك ما يأتى، ومن لا يعجبه ذلـك - ماعدا نيافته المقدسة السيد الجامعي وشخصه المكرم - أقول، فهو يعـرف القليل من أسباب الفروسية، ويكذب مثل أى ابن عاهرة، ووضيع الأصل، وهذا سوف أجعله يعرف بسيفى، كيف يسكن فى سجن القبر.

قال هذا، وشد سرج الجواد، منفضًا الخوذة، لأن طـشت الحـلاق، والـذى بالنسبة له هو خوذة (ممبرينو)، كان معلقًا فى حزام السرج الأمامى، حتى إصلاح ما ألم به من خلل، قد أحدثه عبيد الأسطول.

كياسة دوروتيا وملاحتها، مع معرفتها بالطبع الأحمق لدون كيخـوتى، وأن الجميع يسخرون منه عدا سانشو بانثا، جعلتها ألا تكون بعيدًا عن هذا، فلما رأتـه غاضبًا قالت :

– سيدى الفارس، فخامتكم عليه أن يتذكر الهبة التى وعـدنى، وطبقًا لهـا، لا يمكنك التورط فى مغامرة أخرى، مهما كانت عاجلـة، وليـسكن صـدر فخامتكم، فإن السيد الجامعى، إذا كان قد عرف أن عبيد الأسطول هؤلاء قد تم تحريرهم بساعدكم الذى لا يخطئ، كان سيخيط ثلاث غرز فى الفـم، وحتى كان سوف يخرس اللسان ثلاث مرات، قبل أن ينطق كلمـة ضـد فخامتكم تتناقلها الألسنة.

قال القسيس :

– على هذا أقسم بقوة، وحتى لو كانوا نتفوا شنبى.

قال دون كيخوتى:

– سوف أصمت سيدتى، وسوف أكبت غضبى العادل، الذى هاج فى صدرى، وسأمضى هادئًا مسالمًا، حتى وقت إنجاز الهبة الموعودة، لكن فى مقابل هـذا، ألتمس منك، أن تقولى لى إذا لم يضايقك، ما هو الشجن الذى بك، وكـم ومن وما هؤلاء الأشخاص الذين علىَّ أن أسرك ببطشى بهم فى انتقام كامل .

أجابت دوروتيا:

– **هذا ما سأقوم به عن رضا، إذا لم يغضبكم سماع أحزان وأسى .**

أجاب دون كيخوتى:

– **لن أغضب يا سيدتى.**

وعلى هذا أجابت دوروتيا:

– **الأمر – ولتنتبهوا ...**

لم تقل ذلك حتى أسرع كاردينيو والحلاق إلى جوارها، وقد أحبا أن يعرفا كيف ستدعى قصة لها، ونفس الشىء فعل سانشو، الذى كان مخدوعًا بها مثله مثل سيده، وهى بعد أن اعتدلت فى مقعدها، واستعدت بالسعال، وبعض اللمحات بكثيرمن التملُّح. بدأت تتكلم على هذا المنوال:

– **أولاً، أيها السادة، أحب أن تعرفوا أهم يسموننى ...**

وتوقفت قليلاً، لأنها نسيت الاسم الذى وضعه لها القسيس، لكنه أسرع للعلاج، لأنه فهم ما استوقفها، وقال:

– **ليس معجزة يا سيدتى، أن يتعكر صفو سموك، وترتبكين عندما تقصين محنتك وتعاستك، فالتعاسة تعودت أن تصنع بنا ذلك، لدرجة تمسح ذاكرة من يتحدث بها، حتى لا يتذكرون نفس أسمائهم بسبب ذلك، فإن نسيت أن اسمك الأميرة ميكوميكونا، الوريثة الشرعية للمملكة العظمى ميكوميكون، وبهذا التذكير يمكنك اختصار الجهد فى التذكر، فتنطلق ذاكرتكم المخزونة فى قص قصتك.**

- هذه هى الحقيقة، ومن الآن فصاعدًا، لن يكون ضروريا أن تذكرنى بشىء، لأننى سأرسو على ميناء آمن بحكايتى الحقيقية، وهى أن الملك أبى، والذى كان يسمى تيناكريو الحكيم، كان علاّمة فى ذلك الفن المسمى السحر، وأدرك علمه أن يجعل أمى، وكان اسمها الملكة خارميًا، أن تموت قبله، وبعد موتها بقليل كان عليه أن يترك هذه الحياة، وأبقى أنا يتيمة الأب والأم . لكنه كان يقول إن هذا لم يكن يتعبه كثيرًا بينما كان يحيره معرفة مارد عملاق، سيد لجزيرة كبرى متاخمة لمملكتنا، اسمه (باندا فيلاندو ذو النظر القائم)، وكان شيئًا معلومًا أن عيونه كانت فى مكانها ومستقيمة، ومع ذلك فهو يرى دائمًا بالعكس، كما لو كان أحول، وهو يفعل ذلك فى مكر، وحتى يقع الخوف فيمن يراه. وعرف والدى أن هذا المارد، عند معرفته يُتْمِى، كان لابد أن يسقط على مملكتى فى جبروت عظيم، وسوف ينتزعها جميعها منى، دون أن يترك لى ولو قرية صغيرة ألجأ إليها، لكنه كان من الممكن أن يتنازل عن هذا الخراب والشقاء إذا رغبت فى الزواج منه، لكن ما كان يفهمه أننى لن أوافق على هذا الزواج غير المتكافئ ؛ وما قال فى هذا كان حقا خالصًا، لأنه لم يمر ببالى قط الزواج من ذلك المارد، ولا من أى مارد، لحجمه الضخم المهول ، وقال أيضًا أبى إنه بعد موته، ورؤيتى أن (باندافيلاندو) قد بدأ فى غزو مملكتى، ألا أحرص على الدفاع عن المملكة، لأن هذا معناه تدميرى، وأن أحرص على أن أترك المملكة مفتوحة أمامه إذا أردت تجنيب موت ودمار.شامل لرعيتى الطيبة والموالية لى، لأنه لم يكن ممكنًا أن أدافع عن نفسى أمام القوة الشيطانية للمارد، وأن أعتنى بوضع نفسى مع

بعض أتباعى على الطريق إلى "الإسبانيات"(*)، حيث أجد الدواء لأدوائى فى شخص فارس مشّاء، شهرته فى ذلك الوقت سوف تمتد إلى كل هذه المملكة، تحت اسم (دون أثوتى) أو (دون خيجوتى).

قال سانشو مستمعًا ذلك :

– أنا أقول (دون كيخوتى) يا سيدتى، أو اسم آخر هو (الفارس ذو الصورة الحزينة)

قالت دوروتيا :

– تلك هى الحقيقة، وقال أكثر : يجب أن يكون طويل الجسم، جاف الوجه، وفى الجانب الأيمن تحت الكتف الأيسر، أو قريب من هناك، يجب أن يوجد خال بنى، ببعض الشعر الغليظ.

عند سماع دون كيخوتى لهذا قال لتابعه :

– تعال هنا، سانشو يا ابنى، وساعدنى على التعرى، حتى أرى إذا كنت أنا الفارس الذى تركه فى نبوءته هذا الملك الحكيم .

قالت دوروتيا:

– ولماذا تريد فخامتكم التعرى ؟

قال دون كيخوتى:

– حتى أرى هل عندى هذا الخال الذى قال عنه أبوك .

(*) المؤلف يجمع إسبانيا، إشارة إلى كل أقاليم الإمبراطورية.

قال سانشو:

- لا يوجد سبب للتعرى؛ فأنا أعرف أن فخامتكم لكم خال بهذه العلامات فى وسط العمود الفقرى، يدل على أنكم رجل قوى.

قالت دوروتيا:

- هذا يكفى ؛ لأنه بين الأصدقاء لا يجب التدقيق فى الأشياء الصغيرة، فسواء كان فى الكتف أو العمود الفقرى، يهم قليلاً، المهم وجود (الخال)، فكل الجسم فى نفس اللحم، ومما لاشك فيه أن أبى الطيب قد أصاب فى كل شىء، وأنا أصبت فى إيكال أمرى إلى السيد دون كيخوتى: الذى حدثنى عنه أبى، فعلامات الوجه توافق علامات الشهرة العظيمة، التى يتمتع بها هذا الفارس، ليس فقط فى إسبانيا، ولكن أيضًا فى كل لامانشا(*)، لأنه مجرد أن رست بنا السفينة فى (لا أوسونا)، سمعت أمجادًا كثيرة له، وهنا حدثتنى نفسى أنه الذى جئت إسبانيا من أجله .

سأل دون كيخوتى :

- كيف ترسو السفينة فى (لاأوسونا)، يا سيدتى، إذا لم تكن ميناء بحرية ؟

لكن قبل أن تجيب دوروتيا، بادر القسيس بالكلام، وقال:

- السيدة لابد أنها أرادت القول إنها بعد أن رست السفينة فى مالقة، فإن أول مكان فى إسبانيا حيث سمعت أخبار فخامتكم كانت (لا أوسونا).

(*) سخرية الكاتب لأن السياق يعنى أن "لامنشا" أكبر من إسبانيا، بينما هى مقاطعة صغيرة.

قالت دوروتيا:

– هكذا أردت القول .

قال القسيس:

– و(لاأوسونا) فى الطريق من مالقة نحونا، وأصلى جلالتك.

– لا يوجد المزيد، غير أنه فى النهاية، كان حظى طيبًا حتى إننى وجدت السيد دون كيخوتى وهأنذا أستعيد مملكتى، وسيطرتى عليها كلها، لأنه فى تهذيب وجلال، وعدنى بهبة الذهاب معى إلى أى مكان أحمله إليه، وليس إلا حيث إن أضعه فى مواجهة (باندا فيلاندو ذى النظر القاتم)، حتى يقتلـه، وحتى أستعيد منه ما اغتصبه منى دون وجه حق ؛ وكل هذا سوف يقع بمجرد طلبه بالفم، وتلك نبوءة تينا كريو الحكيم، وأبى الطيب تركها على هيئة قول مكتوب بعبارات كلدانية أو إغريقية، لا أعرفها، تقول بين ما تقول ؛ إن هذا الفارس بعد أن يكون قد ذبح المارد، ورغب فى التزوج منى، سأقدم له نفسى حينذاك دون أى تردد، باعتبارى زوجة شرعية، و سأعطيه السلطة على مملكتى، وعلى شخصى .

قال دون كيخوتى فى تلك اللحظة :

– ما رأيك أيها الصديق سانشو، ألا تسمع ما يحدث ؟ ألم أقله لك أنا ؟ انظر، فها نحن لدينا مملكة نحكمها، وملكة نتزوجها.

قال سانشو :

– وأنا أقسم(*) على هذا ! من أجل الداعر الذى لا يتزوج فاتحًا حلقوم السيد (بندا المغزول) ! هيا، اركب فالملكة شريرة ! وهكذا يعيدون لى الإبهامين من السرير!

(*) كل العبارات شعبية للمدح، ويلاحظ عادة سانشو فى تصحيف الكلمات من تحريفه اسم المارد.

وعند انتهائه من قول ذلك ؟ أفرغ برجليه ركلتين فى الهواء، مع علامات للرضا الأعظم، وعندها ذهب للإمساك بعنان بغلة دوروتيا، موقفًا لها، وركع على ركبتيه أمامها، راجيًا لها أن تعطيه يديها لتقبيلهما، فى إشارة لاستقبالها باعتبارها ملكة وسيدة له. من لم يكن عليه أن يضحك من هذا الشأن، مشاهدًا جنون السيد، وسذاجة الخادم؟ وبالفعل أعطته دوروتيا يديها، ووعدته بمنصب كبير فى مملكتها، عندما ترضى عنها السماء، حيث تمكنه من ثمرة مجهوده، ومن الاستمتاع بها.

شكرها سانشو بمثل كلماتها، مما جدد الضحك بين الجميع، وواصلت دوروتيا:

– تلك قصتى أيها السادة، فقط بقى أن أقول إن صحبتى فى سفرى، وكانوا نفوسًا كثيرة، لم يبق منها غير هذا التابع الطيب الملتحى، لأن الجميع قد غرقوا فى عاصفة هبت والميناء على مرأى منا، وهذا التابع وأنا خرجنا متشبثين بلوحى خشب إلى الأرض، وهكذا فمجرى حياتى معجزة كله، وسر من أسرار الغموض، كما قد لاحظتموه . وإذا ظهر لكم أمر يخالف الاعتدال أو الإصابة، فالذنب، لا بد، يرجع لما قاله السيد الجامعى فى بداية هذه القصة، فإن جهد البلاء المستمر وغير العادى يحرم من يعانيه من ذاكرته.

قال دون كيخوتى :

– ذلك لا يحرمنى، أوه، أيتها السيدة السامية الشجاعة من تقديم خدماتى لكم، مهما عظم حجمها وانعدم رؤية مثلها، وهكذا فإنى أجدد هبتى، التى وعدتكم بها، وأقسم أن أذهب معكم إلى آخر العالم، حتى أرانى مع عدوكم المتوحش، الذى أفكر بعون الله وقوة ساعدى فى قطع رأسه المغترة بحد هذا. لا أحب أن أقول (السيف الصارم)، فبفضل خينيس دى باسامونتى لا أحمل سيفى.

قال هذا فى همس، وواصل القول:

- وبعد أن أكون قد قطعتها له، ويعود السلام إلى دولتكم، سيبقى ما تفعلونـــه بشخصكم حسبما يتراءى لكم ملك إرادتكم، لأنـــى مادامـــت ذاكرتـــى مشغولة، وإرادتى مغلولة، وعقلى تائه فى غرام تلك ...ولا أقـــول أكثـــر، فليس من المحتمل أن أتعرض – بل لا أفكر فى – الزواج، حتى مع العنقاء(*).

بدأ الأمر بالغ السوء لسانشو، لما قاله سيده أخيرًا، عن عـــدم رغبتـــه فـــى الزواج، والذى فى غضب عظيم رفع صوته، وقال:

- أقسم لنفسى، وأحلف لها،أنك فخامتك،أيها السيد دون كيخوتى،أنك لا تملك عقلاً كاملاً، إذن، كيف يمكن أن تضع فخامتك موضع الشك زواجك من أميرة عالية الشأن مثل هذه ؟ هل تظن أن الحظ سوف يقدم لك خلـــف كل قلعة سعدًا شبيهًا لما يقدمه لك الآن ؟ هل سيدتى دولثينيا، بالـــصدفة، أكثر جمالاً ؟ لا ؟ بالتأكيد، ولا حتى هى فى نصف جمال الأميرة، وأســـتطيع أن أقول أكثر من ذلك ؛ إنها لا تصل إلى مستوى حذاء من هـــى أمامـــك .وهكذا، مبروك علىّ الحصول على ولاية ولقب كونت، الذى أنتظر، مادام فخامتك تبحث عن الغابة فى مياه الخليج . فلتتزوج، عندها فلتتزوج، وإلا فإنى أسلمك للشيطان، وخذ هذه المملكة التى تسعى إليك مجـــانًا وملـــك يديك، وتكون الملك لتعمل منى ماركيزًا، أو حاجبك، وعنـــدها فليـــذهب الشيطان بكل شىء.

(*) النص يشير إلى الطائر "فينكس"، وقد اخترت مقابلة العربى: "العنقاء".

عند سماع دون كيخوتى لهذا السباب ضد سيدته دولثينيا، لم يستطع تحملـــه، فرفع رمحه الطويل، دون أن يقول له كلمة، أو يرد عليه بالقول، وضـــربه بهـــذا النبوت الطويل ضربتين، وإذا لم تكن دوروتيا قد صرخت عليه وقد سقط سانـــشو على الأرض لقضى على حياته فى تلك اللحظة. طلبت منه أن لا يضربه أكثر من ذلك، قال بعد برهة لسانشو:

– فكر أيها القروى الخرب، فهناك مكان دائمًا لركوب العصا، وهل على دائمًا أن أعفو أنا، وتخطىء أنت. لا تفكر فى ذلك أيها السافل اللعين، ولا شـــك أنك كذلك، لقد سحبت لسانك ضد من لا نظير لها دولثينيا . ألا تعـــرف أيها الجلف القحف الخفُ، أنه لولا القوة التى تلهم بها ذراعى، ما استطعت أن أقتل برغوثًا به . قل أيها المحتال بلسان أفعى، من تفكر أنه كسب تلـــك المملكة، وقطع رأس هذا المارد، وصنع منكم ماركيزًا (كل هذا أعتبره أمرًا مقضيًا، وشيئًا قد تم بعد الحكم)، إذا لم تكن شجاعة دولثينيا متخـــذة مـــن ذراعى آلة للأمجاد ؟ أإنها تقاتل فى شخصى، لتنتصر فى انتصارى. يـــا ابـــن العاهرة السافل، أوه ! كم أنت ناكر للجميل وقد رأيت نفسك ناهضًا من غبرة التراب لتسير سيد ألقاب، وتسعد بهذا البر بالنَّيْل ممن أحسن به عليك.

لم يكن سانشو مضعضعًا إلى حد لا يجعله يسمع كل ما قالـــه لـــه سـيده، ونهض بشىء من السرعة، واحتمى ببغلة دوروتيا، وقال لسيده:

– قل لى سيدى، إذا كنت بهذا العزم ألا تتزوج من هذه الأميرة العظيمة، فمـــن الواضح، أن المملكة لن تكون لك، وعدم كونها لك، أى نعم يمكن أن تنعم بها علىّ ؟ هذا ما أشكو منه، تزوج فعلاً بهذه الملكة إذ هى لدينا مطورة من

السماء، وبعدها يمكنك إقحام سيدتى دولثينيا معك، فما أكثر الملوك الذين ينبغى وجودهم فى الدنيا يتسرّون مع الملكة بسرّية . وفيما يتعلق بالجمـــال، فلا أتدخل، فالحقيقة، ينبغى قولها، حيث لا أستطيع المقارنة بينهما لأنى لم أر السيدة دولثينيا.

قال دون كيخوتى:

– كيف لم ترها، أيها الخائن المهين؟ إذن، ألم تنفض منذ قليل من حمل رسالة لـــى منها ؟

قال سانشو:

– أقول إننى لم أرها فى بطء المتأمل، حتى أشاهد بصفة خاصة جمالها، ومحاســـنها نقطة نقطة، لكن الجعبة فى مجموعها تبدو لى طيبة.

قال دون كيخوتى:

– الآن أعفو عنك، واغفر لى غضبى عليك، فالحركات الأولى ليـــست فى يـــد الإنسان.

أجاب سانشو:

– هذا ما أراه، والرغبة فى الكلام هى الحركة الأولى، ولا أستطيع تجنب قول ما يرد على لسانى، ولو مرة واحدة فى العمر.

قال دون كيخوتى:

– مع كل هذا، انظر سانشو، ما تتكلمه، لأنه كثيرًا ما تصل مياه الـــصرف إلى النبع ...، ولن أقول لك أكثر.

أجاب سانشو:

– هذا طيب الآن، الله فى السموات، ويرى الفخاخ، وسيكون قاضيًا لمن هو أكثر إساءة، أنا فى عدم حسن الحديث أو أنت فى عدم ترك الرمح بعيدًا عنى.

قالت دوروتيا:

– انتهى الأمر، انطلق سانشو، وقبّل يد سيدكم، واطلب عفوه، ومن الآن فصاعدًا تنبه فى مدحك وذمك، ولا تقل سوءًا عن تلك السيدة توبوسو، التى لا أعرفها حتى أخدمها، وثق فى الله، فلن يخيب أملكم فى ولاية، حيث تعيش أميرًا.

ذهب سانشو خفيض الرأس، وطلب يد سيده، فأعطاها له فى هيئة مطمئنة وبعد أن قبّلها باركه، وطلب منه أن يتقدم الآخرين قليلاً لأنه يحب أن يسأل عن بعض الأمور، ويناقش معه أمورًا ذات أهمية كبيرة. وهكذا فعل سانشو، وعند انفصالهما قليلاً بتقدمهما للآخرين، قال دون كيخوتى:

– بعد أن جئت، لم تتح لى الفرصة ولا الوقت لسؤالك عن أشياء ذات خصوصية حول سفارتك، التى حملت فى نهايتها الإجابة التى جئت بها، الآن، وقد منحنا الحظ الفرصة والوقت، لا تنكر علىَّ سرور تبليغى بهذه البشرى الطيبة.

– اسأل فخامتكم ما تحب – أجاب سانشو – فلكل سؤال مخرج طيب مادام كان عندى المدخل، لكنى أتوسل لفخامتك ألا تكون من الآن فصاعدًا بمثل هذه الدرجة من الانتقام.

قال دون كيخوتى:

– لماذا تقول هذا سانشو ؟

- أقوله - قال سانشو - لأن هذه النبابيت التى ضربتنى بها الآن، كان سببها الأكبر تلك المشاجرة التى أشعلها بيننا الشيطان، فى تلك الليلة التى قلت فيها كلامًا ضد سيدتى دولثينيا، التى أحبها وأحترمها مثل تحفة قديمة، وإن لم تكن كذلك، ويكفى أنها شىء يخصك.

قال دون كيخوتى :

- لا تعد إلى مثل هذا الكلام، بحياتك ياسانشو، فإنه يثقل على، وقد عفوت عنك حينها، وأنت تعرف جيدًا أنهم اعتادوا القول : ذنب جديد، وعقاب جديد.

وبينما كان ذلك يدور، رأيا رجلاً يأتى فى مقابلهما بنفس الطريق، وعندما اقترب ظهر لهم أنه غجرى؛ لكن سانشو بانثا الذى كلما رأى حميرًا تنسحب منه الروح ونور العين، بمجرد أن رأى الرجل عرفه، وقد كان خينيس باسامونتى، ومن خيط الغجرى صنع بكرة ملفوفة لحماره؛ لقد كانت الحقيقة. لقد كان حماره بلونه البنى المبرقش يمتطيه باسامونتى متجهًا إليه، متخفيًا حتى لا يعرف، لبيع الحمار. لقد كان فى ثياب غجرى، ولغته وأشياء أخرى، كما لو كانت فيه طبيعية. ولقد رآه سانشو، وعرفه، ومجرد أن رآه صرخ بصوت عظيم، وقال:

- آه، أيها اللص خينيس الحقير ! دع روحى، أطلق حياتى، لا تعرقل راحتى، اترك حمارى، اترك هديتى ! اهرب أيها الداعر، اختفِ أيها اللص، وتخلى عن حوزتك بما ليس حوزتك.

لم يكن ضروريًا هذا الكلام الكثير، وتلك الوصمات، لأنه مع أول صرخة، قفز خينيس، ورمح كما لو كان فى سباق، وفى لحظة اختفى، وابتعد عن الجميع. اقترب سانشو من حماره واحتضنه، وقال له:

- كيف حالك، يا نعيمى، يا حمار عينى، ورفيق حياتى ؟

ومع هذه الكلمات كان يقبله، ويربت عليه، كما لو كان إنسانًا. الحمار كان صامتًا، دون أن يجيبه بكلمة واحدة.

وصل الجميع وهنأوه على لقية حماره، وخاصة دون كيخوتى، الذى قال له، إنه لن يلغى وثيقة الجحوش الثلاثة لهذا. شكره سانشو.

وبينما كان الاثنان يمضيان فى هذه الثرثرة، قال القسيس لدوروتيا، إنها كانت فى منتهى الذكاء فى القصة وفى حكيها باختصار، وفى مشابهتها لفتيات كتب الفروسية. قالت هى، إنها كانت تمضى أوقاتًا طويلة فى التسلى بقراءتها، إلا أنها لا تعرف شيئًا عن الأقاليم المختلفة والموانىء البحرية، وهكذا قالت إنها رست فى أوسونا، خبط عشواء.

قال القسيس :

- لقد فهمت الأمر على هذا النحو، ومن أجل هذا هرعت لقول ما قلت، وبه ترتب كل شىء. لكن، أليس شيئًا غريبًا أن نرى بكل هذه السهولة هذا الشريف التعيس يعتقد فى كل هذه الحيل، والأكاذيب، فقط لأنها تحمل أسلوب وطريقة حماقات كتبه ؟

قال كاردينيو:

- نعم هو كذلك، وإن الأمر نادر ولم ير مثله، ولا أدرى فى حالة الرغبة فى اختراعها وصناعتها بالكذب، كم من الذكاء الحاد يجب أن يتفرغ له .

قال القسيس:

- وهناك شيء آخر حول هذا الشأن ؛ فعلى الرغم من الترهات التى يقولها هذا الشريف الطيب، فيما يتعلق بجنونه، فإنه فى حالة معالجة موضوعات أخرى، فإنه يحاور فى رويّة بعبارات بليغة، ويبرز أنه لديه فكر واضح ورصين فى كل شئ، بطريقة لا تجعلك تحكم عليه إلا بالعقل الراجح.

وبينما كانوا فى هذا الحديث، واصل دون كيخوتى حديثه، وقال لسانشو:

- فلنتصالح،أيها الصديق بانثا، ولنلق فى البحر مشاجراتنا، وقـل لى الآن، دون حساب لغضب أو ضغينة أين، وكيف ومتى وجدت دولثينيا ؟ ماذا كانـت تفعل ؟ ماذا قلت لها ؟ وبماذا أجابتك ؟ وأى وجه اتخذت عندما كانت تقرأ الخطاب ؟ ومن نسخه لك ؟ وكل ما تراه حول هذا الأمر جدير بأن أعرفه وأن أسأل عنه، وأشبع نهمى لسماعه، دون أن تضيف شيْا أو تكذب حـتى تسرنى، ولا تختصر حتى لا تقلل من سرورى.

أجاب سانشو:

- سيدى، إذا كان يجب أن أقول الحق فلم ينسخ الرسالة أحد، لأننى لم أحمل أى خطاب.

قال دون كيخوتى:

- تمامًا كما تقول،لأن دفتر المذكرات حيث كتبت الرسالة، وجدته فى حـوزتى بعد يومين من رحيلك، الأمر الذى سبب لى ألمًا عظيمًا، لعدم معرفتى مـاذا كان عليك أن تفعل، عندما تراك دون خطاب، واعتقدت دائمًا أنك سوف تعود من أول مكان تكتشف فيه عدم حملك له.

أجاب سانشو:

– هكذا كان، إذا لم أكن حفظته عندما قرأته فخامتك . وعليه رددته على مسامع كاتب كنيسة، والذى نسخه عن لسانى نقطة نقطة، و قال إنه طوال أيام حياته، مع أنه قرأ من قبل كثيرًا من خطابات الخاطئين، لم ير خطابًا بمثل هذا الجمال.

قال دون كيخوتى:

– هل تحتفظ بالرسالة حتى الآن فى ذاكرتك، سانشو؟

أجاب سانشو:

– لا، يا سيدى، لأنه بعد أن أعطيتها لها، وعلمت أنها بعد ذلك لن تكون لها فائدة، عملت على نسيانها، وإذا كنت أتذكر شيئًا، فتلك هى (السيدة المليئة)، أريد القول (سيدتى المليئة)، وآخرها (ملكك حتى الموت، الفارس ذو الصورة الحزينة).وبين هذين الشيئين وضعت لها ثلاثمائة روح وحياة وعين لى.

الفصل الحادى والثلاثون

عن المحاجّات اللذيذة التى دارت بين دون كيخوتى وسانشو بانثا، ووقائع أخرى

- كل هذا لا يضايقلنى، واصل - قال دون كيخوتى - لقد وصلت، ماذا كانت تعمل ملكة الحسن تلك؟ من المؤكد واليقين أنك وجدتها تنظم لؤلؤًا، أو تطرز صورة بخيوط الذهب لفارسها الأسير.

قال سانشو:

- لا لم أجدها إلا مغربلة بعض أكوام القمح فى فناء بيتها.

قال دون كيخوتى:

- إذن ضع فى حسابك أن حبات القمح تلك كانت من لؤلؤ، مادامت قد مستها يداها. وقل لى عما نظرته، هل كان القمح "كانديال" أم "تريتشيل"(*) يا صديقى؟

أجاب سانشو:

- لم يكن إلا "روبيون"(**).

(*) كانديال وتريتشيل نوعان من القمح الممتاز.

(**) "روبيون" نوع من القمح الردىء.

قال دون كيخوتى:

– إذن، خذها يقينًا أنها إذ تغربله بيديها، سيصير الخبز منه "كانديال"، لا شك فى ذلك. لكن واصل حديثك، عندما أعطيتها خطابى،هل قبّلته؟ هل وضعته فوق رأسها؟ هل أقامت حفلاً جديرًا يمثل هذا الخطاب؟ أو ماذا فعلت؟

أجاب سانشو:

– عندما كنت بسبيلى لإعطائه لها، كانت تفزع مهتزة باهتزاز الغربال الذى كان به كمية لا بأس بها من القمح.

وقالت لى:

– ضع، يا صديقى، هذا الخطاب فوق ذلك (الشوال)، فلا أستطيع قراءته حتى أنتهى من غربلة كل ما هو أمامى من قمح.

قال دون كيخوتى:

– سيدة لمّاحة! هذا لابد أنه كان حتى تقرأه ببطء، مستجمة بقراءته. واصل سانشو. وخلال استمرارها فى عملها، أى حوار دار معك؟ هل سألتك عنى؟ وأنت، بماذا أجبتها؟ هيا، احْك كل شىء، ولا تُبْق فى المحبرة خردلة.

قال سانشو:

– هى لم تسألنى شيئًا، لكنى قلت لها عن الطريقة التى تضع فيها فخامتكم نفسك فى خدمتها، باقيًا تمارس التوبة، عاريًا حتى أعلى الخصر،تائهًا وسط هذه السلاسل كما لو كنت بشرًا بريًّا، نائمًا على الأرض، دون أن تطعم خبزًا ناعمًا، ودون تصفيف اللحية، باكيًا، ولاعنًا حظك.

قال دون كيخوتى:

– بقولك عن لعن حظى، أسأت القول، لأننى أباركه، وسأباركه كل يوم، لأنــه جعلنى جديرًا باستحقاق حب سيدة عالية مثل دولثينيا دل توبوسو.

قال سانشو:

– إنها عالية لدرجة أنها تعلونى بنصف شبر.

قال دون كيخوتى:

– إذن، كيف سانشو قد قست نفسك عليها؟

أجاب سانشو:

– قست نفسى بهذه الطريقة، باقترابى لمساعدتها على وضع (شوال) من القمــح على ظهر حمار، اقتربنا الواحد من الآخر حتى الالتصاق، ونظرت فوجــدتها تعلونى بشبر وافر.

علَّق دون كيخوتى:

– إذن حق ألا ترافق هذه العظمة دون أن تزينها بألف مليون من الشكر. لكن لا تُخفِ علىَّ سانشو هذا الشىء، عندما اقتربت ملاصقًا لها، ألم تحس برائحة عطر (سبأ)، وعبير فوّاح،ومالا أدرى من عبق، مما لا أصيب له اسمًا؟ أقول، أنبوب أو بخار كما لو كنت فى دكان لبيع القفافيز؟[*]

قال سانشو:

– ما أعرف قوله، أننى أحسست بشىء من رائحة رجالى، ولا بد أنهــا كانــت عرقانة، وعندها بعض الإسهال.

(*) مواصلة للسخرية، فدكان القفافيز تفوح منه رائحة الجلد والقماش فى اختلاط، ليست شيئًا كريهًا، لكنها لا تليق لعطر امرأة.

قال دون كيخوتى:

- لن يكون ذلك، فربما كنت مصابًا بالبرد، أو كنت تشم نفسك، لأننى أعرف جيدًا عبق هذه الوردة بين الأشواك، وزنبقة المروج تلك، وذلك العنبر غير المفضوض.

أجاب سانشو:

- كل شيء ممكن، ففى أحيان كثيرة تخرج منى رائحة، فى ذلك الحين بدا لى أنها كانت تخرج من فخامة السيدة دولثينيا؛ لكن لا يوجد سبب للعجب إن شابه شيطان أخاه.

واصل دون كيخوتى:

- طيب، هنا وقد انتهت من غربلة القمح، وإرساله إلى الطاحونة، ماذا فعلت عندما قرأت الخطاب؟

قال سانشو:

- الخطاب لم تقرأه؛ لأنها قالت إنها لا تجيد القراءة ولا الكتابة، ثم مزقته، وحولته إلى قصاصات صغيرة، قائلة إنها لا تحب إعطاءه لأحد حتى يقرأه، لتجنب أن تعرف القرية أسرارها، ويكفيها ما قلته لها على عهدتى حول ما تكنه فخامتك لها من حب، والتوبة غير العادية، التى بقيت فيها من أجلها، وأخيرًا قالت لى أن أقول لفخامتك إنها تقبل يديك، وإنها هناك تنتظر مع رغبات لرؤيتك أكثر من الكتابة إليها، وإنها تلتمس منك وتأمرك، بمجرد أن "ترى رسالتها"، أن تخرج من تلك المجاهل، ولتترك ارتكاب الترهات، وأن تضع نفسك فى الحال فى الطريق إلى التوبوسو، إذا لم يحدث لك شيء يعوقك أكثر

أهمية؛ لأنها لديها شوق عظيم لرؤيتك، وضحكت كثيرًا عندما قلت لها إنك تسمى "الفارس ذو الصورة الحزينة". وسألتها عما إذا كان قد ذهب إليها البيثكاوى، قالت لى (نعم)، وهو رجل بر، وسألتها عن رجال سخرة الأسطول، لكنها قالت لى إنها لم تر منذ ذلك الحين أحدًا آخر.

قال دون كيخوتى:

– كل شيء يسير سيرًا حسنًا حتى الآن، لكن قل لى، أى حلية أعطتك عندما ودعتها مقابل البشرى التى حملتها منى إليها؟ لأن تلك عادة قديمة ومستعملة بين الفرسان والسيدات المشائين، أن يعطوا الخدم أو الوصيفات أو الأقزام – الذين يحملون إليهم أخبارًا، من سيداتهم إليهم، أو منهم لسيداتهم– حلية جميلة باعتبارها حلاوة، وتعبيرًا عن الشكر عن الرسالة.

– جميل، هذا من الممكن أن يكون هكذا، وأنا أراه تقليدًا جميلاً، ولكن هذا لابد أنه كان فى الأزمان الماضية، أما الآن فالمعتاد إعطاء كسرة خبز وجبنة، وهذا ما أعطته لى سيدتى دولثينيا، وكان ذلك عند سور الفناء،عندما قمت بوداعها، وأمارة ذلك أنها كانت جبنة ضأن.

قال دون كيخوتى:

– إنها كريمة فى سخاء؛ وإذ لم تكن أعطتك حلية من الذهب، فلا شك أن ذلك يرجع إلى عدم وجودها فى متناول يديها هناك لتعطيها لك، لكن تحلو الهدايا بعد العيد(*)، وسوف أنظر فى الأمر، وسيسدُّ كل نقص. لكن، هل تعرف ممَّ

(*) هذا مثل، يعنى أن الهدايا سوف تصل حتى لو تأخرت، تاركة الأثر الطيب المطلوب، والمثل فى النص "تحلو الأكمام بعد العيد"، حيث كانت أكمام القمصان تقدم بوصفها هدايا.

أنا مندهش فى عجب؟ هو أنه يبدو لى أنك قد ذهبت وعـــدت طـــائرًا فى الهواء، لأنك تأخرت أكثر من ثلاثة أيام بقليل من هنا للتوبوســـو، مـــع أن المسافة من هنا إلى هناك أكثر من ثلاثين فرسخًا، الأمر الذى يجعلنى أتــصور أن ذلك الحكيم نيجرومانتى، الذى يهتم بشئونى، وهو صديقى، وهو كذلك بالقوة، وينبغى أن يكون، وخشية علىَّ ألا أكون فارسًا مشَّاء عظيمًا، أقول إن هذا لا بد أن يكون قد ساعدك على السير، دون أن تحس، فهناك حكيم من هؤلاء، يحمل الفارس المشاء نائمًا فى سريره، ودون أن يعرف كيـــف أو بأى طريقة، يستيقظ اليوم التالى على بعد ألف فرسخ من حيث أتى. وإذا لم تكن تلك القدرة، ما كان يكون ممكنًا نجدة الفرسان المشائين، أحدهم للآخر ساعة الخطر، كما ينجد أحدهم الآخر فى كل خطوة؛ فقد يقع وجود أحدهما يقاتل فى جبال أرمينيا مع تنين، أو مارد عنيف، أو فارس آخر، حيث يعـــانى أسوأ لحظات المعركة، وهو على وشك الموت، وعندما "لا مفر"، يطـــل فى ذلك المكان والزمان فوق سحابة، أو فوق عربة من النار، فارس آخر صديق له، كان قبل ذلك بقليل فى إنجلترا، ويسانده، ويحرره من الموت، وبالليـــل يكون مرة أخرى فى منـــزله يتعشى على مزاجه، والعادة أن تكون المـــسافة بين المكانين ألفين إلى ثلاثة آلاف فرسخ. وفقط يتم هذا عبر حكمة وحيـــل هؤلاء الحكماء السحرة، الذين يضعون على عاتقهم العناية بالفرسان الشجعان. وهكذا يا صديقى سانشو لا أجد صعوبة فى تصديق أنك فى هذا الوقت المحدود قد رحت وجئت، من ذلك المكان البعيد التوبوسو، فكما قلت، لا بد أن أحـــد السحرة الأصدقاء كان قد حملك على أجنحة دون أن تحس.

قال سانشو:

- هكذا قد يكون أن كان، لأنه بصدق، كان روثينانتى يمشى كما لو كان حمارًا غجريا، بأذنه زئبق.

قال دون كيخوتى:

- وكما لو كان يحمل زئبقًا! أو حتى كتيبة من الشياطين، وهم أناس يسيرون، ويجعلون غيرهم يسير، دون إرهاق، من كل ما قد يعترضهم. لكن تاركين هذا جانبًا، ماذا ترى فيما ينبغى أن أفعل حول ما تأمرنى به سيدتى من أن أذهب لرؤيتها؟ ومع أننى أرى أننى مجبر على إنجاز أمرها، أرى أيضًا استحالة ذلك بسبب الهبة التى وعدت بها الأميرة، التى تصحبنا، وبالضرورة الفروسية على أن أنجز كلمتى قبل أن أنجز ما يخص سرورى. وعلى جانب، يضايقنى ويتعبنى الرغبة فى رؤية سيدتى. وعلى جانب آخر، فإن الوفاء الموعود والمجد الذى لابد أن أدركه فى هذه المهمة يناديني ويستثير. لكن ما أفكر فى عمله، سيكون السير الحثيث للوصول سريعًا حيث ذلك العملاق، وقطع رقبته بمجرد وصولى، وتنصيب الأميرة فى سلام على عرشها، وفى الحال أعود لأرى النور الذى يضىء مشاعرى، وأقدم اعتذاراتى إلى سيدتى، التى سوف تستحسن تأخيرى فى رؤيتها، لأنها سوف ترى أن كل شىء يدور من أجل مجدها وشهرتها، حيث إن كل ما أدركت وسوف أدرك بالسلاح فى هذه الحياة، أدركه فقط بالفضل الذى تخصنى به، ولكونى ملكها.

قال سانشو:

- آى، كم أنت محزون بهذا الحطام! إذن قل لى يا سيدى، هل تفكر فى قطع هذا الطريق دون فائدة، وترك هذا الزواج الثرى والرفيع الشأن، حيث يسلمونك

مملكة، سمعت عنها أنها تتكون من عشرين ألف فرسخ مـــن الأرض، باعتبارهـــا حقيقة راسخة، وأنها كثيرة الخيرات مما يتغذى به فى الحياة الإنسانية. وأنها أكـــبر من البرتغال وقشتالة معًا، اسكت، بحق الإله، واخجل مما قلت، وخذ بنصيحتى، واغفر لى، وخذه من الحركات الأولى المغفـــورة، وإذا، لا، فهنـــاك الجـــامعى صديقنا، الذى سوف يزينه لك لؤلؤًا أو مرجانًا ، وتنبه أن سنى يخـــولنى مـــنح النصائح، وهذه النصيحة (وافق شنٌّ طبقه) لكم، عصفور فى اليد خير من نـــسر يطير فى الهواء، ولا خيار إلا قبول الجار عند سكنى الدار.

أجاب دون كيخوتى:

- انظر سانشو، إذا كانت نصيحتك بقبولى الزواج لأصير ملكًا بعد قتل المارد، من أجل أن أقدم لك النعم الموعودة، فاعلم أن هـــذا أســـتطيعه دون زواج وبسهولة؛ لأننى سوف أقبض باعتبارها جائزة جانبًا من المملكة، وقبل دخولى المعركة. وعند خروجى منها منتصرًا سوف يسلموننى إياه، وعندها أستطيع أن أهبه لمن أشاء، وعند تسليمى له، لن أود أن أعطيه إلا لك!

أجاب سانشو:

- هذا واضح، لكن انظر فخامتكم، أننى سوف أختار هذا وعينى على البحـــر، لأننى إن لم يعجبنى العيش، سوف أحمل أتباعى السود وأبحر بهم، وأفعل معهم ما سبق لى قوله. وفخامتك لا تحاول الذهاب إلى رؤية سيدتى دولثينيا الآن، وإنما توجه إلى قتل هذا المارد، لننفض من تلك الصفقة، وقلّدنى ما ينبغى أن يكون من الجاه العريض والنفع الكبير.

قال دون كيخوتى:

– أقول لك سانشو، إنك مصيب، وسآخذ بنصيحتك، من حيث الذهاب أولاً مع الأميرة، وأحذرك من أن تقول شيئًا لأحد، ولا من يصحبوننا الآن، وذلك عما ناقشناه معًا هنا؛ لأن دولثينيا شديدة الحمية فى ألا يعرفوا أفكارها، ولن يكون خيرًا أن أكشفها أو يكشفها أحد باسمى.

قال سانشو:

– سيكون كذلك، لكن، كيف أن فخامتك تجعل كل من تقهرهم بذراعك يذهبون للمثول فى حضرة سيدتى دولثينيا، كتوقيع اسمك على إقرار حبها، وأنك عاشقها؟ وكون أن الركوع أمامها على الركب حتمًا مقضيًّا، مع القول إنهم قادمون من طرفك لتقديم فروض الطاعة، فكيف يمكن تغطية أفكار كل منكما أو إخفاؤها؟

قال دون كيخوتى:

– أوه، كم أنت تافه وساذج! ألا ترى، سانشو، أن كل ذلك يشيع ملاحتها القصوى؟ لأنك يجب أن تعرف أن فى أسلوبنا هذا للفروسية،يعد شرفًا عظيمًا أن يكون للفارس سيدة يخدمها فرسان مشاءون كثيرون، دون أن يتجاوز تفكيرهم شيئًا أكثر من خدمتها، فقط لكونها هى هى، دون انتظار أى جائزة من جوائزها الحسان الكثيرة، إلا أن ترضى بقبولهم فرسانًا لها.

قال سانشو:

– بهذه الطريقة من الحب ينبغى أن نحب الله، كما سمعت فى وعظ يأمرنا أن نحبه من أجل ذاته فقط، دون أن يحركنا أمل مجد أو خوف من العذاب، وحتى أنا أحب أن أحبه وأخدمه، ما استطعت.

قال دون كيخوتى:

- **فليركبك الشيطان، أيها القروى، فأنت أحيانًا تأتى بمحاسن الفطن! فكأنك كنت من الدراسين المتعلمين.**

قال سانشو:

- **أقسم أننى لا أعرف القراءة.**

فى هذا سمعا نيكولاس ينادى عليهما بأن ينتظرا قليلاً، حيث يحبون الوقوف للشرب من نبع كان هناك. توقف دون كيخوتى، فى سرور لا يقل عن سرور سانشو، الذى تعب من فرط ما كذب، وكان يخاف أن يوقعه سيده فى شر أعماله؛ لأنه رغم معرفته أن دولثينيا كانت مزارعة فى التوبوسو، فهو لم يرها قط فى حياته.

وخلال ذلك ارتدى كاردينيو الملابس التى كانت مع دوروتيا عندما عثروا عليها، ومع أنها لم تكن ذات بهاء، إلا أنها أفضل مما خلعه. وترجلوا بجوار النبع، وبما حمله القسيس من طعام من النزل، أكلوا وشبعوا، مع قسوة ما كانوا يشعرون به من جوع.

وبينما هم على هذا الحال، تصادف مرور فتى فى الطريق، والذى شرع فى النظر باهتمام شديد لمن كانوا حول النبع. ولم تمض لحظات حتى هجم على دون كيخوتى، محتضنا رجليه، باكيا، ويقول:

- **آى، يا سيدى! ألا تعرفنى فخامتك؟ إذن، انظر إلىّ جيدًا، فأنا ذلك الغلام أندرس، الذى حرره فخامتكم من قيوده على شجرة البلوط.**

تعرف عليه دون كيخوتى، وممسكًا بيده، استدار لمن كانوا هناك، وقال:

– حتى تروا مدى أهمية وجود الفرسان المشائين فى العالم، فهم من يزيلون القهر والعدوان منه عندما يرتكبهما الأشرار والأنذال الذين فيه يعيشون، ولتعلموا يا أصحاب الفخامة، أنه فى الأيام الماضية، عند مرورى بإحـــدى الغابـــات، سمعت بعض الصرخات والأصوات، المليئة بالتوجع كما لو كانت تصدر عن شخص مهيض ومضطر، فهرعت لنداء الواجب، نحو الجهة التى يصدر منها الصوت الحزين حسبما بدا لى، ووجدت هذا الفتى مربوطًا فى شجرة بلوط، وها هو الآن أمامكم، الأمر الذى يبهج نفسى؛ لأنه شاهد لا يمكن تكذيبه. أقول، إنه كان هناك مربوطا لشجرة البلوط، نصف عارى الجسم من أعلى، وكان هناك من يسوطه بسياط حزام عنان فرس، ولم يكن إلا أحد القرويين الذى علمت أنه سيده، وهكذا عند رؤيتى له سألته عن سبب هذا الضرب الفظيع، أجاب ذلك الفظ الذى يسوطه، لأنه خادمه، وأن بعض إهماله يجعله فى مقام اللص أكثر من المغفل. وأجاب هذا الغلام: " إنه لا يضربنى إلا لأننى طلبت منه أجرى". وردّ سيده بما لا أدرى من حجاج وفخاخ، لم تقبل مـــن جانبى. باختصار، فككته، وجعلت القروى يقسم على أن يحمله معه، ويدفع ريالاً بعد ريال ما استحق، وفوقه التعويض.أليس كل هذا حقًا، أيها الابـــن أندرس؟ ألم تلاحظ كيف أمرته بكل زهو، وكيف وعد بكـــل خـــضوع أن يفعل كل ما فرضته عليه، وحكمت به، ورغبت فيه؟ أجب: لا تعكر نفسك أو تتردد فى شيء، وقل ما حدث لهذا الجمع، حتى يرى ويشهد كم هو مفيد وجود الفرسان المشائين فى الطريق.

أجاب الفتى:

– كل ما قلته فخامتك هو كل الحق، لكن نهاية الصفقة كانت على العكس تمامًا مما تتخيل فخامتك.

أجاب دون كيخوتى:

– كيف؟ على العكس؟ ألم يدفع لك ذلك القروى فيما بعد؟

أجاب الفتى:

– ليس فقط لم يدفع لى، بل مجرد أن غادرت فخامتك الغابة، وبقينا وحدنا، عاد لربطى فى نفس البلوطة، وضربنى بعد ذلك عدة سياط، حتى صرت مثل سان بارتولوميه المسلوخ، ومع كل سوط فوقى، كان يقول فى تملّح وسخرية كلامًا ساخرًا من فخامتك، حتى إننى لو لم أكن أعانى أفظع الألم، لمت على روحى من الضحك مما كان يقول. وفى الحقيقة، توقف الأمر بالفعل، عند ذلك، ومن حينها، وأنا أعالج نفسى من الضرر الذى ألحقه بى القروى الشرير، فى أحد المستشفيات. وفخامتك تحمل ذنب كل ذلك، لأنك لو سرت فى طريقك إلى الأمام، دون أن تهرع حيث ينادونك، أو تحشر نفسك فى شئون غيرك، كان سيدى قد اكتفى بضربى دستة أو دستتين من السياط، وبعدها يطلقنى ويدفع لى ما يدين به لى. لكن كما أن فخامتكم أهانه كثيرًا دون قصد، وقلت له كثيرًا من السباب، فقد اشتعل غضبه، وكما لم يستطع الثأر منك، فما أن رآنا وحدنا، حتى أفرغ علىّ مطر سحابات غضبه،حتى إنه يبدو لى أننى لن أعود رجلاً من جديد طوال حياتى.

قال دون كيخوتى:

– وقع الضرر لأننى غادرت المكان، وما كان علىّ أن أفعل حتى أتأكد من أنه دفع لك، لأننى كان علىَّ أن أعرف بخبرة طويلة أن لاقروى يحافظ على كلمة أعطاها، إذا رأى أن الوفاء بها ليس لصالحه. لكنك تذكر أندرس أننى

أقسمت، إن لم يدفع لك، أن أذهب للبحث عنه، وسوف أجده، ولو اختبأ في بطن حوت.

قال أندرس:

– **هذا صحيح، لكن لم يحدث.**

قال دون كيخوتى:

– **الآن سوف ترى أنه يحدث.**

طلب من سانشو إحضار روثينانتى، الذى كان طليقًا يرعى بينما هم يأكلون، فهو يحب أن يذهب للبحث عن القروى، ومعاقبته على هذا السلوك القبيح، وجعلـه يدفع لأندرس حتى آخر فلس، على رغم أنف كل ما يوجد فى العالم من قـرويين؛ وهنا أعلنته دوروتيا أنه لا يستطيع طبقًا للهبة الموعودة، فلا تدخل فـى أى شـأن آخر حتى ينجز شأنها.وهو يعرف ذلك أكثر من أى شخص آخر، من ثم، فليهـدئ من روعه حتى يعود من مملكتها. أجاب دون كيخوتى:

– **هذا حق، وإجبارى أن يصبر أندرس حتى العودة، كما تقولين يـا سـيدتى، وأعود فأقسم من جديد وأعد ألا أتوقف حتى أراه وقد أخذ ثأره وماله.**

قال أندرس:

– **لا أعتقد فى مثل هذا القسم، وأكثر من ذلك، فما أحتاجـه الآن هـو مـا يساعدنى على الوصول إلى أشبيلية، و هذا أفضل عندى من كل ثأر الدنيا، والآن أعطنى إذا كان لديك شيء، بعض الطعام لآكلـه وأحملـه معـى فى الطريق، ولتبق فخامتك فى صون الله، ومعك كل الفرسان المشائين، وليمشوا بأحسن ما يكون من أجلك، كما فعلوا من أجلى.**

أخرج سانشو من احتياطيه قطعة خبز وجبن وأعطاها للفتى، وقال:

– خذ أيها الأخ أندرس، فكل واحد منا قد نال شيئًا من تعاستك.

قال أندرس

– وأى جزء منها قد خصك؟

قال سانشو:

– هذا الجزء من الخبز والجبن، الذى أعطيك إياه، فالله يعلم عما إذا كنت أحتاجه، لأننى أعلمك أيها الصديق، بأننا أتباع الفرسان المشائين نعانى جوعًا كثيرًا، وحظا سيئًا، وأكثر من هذا أشياء عديدة تحس أفضل مما تقال.

أندرس ممسكًا بخبزه وجبنه، وقد رأى أن أحدًا لن يعطيه شيئًا أكثر من ذلك، خفض رأسه وانصرف (واضعًا فى يده الطريق كما اعتادوا القول). والحقيقة إنه عند رحيله قال لدون كيخوتى:

– بحق الله، أيها الفارس المشاء، إذا رأيتنى بعد ذلك، ورأيت أنهم يقطعوننى قصاصات، فلا تنجدنى ولا تساعدنى، فقط اتركنى مع شقائى، فلن يكون كثيرًا، مثلما يحدث فى حالة عون فخامتك، لعنه الله، ولعن كل الفرسان المشائين الذين قد ولدوا على سطح الأرض.

كاد ينهض دون كيخوتى لمعاقبته، لكن الفتى شرع فى الجرى، حتى أن أحدًا لن يجرؤ على اللحاق به، وبقى دون كيخوتى مغضبًا من قصة أندرس، وكان حتمًا أن يراعى الآخرون ألا يضحكوا، حتى لا يفسدوا كل شىء.

الفصل الثانى والثلاثون

ما وقع فى النُّزل لكلِّ الزُّمرة من صحبة دون كيخوتى

انتهت الوجبة اللذيذة، وركبوا مطاياهم، ودون أن يحدث لهم ما يستحق حكايته، وصلوا فى اليوم التالى إلى النزل. رعب سانشو وفزعه، ومهما رغب عن دخوله ما استطاع الهرب. الفندقى وزوجته وابنتهما والخادم ماريتورنس، الذين رأوا قدوم دون كيخوتى وسانشو، خرجوا لاستقبالهما ببهجة كبيرة، أما هو فقد استقبلهم بهيئة جادة ووقورة، وطلب منهم أن يعدوا له سريرًا أفضل من المرة السابقة. قالت له الزوجة، إنه إذا دفع لها أفضل من المرة السابقة، فستعد له سرير أمير. أجاب دون كيخوتى إنه سوف يفعل. وهكذا رتبوا له سريرًا معقولاً فى نفس مخزن التبن، ونام بعدها، لأنه كان مدغدغ الجسم والعقل.

لم يكد يغلق على نفسه مخزنه وينام، حتى أمسكت الفندقية بخناق الحلاق ولحيته، وقالت:

– بحق الصليب، لن تستغل ذيلى أكثر فى ذقنك، وعليك أن تعيد إلىَّ ذيلى، وإذا كان زوجى قد أعطاه لك، فكل ما يفعله زوجى تحت قدمى، وعار، وأقول: المشط الذى تعودت على تعليقه فى ذيلى الطيب سوف يعود لمكانه.

لم يرغب الحلاق فى إعادته لها مهما تشبثت به وشدته، لكن الجامعى قال له أن يعطيه لها، وعليه أن يكشف عن نفسه، ويظهر بنفس شخصه، فلم يعد ضروريا استخدام هذه الحيلة، وعليه أن يقول لدون كيخوتى، إنه عندما جرده اللصوص من

المسخرين للأسطول من النقود، قد لجأوا إلى هذا النزل هاربين، وإذا سأل عن تابع الأميرة، سيقال له إنها أرسلته فى المقدمة، كى يخبر أهل مملكتها أنها فى الطريق وتحمل معها محررهم. وبهذا أعطى الحلاق الذيل بكل رضا إلى الفندقية، وبنفس الطريقة أعادوا لها كل مستلزمات تحرير دون كيخوتى. أهل النزل جميعًا فزعوا من جمال دوروتيا، وأكثر من الهيئة الوسيمة للفتى كاردينيو. عمل القسيس أن يرتبوا لهم طعامًا مما وجد فى النزل، والمضيف مع الأمل فى سعر طيب لخدمته، أعد طعامًا مقبولاً، وخلال ذلك كله كان دون كيخوتى نائمًا، وبدا لهم ألا يوقظوه، لأنه كان يحتاج ساعتها النوم أكثر من الطعام.وعلى الطعام تحدثوا عن الجنون الغريب لدون كيخوتى، وكيف وجدوه. وكان ذلك فى حضرة صاحب النزل وزوجته وابنتهما وماريتورنس، وكل النزلاء. والفندقية حكت لهم ما حدث له مع البغّال، وعندما نظرت عما إذا كان سانشو هناك، ولما لم تره حكت عن تقاذفهم له بالبطانية، وقد قوبل ذلك منها بامتعاض. وكما قال القسيس إن كتب الفروسية التى قرأها أحالت عقله، علق الفندقى:

– لا أدرى أنا كيف يمكن أن يكون ذلك، ففى الحقيقة، حسب فهمى، لا يوجد أدب أفضل فى العالم، وأنا عندى هناك كتابان أو ثلاثة منها مع بعض الأوراق الأخرى، وقد أعطتنى بحق حياة، ففى وقت احتفالات الحصاد، يقيم الحفلات هنا حصادون كثيرون، ودائمًا يوجد أحدهم ممن يعرف القراءة، فيلتقط واحدًا من الكتب فى اليدين، ونحيط به أكثر من ثلاثين، ننصت إليه بكل طرب مما ينزع من الرأس ألف شعرة بيضاء (من فرط الطرب)، وعلى الأقل، بالنسبة لى، أعرف القول، إنه عندما استمع إلى تلك الضربات

المهولة والمرعبة التى يطعنها الفرسان، أهوى أن يعودوا إلى طعن أمثالها مــن جديد، وأحب أن أستمر فى الاستماع إليها ليل نهار.

قالت زوجته:

– أما أنا فلا علاقة لى بها؛ لأننى لا أحظى بوقت فراغ طيب فى بيتى، إلا ذلــك الوقت الذى تقضونه فى الاستماع مبهورين للقــراءة، حيــث ســاعتها لا تتذكرون التشاجر معى.

قالت ماريتورنيس:

– هذا حق، وبكل صدق أنا أيضًا أطرب كثيرًا لسماع هذه الأشياء، فهى جميلة جدًا، ويزداد جمالها عندما يحكون عن السيدة الأخرى تحت أشجار اللارنــج فى أحضان فارسها، وأن هناك الخادمة كاتمة الأسرار تحرســهما ميتــة مــن الحسد، ويقفز قلبها من صدرها. أقول إن كل هذا أحلى من العسل.

قال القسيس، موجهًا حديثه إلى ابنة الفندقى:

– وأنت ماذا يبدو لك يا سيدتى الصبية؟

وأجابت هى:

– لا أدرى، لكنى متيقنة أننى أنصت أيضًا، وفى الحقيقة، رغم أننى لا أفهــم إلا أننى أستقبل القراءة بطرب، ليس من الضربات كما يقول أبى، ولكن مــن الندب الذى يقوم به الفرسان عندما يكونون بعيدًا عن سيداتهم، والحقيقة إنى أحيانًا أبكى شفقة عليهم.

سألت دوروتيا:

– إذن، هل ستشفين جراحهم أيتها السيدة الصبية، لو كانوا يكون من أجلك؟

أجابت الصبية:

– لا أعرف ماذا كنت سأفعل، فقط أعرف أن هناك سيدات من النوع شـــديد القسوة، ممن يسموهن فرساهن ثورًا، وأسودًا، وألف رجس آخر. ربّاه ولا أدرى أى بشر هؤلاء المنـــزوعات الرحمة والضمير، لعدم النظر إلى رجـــل شريف، تاركين له يموت أو يجن. ولا أدرى ما سبب كل هذا الدلال: فلم لا يتصرفن بشرف، ويتزوجن منهم، فهم لا يرغبون فى شيء أكثر من ذلك.

قالت الفندقية.

– اخرسى أيتها الطفلة، فالظاهر أنك تعرفين كثيرًا عن هذه الأشياء، وليس خيرًا أن تعرف الفتيات كثيرًا، أو يتكلمن كثيرًا.

أجابت هى:

– فكما سألنى هذا السيد، لم أستطع ألا أن أجيبه.

قال القسيس:

– والآن أيها المضيف، أحضر لى هذه الكتب حيث أحب أن أراها.

أجاب هو:

– كم يسرنى.

وعند دخوله غرفته، أخرج من تلك الحقيبة القديمة، والمغلقة بسلسلة، ثلاثـــة كتب وجدها عند فتحها. كانت كتبًا كبيرة بجانب بعض الأوراق المكتوبة بخط بالغ الحسن، ومكتوب باليد. أول كتاب فتحه كان (دون ثيرونخيليو دى تراثيا)، والآخر

(فيلسمارتى دى اركانيا) والثالث كان تاريخ القبطان العظيم جونثالو دى قرطبة، مع حياة دييجو جارثيا دى باريدس. وعند ما قرأ القسيس أول عنـــوانين، أدار وجهـــه للحلاق، وقال:

– تنقصنا الآن أمة صديقنا وابنة أخته.

أجاب الحلاق:

– لا، لا تنقصنا؛ فأنا أيضًا أستطيع حملها إلى الحظيرة، أو إلى المدفئـــة، الـــتى فى الحقيقة بها النار تتضرم.

قال الفندقى:

– إذا فخامتك تنوى إحراق كتبى.

قال القسيس:

– لا، ليس أكثر من هذين الاثنين: كتاب (دون ثيرونخيليو) و (فيلسمارتى).

قال الفندقى:

– إذا، وبالصدفة، كتبى منحرفة عن الدين، أو ملعوزة حتى تحرقها؟

قال الحلاق:

– تقصد مشعوذة، وليس ملعوزة.

رد الفندقى:

– هو هذا. إذا أراد أحد حرق شيء، فليكن كتاب هذا القبطان العظيم دييجو جارثيا، أما الكتب الأخرى، فأنا أتركهم يحرقـــون ابنًا لى قبـــل أن أسمـــح بإحراقها.

قال القسيس:

- أخي، هذان الكتابان كاذبان، وهما فيض من الترهات والتفاهات؛ أما هـــذا (القبطان العظيم) فهو تاريخ حقيقي، ويتضمن أعمال جونثالو أرناندس دى جارثيا، والذى لأمجاده العظيمة استحق أن يسميه العالم كله القبطان العظيم، لقب مشهور، وواضح، ولا يستحقه غيره، وهذا السيد دييجو جارثيا دى باريدس، كان فارسًا رفيعًا، من أبناء مدينة تروخيّو، فى أستيريما دورا، جنديًا عظيمًا، وذا قوة طبيعية، كانت توقف بإصبع واحد مروحة طاحونة الريـــاح عندما يشتد دورانها، وكان يقف فى مدخل قنطرة بسيف كبير، فيمنع مرور جيش كثيف العدد، وفعل مما أشبه ذلك الكثير، والتى يصفها ويكتبها هـــو شخصيًا بتواضع فارس ومؤرخ، وإذا كان قد كتبها مؤرخ آخر متحرر من هذا التواضع لنسى الناس بها أعمال هيكتور وأخيل وروردان

قال صاحب النزل:

- خذ نفسك إلى حيث أبي وانظر مما يُفزع نفسه!: إيقاف مروحة طاحونة رياح! بالله ! كان على فخامتك قراءة ما قرأت أنا عن فيلسمارتى دى أركانيـــا، الذى بضربة واحدة شطر خمسة مردة عمالقة من عند الخصر حتى صـــاروا مثل قرون من الفول أخرج منها الأطفال الحبّات وتركوها مثـــل الجبَّـــات. ومرة أخرى هاجم جيشًا عظيمًا وكثيفًا جدًا، مكونًا من مليون وستمائة ألف جندى، كلهم مسلحون من القدم إلى الرأس، وقضى عليهم جميعًا كما لـــو كانوا قطيعًا من الغنم. وبعد ذلك، ماذا ستقولون لى عـــن شـــجاعة دون (ثيروينخيليو دى تراثيا)، والذى كان شديد الجسارة والحيوية، كما قد نرى

فى الكتاب، والذى يحكى، أنه كان بينما يبحر فى نهر، خرج له من وسط الماء ثعبان من النار، وعندما رآه ألقى نفسه فوقه، ووضع نفسه فجأة فوق ظهره ذى القشور، وضغط على حلقه بيديه الاثنتين بقوة عظيمة، حتى إن الثعبان لم يجد حلاً آخر سوى أن يغرق نفسه فى قاع النهر، حاملاً خلفه الفارس، الذى لم يرغب قط أن يفلته من بين يديه. وعندما وصلا معا إلى تحت، وجد نفسه داخل بعض القصور، والحدائق الغناء، وكان شيئًا معجزًا، إذ رأى الثعبان يتحـــول إلى شيخ عجوز، قد قال له أشياء كثيرة وأسرارًا، ليس بعدها يسمع شيئًا. فلتسكت يا سيدى، أليس عند سماع ذلك يموت الإنسان من التلذذ. أخرج لسانى مـــرتين للقبطان العظيم، ولهذا السيد دييجو جارثيا، الذى عنه تتحدث.

عند سماع دوروتيا لهذا، قالت قبل أن ينطق كاردينيو:

- ينقص مضيفنا القليل، كى يلعب الفصل الثانى من القـــصة بـــدلاً مـــن دون كيخوتى.

أجاب كاردينيو:

- هذا ما يبدو لى؛ لأن ما يقوله يعطى مؤشرًا، أنه يأخذ مأخذ الحقائق كل مـــا تحكيه هذه الكتب، وأنه قد حدث بنفس المقياس الذى تصفه به الكتب دون نقصان أو زيادة، ولن يجعله يعتقد شيئًا آخر، ولا حتى حفاة الرهبان.

وعاد القسيس للقول:

- انظر، لم يوجد فى العالم فيلسمارتى دى أركانيـــا ولا دون ثيروينخيليـــو دى تراثيا، ولا كل الفرسان المشابهين الذين تحكى عنهم كتب الفروســـية؛ لأن

هذا مجرد تأليف وخيال لعباقرة عاطلين، قد ألفوه للتأثير الذى يحدثه من تسلية الوقت، تمامًا مثلما تتسلى عند قراءته على حصّاديك. لأنه فى الواقع، أحلف لك، أن مثل هؤلاء الفرسان ما كانوا قط من هذا العالم، ولا هذه الأمجاد أو الترهات قد حدثت فيه.

قال الفندقى:

- ارم هذه العظام لكلب آخر. كما لو كنت لا أعرف أعد حتى خمسة، أو أربط حذائى بنفسى، ولا تفكر فخامتك أن تضعنى فى اللفة، لست بالغرّ بين الأشقياء الأشرار. الظريف أن فخامتك تريد أن تفهمنى أن كل ما تقوله هذه الكتب العظيمة مجرد تُرّهات، وأكاذيب، مع أنها كتب مطبوعة بتصريح من السادة أعضاء المجلس الملكى، كما لو كانوا هنالك للسماح بطبع كل هذا الكذب مجتمعًا، وتلك المعارك الكثيرة وأعمال السحر المثيرة، التى تُطير العقل.

رد القسيس:

- لقد قلت لك يا صديقى، إن هذا يؤلف لتسلية أفكارنا الكسولة، وهكذا فهو يدخل فى أقاليم مؤكدة للألعاب مثل الشطرنج والكرة، وألعاب الحيل والفخاخ، لتسلية من ليس لديهم عمل أو الذين لا يجب أو لا يستطيعون العمل، وعلى هذا الأساس تتم الموافقة على طبع هذه الكتب، معتقدين أن وجود هذه لن يوجد أى إنسان بهذا القدر من الجهل ليعتقد أنها تاريخ حقيقى. وإذا كان مشروعًا لى الآن، والناس تستوعبه، لقلت أشياء حول ما يجب أن تحويه كتب الفروسية حتى تصبح طيبة وخيرة، وربما ذات فائدة، وحتى تطرب البعض، لكنى أنتظر أن يأتى الوقت الذى أستطيع إبلاغ هذه

الأشياء، لمن يستطيع أن يعالج بها الأمر، وخلال ذلك، فلتؤمن أيها الفندقى فيما قلته لك، وخذ كتبك، وهناك بعيدًا، وخذ معها حقائقها أو أكاذيبها، (وبالهنا والشفا) فلتأكلها، وليشأ الله ألا تعرج قدمك مثلما تعرج قدم ضيفك دون كيخوتى.

أجاب عليَّ هذا الفندقى:

– هذا، لا. فلن أصير مجنونًا لحد أن أعمل من نفسى فارسًا مشّاء، الذى أرى جيدًا أن الآن لا يستعمل، ما كان يستعمل فى ذلك الزمان، عندما يقال إنهم حينذاك كانوا يمشون فى الأرض هؤلاء الفرسان المشهورين.

فى منتصف هذا الحديث ظهر سانشو، وبقى فى غاية الاضطراب والتفكير مما سمع أن الآن لا تستعمل الفروسية المشّاءة وأن كل كتب الفروسية كانت حماقات، وأكاذيب، واقترح على قلبه الانتظار حتى يرى إلى ما سوف تنتهى إليه رحلة سيده، وعما إذا كان لن يخرج بما يفكر فيه من سعادة، كى يقرر تركه والعودة إلى زوجته وأولاده، وعمله المعتاد.

حمل الفندقى الحقيبة والكتب، لكن القسيس قال له:

– انتظر، أحب أرى أى أوراق هذه، المكتوبة بخط جميل.

سحبها المضيف، وبإعطائها له لقراءتها وجد عملاً من ثمانى ملازم مكتوب بخط اليد، وفى البداية تحمل عنوانًا كبيرًا يقول: رواية (الصفيق الفضولى). وقرأ القسيس لنفسه من ثلاثة إلى أربعة سطور، وقال:

– من المؤكد، أنها لا تبدو لى شيئًا سيئًا، وتعرونى الرغبة لقراءتها كلها.

وأجاب على ذلك صاحب النزل:

- يمكن لنيافتك قراءتها، لأنى أحب أن أعلمك أن بعض الزبائن الذين قرأوها سرتهم جدًا، وطلبوها منى مرات عديدة، لكننى لم أحب أن أعطيها لهم، مفكرًا فى إعادتها لمن ترك هنا هذه الحقيبة المنسية بهذه الكتب والأوراق، فربما عاد صاحبها إلى هنا فى أى وقت، مع أن الكتب فى هذه الحالة سوف أفتقدها، إلا أننى بإخلاص سوف أعيدها، فأنا مسيحى حتى الآن.

قال القسيس:

- عندك كل الحق، لكن مع كل هذا، إذا ما أعجبتنى الرواية، ستتركنى أنسخها.

- بكل سرور. أجاب الفندقى.

وبينما كان يتبادل الاثنان هذا القول، كان كاردينيو قد تناول الرواية وبدأ يقرأها، ورأى فيها ما رأى القسيس، و رجاه أن يقرأها بطريقة تجعل الجميع يسمعونها.

قال القسيس:

- نعم، أقرءوها إذا لم يكن من الأفضل إنفاق هذا الوقت فى النوم عن إنفاقه فى القراءة

قالت دوروثيا:

- ستكون راحة مشبعة لى، تسلية الوقت مستمعة إلى قصة، بل لن أملك النفس الهادئة التى تخوّل لى النوم، إذا كان هناك سبب لمجافاته.

قال القسيس:

– إذن، بهذه الطريقة أحب قراءتها حتى لو كان ذلك من باب الفضول، فلربما بها شيء من السرور.

هرع الأسطى نيكولاس، لرجائه بنفس الرجاء، وأيضًا سانشو، الأمر الـذى كان موضع اعتبار القسيس، فاهمًا أن الجميع، ستقر عينه، وأنه مثلهم، فقال:

– إذن، ليكن، لنكن جميعًا منتبهين، فإن الرواية تبدأ بهذه الطريقة.

الفصل الثالث والثلاثون
حيث نحكى رواية الصفيق الفضولى

فى فلورنسا، المدينة الغنية والمشهورة فى إيطاليا، وفى الإقليم المسمى توسكانيا، كان يعيش أنسيلمو ولوتاريو، فارسان غنيان وساميان، وبينهما صداقة حميمة، اتخذت صفة الامتياز حتى صارت كلمة (الصديقان) علمًا يسميان به كل من كان من طرف من كان يعرفهما. كانا أعزبين وسيمين ومن نفس العمر، ولهما نفس العادات، وكل ما يبرر تبادل ما بينهما من صداقة متناسبة. ومع ذلك فحقيقى أن أنسيلمو كان يميل أكثر قليلاً إلى تزجية الفراغ فى شئون الغرام، بينما لوتاريو يميل أكثر للصيد، لكن عندما يتاح. كان أنسيلمو يترك شئونه حتى يهرع إلى سرور لوتاريو، وهذا كان يفعل نفس الشىء، وعلى هذا الطريق سارت إرادة كل منهما طبقًا لإرادة الآخر، ولم تكن هناك ساعة بمثل انضباط صداقتيهما.

كان أنسيلمو يسير ضائعًا فى غرامياته بفتاة رفيعة الأصل وجميلة من نفس المدينة، ابنة لأبوين طيبين كل الطيبة، وكانت هى لذاتها طيبة، والذى قرر مع موافقة صديقه لوتاريو، الذى بدونه لم يكن يفعل شيئًا، أن يطلبها من والديها زوجةً، وهكذا وضع هذا القرار موضع التنفيذ، والذى صار سفيرًا فى هذا كان لوتاريو، وكان هو من أنهى الصفقة، مع سرور صديقه أعظم السرور، حتى إنه فى وقت قصير رأى نفسه فى الموقف الذى رغب فيه، وكاميلا بعيدة السرور لحصولها على أنسيلمو زوجًا، لم تتوقف عن شكر السماء، ولوتاريو الذى عن

طريقه حظيت بكل هذه السعادة. الأيام الأولى، كما هو المعتـاد فـى أى زفـاف، مضت في بهجة مستمرة. وكما أن لوتاريو كان يعتاد بيت صديقه حاول أنـسيلمو تكريمه، والاحتفال به، وإدخال البهجة إلى قلبه، بكل ما كان بالنسبة له ممكنًا، لكن انتهت أيام الفرح بما فيها من مرح، وهدأت كثرة تردد الزيارات والتهـانى، وبـدأ لوتاريو يهمل – فى عناية – أفكار التردد على بيت أنسيلمو، لما تراءى له (حقًـا يتراءى للجميع من ذوى الفطنة والكياسة)، أنه لا يجوز زيارة، ولا كثرة التـردد على بيوت الأصدقاء المتزوجين، بنفس الطريقة التى كانت تتم زيارتهم عندما كانوا عزابًا، مع أن الصداقة الحقيقية والمخلصة لا يمكن، بل يجب ألا تعتريهـا شـكوك بأى شكل من الأشكال، إلا أنه رغم هذا فإن شرف المتزوج رهيف إلى حد الغيـرة من نفس الإخوة الأشقاء، فما بالنا بالأصدقاء.

لاحظ أنسيلمو تغير لوتاريو، وبدأ يختلق شكايا كبرى منه، قائلاً له إنه لـو عرف أن الزواج سيصير أحد أسباب فقدان الصلة بينهما بالطريقة التى اعتاداهـا، ما كان مطلقًا قد تزوج، و للتناسب العجيب الذى كان بينهما، عندما كان أعـزب، أمكنهما إدراك تلك التسمية العذبة (الصديقان)، التى لاتسمح، بسبب الرغبـة فـى الحصافة دون أى سبب آخر، أن يضيع هذا الاسم المحبوب؛ وهكذا فإنه يلتمس منه إذا كان هذا الحق للكلام بينهما مازال قائمًا، أن يعود ليصير سيد بيته، وأن يدخلـه ويخرج منه كما كان يفعل من قبل، مؤكدا له أن زوجته كـاميلا، لا يـسعدها ولا تريد شيئًا غير الذى يريده هو،وبما عرفته هى من حقائق عن حبهما، فإنهـا فـى حيرة لما أصاب هذا الحب من نفور.

تلك الأسباب وأخرى غيرها مما قال أنسيلمو لصديقه لوتاريو، حتى يغريـه أن يعود كما اعتاد إلى بيته، أجاب لوتاريو بحذر شديد وكياسة وبيان حتى صـار أنسيلمو راضيًا عن القصد الطيب لصديقه، وبقيا متفقين على يومين فى الأسـبوع

وفى الأعياد، موعدًا لذهاب لوتاريو لتناول الطعام معه. ومع أن هذا بقى مؤكدًا بين الاثنين،اقترح لوتاريو ألا يفعل أكثر مما يراه يناسب شرف صديقه، بأبعد مدى وحرص أكبر مما يفعل لو كان شرفه الشخصى. وكان يقول، وخيرًا يقول، إن المتزوج الذى وهبته السماء زوجة جميلة، عليه أن يكون شديد الحرص حول أى أصدقاء يحمل لبيته، كذلك فى التروى مع من تتحادث زوجته من الصديقات؛ لأن ما لا يتحقق فى الميادين أو فى المعابد، أو فى الحفلات العامة أو فى المحطات (شىء لا يستطيع أن يستنكره الأزواج من زوجاتهم) يتم تحققه وتسهيل وقوعه فى بيت صديقة أو قريبة هى موضع كل الثقة والرضا. أيضًا كان لوتاريو يقول، إن كل متزوج عليه أن يصطنع صديقًا لتحذيره من أى إهمال يرتكبه فى تعامله فى هذا الشأن؛ لأنه من المعتاد أن يحدث بسبب جسامة ما يكنه الزوج من حب لزوجته، فإنه لا يحذرها، أو لا يكلمها فى الموضوع حتى لا يغضبها من قوله لها ألا تعمل كذا، أو أن تترك عمل ذاك، لأن عملها أو عدم عملها يتعلق بالشرف أو بالعار؛ وهكذا فى حال تلقيه تحذيرا من الصديق يستطيع بسهولة علاج الداء بالدواء. ولكن أين يوجد صديق بهذه الكياسة والولاء والإخلاص، كما يتطلب لوتاريو؟ لا أعرف إجابة مؤكدة، لكن فقط كان لوتاريو ذلك الصديق، الذى كان بكل مرتخص وغال وحيطة ينافح عن شرف صديقه، فكان يحاول إنهاء وتقليل وتقصير الأيام المتفق على زيارة صديقه فيها، حتى لا يرى أى غوغائى عاطل أو أعين متبصصة وخبيثة رؤية سوء دخول شاب غنى، ورجل لطيف، وابن ناس، ووسيم (مما يظنه متوافرا فيه) لبيت امرأة جميلة مثل كاميلا، على الرغم من أن برّه وسمعته يمكن أن توقف أى لسان سوء، فإنه بكل هذا يخشى أن يوضع موضع شك مصداقيته أو مصداقية صديقه، ولهذا فأيام الاتفاق كان يتسلى فيها ويشغلها بما لا مندوحة من عمله، وهكذا يقضيان أوقاتًا كثيرة ومعظم اليوم فى شكوى من

الأول واعتذار من الآخر. وحدث مرة أن الاثنين كانا يتنزهان فى مـرج خـارج المدينة، حين قال أنسيلمو إلى لوتاريو هذه العبارات:

- كنت أفكر، أيها الصديق لوتاريو، فى النعم التى أنعمها الله علىَّ من كونى ابنًا لمثل والدىَّ، ووهبنى من الثروة دون بخل، مما يسمونه طبيعيا أو مـن فعـل الصدفة المحظوظة، أما الذى أعجز عن شكر الله له فهـو للـنعم المكتـسبة وليست الموهوبة، والتى أزجاها إلىَّ بأن أعطاك لى صديقًا، وكاميلا زوجـة، هديتين ثمينتين أقدرهما، وإن لم يكن حق قدرهما، فبقدر ما أملك من تقـدير. ومع كل هذه النعم التى بها اعتاد الناس بل استطاعوا أن يعيشوا سعداء، أنا أعيش أكثر الناس كآبةً وضنًى، لأننى لا أدرى كم ستطول معاناة ذلك الذى يرهقنى، وتلك الرغبة الغريبة والخارجة عن المعتاد التى تمـصرنى، وتجعلـنى أتعجب من نفسى وأدينها، وأتشاجر معها فيما بينى وبينها، وأحاول إسكات تلك الرغبة وإخفاءها عن تفكيرى ذاته. وهكذا صار ممكنًا البقاء بهذا السر رغم تحايلى كى أحاول قوله لكل العالم. وبالفعل هو يستحق أن يخـرج إلى ميدان عام، وأود أن تضعه فى أرشيف أسرارك، واثقًا مـن حفظـه، ومـن المسعى الذى قد يمكنك القيام به، باعتبارك صديقى الحقيقى، وذلك لعلاجه، حتى أرانى متحررًا من التعاسة التى يسببها لى، وهكذا تعود البهجة، بفضلك، بعد أن جاء التنغيص بجنونى.

حملت عبارات أنسيلمو صديقه لوتاريو إلى التجمد، ولم يعرف إلى أى نهاية سوف يصل ذلك التحوُّط الكبير، أو تلك المقدمات الطويلة، ومع أنه قلب فى خيالـه عن تلك الرغبة التى يمكن أن ترهق صديقه إلى هذا الحد، فإنه كان يـصل دائمًـا بعيدًا عن إصابة المرمى الحقيقى، وحتى يخرج سريعًا من الاحتضار الـذى كـان

يسببه له ذلك التجمد، قال له إنه يثقل عليه جدا، رغم عمق صداقتهما، اللف والدوران حتى يقول له أفكاره المستورة تلك، ومن ثَم، فليثق من وعد إنه إما سوف ينصحه للتسرية عنه أو يجد علاجًا لإنجاز رغبته. أجابه أنسيلمو:

- ما تقول هو الحق، وفى ظل هذه الثقة سوف أعلمك، أيها الصديق لوتاريو، أن الرغبة التى تمضُّنى هى التفكير فى كاميلا زوجتى، فهى طيبة جدا، وكاملة جدًا حسب ظنى، ولا أستطيع أن أدرك مدى صحة هذا الظن دون اختبارها بطريقة تكشف عن عيار كمالها بالقيراط، كما تبرز النار عيار الذهب وقيراطه. لأننى أيها الصديق أفكر فى أن المرأة لن تكون بهذا الكمال إلا إذا طُلبت وأبت أمام وعود المحبين الطالبين لها واستعطافهم ودموعهم وإلحافهم المستمر عليها فى الطلب، وهى وحيدة ولكنها قوية لا تجيب إلا بالإباء لأنه، ماذا ينبغى أن نحمده (كما واصل القول) فى امرأة من الكمال، إذا لم يغرها - دون طائل - أحد بالفساد؟ وأى فضل لها إذا كانت مصونة وخائفة، ولا يعطونها فرصة للانطلاق، وتعرف أن لها زوجًا سوف يأخذها بأول خطأ نازعًا عنها الحياة؟ وهكذا فإنه إذا كان الكمال بسبب الخوف أو انعدام الفرصة، لا أريدها بوصفها زوجة، وإنما أريد المرأة المطلوبة والمطاردة، التى خرجت من هذا منتصرة. وبهذا، لتلك الأسباب ولأسباب أخرى كثيرة، فإننى حتى أعطى مصداقية لرأيى فيها مع تدعيم لهذا الرأى، أرغب فى أن تمر كاميلا زوجتى بهذه المصاعب، وتصهر للتنقية وتحديد عيارها بالقيراط فى نار أن ترى نفسها مطلوبة ومرغوبة ومن شخص لديه الشجاعة أن تتوجه إليها رغباته، وتخرج، كما أظن أنها ستخرج من المعركة ظافرة، وبهذا أنال السعادة التى لا نظير لها، وعندها أستطيع القول إننى قد ملأت فراغ رغباتى، وسأقول إن

نصيبي من الحظ هو المرأة القوية التي قال عنها الحكـــيم: ومـــن يمكنـــه أن يجدها؟(*) وإذا حدث هذا على عكس ما أظنه، مع لذة أن أرى أن الفكـــرة كانت على صواب، سوف أتحمل النتائج دون الألم الذى يمكن أن تسببه بحق تلك التجربة الغالية الثمن. وأفترض سلفًا أن أى شيء من الكثير الذى يمكن أن تقوله ضد هذه الرغبة لن يكون مفيدًا، لمنعى من وضعها موضع التنفيذ، بل وأريد، أيها الصديق، أن تكون أنت الآلة التى تعمل فى تحقيق هذا الغرض الذى يتم به سرورى، وسوف أعطيك فرصة لأداء ذلك، دون أن ينقـــصك شيء مما أراه ضروريا لطلب امرأة شريفة وكريمة الأصل ومصونة وخاليـــة الذهن، ويحفزنى بجانب أشياء أخرى ثقتى فيك لتناول هذا الشأن الـــشاق؛ فأنت عندما ترى أن كاميلا قد استسلمت، فلن تصل إلى نيلها حتى النقطة الحرجة أو الفعل الكامل، وإنما اعتبار أن قد حدث ما كان ينبغى أن يحدث، فى احترام سابغ، وهكذا لن يُتعدى على شرفى وراء ذلك، وتصبح رغـــبتى وقد تم إنجازها، وشينى سيظل مستورًا بفضل صمتك، والذى أعرف أنه فيما يتعلق بى خالد خلود صمت الموت. وهكذا إذا أردتنى أن تكون لى الحيـــاة، التى أستطيع أن أقول إنها حياة بحق، فبالطبع سوف تدخل فى هذه المعركـــة الغرامية، وليس بفتور أو كسل، وإنما بالحماس والاجتهاد، الـــذى تتطلبـــه رغبتى، وبالثقة التى تبرهن عليها صداقتنا.

تلك كانت هى الكلمات التى قالها أنسيلمو لصديقه لوتاريو، والذى انتبه عنـــد سماعها، وهو كان سينتبه لكل ما يقوله أنسيلمو حتى ولو كان غير ما قال، وها هو

(*) هذه العبارة للنبى سليمان (عليه السلام).

لم يفتح فمه حتى رآه قد سكت، ولما رأى أنه لن يقول شيئًا آخر، بقى ينظر إليه فترة طويلة، كما لو كان ينظر لشيء لم يره قط من قبل، وقد سبب له تعجبًا وفزعًا، ثم قال له:

– أيها الصديق أنسيلمو، لا أستطيع أن أقنع نفسى، بأن كلماتك ليست إلا مزاحًا، لأنه عند التفكير فى أنك كنت تقولها وتعنيها ما كنت وافقت على الاستمرار فى نطقها؛ لأن عدم الإنصات إليها كان يجنبنى حديثك هذا الطويل الممل. ودون شك، فأنا أتصور، إما أنك لا تعرفنى أو أنا لا أعرفك. لكن لا: فأنا أعرف أنك أنسيلمو، وأنت تعرف أننى لوتاريو، والمشكلة فى أننى أظن أنك لست الأنسيلمو الذى أعرفه، وأنت أيضًا يجب أن تكون قد ظننت أننى لست اللوتاريو كما يجب أن يكون؛ لأن الأشياء التى قلتها لى ليست من أنسيلمو صديقى، ولا ما تطلبه منى من ينبغى أن يطلب من ذلك اللوتاريو، الذى تعرفه، لأن الأصدقاء عليهم أن يعجموا ويقدروا بعضهم بعضًا كما قال الشاعر(*) حتى مذبح الكنيسة، ويعنى أن لا يتكلم عن اختبار للصداقة فى أشياء لايرضى عنها الله. وإذا عد ذلك مجاملة فى الصداقة، أليس أفضل كثيرًا أن أحس من نفسى التقى، الذى يعرف أن لا ينبغى فقدان الصداقة الإلهية نظير أية صداقة إنسانية؟ وعندما يرمى الصديق بالسهم بعيدًا، واضعًا على جانب احترامه للسماء، من أجل صديقه، فلا يكون ذلك لأسباب هينة وعابرة، وإنما يكون لأسباب تتعلق بشرف الصديق وحياته. إذن، قل لى الآن، أنسيلمو، أىٌّ من هذين الشيئين الاثنين يتعرض للخطر

(*) عبارة لاتينية USQUE AD ARAS.

حتى أغامر بإرضائك، وعمل هذا الشيء الكريه الذى تطلبـه مـنى؟ من المؤكد، أنه لا واحد منهما، ومع ذلك تطلب منى حسب فهمى ما يحـاول ويتطلب نزع الشرف عنك والحياة، وعنى معك، لأنه إذا حاولـت نـزع شرفك عنك، فمن الواضح أننى أنزع عنك الحياة؛ لأن الرجل بدون شرف أسوأ من الميت؛ وكونى أنا الآلة، كما تحبنى أن أكون، التى تحقق لـك هـذا الضرر البليغ، ألن أصل إلى أن أصير بغير شرف، وبالتالى بغير حياة؟ أنصت، صديقى أنسيلمو، أصبر ولا تجيبنى قبل أن أنتهى من قول ما يعرض لى، فيما يتعلق بما تتطلبه رغائبك، وسيبقى عندك من الوقت لإجابتى، وسوف أنصت إليك.

قال أنسيلمو:

- بكل سرور، قل ما تحب.

وواصل لوتاريو ما كان يقول:

- يبدو لى، أوه أنسيلمو! أنك الآن لديك ألمعية العرب، الذين لا يمكن إقناعهم بخطأ مذهبهم مستعملاً عبارات الإنجيل، وبأسباب تتكون من تأملات العقل و تنظيره، حتى لو كانت تتكئ على أدوات الإيمان، و إنما يجب أن تستحضر لهم أمثلة حية وسهلة وذكية، وبرهانية، مع براهين رياضية لا يمكن إنكارها مثلما عندما يقال "إذا طرحنا من كميتين متـساويتين كميـات متـساوية، فالباقى أيضًا متساو"؛ وعندما لا يفهمون ذلك بالكلام، كما يحدث بالفعل، يجب أن تشرحه بالعد على اليد، ووضعه أمام أعينهم، وحتى مع كل هـذا لايملأ أحد أعينهم، ويقنعهم بحقائق دينى المقدس. ونفس هـذا الأسـلوب،

وتلك الطريقة ستناسبنى لاتباعها معك، لأن الرغبة التى ولدت فيك تمضى تائهة، وخارج كل ما له ظل من المعقولية، حتى إنه يبدو لى أنه يُحتاج إلى وقت لإفهامك سذاجتك، ولا أريد أن أعطى فكرتك الآن اسمًا آخر، وفوق ذلك سأتركك فى خطئك الفاحش، وتحت ألم رغبتك الشريرة، لكن لا تتركنى أستعمل بنفس الطريقة الصداقة التى أكنها لك، والتى لا تسمح بأن أتركك متورطًا فى هذا الخطر الظاهر على حياتك. ولأنك بالطبع تراه، قل لى أنسيلمو، ألم تقل لى أن أطلب امرأة مصونة، وأغرى شريفة، وأعرض نفسى على طيبة الطوية، وأن أخدع فطنة؟ إذا أنت قد قلت ذلك لى؛ إذن إذا أنت تعرف أن لديك امرأة مصونة وشريفة ونقية الطوية وفطنة، فعمَّ تبحث؟ وإذا كنت تظن أنها رغم كل سطوى، سوف تخرج ظافرة، ولسوف تفعل دون شك، فأى صفات أفضل تفكر فى إعطائها لها فيما بعد فوق ما عندها من صفات، وماذا ستكون أكثرمما هى الآن؟ أو أنك لا تنظر إليها طبقًا لما تقوله عنها؟ أو أنك لا تعرف ما تطلب؟ وإذا كنت لا تنظر إليها طبقًا لما تقوله عنها، لماذا تريد اختبارها، وهى المرأة السيئة، إلاالنزوة عندك؟ لكن إذا كنت لا تنظر إليها كما تعتقد، فإنه شيء قبيح أن تجرى تجربة على حقيقة للوصول إلى نفس الحقيقة، لتقدرها بعد التجربة نفس تقديرك لها قبلها. وهكذا فختام الكلام، إن محاولة الأشياء التى ينجم عنها قبل النفع الضرر فإنها من سوء التقدير والظن، وخاصة إذا لم نكن مجبرين على المحاولة أو مضطرين. ومن الواضح إلى أبعد الحدود أن المحاولة محض جنون، والأمور الصعبة إما أن تكون لله أو للعالم أوبينهما بالقسمة، وما لله ما

يقوم به القديسون، عندما يحاولون عيش الحياة مثل ملائكة فى أجسام آدمية، وأما ما يؤدى احترامًا للعالم فهى أعمال هؤلاء الذين يعــبرون (لانهائيًــا) غامرًا من الماء، وتعددًا غزيرًا من الأجواء، وغرائب من الناس لاكتساب ما يسمونه ممتلكات الثروة، أما ما يتعلق بين العمل بالقسمة لله و العالم، فتلــك أعمال الجنود الشجعان، الذين بمجرد أن يروا مواجهًا لهم ســورًا مفتوحًــا بقدر ما استطاعت أن تشقه فى استدارة دانة مدفع، يضعون الخــوف كلــه جانبًا، ودون خطابة أو إعلان موجه إلى الخطر البارز الذى يهددهم، يلقون بأنفسهم فى إقدام وسط ألف موت مضاد ينتظــرهم، محمــولين فى طــيران بأجنحة الرغبة للتضحية من أجل عقيدهم وأمتهم وملكهم. تلك هى الأشياء التى اعتادوا على محاولتها، وإنه لمجد وشرف ونفع محاولتها، حتى لو امتلأت بالعقبات والأخطار، لكن تلك التى تقول إنك تريــد محاولتــها، ووضــعها موضع التنفيذ، لن تبلغ بها مجدًا عند الله، ولا ممتلكات ثروة، ولا شهرة بين الرجـــال؛ لأنه بفرض أنك خرجت منها كما ترغب، فلن تخرج أكثر فخرًا أو أكثر ثراء أو أكثر شرفًا مما أنت عليه الآن.

وإذا لم تخرج بما ترغب فعليك أن ترى نفسك فى أكبر بؤس يمكنك تخيلــه؛ لأنك لن تستفيد من التفكير حينذاك بأن أحدًا لا يعرف الشقاء الذى وقــع بك، لأنه يكفى كى يضعفك ويمزقك أن تعرف أنت نفسك. ولتأكيد هــذه الحقيقة، أحب أن أقول لك مقطوعة، نظمهــا الــشاعر المــشهور لــويس تانسيلو(*)، فى آخر الجزء الأول من قصيدته دموع سان بدرو، وهى تقول:

(*) شاعر إيطالى من نابولى ١٥٦٨.

يتكاثر الألم، ويتكاثر العار

فى بدرو عندما طلع النهار

ومع أن لا أحد معه يشعر بالعار

من نفسه، حيث أذنب كالفجار

فى هذا الصدر الأعظم كان العار

فليس يحركه فحسب أن يراه النُظّار

فعندما يخطئ من نفسه يشعر بالعار

حتى لو لم يره غير الأرض والسموات

وهكذا فلن تدفن مع السر ألمك، بل قبلها سوف تبكى ويستمر بكاؤك، وإذ لم يكن بدموع من عينيك فسوف يكون بدموع من دم القلب، كما بكى ذلك الطبيب الذى يتحدث عنه الشاعر بعد أن أجرى تجربة الكأس(*)، والتى رفض إجراءها رينالدوس مع خطاب بليغ، ومع أن هذا مجرد خيال شعرى فإن تحت سطوره أسرارًا أخلاقية جديرة بإبلاغها وفهمها ومحاكاتها. أكثر سوف تنتهى، بما أفكر فى قوله لك الآن، بمعرفة الخطأ الكبير الذى تريد ارتكابه. قل لى أنسليمو إذا كانت السماء أو الحظ جعلك السيد الشرعى لحجر كريم بالغ الرهافة، ومن كماله وعيار قراريطه ورهافته يعجب به كل من رآه من خبراء المجوهرات، وجميعهم فى صوت واحد وبرأى عام يقولون إنه يصل فى العيار والكمال والرهافة إلى حد

(*) تجربة أسطورية، حيث كان يشرب من الكأس المسحور لاختبار إخلاص زوجته، فإذا انسكب النبيذ على صدره عرف عدم إخلاصها.

المنتهى الذى يصل إليه هذا النوع من الأحجار، وأنت نفسك لديك نفس الاعتقاد، دون أن تعرف شيئًا ضد اعتقادك، فهل من العدل أن تأتى راغبًا فى وضعه بين السندان والمطرقة، وبكل قوة تنزل عليه الضربات والأذرع، لاختبار هل هو بنفس الصلابة أو الرهافة التى عنها يقولون؟ وإذا فعلت ما رغبت، وقاوم الحجر هذه التجربة الحمقاء، فلن تضاف إليه بهذا قيمة أو شهرة، وإذا تكسَّر، وهو شىء محتمل، ألا يفقد كل شيء؟ وأمامه يقينًا الجميع يرى تقدير صاحبه له - إن استمر فيه - حقيقة تؤخذ كما هى ببساطة. إذن احسب، أنسيلمو أيها الصديق، أن كاميلا ماس رهيف جدا، هكذا فى تقديرك وتقدير غيرك، وليس من العقل أن تضعها تحت احتمال أن تنكسر، وحتى لو بقيت كاملة، لن تستطيع أن ترقى إلى قيمة أكبر مما هى عليه، وإذا أخفقت ولم تقاوم، ماذا سيبقى بعدها، وبكل حق فى جانبك، قد تشكو من ذاتك نفسها؛ لأنها كانت سبب ضياعها وضياعك. وانظر أنه لا توجد تحفة من حلى فى العالم تساوى قدر ما تساوى امرأة طاهرة وشريفة، وأن كل شرف النساء يرجع للرأى الطيب فيهن، وهذا شأن زوجتك، التى تصل إلى أطراف الكمال التى تعرفها، من أجل أى شىء تريد أن تضع هذه الحقيقة فى مكان الشك. انظر ياصديقى، فالمرأة حيوان ناقص، ولا ينبغى أن توضع لها عثرات حتى تتعثر وتسقط، وإنما إزاحتها من أمامها، وتنظيف الطريق من كل العقبات، حتى تجرى خفيفة دون عناء نحو الكمال، الذى هو أن تكون فاضلة.ويحكى الفلاسفة الطبيعيون أن الفاقم حيوان صغير، له جلد شديد البياض، وعندما يريد صيده الصيادون يستعملون هذه الحيلة، بمعرفتهم الجهات التى تعود أن يهرع إليها ويعبرها، فإنهم يغطونها بالوحل، وبعد ذلك، يلاحظونه فى اتجاهه إليها، وهكذا عند وصول الفاقم إلى الوحل، يتوقف فيترك نفسه يمسك ويؤسر مقابل ألا يعبر الوحل، فيفقد بياضه ويتنازل عنه، ذلك البياض الذى يقدره أكثر من الحرية والحياة والمرأة الشريفة

والطاهرة عبارة عن فاقم، وهى أكثر بياضًا من الجليد وأنظف، لفضيلة الشرف، والذى يريد ألا تفقده، عليه أن يحرسها ويحافظ عليها، قبل أن يستعمل أسلوبًا مختلفًا، مثل الأسلوب الذى يستعمل مع الفاقم، بألا توضع أمام وحل الهدايا والخدمات للعشاق المثابرين، لأنه ربما بل بدون (ربما) قد لا تكون عندها قوة طبيعية كافية وفضيلة فائقة، فتتعثر بنفسها، وتصطدم بالعثرات، فمن الضرورى إزاحتها بعيدًا عنها، ووضعها أمام نظافة الفضيلة والجمال التى تحوى بداخلها السمعة الطيبة. وفى نفس الوقت، المرأة مرآة من كريستال برّاق وشفاف، لكنه معرض للتلوث والإظلام مع كل نفس يمسّه. وينبغى أن يتم اللجوء مع المرأة الشريفة إلى نفس الأسلوب الذى يستخدم مع التحف القديمة، الافتتان بها دون لمسها. ينبغى تقدير المرأة الكاملة وحراستها مثلما نفعل مع جنة فيناء، مليئة بالأزهار والورد، لا يوافق صاحبها على التنزه فيها ووطئها، حتى يمكنهم الاستمتاع بأريجها وحسنها من بعيد، خلف قضبان أسوارها. وأخيرًا، أحب أن أذكر لك بعض الأبيات التى ترد الآن على ذاكرتى، والتى سمعتها فى مسرحية كوميدية حديثة، والتى أرى أنها توافق الموضوع الذى نعالجه. كان هناك عجوز ينصح آخر، أبا لفتاة، يصونها ويغلق عليها، وبين عبارات أخرى قال له:

المرأة من زجاج

لكن لا تختبرها

فقد لا تنكسر أو قد

لأن كل شيء محتمل

*

الأسهل أن قد تنكسر

وليس من الحكمة

أن تضع أمام خطر الكسر

ما لا يمكن أن يعود للالتئام

*

والجميع فى هذا يتفق

وعلى حق ابن الأساس:

إذا كان هناك (دانايس) فى العالم

فهناك مطر من الذهب أيضًا

وكل ما قلته لك حتى هذا، أوه أنسيلمو كان فيما يمسك، والآن من الأفضل أن تسمع ما يناسبنى، وإذا طال حديثى فعفوًا، فكله من متطلبات التيه الذى أدخلت نفسك فيه، وتريد أن أخرجك منه. أنت تتخذنى صديقًا، وتريد أن تسلبنى شرفى، شىء ضد كل صداقة، وليس فقط تتكلف معى ذلك، بل تريد أيضًا أن أسلبك أنت الآخر شرفك. أما كونك تريد سلب شرفى، فهذا أوضح، لكن عندما ترى كاميلا أننى أغازلها، كما تطلب أنت منى، فسوف ترانى رجلاً بلا شرف، وسيئ الصورة، لأنى أحاول وأعمل شيئًا بعيدًا كل البعد عن كينونتى وعما تفرضه علىَّ صداقتك. أما فيما يتعلق بسلبى شرفك، فهو أمر لا يداخله شك، فعندما ترى كاميلا أننى أرغب فيها وأطلبها، لا بد أن تفكر أننى قد وجدت فيها طيشًا، أعطانى الجرأة على أن أكشف لها عن رغبتى الشريرة، وناظرة إلى نفسها كمن سلب شرفها، فسوف يلحق بك ما شعرت به؛ لأن شرفها يخصك وسلبه سلب لشرفك. ومن هنا يولد ما

يمارس عادة، زوج المرأة الزانية، رغم أنه لا يعرف، ولم ينل الفرصة لحمل زوجته على أن تكون ما يجب أن تكونه، ولم يكن فى يده أو فى وسع تغاضيه أو تحوطه منع وقوعها فى هذا البلاء، يطلقون عليه ويسمُّونه باسم الدُّيوث والمحتقر، وبطريقة ما، فإن الذين يعرفون السلوك الشائن لامرأته ينظرون إليه باستهانة، بدلاً من النظر إليه بإشفاق رائين أنه وقع فى هذه التعاسة دون ذنب جناه، وإنما هو مزاج زوجته ورغبتها الذى يحمل كل الذنب. لكن أود أن أقول لك، إنه لسبب عادل يعد ذلك انتهاكًا لشرف زوج المرأة المنحرفة، حتى لو لم يعرف، ولم يشارك بأى فعل يعطى زوجته الفرصة لتخون؛ ولا تتعب من سماعى: لأن كل ما أقوله يسير فى اتجاه مصلحتك. عندما خلق الله أبانا الأول آدم فى الفردوس بجنة عدن، تقول الكتب المقدسة، إن الله سكب فى آدم النوم، وفى حالة نومه، انتزع منه أحد الضلوع من الناحية اليمنى، ومنها شكَّل أمنا حواء، وهكذا عندما استيقظ آدم، ونظر إليها، قال: "هذه لحم لحمى، وعظم عظامى". وقال الله: "من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه، وسيكونان اثنين فى لحمٍ واحدٍ". وحينذاك صدرت التعليمات السماوية بالزواج، بذلك الرباط الذى لا يفكه إلا الموت. وهذه المباركة السماوية ذات قوة وفضيلة فى إعجاز، حيث تصنع من شخصين مختلفين لحمًا واحدًا، بل تصنع ما هو أكثر بين من حسن زواجهم، فمع أن الزوجين الطيبين نفسان اثنتان، فإنهما ليس لهما إلا إرادة واحدة. ومن هنا، يصير لحم الزوجة هو نفس لحم الزوج، وكل تلوث يقع لها أو ما يترتب على ذلك من آثار، ترتد للحم الزوج، رغم أنه لا يد له فى هذا الشر كما سبق القول. وذلك لأن ألم القدم، أو أى عضو من أعضاء جسم الإنسان يحسه سائر الجسم، لكونه كله من لحم واحد، والرأس تحس بخدش فى الكعب، دون أن تكون هى التى قامت بخدشه، وهكذا فالزوج شريك فى الإحساس بالشرف المسلوب للزوجة، لكونهما معًا شيئًا واحدًا. ولأن الشرف وهتك الشرف

يولدان من لحم ودم، وأنهما عند المرأة السيئة، شركة بالضرورة مع الزوج حتى لو لم يعرف، فإنهم ينظرون إليه كمن فقد شرفه. فانظر، أنسيلمو، إلى الخطر الذى تضع نفسك فيه برغبتك فى تعكير صفو سكينة زوجتك الطيبة، وانظر كم هو عديم الفائدة، وسفيه، ذلك المراد فى تقليب النزوات التى هى الآن كامنة فى صدر امرأتك الطاهرة، واعلم أن ما سوف تستهلكه قليلاً لكن ما ستخسره سيكون جسيما، حتى سأتركه فى الذروة لأنه تنقصنى الكلمات لتوصيف ثمانته. وإذا كان كل ما قلته لا يكفى لإبعادك عن غرضك المشين، فيمكنك البحث عن أداة أخرى لسلب شرفك وسعادتك غيرى، لأننى أفكر فى ألا أكونها، حتى لو فقدت صداقتك لهذا السبب، وهذا بالنسبة لى أكبر خسارة أستطيع تصورها.

سكت عند قول ذلك لوتاريو الفاضل الفطن، وبقى أنسيلمو مضطربًا متفكرًا، حتى إنه لبرهة طويلة لم يستطع أن يجيبه بكلمة، لكنه فى النهاية قال له:

- لقد استمعت إلى ما رأيت،لوتاريو أيها الصديق، وكل ما أحببت أن تقوله لى، وفى الأمثلة والتشبيهات التى لقد ذكرهًا، وما فيها من هدى وصداقة حقيقية، وفى نفس الوقت أرى وأعترف، بأننى إذا لم أتبع رأيك، وأسير وراء رأيى، فإننى أمضى هاربًا من الخير، وساعيًا وراء الشر. ومع ذلك، فأنا الآن أعانى نفس مرض (الوحم) الذى تعانيه بعض النساء الحوامل، اللائى يشتهين أكل الطين، والجبس، والكربون، وأشياء أخرى أسوأ، ومع أنها أشياء مقززة إذا نظرت إليها، فإنهن كل مرة يقبلن عليها أكثر، ولهذا لابد من حيلة حتى أبرأ من هذا المرض، وهذا يمكن تحقيقه بسهولة، وحتى بفتور وافتعال، بأن تطلب ود كاميلا، والتى لن تجيبك بود مقابل، وفقط بمثل هذه البداية سأصير راضيًا، وتكون أنت وفيت بحقى عليك بوصفك صديقًا، ليس فقط

بمنحى الحياة، وإنما أيضًا بإقناعى بألا أفقد شرفى. وأنت مجبر على فعل ذلك لسبب واحد، لأنه حال كونى كما أنا، فى تصميم على وضع الأمر موضع التنفيذ، فإنك لن توافق علىَّ أن أعلم شخصًا آخر بهذا الفقدان للصواب عندى، وأن أضع بين يديه شرفى الذى تحاول منع سلبه منى، وفيما يتعلق برأى كاميلا فيك عند طلبك لودها، لايهم كثيرًا، فخلال وقت بسيط، عندما ترى فيها الكمال الذى تأمله، يمكنك أن تخبرها بحقيقة الحيلة، وستستعيد مصداقيتك عندها، لكونك أول من يخبرها. وهكذا مغامرة هينة وسرور كبير تقدمهما لى بمجازفتك بنفسك، فلا تدع ذلك، مهما اعترضتك العقبات، لأنه كما سبق وقلت لك، بمجرد أن تبدأ، سأضع نهاية للأمر وعندما رأى لوتاريو عزم أنسيلمو الحاسم، ودون أن يعرف أمثلة أخرى يسوقها، ولا أى كلمات جديدة تبرهن له على غلطه، وأنه يهدد بإعلام شخص آخر برغبته المشينة، قرر أن يرضيه لتجنب ضرر أكبر، بعمل ما يطلبه منه، مع النية والهدف بتوجيه هذه الحيلة نحو عدم تغيير تفكير كاميلا، مع إرضاء أنسيلمو فى نفس الوقت، وهكذا قال له ألا يبلغ أحدًا آخر بتفكيره، وأنه سيحمل مسئولية هذا الشأن، وسوف يبدأ عندما يطلب منه ذلك. احتضنه أنسيلمو بحنان وحب، وشكره على عرضه، كما لو كان أعظم فضل وعطاء من صديق، وتم الاتفاق بينهما على البدء فى يوم تال: وأنه سوف يعطيه الوقت والفرصة للانفراد بكاميلا والكلام معها، أيضًا سوف يعطيه أموالاً وحُليًّا لإهدائها إليها. ونصحه بأن يعزف لها موسيقى، وأن يكتب أشعارًا فى مدحها، وعندما لا يريد أداء بعض الأعمال فإنه سوف يعملها له. تطوع لوتاريو لكل شىء بقصد مخالف لقصد أنسيلمو، وبهذا

الاتفاق عادا إلى بيت أنسيلمو، حيث وجدا كاميلا تنتظر زوجها بشوق وعناية، لأنه فى ذلك اليوم تأخر فى العودة للبيت أكثر من المعتاد. ويعود لوتاريو إلى بيته ويبقى أنسيلمو ببيته فى غاية الرضا، بينما كان لوتاريو مهمومًا لا يدرى أى سبيل يتخذ للخروج من هذا الشأن السفيه، لكن فى تلك الليلة فكر فى طريقة خداع أنسيلمو، دون عدوان من جانبه على كاميلا، وجاء اليوم التالى ليأكل مع انسيلمو، وقوبل أطيب مقابلة من كاميلا، التى كانت دائمًا تستقبله وتَدلّله بكل الرضا، لفهمها مدى تقدير زوجها له. انتهوا من الطعام، وسحبوا المائدة، وقال أنسيلمو للوتاريو أن يبقى مع كاميلا هناك خلال غيابه فى شأن اضطرارى لمدة ساعة ونصف الساعة، ثم يعود. رجت كاميلا لوتاريو ألا يذهب، ولوتاريو تطوع أن يرافقها خلال غياب زوجها، لكن هذا لم يكن كافيًا لأنسيلمو؛ فقبل ذلك ألحّ على لوتاريو أن يبقى حتى يعود لأنه يجب أن يعالج معه أمرًا فى غاية الأهمية. وقال أيضًا لكاميلا ألا تترك لوتاريو وحيدًا خلال تخلفه عن البيت. بالفعل عرف أن يفتعل أمر خروجه أو أمر حماقته جيدًا، حتى إن أحدًا لم يكن ليستطيع أن يعرف أنه مفتعل. وذهب أنسيلمو وبقى لوتاريو وكاميلا وحدهما على المائدة، لأن باقى البيت ذهبوا لتناول طعامهم. ورأى لوتاريو نفسه موضوعًا فى ميدان المعركة التى رغبها صديقه، وأمامه العدو، الذى يستطيع أن يهزم كتيبة كاملة فقط بحسنه وجماله، حتى لو كانت كتيبة من الفرسان المسلحين، وانظروا كم كان عنده حق لوتاريو فى أن يخاف، لكن الذى علمه هو أن وضع كوعه فوق ذراع الكرسى، واليد مفتوح فوق الخد، وطلب غفران كاميلا لسوء أدبه، وقال إنه يريد أن يستريح حتى يعود

أنسيلمو.أجابته كاميلا بأنه يمكنه أن يستريح فى غرفة الاستقبال الخاصة بهـا بدلاً من الكرسى، وهكذا رجته أن يدخلها لينام فيها.لم يجب انسيلمو، وبقى نائمًا حيث كان إلى أن عاد أنسيلمو،الذى وجد كاميلا فى مخدعها، ولوتاريو نائمًا، واعتقد بسبب تأخره كثيرًا أن الاثنين قد نالا فرصة للكلام بل للنوم معًا. ولم يصبر حتى يستيقظ لوتاريو، إنما أيقظه وصحبه إلى الخارج كى يسأله عن حظه من التوفيق. وهل مر كل شىء كما رغب. قال له لوتاريو إنـــه لم يكشف لها مرة واحدة عن غرضه فى أول مرة، لأنه ليس من الفطنة، فاكتفى بأن تكلم معها عن جمالها، وأن كل المدينه لا حديث لها إلا هذا الجمال بجانب الذكاء. وقد بدا له أن هذا مناسب باعتبـــاره مـــدخلاً لكـــسب إرادتهـــا، وإعدادها للاستماع إليه برضا فى المرة القادمة، مستعملاً بهذا طريقة الشيطان عندما يريد خداع أحد موضوع فوق مرقب رؤية الذات: تتحول إلى ملاك من نور، فى حال كونه من غياهب، واضعًا لها أمام خيالات جميلة، وفى النهاية تكتشف من هى، ويخرج هو محققًا قـــصده لأنـــه لم يكـــشف خدعتـــه فى البداية.كل هذا سر كثيرًا أنسيلمو، وقال إنه سوف يعطيه الفرصة كل يـــوم حتى وإن لم يخرج من البيت، لأنه فى هذه الحالة سوف ينشغل بأمور حتى لا تعرف كاميلا بالحيلة.

وحدث أن مرت أيام كثيرة دون أن يقول لوتاريو كلمة لكاميلا، وكان يجيب تساؤلات أنسيلمو بأنه كان يكلمها، وأنه لم يستطع أن يخرج معها بـــأدنى علامـــة على تجاوبها مع الإغراء أو بإشارة ظل لأمل، وقبل ذلك كان يقـــول إنهـــا كانـــت تهدده بأنه إن لم يترك هذا التفكير السيئ سوف تقول لزوجها.

قال له أنسيلمو:

- جميل حتى الآن قاومت كاميلا الكلمات، فلنشاهد كيف ستقاوم الأعمال. سأعطيك غدًا ألفي دينار من الذهب كي تقدمها لها، كما سأعطيك ألفي دينار أخرى حتى تشترى لها حُليًا، لأن النساء مهما كن طاهرات اعتدن الغرام ببريق ملابسهن والسير أنيقات لاسيما إذا كن جميلات، وإذا هي قاومت هذا الإغراء، سأبقى مكتفيًا، ولن أثقل عليك أكثر.

أجاب لوتاريو بأنه قد بدأ، ولسوف يسير في الدرب حتى آخره، رغم أنه سوف يخرج منه متعبًا ومهزومًا، وفي اليوم التالي تلقى أربعة آلاف دينار، ومعهم أربعة آلاف اضطراب؛ لأنه كان لايعرف ماذا سيقول ليكذب من جديد، لكن بالفعل قرر أن يقول له إن كاميلا كانت كاملة، وإنها رفضت الهدايا والوعود، كما رفضت الكلمات من قبل، ولم يكن من المجدى التعب؛ لأن الوقت قد ضاع معها سدى لكن الحظ شاء أن تسير الأمور بطريقة أخرى، حيث إن أنسيلمو حينما ترك لوتاريو وكاميلا وحدهما كما فعل من قبل مرات كثيرة، دخل في إحدى الغرف، وراقبهما من ثقب المفتاح، ومضى يسمع ما يدور بينهما من كلام، ورأى أنه في أكثر من نصف ساعة لم يوجه لوتاريو كلمة لكاميلا، وما كان ليكلمها لو بقى هناك قرنًا، وأدرك أن كل ما قاله صديقه عن استجابات كاميلا كان خيالاً وكذبًا. وحتى يرى إذا كان هذا صحيحًا خرج من الغرفة، ونادى على لوتاريو لينفرد به جانبًا، وسأله عن الأخبار الجديدة، ومدى صلابة كاميلا. لوتاريو أجابه بأنه لا يفكر أن يمضى خطوة واحدة في هذا الشأن، لأنها ردت عليه بخشونة وحزن حتى إنه لم تعد لديه شجاعة للعودة للتكلم معها.

قال له أنسيلمو:

- آه لوتاريو، كم تسيء سداد ما تدين به لى، مع فرط ثقتى فيك! الآن، كنت أنظر إليك من المكان الذى يهيئه هذا المفتاح، ورأيت أنك لم تنطق بكلمة لكاميلا، مما يجعلنى أفهم أنك لم تبدأ معها بعد. وإذا كان ذلك كذلك، وهو بالفعل كذلك، لماذا تخدعنى؟ ولماذا تريد أن تحرمنى من وسائل تحقيق رغبتي؟

لم ينطق أنسيلمو بكلمات أكثر، لكن ما قاله كان كافيا لترك لوتاريو هائبًا محتارًا، تقريبًا كما لو كان تلقى ضربة في شرفه أن وجد كذابًا. أقسم لأنسيلمو أنه منذ هذه اللحظة سوف يتحمل مسئولية إرضائه، وعدم الكذب عليه، وحيث إنه يتجسس عليه من باب الفضول، فإنه سوف يرضيه بأن يجعله يرى ما ينزع عنه أى شك.

وصدقه أنسيلمو، وحتى يعطيه فرصة مريحة أكثر أمنًا، وأقل مفاجأة وسطوًا، قرر أن يغيب عن بيته ثمانية أيام، مغادرًا إلى بيت صديق له يعيش فى قرية قريبة من المدينة، ورتب مع الصديق أن يستدعيه على عجل، حتى تتاح لكاميلا الفرصة مع شأنها. أيها التعيس الغر أنسيلمو! ماذا تفعل؟ وماذا تخطط؟ ما ذلك الذى تنظمه؟ انظر ماذا تصنع ضد نفسك، مخططًا لانتهاك شرفك، ومنظمًا أمر هلاكك. طيبة هى زوجتك كاميلا هادئة وتملكها فى سكينة نفس، ولا أحد يسطو على سعادتك، وأسرارك لا تغادر جدران البيت؛ أنت سماؤها فى الأرض، وهدف تصويب رغباتها، وإنجاز سرورها، والمقياس الذى تقيس به إرادتها، ضابطة لها فى كل شيء على إيقاع إرادتك، وإرادة السماء. نعم، إذا أعطتك من منجم شرفها، وحسنها، وأمانتها، وعفافها دون جهد منك، كل الثروة التى تملكها، والتى يمكنك اشتهاءها، فلماذا تريد أن تهجر الأرض وتبحث عن آفاق جديدة من جديد، ولم ير أحد قط كنزًا، يوضع أمام المخاطر، حتى (ينقلب عاليه واطيه)، ففى

النهاية تتركه معتمدًا على تهويماتك الضعيفة لطبيعتك المتهاوية؟ انظر لمن يبحث عن المستحيل، ترى من العدل أن ينكره الممكن، كما قالها الشاعر أفضل:

أبحث عن الحياة فى الموت

وعن الصحة فى المرض

وعن المخرج فى المغلق

وعن الولاء فى الخائن

*

لكن حظى حظ من:

لا ينتظر خيرًا قط

أطلب المستحيل

فلا يعطوننى الممكن

ذهب اليوم التالى أنسيلمو إلى القرية، قائلاً لكاميلا إنه أثناء غيابه سيحضر لوتاريو لمراعاة شئون البيت، والأكل معها، وعليها أن تعتنى بمعاملته كما لو كان نفس شخصه هو. انهارت كاميلا بوصفها امرأة ذكية وشريفة أمام الأمر الذى تركها معه زوجها، وحذرته بأنه ليس من الطيب أن يدخل أحد البيت أثناء غيابه ليشغل مقعده على المائدة، وإذا كان يفعل ذلك لعدم ثقته فى إمكانها إدارة البيت، عليه أن يجرب هذه المرة، وسوف يرى بالتجربة كيف أنها قادرة على المهام الكبرى. أجاب أنسيلمو أن تلك هى مشيئته، وأنها ليس عليها أن تفعل أكثر من خفض الرأس وطاعته. قالت كاميلا إنها سوف تتصرف حسب إرادته، حتى لو كان ذلك ضد إرادتها. غادر أنسيلمو، وجاء لوتاريو اليوم التالى، حيث قوبل من كاميلا

بترحيب ودود وشريف، وهى لم تضع نفسها فى مكان قط يمكن لوتاريو أن يراها وحدها، حيث كانت دائمًا محاطة بخدمها وخداماتها، ولا سيما بفتاة اسمها ليونيلا، والتى كانت تحبها جدًا، حيث نشأتا منذ الطفولة معًا فى بيت أبوى كاميلا، وعندما تزوجت أنسيلمو أحضرتها معها. فى الثلاثة أيام الأولى لم يقل لها لوتاريو شيئًا، مع أنه كان يستطيع، عندما ترفع المائدة، وينصرف الخدم مسرعين لتناول طعامهم، بأمر كاميلا، وفوق ذلك أمرت ليونيلا أن تأكل قبلها، وألا تتصرف عن مصاحبتها، لكنها كما تفعل فى أمور أخرى بالسير وفق مشيئتها، فإنها فى تلك الساعات كانت مضطرة لقضائها فى مسراتها ومن ثمّ فلم تنجز مرات كثيرة أمر سيدتها، بل كانت تتركهما وحدهما كما لو كان هذا هو أمر سيدتها لكن الحضور الشريف لكاميلا، وجدية وجهها، وصرامة شخصها كانت فائقة حتى إن هذا أخرس لسان لوتاريو.

لكن نفع فضائل كاميلا الحميمة التى أصمتت لسان لوتاريو استدرار أذى للاثنين، لأن اللسان إذا كان صامتًا، يكون الفكر جاريًا مستأنفًا، وأتيح له أن يتأمل عنصرًا وراء عنصر من عناصر ذرى كمال وحسن كاميلا مما يكفى لجعل تمثال من حجر يقع فى العشق، فضلاً عن أن يكون قلبًا من لحم. ونظر لوتاريو عن فرصة ووقت للكلام معها، حين رآها جديرة بأن تكون معشوقة، وهذه الجدارة فى نفسه مضت تحطم تدريجيًا احترامه لأنسيلمو، وألف مرة أراد أن يغادر المدينة، والذهاب إلى حيث لا يراه بعدها أنسيلمو قط، ولايرى هو كاميلا، لكن منعه فرح النظر إليها. قام بجهد حتى يدمر هذا الفرح ولا يحسه وتقاتل مع نفسه بسببه حتى لا يحمله للنظر إليها، وأدان نفسه لسفالته، والمقارنة بينه وبين أنسيلمو جعلته فى كل نقطة يقف عند أن جنون أنسيلمو وثقته هى السبب وليس قلة إخلاصه، وهكذا وجد العذر أمام الناس فيما يفكر أن يعمله دون خوف من عقاب على ذنبه.

بالفعل، حسن كاميلا وكمالها معًا بجانب الفرصة التى أتاحها الزوج الجاهل بين يديه كان سببًا فى إنهاء ولاء لوتاريو فى هذه الدنيا، ودون النظر إلى أى شيء آخر سوى ما يميل به إليه سروره ومشيئته، فإنه فى نهاية ثلاثة أيام من غياب أنسيلمو، قضاها فى معركة مستمرة لمقاومة رغائبه، بدأ فى مغازلة كاميلا فى اندفاع شديد، وبعبارات غرامية حارة، جمدت الدم فى عروق كاميلا، ولم تفعل شيئًا سوى القيام من حيث كانت، ودخلت مخدعها دون أن تجيبه بكلمة، لكن لم تذبل فى نفس لوتاريو الآمال بهذا الجفاف الذى يولد دائمًا مع الحب، فقد كان هكذا جافًا من قبل مع كاميلا. لقد رأت فى لوتاريو الذى لم يمر بفكرها قط، ولم تدر ماذا تفعل بنفسها، وبدا لها أنه ليس شيئًا آمنًا ولا جيد التدبير إعطاؤها فرصة أو مكانًا ليكلمها مرة أخرى، وقررت إرسال خادم لها فى نفس هذه الليلة - وقد فعلت - مع بطاقة إلى أنسيلمو، حيث كتبت له هذه العبارات.

الفصل الرابع والثلاثون

حيث تتم مواصلة رواية الصفيق الفضولى

"هكذا كما اعتادوا القول، يبدو الجيش فى حال سيئة بدون جنراله، والقلعة بدون صاحبها، وتبدو فى حال أسوأ المرأة المتزوجة الشابة دون زوجها، عندما لا يعوق وجوده أسباب شديدة الاضطرار. إننى أجدنى فى أسوأ حال دونكم، ويستحيل علىّ جدا أن أقاسى هذا الغياب، فإذا لم تحضر فورًا، سأجدنى مضطرة للتسرية عن نفسى بالذهاب إلى بيت والدى، حتى لو تركت بيتك دون حراسة، لأنك من تركته لى - باعتبارى حارسًا للبيت - أعتقد أنه ينظر لملذاته أكثر من نظره إلى شئونك، وحيث إنك فطن ذكى فليس لى أن أقول لك ما هو أكثر، وليس من الخير فوق ذلك، أن أقول:

تسلم أنسيلمو هذا الخطاب، وفهم منه أن لوتاريو بدأ المهمة، وأن كاميلا لابد أنها أجابته بما يرجوه فيها من مقاومة، وفرحًا بهذه البشرى، أجاب عليها شفويا بألا تغادر البيت بأى حال من الأحوال، لأنه سيعود فى أقصر وقت ممكن. بقيت كاميلا متعجبة من إجابة أنسيلمو، فقد وضعتها فى اضطراب أكثر من الأول؛ لأنها لم تكن تجرؤ على البقاء فى البيت أو الذهاب إلى بيت أبيها، فإن هى بقيت فشرفها فى خطر، وإن هى ذهبت تكون قد خالفت أمر زوجها. فى النهاية عزمت على ما كان الأسوأ لها، بأن تبقى مع التصميم على عدم الهرب من حضور لوتاريو، حتى لا تعطى فرصة للقيل والقال بين خدمها، وكان يثقل عليها أنها كتبت لزوجها، خوفًا من أن يفكر أن لوتاريو قد وجد منها بعض الإغراء الذى حركه ألا يحافظ معها

على الاحترام الذى كان يدين به لها. لكنها واثقة من كمالها، وواثقة فى الله، وفى حسن طويتها، مما سوف يساعدها على المقاومة بالصمت أمام كل ما كان يود أن يقوله لها لوتاريو، دون إخطار زوجها بأكثر مما أبلغته به، حتى لا تضعه فى معركة وجهد ابتلاء؛ وفوق ذلك كانت تبحث عن التماس عذر للوتاريو، عندما يسألها زوجها عن مناسبة كتابة ما كتبت إليه به. مع هذه الأفكار الأكثر شرفًا منها فى الإصابة أو النفع، بقيت فى اليوم التالى تستمع إلى لوتاريو، الذى زاد العيار حتى إنه جعل عزم كاميلا يتزعزع، وعانى شرفها أشد العناء فى أن يهرع إلى عينيها حتى لا تظهر أى دلائل على ما أيقظه فى صدرها الانفعال العاطفى للوتاريو بجانب دموعه وعبارات غزل. لاحظ كل ذلك لوتاريو، وكان كله يشعل فيه النار. أخيرًا، رأى أنه من الضرورى تضييق الحصار على تلك القلعة فى الوقت والفرصة التى يتيحها غياب أنسيلمو، وهكذا هجم على قصده بالثناء على جمالها لأنه لاشىء أسرع فى استسلام وتليين حصون أبراج زهو الحسناوات من نفس ذلك الزهو موضوعًا على طرف لسان الثناء. بالفعل، هو بكل مسعى، فجَّر صخرة كمالها بهذه المدائح، حتى إن كاميلا لو كانت كلها من البرونز لسالت على الأرض. بكى والتمس وهادى وأثنى وأصرَّ وافتعل لوتاريو بأحاسيس كثيرة، بدلائل على كثير من الصدق، مما أودى بحرص كاميلا، وأدرك الانتصار الذى قلما خطر على باله تحقيقه، فجاءه بأكثر مما يشتهى.

واستسلمت كاميلا؛ كاميلا استسلمت. لكن، ماذا فى ذلك من الكثير، إذا كانت صداقة لوتاريو لم تبق صامدة على قدميها؟ مثال واضح على أن الشىء الوحيد الذى يهزم انفعالات الغرام هو الهرب منها، وأن أحدًا لا ينبغى أن يضع نفسه فى أحضان هذا العدو الجبار، لأنه من الضرورى وجود القوى الإلهية لهزيمة القوى الإنسانية. فقط عرفت ليونيلا ضعف سيدتها، لأن الصديقين اللدودين، والعاشقين

الجديدين لم يستطيعا ستر الأمر عنها. لم يحب لوتاريو أن يبلغ كاميلا عن حيلة أنسيلمو، حتى لا تأخذ حبه باستهانة، إذا فكرت هل يا ترى، كان دون تفكير ودون غرض سيسعى لطلب ودها.

منذ تلك اللحظة حتى مرور أيام قليلة عاد أنسيلمو إلى بيته، ولم يشرع في رؤية ما كان ينقصه، والذى كان يمتلكه أقل، ويقدره أكثر. وذهب ساعتها ليرى لوتاريو، ووجده فى بيته، واحتضنا يسأل كل منهما الآخر عن حياته أو عن موته، وقال لوتاريو له:

- الأخبار التي يمكن أن أقدمها لك، أيها الصديق أنسيلمو، أنك لديك امرأة، يمكن أن تكون بجدارة مثالاً وتاجًا لكل النساء الكاملات، كل الكلمات التي قلتها لها جعلتها تذروها الرياح، والهدايا استهانت بها، والعطايا رفضتها، ومن دموعي المفتعلة سخرت في مبالغة.

باختصار فإن كاميلا شفرة كل جمال، وهى أرشيف حيث يحفظ الشرف، ويعيش التهذيب والعفاف، وكل الفضائل التى يمكن أن تحمد ويثنى عليها فى امرأة. عد لأخذ نقودك ياصديقى، فها هى عندى دون حاجة لمسها، لأن كمال كاميلا لا يستسلم لأشياء منحطة مثل الهدايا والوعود. اسعد يا أنسيلمو، ولا تفكر فى عمل تجارب أكثر مما عملت، فها أنت دون جهد قد عبرت بحر المصاعب والشكوك التى اعتادوا ويمكنهم تصورها عن النساء، ولا ترغب فى الدخول من جديد، فى الخضم العميق لمصاعب جديدة، ولا ترغب فى عمل تجارب مع قبطان آخر لكمال وتحصين السفينة التى أعطاها لك الله من نصيبك كى تعبر بها بحر هذه الدنيا؛ فقط كن واعيا أنك الآن فى مرسى آمن، واستمسك بأمان الاعتبار الطيب، وأترك نفسك حتى يحضروا إليك كى تدفع الدين الذى لا يستطيع أن يعتذر عنه أحد.

بقى أنسيلمو فى غاية السرور من عبارات لوتاريو، وهكذا صدقها كما لـو كانت أقوال وحى إلهى، لكن مع كل هذا، رجاه ألا يترك المهمة، حتى لو كان من باب الفضول، والتسلية، مع عدم الاستزادة من الآن فصاعدا من المساعى الملحـة مثلما حدث حتى الآن، فقط هو يرغب أن يكتب لها بعض الأشعار فى التغزل بهـا تحت اسم " كلورى"، لأنه سوف يفهمها أن لوتاريو يعشق سيدة أعطاها هذا الاسم، حتى يستطيع أن يتحدث عنها دون أن يخل بما يدين لها من احترام، وإذا كـان لا يريد تجشم عبء كتابة الشعر فهو يكتبه له. قال لوتاريو:

– لن يكون ذلك ضروريا، فليست عرائس الشعر لى بهذا العداء، مع أنهـن لا يزرننى فى بعض أيام السنة، وقل لكاميلا ماقلتـه لى عـن ادعـائى حـب "كلورى" هذه، التى سأعمل لها أبيات الشعر، فإذا كانت أقل مما يـستحق الموضوع فإنها ما استطعته.

بقيا عند هذا الاتفاق، الصفيق والصديق الخائن، وعند عودة أنسيلمو إلى بيته سأل كاميلا عما كان سيدهشها ألا يسألها عنه، عندما طلب منها أن تقول لـه عـن مناسبة البطاقة التى كتبتها وأرسلتها إليه. أجابته كاميلا إنها بدا لها أن لوتاريو كان ينظر إليها أكثر جرأة وأقل حياء مما كان يفعل فى وجوده فى البيت، لكنها كانـت محبطة، ودار فى ظنها أنه محض خيال من جانبها، لأن لوتاريو كان يهرب مـن رؤيتها ومن البقاء وحيدًا معها. قال لها أنسيلمو إنها تستطيع جيدًا أن تكـون علـى يقين من شكها فيما تصورت، لأن لوتاريو يسير فى عشق فتاة رفيعة المقـام فـى المدينة، يشير إليها تحت اسم " كلورى"، وحتى إن لم يكن عاشقًا فما كان عليها أن تخاف من تغير حقيقة لوتاريو، لما بينهما من صداقة كبيـرة. ودون أن يخطرهـا لوتاريو من أن غرامياته مدعاة بمن تسمى "كلورى"، وأنه قال ذلك لأنسيلمو حتـى

يستطيع أن يشغل بعض الأوقات فى نفس التغزل بكاميلا. هى، دون شـك، كانـت ستقع فى الشبكة اليائسة للغيرة، لكن لكونها متنبهة مرت عليهـا المفاجـأة دون أن تثقل عليها.

وفى اليوم التالى، عندما كان الثلاثة على المائدة، رجا أنسيلمو لوتـاريو أن يقول شيئًا مما ألفه فى محبوبته كلورى، التى لكون كاميلا لا تعرفها، يـستطيع أن يقول عنها ما يشاء. قال لوتاريو:

- حتى لو كانت تعرفها، فلن أخبئ شيئًا؛ لأن أى محب عندما يثنى علـى سيدته بأنها جميلة، ويردف ذلك بأنها قاسية فإن لاشىء من العار يمكن أن يلحـق بمصداقيتها. لكن ليكن ما يكون، الذى أعرف قوله، إننى بالأمس عملت سونيتا من أجل جحود كلورى هذه، نظمت بهذا النظام:

فى صمت الليل عندما

الضمائر فى اللذة نُوَّمًا

تعد أوجاعى أنجمًا

وأكون فى السماء مطلاً على كلورى

وعلى الجو عندما تعرض الشمس سحرها

عند الأبواب الوردية الشرقية

بتنهدات ونبرات تطول وتقصر

وأعود للمشاجرة القديمة متجددة

ومن مقعدها المزركش، الشمس عندما

ترسل للأرض أشعتها فى استقامة

يكثر النحيب، وتتضاعف التأوهات

ويعود الليل وتعود القصة الحزينة

ودائمًا أوجد داخل ضميرى معاندًا

لسماء صماء، ولكلورى بلا إصغاء

بدت السونيتا جميلة لكاميلا، لكنها أجمل عند أنسيلمو، فقد أثنى عليها، وقال إن السيدة قاسية بشكل زائد عن الحد، حتى إنها لا تستجيب لهذه الحقائق فائقة الشفافية. وعلقت كاميلا على هذا:

– عندئذ، هل كل ما يقوله الشعراء المتيمون حقيقى؟

أجاب لوتاريو:

– بالنسبة للشعراء لا شىء حقيقى، لكن بالنسبة للمتيمين، دائمًا يقتصرون على ما هو حقيقى.

رد أنسيلمو عليه:

– لا شك فى ذلك.

كل هذا حتى يدعم، ويعطى مصداقية لمحاولة لوتاريو معها، وهى خالية الذهن عن حيلته، إذ هى بالفعل عاشقة للوتاريو. وهكذا لسرورها بأسرارها، وأكثر، عالمة أن رغباته وكتاباته تتوجه إليها، وأنها هى كلورى الحقيقية، طلبت منه إذا كان لديه سونيتا أخرى أو أشعار يذكرها، فليقلها. وأجاب:

- نعم أذكر، لكن لا أظن أنها ستكون فى جمال الأولى، أو بعبـــارة أدق أكثـــر رداءة، ويمكنكم الحكم بذلك فى سهولة؛ فاسمعوا:

أعلم أننى ميت، وإذا لم أُصدَّق

فالموت أكثر يقينًا، مثلما ... أنا

أرانى، أوه جميلتى الجحودة، ميتًا ...

تحت قدميك ... ميتًا

قبل أن أندم على عبادتك

قد يمكن أن أرانى فى إقليم النسيان

من المجد والحياة والنعيم بلا مكان

وهناك ترينك فى صدرى المفتوح

بنفس توهج جمال وجهك حين نحتوه

تلك التحفة التى أحفظها من أجل

المحنة القاسية... تهددنى وتعاندنى

والتى تتحصن فى صرامتك نفسها

آى، من ذلك الذى يبحر والسماء مظلمة

فى بحر لم يبحروا فيه من قبله... مَعْبَرٌ خطر

حيث لا يبين شمال ... ولا ميناء

أيضا امتدح هذه السونيتا أنسيلمو كما فعل مع الأولى، وبهذه الطريقة يضيف حلقة بعد حلقة يشكل بها سلسلة انتهاك شرفه ويوقعه فى الفخ، وحتى عندما ينتهك لوتاريو أكثر هذا الشرف يبلغه أنه أكثر شرفًا، وبهذا، كل الحلقات التى كانت كاميلا تهبط بها نحو مركز الاستهانة به، كان يصعد بها إلى ذروة الفضيلة والسمعة الطيبة عند زوجها. وحدث مرة أن كانت كاميلا مع وصيفتها مثلما يحدث كثيرًا أن يكونا وحدهما، قالت لها:

– صديقتى ليونيلا، إنى خجلة بأن أرانى فى وقت بهذا القصر قد وصلت إلى بخس قيمتى، حتى لم أدع لوتاريو يشترى حق الامتلاك الكامل لإرادتى بهذه السرعة بثمن عال، وأخشى أن يحكم على تسرعى أو طيشى دون أن يرى القوة التى أعطاها لى حتى لا أستطيع مقاومته.

أجابت الوصيفة ليونيلا:

– لا تألمى لذلك يا سيدتى، فليس من الأهمية أو السبب فى انتقاص التقدير تسليم ما يسلم بسرعة، إذا كان بالفعل ما يسلم بضاعة جيدة، ولذاته يعلو تقديره. واعتادوا القول إن من يسرع بالعطاء يعطى مرتين.

قالت كاميلا:

– وأيضًا اعتادوا القول إن ما يكلف قليلاً يساء تقديره.

أجابت ليونيلا:

– هذا المثل لا ينطبق عليك، لأنه طبقًا لما سمعت أن الحب أحيانًا يطير، وأحيانًا أخرى يسير، مع هذا يجرى، ومع ذاك تبطؤ حركته، ومع بعضهم يدفئ، ومع البعض الآخر يحرق، ومع أناس يجرح، ومع آخرين يقتل. فى نفس

النقطة قد يبدأ سباق رغباته، وفيها نفسها قد ينهيه ويختمه، فى الصباح يحاصر قلعة، وفى الليل ينالها وقد استسلمت، فلا توجد قوة تقاومه. وإذا كان هكذا، فممَّ تفزعين نفسك؟ وممَّ تخافين؟ إذا كان نفس الشيء لابد وقد حدث للوتاريو، الذى وقع فى الحب بفضل آلة استسلامنا، وهى غياب سيدى؟ وكان إجباريا أن ينهى خلال فترة غيابه ما كان الحب قد عزم عليه وقرره، دون إعطاء وقت للوقت، قبل عودة أنسيلمو الوشيكة، الذى بحضوره كان سيبقى العمل ناقصًا؛ لأن الحب ملك، وخير وزرائه لتنفيذ رغباته هو الفرصة. إنه يستخدم الفرصة فى كل أعماله، وخاصة فى البدايات. كل هذا أعرفه أنا جيدًا، وعن تجربة أكثر منه عن سماع، ويومًا ما سأحكى لك يا سيدتى عن تجربتى، فأنا أيضًا صبية من لحم ودم، وما كنت سيدتى كاميلا مسلمة نفسك ومنوِّلة بهذه السرعة قبل أن ترى فى عيون لوتاريو وتنهداته وعباراته ووعوده ومجاملاته كل روحه، وعلى صفحتها وفضائلها كم هو لوتاريو جدير بأن يكون محبوبًا. وإذا كان ذلك كذلك، فلا تدعى هذه الأوجاع المتوجسة الحائرة تهاجم خيالك، فقط تيقنى أن لوتاريو يقدرك بنفس القدر الذى تقدرينه، ويعيش فرحًا مشبعًا لوقوعك فى رابطة الغرام، والتى تحتضنك فى عزم وتقدير، وليس فقط متصفًا بالصفات الأربع (حكيم ووحيد وعميد وكتوم) التى يقولون إن على العاشقين أن يتصفوا بها، بل إنه يتصف بكل أبجدية الحب الطيب، وإذا لم تصدقى اسمعينى، وكيف سأقولها لك كاملة، إنه حسبما أرى بديع، تيَّاه المقام، ثرى، جميل، حكيم، خدوم، دمث، ذلول، رءوف، زميل، سيد، شاكر، صبور، ضرغام،

طيب، ظافر، غيور على شرفك، فارس، قادر، كتوم، لامع، مخلص، نبيـــل، هائم، ودود، أما الهمزة فلا تدخل فى أبجدية الحب لأنها حرف خشن(*)

ضحكت كاميلا من أبجدية وصيفتها، ورأت فيها ما هو أكثـــر عمليـــة فـــى شئون الحب عما بدر منها من قول، وهكذا اعترفت الوصيفة كاشفة لكاميلا كيـــف تعالج أمورًا غرامية مع فتى طيب الأصل من أبناء نفس المدينة، الأمر الذى عكـــر صفو كاميلا، خائفة من أن تكون قد سلكت نفس الطريق الـــذى يعـــرض شـــرفها للمجازفة، وضغطت عليها لتعرف ما إذا كانت هذه الممارسة للحـــب مـــن جانـــب الوصيفة قد تجاوزت ما ينبغى أن تكونه. هى بقليل من الحياء وكثير من الـــصفاقة أجابتها بأنها: نعم قد تجاوزت. وهذا لأن عدم حرص السيدات على شرفهن ينـــزع حياء الخادمات، اللاتى عندما يرين السيدات تزل أقدامهن، فلا يعنيهن أن يعـــرجن، بل ولا أن تعرف السيدة بهذا العرج. لم يكن أمام الوصيفة شـــىء آخـــر لتعملـــه، رجتها كاميلا ألا تقول شيئًا عن فعلها مع من تقول عنه إنه عـــشقها، وأن تعـــالج أمورها سرًا، حتى لا يصل خبرها إلى أنسيلمو أو لوتاريو. أجابت ليـــونيلا بأنهـــا هكذا سوف تكون أمورها، لكنها وفت بوعدها هذا بطريق أكد مخاوف كاميلا، حتى إنها فقدت مصداقيتها عندها، لأن ليونيلا غير الـــشريفة والجريئـــة، بعـــد أن رأت تصرف سيدتها ليس ما اعتادت عليه، تجرأت على إدخال عشيقها وإقحامـــه علـــى البيت، واثقة أن سيدتها حتى لو رأته لن تجرؤ على فضحها. وإن آثـــام الـــسيدات تنقل وراءها هذا الضرر مع أضرار أخرى، حتى إن أولئك السيدات يصرن إمـــاء عند خادماتهن أنفسهن، ويرغمن على ستر خيانتهن وسفالتهن كما حدث مع كاميلا، التى وإن كانت قد رأت مرة ومرات عشيق ليونيلا وصيفتها فى مخدعها فى عقـــر

(*) يلعب ثربانتس بالأبجدية وبالكلمات، مما يتفاخر الخدم والطبقة الشعبية به، وقد حاولت الاقتراب من لعبه.

دار كاميلا، فهى لم تجرؤ فقط على عدم توبيخها، بل أوسعت لها مكـــانًا لتخبئتـــه، وإزالة كل العقبات أمامها حتى لا يراه زوجها. ولكنها لم تستطع تجنـــب أن يـــراه لوتاريو فى إحدى المرات خارجًا عند انفلاق الفجر، الذى دون أن يعرف من كان، فكر أولاً فى أنه مجرد خيال؛ لكن عندما رآه يتحرك، ويتحدد، ويستتر فى حـــرص وحذر، تلاشت الفكرة الأولى وحلت محلها فكرة أخرى، كادت تودى بحياة الجميـــع لولا أن تداركتها كاميلا بالعلاج. ظن لوتاريو أن ذلك الرجـــل الـــذى رآه يخـــرج منتهكًا شرف بيت أنسيلمو، لم يكن قد دخله من أجل ليونيلا، ولا حتى تذكر وجود ليونيلا فى العالم، فقط اعتقد أن كاميلا بنفس الطريقة التى كانت بها ذلولة وطائشة معه، كانت كذلك مع آخر؛ وهكذا فإن مثل هذه المستجدات فى حياة المرأة الآثمـــة تجلب معها الشرور، فهى تفقد المصداقية مع من استسلمت له تحت ضغط التضرع والإغراء، حتى إنه يظن أنها تستسلم لرجال آخرين بمنتهى الـــسهولة، حتـــى إنـــه أعطى مصداقية لما يخطر على باله حول سلوكها. والظاهر أن لوتاريو قـــد كـــان ينقصة الذكاء الثاقب، وهجرت ذاكرته كل التصورات الطيبة، حتى لـــم يـــذكر ودَّ لحظة أو يتعقل فى نظره، ودون تردد، وقبل أن ينهض أنسيلمو من سريره، ذهـــب إليه نافد الصبر وأعمى، من غيظ الغيرة التى كانت تأكل فى أحـــشائه، ميتًـــا مـــن الرغبة فى الثأر من كاميلا، التى لم تسئ إليه فى شىء. قال له:

– أعلمك أنسيلمو، أننى قضيت أيامًا عديدة أتشاجر مع نفسى ذاتها، متكلفًـــا أعظم الجهد حتى لا أقول لك ما يعد إخفاؤه عنك غير ممكن ولا عادلاً أكثر من ذلك. اعلم أن قلعة كاميلا قد انتهت من الاستسلام، وأنها تحت إرادة ما أود أن أصنعه بها؛ و إذا كنت تأخرت فى إخبارك بهذه الحقيقة، فقد كـــان للتثبت بأن وحمك لاختبارها لم يكن شيئًا جادا، أو أنك افتعلته لاختبـــارى، وأيضًا للتثبت أن غرضك كان أكيدًا لمحاولة بدء الغراميات معها من طـــرفى

بتصريح منك، واعتقدت فى نفس الوقت، أنها لو كانت على ما يجب أن تكون عليه، والذى تصورناه معًا، لكانت قد أخطرتك – دون تردد– بطلبى حبها، لكن لرؤيتى أنها لم تفعل، ولمعرفتى أن وعودها لى حقيقية فى أن تتكلم معى فى حال غيبتك عن البيت من جديد فى غرفة تغيير ملابسك – وكان حقيقيًا أن كاميلا تتحدث مع لوتاريو هناك – وأود ألاتسرع بالانتقام منها، حيث إنه حتى الآن لم يرتكب الفحش إلا بالخواطر، ويمكن قبل تحويلها إلى فعل منذ الآن أن تتغير وتتحول عند كاميلا إلى ندم، وهكذا، حيث إنك اتبعت دائمًا كليًا أو جزئيًا نصائحى، فاتبع والتزم بنصيحة سأقولها لك: سوف تكتفى بما تراه يناسبك أكثر دون خداع وفى يقظة غير مرئية، ادَّعِ أنك سوف تغيب عن البيت يومين أو ثلاثة أيام، كالمعتاد فى مرات سابقة، واختبئ فى الغرفة الموعودة، فالستائر والطنافس بها قادرة على سترك فى راحة كاملة، وعندها سوف ترى بعينى رأسك، وأنا بعينى رأسى، ما توده كاميلا، وإذا كان الفحش الذى يمكن أن نخشاه ولا نتوقعه، فى صمت وكياسة وفطنة، يمكن أن تكون جلاد العدوان عليك.

داهش ومأخوذ ومتعجب صار حال أنسيلمو مستمعًا إلى عبارات لوتاريو، لأنها فاجأته باعتباره آخر ما يتوقع فى تلك اللحظة، ولأنه وثق من أن كاميلا كانت المنتصرة على محاولات سطو لوتاريو، وأنه بدأ جنىْ ثمار هذا الانتصار. صامتًا بقى برهة طويلة، خلالها كان ينظر للأرض دون أن يحرك رمشًا، وفى النهاية قال:

– لقد فعلتها لوتاريو، كما أملت من صداقتك، سوف أتبع نصيحتك فى كل شيء، وافعل ما شئت، واحفظ ذلك السر، فأنت ترى أن ذلك ما يناسب فى حالةٍ ما كانت لتخطر على بال.

وعده لوتاريو بما أراد، وعند مغادرته ندم على كل ما قاله له، عندما رأى أى حماقة ارتكب، فقد كان فى إمكانه الانتقام من كاميلا، ليس عن هذا الطريق البالغ القسوة وانعدام الشرف. مضى يلعن ذكاءه ويحتقر قراره الطائش، ولم يعرف أى وسيلة يتبع لهدم ما بنى أو يجد للأمر مخرجًا. فى النهاية اتفق مع نفسه على إخطار كاميلا بكل شىء، وكما أنه لم تنقصه الفرصة، حيث وجدها ذلك اليوم وحدها، وهى كما رأت أنها بإمكانها الحديث معه، قالت له:

- لتعلم صديقى لوتاريو، أننى أحمل ألمًا فى القلب، حتى إنه يهصرنى هصرًا، ويود أن ينفجر فى الصدر، وسيكون عجبًا ألا ينفجر، فقد بلغ عدم حياء ليونيلا أقصى المدى، حيث تخفى كل ليلة عاشقًا فى البيت، وتبقى معه حتى مطلع الفجر، على حساب مصداقيتى، ليبقى المجال فسيحًا للحكم علىَّ لمن يراه يخرج فى ساعات غير معتادة من بيتى، والذى يرهقنى أننى لا أستطيع معاقبتها أو تحديها، لكونها سكرتيرة معاملاتنا، مما كظم الكلام فى فمى حتى أكظم الكلام فى فمها، وأخاف أن ينجم عن ذلك شر مستطير.

فى البداية عندما كانت كاميلا تقول له ذلك، اعتقد لوتاريو أنها حيلة منها حتى تكذِّب أن الرجل الذى رآه يخرج كان عشيق ليونيلا، وليس عشيقها، لكنه عندما رآها تبكى وتنهار، وتطلب منه علاجًا للأمر، مضى يستوعب الحقيقة، وعندما آمن بما تقول اضطرب، وشمله الندم. لكنه مع كل هذا، قال لكاميلا ألا تألم، فسوف يرتب العلاج حتى يقضى على صفاقة ليونيلا. قال لها فى نفس الوقت، إنه بإغواء الغيرة وما تولده من غيظ عنيف، قال لأنسيلمو، وكيف تم الاتفاق على أن يختبئ بغرفة غياره للملابس ليرى كم هى قليلة الوفاء له بشكل مكشوف. طلب منها غفران هذا الجنون، والنصيحة لإمكان علاج آثاره، والخروج من هذا التيه المضطرب، الذى خلقه سوء تفكيره.

بقيت كاميلا فزعة لما قاله لها لوتاريو، وفى غضب شديد وعبارات لبقة تشاجرت معه، واستقبحت سوء ظنه، والقرار السهل والمسيء الذى اتخذه، لكن لطبيعة المرأة التى منحتها أكثر من الرجل عبقرية سريعة البديهة فى الخير والشر، (الأمر الذى ينقصها عندما تشرع عمدًا فى التفكير)، وجدت كاميلا طريقة العلاج لهذا الأمر الذى يستعصى ظاهره على العلاج، وقالت للوتاريو إن عليه فى اليوم التالى أن يخبئ أنسيلمو حيث قال لها، لأنها تفكر فى أن تخرج من اختبائه براحة، كى- من لحظتها فصاعدًا - تمكنهما من الاستمتاع باللقاء دون معكر، ودون أن تخطره كلية بتفكيرها، نبهته أن يحرص بمجرد أن يختبئ أنسيلمو، أن يكون حاضرًا عندما تناديه ليونيلا، ومهما قالت له فعليه أن يجيب كما يعن له، وكما لو لم يكن يعرف أن أنسيلمو ينصت لما يقول. عاند لوتاريو كى تقول له عن قصدها كاملا، حتى يحافظ بثقة ويقظة على قول كل ما يراه ضروريا. قالت كاميلا:

- لا يوجد بعد ما حدث ما ينبغى أن تحافظ عليه، غير أن تجيب عن كل ما سأسألك عنه. هكذا غير راغبة كاميلا فى إعطائه مسبقًا معلومات عما تفكر فى صنعه، خوفًا من ألا يتبع رأيها، الذى رأته الأصلح، متبعًا آراء أخرى قد لا تكون فى نفس الصلاحية.

بهذا انصرف لوتاريو، وفى اليوم التالى غادر أنسيلمو بحجة الذهاب إلى قرية صديقه، وعاد حالاً للاختباء، وأمكنه ذلك براحة، حيث مكنته من ذلك - فى مكر - كاميلا وليونيلا.

وخلال اختباء أنسيلمو، بقلب منخلع على قدر ما يمكن تخيله لمن ينتظر أن يرى بعينه تشريح أحشاء شرفه، وأن يرى مجمل فضائل محبوبته كاميلا على وشك الهلاك، أما كاميلا وليونيلا واثقتين يقينًا أن أنسيلمو كان مختبئًا، دخلتا الغرفة، وبمجرد أن وطأتها قدم كاميلا، أطلقت تنهيدة، وقالت:

– أى ليونيلا، يا صديقتى! أليس من الأفضل قبل أن أنفذ ما لا أحب أن تعرفيه، حتى لا تحاولى إعاقته، أن تمسكى بخنجر أنسيلمو الذى طلبته منك وتخترقى به هذا الصدر الشائن، صدرى؟ لكن، لا، لا تفعلى هذا، فلا يوجد سبب لأن أحمل جناية ذنب شخص آخر. أولاً أريد أن أعرف ماذا رأت فىَّ عيون لوتاريو الجسورة غير الشريفة من دواع لأن يكشف لى عن تلك الرغبة الدنيئة التى كشف لى عنها فى امتهان لصديقه، وانتهاك لشرفى؟ أطلى ليونيلا من النافذة، ونادى عليه؛ فإنه مما لا شك فيه، ينبغى أن يكون فى الشارع منتظرًا أن ينفذ سوء ما انتواه، لكن أولا سوف يعرف شراسة كم أنا شريفة.

أجابت ليونيلا العليمة الفطنة:

– أى سيدتى! وماذا تودين أن تفعلى بهذا الخنجر؟ هل تودين أن تنتزعى الحياة من بين ضلوعك أو من بين ضلوع لوتاريو؟ إن كلا الأمرين لابد أن يسير بين الناس نحو إتلاف شرفك وسمعتك. الأفضل أن تزيحى جانبًا هذا العدوان، ولا تسمحى لهذا الرجل الخائن بالدخول الآن لهذا البيت، ويجدنا وحيدتين. انظرى سيدتى، فنحن امرأتان ضعيفتان، وهو رجل، ومليء بالعزم على تحقيق ما يريد، وسيأتى بهذا الغرض السيئ أعمى ومنفعلاً، ولعله يفعل ما يود قبل أن يتاح لك فعل ما تودين فيحملك إلى ما هو أسوأ من فقد الحياة. كم هو شقى موقف سيدى أنسيلمو، حتى إن هذا الشر المحيق أراد نزع ستر الحياء من بيته! سيدتى، لا، لا علاج إلا أن تقتليه كما تودين أن تفعلى، لكن ماذا سنفعل به بعد موته؟

أجابت كاميلا:

– ماذا يا صديقى؟ نتركه حتى يدفنه أنسيلمو، لأنه من العدل أن ينال راحة الجهد فى وضع عاره بيديه تحت التراب. نادى عليه وأسرعى لأن كل وقت يتأخر فى أخذ الثأر الواجب ضد هذا العدو يبدو لى عدوانًا على ولائى لزوجى.

كل هذا كان يسمعه أنسيلمو، وكل كلمة كانت كاميلا تقولها مضت تغير ظنونه، لكنه عندما فهم أنها كانت عازمة على قتل لوتاريو، أراد الخروج والكشف عن نفسه، حتى لا يقع مثل هذا الشيء، لكنه أوقفته الرغبة فى أن يرى إلى أين سوف تنتهى كل تلك الشهامة، وذلك القرار الشريف، مع نية الخروج فى الوقت المناسب لإعاقته.

كل هذا أصاب كاميلا بإغماء قوى، وألقت بنفسها فوق سرير كان هناك، وبدأت ليونيلا تبكى بمرارة وتقول: آه، ما أتعسنى إذا ساء حظى وماتت بين ذراعى زهرة الشرف فى هذا العالم، وتاج النساء الأمينات، ومثال الطهر! ومضت تقول هذه العبارات وأمثالها، حتى أنْ لو سمعها أحد لظن أنها أتعس وآلم وصيفة فى الدنيا، أما سيدتها فهى بينيلوبى أخرى جديدة ومطاردة، بعد قليل أفاقت كاميلا من إغمائها، وبمجرد عودة الوعى إليها قالت:

– لماذا لا تذهبين ليونيلا، لمناداة أخلص صديق لصديق رأته الشمس أو غطاه الليل؟ أنجزى هذا، اجرى، أسرعى، تحركى، لا تطفئى نار الغضب عندى بالتأخير، وهددى بالضياع واللعنة انتقامى العادل، الذى أنتظره.

قالت ليونيلا:

– حالاً، أذهب لمناداته، لكن دعينى أولاً آخذ منك هذا الخنجر، حتى لا تفعلى شيئًا أثناء ذهابى، يجعل كل من يحبونك يبكون طول الحياة.

أجابت كاميلا:

- اذهبي مطمئنة، ليونيلا صديقتي، فلن أفعل شيئًا يكون جسورًا وساذجًا لـرد شرفى، كى لا أكون مثل لوكريشيا التى يقولون عنها إنها قتلت نفسها دون أى خطأ ارتكبته، ودون أن تقتل أولا من سبب لها محنتها. أنا سوف أموت لكن لابد أن أموت مأخوذًا ثأرى ومشفيًا غليلى ممن أعطى السبب فى هـذا الموقف لى، حتى يبكى على جرأته التى ولدت دون ذنب لى فيها.

أسرفت ليونيلا فى الرجاء قبل الخروج لمناداة لوتاريو، لكـن فـى النهايـة خرجت، وأثناء خروجها، بقيت كاميلا وحدها، تتكلم كما لو كانت تكلم نفسها:

- فليرحمنى الله! ألم يكن من الأصوب أن أودع لوتاريو، كما فعلت مرات كثيرة دون أن أضعه فى ظروف كما أفعل الآن، ولو كان الوقت الباقى حتى أبدد أوهامه التى تمكنه من النظر إلىّ نظرته إلى غير الشريفة والساقطة؟ دون شك، هذا هو الأفضل، لكن دون ثأرى مأخوذًا كيف أبقى، ودون إشفاء غليـل شرف زوجى كيف يكون، إذا تركته يعود بيدين نظيفتين وخطى مفتوحـة الطريق، للخروج من حيث دخلت سوء نواياه. فليدفع الخائن الحيـاة ثمنًـا لمحاولته المشوبة بالرغائب الشبقة، وليعلم العالم (إذا حتى وصل إلى علمه) أن كاميلا ليس فقط حافظت على وفائها لزوجها، بل أيضًا انتقمت لـه ممـن تجاسرعلى الاعتداء عليه. لكن، على كل حال، كان الأفضل إعلام أنسيلمو بكل هذا، لكننى بالفعل قد فعلت حين كتبت له فى البطاقة التى أرسلتها لـه فى القرية، وأعتقد أنه لم يهرع لعلاج الأمر الذى أشرت إليه فيها، لأنه لابد لطيبته الخالصة وثقته، لم يحب ولم يستطع أن يصدق أن صدر أكثر أصدقائه

ثباتًا يمكن أن يحمل تفكيرًا من هذا الجنس المضاد لشرفه ، ولا حتى أنا بعد ذلك صدقت، ولأيام طوال، وما كنت لأصدق مطلقًا، لولا أن سفالته وصلت إلى هذا الحد، ولولا ما أظهره من غزل مكشوف، ووعود كبار ودموع دائمة. لكن، لماذا أقول هذا لنفسي الآن؟ هل بالصدفة هذا القرار الشهم فى حاجة إلى نصح وإرشاد؟ لا، يقينا، فإلى جهنم الخونة، وإلى أحضانى الانتقام، وليدخل الزائف. تعال، اقترب، مت، الفظ آخر أنفاسك، وليحدث ما يحدث. نظيفة دخلت فى عصمة من أعطته لى السماء فقط من أجلى، ونظيفة سأخرج منها، بل أكثر سوف أخرج بحمام من دمى الطاهر والدم النجس لأكثر الصداقة زيفًا ممن رأت الصداقة فى العالم.

وأثناء قولها ذلك كانت تروح وتجيء فى الصالة بالخنجر مشرعًا فى يدها، فى خطوات قلقة وغاضبة، صانعة بعض الحركات، التى جعلتها لا تبدو إلا كمن فقد عقله، وليست تلك المرأة الرهيفة، وإنما مجرد ضالٌ يائس.

كل هذا كان ينظر إليه أنسيلمو مختبئًا وراء بعض سجاد الستائر، وقد امتلأ إعجابًا بكل هذا، وبدا له أنه سمع ورأى ما يكفى لإخماد أعظم الشكوك، وود لو أن اختبار قدوم لوتاريو لا يقع، خائفًا من أى حادث سيئ مفاجئ. وعندما كان على وشك إعلان نفسه والخروج، كى يحتضن زوجته، ويبدد أوهامها، توقف لأنه رأى ليونيلا تعود مع لوتاريو فى يدها، وهكذا عندما رأته كاميلا، صانعة على الأرض خطًا طويلاً بالخنجر، قالت له:

– لوتاريو، خذ حذرك مما أقول، إذا تجرأت على عبور هذا الخط الذى ترى، أو حتى تصل إليه، فى اللحظة التى أراك تحاوله سأجعل هذا الخنجر يخترق صدرى، وقبل أن تجيبنى بكلمات، أود أن تسمع كلماتى أولاً، وبعدها أجب

بما يعجبك. أولاً، أود لوتاريو، أن تقول لى عما إذا كنت تعرف أنسيلمو زوجى، وأى رأى لك فيه. وثانيًا،أود أن أعرف أيضًا عما إذا كنت تعرفنى. أجبنى على هذا، ولا تضطرب، ولا تفكر كثيرًا فيما يجب أن تجيب به، حيث إن ما أسألك عنه ليس صعبًا.

لم يكن لوتاريو بكل هذا الجهل، حتى لا يدرك ماذا كانت تريد أن تفعل منذ اللحظة التى قالت له فيها أن يخبئ أنسيلمو، ومن ثم فقد تناغم مع نواياها بكل لباقة، وفى الوقت المناسب، حتى تمكن الاثنان معًا أن يجعلا هذه الكذبة تمر وكأنها حقيقة مؤكدة؛ وهكذا أجاب كاميلا بهذه الطريقة:

- لم أفكر، كاميلا الجميلة، أنك قد استدعيتنى لتقولى لى أشياء خارج القصد الذى أنا هنا من أجله، إذا كنت تفعلين ذلك لتأخير نعمك الموعودة، فأخريها أبعد من ذلك؛ فكلما ازداد التعب فى سبيل السعد المرغوب اقترب أمل الحصول عليه، وأقول إنى أعرف زوجك أنسيلمو، وكلانا يعرف الآخر منذ نعومة أظفارنا، ولا أود أن أتكلم عما تعرفينه أنت أيضًا من صداقتنا، حتى لا أجعل نفسى شاهدًا على العدوان الذى يرغمنى الحب على ارتكابه ضده، عذر جبار لأخطاء كبار. وأنت أعرف، وأضعك نفس الموضع الذى يضعك هو فيه، وإذا لم يكن كذلك، ومن أجل أقل محاسن خصالك، ما سرت ضد ما يجب أن أكونه، وضد القوانين المقدسة للصداقة الحقيقية، والتى هى مكسورة ومنتهكة على يدى بسبب عدو جبار هو الحب.

أجابت كاميلا:

- إذا كنت تعترف بهذا، أيها العدو الفتاك لكل ما يستحق أن يحب عن جدارة، بأى وجه تجرؤ على الظهور أمام من تعرف أنه المرآة، حيث يرى ذلك الذى

فيه أنت يجب أن تراك، حتى ترى أن لا سبب يستعديك ضده؟ لكن، انتهى! اسقط! آى، ما أتعسنى! هل سلكت سلوكًا شائنًا؟ لا أريد أن أسميه انعـدام شرف، ولو حدث، فما تصرفى عن عزم متقن ومدبر، وإنما هو غفلة النساء أمام من يبلغ بهن حسن الظن فيهم حد التحرك دون حـذر، وإذا لم يكـن كذلك، قل لى أيها الخائن! متى استجبت لتضرعاتك بأية كلمـة أو إشـارة يمكن أن توقظ فيك بعض ظل من أمل كى أنجزك هذه الرغبات القبيحـة؟ متى كانت وعودك الكثيرة وتملقاتك الكبيرة موضع اعتقاد من جـانبى أو سماح؟ لكن حسب رأى، لا أحد يمكن أن يثابر فى محاولاته الغـرامية وقتًـا طويلاً دون أن يتغذى ببعض الأمل، وأحب أن أنسب ذنب صـفاقتك لى، لأنه بدون شك، بعض غفلتى غذت وقتًا طويلاً حرصـك علـى قـصدك، وهكذا أحب أن أعاقب نفسى، ومعاقبتى على ذنب جنيته أنت، ولأنك ترى أننى مع نفسى قد تجردت من الإنسانية، فلا يصبح ممكنًا أن أتجنب أن أكون كذلك معك، وأحببت أن أجعلك شاهدًا على التضحية، الـتى أفكـر فى تقديمها من أجل شرف زوجى المعتدَى عليه رغم أنه رجل شريف، قابل منك عدوانًا كامل التدبير الذى أمكنته حيلتك، ومنى لغفلتى التى يحتمل أن تكون قد مكنتك من سانحة لفعلك. وأعود للقول إننى لابد أن أكون قد أهملت فى سلوكى، مما ولّد فيك هذه الأفكار الضالة، وهذا ما يرهقنى أكثر، ويدفعنى لمعاقبتى بنفس يدىَّ هاتين، لأن لو عاقبنى جلاد آخر، سيصير الذنب أكثـر شيوعًا. لكن قبل أن أفعل ذلك أود أن أقتل مقتولة، وأن أحمل معى مـن لم يوشك أن يشبع رغبتى فى الانتقام الذى انتظر وأحمله، رائية هناك، حيثمـا كان، العقاب الذى تنـزله العدالة النـزيهة، وإن لم يتضاعف لمن وضعنى فى هذه الظروف اليائسة.

وعندما انتهت من نطق هذه العبارات، هاجمت بالخنجر مستلاً لوتاريو في قوة وخفة غير معقولة مع إبراز كل ما يثبت رغبتها في غرزه داخل صدره، حتى إنه صار في شك من أمر تظاهرها بين الزيف والحقيقة، إذ اضطر أن يستخدم كل براعته وقوته لتجنب أن تطعنه كاميلا. وهي التي في حيوية بالغة تكلفت هذه الأكذوبة والادعاء، وحتى تعطي التكلف لون الحقيقة، أرادت أن تطبعه بنفس دمها، لأنها عندما رأت عجزها عن طعن لوتاريو أو تكلفها العجز، قالت:

- إذن، الحظ لا يريد إشباع رغبتي العادلة كلية، وفي نفس الوقت لن يكون بهذا الجبروت معي، فجزئيا، سوف أجنبني أن أشبع رغبته.

وباذلة جهدًا لإطلاق يدها التي تحمل الخنجر، والتي كان يقبض عليها لوتاريو، سحبتها، ووجهت سن الخنجر لما أمكنها أن تجرحه منها، ليس في عمق، ثم أدخلته في الترقوة من الجهة اليسرى، بجوار الكتف، ثم تركت نفسها تسقط على الأرض كمن أغمي عليها.

وقف لوتاريو وليونيلا مشدوهين، ومنذهلين من هذا الحدث، وحتى الآن كانا يشكان في حقيقية هذا الفعل، مع رؤيتهما لكاميلا ممددة على الأرض تستحم بدمها. هرع إليها لوتاريو بسرعة كبيرة، مغمومًا مقطوع النفس، لسحب الخنجر، وليرى الجرح الصغير، مما أخرجه من الخوف الذي تملكه حتى تلك اللحظة، ومن جديد أعجب بذكاء كاميلا الجميلة وفطنتها وتفوقها في إدارة الواقعة، وحتى يكون حاضرًا بما يخصه من دور، بدأ يعلن ندبًا طويلاً وحزينًا على جثة كاميلا، كما لو كانت ميتة، مطلقًا اللعنات ليس فقط على نفسه، وإنما على من كان سببًا في وضعها في هذه المحنة. وكما كان يعرف أن صديقه أنسيلمو كان يسمعه، كان يقول أشياء، من كان يسمعها يرى أنه يندبه أكثر من كاميلا، حتى لو كانت ميتة.

أخذتها ليونيلا فى حضنها ووضعتها على حجرها، متوسلة إلى لوتاريو أن يحضر من يمكن أن يعالجها فى السر، وطالبة منه النصيحة والرأى حول ما ينبغى قوله لأنسيلمو عن جرح سيدتها هذا، فقد يعود قبل أن تشفى. قال: فلتقولا ما تريدان. فإنه لم يكن قادرًا على إعطاء نصائح مفيدة، فقط قال لها عليها أن تزيل الدم، لأنه سوف يمضى حيث لا يراه أحد من الناس. ومع مظاهر الألم البالغ ومشاعر الحزن، خرج من البيت، وعندما رأى نفسه وحيدًا أخذ يرسم ألف صليب فى الهواء صلاة وعجبًا وإعجابًا بحرفية كاميلا، والحركات والإشارات التى كانت تبدو صادقة من ليونيلا، وكان يتأمل فيما آمن به الآن من أن أنسيلمو لديه زوجة تعد "بورثيا" الثانية، وكان يرغب فى أن يراه، حتى يحتفلا معًا بالأكذوبة والحقيقة الأكثر تواريًا مما لم يمكن قط تخيله.

أزالت ليونيلا دم سيدتها، ولم يكن أكثر مما كان يكفى لإعطاء مصداقية لأكذوبتها، وغسلت الجرح بقليل من النبيذ، ربطته بأفضل ما تعرف، قائلة من العبارات أثناء علاجه ما يكفى – حتى لو لم يسبقها ما سبقها من كلمات – لإقناع أنسيلمو أنه يمتلك فى شخص كاميلا أمثولة الشرف. وقد انضافت هذه العبارات لبضع كلمات من كاميلا مطلقة على نفسها صفات الجبن وضعف الهمة، فقد كان ينقصها الوقت اللازم لكى تتخلص من حياة كانت مليئة بالهموم. وطلبت نصيحة ليونيلا عما إذا كان من الضرورى أن تقص على زوجها الحبيب هذه الواقعة، وهذه قالت لها ألا تقصها، لأنها ستضعه أمام ضرورة الثأر من لوتاريو، وهو أمر لن يمر دون مجازفة كبيرة بحياته، وأن الزوجة الصالحة مجبرة على ألا تتيح لزوجها مجالاً للمبارزة والتحدى، بل عليها أن تخلصه من كل احتمال لذلك. وأجابتها كاميلا أنها ترى فى رأيها كل الخير، وستتبعه، لكن فى جميع الأحوال من المناسب البحث عما ينبغى قوله لأنسيلمو عن سبب ذلك الجرح، الذى لا سبيل

لتجنب رؤيته له، وأجابتها ليونيلا؛ بأن تلك مشكلة لأنها غير قادرة علـــى الكـــذب، ولو مزاحًا. وعلى هذا أجابت كاميلا:

- **حقا يا أختاه، لابد أن أعرف ماذا أقول حيث إنى لا أجرؤ على صياغة أكذوبة أو تأليفها، حتى لو كان فى ذلك ضياع الحياة؟**

أجابت ليونلا:

- **لا تألمى لذلك يا سيدتى، فلسوف أفكر فيم نقول، وربما بسبب مكان الجرح يمكن إخفاؤه فلا يراه، والسماء بجلالها ســـوف تناصـــر تفكيرنـــا العـــادل والشريف، فاهدئى يا سيدتى، وهدِّئى من روعك، حتى لا يراك سيدى بهذا الروع، وما بقى فدعيه على مسئوليتى وتحت مشيئة الله، الذى ينصر كـــل النوايا الطيبة.**

كان أنسيلمو فى غاية التيقظ كى يسمع ويرى تمثيل تراجيديا موت شـــرفه، التى مثلها كل شخوصها فى عاطفة بالغة الندرة والبراعة، حتى بدا أنهم قد تحولوا إلى حقيقة ما يدعونه. تحرق شوقًا لقدوم الليل، حتى يجد فرصة للتسلل خارجا من بيته، والذهاب إلى صديقه الطيب لوتاريو حتى يراه ويتبادل التهـــانى معـــه بحـــق اللؤلؤة الثمينة التى عثر عليها فى وهم كمال زوجته. حرصت المرأتان على إعطاء الفرصة والبراح حتى يخرج، وهو لم يضع الفرصة وخرج، وذهب بعدها للبحـــث عن لوتاريو، وعندما وجده، يصعب وصف الأحضان التى أشبعه بهـــا، وكلمـــات الرضا التى قالها له، بجانب مدائحه فى كاميلا. استمع لوتاريو لكل هذا دون قـــدرة على إعطاء أية مظاهر للبهجة، فقد كان يمثل لذاكرته كم هو مخدوع صديقه، وكم هو - دون حق - يعتدى عليه، ومع أن أنسيلمو كان يرى عدم ابتهاج صديقه، فقـــد أرجع ذلك إلى أنه قد ترك كاميلا جريحة، وأنه كان سبب جرحها، وهكـــذا وبـــين

عبارات أخرى، قال له ألا يحزن بسبب ما حدث لكاميلا، لأنــه دون شــك، كــان الجرح بسيطًا، وقد اتفقت مع ليونيلا على إخفائه عنه، وأنه طبقًا لذلك فلا يوجد ما يخشاه، وإنما منذ تلك اللحظة فصاعدًا، عليه أن يتمتع ويبتهج معه، لأن براعته، وعونه قاما بتشييد أعلى بناء لسعادته التى كان يتطلع إليها، وأنه يود ألا يــسلى حياتــه بغيــر كتابة أشعار فى مدح كاميلا، حتى يخلدها فى ذاكرة القرون القادمة. أثنى لوتاريو علــى عزمه الطيب، وقال له إنه سوف يساعده فى تشييد هذا البناء الألمعى.

بهذا بقى أنسيلمو أكثر المخدوعين التذاذًا على وجه البسيطة، وحال اعتقاده أنه قد كان يستدعى المجد حين، استدعى ضياع شرفه واسمه. استقبلته كاميلا بوجه فيما يبدو كان ملتويًا، ونفس – مع ذلك – باسمة. دام هذا الخداع أيــامًا، وخــرج إلى الميدان الرحب خلال شهور الفحش الذى كان مستورًا بكثير مــن الاحتيــال، ودفع أنسيلمو حياته ثمنًا لفضوله الصفيق.

الفصل الخامس والثلاثون

عبارة عن المعركة الجسورة والهائلة التى خاضها دون كيخوتى ضد زقاق نبيذ أحمر، ووضع نهاية لرواية الفضولى الصفيق

بقى القليل لقراءته من الرواية عندما خرج سانشو ضاجًّا من مخزن التبن حيث كان ينام دون كيخوتى، وصرخ:

- أسرعوا أيها السادة! النجدة، النجدة! إن سيدى منغمس فى المعركة الأكثر تحديا خطرًا فيما رأت عينى، فقد طعن بسيفه المارد عدو السيدة الأميرة ميكو ميكونا، وبتر رأسه عن جسمه بترًا كما لو كانت رأس لفتة.

قال القسيس، تاركا قراءة ما بقى من الرواية:

- ماذا تقول يا أخى؟ هل أنت فى كامل عقلك، سانشو؟ بأى شياطين يمكن أن يكون ذلك الذى تقول، إذا كان المارد على بعد ألفى فرسخ من هنا؟

خلال ذلك سمعوا ضجة ضخمة فى غرفة المخزن، وكان دون كيخوتى يقول بأصوات عالية:

- وقف، أيها اللص السافل الشرير، هنا أنا أحاضرك ولن تنجو برأسك!

وبدا كما لو كان يوجه طعنات قاصمة للجدران، وقال سانشو:

- لا تتوقفوا للإنصات، وإنما ادخلوا لفض المعركة أو مساعدة سيدى، مع أن ذلك لن يكون ضروريًا، فدون شك المارد الآن ميت، ودافعا لله الحساب عن حياته الماضية الشريرة، فلقد رأيت الدم يسيل على الأرض، والرأس مبتورة وواقعة فى جانب، وإنها ضخمة فى حجم زق نبيذ.

قال فى هذه اللحظة صاحب النزل:

- اقتلونى إذا لم يكن دون كيخوتى أو دون شيطان قد أنفذ بعض الطعنات فى زقاق النبيذ الأحمر المملوءة، والمعلقة فوق رأس سريره، وأن النبيذ المسكوب هو ما بدا دما لهذا الرجل الطيب.

وبهذه الكلمات دخل الغرفة وكلهم وراءه، ووجدوا دون كيخوتى فى أغرب ثياب فى الدنيا، كان يرتدى قميصا من الأمام يغطيه حتى الفخذين، ومن الخلف كان أقصر بطول ستة أصابع. الرِّجلان كانتا طويلتين جدا، ونحيفتين، ومليئتين بالشعر، وليستا نظيفتين فى شىء، وفوق رأسه (بونيه) صغير أحمر ومشحَّم، وكان لصاحب النزل. وعلى ذراعه الأيسر كانت تضطرب بطانية السرير التى بينها وبين سانشو ضغائن، وكان هو يعرف جيدا السبب، وفى اليد اليمنى السيف مستلاً، يطعن به طعنات تتوالى فى كل اتجاه، متمتمًا بكلمات كما لو كان حقيقة يقاتل ماردًا، والطريف أن عينيه لم تكونا مفتوحتين، لأنه كان نائمًا يحلم بأنه فى معركة مع المارد. لقد كان الخيال مكثفًا لمغامرة فى طريقها للتمام، لقد جعله الخيال يحلم أنه وصل إلى مملكة ميكو ميكون، وأنه بالفعل بدأ مبارزة عدوه، وأنه طعن عدة طعنات فى الزقاق ظن أنها تنفذ فى جلد المارد، حتى إن الغرفة كانت غارقة فى النبيذ، وما إن رأى الفندقى ذلك حتى استشاط غضبًا، وهجم على دون كيخوتى، وبقبضة مغلقة سدد إليه عدة ضربات، وإذا لم يكن كاردينيو والقسيس قد أوقفاها

لكان أنهى حربه مع المارد، فمع كل ذلك لم يستيقظ الفارس المسكين، حتى أحضر الحلاّق قسطًا كبيرًا من الماء البارد، ونثره دفعة واحدة فوق كل جسمه، وبه استيقظ دون كيخوتى، لكن دون أن يتفق له كثيرًا لأن يلاحظ ما كان عليه حاله. دوروتيا التى رأت كم هى قصيرة ملابسه، وكم كان مهلهل الارتداء لها، لم تحب الدخول لترى معركة منقذها مع عدو مملكتها. كان سانشو يسير فى كل أنحاء الغرفة باحثًا عن رأس المارد، وكما لم يجدها قال:

– أنا أعرف أن كل ما يخص هذا البيت المسحور، ففى المرة السابقة، فى نفس المكان وجهوا إلىّ لكمات غزيرة، وضربات، دون أن أعرف من كان يوجهها، ودائمًا لا يمكن رؤية أحد؛ والآن لا تظهر هنا تلك الرأس، التى رأيتها تقطع بعينى هاتين، مع دم يسيل من الجسم كالينبوع.

قال صاحب النزل:

– أى دم وأى ينبوع يا عدو الله وقديسيه؟ ألا ترى أيها اللص أن الدم والينبوع، ليسا شيئًا آخر غير هذه الزقاق التى هى هنا ممزقة، والنبيذ الأحمر الذى يعوم فى هذا المخدع، وبه وبها أرى نفسى عائمًا، فى جهنم من مزقها.

أجاب سانشو:

– وأنا لا أعرف شيئًا وكل ما أعرفه أننى سأصير تعيسًا، وأن عدم عثورى على هذه الرأس، سوف يقضى على إقليم أحكمه، مثلما يذيب الماء الملح.

وكان سانشو مستيقظًا أسوأ من سيده نائمًا، فإلى هذا الحد كانت تسيطر عليه وعود سيده التى بذلها له. الفندقى أصابه اليأس من رباطة جأش الخادم، ومن أذى سحر السيد، وأقسم أن الأمر لن يكون مثل المرة السابقة، حيث رحلا دون أن

يدفعا، والآن لن تساوى عندنا امتيازات فروسيته شيئا، ولن نتنازل عن دفعهما، الاثنين معاً، كل الحساب حتى ثمن سدادات الزقاق الممزقة.

كان دون كيخوتى قد أمسكت به يدا القسيس، بينما كان يعتقد أنه انتهى من المغامرة، وأنه كان بين يدى الأميرة ميكو ميكونا، وركع على ركبته أمام القسيس قائلاً:

– سيدتى السامية الشهيرة صاحبة العظمة، من الآت فصاعدًا يمكنك أن تعيشى آمنة من أن يسبب لك أى أذى ذلك المخلوق شر وليد، ومن الآن أنا فى حل من الكلمة التى أعطيتها لك، لأنه بعون الله تعالى، وبفضل تلك التى من أجلها أعيش وأتنفس، قد أنجزت ما وعدت به خير إنجاز.

قال سانشو عند سماعه هذا:

– ألم أقلها أنا؟ نعم، لم أكن سكرانًا أنا، أنظروا عما إذا كان سيدى قد قام بتمليح المارد! كم هى أكيدة الثيران، وإقليمى ولقب الكونت مازال لم يمس!

من كان يملك ألا يضحك أمام ترهات الاثنين، السيد والخادم. كان الكل يضحك ما عدا صاحب النزل الذى كانت تركبه الشياطين لكن فى النهاية فعل الحلاق الكثير، وكاردينيو والقسيس، وبجهد ليس بالقليل وضعوا دون كيخوتى فى السرير، والذى راح فى النوم، مع علامات تعب عظيم. تركوه نائمًا، وخرجوا إلى باب النزل للتسرية عن سانشو بانثا، لعدم عثوره على رأس المارد، وحتى فوق ذلك، سكّنوا غضب الفندقى الذى كان يائسا من الموت المفاجىء لزقاق نبيذه، بينما زوجته تندب قائلة:

– فى لحظة وساعة شؤم دخل بيتى هذا الفارس المشّاء، الذى لم ترعينى قط كلفة مثل التى يكلفنا. فى المرة السابقة مشى ومعه تكاليف ليلة، وعشاء وسرير،

وتبن، وشعير، له ولخادمه، وجواد هزيل وحمار، قائلاً إنه فارس مغامر (شاء الله أن يسوء حظه، وحظ كل المغامرين فى العالم)، وبهذا لم يكن مضطراً لدفع شيء وإن هذا مسنون كضرائب للفروسية المشاءة؛ والآن مع احترامى له، يأتى هذا السيد الآخر، ويحمل ذيلى، وأعاده لى بكيلين من الأذى، فقد صار منتوفًا تمامًا، فلا ينفع الآن فيما يريده له زوجى، وفى النهاية وعلى رأس الأشهاد، تمزيق زقاقى وسكب نبيذى، اللهم أرنى دمه مسكوبًا، إذن، لا يفكر أحد، بحق عظام أبى وروح أمى المخلدة، إما أن يدفعوهالى مبلغًا فوق مبلغ، وإما لا أسمى نفسى كما أسمى، ولن أكون أبنه لمن أنا ابنتهم!

كانت الفندقية تردد هذ العبارات وأمثالها فى غضب عظيم، وبدعم من خادمتها الشهمة ماريتورنس. الابنة كانت صامتة وبين الحين والحين كانت تبتسم. القسيس هدّأ العاصفة، ووعد بدفع كل خسائرهم، وبأفضل ما يستطاع ابتداء من النبيذ، وانتهاء بزقاقه، وبشكل رئيسى الأضرار التى لحقت بالذيل، الذى يغلون من قيمته. دوروتيا عزت سانشو بانثا قائلة له، عندما وكلما ظهر أنه حقيقى قطع سيده لرأس المارد، ستفى بوعدها بإعطائه، عند رؤية مملكتها فى سلم، أفضل إقليم فيها مع لقب كونت. وتعزى بهذا سانشو، وأكد للأميرة أنه رأى رأس العملاق، وعليها أن تتيقن من ذلك، وآية ذلك أنها كان بها لحية تصل إلى الخصر، وأما عدم ظهورها، فلأن كل شيء يحدث فى هذا البيت يتم عبر طريق السحر، كما جرب فى مرة سابقة، حينما نزل بالمكان. قالت دوروتيا، وهى أيضًا تعتقد فى نفس الشيء، وعليه ألا يتألم، فكل شيء سيتم على خير وجه، وحسبما يفتح به فمه داعيا. وعندما انتهى القسيس من تهدئة الجميع أراد أن ينتهى من قراءة الرواية، لأنه رأى أن ما بقى كان القليل. كاردينو، ودوروتيا، وباقى الجميع رجوه أن يكملها. أما هو،

وقد رغب إرضاء الجميع، وبما به شخصيًا من رغبة لإكمالها، فقد واصل القصة التي مضت تقول:

- حدث حينذاك، لاقتناع أنسيلمو بكمال كاميلا، أن عاش حياة هانئة، وغافلة وكاميلا في تحايل، كانت تقابل لوتاريو بوجه عابس، حتى يفهم أنسيلمو إرادة لها عكس ما كانت تكنه من إرادة، وكي يدعم لوتاريو فعلها، طلب التصريح له بعدم الحضور إلى البيت، فقد كان ضيق كاميلا عند استقباله يبدو واضحًا، والمخدوع أنسيلمو قال له إن ذلك لن يكون بأي حال. وبهذه الطريقة، وبألف طريقة، كان أنسيلمو صانع انتهاك شرفه، معتقدًا أنه في غاية التمام، أما ليونيلا التي باركت سيدتها غرامياتها، فقد تجاوزت الحد، دون النظر إلى أي اعتبار آخر، وسارت وراء الحب بعنان مطلق السراح، واثقة من تغطية سيدتها لها. وكانت تعلنها، حتى لا تدع أي احتمال لتلقي التوبيخ منها. وفي النهاية، أحس في ليلة أنسيلمو خطوات في مخدع ليونيلا، وعند رغبته في الدخول ليرى من صاحبها، أحس بأنهم يدفعون الباب حتى لا يفتح، الشيء الذي قوى إرادة فتحه، وبذل قوة خارقة، حتى فتحه، ودخل الغرفة ف الوقت المناسب ليرى رجلاً يقفز من النافذة إلى الشارع، وهرع مسرعًا للحاق به أو التعرف على هويته، لكنه لم يتمكن من ذلك، لأن ليونيلا أحتضنته، قائلة له:

- اهدأ، يا سيدي، ولا تضطرب، ولا تطارد من قفز من هنا، لأنه شيء يخصني، إنه زوجي.

لم يرد أنسيلمو أن يصدقها، بل أعمى من الغضب، استخرج الخنجر، ورغب في طعنها به، قائلاً لها أن تقول الحقيقة، وإذا لم تفعل سيقتلها. وهي مع الخوف، ودون أن تعرف ماذا تقول، قالت:

– لا تقتلنى يا سيدى، فسأقول لك أشياء أكثر أهمية مما يمكنك تخيله.

قال أنسيلمو:

– قوليها بسرعة أو أنت ميتة.

قالت ليونيلا:

– الآن، وحيث إنى فى فزع واضطراب، اتركنى حتى الغد،ن وساعتها سوف تعرف منى ما يذهلك، وكن متأكدًا أن الذى قفز من النافذة هو فتى من هذه المدينة، وأعطانى كلمة أن يكون زوجى.

هدأ بهذا أنسيلمو، وأراد أن ينفذ ما طلبت، لم يفكر فى سماع شىء ضد كاميلا، فهو مقتنع وواثق من كمال فضيلتها، وهكذا خرج من المخدع، وأغلقه على ليونيلا من الخارج، وقال لها إنها لن تخرج من هناك حتى تقول له ما كان عليها قوله.

وذهب بعدها لرؤية كاميلا ليقول لها ما قاله عن كل ما حصل له مع وصيفتها، وعن كلمتها بأن تقول له أشياء جسيمة وذات أهمية. إذا كانت كاميلا قد اضطربت أم لا، لا داعى لقوله، لأن الخوف الذى نالها كان عظيمًا، ومعتقدة حقيقة، وكان عليها أن تعتقد أن ليونيلا لابد أن تقول لأنسيلمو كل ما كانت تعرفه عن قلة ولائها، حتى إنها لم تملك الصبر للانتظار عما إذا كان شكها حقا أو وهمًا، وفى نفس تلك الليلة، عندما بدا لها أنسيلمو نائمًا، جمعت أثمن حليها وبعض النقود، ودون أن يشعر بها أحد خرجت من بيتها، وذهبت إلى بيت لوتاريو الذى حكت له ما حدث، وطلبت منه أن يضع الأمر رهن المبارزة، أو أن يغيب عن الأنظار حيث يكون بمنجى من أنسيلمو، اضطراب كاميلا انتقل إلى لوتاريو، ولم يعرف أن يجيبها بكلمة، بل لم يعرف كيف يحسم الموقف، وماذا يفعل. وفى النهاية استقر

رأيه على حمل كاميلا إلى دير كانت رئيسته أختًا له. وافقت كاميلا علـــى ذلـــك، وبكل السرعة التى يتطلبها الحال حملها إلى هناك، وتركها فى الدير، وهـــو نفـــسه اختفى من المدينة، دون أن يعرف أحد عن غيابه.

وعندما استيقظ أنسيلمو دون أن يلاحظ أن كاميلا ليست بجانبه، مع الرغبـــة فى معرفة ما كان ينبغى أن تقوله له ليونيلا، ذهب حيث تركها محبوســـة، ودخـــل المخدع فلم يجد فيه ليونيلا، فقط وجد بعض الملاءات معقودة بالنافذة علامة علـــى أنها هبطت إلى الشارع. وعاد فى غاية الحزن ليقول هذا لكاميلا، ولم يجدها فـــى السرير ولا فى كل البيت، فبقى مبهوتًا. سأل خدم البيت عنها، لكن أحدا لم يستطع أن يجيبه على ما سأل. ووقعت عينه خلال بحثه عن كاميلا على صناديق حليهـــا مفتوحة وخالية من معظم حليها، ومع هذا أدرك الكارثة التى تواجهه، والتى لم تكن ليونيلا فيها سبب شقائه. هكذا كما كان حزينًا ومهمومًا، ودون أن يكمـــل ارتـــداء ملابسه ذهب إلى صديقه لوتاريو ليقص عليه تعاسته. لكن عندما لم يجده، وقال له خدمه إنه لم يبت فى البيت الليلة الماضية، وإنه عند خروجه حمل معه كل ما يملك من نقود، ظن أنه سوف يفقد عقله. وحتى ننتهى من الرواية، عند عودته إلى البيت لم يجد فيها الخدم والخادمات الذين كانوا كثرة، صارت منهم الدار خالية.

لم يعرف كيف يفكر وماذا يقول، بل ماذا يفعل؟ وشيئًا فشيئًا، عاد إليه عقله. تأمل نفسه ونظر إليها فى تلك اللحظة دون زوجة ودون صـــديق ودون خـــدم، لا ملجأ له – حسب رأيه – تحت السماء التى تظله، وفوق كل شىء دون شرف؛ لأنه فى غيبة كاميلا كان هلاك الشرف. حزم أمره فى نهاية وقت طويل، أن يذهب إلى القرية التى ذهب إليها عندما أعطى فرصة أن تأخذ هذه المأساة مجراهـــا. أغلـــق أبواب بيته، وامتطى جوادًا، وبأنفاس خامدة شرع يأخذ طريقه، ولـــم يكـــد يقطـــع نصف الطريق حتى أمضه تفكيره ورأى نفسه مجبرًا على الترجل، وقاد حـــصانه

لشجرة ربطه فيها، وفى هذه اللحظة رأى رجلاً راكبًا جوادًا، قادمًا مـــن المدينـــة، وبعد أن حياه سأله هل من أخبار جديدة فى فلورنسا؟ أجابه الرجل ابن المدينة:

– الأكثر غرابة مما سمعت فى أيام طويلة ما يقال على الملأ، من أن لوتاريو، ذلك الصديق الكبير للثرى أنسيلمو، الذى كان يعيش فى حى سان خوان، حمـــل هذه الليلة كاميلا، زوجة أنسيلمو، الذى اختفى أيضًا.

كل هذا قالته خادمة لكاميلا، وجدها الحاكم بالأمس تهبط مستقلة المـــلاءات من نوافذ بيت أنسيلمو. بالفعل، لا أعرف كيف حصل هذا الأمر بالضبط، فقط مـــا أعرفه أن كل المدينة متعبة من هذا الحدث، لأنه لم يكن ينتظر مثل هذه الفعلة مـــن صداقة عظيمة ومألوفة مثل صداقة الاثنين، ويقولون لقد كانت غامرة، حتى أطلـــق عليهما (الصديقان). قال أنسيلمو:

– هل تعرف بالصدفة الطريق الذى طرقه لوتاريو وكاميلا؟

قال ابن المدينة:

– ولا سبيل، فالحاكم بذل كل الجهود للعثور عليهما.

قال أنسيلمو:

– وداعًا يا سيدى.

أجاب ابن المدينة:

– وداعًا.

ومضى لحال سبيله.

ومع هذه الأخبار لم يصل أنسيلمو فقط إلى حدود فقدان العقل، بل فقدان الحياة. نهض بكل ما استطاع من جهد، ووصل إلى بيت صديقه، الذى لم يكن عرف بعد محنته، ووجده يصل أصفر الوجه، مستهلكا جاف الدم، فعرف أنه متعب من سوء جسيم الخطر. طلب حينها أنسيلمو، أن يحملوه إلى سرير، وأن يعدلوه حتى يستطيع الكتابة. وقد حدث، وتركوه ممددًا، فقط لأنه أراد ذلك، وفوق هذا أقفلوا عليه الباب. وعند ما رأى نفسه وحده، وبدأ يثقل شقاؤه على خياله، فبوضوح عرف أن حياته بسبيلها للانتهاء. وهكذا، رتب الأمر حتى يعرف سبب موته الغريب؛ من ثَم، بدأ يكتب، و قبل أن ينتهى، ودون أن يسجل ما أراد، انطفأت نفسه وغادرته الحياة، وهو بين يدى الألم الذى سببته له فضوليته الصفيقة. وعندما رأى سيد الدار أن الوقت تأخر، وأن أنسيلمو لم يناد عليهم، قرر الدخول ليعرف هل هو مستمر فى رغبته فى الوحدة. ووجده ممدًا وفمه إلى أسفل، ونصف جسمه على السرير، والنصف الآخر على (البوفيه)، الذى كان متكئا عليه مع ورقة مكتوبة ومفتوحة، والقلم ما زال فى يده، اقترب منه المضيف ونادى عليه أولا، ثم ربت عليه بيده فوجده لا يجيب بارد الجسم، وعلم أنه ميت، بهت واكتأب بشكل عظيم، ونادى على أهل البيت ليروا بؤس أنسليموه الذى حدث، وأخيرًا قرأ الورقة، والتى عرف أنها مكتوبة بنفس يد الميت، والتى بها هذا الكلام: " رغبة حمقاء وصفيقة سلبتنى الحياة، وإذا وصل خبر موتى إلى كاميلا، فلتعرف أننى أغفر لها، لأنها لم تكن مضطرة لعمل المعجزات، وما كنت أحتاجها أن تعملها، وعليه فأنا صانع انتهاك شرفى، ولا يوجد سبب ..."

حتى هنا كتب أنسيلمو، حيث لوحظ أن النقطة التى لم تكتمل فيها العبارة اكتمل عندها خروج الحياة من جسمه. فى اليوم التالى أخطر صديقه أقرباء أنسيلمو بموته، والذين كانوا يعرفون تعاسته من قبل، والدير الذى كانت فيه كاميلا، والتى

فى النهاية صاحبت زوجها تقريبا فى رحلته المحتومة، ليس بسبب أخبار الزوج الميت، لكن بسبب ما عرفت من أخبار الصديق الغائب. يقال، مع أنها صارت أرملة فإنها لم تحب الخروج من الدير، ولا السلوك فى سلك الراهبات، ومنذ ذلك الوقت وحتى مرور أيام طويلة، أتتها أخبار أن لوتاريو مات فى معركة خاضها فى تلك الأيام المونسنيور "لاوريك" ضد القبطان العظيم "جونثالو فرناندس دى قرطبة"، فى مملكة نابولى، حيث رست سفينة الصديق النادم (متأخرا)، وعند معرفة كاميلا بهذه الأخبار ترهبنت، وانتهت حياتها بعد ذلك بأيام قليلة، بين اليدين الصارمتين للأحزان والأشواق، تلك كانت النهاية التى طالت الجميع نتيجة فكرة مجنونة للهذيان.

قال القسيس:

– تبدو لى هذه الرواية جيدة، لكنى لا أستطيع الاقتناع، بأن هذا حقيقى. وإذا كان مصطنعا، فقد اصطنعه المؤلف بشكل سيئ، لأنه لا يمكن تخيل زوج بهذه الحماقة، يريد أن يمارس هذه التجربة الباهظة التكاليف، مثل أنسيلمو. أما إذا كانت التجربة بين عاشق وسيدة يمكن أن تكون مقنعة، لكن بين زوج وزوجته فهو شيء محال، لكن فيما يتصل بطريقة الحكى فلا تخلو من إقناع(*).

(*) نلاحظ النقد الأكليريكى لعمل أدبى فى لون من سخرية الكاتب من كل شيء فى عصره، لكن من المهم الإشارة هنا إلى أن المعركة التى مات فيها لوتاريو، هى موقعة تاريخية مشهورة وقعت عام ١٥٠٣، والذى يمكن أن يشير إلى زمن قص الرواية فى نفس الوقت بشكل غير مباشر، يشير إلى زمن قص العمل كله، والذى يجب أن يكون بعد عام ١٥٠٣ حتى عام نشره ١٦٠٣.

الفصل السادس والثلاثون

عبارة عن وقائع غريبة حدثت فى النزل

بينما هم على هذه الحال، قال الفندقى الذى كان على باب النزل:

– هذه الزمرة الجميلة من الناس القادمة، إذا نزلوا عندنا، فمرحى! مرحى!

– أى أناس هم؟

أجاب الفندقى:

– أربعة رجال يركبون الخيل على الطريقة الأندلسية، يحملون الرماح والدروع، وكلهم ملثمون سود، ومعهم امرأة ترتدى الأبيض، بكرسي هـودج، وفى نفس الوقت وجهها مغطى، وفوق ذلك صبيّان راجلان.

سأل القسيس:

– هل هم يقتربون جدا؟

أجاب صاحب النزل:

– هم بالفعل يقتربون، وعلى وشك الوصول.

عند سماع دوروتيا هذا، غطت وجهها، ودخل كاردينيو إلـى مخـدع دون كيخوتى، وتقريبًا لم يكد يحدث ذلك حتى دخل من حكى عـنهم الفنـدقى. ونـزل الأربعة من فوق الخيول فى هيئة فى غاية الرشاقة، وفى نخوة أنزلوا المرأة مـن

كرسى هودجها ممسكين بذراعها، وأجلسوها على مقعد كان عند باب المخدع الذى اختبأ فيه كاردينيو. وخلال كل ذلك الوقت لم ينزعوا عنهم لثامًا، ولا قالوا كلمة واحدة. فقط عند جلوس المرأة على المقعد أطلقت تنهيدة عميقة، وتركت ذراعيها تسقطان مثل شخص مريض، تام الإنهاك. الصبيان حملا الخيل إلى الإسطبل.

عندما رأى ذلك القسيس، راغبًا فى معرفة أى أناس هؤلاء، بهذه الثياب وبهذا الصمت، ذهب حيث يوجد الصبيان وسألهما عما يرغب معرفته، أحدهما أجابه:

- **بحق الله سيدى، أنا لا أعرف أن أقول لك أى أناس هؤلاء، فقط أعرف القول إنهم يظهرون بمظهر رفيع، ولاسيما ذلك الذى أخذ بذراع السيدة، كما رأيت، وأقول ذلك لأن الآخرين يكنون له الاحترام، ولا يفعلون شيئًا غير ما يأمر به ويوصى.**

سأل القسيس:

- **والسيدة، من هى؟**

أجاب الصبى:

- **أيضًا لا أعرف، لأننى لم أر وجهها طول الطريق، أما التنهدات، فقد سمعتها طول الطريق، مع بعض الأنين، حتى إن كل واحد منهم عند سماعها يود لو أعطاها نفسه. وليس عجيبًا ألا نعرف أكثر مما قلنا، فقد صحبناهم يومين فقط، حيث رأونا على الطريق، وأقنعونا ورجونا أن نذهب معهم حتى الأندلس، وسيدفعون لنا بسخاء نظير ذلك.**

سأل القسيس:

- **هل سمعتماهما يذكرون أسماء بعضهم؟**

أجاب الصبى:

– لا بالتأكيد، لأن الجميع يسيرون فى صمت مطبق، وهذه معجزة، فلا يسمع بينهم غير التنهدات والانتحاب الصادر عن السيدة المسكينة، مما يحرك فينا الإشفاق، ودون شك، وصل إلى اعتقادنا أنها تمضى مرغمة إلى حيث تمضى، ويمكن التنبؤ من لبسها، بأنها راهبة أو فى طريقها لتصير راهبة؛ هذا مؤكد، وربما لعدم ميلاد فكرة الترهبن بإرادتها تذهب حزينة كما هو ظاهر.

قال القسيس:

– كل شىء ممكن.

وعندما تركهما، عاد حيث كانت دوروتيا، التى عندما رأت الملثمة تتنهد، تحركت بشفقة طبيعية، واقتربت منها، وقالت لها:

– أى سوء تحسين سيدتى؟ فإذا كان شيئًا مما تقدر النساء على معالجته، فإنى أضع نفسى فى خدمتك عن طيب خاطر.

قابلت السيدة المحزونة سؤالها بالصمت، مع أن دوروتيا عادت تعرض كل لون من ألوان المساعدة، فإنها لم تخرج من صمتها، حتى اقترب الفارس الملثم (الذى قال الصبى إن الآخرين يطيعونه)، وقال لدوروتيا:

– لا تتعبى نفسك يا سيدتى بتقديم شىء لهذه المرأة، لأنها لديها عادة عدم شكر أى شىء يعمل من أجلها، ولا تحاولى أن تجيبك، إلا إذا أحببت أن تسمعى كذبة من فمها.

قالت تلك التى حتى الآن بقيت صامتة فى هذه المناسبة:

- لم أقل كذبة قط، بل لكونى صادقة، ودون مخترعات كاذبــة، أرانى الآن فى تعاسة كبيرة، وعلى كل هذا أريد منك أن تكون الــشاهد، وهـــذا يحــول صدقى المحض عندك إلى زيف وكذب.

سمع كاردينيو هذه العبارات جيدًا، وفى تمييز أحس إحساس من كـــان قريبًا جدا ممن يقولها، فقط كان يفصلهما باب مخدع دون كيخوتى؛ وهكذا كما ســمع، بصوت عال نطق:

- تعالى الله! ماذا أسمع؟ أى صوت وصل إلى مسامعى؟

أدارت تلك السيدة رأسها لهذه الصرخات، وكلها ذهول، ولأنها لا ترى مــن يصرخ بها، نهضت وذهبت لدخول المخدع، فرآهــا الفــارس، وأوقفهــا دون أن يتركها تتحرك خطوة واحدة. وهى مع الاضطراب والقلق سقط عن وجهها الخمار الحريرى الذى كان يغطيه، وانكشف حسن لا نظير له، وجه معجز مع أنه شــاحب ومنذهل، لأنها بعينيها تجولت فى كل مكان إلى حيث يبلغ بصرها وفى إلحاح كبير فبدت مثل شخص مخبول، وحركاتها هذه وما ارتسم فى عينيهــا مــلأ دوروتيــا بالإشفاق، وكل من كان يراها. كان الفارس يوقفها ممسكًا بها فى قوة من ظهرها، ولانشغاله الشديد بإيقافها، لم يستطع أن يهرع لرفع اللثام، الذى كان يتــساقط عــن وجهه، حتى إنه سقط جملة واحدة بالفعل، وعند رفع دوروتيا لعينيها، بينما الــسيدة تحتضنها، رأت المُحْتَضَنَة أن الذى سقط عنه اللثام هــو زوجهــا دون فرنانــدو، وبمجرد أن عرفته أطلقت (آى) حزينة جدا وتركت نفسها تسقط على ظهرها فـــى إغماءة، وإن لم يوجد الحلاق بجانبها ليتلقاها بين ذراعيه لــسقطت علـــى الأرض. أسرع القسيس لخلع اللثام عن وجهها، لرشه بالماء، وهكذا عرفهــا دون فرنانــدو، الذى كان مستمرا فى احتضان السيدة الأخرى، وبقى كالميت عندما رآهــا، لكــن

دون أن يفلت لوسيندا مع كل هذا، وهى من كانت تحاول الإفلات من بين ذراعيه، بينما تعرفت فى التنهد على كاردينيو، وهو تعرَّف عليها. سمع فى نفس الوقت ال (آى) التى نفثتها دوروتيا، عندما سقطت مغشيا عليها، معتقدًا أنها حبيبته لوسيندا، وعندما خرج من الغرفة منفزعًا، أول من رأى كان دون فرناندو، الذى كان يوقف لوسيندا، محتضنًا لها. وعندها، أيضًا دون فرناندو تعرف على كاردينيو، والثلاثة جميعًا، لوسيندا، وكاردينيو، ودوروتيا صاروا خرسًا، ومبهوتين، تقريبًا دون أن يعرفوا ما حدث لهم.

سكت الجميع، بينما ينظر أحدهم إلى الآخر، دوروتيا إلى دون فرناندو، ودون فرناندو إلى كاردينيو، وكاردينيو إلى لوسيندا، ولوسيندا إلى كاردينيو. لكن الذى مزق الصمت أولاً كانت لوسيندا، مخاطبة دون فرناندو بهذا الكلام:

– اتركنى، أيها السيد دون فرناندو، فى احترام لمقامكم، مادمت لا تفعل ذلك فى احترام لأى شيء آخر. دعنى أصل إلى السور الذى أنا نباته المتسلق، دعنى إلى ميولى التى لم يستطع أن يثنينى عنها إلحاحك وتهديدك ووعودك وتملقك، وتأمل إرادة السماء التى جمعتنى بزوجى رغم كل الطرق غير المطروقة التى سلكناها إلى هنا، وأنت تعرف جيدًا بألف تجربة غالية أن الشيء الوحيد الذى يمحوه من ذاكرتى هو الموت. إذن اتركنى ولن تنجح أوهامك إلا فى تحويل الحب إلى غيظ، والإرادة إلى حفيظة، حتى أقضى بها على حياتى، فربما، مع موتى يبقى مقتنعًا بالإخلاص الذى احتفظت له به فى نفسى حتى آخر لحظة من حياتى.

وخلال ذلك أفاقت دوروتيا، واستمعت كل عبارات لوسيندا، ومنها عرفت من هى، وعند رؤيتها أن دون فرناندو رغم ما سمعه مازال محتفظًا بها بين

ذراعيه، ولم يجب على ما قالته، ضاغطًا عليها بقدر ما استطاع، قامت ناهضة ثم ركعت على ركبتيها عند قدميه، مهرقة كمية كبيرة من الدموع الحسناء الحزينة وبدأت تقول:

- إذا لم يحدث يا سيدى، أن أشعة هذه الشمس المكسوفة بين يديك لم تبهر عينيك وتصعقهما، لكنت قد لاحظت أن التى تركع تحت قدميك بلا حظ حتى تريد، هى التعيسة دوروتيا. إنها هى تلك المزارعة المتواضعة التى أردت، إما بكرمك أو للذتك، أن ترفعها إلى سماء أن تستطيع أن تسمى باسمك، أنا فى انغلاقى داخل حدود الشرف، من عاشت حياة راضية، حتى جاءتها أصوات إلحاحك، وربما مشاعر حب عادلة، ففتحت أبواب صونها، وسلمتك مفاتيح حريتها، هدية مجحودة من جانبك، كما يبرهن على ذلك أن كان إجباريًا أن وجدتنى حيث تجدنى، وأنى رأيتك بالطريقة التى عليها أراك. لكن، مع كل هذا، لم ترد أن يقع فى خيالك التفكير فى أنى جئت هنا بخطوات انتهاك شرفى، لأجد فقط منك خطوات الألم ومشاعر أن أرانى منسية من جانبك. أنت أردت أن أكون لك، وأردته بطريقة، لا تدعك إلا أن تكون لى، حتى لو لم تحب الآن أن أكون لك. انظر سيدى، ربما كان تعويضًا عن الجمال والنبل أن تتركنى بهذه الإرادة التى لا نظير لها لامتلاكك. وأنت لا يمكن أن تكون ملك لوسيندا الجميلة، لأنك ملكى، وهى ليست لك، لأنها ملك كاردينيو، وسيكون أسهل لك أن تتأمل الأمر، وتقصر إرادتك على حب من تعبدك، ولا توجه خطاك لحب من لا تحبك، تاركًا من تحبك. لقد طلبت منى التفريط، ورجوتك ألا تفضّ كمالى، وأنت لا تجهل هذا الكمال، وأنت تعرف الطريقة التى بها أسلمت نفسى لكامل

إرادتك، فلا محيص لك لخداع نفسك. فإذا كان الأمر كذلك، وهو كذلك، وكنت مسيحيا ورعًا كما أنت فارس، فلماذا اللف والدوران فى تأجيل سعادتى فى النهايات مثلما لم تؤجلها فى البدايات؟ وإذا أنت لا تحبنى لكونى من أكون، وأنا زوجتك الحقيقية والأكثر شرعية، فيمكنك أن تحبنى على الأقل باعتبارى أمة عندك، وأعطنى هذا المكان، وسأكون على أى الأحوال سعيدة ومحظوظة أن أكون من ممتلكاتك. ولا تسمح بهجرى وطردى أن تصير هناك حلقات من الناس يجتمعون للتندر بشرفى المنتهك، ولا تعط شيخوخة بهذا الحزن لوالدىَّ، فهما لا يستحقان ذلك، بوصفهم أتباعًا مخلصين لأسرتك، وعلى الدوام كانوا كذلك. وإذا كان يبدو لك أنك سوف تقضى على نقاء دمك بخلطه بدمى فاعتبر أن قليلاً من النبلاء، أو لا أحد منهم، من لم يجر فى هذا الطريق، والدم الذى يؤخذ من النساء ليس مؤثرًا فى النسب العريق، وخاصة أن النبالة الحقيقية فى الفضيلة، وإذا كانت هذه تنقصك منكرًا دَيْنك العادل لى، فإننى سأبقى أكثر تميزًا فى نبالتى عن نبالتك. وفى النهاية، سيدى، أختم حديثى بقولى لك: أردت أو لم ترد، فأنا زوجتك، وشهودى هى كلماتك التى لم تكن، وما كان يجب أن تكون، كاذبة، وإذا كنت تعتد بما تنتقصنى به، فتوقيعك الذى ارتكبت سيكون الشاهد، والسماء شاهد، كما سميتها باعتبارها شاهدًا على ما وعدتنى، وإذا كان كل ذلك لا يكفى، فيكفى ضميرك الذى سيصرخ فى وسط بهجتك فيك، ليعود بك إلى ما ذكرته من حقيقة، ويفسد أفضل مسراتك وأفراحك.

قالت المحزونة دوروتيا هذه العبارات وغيرها من العبارات، مع كثير من المشاعر والدموع، حتى إن نفس من كانوا فى صحبة دون فرناندو، وصحبتها

صاحبوها فيها. استمع إليها دون فرناندو دون أن يجيبها بكلمة حتى أنهت كلماتها لتبدأ نحيبًا وتنهدات، حتى إنه سيكون قلبًا من البرونز الذى لا يحرق لعلامات كل هذا الألم. كانت لوسيندا تنظر إليهما، ولم يكن حزنها لأحزانها أقل من إعجابها بحسنها وذكائها، مع أنها كانت تود الاقتراب منها لتقول لها بعض كلمات المواساة، لم تتركها ذراعًا دون فرناندو، اللتان كانتا تقبضان عليها وهذا، وقد امتلأ بالاضطراب والفزع، فتح ذراعيه وترك لوسيندا حرة، فى آخر فضاء متطاول من الوقت، خلاله كان ينظر إلى دوروتيا فى انتباه، وقال:

– لقد انتصرت، يادوروتيا الجميلة، لقد انتصرت؛ لأنه ليس ممكنًا أن أمتلك الشجاعة لإنكار كل هذه الحقائق معًا.

ومع إغماء لوسيندا، عندما تركها دون فرناندو، كانت ستقع على الأرض، لكن وجود كاردينيو بالقرب، حيث كان يقف وراء ظهر دون فرناندو حتى لا يعرفه، حال دون ذلك عندما هرع لنجدتها متلقيًا لها بين ذراعيه، مع خوفه الشامل من المغامرة إلى حد المجازفة بكل شىء، وقال لها:

– إذا كانت السماء الرحيمة تفضل وتحب لك بعض الراحة، يا سيدتى الجميلة، الوفية الثابتة على المبدأ، فلن تجدى تلك الراحة أكثر أمنًا واطمئنانًا فى أى مكان آخر غير هاتين الذراعين االلتين تستقبلانك كما كانتا تفعلان فى الزمن الذى كنت أستطيع أن أناديك بسيدة كاردينيو.

مع هذه الكلمات حملقت لوسيندا فى وجه كاردينيو، وبدأت تتعرف عليه، أولاً بالصوت مع تصور شخص آخر غير الذى تراه، دون خبل أو عدم تمييز لقدر الآخرين، ثم اندفع ذراعاها للتعلق بعنقه ولامس وجهها وجهه، وقالت له:

- أنت نعم، أنت سيدى، والمالك الحقيقى لأسيرتكم، ولو حتى حال دون ذلك الحظ المعاكس، أو تهديد حياتى، التى هى تتغذى وتقوم بحياتك.

كان مشهدًا غريبًا فى عين دون فرناندو، وفى عيون كل المحيطين، المتعجبين من هذا الحدث الذى لم تره عين من قبل، وبدا لدوروتيا أن دون فرناندو قد تغير منه لون الوجه، وصدرت منه إشارة رغبة فى الثأر من كاردينيو، حيث رأته يحرك يده نحو استلال السيف، وبمجرد أن رأت ذلك، وبسرعة غير مشهودة، احتضنته عند ركبتيه مقبلة لهما، ضاغطة عليها، حتى لا تدعه يتحرك، ودون أن توقف دموعها لحظة، مضت تقول له:

- ماذا تفكر فى عمله، يا من لى الملجأ الأخير فى هذه اللحظة الحرجة غير المتوقعة؟ ها أنت تجد تحت قدميك زوجتك، والتى تريدها أن تكون زوجة لك، هى الآن فى أحضان زوجها. وانظر هل من الخير لك، أو من الممكن أن تفصل ما وصلته السماء، وأن تتخذ نصفك الآخر من وضعت فى سبيلك كل العقبات، واثقة من حقيقتها وتصميمها، وأمام عينيك عيونها تستحم بخمر عشقى من وجه زوجها الحقيقى وصدره؟ فبحق من هو الله، وبحق من أنت، أتوسل إليك ألا يزيد إحباطك غضبك، بل على العكس يخفضه، إلى حد أن تسمح فى هدوء وسكينة لهذين العاشقين أن يعيشا حياتهما كل الوقت الذى تخوله لهما السماء دون إعاقة من جانبك، وهكذا تبرز كرم صدرك النبيل والعظيم، وسوف يرى العالم أنك تملك من قوة العقل، أكثر مما تملك من غضب الشهوة.

بينما كانت دوروتيا تقول هذا الكلام، لم ينزل كاردينيو عينيه عن دون فرناندو، فمع وجود لوسيندا بين ذراعيه، عزم على أن يدافع عن نفسه بمجرد أن

يرى أى حركة ضده، وأن يهاجم بأفضل ما يستطيع كل من يظهرون إلحاق الأذى به، حتى لو كلفه ذلك الحياة، وفى هذه اللحظة هب أصدقاء دون فرناندو، والقسيس والحلاق، وكل من كانوا حاضرين دون أن ينقص الطيب سانشو بانثا، والكل كـان يحيط بدون فرناندو، متوسلين إليه أن يرحم دموع دوروتيا، وحيث إن عباراتهـا – كما كانوا يعتقدون – حقيقية، فعليه ألا يخذلها فى آمالها العادلة، وفى الاعتبار من كيف جمعتهم السماء فى مكان لم يصل إليه الظن قط، وأعلن القسيس، الموت وحده القادر على فصل لوسيندا عن كاردينيو، حتى لو حالت بينهما أسنة السيوف، فلـن تؤدى إلا إلى موتهما ميتة سعيدة، ومن حسن الفطن، فى العلاقات التـى لا عـلاج لفصمها، أن يجاهد الإنسان نفسه وينتصر عليها، وأن يظهر صدرًا متسعًا يعطـى بمحض إرادته لهما حق الاستمتاع بما خولته لهما السماء، وأخيرًا عليه أن يغمـس عينيه فى جمال دوروتيا، ليكشف أنهن قليلات وربما لا توجد من تساويها حـسنًا، مع تميزها فوق ذلك بضمها التواضع بجانب الحسن، مع كل هذا الحب الذى تكنـه له، وخاصة تقديرها له باعتباره مسيحيًا ورعًا وبوصفه فارسًا، وليس فى مكنته أن يفعل شيئًا غير إنجاز كلمته، وعند إنجازها يكون قد وفى بحق الله، وأرضى الناس ذات الرهافة والكياسة، الذين يعرفون أن الجمال له حق النقض والاستئناف، حتـى لو وجد فى ذات متواضعة، لاسيما إذا انضم إليه الشرف، فهو قادر على أن ينهض بصاحبه ويساويه بأية نبالة أو سمو، دون أن يلحظ فيه أى نقص من هو نبيل وسام بنفسه، وعندما يتم تحقيق القوانين العارمة للذة، دون أن يخترمها إثم، فـلا حـرج على من يسير وراءها.

بالفعل، هذه العبارات وغيرها، وما أضافه الآخرون من أمثاله دون ملـل، ألانت الصدر الشجاع لدون فرناندو (فى النهاية هو يتغذى من دم لامـع)، وتـرك نفسه ينهزم أمام الحقيقة، التى لم يكن قادرًا على إنكارها حتى لو أحـب، والـشاهد

على استسلامه وخضوعه للرأى الصائب الذى عرض عليه، هو أنه هبط واحتضن دوروتيا، قائلاً.

- انهضى، سيدتى، فليس من العدل أن تركع عند قدمى من أضعها فى القلب، وإذا كنت حتى الآن لم أعط دلائل على ما أقول، فربما كانت إرادة السماء، ولرؤيتى الوفاء الذى به تحبيننى، كى أعرف تقديرك بما تستحقين. وما أرجوه هو ألا تلومى سوء فعلى أو غفلتى الشديدة، فقد كانت نفس الدواعى والقوى التى حركتنى لأجعلك زوجتى، وهى نفسها التى حالت بينى وبين محاولة أن أصير زوجك. وحتى تتأكدى من أن هذا حق، التفتى وانظرى السعادة فى عيون لوسيندا، وفى هذا عذر عن كل أخطائى، فهى قد وجدت وأدركت كل ما كانت تتوق إليه، وأنا وجدت فيك ما يحقق ذاتى، فلتحيا هى راضية زمنًا طويلاً وسعيدًا مع كاردينيو زوجها، وسأدعو الله أن يدعنى مثلهما أحيا مع دوروتيا زوجتى.

وعندما قال ذلك، عاد لاحتضانها ومسح وجهه بوجهها، فى شعور ملىء بالحنان، وقد صحبته دموع تكشف عن مدى حبه وندمه، ما لم تفعله به دموع لوسيندا وكاردينيو، حتى إن كل الحاضرين تقريبًا، منهم من يبكى لفرط سروره الشخصى، ومنهم من يبكى لسرور الآخرين، حتى إن المنظر بدا كما لو كان حدثًا جللاً وحزينًا قد أصاب الجميع، فحتى سانشو بانثا كان يبكى، مع أنه فيما بعد صرح بأنه لم يكن يبكى إلا لكون دوروتيا لم تكن الملكة ميكو ميكونا كما كان يظن، منتظرًا منها كثيرًا من الإحسان والنعم. وقد دام بجانب النحيب العجب عند الجميع، وخلال ذلك، ركع كاردينيو ولوسيندا بين يدى دون فرناندو، شاكرين له ما أنعم به عليهما، بهذه العبارات المهذبة، حتى إن دون فرناندو لم يعرف كيف يجيبهما، وهكذا أنهضهما واحتضنهما مع الإعراب عن حبه ورقته.

عندها سأل دوروتيا؛ كيف وصلت إلى ذلك المكان، البعيد عن بيتها كل البعد، وحكت هي له بعبارات مختصرة وذكية، كل ما سبق، وحكته لكاردينيو، وقد سرَّت حكايتها دون فرناندو وكل الحضور، فودوا لو أطنبت في الحكاية وقتًا أطول، مما يصور درجة التشويق الذى كانت تقص به دوروتيا محنتها. وعند انتهائها حكى دون فرناندو ما حدث له في المدينة، حين وجد الورقة في حجر لوسيندا، حيث كانت تعلن فيها أنها زوجة كاردينيو، وأنها لا تستطيع أن تكون زوجة له. قال دون فرناندو إنه أراد قتلها، وكان سيفعل ما لم يحل بينه وبين ذلك والدها، وهكذا خرج من بيتها غاضبًا مرتبكًا، مع العزم أن ينتقم في هدوء وراحة، وقد عرف اليوم التالى باختفاء لوسيندا، دون أن يعرف أحد إلى أين توجهت هاجرة بيت أبويها. وللاختصار، علم بعد عدة أشهر عن وجودها في دير، مع قرار بأن تبقى هناك طول الحياة، ما دامت لا تستطيع أن تمضيها مع كاردينيو، وهكذا عندما عرف بذلك، اختار هؤلاء الفرسان الثلاثة لصحبته، وراح إلى مكان الدير، ولم يحب أن يتكلم معها، حتى لا يزيدوا الحراسة على الدير عند معرفتهم بوجوده هناك، وهكذا انتظر طوال اليوم حتى تم فتح البوابة، فترك فارسين في حراسة الباب، ودخل مع آخر للبحث عن لوسيندا، حيث وجدها في مكان عزلة الراهبات تتكلم مع راهبة أخرى، فاختطفها في سرعة لم تتح أى رد فعل مضاد، وحملوها إلى مكان للراحة من هذه العملية، التي ما كان من الممكن النجاح فيها لولا انعزال الدير وبعده عن القرية.

وهكذا عندما رأت لوسيندا نفسها تحت رحمته فقدت الوعى، وعندما أفاقت لم تفعل شيئًا سوى البكاء والتنهيد، دون نطق كلمة واحدة، وفي هذا الصمت والدموع وصلوا إلى ذلك النزل، والذى كان بالنسبة له مثل الوصول إلى السماء، حيث زالت كل تعاسات الأرض ووصلت إلى نهايتها.

الفصل السابع والثلاثون
حيث تتم مواصلة حكاية ولية العهد
الأميرة ميكوميكونا مع حكايات أخرى ظريفة

كان سانشو ينصت لكل هذا والألم يعتصر نفسه، فقد كانت كل الآمال فـى ألقاب النبالة والحكم تتلاشى أمامه وتتحول إلى دخان، وأن الأميرة الجميلة ميكـو ميكونا، تحولت إلى دوروتيا والمارد إلى دون فرناندو، وسيده نائم طليـق النـوم، غافل تمامًا عما يحدث. ولم تستطع دوروتيا أن تصدق ما حدث لها مـن سـعادة، ومثلها فى ذلك كاردينيو ولوسيندا، أما دون فرناندو فقد شكر السماء على ما أنعمت به عليه من إخراجه من هذا التيه المتشابك، حيث كان على وشك أن يفقد الـروح والمصداقية، وفى النهاية كل من كانوا فى النزل أصابهم السرور لهذا الحدث الذى وضعه فى مكانه الدقيق القسيس بفطنته وذكائه، وهنأ الجميع بعضه بعـضًا، لكـن أكثر السعداء كانت زوجة الفندقي بوعد كاردينيو والقسيس، بأن يـدفعا لهـا كـل الأضرار والخسائر التى وقعت لها بـسبب دون كيخـوتى، فقـط كـان سانـشو المستضعف والتعيس والحزين، وفى هذه الأحوال دخل علـى سـيده فـى هيئـة سوداوية، وكان هذا لم يكد يستيقظ من نومه، وقال له:

- يطيب لى أن أقول لفخامتكم، سيدى صاحب الصورة الحزينة، أن تنام ما شاء الله لك أن تنام، دون أن تحرص على قتل أى مارد، أو إعـادة المملكـة إلى أميرتها، فكل شيء تم إنجازه، واختتامه.

أجاب دون كيخوتى:

- **هذا ما أعتقده تمامًا، لأنى خضت معركة هائلة ضارية هى الأخطر فى كل المعارك التى مرت بحياتى، أما الخصم، فيا لله! فقد أسقطت رأسه على الأرض، وكان الدم الذى يتدفق منها غزيرًا، حتى إن نهيرات صغيرة كانت تجرى على الأرض، كما لو كانت من مياه.**

أجاب سانشو:

- **كما لو كانت من نبيذ أحمر، هذا ما يستطيع فخامتك قوله لتكون أصدق، لأننى أحب أن تعرف فخامتكم، إذا لم تكن تعرف حتى الآن، أن المارد الميت هو زق نبيذ أحمر ممزق، أما الدم، فهو ستة أكيال من النبيذ الأحمر كان مخزونًا داخل بطنه، أما الرأس المقطوعة فهى العاهرة التى ولدتنى، وليحمل كل شىء الشيطان وليذهب له.**

أجاب دون كيخوتى:

- **ماذا تقول أيها المجنون؟ هل أنت فى عقلك؟**

قال سانشو:

- **انهض فخامتكم، وانظر الذكرى الطيبة التى تركتها للنزل، وما ترتب عليها من تعويضات علينا أن ندفعها، كما سوف ترى الملكة، وقد انقلبت إلى سيدة عادية، اسمها دوروتيا، بقصة وأحداث أخرى لو سمعتها سوف تثير فيك الدهشة.**

رد دون كيخوتى:

- **لن يثير هذا عجبى فى شىء؛ لأنك إذا كنت تتذكر جيدًا ما قلته لك فى المرة السابقة التى كنا فيها هنا، أن كل شىء بهذا المكان مسحور، ولن يكون كثيرًا أن يحدث الآن نفس الشىء.**

أجاب سانشو:

– كنت سأعتقد فى كل هذا، لو كان تقاذفى بالبطانية فى الهواء يدخل ضمن هذا السحر، لكنه لم يكن كذلك، وإنما هو حقيقى وواقعى، ولقد رأيت الفندقى نفسه الموجود هنا اليوم، وقد أخذ بأحد أطراف البطانية، وكان يدفعنى نحو السماء، فى كبير استملاح وتظرف، ومع ضحك كثير يتعالى معى كلما قذفونى، وقد رأيته يتدخل مع الآخرين متعرفًا على أشخاصهم. والذى أعتقده، مع أننى رجل بسيط ومتواضع أنه لا يوجد أى سحر، فقط ضرب وطحن كبير، وحظ سوء كثير.

قال دون كيخوتى:

– والآن جميل، سوف يعوضك الله، أعطنى ملابسى، ودعنى أخرج، فإننى أحب رؤية الأحداث والتحولات التى تتحدث عنها.

ساعده سانشو على ارتداء ملابسه، وأثناء ذلك كان القسيس قد انتهى من حكاية جنون دون كيخوتى إلى دون فرناندو وصحبته، وعن الحيلة التى استخدموها لإخراجه من الجبل. مسكين، حيث كان يتصور أنه هناك بسبب انشقاق سيدنه عليه. حكى لهم تقريبًا كل الحكايات التى حكاها لهم سانشو عن مغامراته، ولم يكن بسبب القليل ضحكهم وعجبهم، لما بدا لهم من اتفاق مع رأى الجميع، بأنه نوع غريب من الجنون، بل هو الأغرب بين أنواع التفكير الهاذى. قال القسيس أكثر:

– إن الجديد الطيب الذى وقع للسيدة دوروتيا، يمكن أن يحول بينهم وبين الاستمرار فى حيلتهم، وأصبح من الضرورى اختراع شىء، أو وجود سبيل آخر لحمله إلى قريته.

عرض كاردينيو أن يواصل ما بدأ، وأن تقوم لوسيندا بتمثيل دور دوروتيا.

قال دون فرناندو:

– لا، لا ينبغى أن يكون كذلك؛ أحب أن تواصل دوروتيا خطتها، بفرض أن القرية ليست شديدة البعد عن هنا، ولسرورى بمحاولة علاجه.

– ليست أبعد من يومين سفرًا من هنا.

– حتى لو كانت أبعد، فإنى أرحب أن أسير إليها، للمشاركة فى هذا العمل الطيب.

خرج دون كيخوتى مسلحًا بكل عدته وعتاده، بخوذة ممبرينو على رأسه مع أنها منبعجة، وبالترس فى حضنه، وجذع الشجرة أو رمحه الطويل قريبًا من الترس. بهت دون فرناندو ومن معه من هيئة دون كيخوتى، وقد رأوا وجهه على بعد نصف فرسخ جافًا أصفر، كذلك من تنافر أسلحته، ورصانة مشيته. شملهم الصمت ليروا ماذا سوف يقول، لقد نظر فى جدية إلى دوروتيا الجميلة، واستقرت نظرته عليها، وقال:

– قد أعلمت، سيدتى الجميلة، من خادمى هذا، أن عظمتك قد تم تصفيتها، وأن كينونتك قد تم فكُّها، لأنك من ملكة، وسيدة عظيمة، وهو ما تعودت أن تكونى عليه، قد عدت إلى فتاة عادية. إذا كان ذلك بأوامر الملك نيجرومانتى والدك، لخوفه ألا أقدم لك المعونة الضرورية والواجبة، أقول إنه لم يعرف، ولا يعرف "عن الصلاة الوسطى" وأنه لم يكن منغمسًا فى التواريخ الفروسية، وإذا كان قد مرَّ بها جميعًا، وقرأها فى يقظة كما فعلت أنا، ليعرف أن فرسانًا لهم شهرة أقل من شهرتى، قد تجاوزوا صعوبات فى كل خطوة، مزيلين لها من طريقهم، وليس كثيرًا قتل مارد مهما تغطرس، ومنذ ساعات

قليلة رأيت نفسى مع المارد، و... أحب الصمت حتى لا يقولوا لى إنى أكذب، لكن الزمن يكشف كل شيء، وسيقول كلمته عندما نكون يائسين من سماعها.

– قد رأيت نفسك مع زقين؛ وليس مع المارد.

قال ذلك فى هذه اللحظة الفندقى مقاطعًا دون كيخوتى. وعند سماعه أمره دون فرناندو أن يصمت، وألا يقاطع كلام دون كيخوتى بأى شكل من الأشكال، وواصل دون كيخوتى القول:

– أقول، فى النهاية، يا سيدتى السامية المحرومة من تقلد عرشها، إذا كان والدك قد غير شكلك وكيانك للسبب الذى ذكرت، فلا تعطيه مصداقية؛ لأنه لا يوجد خطر فى هذا العالم دون أن يفتح سيفى عبره طريقًا، لأنه بإلقائى رأس عدوك على الأرض، سوف أضع التاج على رأسك خلال أيام قليلة.

لم يضف دون كيخوتى شيئًا بعد ذلك، وانتظر إجابة الأميرة، والتى عرفت عزم دون فرناندو فى الاستمرار فى الخدعة حتى حمله إلى قريته، فأجابته فى سمو وجدية، قائلة:

– مهما كان من قال لك أيها الفارس الشجاع ذو الوجه الحزين إننى تغيرت وقايضت كينونتى بكينونة أخرى، لم يقل لكم الصدق، فأنا اليوم نفس من كانت أمس. وحقيقة هناك بعض التغير الذى أحدثوه لى مع بعض وقائع الحظ الطيب التى وقعت لى، بأفضل من استطاعتى على التمنى، لكن ليس بسبب ذلك صرت شيئًا غير ما كنته من قبل، من نفس الظن الحسن فى شجاعة ذراعكم القوية، التى لا تهزم، وساندنى دائمًا. وهكذا يا سيدى، فإن

كرمكم أعاد الشرف للأب الذى أنجبنى، وخذه فى اعتبارك بوصفك رجلاً ذكيا وعليمًا، فبعلمه وجد طريقًا سهلاً وحقيقيًا لعلاج بؤسى وتعاستى، فأنا أعتقد أنه بدونك، سيدى، ما كنت قد حصلت على السعادة التى حصلت عليها، وبهذا أقول حقيقة كبرى، كل من الحضور هنا عليها شهود. والذى بقى هو أن نضع أنفسنا غدًا فى الطريق، لأن اليوم قد تأخر، وليس من السهل السفر طويلاً، وما هو غير ذلك من الحدث الطيب الذى انتظر، أتركه لسعة صدرك.

قالت هذا دوروتيا الفطنة، وعند سماع دون كيخوتى له، استدار إلى سانشو، وبمظاهر غضب كبير قال له:

- والآن أقول لك أيها السانشويلو(*)، إنك أكبر أراذل إسبانيا. قل لى أيها اللص الضائع، ألم تنته من قولك لى إن الأميرة تحولت إلى فتاة عادية اسمها دوروتيا، وأن الرأس الذى أظن أننى قطعته للمارد كانت العاهرة التى ولدتك، مع ترهات كثيرة وضعتنى فى أكبر حيرة مرت بى فى كل أيام حياتى؟ أقسم - ونظر نحو السماء، وضم أسنانه - أننى على وشك أن أنزل بك أذى، يضع الملح فى كل أم رأس كل خادم حامل للتروس كاذب، قد وجد فى خدمة الفرسان المشائين من الآن ولنهاية العالم.

أجاب سانشو:

- فلتهدأ فخامتك، سيدى، ربما أكون قد خدعت بأمر تحول الأميرة ميكوميكونا، لكن فيما يتعلق برأس المارد، أو على الأقل تمزيق الزقاق، وكون النبيذ الأحمر هو الدم، فأنا لم أخدع، وحق الله، لأن الزقاق هناك عند

(*) تصغير للاحتقار.

رأس سريرك مليئة بالجروح، والنبيذ الأحمر حول المخدع إلى بحيرة، وإذا لم يكن كذلك، فالماء يكذّب الغطاس، وأعنى بذلك أن تطلب من الفندقى حساب الخسائر. وفيما يتعلق بما عدا ذلك، أن السيدة الملكة مازالت كما كانت فهو أمر يبهجنى من أعماق الروح، لأننى سأنال نصيبى مثل كل ابن فى الجيرة.

قال دون كيخوتى:

- الآن أقول لك سانشو إنك أحمق، وعفوًا، فهذا يكفى.

قال دون فرناندو:

- كفى، ولا كلام حول ذلك أكثر من هذا، فالسيدة الأميرة تقول إننا سنمشى غدًا، لأن الوقت تأخر اليوم، فليكن الأمر كذلك، وهذه الليلة يمكن أن نقضيها فى سمر لذيذ حتى يوم غد، حيث نصحب جميعا السيد دون كيخوتى، لأننا نود أن نكون شهودًا على أمجاد الشجاعة التى لم يسمع بمثلها، والتى يقوم بها خلال مجرى هذه المهمة الكبيرة التى يحملها على كاهله.

قال دون كيخوتى:

- أنا الذى يجب أن يكون فى صحبتكم وخدمتكم، وأشكر الفضل الذى به تسبغونى، والرأى الطيب الذى ترونه عنى، مما يجعلنى أحاول أن يخرج إلى حيز الحقيقة، ولو كلفنى حياتى، بل لو كلفنى أكثر من حياتى.

كلمات كثيرة ومؤانسات عديدة ومجاملات جرت بين دون فرناندو ودون كيخوتى، لكن فرض الصمت على الجميع دخول مسافر جديد إلى النزل فى تلك

اللحظة، والذى تنبئ ثيابه عن مظهر مسيحى وشيك الرجوع من أرض العرب؛ لأنه كان يرتدى سترة عسكرية من نسيج أزرق، قصيرة الذيل، بأكمام إلى نصف الذراع، وبدون ياقة، والسراويل أيضًا كانت من تيل أزرق، مع "بونيه" من نفس اللون على رأسه، ومرتديًا حذاء عربيا تمرى اللون، ويحمل خنجرًا موريسيكيا فى حمالة عربية التصميم من الجلد تعبر صدره من كتفه، ودخلت وراءه امرأة ترتدى ملابس موريسكية، ووجهها مغطى بخمار يتدلى من الرأس، وفوقه بونيه من الحرير المشجَّر، وتلتف بملاءة عربية، تغطيها من الكتف إلى القدمين. وكان الرجل فى هيئة قوية ومحببة، وعمره تجاوز الأربعين بقليل، أسمر الوجه قليلاً، طويل الشارب، مهذب اللحية، باختصار فى وضعه وملبسه يوحى بشخص رفيع المستوى، ذى حسب ونسب.

طلب عند دخوله غرفة، وعندما ذكروا له أن النزل ليس به غرف، قابل هذه الإجابه بشيء من الألم، واقترب مما كانت تبدو عربية فى ملابسها، وأنزلها بين ذراعيه. لوسيندا ودوروتيا وزوجة الفندقى وابنتها وماريتورنس، جذبهن هذا المشهد الجديد عليهن، فلم يرين قط رداء عربيا، فالتففن حول العربية، ودوروتيا التى هى دائمًا مجاملة ومهذبة فى كياسة، رأت أنها أخذت على خاطرها، مثلها مثل من يحملها، لنقص الغرف، قالت لها:

- لا تحزنى كثيرًا سيدتى، لانعدام وسائل الراحة المرفهة، فهذا من خصائص كل نزل، لكن مع ذلك إذا أعجبك قضاء الليلة معنا (مشيرة إلى لوسيندا وهى)، وإلا فربما أثناء هذا الطريق تجدون فنادق ليست بهذا القدر من عدم الراحة.

لم تجب بشيء على هذا الملثمة، ولم تفعل شيئًا غير النهوض من حيث كانت جالسة، والانحناء في إشارة للشكر. لصمتها، تصوروا، أنها لابد عربية لا تجيد اللغة الإسبانية. وصل هنا الأسير، وقد رأى إحاطة السيدات بمن أحضرها معه دون أن تجيب عليهم إلا بقدر ما فهموه من حركتها، فقال:

– سيداتي، هذه الفتاة لا تكاد تفهم لغتي، ولا تعرف أي لغة أخرى غير لغة أرضها، ولهذا ما كان ينبغي أن تجيب ولن تجيب على أسئلتكن.

أجابت لوسيندا:

– نحن لا نسألها أي شيء، إنما نعرض عليها مصاحبتنا في جزء من المكان هذه الليلة حيث ننام، و سنعمل على راحتها، بالإرادة التي تفرض خدمة كل الأجانب فيما يحتاجون، ولا سيما إذا كان الأجنبي امرأة.

أجاب الأسير:

– باسمها واسمي أقبل منكن الأيادي، وأشكر لكن فضلكن العميم، والذي في هذه المناسبة، قبوله من أشخاص مثلكن كما يبدو من المظهر، يعد منة أعظم.

قالت دوروتيا:

– قل لي أيها السيد، هذه السيدة مسيحية أم مسلمة؟ لأن الرداء والصمت يدلان على أنها قد تكون ما لا نود أن تكونه.

– مسلمة نعم في لباسها وجسمها، لكن روحها مسيحية عظيمة لرغبتها الفائقة في أن تكون كذلك.

أجابت لوسيندا:

– **إذن، فلم يتم تعميدها.**

أجاب الأسير:

– **لم تتح فرصة لتعميدها بعد خروجها من مدينة الجزائر أرضها ووطنها، وحتى الآن لم تتعرض لخطر قريب للموت، مما يرغم على سرعة تعميدها دون أن تعرف أولاً كل الشعائر التى تأمرنا بها أمنا الكنيسة المقدسة، لكن الله تعالى سوف يعين على تعميدها بالتهذيب الذى يليق بمقامها، فإنها أعظم مما يظهر من لبسها ولباسى.**

هذه العبارات أيقظت الشوق عند الجميع لمعرفة كل شىء عن العربية والأسير، لكن أحدا لم يرغب فى السؤال ساعتها، لأنه كان وقت الحاجة للراحة، وليس للسؤال عن حياتهما. أخذتها دوروتيا من يدها، ورفعتها لتجلس بجوارها، ورجتها خلع اللثام. وهى نظرت إلى الأسير ليقول لها ما قالت، وينصحها بما تعمل. هو وفى لغة عربية، قال لها إنهن يطلبن منها رفع اللثام، وأنها يمكنها أن ترفعه، وهكذا رفعته، وكشفت عن وجه شديد الحسن، حتى إن دوروتيا رأتها أجمل من لوسيندا، ولوسيندا رأتها أجمل من دوروتيا، والحضور رآها تماثلهما جمالاً، وحتى هى تتفوق عليهما ببعض عناصر الجمال. وكما أن الحسن يجبُ غيره، وله فضل مصالحة النفوس، وتجاذب الإرادات، عرض الجميع رغبته فى الخدمة، وتدليل العربية الحسناء.

سأل دون فرناندو الأسير عن اسم العربية فقال ليلا زرايدا، لما سمعت هي اسمها، فهمت ما سألوا عنه المسيحي، فقالت بسرعة خاطفة مليئة بالغضب والملاحة:

- زرايدا لا، لا.

محاولة إفهامهم أن اسمها ماريا، وليس زرايدا.

هذه الكلمات، والعاطفة الكبيرة التي قد نطقت بها هذه العربية جعلت الدموع تطفر من عيون بعض من سمعوها، ولا سيما النساء، لما فيهن من رقة وشفقة. احتضنتها لوسيندا في حب كبير، قائلة لها:

- نعم ماريا، ماريا.

وعلى هذا أجابتها العربية:

- نعم، نعم، ماريا. زرايدا (ماكانشي)، تريد أن تقول لا.

وعلى هذه الحال وصل الليل، وبأمر من دون فرناندو، قام الفندقي بجهد لإعداد العشاء. جلسوا على مائدة مستطيلة مثل موائد طعام خدم البيوتات، لأن النزل لم تكن به مائدة مستديرة أو مربعة، وقدموا المقعد الرئيسي على رأس المائدة لدون كيخوتي بينما هو يرفض، والذي أراد أن تجلس إلى جانبه السيدة ميكوميكونا، حيث إنه حارسها وحاميها. وإلى جانبها جلست لوسيندا وزرايدا، وفي مواجهتهم جلس دون فرناندو ثم كاردينيو وباقي الرجال، وعلى جانب السيدات القسيس والحلاق، وهكذا تعشوا في سرور وحبور، وزاد من سرورهم عند انتهاء الطعام أن قام دون كيخوتي وقد حركته نفس النوازع إلى الكلام بما تكلم به إلى رعاة الماعز قال:

– حقيقة، سادتى إذا أعتبر جيدًا، فإن الذين يمارسون نظام الفروسية المشّاءة يرون أشياء عظامًا، لم يسمع بمثلها. وإذا لم يكن كذلك، هل أحد من الأحياء الذين يوجدون فى العالم، ويدخل الآن من باب هذه القلعة، ويرى بالصدفة جمعيتنا، سوف يفهم أو يعتقد أننا نحن من نحن؟ من يستطيع أن يظن أن هذه السيدة التى هى على جانبى هى الملكة العظيمة التى نعرفها جميعنا، وأننى ذلك الفارس ذو الوجه الحزين، الذى يتجول هناك على مشارف الشهرة؟ الآن لا يمكن الشك فى أن هذا الفن وتلك الممارسة تتجاوز كل ما اخترعه الإنسان، وتتجاوز ذلك أكثر،إذا عرف الخطر الذى يرتبط بها. أزيحوا الآن من أمامى من قالوا بأن الآداب أفضل من السلاح، وسأقول لهم كانوا من كانوا، إنهم لا يعرفون ما يقولون؛ لأن حجة هؤلاء فيما اعتادوا قوله ويعتدون به، أن عمل الروح يفوق عمل الجسم، وأن السلاح يمارس فقط عن طريق الجسم، كما لو كانت ممارسته ليست أكثر من مهنة لكسب العيش، فلا يحتاج إلا لقوة معقولة، وكما لو كان من يستعمل السلاح لا يحتاج إلا الانحباس فى قلعة الجسم دون إعمال للذكاء، وكما لو أن النفس عند المحارب الذى يقود جيشًا أو الدفاع عن مدينة محاصرة لا يحتاج للروح كما يحتاج للجسم. وإذا لم يكن كذلك فلينظر، إذا كان يدرك بالقوة الجسمية التعرف أو التكهن بمحاولات العدو وإشاراته واستراتيجياته، والصعوبات والتنبؤ بالأضرار التى يخشونها، وأن كل هذه الأشياء هى من أفعال العقل، والتى لا يشغل الجسم أى عمل فيها. وإذ كان الأمر كذلك، فالسلاح يحتاج للروح، لكن أيهما تعمل أكثر روح الأديب أم روح المحارب؟ فلنر الروحين، وهذا يمكن أن يعرف، بغاية ومرسى كل روح منهما حيث تسير، لأن قصدها يمكن أن يقدر أيهما تأخذ كهوفًا لها الغاية الأنبل، وغاية ومرسى روح الأدباء – والآن لا

أتكلم عن الدين- أن تحمل الأنفس للاتجاه نحو السماء، وهذه الغاية التى هى بلا نهاية، لا تعدلها غاية؛ أتكلم عن الآداب الإنسانية، التى هدفها يـضع فى قمته العدالة الموزعة بين الناس، وإعطاء كل واحد ما يخصه، ومفهوم ذلـك وفعله هو حفظ القوانين العادلة. غاية من المؤكد أنها كريمة، وسامية، وجديرة بالثناء العظيم، لكن ليس إلى الحد الذى تستحقه غاية السلاح التى تهدف إلى السلام، وهو أفضل خير يرغب فيه الناس فى هذه الحياة. وهكذا، فإن كـل نبأ جديد سمعه العالم وناله الإنسان كان عندما تغنت فى ليلة هى يومنا الملائكة صادحة فى الهواء "المجد فى السماء، والسلام علـى الأرض، للنـاس طـيبى القصد"، وكانت التحية التى أمر بها أفـضل معلـم فى الأرض والـسماء، وعلمها حوارييه وتلامذته عند دخولهم بيتًا أن يقولوا: "ليكن على هذا البيت السلام"، وقال مرات كثيرة: "أعطيكم سلامى، أترك فيكم سلامى، لـيكن عليكم السلام". تمامًا مثل تحفة أو شيء ثمين تركته تلك اليد، تحفة دونها، ما وجد خير فى الأرض ولا فى السماء. هذا السلام هو الغاية الحقيقية للحرب، ونفس الشيء يكون ترادف الحرب والسلاح. بالطبع إذن، هـذه الحقيقـة غاية الحرب هى السلام، وبهذا يفضل السلاح الآداب، ولنصل هنا إلى جهد الجسم عند كل من الأديب والمحارب، لنرى أيهما أعظم جهدًا.

بهذه الطريقة وبالعبارات المنمقة واصل دون كيخوتى حديثـه، حتـى إن أحدًا ممن كان يسمعه لم يكن يخطر بباله أنه مجنون، بل إن كون الآخرين فرسـانًا ملتصقين بالسلاح جعلهم يستمعون إليه بنفس مبسوطة، وواصل هو قائلاً:

- أقول إذن، إن جهود الدارس تتلخص بشكل أساسى فى الفقـر (لـيس لأن الجميع فقراء، لكن لعرض هذه الحالة فى حدها الأقصى الممكن)؛ وعند قولى

بأنه يعانى الفقر، ولا يبدو لى ضروريا الحديث عن حظه السيئ، لأن من هو فقير ليس لديه شيء آخر غير حظه السيئ، إنه يعانى هذا الفقر بكل جوانبه؛ جوع وبرد وعرى، يمر بكل هذا معًا، لكن مع كل هذا، هو لا يجوع مرات كثيرة، فهو يأكل ربما متأخرًا قليلاً عن المعتاد، حتى لو كان ذلك من فائض الأغنياء، وأن ذلك هو البؤس الأكبر لأى دارس، وما يسمونه فيما بينهم (البحث عن الثريد)، ولن ينقصهم شواء أجنبى عنهم أو ناره، التى وإن لم تدفئه، تجعل برده يفتر، وفى النهاية ينام ليله تحت غطاء. لا أريد الخوض فى احتياجات أخرى من الفاقة، بل يناسب الحديث عن افتقاد القميص، وعدم توفر الحذاء، وندرة وقلة الفرو فى اللباس، ولا ذلك الشبع مع الرضا عندما يصادفه – مع الحظ السعيد – طعام وليمة. وبهذا الطريق الذى رسمته، خشنًا وصعبًا ومتعثرًا هنا، وساقطًا هناك، وناهضًا من هنا لهناك، وعائدًا للسقوط قريبًا من هنا أو هناك، يصلون إلى الدرجة التى يأملون، والتى بمجرد إدراكها، كما رأينا كثيرين بعد مرورهم بهذه المستويات من الدرك الأسفل وبهذه القفزة نحو الثريا كما لو كانوا محمولين على جناح طير الحظ الموافق، أقول قد رأيناهم يأمرون ويحكمون العالم من كرسى، وقد تبدل جوعهم بالتخمة، وبردهم بالانتعاش، وعريهم بالوشى والديباج، ونومهم على الحصير إلى النوم على الدمقس والحرير، جائزة استحقوها بفضيلتهم، لكن بوضعهم فى جهودهم مقابل جهود المحاربين العسكريين ومقارنتهم بهم، سيبقون عند المؤخرة فى كل شيء كما سأقول الآن.

الفصل الثامن والثلاثون
عبارة عن الخطاب المثير الذى تفوه به دون كيخوتى عن السلاح والآداب

واصل دون كيخوتى، وقال

– إذن، نبدأ مع الدارس للآداب بالفقر، بكل عناصره، ولنر هل الجندى أكثر غنى، وسنرى أن لا أحد أفقر من الفقر مثله، لأنه مربوط إلى بؤس راتبه، الذى قد يتأخر وقد لا يصل أبدًا، أو قد يتسرب من يديه، مع خطر على حياته وعلى ضميره. وأحيانًا يعتاده العرى كثيرًا، حتى إن سترة من الجلد مليئة بالطعنات تكون له لبس الزينة والقميص، وفى وسط الشتاء يصلح من شأنه أمام قوة السماء، موجودًا فى حملة سقفها الفضاء، مع نفس صادر من فمه لا غير، يخرج من مكان فارغ، أعلم بعد فحص، أنه يخرج باردًا، ضد كل طبيعة نعرفها. وانتظروا من ثَم، حتى يأتى الليل، حتى يعيد تقويم كل هذه المتاعب، فى السرير الذى ينتظره، الذى إن لم يكن ذنبه، فإنه لن يأثم بأن يكون ضيقًا مطلقًا: فهو على الأرض يستطيع أن يقيس ما شاء لمد قدميه، وأن يتقلب فيها ما حلا له التقلب، دون خوف أن تنكشف عنه الملاءات. ومع هذا يصل النهار، وساعة تلقى متعة عمله، يصل يوم معركة، حيث هناك يودعون شرَّابة من الخيوط فى رأسه لعلاج رصاصة، قد تكون اخترقت حجره، أو قد تتركه عاجز الذراع أو الرجل. وعندما لا يحدث ذلك، لأن

السماء العطوفة حفظته حيًا وسليمًا، سيبقى فى نفس الفقر الذى كان فيه قبل ذلك، ويكون من الضرورى خوض معركة أخرى أو قتال، ومن الجميع يخرج منتصرًا، كى ينصلح حاله فى شيء، لكن هذه المعجزات تأتى مرات نادرة. لكن قولوا لى سادتى، إذا كنتم قد تأملتم فى الأمر، من هم أقل المكافئين عن حرب من الذين ماتوا فيها؟ دون شك عليكم أن تجيبوا، بأنه لا مشابهة، ولا يمكن اختصار الموتى بهذا الوعى، كما لا يمكن عد الأحياء بثلاثة أرقام لوغاريتمية. كل هذا على العكس بين الأدباء، لأنهم بمرتباتهم، ولا أود أن أقول برشوتهم، كلهم لديهم ما يتسلون به، ومع هذا فعمل الجندى أكبر، ومكافأته أعظم صغرًا. لكن على هذا يمكن الإجابة بأنه من السهل منح جوائز لألفى أديب، ومن الصعب أن يحدث ذلك لثلاثين ألف جندى، كما أن الأدباء يجازون بمنحهم حرفًا هم لها بالقوة محترفون، أما الجنود لا يمكن إجازتهم إلا من ثروة السيد الذى يخدمونه، وهذه استحالة تقوى حجتى. لكن لندع هذا جانبًا، فهو تيه لا مخرج له إلا بصعوبة بالغة، وإنما نعود إلى فضل السلاح على الأدب، موضوع حتى الآن موضع التحرى والاستفهام، طبقًا للحجج التى يحتج بها كل طرف، ومنها أنه بدون الأدب لا يمكن دعم السلاح، لأن الحرب أيضًا لها قوانينها التى بدونها لا تقوم، وأن هذه من فعل الأدب والأدباء. وعلى هذا يجيب السلاح، أن القوانين لا تقوم دونه، لأنه بالسلاح يتم الدفاع عن البلاد والممالك، ويدافع عن المدن، ويحفظ الأمن بالطرق، وتنظف البحار من القراصنة، وأن البحر والبر يرتبطان بحزم أو فوضى ما تجلبه الحرب معها طوال دوامها، وحقهما فى استعمال قواها وميزاتها، وإنه لدليل ثابت، أن ما يكلف أكثر، يقدر ويجب أن يقدر أكثر. وحتى يصبح أحدهم ساميًا فى الأدب، يكلفه ذلك ردحًا من الزمان، والمثابرة

والجوع والعرى، وإجهادًا للرأس، وسوء هضم فى المعدة، وأشـياء أخـرى ملحقة بتلك، قد استوفيتها جزئيا، لكن الوصول طبقًا للـشروط إلى مقـام جندى رفيع الدرجة، يكلفه فوق أقصى ما يصل إليه دارس الأدب، لأنه فى كل خطوة يوشك أن يفقد الحياة، وأى خوف من الحاجة أو الفقر يمكن أن يدرك الدارس أو يرهقه، مما يقرب مما يعانى الجندى، واجدًا نفسه محاصرًا فى إحدى القلاع، أو موجودا اضطرارًا أو حارسًا لبرج أو بوابة، يحـس بـأن العدو يلغم لنسف مكان وجوده، دون أن يستطيع مغادرته بأى حال مـن الأحوال، أو الهرب من الخطر الذى يهدده عن قرب. فقط كل ما يـستطيع عمله هو إخبار قائده بما يجرى، حتى يعالجه بسلاح مضاد، وهو باقٍ خائفًـا ومترقبًا لحظة صعوده للسحاب فى ارتجال ودون أجنحـة، ثم الـسقوط إلى الهاوية دون إرادة.

وإذا كان هذا قليلاً، فلنشهد: سفينتين تهاجم إحداهما الأخرى فى بحر هائـل الفضاء، ربطت إحداهما نفسها فى الأخرى أو أمسكت بها من مقدمتها، فلـن يجـد الجندى فراغًا أكثر من لوح فى مقدمة السفينة الذى ينطح السفينة الأخرى ومع كل هذا، يرى أمامه ملائكة كثيرة لقبض الروح، إذ تهدده مدافع تصوب ضـده، لـيس بينه وبينها مسافة رمح، مع رؤيته أن أول غفلة لقدميه سوف تحمله لزيارة أعماق حجر نبتون، ومع كل هذا بقلب جسور، مدفوعًا بالشرف الذى يحفزه، يضع نفـسه هدفًا لكثير من الطلقات النارية، محاولاً العبور من الممر الـضيق نحـو الـسفينة المعادية. والذى يثير الإعجاب أكثر، هو أنه بمجرد أن يـسقط أحـدهم حيـث لا يستطيع النهوض حتى نهاية العالم، يحل محله آخر فى نفس مكانه، وإذا سقط هـذا أيضًا فى البحر الذى ينتظره باعتباره عدوًا، آخر، آخرون يحلون محلـه، دون أن يعطوا وقتًا لوقت موتهم، بسالة وجسارة، تلك هى الأحوال الغالبة فى كل اللحظات

الدقيقة للحرب. ولتكن فى خير تلك القرون المباركة التى خلت من الغضب المثير للفزع لتلك الآلات الشيطانية للمدفعية، والتى أرى أنهم الآن يقدمون لمخترعها جائزة فى جهنم، مقابل اختراعه الشيطانى، الذى أعطى سببًا لأن ينزع ذراعُ جبان وعديم الشرف الحياة عن فارس شجاع، والذى دون أن يعرف كيف أو أين، وفى وسط الشجاعة والبريق، الذى يشعل ويشجع الصدور الجسورة تصل دانة طائشة (أطلقها ربما من هرب أو فزع من البريق الذى أحدثته النار عند إطلاق هذه الماكينة الملعونة)، تقطع وتنهى فى لحظة ظنون وحياة من كان يستحق الحياة على طول القرن. وهكذا إذا وضعنا هذا فى اعتبارنا، فإنى على وشك القول بأنه يثقل على نفسى أخذ ممارسة حياة الفارس المشّاء فى عصر كريه كالعصر الذى نعيش فيه، ومع أن أى خطر لا يخيفنى، فحتى الآن يستفزنى التفكير، عما إذا كان البارود والقصدير ينبغى أن يحرمانى من فرصة أن أصير مشهورًا ومعروفًا بقوة ساعدى، وحد سيفى، فى كل ما هو مكتشف من الأرض. لكن لتصنع السماء ما تشاء، فإننى سأُقدَّر أكثر، إذ أخرج بما أصطنع من مواجهة أعظم الأخطار التى واجهها الفرسان المشّاءون للقرون السوالف.

كل هذه المقدمة الطويلة قالها دون كيخوتى، خلال عشاء الجميع، ناسيًا أن يحمل لقمة إلى فمه، رغم أن سانشو بانثا قال له بعض المرات أن يتعشى، وأن هناك وقتًا فيما بعد لقول ما يريد، والذى عند سماعه أحسوا بالحزن، لرؤية رجل فيما يبدو، كان حاد الذكاء، وحسن القول فى كل ما يعالج من مواضيع، ومع ذلك فقد كل هذا فى ممارسة فروسيته السوداء الجنائزية. القسيس قال له إنه معه كل الحق فى كل ما قاله لصالح السلاح، وإنه رغم أنه خريج جامعة، وأديب فإنه يتفق معه فى الرأى.

انتهوا من العشاء، ورفعت المائدة، بينما كانت الفندقية وابنتها ومـاريتورنس يعدلن مخزن التبن حيث ينام دون كيخوتى دى لامانشا، لأنهم قرروا أن تنـام فيـه هذه الليلة النساء وحدهن، أما دون فرناندو فقد رجا الأسير أن يحكى لهـم قـصة حياته، لأنها لا يمكن إلا أن تكون حياة سفر وإمتاع، كما قد بـدت فـى أنظـارهم بقدومه فى صحبة زرايدا. وأجاب الأسير أنه سوف يفعل بكل سرور ما أمره بـه، وإن كان يخشى ألا تكون قصته بنفس الإمتاع الذى يرغبون، لكن مع كـل هـذا سوف يحكيها طاعة لرغبته. القسيس وكل الآخرين شكروه، ومن جديد رجـوه أن يحكيها، وهو وقد رأى التماس كثيرين منهم، قال إنه لا داعى لكل هـذا الرجـاء، فيكفى أن يأمروه، فأمرهم له قوة عنده فائقة.

وهكذا انتبهوا فخامتكم، وسوف تسمعون حديثًا حقيقيا، ليس من الممكـن أن يبلغه الكاذبون بكل حيلهم المعجبة المدبرة والتى اعتادوا عليها.

ما قال دفع الجميع إلى أن يأخذوا مقاعدهم فى راحة، ويلزمـوا الـصمت، وهو وقد رآهم صامتين ومنتظرين ما يرغب فى قوله، بصوت لطيف وهدوء بـدأ يتكلم بهذا الكلام.

الفصل التاسع والثلاثون
حيث يحكى الأسير حياته وأحداثها

فى قرية من جبال ليون كانت بدايات نسبى، الذى كانت الطبيعة أكثر محاباة له وكرمًا معه من الحظ، فمع ضيق تلك القرى نال أبى شهرة بأنه غنـــى، وكـــان بالفعل كذلك، لو نال نزوة المحافظة على ثروته بقدر ما كانت عنده نزوة إنفاقهـــا. وصفة السخى المسرف لحقت به عندما كان جنديا فـــى زهـــرة ســـنوات شـــبابه، فالجندية مدرسة يتحول فيها المسكين إلى سخى، والسخى إلى مسرف، وإذا وجـــد بعض الجنود فى شظف من العيش ترى الواحد منهم مثل المسخ يتوارى، ونـــادرًا ما يظهر للعيان. وتجاوز أبى حدود الكرم، وكرَّس حدود الإسراف، وهى حيـــاة لا عائد من ورائها لرجل متزوج، وله أبناء ينبغى أن يخلفوه فى الاســـم والكينونـــة. وأبناء أبى كانوا ثلاثة كلهم ذكور، وفى سن تسمح باختيار طريقهم. وعنـــدما رأى ظروفه، وطبقًا لما كان يقول، لم يكن قادرًا أن يمضى بإرادته ضد هذه الظـــروف، ولذا قرر أن يتخلص من السبب الذى جعل منه مسرفًا وكريمًا، وهو الثروة التـــى بدونها كان قد رأى الإسكندر نفسه فى ضيق، وهكذا نادى علينا نحن الثلاثـــة فـــى إحدى الغرف، وقال لنا ما يماثل ما سأقوله: "أبنائى، كى أقول لكـــم إننـــى أحـــبكم كثيرًا، يكفى المعرفة والقول بأنكم أبنائى، وحتى لا تفهموا أننى أسىء حبكم، فلـــن أمضى حرًا فى حفظ ثروتكم. من ثَم، فلتعرفوا من الآن فـــصاعدًا، أنـــى أحـــبكم بوصفى أبًا، ولا أحب تدميركم باعتبارى زوج أم، وأحب أن أفعـــل شـــيئًا معكـــم فكرت فيه منذ أيام عديدة، وباعتبارى ناضجًا متهيئًا وأنتم الآن فـــى عمـــر اتخـــاذ

القرار، أو على الأقل اختيار عمل يعطيكم في كبركم شرفًا ونفعًا، وقد فكرت في تقسيم ثروتي إلى أربعة أجزاء، ثلاثة منها سأعطيها لكم، لكل منكم ما يخصه، دون التجاوز في أي شيء، وبالجزء الرابع سوف أعيش، وأعول أيامي التي يبقيني الله تعالى فيها على قيد الحياة. لكني أحب بعد أن أعطي كل واحد منكم ما يخصه من الثروة أن تتبعوا ما سأقوله لكم من طرق. هناك مثل في إسبانيا بلدنا، وفي نظري هو حقيقي مثل كل الأمثال، لكونها أحكامًا مختصرة مشتقة من التجارب الطويلة والذكية، والمثل الذي أقوله يقول:" الكنيسة أو البحر أو البيت الملكي"، ويقولونه بشكل أوضح: "من يريد أن يساوي شيئًا ويصير غنيا، فإما الكنيسة، أو الإبحار في الاتجار، أو يدخل خدمة الملوك في بيوتهم"؛ لأنهم يقولون:" لباب خبز الملك يساوي أكثر من نعم أي سيد". أقول هذا لأني أحب، وتلك هي إرادتي، أن يتبع أحدكم طريق الآداب، والآخر التجارة، والثالث خدمة الملك في الحرب، لأنه صعب الدخول لخدمته في بيته؛ مع أن الحرب لا تعطي ثروة كبيرة، لكنها تعطي قيمة عظيمة، واسمًا لامعًا. وخلال ثمانية أيام سأعطي كل واحد منكم نصيبه على هيئة نقود، دون غش في فلس واحد، كما سوف ترونه عملاً. قولوا لي الآن إذا كنتم تحبون رأيي وتقبلون نصيحتي، فيما اقترحته عليكم. وعند سؤالي لكوني الأكبر، طالبًا الإجابة، وبعد قولي له ألا يتخلص من ثروته، وأن يصرف ما شاء له الهوى، فنحن شبان قادرون على كسب الثروة، انتهيت في ختام كلامي إلى اختيار ممارسة حياة السلاح، خادمًا باسمه الله، ومليكي. أخي الثاني، قدم نفس العرض، واختار الذهاب إلى لاس إندياس(*)، في استخدام للثروة التي سوف تخصه. أما الأخ الأصغر، والذي أعتقد أنه أكثرنا فطنة، قال إنه يريد أن يتبع الكنيسة، أو الذهاب لختام دراساته التمهيدية في سلمنقة.

(*) الإبحار إلى أمريكا، التي كان يطلق عليها "لاس أندياس".

وهكذا، كما انتهينا من التوافق واختيار عملنا، احتضن الجميع، ومع ملخص ما قال وضع موضع التنفيذ ما وعدنا به، معطيًا كل واحد نصيبه، وعلى ما أذكـر كان ثلاثة آلاف دينار لكل منا في عملة نقدية (لأن أحد أعمامنا اشترى ضيعة أبي بكل محتوياتها، ودفع ثمنها نقدًا حتى لا تخرج من شجرة العائلة)، وفي نفس اليـوم ودعنا نحن الثلاثة أبانا الطيب، ورأيت أنه من غير الإنساني ترك أبي شيخًا بقليـل من الثروة، فأعطيته ألفين من ثلاثة الآلاف، ذاكرًا له أن ألف دينار كافية لي حتـى أستقر جنديًا. وشقيقاي، اتخذا من فعلي مثالاً، أعطاه كل واحد ألف دينـار، وبهـذا بقي لأبي أربعة آلاف نقدًا، وثلاثة آلاف ما بقي من الضيعة دون بيع، مبقيًـا لـه لنفسه، ومساويًا نفس تلك القيمة. أقول، في النهاية، ودعناه، وودعنا عمنـا الـذي ذكرت، دون مشاعر كثيرة أو دموع من الجميع، موصين لنا أن نجعلهم يعرفـون، كلما كان ممكنًا، بأحداث حياتنا، رافهة أو فقيرة. وعدناهم بذلك، وبعـد الأحـضان واستقبال البركات منهما، الأول سافر إلى سلمنقة، والثاني إلى إشبيلية. وأنـا إلـى أليكانتي حيث قابلتني بشرى سفينة تتجه إلى جنوا محملة بالصوف.

كان هذا منذ اثنين وعشرين عامًا، حيث خرجت من بيـت أبـي، وخلالهـا أرسلت بعض الخطابات، ولم أعرف أي شيء عن أخويَّ، أما ما حدث لي في هذه السنوات فسوف أحكيه مختصرًا. عند إبحاري من أليكانتي وصلت جنوا في رحلـة مرفهة، ومن هناك سافرت إلى ميلانو، حيث استقر بي الحال في حيـاة الـسلاح وزهو الجندية، ومن هناك أحببت أن أتخذ مقرا لي (بيامونتي)، وحين كنـت فـي الطريق إلى (إسكندرية بايًا) سمعت عن أخبار جديدة أن دوق ألبا كان يعبـر فـي اتجاه (فلانديس) فغيرت طريقي عمدًا، وذهبت معه لخدمته خـلال الأيـام التـي قضاها، وشهدت موت الكونتات (دي إيجيمـون) و(دي أورنـوس)، وأمكننـي أن

أصير ملازمًا تحت قيادة قبطان وادى الحجارة، واسمه ديبجودى أوربينا(*)، وفي نهاية بعض الوقت من وصولى إلى (فلانديس) وصلت الأخبار عن تحالف البابا بيو الخامس، حسنت ذكراه! مع فينيسيا وإسبانيا ضد العدو المشترك، وهو العدو التركى، الذى هو فى نفس ذلك الوقت قد كسبت بحريته السيطرة على الجزيرة المشهورة قبرص، والتى كانت تحت سيطرة فينيسيا: خسارة محزنة وتعيسة.

وعلم يقينًا أن هذا الحلف سيقوده الجنرال شديد الرزانة، دون خوان النمسا، والأخ غير الشرعى لمليكنا العظيم فيليب. وطار فى الآفاق جهاز الحرب العظيم الذى كان يعده، مما حفز نفسى ودفعها، ومنحنى الرغبة فى أن أشهد اليوم المنتظر، ومع أننى كانت لدى توقعات ووعود أكيدة بترقيتى إلى قبطان فى أول فرصة للترقيات، رغبت فى ترك كل شيء، وليحدث لى ما يحدث ذاهبًا إلى إيطاليا، وشاء حظى الطيب أن السيد دون خوان النمسا كان قد وصل إلى جنوا فى طريقه إلى نابولى للانضمام إلى بحرية فينيسيا، كما فعل بعد ذلك فى ميسينا. وأقول بأننى قد وجدتنى فى ذلك اليوم الميمون، مرقًّى إلى قبطان فى المدفعية، درجة رفعنى إليها حظى الطيب، وأكثر من الحظ جدارتى، فى ذلك اليوم الذى كان سعدًا للمسيحية، لأن العالم وكل الأمم أحبطت نتيجة الخطأ الذى كانت واقعة فيه، بأن الأتراك لا يهزمون فى البحر، حيث صار الفخار والكبرياء العثمانى كسيرًا فى ذلك اليوم، الذى صرت فيه التعيس الوحيد بين كثير من المحظوظين (لأن المسيحيين الذين ماتوا هناك كانوا أكثر حظًّا ممن بقوا أحياء، حتى لو كان هؤلاء الأحياء هم المنتصرون)؛ فقد رأيتنى مقيدًا من قدمىَّ ويدىَّ بالأصفاد فى الليلة التالية لذلك اليوم المشهود، بدلاً من أن أكلل بالغار باعتبارى بطلاً للبحار لو كنت

(*) خلال الحياة التى عاشها ثربانتس فى الجيش خدم تحت قيادة نفس القبطان.

في العصور الرومانية. وقد حدث ذلك على الوجه الآتى: قام ملك مدينة الجزائـــر المملوك على، وهو قرصان جسور وسعيد الحظ بمهاجمة حامية مالطـــة، وقـــضى عليها، ولم يبق منها حيًا سوى ثلاثة فرسان جرحى، وقد هرع القبطان خوان أندريا لنجدة تلك الحامية، وصحبته بجنودى، وعند قيامى بواجبى كما ينبغى العمـــل فـــى مثل تلك الأحوال، قفزت للسفينة المعادية، والتى ضللت سفينتى المهاجمة واختفـــت عن أنظارها مما عاق جنودى عن القفز إليها ورائى، وهكذا وجدتنى وحيـــدًا بـــين أعدائى، الذين لم أستطع مقاومتهم لكثـــرتهم، وفـــى النهايـــة أخـــضعونى، مثخنـــا بالجراح، وكما سمعتم أيها السادة فإن القرصان قد نجا بكل جنوده، وبقيت أنا أسيرًا عنده، وصرت الحزين الوحيد بين كل المبتهجين، والأسير بين أحـــرار كثيـــرين، لأنهم كانوا خمسة عشر ألف مسيحى، الذين أحرزوا الحرية المتمناة، وعادوا إلـــى قاعدتهم يجدفون فوق السفن التركية.

وحملونى إلى القسطنطينية، حيث السلطان التركى العظيم سليم، والذى عين سيدى وآسرى أمير البحر، لأنه أدى واجبه فى المعركة، حاملاً معه راية فرســـان مالطا، علامة على شجاعته. ووجدتنى فى العام التالى (عام اثنين وســـبعين، فـــى نافارين) مجدفًا بوصفى سخرة فى سفينة القيادة الفنـــارات الثلاثـــة. وهنـــا رأيـــت ولاحظت الفرصة المفقودة لعدم أسرنا كل الأسطول التركى؛ لأن كل جنود البحـــر والبر فيه كانوا فى كامل لباسهم بل وبأحذية الجرى، لإمكـــان الهـــرب بـــرًا دون انتظار الدخول فى معركة، لأنهم كانوا على يقين من مهاجمتنا لهم، وإلى هذا الحد بلغ الفزع الذى بَثَّتْهُ فيهم بحريتنا. لكن السماء أمرت بشىء آخر، لم يكن لذنب قائد بحريتنا أو لغفلته، وإنما هى بسبب آثام المسيحيين؛ ولأن الله دائمًا يشاء ويتيح لنـــا جلادين يعاقبوننا وبالفعل، فإن المملوك على ملك الجزائر استولى علـــى جزيـــرة مودون (قرب نافارين)، وعند نزول جنوده على أرضها حصَّن مـــدخل الميـــاء،

وبقى هناك ساكنًا يترقب، حتى عاد السيد دون خوان النمسا، وفى هذه الرحلة أسرت السفينة المسماة الفريسة، والتى كان قبطانها أحد أبناء القرصان المشهور (ذى اللحية الحمراء). وقد أسرتها السفينة المسماة (الذئبة)، الخاضعة لشعاع الحرب، الأب الروحى للجنود المحظوظ، والذى لا يهزم أبدًا، القبطان دون إلبارو دى باثان، ماركيز سانتا كروث. ولا أريد أن أترك القول عن فريسة الفريسة، إنه ابن ذى اللحية الحمراء، وكان فى غاية القسوة، يعامل الأسرى أسوأ معاملة، وعندما رأى هؤلاء أن الذئبة تقترب منهم، أفلتوا المجاديف من أيديهم فى دفعة واحدة، وقبضوا على قبطانهم الذى كان يتعلق بالصارى صارخًا فيهم أن يسرعوا بالتجديف، وأخذوا يتقاذفونه من دفة إلى مقدمة ومن مقعد إلى مقعد، ضربًا وعضًا، وهكذا بعد قليل صعدت روحه إلى جهنم، وكما قلت هكذا كانت قسوة معاملته لهم، والحقد الذى يكنُّونه له. ولنعد إلى القسطنطينية، فى العام التالى (ثلاثة وسبعين)، وعرف فيها كيف أن السيد دون خوان النمسا كسب تونس، منتزعًا هذه المملكة من الأتراك، ووضعها تحت حكم مولاى (حامد)، قاطعًا آمال العودة إلى الحكم فيها على مولاى (حميدة)، المسلم الأكثر قسوة وشجاعة فى العالم.(*) وأحس السلطان التركى كثيرًا بهذه الخسارة العظيمة ، وفى استعمال للدهاء الذى يتميز به كل بلده، عقد صلحًا مع فينيسيا، وهو أكثر مما كان يحتاج، ففى العام التالى (أربعة وسبعين) هاجم لا جوليتا والتحصينات التى تركها دون خوان نصف مشيدة. وخلال هذه الأوقات الحرجة كنت أمضى مجدفًا للأتراك، دون أمل فى الحرية، وعلى الأقل لم أكن آمل الحصول عليها بفدية، لأننى كنت مصممًا ألا أكتب لأبى عن تعاستى.

(*) يشير ثربانتس هنا إلى معارك حقيقية وسنوات حقيقية تحتاج إلى التحقق من الأصل العربى أو التركى لهذه الأسماء.

وفى النهاية سقطت لاجوليتا، وسقطت التحصينات، والتـى احتـل موقعهـا جنود أتراك يقبضون رواتب عددهم خمسة وستون ألفا، وغيـرهم مـن مـسلمين وأعراب كل إفريقيا ما يزيد على أربعمائة ألف، هذا العـدد الكبيـر مـن النـاس مصحوبًا بالذخيرة ومعدات الحرب، وبجنود بهذه الغزارة كان مـن الممكـن ردم القلعة والتحصينات بالأيدى، وحفن من التراب يذرونها. سـقطت أولاً لاجوليتـا، والتى حتى تلك اللحظة كانت القلعة التى لا تقهر، ولم تسقط لذنب جناه مـدافعوها (الذين قاموا دفاعًا عنها وبكل ما يجب وبكل ما يستطيعون)، وإنمـا لأن التجربـة أثبتت سهولة عمل تلال من الرمال بحفر رمال تلك الصحراء، التى يوجـد المـاء فيها على بعد شبرين، ولم يجده الأتراك على بعد رمحين. وقـد نهـض الأتـراك بالتلال إلى علو جاوز جدران القلعة، وأطلقوا نيرانهم من فوق الجدار والتلال على من فيها، فلم يستطع أحد أن ينهض ويظهر للدفاع عنها.

وكان الرأى الذى اشترك فيه الجميع أن جنودنا ما كان ينبغى عليهم البقـاء مغلقين على أنفسهم فى القلعة، وإنما الانتظار فى حامية المرسى، والذين يقولـون ذلك يتكلمون من بعيد، وعن قلة خبرة فى مثل هذه الأمور، لأنه إذا كان فى القلعة والتحصينات لم يكن يوجد أكثر من سبعة آلاف جندى، كيف يمكـن لهـذا الـرقم المحدود الخروج إلى الحامية، والبقاء فى القلاع مهما كانوا شجعانًا بين هذا العـدد الهائل من الأعداء؟ وكيف يمكن ترك قوات تهلك دون خلفية لنجدتها، ولاسيما أنها محاصرة بأعداء كثيرين وعنيدين، وفى عقر دارهم؟ لكن ظهر لكثير، وهكذا ظهر لى أيضًا، أنه كان فضلاً خاصا من السماء ونعمة لإسبانيا أن تدمر أحجار الأحزان تلك، التي ابتلعت فى شراهة أموالاً طائلة أنفقت دون طائل (فى غزوها وتحصينها) غير تخليد ذكرى البحرية الميمونة لتاج المظفرين كارلوس الخامس، وكما لو كان ضروريا لتخليدها، كما هو كائن وسيكون، أن تتغذى تلك الذكرى بهذه الحجـارة.

سقطت أيضا التحصينات، لكن الأتراك استولوا عليها شبرا شبرا، لأن الجنود الذين كانوا يدافعون عنها قاتلوا بشجاعة وقوة، حتى إن من قتلوهم من الأعداء كانوا عشرين ألفا فى اثنين وعشرين هجوما شاملا. لم يأسروا أحدا سليما من الثلاثمائة الذين بقوا على قيد الحياة، إشارة أكيدة على شجاعتهم وحماسهم، وعن مدى دفاعهم ومحافظتهم على مواقعهم. استسلم برج صغير كاملاً كان فى وسط اللسان البحرى، كان تحت قيادة دون خوان ثانوغيرا، فارس بلنسى وجندى مشهور. أسروا دون بدرو بويرتوكاريرو جنرال لاجوليتا، الذى فعل كل ما فى إمكانه للدفاع عن قلعته، وحزن أعظم الحزن بفقدانه لها، فمات من الحزن فى الطريق إلى القسطنطينية، حيث حملوه أسيرا. وفى نفس الوقت أسروا جنرال التحصينات، وكان اسمه كابريو ثيربيون، فارس من ميلانو، مهندس عظيم وجندى باسل. ومات فى الحصن أشخاص كثيرون ذوو مكانة، من بينهم من يسمى باجان دى أوريا، فارس من فرسان سان خوان، وكان ذا خلق كريم كما ظهر فى معاملته لأخيه الجنرال خوان أندريا دى أوريا، والتى اتسمت بكثير من التسامح، وما يثير الحزن موته على يد بعض العرب، الذين تحداهم عندما رأى نفسه قد فقد برجه، وعرض عليه حمله إلى طبرق، حيث كانوا يحتفظون ببعض مواطنى جنوا لصيد الشعاب المرجانية لهم، من ثم قطعوا رأسه، وحملوه إلى الجنرال التركى، الذى كافأهم بما يشير إليه المثل القشتالى:(مع أن الخيانة تسر، فإن الخائن فى ضر)؛ وهكذا، يقال إن الجنرال أمر بشنقهم، لأنهم لم يحضروه إليه حيًا. ومن بين المسيحيين الذى فقدوا فى التحصينات دون بدرو دى أجيلار من أهل بلد لا أذكره من الأندلس، وكان ملازما فى التحصينات، وجنديا باسلاً ومثقفا، وخاصة أنه كان له ظرف فى الفن الذى يطلقون عليه الشعر، لأن الصدفة حملته إلى السفينة التى أجدف عليها، وفى نفس حيز تجديفى، وقبل أن نغادر ذلك الميناء نظم اثنين من قصائد السوناتا على طريقة شعر

شواهد القبور، ووجه القصيدة الأولى إلى التحصينات والثانية إلى لاجوليتا، وفي الحقيقة أحب أن أذكرهما لحفظي لهما، ولأنهما يحدثان سرورًا أكثر من الحزن.

وفي اللحظة التي تحدث فيها الأسير عن دون بدرو دي أجيلار، نظر دون فرناندو إلى زملائه، والثلاثة ابتسموا، وعندما أوشك أن يردد القصيدتين، قال أحدهم:

- **قبل أن تنطق بالشعر، أتوسل إليك أن تقول لنا عن مصير دون بدرو أجيلار الذي تتحدث عنه.**

أجاب الأسير:

- **الذي أعرفه أنه في نهاية العامين اللذين قضاهما في القسطنطينية، هرب متنكرًا في ثياب ألباني بصحبته جاسوس يوناني، ولا أدري أدرك حريته أم لا، مع أنني أظن أنه نجح، لأنني رأيت اليوناني بعد عام في القسطنطينية ولم أستطع سؤاله عن الأمر.**

أجاب الفارس:

- **اعلم أنه قد نجح، لأن دون بدرو هو أخي، وهو الآن في قريتنا، في حال طيبة وثرى، ومتزوج وعنده ثلاثة أولاد.**

قال الأسير:

- **حمدًا لله على ما أكرمه به، لأنه لا شيء يستحق الحمد أكثر من استعادة الحرية المفقودة.**

أجاب الفارس:

- **وأكثر، أنا أعرف القصيدتين اللتين تتحدث عنهما.**

قال الأسير:

– إذن، قلهما، فستعرف أن تفعله أفضل مني.

قال الفارس:

– حبًّا وكرامة، أما تلك الخاصة بلاجوليتا فتقول:

الفصل الأربعون
حيث تستمر قصة الأسير سونيتا

أيتها الأرواح السعيدة للثام الفتاك

حرة أنت وجوهر بعملك الأكبر

فمن حضيض الأرض الأسفل والأغبر

نهضت نحو السماء الأعلى والأظهر

*

ملتهبة فى غضبة وفى حمية الشرف

لعبت من الأجسام بالقوة والكلف

ولونت بها من دمك غيرك أكثر

البحر الجار وأرض الرمل الأصفر

*

أولاً الشجاعة قبل الحياة

والذراع المتعب إذ يموت

نال النصر رغم الهزيمة

*

وتلك الشهادة الحزينة المهلكة

بين الجدار والحديد، مضيتم فى حصاد

الشهرة بين العباد، وفى السماء أمجاد

*

قال الأسير:

- هكذا أحفظها.

قال الفارس:

-إذن، سونيتا التحصينات، إذا لم تخن الذاكرة، هى:

من قلب هذه الأرض العقيمة الكسيرة

لهذه الأبراج المراقبة فوق سطحها

أرواح ثلاثة آلاف جندى

صعدت حية إلى خير دار

*

وقبلها كانت تدار (مقاتلةً)

قوة سواعدها الباسلة

وفى النهاية، حتى صارت قليلة ومرهقة

جادت بالحياة على حد السيوف الدافقة

*

وهذه الأرض دائمًا كانت

بألف ذكرى حزينة حالمة

فى الحاضر والقرون السالفة

*

لكن ليس أكثر عدلاً من حجرها

فمع صعود الأرواح إلى السماء الصافية

لم تحمل حتى الآن على ظهرها

من الأجسام ما هو أشجع

*

لم تكن القصيدتان سيئتين، وقد ابتهج الأسير بالأخبار التى قدمها له الفارس، وفى مواصلة لقصته قال:

بعد استسلام لاجوليتا والتحصينات أمر الأتراك بخلع أحجار القلعة، أما التحصينات فلم يبق منها الكثير قائمًا حجرًا على حجر، وكى يتم ذلك بأسرع وقت وأقل جهد، لغموها من ثلاث جهات، لكن لم تنفجر الألغام من أى ناحية، والذى بدا أكثر صمودًا كانت الأسوار الأقدم، وكل ما شيده المهندس ألفراتين لكارلوس الخامس وفليب الثانى انهار على الأرض. فى النهاية عادت البحرية إلى القسطنطينية منتصرة ومظفرة، وبعد ذلك بشهور قليلة مات مالكى وسيدى المملوك، وكانوا يسمونه (أوتشالى فارتاكس)، ومعناه بالتركية المملوك الأقرع، لأنه كان كذلك، وهى عادة بين الأتراك إعطاء أسماء طبقًا لأى نقص يوجد فى

الشخص أو لأى فضيلة، لأنه لا يوجد بينهم غير أربعة ألقاب للنسب العريق، تنحدر عن البيت العثمانى، والآخرون كما قلت، يأخذون الاسم واللقب من عيوب الجسم، أو فضائل النفس. وهذا الأقرع كان يجدف لكونه عبدًا للسلطان لمدة أربعة عشر عامًا، وعندما تجاوز الرابعة والثلاثين من العمر ارتد عن دينه إلى الإسلام، غضبًا من صفعة أنزلها على وجهه أحد الأتراك أثناء التجديف، فترك عقيدته حتى يستطيع الانتقام، وكانت شجاعته عظيمة، فصعد إلى ملك الجزائر دون أن تكون ترقيته بالأسلوب المتعثر (فى الملق والتحايل)، وهو الطريق والأداة التى يتبعها خاصة السلطان للترقى، وبعد ذلك صار أميرًا للبحر، وكانت هذه الرتبة فى المكان الثالث بين خدم السلطان، وكان من كالابريا (بإيطاليا)، وكان رجل بر ورحمة، يعامل أسراه معاملة طيبة، ووصل عدد أسراه إلى ثلاثة آلاف، والذين بعد موته، تم توزيعهم طبقًا لما ترك فى وصيته بين السلطان (وهو بمثابة الوريث لمن يموتون بنصيب يقدر بنصيب كل ابن من أبناء المتوفى)، وبين مماليكه، وقد كنت من نصيب مملوك أصله من فينيسيا، كان يعمل غلامًا فى سفينة، وأسره المملوك الأقرع، وأحبه كثيرا، حتى صار من أكثر غلمانه المدللين، وعندما كبر صار من أكثر المماليك قسوة ممن رأيت، وكان يسمى أذان أغا، وصار غنيا جدا، وارتقى ملكًا للجزائر، ومعه رحلت عن القسطنطينية، بعض الشىء سعيدًا، لأنى سأصير قريبًا من إسبانيا، وليس لتفكيرى فى الكتابة لأحد حول حظى التعس، ولكن لأرى عما إذا كان الحظ يحالفنى أفضل من القسطنطينية، التى حاولت فيها ألف طريقة للهرب، ولم تجد أىٌّ منها سنوح الفرصة أو التوفيق، من ثم لعلى أجد فى الجزائر طريقة أو وسيلة لإدراك مناى، لأننى لم يهجرنى قط أمل التحرر، وكلما كنت أصمم طريقة وأضعها موضع التنفيذ، لا توافق الريح ما تشتهى السفن، وعندها لا يرحل عنى الأمل، حيث أصطنع وأبحث عن أمل جديد يغذينى، مهما كان واهنا

وضعيفًا. وبهـذا كنت أسرى عن حياتى، محبوسًا فى سجن أو بيت يسميه الأتراك (الحمّام)، حيث يسجنون الأسرى المسيحيين، يتساوى فى ذلـك أسـرى الملـك أو غيره من بعض الأشخاص العاديين، ويطلقـون علـى هـؤلاء الأسـرى "رقيـق المخزن"، وهو شيء يشبه "رقيق المجلـس". ويخـدمون المدينـة فـى المرافـق والخدمات العمومية، بجانب مهن أخرى، وهؤلاء الأسـرى مـن الـصعب جـدا تحريرهم، لأنهم يصيرون ملكًا مشاعًا، وليس لهم سيد خاص، فلا يوجد مـن يـتم اللجوء إليه لمعالجة موضوع الفدية، حتى لو امتلكها الأسير. فى هذه الحمامـات، كما قلت، تعود بعض الأشخاص العاديين على إيداع أسـراهم، وخاصـة عنـدما يكونون من أسرى فى انتظار دفع الفدية، حيث يتركونهم هناك مستغنين عن خـدماتهم نظير ضمان عدم هربهم حتى تصل الفدية. أيضًا أسرى الملك، الذين فى انتظار الفديـة لا يخرجون للعمل مع الآخرين من أسرى العامة، إذا لم تتأخر الفدية، لكـن إذا حـدث وتأخرت، فإنهم حتى يجعلونهم يكتبون لاستعجالها بإلحاح، يدفعونهم للعمل، والـذهاب للبحث عن الحطب وتقطيع الخشب مع الآخرين، ولم يكن عملاً هين الخطب.

وقد كنت من أسرى الفدية، كما عرف أننى فى رتبة قبطان، رغـم ذكـرى ضيق أحوالى ونقص أموالى، وهو أمر لم يفد فى شيء، حتى لا يـسجلونى فـى قائمة الفرسان وأهل الافتداء. وضعوا لى قيدًا، علامة على أننى من أسرى الفديـة، أكثر من مجرد الرغبة فى تقييدى به، وهكذا كنت أقضى الحياة فى ذلك الحمام، مع فرسان كثيرين آخرين، وأسرى من الرجـال البـارزين والمهمـين، موسـومين ومعاملين أسرى فدية؛ ومع أن الجوع والعرى يمكـن أن يرهقنـا أحيـانًا بـل تقريبًا بشكل دائم، لكن لا شيء كان يرهقنا أكثر من سماعنا ورؤيتنا فى كل خطوة ما لم ير ويسمع قط عن القسوة التى يعامل بها سيدى المسيحيين، ففـى كـل يـوم يشنق واحدًا منهم، أو يضرب آخر، أو يبتر آذان ثالث، ويحدث هذا لسبب بـسيط،

أو بدون سبب أكثر من فعله ومن كون خلقه الطبيعي قتل كل الجنس الإنساني. فقط تحرر من ذلك معه جندي إسباني لا أذكر اسمه لكن لقبه سابدرا[*]، والذي لقيامه بأفعال سوف تبقى في ذاكرة هؤلاء الناس لأعوام طويلة، (وقد فعل كل ذلك للحصول على الحرية)، لم يضرب بعصا، ولم يأمر بضرب أحد، ولم يقل كلمة توبيخ أو إساءة، ولأقل شيء من أشياء كثيرة عملها، كنا نخاف جميعًا أن يضرب، بل هو نفسه خاف ذلك أكثر من مرة، ولو أن الوقت يسمح لقلت لكم الآن شيئًا عما فعله ذلك الجندي ليكون ذلك شطرًا من تسليتكم، وسببًا لعجبكم، أكثر من قص تاريخ حياتي.

أقول، كانت تطل من أعلى على فناء سجننا نوافذ منزل عربي ثري، ومن خاصة البلد، ومثل نوافذ العرب المعتادة كانت ثقوبًا أكثر منها نوافذ، وحتى هذه الثقوب كانت تغطى بمشربيات كثيفة ومُحكمة. وحدث في أحد الأيام، عندما كنا على سطح سجننا أنا وثلاثة رفقاء آخرين، نمارس تجربة القفز بالسلاسل التي في أقدامنا، لتسلية الوقت حال وجودنا وحدنا، فالآخرون من المسيحيين كانوا قد خرجوا للعمل، ولم أكد أرفع عينيَّ حتى رأيت في تلك النوافذ التي حكيت عنها عود غاب يظهر، وفي طرفه قطعة من النسيج، وكان العود يتثني ويتحرك، كما لو كانت إشارات تدعونا تقريبًا لالتقاطه. تأملنا، وذهب أحد رفقائي، ووضع نفسه تحت العود ليرى هل يلقونه، أو ماذا به يفعلون، رفعوا العود إلى أعلى وحركوه نحو الجانبين، كما تقال (لا) بالرأس.

عاد المسيحي وعادوا إلى تدلية العود، وعمل نفس الحركات الأولى، وذهب آخر منا، وحدث معه ما حدث للأول. أخيرًا ذهب الثالث، وكان نصيبه نصيب الأول والثاني. وخلال مشاهدتي ذلك، أحببت أن أجرب حظي، وهكذا وضعت

(*) هو ثربانتس نفسه مؤلف هذه الرواية.

نفسى تحت العود، فتركوه يسقط، وسقط تحت قدمى فى الحمّام، وذهبت لتخليص النسيج وكان معقوذا، وداخل العقدة عشرة دراهم، وهى قطع نقدية من الذهب القشرة، مما يستعمل العرب، وكل درهم يساوى عشرة ريالات عندنا. إذا كنت قد ابتهجت باللقية، فهو أمر مفروغ منه لا يستدعى ذكره. لقد كنت مغتبطًا مثل ما يمكن أن يحدث لكم لو كنتم مكانى، وخاصة أن العود رفض السقوط إلا تحت أقدامى، مما يخصنى دون الآخرين بالإنعام. أخذت نقودى الطيبة، وكسرت العود، وعدت إلى السطح، ونظرت إلى النافذة ورأيت يدًا شديدة البياض تخرج منها، تفتحها وتغلقها فى سرعة خاطفة. بهذا فهمنا أو تخيلنا أن هناك امرأة تعيش فى هذا البيت هى التى قدمت لنا هذا الخير، وعلامة على أننا شاكرون قمنا بتحيتها على طريقة العرب؛ انحناءة للرأس، وثنى الجسد، ووضع الذراعين فوق الصدر.

بعد ذلك بقليل أبرزوا من النافذة صليبًا مصنوعًا من الغاب، ثم أدخلوه فى الحال. هذه العلامة أكدت لنا أن إحدى المسيحيات لابد أن تكون أسيرة فى ذلك البيت، وأنها هى التى تشير نحونا، لكن بياض اليد البض، والأساور التى بها، بددت هذه الفكرة، ورغم ذلك تخيلنا أنها لابد أن تكون مسيحية أسلمت، ممن اعتادوا على اتخاذهن زوجات لنفس السادة الذين يملكونهن، بل وزوجات محظيات بشكل من التقدير لا ينلنه فى أوطانهن وبين أهلهن. فى كل أحاديثنا ذهبنا بعيدًا عن حقيقة الحال، وهكذا منذ تلك اللحظة وما تلاها اتخذنا تسليتنا فى النظر، واعتبار النافذة شمال بوصلتنا، حيث ظهرت نجمة عود الغاب، لكن مضت خمسة عشر يومًا دون أن نراها أو نرى يدها أو أى إشارة أخرى. ومع غيابها حاولنا بكل السعى أن نعرف من يعيش فى ذلك البيت، وهل به مسيحية ارتدت إلى الاسلام، فلم نجد قط من يقول لنا غير أن عربيا ثريا يعيش فى البيت، وهو عمدة باطا، واسمه الحاج مراد، وعمله رفيع عندهم، لكن عندما أهملنا الأمر وكنا هناك على

السطح أمطرتنا النافذة بمزيد من الدراهم، حيث على غير ميعاد ظهر عود الغاب، وقطعة النسيج مرة أخرى، مع عقدة قد نمت، وكان ذلك فى وقت خلا فيه الحمام من الناس مثل المرة السابقة. وقمنا بالتجربة المعتادة، بأن ذهب كل واحد منهم أولاً ماعداى، وذلك من ثلاثة الرفقاء الذين كانوا معى، لكن عود الغاب لم يهبط لأحد منهم، إلا لى عند اقترابى فى الآخر، حيث ألقوه بين قدمىّ. فككت العقدة، ووجدت أربعين دينارًا إسبانيًا من الذهب وورقة مكتوبة بالعربية، وفى نهاية الكتابة رسم صليب كبير. قبلت الصليب وأخذت الدنانير، وعدنا إلى السطح، وقمنا بكل إشارات التحية والسلام، وعادت اليد للظهور، وقمت بإشارة تفيد بأننى سوف أقرأ الورقة، وأغلقوا النافذة. بقينا جميعًا فى حيرة وطرب لما حدث، وكما أنه لا أحد فينا يفهم العربية، كبرت عندنا الرغبة فى معرفة ما جاء بالورقة من كتابة، وزادت صعوبة العثور على من يقرأها لنا. فى النهاية عزمت على وضع ثقتى فى أحد المماليك المرتدين عن المسيحية للإسلام وهو من أهل مرسية، وكان يفصح عن نفسه باعتباره صديقًا كبيرًا لى، وتعاهدنا نحن الاثنان أن يحفظ السر (نظير حفظى لسره)، حيث إن بعض المرتدين، عندما تكون لديهم النية للعودة للأرض المسيحية، فإنه يحمل معه بعض توقيعات أسرى مهمين وذوى حيثية، يقرون فيها أن ذلك المرتد رجل بر، وأنه كان يساعد المسيحيين، وأنه لديه الرغبة فى الهرب عند أول فرصة ممكنة. وبعضهم يستخدم هذه الإقرارات بنية حسنة، والبعض الآخر يستخدمها باعتبارها احتياطًا وحيلة عندما يذهب للسطو على الأرض المسيحية، ويتوه فيها أو يؤسر.

فى هذه الحال يخرجون تلك الأوراق ويقولون إنهم من أجل ما جاء بها جاءوا إلى الأرض المسيحية، مع القراصنة الأتراك. بهذا يهربون من هذا الخطر الأول الذى قد يداهمهم، ويتصالحون مع الكنيسة، دون أن تلحق بهم أذى، وعند

رؤيتهم أصحابهم القراصنة من جديد يعودون إلى بلاد الشمال الإفريقى ويعودون إلى نفس حياتهم السابقة، بينما آخرون يستعملون تلك الأوراق بإخلاص، ويبقون فى الأرض المسيحية. من ثَم، أحد هؤلاء المرتدين، وكان صديقًا لى، ويحمل توقيعات من كل زملائنا الأسرى، وبها يضمنون إخلاصه بما وسعهم من أيمان، وإذا وجد العرب معه هذه الأوراق سوف يحرقونه حيا. وعرفت أنه يجيد العربية جيدًا، وليس فقط على مستوى الكلام، إنما على مستوى الكتابة، لكن قبل أن أتصارح معه ويتصارح معى، طلبت منه أن يقرأ لى ورقة وجدتها فى شرخ من جدران الحمام. فتحها، وبقى وقتًا طويلاً ناظرًا إليها، ومركبًا لمعانيها، ومتمتمًا بكلماتها من بين أسنانه، وسألته عما إذا كان يفهمها. قال لى أفضل الفهم، وسألنى عما إذا كنت أود أن أسمعها كلمة كلمة، فأجبت بنعم، ومضى يترجمها شيئًا فشيئًا.

وعندما انتهى قال:

- **كل ما هو مكتوب هنا بالرومانثية(*)، دون نقص حرف واحد هو ما يفهم من هذه الورقة الموريسكية(*)، ويجب أن تعلم أنه حيث تقول ليلا مارين، المقصود هو سيدتنا العذراء مريم، وقرأنا الورقة وكانت تقول:**

"عندما كنت طفلة، كان عند أبى أمة (من الرقيق)، وقد علمتنى بلغتى الصلاة المسيحية، وقالت لى أشياء كثيرة عن ليلا مارين. وقد ماتت هذه الأمة المسيحية، وأنا أعلم أنها لم تذهب إلى النار، لكنها فى رحاب الله، لأنى رأيتها مرتين (فى الحلم)، وقالت لى أن أذهب إلى الأرض المسيحية لأرى ليلا مارين، التى تحبنى كثيرًا. وأنا لا أعرف كيف أذهب، وقد رأيت مسيحيين

(*) الرومانثية هى اللهجة اللاتينية فى إسبانيا، والتى صارت فيما بعد اللغة الإسبانية، واللغات الأخرى ذات الأصل اللاتينى فى إسبانيا، والموريسكية هنا يقصد بها العربية.

كثيرين من هذه النافذة، ولم أر فيهم من يبدو فارسًا إلا أنت، وأنا فى غاية الحسن والصبى، وعندى نقود كثيرة لأحملها معى، فانظر أنت ماذا يمكنك عمله كى نذهب معًا، وستصير زوجًا لى، إذا رغبت، وإذا لم ترغب، فلن يغضبنى فى شيء، إن ليلا مارين سوف تمنحنى زوجًا، وقد كتبت هذا وعليك التفطن فيمن يقرأه: لا تثق فى أى عربى، لأنهم جميعًا خطرون. وعندى خوف مؤلم، فلا تكشف هذا لأحد، لأن أبى لو علم سوف يلقى بى فى بئر، ثم يغطينى بالحجارة، وفى قصبة الغاب سوف أضع خيطًا اربط به إجابتك، وإذا لم تجد من يكتب لك بالعربية، أجبنى بالإشارات، فإن ليلا مارين ستجعلنى أفهمها، والله وهى سوف يحفظانك، وهذا الصليب الذى أقبله عدة مرات، قد أوصتنى به الأسيرة الميتة"

انظروا أيها السادة، كانت هذه الورقة سببًا (فوق كل سبب) لبهجتنا، ودهشتنا، وبين أخذ ورد بينى وبين المرتد؛ سألنى عما إذا كنت قد وجدت هذه الورقة، أم أن أحدًا كتبها بالفعل لى أو لأحد زملائى. وهكذا رجانا إذا كان ما يشك فيه حقيقيا، علينا الثقة فيه، بأن نقول له كل شيء، وأنه سوف يغامر بحياته من أجل حريتنا. وعند قوله هذا أخرج من صدره صليبًا عليه صورة المسيح وأقسم دامعًا بصاحب الصورة أنه صحيح العقيدة حتى لو كان مذنبًا، وسوف يحافظ على إخلاصه لنا، وسر كل ما نود كشفه له، لأنه كان يبدو له، وتقريبًا يخمّن، أنه عبر هذه الورقة يمكن تحريرنا جميعًا، وأنه مقسم مع جهله وإثمه وهو عضو من شعب الكنيسة، أمه، وأنه يود العودة إليها. بدموع كثيرة، وأدلة على الندم، قال المرتد ذلك، وباتفاق بيننا فى الرأى، وافقنا على أن نقول له كل شيء دون أن نخفى شيئًا، وأريناه النافذة التى يخرج منها عود قصب الغاب. ومن ساعتها راقب البيت ليعرف جيدًا من يعيش فيه، واتفقنا أن نرد على ورقة الفتاة العربية، وحيث إنه ليس بيننا

من يستطيع الكتابة، فإن المرتد كتب ما أمليت عليه من عبارات، سوف أذكرها بالضبط كما أمليتها، لأن كل نقطة مما حدث لى لم ولن تغادر ذاكرتى ما حييت. وبالفعل، ما تم إجابة الفتاة العربية به كان:

"ليحفظك الله الحق، يا سيدتى، ولتحفظك مارين المباركة، والتى هى الأم الحقيقية لله، وهى التى ألهمت قلبك بالذهاب إلى الأرض المسيحية، لأنها تحبك أطيب الحب. تضرعى إليها بأن تباركك، وتقول لك كيف يمكنك تنفيذ ما توصيك به، ولأنها كريمة سوف تلهمك. وأنا من ناحيتى وناحية كل هؤلاء المسيحيين الذين هم معى، نعرض عليك أن نفعل من أجلك كل ما نستطيع حتى الموت. لا تتركى الكتابة إلىّ بما تفكرين فى عمله، وأنا سوف أجيبك دائمًا، حيث إن الله العظيم قد أعطانا مسيحيا أسيرًا يعرف الكلام والكتابة باللغة العربية بشكل جيد كما ترين فى هذه الورقة. هكذا دون خوف تستطيعين إعلامنا بكل ما تحبين، وفيما يتعلق بالذهاب إلى أرض المسيحية لتصيرى زوجتى، فإنى أعدك به بوصفى مسيحيا تقيا، واعلمى أن المسيحيين يفون بكلمتهم أفضل من المسلمين، حفظك الله ومارين، سيدتى".

عند الانتهاء من كتابة وإغلاق هذه الورقة، انتظرت يومين حتى يخلو الحمام من ناسه كالمعتاد، ثم صعدت إلى السطح، لأرى هل تظهر قصبة الغاب، ولم تتأخر كثيرًا فى الإطلال، وهكذا رأيتها دون أن أرى من يخرجها. أظهرت الورقة حتى يضعوا الخيط، لكنى وجدته فى القصبة فربطت به الورقة، وبعد قليل ظهرت نجمتنا بعلم السلام الأبيض لعقدة النقود. ألقوا بالقصبة، والتقطتها، ووجدت فى قطعة النسيج المعقودة نقودًا من الذهب والفضة أكثر من خمسين دينارًا، ضاعفت سرورنا خمسين مرة، وأكدت أملنا فى نيل الحرية. فى نفس تلك الليلة

عاد المرتد صديقنا ليقول لنا إن المنزل يسكن به ذلك العربى الذى سبق ذكره والمسمى الحاج مراد، شديد الثراء إلى حد المبالغة، وليس لديه غير ابنة واحدة، وهى الوريثة الوحيدة لكل الثروة، والرأى العام فى كل المدينة أنها أجمل فتاة فى الشمال الإفريقى(*)، وأن كثيرًا من الولاة ونوّاب الملوك قد جاءوا لخطبتها زوجة، وأنها لم ترغب قط فى الزواج، وعرف أيضًا أنها كانت عندها أمة مسيحية أسيرة، قد ماتت، وكل هذا أكد ما جاء بالورقة. وهنا تشاورنا مع المرتد عن كيفية الذهاب جميعًا إلى الأرض المسيحية، وحمل الفتاة العربية معنا. وفى النهاية تم الاتفاق على الانتظار حتى يصل الخطاب الثانى من زرايدا (هكذا كانت تسمى من تود أن تحمل اسم ماريا)؛ لأنها هى ولا أحد آخر التى كانت ستقدم وسيلة للتغلب على الصعوبات. بعد الاتفاق على ذلك، قال المرتد: علينا ألا نحزن، لأنه إما يمنحنا الحرية أو دون ذلك فقدان حياته. بقى الحمام أربعة أيام يغص بناسه، فكان ذلك سبب تأخر ظهور عود الغاب نفس المدة، وبعدها عاد المكان موحشًا من ناسه كالمعتاد، وظهر النسيج بعقدة كبرى تعد بولادة سعيدة جدا. أملت العود إلىَّ فوجدت به ورقة أخرى ومائه دينار إسبانى ذهبًا صافيًا ليس معها عملات أصغر، وكان هناك المرتد، وأعطيناه الورقة ليقرأها داخل عنبرنا، وقد قال إنها تقول الآتى:

" أنا لا أعرف يا سيدى، كيف أضع نظامًا لرحيلنا إلى أسبانيا،ولم تقل لى ليلا مارين عن أى ترتيب لذلك، رغم أننى طلبت منها العون. وما أعرفه هو أننى سوف أعطيكم عبر هذه النافذة مبالغ كبرى من النقود، اعتقوا بها أنفسكم بدفع الفدية أنت وأصدقاءك، وليذهب أحدكم إلى أرض المسيحية ليشترى من هناك سفينة ويعود بها لحمل الباقين، وسوف تجدوننى فى حديقة أبى، وهى

(*) "باربيريا" BARBERIA فى الأصل، اسم قديم أطلق على كل الشمال الإفريقى من طبرق إلى مراكش.

عند باب(باباثون)[*]، بجوار البحرية،حيث عليَّ أن أقضى كل هذا الصيف مع أبي وخدمى. ومن هناك، بالليل يمكن حملى إلى السفينة دون خوف، وانظر فيما عليك من أن تصير زوجًا لى، وإذا لم تفعل سأطلب من مارين عقابك. وإذا لم تثق فى أحد للذهاب من أجل المركب، افتد نفسك وانظر فى الأمر لأنى أعلم أنك ستعود أفضل من الآخرين لأنك فارس وتقى. حاول معرفة الحديقة، وعندما تظهر على سطح الحمام سأعرف أنه موحش من الناس، وسأعطيك مالاً كثيرًا، حفظك الله يا سيدى".

هذا ما كان يقول ويحتوى الخطاب الثانى، ورآه الجميع، وكل واحد عرض أن يكون أول من يفتدى، ووعد بالذهاب والعودة بكل انضباط ودقة، وأنا أيضًا عرضت نفس العرض، وقد اعترض المرتد على الجميع، وقال لن ينال أحد الحرية وحده حتى ينالها الجميع دفعة واحدة، لأن التجربة أثبتت له سوء إنجاز الكلمة التى تعطى فى الأسر لمن صار حرا، لأن بعض الأسرى ذوى الحيثية، كانوا يعتقون أحدهم، ويذهب إلى بلنسية أو ميورقة بنقود لإعداد مركب، والعودة لحمل من أعتقوه، ولم يعد أحد قط، لأن الحرية المكتسبة والخوف من العودة لفقدها كانت تمسح من الذاكرة كل اضطرار وواجب فى العالم. وبالتأكيد للحقيقة التى قالها لنا، حكى لنا باختصار حالة وقعت فى نفس ذلك الزمان لبعض الفرسان المسيحيين، والأغرب أن إنجاز الوعد لم يحدث قط فى تلك الأنحاء، حيث كل خطوة تقع أشياء مفزعة ومذهلة. وبالفعل، انتهى إلى القول إن النقود التى كانت ستعطى لفدية أحدنا للذهاب وشراء مركب والعودة، سوف يأخذها هو ليشترى هناك من الجزائر مركبا، بحجة التجارة فى تطوان، ومع المدن على نفس ذلك الساحل. وعندما

(*) الكلمة الإسبانية BABAZON، وتحتاج للتحقيق من خطط مدينة الجزائر، ومن الواضح أنها (باب ال..)

يصير هو صاحب المركب، فإنه لكونه تاجرًا له معاملات يمكنه أن يتخذ إجراءات إخراجنا من الحمام، وحملنا على المركب إلى حيث نريد. وفيما يتعلق بالفتاة العربية، فإنها إن أعطت نقودًا لفدية الجميع، فإن صيرورتهم أحرارًا سوف يصبح الإبحار بهم أسهل كثيرًا وفي وضح النهار. والصعوبة أن المسلمين لا يسمحون للمملوك المرتد بشراء أو امتلاك مركب، وخاصة إذا كان إسبانيًا، لأنه لن يفعل ذلك إلا للذهاب إلى إسبانيا، بينما يسهلون له امتلاك سفينة كبيرة للخروج من أجل القرصنة. لكنه سوف يتغلب على هذه العقبة، بأن يدخل أحد عرب طنجة من التجار معه شريكًا في المركب وأرباح التجارة، وفي ظل ذلك سيصبح السيد على السفينة، وبها ينهي باقي الخطة. ورغم أنه بدا لي ولزملائي أن ذلك أفضل من إرسال أحد إلى ميورقة، فإننا لا نجرؤ على معارضته خوفًا من كشفه اتفاقنا مع زرايدا فنفقد الحياة، وتفقدها زرايدا، التي من أجل حياتها كنا على استعداد للتضحية بحياتنا. وهكذا قررنا أن نضع أنفسنا في يد المرتد، ويد الله. وحول نفس الأمر رد على زرايدا، قائلا لها إننا سنفعل كل ما تنصحينا به، لأن ما ذكرتيه كما لو كان صادرا عن ماريين نفسها، وأن عليها فقط يعتمد تنفيذ الأمر وزمنه، عارضًا عليها من جديد أن أصير زوجًا لها؛ وعلى هذه الحال، جاء اليوم التالي، حيث صادف خروج الناس من الحمام، أعطتنا ألفي دينار ذهبًا عبر تقديمها بالغاب على عدة مرات، وبعثت بورقة حيث تقول إنها في أول جمعة سوف تذهب إلى حديقة أبيها، وإنها قبل أن تذهب ستعطينا مالاً أكثر، وإذا لم يكفنا ذلك المال فإنها سوف تعطينا كل ما نطلب، فقط علينا إبلاغها، فوالدها لديه الكثير، ولن يحس بنقص ما تأخذه، وخاصة أنها لديها مفاتيح كل شيء. أعطينا في حينها خمسمائة دينار للمرتد ليشتري المركب، وفديت نفسي بثمانمائة، بإعطاء النقود لتاجر بلنسي كان يوجد في ذلك الوقت بالجزائر، والذي افتداني في ذلك الوقت من الملك مستلمًا لي بناء على

إعطاء كلمة بأن يدفع فديتى مع قدوم أول سفينة بلنسية، لأنه لو أعطى النقود فـــى الحال، فإن الملك سوف يشك فى أن نقود الفدية قد مكثت وقتًا طويلاً فى الجزائــر، وأن التاجر لم يدفعها، وبقى ساكتًا كى يستخدمها فى تجارته. أخيرًا، سيدى الملــك كان شديد المراقبة، فلم أجرؤ على دفع النقود فى الحال.

ويوم الخميس السابق للجمعة التى ينبغى أن ترحل فيه زرايدا الجميلة إلـــى الحديقة أعطتنا ألف دينار أخرى، وأبلغتنا برحيلها، راجية لى أن أحـــاول معرفـــة والدها، إذا افتديت نفسى، وعلى أى الأحوال، أن أبحث عن فرصة للذهاب هنـــاك ورؤيتها. أجبتها فى كلمات قليلة، بأننى سوف أفعل مـــا تريـــد هـــى، وعليهـــا أن تحرص على أن تضعنا تحت رعاية ليلا ماريين، بكل الصلوات التى علمتها لهـــا الأمة الأسيرة. وعند عمل ذلك، أعطوا أمرًا بافتـــداء رفقـــائى الثلاثـــة، لتـــسهيل خروجهم من الحمام، ولأنهم إذا رأونى قد افتديت نفسى دون افتدائهم، وخاصـــة أن هناك نقودًا، فإنهم قد يرفعون أصواتهم، ويغريهم الشيطان أن يفعلوا شـــيئًا يـــضر زرايدا، ورغم أنهم أنفسهم من كانوا يؤمنوننى من هذا المحظور، فإننى لم أحب أن أضع كل القضية تحت رحمة المجازفة، وهكذا افتديتهم بنفس الترتيب الذى افتديت نفسى، مسلمًا كل المال للتاجر، حتى يقدم ضمانًا بدفع الفدية بكل اليقين والطمأنينة، ولم نكشف لهذا التاجر قط اتفاقنا وسرنا، للخطر الذى يحيط به.

الفصل الحادى والأربعون
حيث يواصل الأسير قصّ حكايته

ولم تكن قد مرت خمسة عشر يومًا، حتى كان صديقنا المرتد قد انتهى من شراء مركب تتسع لأكثر من ثلاثين شخصًا، وحتى يؤمّن فعلته ويعطيها لونًا، قام برحلة إلى مدينة تسمى سرجل على بعد ثلاثين فرسخًا من الجزائر، في جهة أوران التى بها تعاقدات كثيرة لشراء التين المجفف، وقد قام بهذه الرحلة مرتين أو ثلاث مرات في صحبة الطنجي الذى تحدثنا عنه. والطنجيون يسمون مسلمى أراجون، ومسلمى غرناطة (المدجنون)(*)، وفي مملكة فاس يسمونهم (العلوج)(**)، وهم أفضل من يخدمون الملك فى الحرب. وأقول إنه فى كل مرة من رحلاته كان يرسو عند مرسى صغير، على بعد خطوات من سور الحديقة، حيث كانت زرايدا تنتظر، وهناك كان المرتد يعمد إلى النزول من المركب مع العرب الذين يجدفون له، إما لأداء الصلاة، وإما كي يجرب ما يفكر فعليًا فى القيام به، على سبيل الممازحة، وهكذا كان يذهب إلى زرايدا، ويطلب شراء فاكهة، وكان والدها يقدم له الفاكهة دون أن يعرفه، ومع رغبته فى التكلم مع زرايدا، كما قال بعد ذلك، ليقول

(*) المدجنون Mudejares تطلق على الأندلسيين الذين كانوا يبقون فى المدن التى يفتحها مسيحيو الشمال، وذلك قبل سقوط غرناطة، وبعد سقوطها أطلق على من بقى الموريسكيون Los moriscos.

(**) العلوج فهى جمع علج Elche، وكان العرب يطلقونها على مقاتلى المسيحيين فى الأندلس، والجديد هنا إطلاقها على الأندلسيين المرتدين للمسيحية ثم العائدين للإسلام ولدار الإسلام للقتال.

لها إنه الذى سوف يحملها بأوامر منى إلى الأرض المسيحية، حتــى تقــر عينهــا وتطمئن، لكن لم يكن ممكنًا قط له أن يفعل، لأن العربيــات لا يــسمحن لأحــد أن يراهنّ من العرب أو الأتراك ما لم يكــن الــزوج أو بــأمر الأب، أمــا بالنــسبة للمسيحيين الأسرى، فهن يتعاملن معهم ويتصلن بهم، كما يفعلن مع غيــرهم ممــن يشرع لهن رؤيتهم. وبالنسبة لى فكرت فى أنه لو تكلم معها، لأثار اضــطرابها أن ترى أن شأنها يقضى على يد مرتد، ويدور على لسانه. لكــن الله رتــب الأمــور بطريقة أخرى، فلم يحقق الرغبة الطيبة لصديقنا المملوك المرتد، عندما كــان فــى ذهاب وإياب إلى سرجل، حيث كان يرسو متى وكيفما وحيثما أراد، وكان رفيقــه الطنجى لا توافق إرادته إلا كل ما وافق ارادة صديقنا. وأنا وقد تم افتــدائى، ولــم يكن ينقصنى غير أن أجد بعض المسيحيين ليجدفوا لنا، عندما قال بأن أنظر فــيمن أود إحضارهم غير رفقائى المفتدين، وأن علىَّ أن أخطرهم ليجهزوا أنفــسهم لأول جمعة، يوم قر عزمه على إقلاعنا. وعندما رأيت ذلك، تكلمت مــع اثنــى عــشر إسبانيًا، وكلهم رجال أشداء للتجديف، وممن يمكنهم الخروج بحرية من المدينة، ولم يكن بالأمر الهين العثور على هذا العدد الكبير فى تلك الظروف، لوجود عــشرين سفينة قد خرجت للقرصنة فى البحر، حاملة معها كل رجال التجديف، وهؤلاء لــم يكن من الممكن العثور عليهم إذا لم يكن سيدهم قد بقى ذلك الصيف دون الخــروج للقرصنة، لإتمام بناء سفينة فى ورشة لبناء السفن، ولم أقل لأحد منهم شــيئًا أكثــر من أن عليهم الخروج فى تسلل واحدًا وراء واحدٍ فى مساء أول جمعة، وأن يذهبوا فى اتجاه الحديقة المملوكة للحاج مراد، ويظلوا فى انتظار قدومى. وقد أعطيت هذا التنبيه لكل منهم منفردًا، بأمر ألا يقول شيئا إذا وجد بعض المسيحيين هناك، فالأمر بالذهاب والانتظار فى ذلك المكان فحسب، وعند الانتهاء من هذا المــسعى، بقــى علىَّ مسعى آخر كان يجرى لصالحى أكثر، وهو التنبيه على زرايــدا وإخطارهــا

بالنقطة التى وصلت إليها الأمور، حتى تكون على علم ويقظة، حتى لا تفـزع إذا هبطنا عليها ارتجالاً، قبل الوقت الذى تتصور إمكان وقوع الإقلاع فيه، فى انتظار قدوم سفينة مشتراة من إسبانيا. وهكذا قررت الذهاب إلى الحديقة لأرى إذا كان من الممكن الكلام معها؛ وذلك بحجة التقاط بعض الحشائش. وفى اليوم السابق للإقلاع، ذهبت إلى هناك، وكان أول من التقيت به أبوها، الذى قال لى فى لغة تستعمل فـى كل شمال إفريقيا بين الأسرى والعرب، وهى ليست بعربية أو إسبانية؛ ولا تنتمـى لأى أمة أخرى، وهى عبارة عن خلطة من كل اللغات، وبها نتفاهم جميعًا، أقـول إذن بهذا اللسان سألنى عما أبحث عنه فى حديقته، ومن أكون أنا. أجبته بأنى عبـد أرناءوطى مامى (وهذا لأننى كنت أعرف يقينًا أنه صديق حميم له)، وأننى أبحـث عن كل الحشائش الصالحة لعمل السلطة. ثم سألنى بالتالى هل أنا من أسرى الفدية أم لا، وكم يطلب سيدى ثمنًا لى. وبينما نحن فى تلك الأسئلة والأجوبة، خرجت من بيت الحديقة زرايدا الجميلة، التى لم أرها منذ زمن. وكما أن العربيات لا يـتكلفن عدم السفور أمام المسيحيين، أو ينفرن منهم، كما سبق القول، فلم يمنعها مانع مـن الحضور إلى حيث كان أبوها معى، وساعتها عندما رآها أبوها قادمة فـى بـطء نادى عليها، وأمرها أن تقترب.

ومن نافلة القول الحديث عن الحسن الباهر، واللطافـة الـساحرة، والظـرف البديع، والزينة الثرية التى عرضتها حبيبتى زرايدا أمام عينى، فقط قد أتحـدث عـن اللآلئ الغزيرة فى جيدها الفتان وأذنيها، أما شعرها، وأى شعر يزين الرأس. إنها من حنجرتها إلى قدمها كانت سافرة على سجيتها عن زينة، وفى قدميها خلخـال وفـى يديها أساور كلها من الذهب الخالص بالغ النقاء، والذى يتخلله الماس، ولقد قالت بعد ذلك أن والدها يقدر ثمن هذه الحلى بعشرة آلاف دينار لما فى القدم، وبنفس المبلـغ

لما فى رسغى يديها. واللؤلؤ كان بكميات كبيرة، وذات أصالة، لأن أعظم فخر وأبهة عند العربيات هو التزين باللؤلؤ والجواهر، وهذا ما لا تجد له نظيراً إلا عند العـــرب. وكان والد زرايدا مشهوراً باقتناء أثمن اللآلئ والجواهر فى كل الجزائر، بجانب ثـــروة نقدية تصل إلى مائتى ألف دينار إسبانى.

والفتاة التى هى فتاتى اليوم، هى مالكة كل ذلك، وإذا كانت بما ترتــدى الآن من أسمال بهذا الجمال يمكن أن نخمن ما كانت ينبغى أن تكون عليـــه فـــى أيـــام الرخاء من حسن. لأن المعروف أن حسن بعض النساء له أيام ومواسم، ويتطلـــب أن تعرض أشياء له حتى يضمر أو يزيد، وإنه لأمر طبيعى أن انفعـــالات الـــنفس ترفعه أو تخفضه، رغم أنها تدمره فى أكثر الأحيان. أقول فى النهاية، اقتربت، وقد وصل التزين عندها إلى أقصاه، والجمال بها إلى أطرافه، التى على الأقل، بالنسبة لى، لم أر لها نظيرًا حتى تلك اللحظة، وبهذا، متأملاً فى المسئوليات التـــى ألقتهـــا على عاتقى، ظهر لى أننى أمتلك أمام عينى إلهة من الـــسماء، قـــد هبطـــت إلـــى الأرض لسرور حياتى، وعلاج أوجاعى. وعندما وصلت قال لها والدها بلغته إننى عبد لصديقه أرناءوطى مامى، وإننى جئت للبحث عن حشائش للسَّلطة. بدأت هى فى الحديث، ومع تلك الخلطة من اللغات التى ذكرتها سألت عما إذا كنت فارسًا، وعـــن سبب عدم افتدائى. قلت لها إنه قد تم افتدائى، ومن السعر يمكن ملاحظة قدرى عنـــد سيدى، فقد دفعت ألـــفًا وخمسمائة دينار سلطانى. وقد أجابت على ذلك:

– فى الحقيقة لو كنت ملك أبى، كنت قد عملت على أن تدفع ضـــعف هـــذا، لأنكم أيها المسيحيون تكذبون فى كل ما تقولون، وتدَّعون أنكـــم فقـــراء لخداع العرب.

وأجبت:

– هذا من الممكن يا سيدتى، لكننى تعاملت فى صدق مع سيدى، وهكذا أفعل وسأفعل مع كل شخص أتعامل معه فى العالم.

قالت زرايدا:

– ومتى سترحل؟

أجبت أنا:

– غدًا على ما أظن، لأن هناك سفينة فرنسية، سوف تقلع غدًا، وأفكر فى الذهاب بها.

أجابت زرايدا:

– أليس من الأفضل الانتظار حتى قدوم سفن من إسبانيا لتذهب بها، حتى لا تذهب مع الفرنسيين، وهم ليسوا أصدقاء لكم.

– لا، وحتى لو هناك أخبار بقدوم سفينة إسبانية وكانت حقيقة فلن أنتظر قدومها، لأن رحيلى غدًا أكثر تأكيدًا، بسبب الرغبة التى عندى لرؤية وطنى والأشخاص الذين أحبهم، وهى رغبة عارمة تجعلنى أتجنب انتظار أية كماليات أخرى، وعدم انتظار أى سفينة أخرى لأى تميز لها مهما كان.

قالت زرايدا:

– يجب– دون شك – أن تكون متزوجًا بوطنك، ولهذا ترغب فى الذهاب لرؤية زوجتك.

أجبت:

– لست متزوجًا، لكنى أعطيت كلمة للزواج بمجرد وصولى.

قالت:

– وهل السيدة التى أعطيتها كلمتك جميلة ؟

– جميلة جدا، لأننى لو سموت بقيمتها وحدثتك عنها، سيبدو لك كثيرًا.

من هذا ضحك الأب، وقال:

– أيها المسيحى، والله ستكون جميلة جدا لو تشابهت مع ابنتى، التى هى أجمل من فى المملكة، وإذا لم تصدق انظر إليها جيدًا، وستعرف مدى صدقى .

وقد قام والد زرايدا بينى وبينها مترجمًا خلال تبادلنا تلك العبارات، باعتباره عربيًا يجيد شيئًا من الإسبانية، وحتى لو كانت هى تتكلم اللغة المولدة التى ذكرتها، فإنها كانت تستعين بالإشارات أكثر من الكلمات. وبينما نحن على هذه الحال من الحديث، وصل عربى يجرى، وقال صارخًا بأن أربعة أتراك قد قفزوا من فوق سور الحديقة، ومضوا يجمعون الفاكهة مع أنها غير ناضجة. فزع العجوز، وأيضًا زرايدا؛ لأن خوف العرب من الأتراك طبيعى تقريبًا، ولاسيما إذا كان هؤلاء الأتراك جنودًا، لأنهم أشرار جدا، ولهم سطوة عظيمة على العرب، حيث يرون فى أنفسهم سادة لهم، ويعاملونهم كما لو كانوا عبيدًا عندهم. وهناك قال الأب لابنته:

– ادخلى يا ابنتى البيت، وسأذهب أنا للكلام مع هؤلاء الكلاب، وأنت أيها المسيحى، التقط حشائشك، واذهب بعدها مصحوبًا بالسلامة، وعد إلى وطنك مصحوبًا بعون الله .

انحنيت محييا، وانصرف هو لمعالجة موضوع الأتراك، تاركًا إياى وحدى مع زرايدا، التى بدأت متظاهرة بالعودة إلى البيت، حيث أمرها أبوها، لكن بمجرد أن أخفته بعض الأشجار، عادت إلىَّ، بعيون مغرورقة بالدموع، وقالت لى:

– ستمشى أيها المسيحى، ستمشى؟

أجبتها:

– **سيدتى نعم، لكن بأى حال من الأحوال، ليس دون صحبتك: انتظرينى الجمعة القادمة، ولا تفزعى عندما ترينا، وسوف نرحل إلى الأرض المسيحية معًا، دون أدنى شك.**

قلت لها ذلك بطريقة جعلتها تفهمنى جيدًا، فألقت ذراعها على رقبتى، وبخطوات من أصابه دوار سارت نحو البيت، وشاء الحظ أن يهددنا بالتخلى عنا لو لم تسر الأمور بطريقة أخرى، فأثناء تحركنا نحن الاثنان بالوضع والطريقة التى حكيتها، من تعلقها بذارعيها فى رقبتى، عاد أبوها بعد أن صرف الأتراك، ورآنا، لكن زرايدا، حكيمة وفطنة، لم تحب أن تسحب ذراعيها بعيدًا عن عنقى، قبل أن يقترب أبوها، لتلقى برأسها فوق صدرى، وتثنى ركبتيها، معطية إشارات واضحة على أنها فى حالة إغماء، وأنا من ناحيتى أظهرت أننى أحتملها ضد إرادتى. وصل أبوها مهرولاً إلى حيث كنا، ورأى ابنته بهذه الحالة، سألها ماذا عندها، وكما أنها لم تجبه، قال:

– **دون شك نتيجة الفزع لدخول هؤلاء الكلاب، قد أغمى عليها.**

وسحبها من فوق صدرى، ووضعها على صدره، وعندها أطلقت تنهيدة، وحتى تلك اللحظة لم تجف دموعها، وقالت:

- ارحل أيها المسيحى، ارحل.

وعلى هذا أجاب والدها:

- لا يهم يا ابنتى أن يرحل المسيحى، فهو لم يرتكب أى أذى ضدك، والأتراك قد انصرفوا، فلا يفزعك أى شيء، حيث لا يوجد أى سبب للفزع، فكما قلت لك إن الأتراك قد مضوا بعد أن استمعوا إلى رجاءاتى.

وقلت أنا لأبيها:

- نعم، لقد رحلوا كما قلت يا سيدى، وأنا سأرحل حتى لا أسبب لها أى ضيق، ولتبق فى سلام، وبإذنك قد أعود من أجل الحشائش، لو كان ذلك ضروريا، لأنه حسبما يقول سيدى لا يوجد فى أى حديقة أخرى حشائش فى جودها.

قال الحاج مراد:

- عد كلما شئت، فابنتى لا تقول ذلك لأنك أو أى أحد من المسيحيين يضايقها، وإنما أرادت القول "فليرحل الأتراك"، فقالت "ارحل أيها المسيحى" أو أنها تعنى اذهب لالتقاط حشائشك.

عند هذا ودعت أباها وودعنى، وهى على ما يبدو، قد ذهبت مع أبيها وكأنما تنتزع روحها من بين جنبيها، وأنا خلال البحث عن الحشائش، فحصت الحديقة جيدًا، وعلى هواى، ورأيت مداخلها ومخارجها، وتحصينات البيت، وكل التسهيلات التى يمكن أن تتحقق لتنفيذ غرضنا. وعند انقضاء هذا تأملت فيما حدث مع المملوك المرتد ولرفقاء أسرى، ولم تكن على مشهد منى تلك الساعة التى أرانى فيها مستمتعًا دون فزع أو مفاجأة بالحسن الذى منحنى إياه الحظ فى شخص زرايدا الجميلة. وفى النهاية، مر الوقت، ووصل اليوم، وحل موعدنا المتمنى؛ وتبع

الجميع الترتيب المضروب فى اعتبار فطن، و دار بيننا حديث طويل عدة مـرات، وها نحن مع الحدث المرتقب، فقد جاءت الجمعة، ورسى المرتد بـسفينته، تقريبًـا على حدود حديقة زرايدا الجميلة عند حلول الليل.

وقد تم تجميع المسيحيين الذين سيتولون التجديف، مختبئين فى أماكن مختلفة حول الحديقة. وكانوا جميعًا معلقين فى اضطراب بانتظارى، مع الرغبة للهجـوم على السفينة التى كانت أمام أعينهم، لأنهم لا يعرفون الاتفاق مع المملوك، وإنمـا كانوا يظنون أنهم سوف يكسبون حريتهم بالقوة، بقتل العرب الذين كـانوا داخـل المركب. وحدث هكذا، عندما ظهرت ومعى رفقاء الأسر، خرج كـل المختبئـين وجاءوا إلينا. وكان فى هذا الوقت قد تم إغلاق أبواب المدينة وراءنا، وما عدا هذه الحملة لم يظهر شبح أى شخص آخر. وعندما أصبحنا معًا ترددنا بـين الـذهاب لحمل زرايدا أفضل، أو إخضاع عرب السفينة قبل ذلك، وكانوا مجموعة من عمال التجديف. وبينما نحن فى هذا التردد، وصل إلينا المملوك، وسألنا فيما ننتظر، فقـد حانت الساعة، وأن العرب فى سفينته الآن فى غفلة، وأغلبهم نائم، فقلنا لـه عـن ترددنا، فقال الأهم أولاً السفينة، والتى يمكن الانتهاء من أمرها بكل سهولة، ودون خطر، ثم بعدها يمكننا الذهاب من أجل زرايدا. وبدا لنا ما قال مقبولاً، وبهـذا دون أن نتعطل أكثر، جعلنا منه مرشدًا، ووصلنا إلى السفينة، قفز هو أولاً، ووضع يـده على خنجره، وقال بالعربية:

– **لا يتحرك أحدكم من مكانه، إذا لم يشأ أن يفقد حياته .**

وعند هذا كان كل المسيحيين قد دخل السفينة تقريبًا. العرب الـذين كـانوا منهارين، ورأوا الرّيس يتكلم بهذه الطريقة، بقوا مفـزوعين، ودون أن يـضع أى منهم يده على سلاح (وفيما يبدو أنه كان قليلاً من معهم سلاح أو ربما ليس معهـم

أى سلاح)، استسلموا لقيود المسيحيين، الذين انتهوا سريعًا مــن تكبيــل الجميــع، مهددين العرب لو رفعوا صوتهم بالقتل ذبحًا. وعند إنجاز هذا بقى نصف العــدد فى حراستهم، ونصفنا الآخر ذهب إلى الحديقة متخذًا أيضًا من المملــوك مرشــدًا. وشاء الحظ أنه عند وصولنا حاولنا فتح الباب فانفتح بسهولة، كما لو لم يكن مغلقًا، وبلغنا البيت بهذا دون أن يشعر بنا أحد فى هدوء وسكون كامل.

وكانت زرايدا الجميلة تنتظرنا فى إحدى النوافذ، وعندما أحست بأصــوات، سألت عما إذا كنا نصارى فأجبتها أنا بنعم، وأن تنزل. وعندما عرفتنى لم تتوقــف لحظة، لأنها دون أن تنطق بكلمة نزلت فى الحال، وعند فتحها الباب ظهر للجميع جمالها، وثراء ملبسها، الذى لا يستطيع أحد تقدير قيمته. وحال رؤيتى لها، أخــذت بيدها، وبدأت فى تقبيلها، وفعل نفس الشىء المرتد، وزميلاى الاثنــان، والبــاقون، لأنهم دون أن يعرفوا شيئًا فعلوا ما رأونا نفعله، وكان كل ذلك للتعبير عن شــكرنا لها، وأنها صاحبة الفضل فى تحريرنا.

سألها المرتد بلغة عربية عما إذا كان أبوها فى الحديقة. أجابت بنعم، وأنه نائم.

أجاب المملوك:

- إذن من الضرورى حمله معنا، وكل ما له قيمة فى هذه الحديقة البديعة.

قالت هى:

- لا، لا يجوز مس أبى بأية حال، وليس بهذا البيت شىء يحمل، غير ما أحمل أنا، وهو كثير، ويكفى لجعلكم جميعًا من الأغنياء، ومرضيين. انتظــروا قلــيلاً، وسوف ترون.

وقائلة هذا، عادت إلى الدخول، قائلة إنها ستعود فى غاية السرعة، وعلينا الانتظار، دون عمل أى ضجة. وسألت المملوك أن يتصرف طبقًا لما بينى وبينها من اتفاق، وهو ألا نفعل إلا ما تحبه زرايدا، والتى عادت محملة بصندوق جواهر مملوء بالدنانير الذهب الإسبانية، وكانت كثيرة حتى إنها ناءت بحملها. وأراد الحظ السيئ أن يستيقظ والدها أثناء ذلك، ويحس بالضجة التى تجرى بالحديقة، فأطل من النافذة، وعرف أن كل من كان بالحديقة مسيحيون، من ثم، أطلق صرخات عالية وصاخبة بالعربية: "مسيحيون، مسيحيون ! لصوص، لصوص !"، ومع هذه الصرخات وجدنا أنفسنا فى حيرة كبيرة ومخيفة؛ لكن المملوك وقد رأى ما نحن فيه من خطر، وما يعطيه من أهمية لنجاح المهمة صعد إلى حيث كان الحاج مراد، ومعه بعضنا فى سرعة عظيمة، و دون أن يشعر به أهل البيت، أما أنا فلم أستطع أن أعزى زرايدا التى سقطت مغشيًا عليها بين يدى. باختصار، برهن من صعدوا حذقهم الشديد، ففى لحظة عادوا ومعهم الحاج مراد مقيد اليدين ومكمَّم الفم، لدرجة ألا يستطيع أن ينطق بكلمة، ومع ذلك هددوه بأن كلمة واحدة تصدر من فمه سوف تكلفه حياته. وعندما رأته ابنته غطت عينيها حتى لا تراه، وبقى أبوها فزعًا، جاهلاً أنها وضعت نفسها فى أيدينا بكامل إرادتها، لكن فى تلك اللحظة كانت الأقدام أكثر الأشياء ضروريةً، وعليه شرعنا فى الفرار إلى السفينة فى اجتهاد وسرعة، وكان من بقى فيها ينتظروننا خائفين من حدوث أى مكروه لنا.

وما إن مضت ساعتان من الليل حتى كنا جميعًا فى المركب، وهناك تم فك قيود والد زرايدا، وإخراج الكمامة من فمه، وعاد المملوك يأمره بألا ينطق بكلمة واحدة، وإلا تكلفه حياته. وهو، عندما رأى ابنته، بدأ فى التنهيد من الإشفاق والرحمة، وخاصة عندما رآنى محتضنا لها بقوة، وهى دون أن تدافع عن نفسها أو تشكو أو تحاول الابتعاد ظلت هادئة، ومع رؤيته كل هذا بقى صامتا حتى لا يضع

المملوك تهديده موضع التنفيذ. وعندما رأت زرايدا نفسها في المركب، وأننا قد أحببنا أن نبدأ بالتجديف، وأن أباها هناك، والعرب الآخرين مقيدون، قالت للمملوك أن يقول لي أن أعمل لها معروفًا بإطلاق سراح هؤلاء العرب، وبتحرير والدها، وإلا هي سوف تلقى بنفسها في الماء لرؤية أبيها أمام عينيها، وبسببها قد حمل أسيرًا، وهو من أحبها كثيرًا. أبلغني المملوك، فقلت بكل سرور، لكنه قال لي إن ذلك لا يصح بسبب أننا لو تركناهم هناك، سوف ينفخون بوق الحرب بأصواتهم، وسوف يزعجون المدينة عن نومها، وسيكونون سببًا في خروج بعض الفرقاطات الخفيفة للبحث عنا، ونحاصر بحرًا وبرًا، ولا نستطيع الهرب، والذى نستطيع فعله هو إطلاق سراحهم في أول أرض مسيحية. ومع هذا الرأى اتفقنا جميعًا، وزرايدا عندما علمت بدوافع عدم تنفيذ رغبتها بقيت هي الأخرى راضية. وفي الحال في صمت سعيد، وجهد مبتهج، كل واحد من مجدفينا البواسل أخذ مجدافه وتوكلنا على الله من كل القلب، في الإبحار اتجاه جزر ميورقة، وهي الأرض المسيحية الأقرب، ولكن بسبب هبوب الرياح قليلاً نحو الشمال، وهيجان البحر بعض الهياج، لم يكن ممكنًا مواصلة الهبوط نحو ميورقة، وأصبح إجباريًا خط سير بحذاء الشاطئ في اتجاه أوران، ولم يكن ذلك دون حزن من جانبنا من احتمال كشفنا في سرجل، والتي هي على بعد ستين ميلا من الجزائر، وفي نفس الوقت خوفنا من مقابلة إحدى السفن التجارية التي تعتاد هذا الطريق قادمة من تطوان، مع أن كل واحد فينا، وكلنا معًا اصطنعنا في غرور افتراض أنه إذا قوبلنا بسفينة تجارية، فإننا ليس فقط لن نخسر بل سنكسب مركبًا يساعد على اتمام رحلتنا في أمن أكثر. مضت زرايدا خلال الرحلة واضعة رأسها بين يدى، حتى لا ترى أباها، وأحسست أنها كانت تنادى ليلا مارييـن كي تساعدنا.

أبحرنا ثلاثين ميلا بشكل جيد، وهنا هددتنا ثلاث طلقات من بندقية. كانت طلقات طائشة قادمة من البر، الذى رأيناه خاليًا، ولا يوجد على الأرض أحد يكشفنا، مع كل هذا، دخلنا قليلا فى البحر بقوة الذراع، حيث بدا أكثر هدوءًا، وما أن تعمقنا فرسخين تقريبًا، حتى أمر الريس بالتجديف بالتناوب، حتى نأكل خلال ذلك شيئًا، وخاصة أن المركب كانت مدفوعة بالريح، ورغم ذلك فإن المجدفين قالوا إن هذا ليس وقت استراحة، وليساعدهم على الأكل من لا يجدفون، لأنهم لا يرغبون فى إفلات مجداف من يدهم بأى حال من الأحوال. وقد كان، وخلال ذلك بدأت رياح تهب، أجبرتنا فى الحال إلى فرد الشراع، وترك المجاديف، وتعديل الاتجاه إلى أوران، لعدم إمكان القيام برحله أخرى. حدث ذلك بسرعة فائقة، وهكذا أبحرنا بالشراع أكثر من ثمانية أميال فى الساعة، دون مواجهة أى خطر غير احتمال مرور سفينة قرصنة. قدمنا طعامًا للعرب المجدفين المأسورين، والمملوك سرّى عنهم قائلاً لهم بأنهم ليسوا معنا أسرى، وأنه سوف يحررهم فى أول فرصة، وقال نفس الشيء لوالد زرايدا، والذى أجاب:

– أستطيع أن أصدق أى شيء آخر من كرمكم وحسن فعلكم، أوه أيها المسيحيون! إلا منحى الحرية! لا تعاملونى على أنى رجل ساذج، أستطيع تخيل ذلك، لأنكم لن تضعوا أنفسكم أبدا فى أخطار سلبى حريتى، كى تعيدوها لى مجانا، وخاصة أنكم تعرفون من أنا، والمكسب الذى يمكنكم الحصول عليه نظير إعادتها إلىّ، ولهذا اعلموا، إذا أردتم وضع ثمن، فإننى مستعد لإعطائكم كل ما تريدون نظير تحريرى، وتحرير هذه الابنة التعيسة، وإذا لم يكن كذلك فليكن نظير تحريرها هى فقط، لأنها أكبر وأفضل فلذة من روحى.

وعند قوله ذلك، بدأ فى البكاء بمرارة، وحرك فينا جميعًا الإشفاق، وأجبر زرايدا على أن تنظر إليه، والتى ما إن رأته يبكى حتى امتلأت بالحنان والرقة، ونهضت، من تحت قدمي، وذهبت تحتضن أباها، ومقربة وجهها من وجهه، بدأ الاثنان نحيبًا حنونًا، حتى إن كثيرًا منا شاركهما فيه . لكن أباها عندما رآها مزينة كأنها فى حفل، وتحمل كثيرًا من الحلى، قال لها فى لغته:

– ما هذا، يا ابنتى، فبالأمس ليلاً قبل أن يحدث لنا هذا الشقاء عندما كنا معًا، رأيتك بملابسك العادية والمنزلية، والآن أراك مزينة مجلوة، مرتدية أفضل ما أعرف من ملابس أهديتها لك عندما كان الحظ بجانبنا، دون مناسبة جديرة بأن تهيئى نفسك لها ؟ أجيبينى على هذا فإنك أعطيتنى ذهولاً وعجبًا أكبر من الشقاء الذى أجدنى فيه.

كل ما كان يقوله العربى لابنته كان يترجمه لنا المملوك المرتد، وهى لم تجبه بكلمة، لكنه عندما رأى فى جانب السفينة صندوق جواهرها، حيث اعتادت أن تحفظ فيه حليها، والذى يعرف جيدًا أنها تركته فى الجزائر، ولم تحضره معها إلى الحديقة، صار أكثر حيرة، وسألها كيف وصل هذا الصندوق إلى أيدينا، وماذا كان به. وعلى هذا أجاب المملوك، دون انتظار أن تجيبه زرايدا:

– لا تتعب نفسك بسؤال زرايدا ابنتك عن أشياء كثيرة، وسوف أجيبك عن واحدة، وسأغنيك بها عن باقى الإجابات، فلتعلم أنها مسيحية، وأنها كانت المبرد الذى كسر قيودنا، والحرية التى قضت على أسرنا، وهى تمضى معنا بكل إرادتها، سعيدة لرؤية نفسها متورطة فى هذا، مثل من يخرج من الظلمات إلى النور، ومن الموت إلى الحياة، ومن الألم إلى المجد.

قال العربى:

– هل صحيح ما يقوله هذا يا ابنتى ؟

أجابت زرايدا:

– هو كذلك.

أجاب الأب الهرم:

– إنه بالفعل، أنت مسيحية، وأنت من وضعت أباك فى يد أعدائه ؟

وعلى هذا أجابت زرايدا:

– فيما يتعلق بكونى مسيحية، نعم أنا مسيحية، لكنى لست من وضعك فى هـذا الضيق، لأن منايا لم يكن قط أن أتركك لسوء أو أسببه لك، وإنما كان العمل لصالح خلاص نفسي.

– وأى خلاص لنفسك عملت يا ابنتى ؟

أجابت هى:

–عن هذا اسأل ليلا مارين، فهى قادرة على قوله لك، أما أنا فلا.

ومجرد أن سمع العربى ذلك، ألقى بنفسه فى الماء بسرعة غيـر معقولـة، حيث قد يغرق دون شك، لولا أن ثوبه الطويل، والمعيق، كان يطفو به قليلاً فـوق الماء. وصرخت زرايدا علينا بأن نخرجه من الماء، وهكذا هرعنا جميعًا، وأمسكناه من العباءة (الملحفة)، وأخرجناه نصف غريق وفاقدًا للوعى، مما آلم زرايدا كثيرًا، وكما لو كان ميتًا، جلست بجواره تنتحب وتعدد فى رقة وحنان أليمين، وقلبناه على بطنه. وعاد إلى وعيه بعد ساعتين، بدلت خلالها الريح اتجاهها، وناسـبنا العـودة

للاتجاه نحو البر، دون أن نقترب جدًا، وشاء حظنا الطيب الوصول إلى مرفأ على جانب رأس يسميه العرب "كابا رومية"، والذى يريد القول بالإسبانية المرأة المسيحية الشريرة، وفى تراث يتناقله العرب أنه تم دفن "كابا" هناك، والتى بسببها خسرت إسبانيا، ولأن كابا بلغتهم تعنى المرأة الشريرة، رومية تعنى مسيحية، ولهذا يرون الوصول إلى الرسو هناك فأل سوء عندما تجبرهم الحاجة إلى مثل هذا الرسو، لأنهم لا يقومون بذلك طواعية مطلقًا، رغم ذلك فلم يكن بالنسبة لنا مدفن امرأة سيئة، وإنما ميناء آمن لمهمتنا، مادام أن البحر مستمر فى غضبه. وألقينا بمراسينا إلى البر، ولم نترك المجاديف تفلت من أيدينا مطلقًا، وأكلنا من إمدادات المملوك، ورجونا الله وسيدتنا العذراء من كل قلبنا، أن يساعدانا ويجعلا الحظ حليفنا حتى نضع نهاية سعيدة لبداية سعيدة.

صدر أمر بناء على توسلات زرايدا لإنزال والدها والعرب الذين كانوا فى قيودهم معنا إلى البر، فنفسها لم تعد تحتمل ولا وجدانها الرقيق يستطيع أن يعانى رؤية والدها أمام عينيها مقيدًا، وهؤلاء العرب المقيدين من أبناء جلدتها سجناء. فوعدناها بأن نفعل ذلك وقت رحيلنا، فلم يكن من خطر تركهم بذلك المكان غير المعمور. ولم تضع صلواتنا هدرًا، ولم تمر دون أن تسمعها السماء، فقد عادت الريح هادئة لصالحنا فى البحر، داعية لنا أن نواصل رحلتنا التى بدأناها. وعند هذا فككنا قيود العرب، ووضعناهم فى البر واحدًا واحدًا، الأمر الذى أثار تعجبهم، لكن عندما وصلنا إلى إنزال والد زرايدا، والذى كان فى كامل وعيه، قال:

– لماذا تظنون أيها المسيحيون أن هذه الأنثى الشريرة ترحب بإعطائكم لى حريتى؟ هل تظنون أنه البر بى؟ يقينًا لا، إنما هى تفعل ذلك لوجودى حجر عثرة فى وجهها، عندما تود أن تستجيب لشهواتها القبيحة، كما لا تظنوا أنها

غيرت دينها اعتقادًا منها بأن دينكم يفضل ديننا، لكنها فعلت ذلك لمعرفتها أن فى أرضكم تهاونًا بالشرف يجعل الحياة أكثر حرية لها من العيش بأرضنا.

ثم التفت إلى زرايدا، وقد أمسكت به بينى وبين مسيحى آخر حتى لا يرتكب سفاهة، وقال لها:

– أيتها الشابة الساقطة، والفتاة عديمة النصح! إلى أين تذهبين أيتها العمياء، السفيهة فى صحبة هؤلاء الكلاب، والأعداء الطبيعيين لنا ؟ لعنت ساعة أن أنجبتك، وملعونة تلك الهدايا، والملذائذ التى فيها ربيتك!

ولما رأيت أنه فى هيئة من لن ينتهى من هذا عاجلاً، أسرعت فى إنزاله إلى الأرض، ومن هناك، فى صرخات واصل لعناته وندبه، راجيًا من محمد أن يتوسل لله فى أن يدمرنا، وأن يضل طريقنا، وأن يقضى علينا، وبسبب فرد الشراع لم نتمكن أن نسمع كلماته لكن رأينا أعماله من نتف اللحية وشد الشعر، والاضطراب فى التراب، إلا أنه رفع صوته مرة حتى سمعناه يقول:

– عودى، يا ابنتى الحبيبة، عودى إلى البر، فأنا أغفر كل شىء، وسلمى هؤلاء الرجال تلك النقود التى هى ملكك، وعودى لمواساة هذا الأب الحزين، أبيك، والذى سوف يغادر الحياة فى هذه الرمال الموحشة، إذا أنت غادرته.

وسمعت زرايدا كل هذا، وكانت تحس به وتبكى، ولم تعرف قول شىء، أو إجابته بكلمة، إلا:

– تضرع إلى الله يا أبى أن تعزيك ليلا مارين فى حزنك، كما كانت سببًا فى اعتناقى المسيحية، والله يعلم جيدًا أننى لم أعرف عمل شىء آخر غير ما عملت، وأن هؤلاء المسيحيين لا تدين إرادتى لهم بشىء، فأنا إن أحببت أن

أبقى فى بيتى ولا أذهب معهم لاستحالة على، للاستعجال الذى تلح به علىَّ نفسى لتنفيذ ما أراه خيرًا، وما تراه – أنت يا أبى الحبيب شرًا.

لقد قالت ذلك فى الوقت غير المناسب، فلم يسمعها أبوها، وأيضًا نحن لم نعد نراه، ووجهنا اهتمامنا جميعًا لرحلتنا، بينما انشغلت بمواساة زرايدا. وقد سهلت الريح الملاحة وأصبحنا على وشك رؤية شواطئ إسبانيا فى فجر اليوم التالى، لكن كما يأتى الحظ الطيب نقيًّا من الشوائب فى مرات قليلة جدا، وربما لا يأتى أبدًا دون أن يكون مصحوبًا أو معقوبًا بشىء من الحظ السيئ الذى يعكره أو يفاجئه، فقد شاء حظنا، وربما اللعنات التى صبها العربى على ابنته، وهى لعنات مخوفة من فم أى أب، أقول شاء حظنا أن نخوض فى أعالى البحر، وقد مضت ثلاث ساعات من العمل، مع شراع مفتوح إلى أسفل متلقيًا هبات الريح بمثلثه، مع مجاديف مثبتة، لأن الريح الرخية وفرت علينا العمل، وعلى ضوء القمر الذى كان يبرق فى لمعان، رأينا سفينة مستديرة على القرب، وبكل أشرعتها مفرودة، ودفتها تقود مقدمتها نحو مهب الريح لتعبر أمامنا، عن قرب؛ اضطررنا إلى ضم الشراع حتى لا نصطدم بها، وهم فى نفس الوقت بذلوا جهدًا فى تحريك الدفة حتى يتيحوا لنا المرور. كلمونا من سطح سفينتهم ليسألونا من نحن، وإلى أين نبحر، ومن أين أتينا، لكنهم سألونا عن كل هذا بلغة فرنسية، مما جعل المملوك صديقنا يقول:

– لا أحد يجيب، لأن هؤلاء ولا شك قراصنة فرنسيون، يسرقون كل شىء حتى الملابس.

ولهذا التحذير، لم يجب أحدنا بكلمة، وبعد ذلك بقليل، والسفينة ثابتة تؤرجحها الريح، أخرجوا فجأة قطعتى مدفعية، كانت فيما يبدو تنطلق فى تسلسل، فأول طلقة قصمت الصارى فى سفينتنا إلى نصفين، وسقط ومعه الشراع فى

البحر، ثم انطلق المدفع الآخر، لتخترق طلقته نصف مركبنا، ففتحـه جميـعًا دون أضرار أكثر، ولكن عندما رأينا أنفسنا نهبط نحو القاع، بدأنا جميـعًا نطلب النجدة بأعلى صوت، ونتضرع لركاب السفينة أن ينتشلونا، لأننا نغرق. حركـوا دفـتهم عندها، والقوا قاربًا فى البحر، ودخل فيه حوالى اثنى عشر فرنسيًّا، مسلحين جيـدًا ببنادقهم وحبالهم المضيئة، وهكذا وصلوا بالقرب من مركبنـا، وعنـدما رأوا قلـة عددنا، وغرق سفينتنا، التقطونا، وقالوا لنا الذنب ذنبنا لقلة أدبنا فـى عـدم الـرد عليهم. صديقنا المملوك المرتد أخذ صندوق المجوهرات بما فيه من ثروة زرايـدا، وألقى به فى البحر، دون أن يلاحظ أحد فعلته. باختصار، كلنـا صـرنا فـى يـد الفرنسيين، وبعد أن عرفوا منا كل ما كانوا يودون معرفته، كما لو كانوا أعـداءنا الرئيسيين، وجردونا من كل ما كنا نحمله، كما جردوا زرايدا حتى مـن خلخـال قدميها، لكن لم يثقل علىَّ ذلك الذى فعلوه بها مهما أخذوا من حلـى ومجـوهرات، إنما الخوف على الجوهرة التى تساوى أكثر من كل الجواهر، وهى زرايدا نفسها. لكن مطامع هؤلاء الناس لا تتجاوز النقود، وهذا ليس له حدود عندهم، فقد جردونا حتى من ملابس الأسر، فلعلها تفيدهم فى شىء، وظهر بينهم رأى بإلقائنا جميعًا فى البحر ملفوفين فى شراع، لأن لديهم النية للتعامل مع بعض المـوانىء الإسـبانية تحت ادعاء أنهم بريتونيون، وإذا حملونا أحياء فقد يعاقبون على جـريمتهم، لكـن القبطان الذى قام بتجريد زرايدا من حليها، قال إنه يكتفى بما عنده من غنيمـة، ولا يريد أن يقترب من أى ميناء إسبانى، غير المرور من مضيق جبل طارق ليلاً، أو كما يستطيع فعله، ثم الذهاب إلى روتشيلا التى خرج منها، وهكذا اتفقوا أن يعطونا قاربًا من باخرتهم، وكل ما هو ضرورى لإبحار قصير، وهو ما تبقـى لنـا مـن الرحلة. وقد تم الأمر على هذا الوجه اليوم التـالى، وعلـى مـشهد مـن الأرض الإسبانية، والتى عند رؤيتها نسينا آلامنا وبؤسنا كامل النسيان، كما لو كانـت لـم تحدث قط فى حياتنا؛ كم هو عظيم الطرب ببلوغ الحرية المفقودة.

كان الوقت ظهرًا عندما أنزلونا فى القارب، ومعنا برميلان من الماء وبعض الأكل الجاف، والقبطان وقد حركته الرحمة، لا أدرى أى رحمة، عند هبوطنا أعطى زرايدا الجميلة أربعين دينارًا إسبانيا ذهبًا، ولم يوافق على أن يجردها جنوده من الملابس التى ترتديها الآن. وعند دخول القارب شكرناهم على فضلهم علينا، وظهر علينا الشكر أكثر من الشكوى. وأسرعنا مجتهدين فى التجديف حتى نقترب قبل غروب الشمس، وكان فى رأينا إمكانية الوصول قبل أن يتقدم الليل. لكن لعدم ظهور القمر فى تلك الليلة، ورؤية السماء سوداء، وجهلنا بالمرفأ الذى وصلنا إليه، لم نر أنه من المطمئن الهبوط إلى البر، وقد غلب على معظمنا رغم ذلك، رأى الهبوط على أى الأحوال، للاختباء بين بعض الأحجار، بعيدًا عن العمران، فهذا أفضل من مخاوف التعرض للقراصنة الذين تأتى سفنهم من تطوان إلى هذه المياه، والذين يدخل عليهم الليل فى تطوان، والنهار فى شواطئ إسبانيا. وكان هذا ما حدث، ففيما يبدو كان منتصف الليل عندما وجدنا أنفسنا عند سفح جبل غير منتظم الأحجار وشاهق، ولم يكن شديد القرب من البحر حتى يترك لنا فضاء للهبوط فى راحة. نزلنا إلى رمال الشاطئ، وخرجنا إلى البر، قبلنا الأرض وبدموع الفرح شديد البهجة، وحمدنا جميعًا الله ربنا، لنعمته التى لا نظير لها، والتى أنعم بها علينا. أخرجنا من القارب ما كان معنا من زاد، وربطناه بالبر، وتسلقنا مسافة كبيرة بالجبل، و رغم أننا كنا هناك، فلم نكن بعد نضمن طمأنينة القلب، ولا نصدق أن هذه هى الأرض المسيحية.

بعد وقت ليس بالقصير، أشرف الصباح متأخرًا عما كنا نحب، لقد انتهينا من صعود الجبل، لنرى من هناك هل يوجد مكان معمور قريب أو بعض أكواخ الرعاة، لكن مع امتداد البصر أكثر، لم نقع على أى قرية أو شخص أو طريق أو سبيل سلوك. ومع هذا، قررنا التعمق فى دخول البر، فحالاً قد نلتقى بمن يخبرنا

أين نحن. لكن ما كان يرهقنى أكثر هو رؤيتى بجانب زرايدا فى هذا الوعر، رغم أننى حملتها مرة على ظهرى، لكن كان يتعبها أكثر تعبى من أن تريحها راحتهــا، وبهذا لم تقبل قط أن أكرر هذا الجهد، ومع صبر كثير وعلامات للبهجة، ممــسكًا لها دائمًا من يدها، على بعد أقل من ربع فرسخ كنا قطعناه، وصــل إلــى آذاننــا صوت جرس صغير، إشارة واضحة على وجود قطعان رعــى قريبــة، وعنــدما نظرنا جميعًا فى ترقب ظهور أحدها، رأينا عند أقدام شجرة فلين راعيًا فتى يثقــب عصا بسكين فى راحة وغفلة. أطلقنا صيحات، ورفع هو رأسه، ثم نهض فى خفة، وحسبما عرفنا فيما بعد، أن أول من ظهر لعينه كانت زرايدا والمملــوك المرتــد، وكما كان قد رآهم فى ثياب عربية، اعتقد أن كل أهل الشمال الأفريقــى يهجمــون عليه، فاندس بسرعة غريبة فى الغابة أمامه، وأطلق عقيرته بصرخات عالية قائلاً:

– على البر عرب، عرب ! عرب عرب ! السلاح، السلاح!

هذه الصرخات ومعها اضطراب الجميع، لم نكن نعرف ماذا نفعــل، لكــن لمعرفتنا أن صرخات الراعى سوف تملأ الأرض، وأن ســلاح فرســان الــساحل سوف يحضر فى الحال ليرى ماذا يجرى، اتفقنا على أن يخلــع المملــوك ثيابــه التركية، وأن يرتدى زى أسير، قدمه له أحدنا فى الحال، وإنْ بقــى بعــد تقديمــه مرتديًا قميصًا فقط. وعلى هذا سلمنا أمرنا لله، وسرنا فى نفس الطريق الذى رأينــا الراعى يسلكه، فى انتظار دائم لهبوط فرسان الساحل علينا، ولم يخدعنا ظننا، لأنه لم تكد تمر ساعتان على خروجنا من تلك الأحراش على سهل هناك حتى اكتــشفنا ما يقرب من خمسين فارسًا مسرعين، يجرون بإرخاء نصف العنــان، ويجتهــدون إلينا، ورأوا بدلاً من العرب فقراء مسيحيين، وأصابهم هذا بالحيرة، وسألنا أحــدهم عما إذا كنا نحن سبب صراخ أحد الرعاة على التأهب بالسلاح؟ قلت أنــا "نعــم". وعند محاولتى أن أحكى له قصتى، ومن أين أتينــا، ومــن نحــن، تعــرف أحــد

المسيحيين القادمين معى على الفارس، الذى وجه لنا السؤال، فقال دون أن يــدعنى أقول كلمتى:

- يستحق الله الشكر، أيها السادة لأنه حملنا إلى هذا المكان الطيب، لأنــه إذا لم أكن أخدع نفسى، فإن الأرض التى ندوس عليها هى (لا بيليث مالقة)، وإذا لم تكن سنوات الأسر قد نزعت عنى الذاكرة، فإنى أذكر أنك (يا سيدى، يا من تسألنا من نحن) السيد بدرو دى بوستا مانتى، خالى.

لم يكد المسيحى ينطق بهذه الكلمات حتى ترجل الفارس، وأسرع باحتضانه، قائلاً:

- ابن أختى ! يا قطعة من النفس والحياة، نعم أعرفك، وقد بكيتــك ميتًا مــع أمك وكل أهلك، وهم جميعًا أحياء حتى هذه الساعة، ومنحهم الله الحيــاة حتى يتمتعوا برؤيتك السعيدة، والآن نعرف أنك كنــت فى الجزائــر مــن ملابسك وملابس من معك، ونفهم أنكم حصلتم على الحرية بمعجزة.

أجاب الفتى:

- نعم، هو كذلك، ولدينا من الوقت حتى نحكى لكم كل شيء .

وعندما علم الفرسان أننا كنا أسرى مسيحيين، ترجلوا عن خيلهم، وتنــازل كل منهم عن جواد لكل واحد منا، لحملنا إلى بيليث مالقة، التى كانت علــى بعــد فرسخ ونصف الفرسخ. وبعضهم ذهب لإحضار القارب إلى المدينة، عندما قلنا لهم عن المكان الذى تركناه فيه، وبعضهم صعد على الخيل راكبًا خلفنا، وركبت زرايدا على جواد خال رفيقنا الأسير. خرج أهل المدينة جميعًا لاستقبالنا، حيث تقدمنا من حمل إليهم الخبر، لم يندهشوا لرؤية أسرى أحرارًا ولا عربًا أسرى، لأن أهل ذلك

الساحل متعودون على رؤية هذا وذاك، لكن أدهشهم حسن زرايدا، والتى كانت فى تلك اللحظة فى أوج الحسن، بسبب تعب الطريق، وبهجة رؤية نفسها فى أرض مسيحية، دون خوف من التيه والضياع، هذا استخرج على صفحة وجهها ألوانا، لولا كلفى بها، لقلت إنها أجمل من وجد على ظهر الأرض، أو على الأقل أجمل من وقعت عليه عيناى.

ذهبنا مباشرة إلى الكنيسة لتقديم الشكر لله لما نستقبل من نعم، وعندما دخلتها زرايدا، قالت إن هناك وجوها تشبه وجه ليلا مارييِن، قلنا لها إنها صور لها وعلمها ماذا تعنى المملوك بكل ما استطاع من فهم، حتى تعبدها كما لو كانت حقيقة هى ليلا مارييِن التى كلمتها. وهى - وكانت ذكية وذات طبيعة متقبلة وشفافة- فهمت كل ما قاله لها حول الصور. ومن هناك، حملونا وقسمونا فيما بينهم فى بيوت مختلفة من المدينة، لكن الرفيق المسيحى حملنى وزرايدا والمملوك إلى بيت والديه، وكانا فى عيشة متوسطة الرفاهية والثروة، وقد دللانا كما لو كنا نفس ابنهما.

بقينا فى بيليث ستة أيام، خلالها قدم المملوك المرتد المعلومات التى طلبت منه، وتوجه إلى مدينة غرناطة للدخول عبر التفتيش المقدس إلى رحاب الكنيسة المقدسة، وباقى المسيحيين المحررين توجه كل منهم إلى حيث رآه الأفضل له، فقط بقينا أنا وزرايدا، بالدنانير التى أهداها الفرنسى إلى زرايدا، والتى اشتريت بها هذا الحيوان الذى أتت عليه، وأنا فى خدمتها أبًا وتابعًا، وليس فقط زوجًا، نسير للبحث عما إذا كان والدى حيًّا، أو عما إذا كان أحد أخوتى قد نال حظًّا أكثر ثراء من حظى، رغم أننى لا يوجد حظ مهما كان طيبًا أفضل من حظى، بأن جعلنى الله رفيقًا لزرايدا. والصبر الذى تحتمل به زرايدا المتاعب التى يحملها الفقر معه،

والرغبة فى أن ترى نفسها مسيحية قد فاق الحد، وهذا يحركنى لخدمتها طوال العمر، رغم أن السعادة بأننى ملكها وهى ملكى يعكر صفوها، معرفتى بأن العثور على مكان يضمنا فى قريتى تحت رحمة ماذا عمل الزمان والحياة والموت وتغير الثروة فى أبى وأخوتى، وأنه فى حالة غيابهم قد لا أجد هناك حتى من يعرفنى. لم يعد لدىَّ أكثر مما يقال عن قصتى، وأتركها لفطنتكم للحكم عليها، أما أنا فقد وددت أن أحكيها أكثر اختصارًا، لكن خشيتى من غضبكم فى أكثر من أربع مناسبات أطلق لسانى.

الفصل الثانى والأربعون

عبارة عن أحداث أكثر وقعت فى النزل، مع أشياء أخرى كثيرة جديرة بحكايتها

عند قول هذا سكت الأسير، الذى قال له دون فرناندو:

- **حقا أيها السيد القبطان، إن الطريقة التى حكيت بها هذا الحدث تتساوى مع الغرابة والجدة التى احتواها، كل شيء عجيب ونادر، وملىء بالأحداث التى تعجب وتوقف الأنفاس عند من يسمعها، حتى إن سرور الاستماع إليك ما كان ليقل لو حكيت اليوم بأكمله نفس الحكاية، كلما انتهت تعود لتبدأ.**

وعند قول هذا، كاردينيو والجميع عرضوا عليه أن يخدموه فى كل ما يمكنهم تقديمه، بكلمات وعبارات شديدة الود والصدق. وبصفة خاصة، دون فرناندو، الذى عرض عليه، إن رغب أن يصحبه إلى بيته، وأن يعمل على أن يصير أخوه الماركيز إشبينا لتعميد زرايدا، وهو من ناحيته سوف يرتب له الأمور حتى يعود إلى قريته بالنقود والرفاهة التى يستحقها شخصه، شكر لهم ذلك بكل تهذيب الأسير، الذى لم يحب قبول عروضهم السخية.

وصل الليل وهم على هذه الحال، وعندما أظلم وصل إلى النزل عربة مع بعض الرجال الراكبين، طلبوا النزول به، لكن الحظ شاء ألا يوجد فى النزل شبر خاليا، قال أحد الراكبين وقد دخل:

- حتى لو كان الأمر كذلك، فلا ينبغى أن ينقص المكان لاستقبال مستشار الملك، الذى يقدم إلى هنا.

عند سماع ذلك اضطربت الفندقية وقالت:

- الأمر يا سيدى أننى ليس لدىَّ سراير، فإذا كان فخامة المستشار قادرًا على إحضار سرير، ويجب أن يحضره، فأهلاً به وسهلاً، حيث أخرج أنا وزوجى من غرفتنا لتركها لراحة فخامته.

قال الخادم:

- أمر طيب.

لكن فى هذه اللحظة خرج من العربة رجل، برهن على مهنته ومركزه من ملابسه، لأن الملابس الفضفاضة والطويلة مع الأكمام المغزلية الشكل، أشارت إلى أنه مستشار للملك فى الشئون القانونية، كما ذكر خادمه. وكان يحمل فى اليد شابة فى حوالى السادسة عشرة ترتدى لباس السفر، مليحة وحسناء ومدللة، وأثارت إعجاب الجميع ممن كانوا فى النزل، ولم يتصادف أن رأوا دوروتيا ولوسيندا وزرايدا، حتى إنهم ظنوا أن جمالاً فى مثل جمال هذه الفتاة صعب الوقوع. كان دون كيخوتى موجودًا عند دخول المستشار وابنته، هكذا عندما رآه قال:

- بالتأكيد، فإن فخامتكم يمكنكم الدخول والتفسح فى هذه القلعة، التى وإن كانت ضيقة وغير مريحة، فإنه لا يوجد فى العالم ضيق أو انعدام راحة لا يفسح مكانًا للسلاح وللآداب، يصاحبان معهما مرشدًا ودليلاً للحسن مثل حسن هذه الشابة، الذى لا يفتح فقط القلاع، إنما تنشق له الصخور وتتفتت، وتسجد له الجبال كى ترحب به. ادخل فخامتكم هذا الفردوس،

حيث ستجد نجومًا وشموسًا ترافق السماء التى تحضرها فخامتكم معكم، هنا سوف ترى السلاح فى أوجه، والحسن فى ذراه.

صار المستشار فى دهشة من تعبير دون كيخوتى، فشرع ينظر إليه عن عمد وقصد، فلم تدهشه هيئته أكثر من كلماته، ولم يجد كلمة يجيبه بها، وعاد للدهشة من جديد عندما وجد أمامه لوسيندا ودوروتيا وزرايدا، اللاتى مع أخبار الضيوف الجدد، ومع إخبار الفندقية لهن عن جمال الفتاة الصبية، جئن ليرينها، ولاستقبالها، لكن دون فرناندو وكاردينيو والقسيس قد قدموا له عروضًا أفسح وأكثر أرستقراطية. بالفعل دخل المستشار مضطربًا فى حيرة مما كان يرى ومما كان يسمع، حسناوات النزل قدّمن الترحيب للصبية الجميلة. باختصار، لاحظ المستشار أن كل الموجودين كانوا من خيرة الناس، لكن هيئة ووجه ووضع دون كيخوتى أخرجه من عالم المعقول، وعند انتهائه من المرور بكل هذه العروض المهذبة، والإسراف من إفساح الراحة له فى النزل، تم ترتيب الأمر كما سبق ترتيبه، أن تدخل كل النساء المخزن المشار إليه من قبل، ويبقى الرجال بالخارج كما لو كانوا فى حراستهن. وهكذا صار المستشار راضيًا مثل ابنته، التى راحت مع الصبايا الأخريات فى قبول مسرور، وبشطر من سرير الفندقى الضيق مع شطر آخر كان فى صحبة المستشار، استراح كلاهما تلك الليلة أكثر مما كان يظن.

الأسير، منذ اللحظة التى رأى فيها المستشار، أخذ يقفز قلبه من بين جنبيه، من تصور أن ذلك كان أخاه، فسأل أحد الخدم الذين فى صحبته عما يسمى، وعما إذا كان يعرف موطن رأسه. أجاب الخادم، إنه يسمى الجامعى خوان بيريث دى بيدما، وأنه سمع أنه من إحدى قرى جبال ليرن. وبهذا انتهى إلى التصديق بأنه كان أخاه الذى درس الآداب حسب نصيحة أبيه، وهكذا نادى على دون فرناندو وكاردينيو والقسيس فى ارتباك ورضا، وأخبرهم أن المستشار أخوه. قال له أيضًا

الخادم إنه معين مستشارًا فى لاس أندياس، فى مستشارية المكسيك، وعرف أيضا أن هذه الصبية هى ابنته التى ماتت أمها فى ولادتها، وأنه أصبح غنيا جدا بفضل الدوطة التى بقيت فى حوزته مع الابنة. طلب منهم النصيحة عن الطريقة التى يكشف بها عن نفسه لأخيه، أو أنه أفضل أن يعرف أولاً موقف أخيه بعد أن يكشف عن نفسه له ويجده فقيرًا، فهل سيغضبه ذلك، أو سيتقبله من كل وجدانه الطيب. قال القسيس:

– اترك لى القيام بهذه التجربة، وأثناء ذلك لا تفكر يا سيدى القبطان فى شىء إلا أنكم ستلقون أحسن استقبال، لأن القيمة والفطنة التى يكشف عنها شخص أخيك لا تعطى أى مؤشر للكبرياء أو عدم العرفان أو وضع موضوع الثروة فى غير موضعه.

قال القبطان:

– مع كل هذا، أود ألا أفاجئه، وإنما أعطيه الخبر فى تدرج ولف ودوران.

أجاب القسيس:

– أقول لكم أنا سأعالجه بطريقة تجعلنا جميعًا راضين.

وبينما هم فى هذا، تم ترتيب العشاء، وجلس الجميع على المائدة ماعدا الأسير والسيدات اللائى سوف يتناولن عشاءهن فى المخدع . فى منتصف العشاء قال القسيس:

– لقد كان لى رفيق فى القسطنطينية يحمل نفس اسمكم، عندما كنت أسيرًا بضعة أعوام، وكان هذا الرفيق أحد جنودنا الشجعان ممن هم أفضل من فى المدفعية

الإسبانية، لكن بقدر ما كان عنده من شجاعة وقوة كان له نـــصيب مـــن التعاسة.

سأل المستشار:

- ماذا كان اسمه؟

أجاب القسيس:

- اسمه روى بيريث دى بيدما، وكان مسقط رأسه إحدى قرى جبـــال ليـــون، والذى حكى لى قصته وإخوته مع أبيه، ولو لم يحكها لى رجل فى مثل شجاعته لظننتها من حواديت الجدة التى تحكى مع نيران تدفئة الشتاء، لأنه قال لى إن أباه قسم ثروته بين أولاده الثلاثة، وأعطاهم نصائح معينة أفضل من نصائح (كاتون). وأعرف أن أقول إن الذى اختار الحرب جرت له الأمور طيبـــة، ففى أعوام قليلة بشجاعته ومجهوده، دون عون إلا من فضائله الكثيرة، ترقى إلى قبطان فى المدفعية، ورأى نفسه فى طريق سريع ليصير قائد كتيبة مدفعية. لكن صارعه الحظ المضاد، حيث كان ينتظر الترقى، ثم فقده بفقدان حريته، فى اليوم المشهود، حيث كسبوا الكثير فى معركة (ليبانتو). وأنا فقدت حريتى فى لاجوليتا، وبعد ذلك عبر أحداث مختلفـــة وجـــدنا أنفـــسنا رفـــيقين فى القسطنطينية، ومن هناك رحل إلى الجزائر، حيث أعرف أنه قد حدثت لـــه واقعة من أغرب الوقائع التى يمكن أن تحدث فى العالم.

وهكذا واصل القسيس، وحكى ما وقع له مع زرايدا، وكان المستـــشار فـــى غاية الانتباه، فلم يستمع قط إلى الملك، كما كان يستمع إلى القسيس. فقـــط عنـــدما وصل القسيس إلى سرقة الفرنسيين للمسيحيين الذى كانوا قادمين بالمركب، والفقر

الذى وصل إليه أخوه، وزرايدا الجميلة، وأنه لا يعرف أين استقر بهما القرار، وهل وصلا إلى إسبانيا، أم حملهما الفرنسيون معهم.

كل ما كان يقوله القسيس مضى القبطان يسمعه من هناك مائلاً بعض الميل بأذنه، وعينه يلاحظ كل ما يقوم به أخوه من حركات، وهذا إذ رأى القسيس قد انتهى من حكايته تنهد تنهيدة عريضة ومالئًا عينيه بالماء قال:

– أوه يا سيدى، لو تعرف الأخبار التى قصصتها، وكيف تمسنى فى الصميم حتى أجبرت على إظهار ذلك بهذه الدموع، ضد كل فطنة وتحفظ تتدفق من عينى! هذا القبطان الشجاع الذى تحكى عنه هو أخى الأكبر، ولأنه كان الأقوى نفسًا وفكرًا منى ومن أخى الأصغر اختار ممارسة الحرب، أحد الطرق الثلاثة التى اقترحها أبى طبقًا لما قاله لك رفيقك فيما رأيته حدوتة تسمع. وأنا اخترت الآداب، والتى بفضل الله واجتهادى وضعتنى فى المرتبة التى ترانى عليها، وأخى الأصغر فى البيرو، شديد الثراء، حتى إنه بما أرسله إلى أبى ولى، قد سدد الجزء الذى حمله من الثروة، ثم ما يفيض بين يدى أبى لإشباع طبيعته المبذرة حتى البشم، وأنا نفسى به فى تهذيب وضبط أكملت دراستى، ووصلت إلى الوضع الذى ترانى فيه. ما زال أبى حيًا، ميتًا من الرغبة فى معرفة ما حدث لابنه الأكبر، ويطلب من الله فى صلوات دائمة ألا يغلق الموت عينه قبل أن يرى ابنه متمتعًا بالحياة، وما يدهشنى، كيف أهمل وهو الكيس الفطن إخبار أبيه عنه وعن اجتهاداته الكثيرة، وسقطاته أو أحداثه الطيبة؟ فلو علم أبونا أو أحدنا بأمره لما احتاج انتظار معجزة قصبة الغاب للحصول على الفدية. لكن ما أخشاه الآن هو إذا ما كان أولئك الفرنسيون قد أطلقوا سراحه، أو أنهم قتلوه حتى يغطوا جريمتهم. كل هذا سوف يجعلنى

أواصل رحلتى، ليس بنفس السرور الذى به بدأتها، وإنما بالحزن والأسى. أوه أخى الطيب، من يعرف الآن أين تكون، حتى أذهب للبحث عنك وتحريرك من عنائك، حتى لو كان ثمنه عنائى. أوه، من يحمل الأخبار لأبينا الشيخ العجوز بأنك حى حتى لو كنت فى الفجاج المختبئة لشمال أفريقيا، من هناك سوف تخرجك ثروة أخى وثروتى. أوه، زرايدا الجميلة والكريمة، من يستطيع أن يدفع لك جميلك الذى أسديته لأخى! من يستطيع أن يجد نفسه شاهدًا على المولد الجديد لروحك، وعلى زفافك، الذى سوف يملأنا بالبهجة !

كان المستشار يردد هذه الكلمات وأمثالها، مليئًا بالإشفاق لما سمع من أخبار عن أخيه، حتى إن كل من كان يسمعه انبرى فى مظاهر مشاركته أحزانه. وعندما رأى القسيس أنه قد حقق قصده جيدًا، وما كان يرغبه القبطان، لم يرد أن يطيل بهما الأحزان، وهكذا نهض عن المائدة، ودخل حيث كانت زرايدا، وأخذها من يدها، وخلفها لوسيندا ودوروتيا وابنة المستشار. كان القبطان فى انتظار ما يبغى القسيس عمله، وهذا توجه إليه وأخذه بيده الأخرى، وبينهما توجه لمجلس المستشار، حيث كان باقى الرجال، وقال:

– فلتوقف يا سيدى المستشار دموعك، وتنسم غاية مرادك من نيل ما تريد أن تصيبه من أمل، حيث تجد أخاك أمامك، وزوجة أخيك النبيلة. من تراه هنا هو القبطان بيدما، وهذه هى العربية الجميلة التى أحسنت إليه كثيرًا، أما الفرنسيون الذين حدثتك عنهم فقد وضعوه فى الضيق الذى تراه، حتى تبرز كرم صدركم الرحب.

هرع القبطان لاحتضان أخيه، ووضع كلتا يديه فى صدره حتى يرى علامة قديمة، لكن عندما انتهى من التعرف على تلك العلامة، احتضنه فى التصاق شديد، مهرقًا دموعًا رقيقة من الفرح، بها شاركه كل الحضور فى الإدماع والسرور. تبادل الأخوان الكلمات والمشاعر التى لا يمكن تخيلها عند كتابتها أو وصفها، وهنا فى كلمات مختصرة أخبر كل منهما الآخر عن حياته، وهنا أظهرا المحيا الجميل لصداقة شقيقين، وهنا احتضن المستشار زرايدا، وهنا أهداها ثروته، وهنا جعل ابنته تحتضنها، وهنا المسيحية الجميلة والعربية الأجمل جددا دموع الجميع. وهنا كان دون كيخوتى منتبهًا دون أن ينطق بكلمة، فى تأمل لهذه الوقائع الغريبة، مرجعًا لها إلى أوهام الفروسية المشّاءة، وهنا اتفقوا على أن يعود القبطان مع أخيه إلى إشبيلية، مع إخطار أبيه بالعثور عليه وبتحريره، حتى يحضر بأسرع ما يمكن لحضور الزفاف وتعميد زرايدا، لعدم إمكانية أن يترك المستشار طريقه الذى يسلكه، بسبب وجود أخبار، أنه فى خلال شهر سوف يرحل أسطول (ملكى) من إشبيلية إلى إسبانيا الجديدة، ومن غير المناسب له كثيرًا أن يفوته الخروج معه. باختصار، بقى الجميع مسرورًا ومبتهجًا بالحدث السعيد الذى وقع للأسير، وكما كان الليل قد وصل إلى نهاية ثلثه الثانى من امتداده، اتفقوا أن يهجعوا ويستريحوا ما تبقى منه. عرض دون كيخوتى أن يحرس القلعة، حتى لا يهاجمهم أحد المردة أو أحد قطاع الطريق الأشرار، طمعًا فى كنز الجمال الذى تضمه جدرانها. شكره من يعرفونه، وأفهموا المستشار عن المزاج الغريب لدون كيخوتى، والذى لم يكن سروره قليلاً باستقباله. فقط سانشو بانثا كان قد نفد صبره لتأخر المأوى إلى الفراش، وفقط هو الذى كان نومه أكثر راحة من الجميع، ملقيًا بنفسه فوق عدة حماره، الأمر الذى سوف يكلفه غاليًا كما سيقال بعد قليل. وأوت السيدات إلى غرفتهن، والآخرون أراحوا أجسامهم بأقل قدر ممكن من السوء، وخرج دون كيخوتى من النزل كى يقوم بدور حارس القلعة، كما وعد.

وحدث أنه قبل قدوم الفجر بقليل وصل إلى أذن السيدات صوت منغم وجميل، أجبرهن على أن يهبنه مسامعهن فى انتباه، وخاصة دوروتيا التى كانت مستيقظة، وعلى جانبها دونيا كلارا بيدما (هكذا تسمى ابنة المستشار) . لا أحد أمكنه تخيل من كان يغنى هذا الغناء بديع الأداء، وكان صوتًا فرديًّا، لا تصاحبه آلة. مرة كان الغناء فى الفناء، وأخرى فى الإسطبل، وبينما هن فى هذا الاضطراب، وصل إلى باب الغرفة كاردينيو، وقال:

– من ليس نائمًا فلينصت، وسوف تسمعن صوت صبى للبغال، يغنى فيفتن.

أجابت دوروتيا:

– لقد سمعناه بالفعل يا سيدى.

وعند هذا انصرف كاردينيو، ووضعت دوروتيا كل أذنها فى السماع، وفهمت كلمات الغناء التى تقول:

الفصل الثالث والأربعون
حيث تحكى القصة اللطيفة لصبى البغال، مع أحداث أخرى غريبة وقعت فى النزل

ميتًا، أنا من الحب،

وفى خضمه الغريق،

أبحر دون أمل،

فى الوصول إلى أى مرفأ

*

مُطارِدًا أتجه إلى نجمة

على البعد تلوح

أكثر جمالاً وتوهجًا

من كل نجوم رآها (بالينور)

*

لا أدرى إلى أين تأخذنى،

فأبحر فى حيرة مهتديًا،

والروح تحملق فيها

فى يقظة عما سواها

*

حرص متبجح،

شرف فوق المعتاد،

وهما سحابتان تحجبانها

كلما أحاول أن أراها أكثر

أى نجمة شفافة لامعة

فى نارها أحترق

عندما تحجبين نفسك عنى

ليكون موتى الذروة

***

وعندما وصل المغنى إلى هذه الذروة، رأت دوروتيا أنه ليس من الطيب أن تحرم كلارا من هذا الصوت بديع الحسن، وهكذا، محركة لها من هنا وهناك، أيقظتها قائلة لها:

– عفوًا صغيرتى، إننى أوقظك، لأننى أريدك أن تستمتعى بسماع أحسن صوت، ربما قد سمعته طول حياتك.

استيقظت كلارا منعوسة تمامًا، ولأول وهلة لم تفهم ما تقوله لها دوروتيا، فعادت تسائلها، وهذه عادت لقول ما قالت وصارت كلارا منتبهة لما تقول؛ لكن مجرد أن سمعت بيتين من هذه الأغنية التى واصل من يغنى غناءها، اعتراها ارتعاش بالغ الغرابة، كما لو كانت قد أصيبت بحمى الربع، وقالت وهى تحتضن دوروتيا:

– آى، سيدة الروح والحياة لماذا أيقظتنى ؟ لقد كان أفضل نعمة لى الآن أن أطوى عينى وأذنى مغلقة، حتى لا أسمع هذا الموسيقى التعيس.

– ماذا تقولين يا صغيرتى؟ إنهم يقولون إن من يغنى هو صبى البغال.

أجابت كلارا:

– إنه صاحب ضياع وقرى، وهو الذى يملك ضيعته فى روحى بكل ثقة، وإذا لم يحب أن يتنازل عنها، فلن ينزع ملكيته لها أحد إلى الأبد.

صارت دوروتيا فى عجب من العبارات المليئة بالإحساس الصادرة من الصبية، وبدت لها أنها تسبق بكثير الحذر الذى تسمح به سنواتها القليلة، وهكذا قالت لها:

– تتكلمين، يا سيدتى كلارا، بطريقة تجعلنى لا أفهمك، وضحى أكثر وقولى لى عن الروح والضياع والقرى، وعن هذا الموسيقى الذى صوته يملك قيادك بالقلق. لكن لا تقولى لى شيئًا الآن، فلا أحب أن أفقد الطرب الذى يعترينى بسماع من يغنى، كى أنجدك من فزعك، ويبدو أنه مع أشعار جديدة يتحول إلى نغم جديد فى غنائه.

أجابت كلارا:

– مرحى !

وحتى لا تسمعه سدت أذنيها بيديها من الناحيتين، الأمر الذى أدهش أيــضا دوروثيا التى صارت يقظة لما كان يغنى، ورأت أنه واصل يقول:

يا أملى الحلو

يا من تحطم مستحيلات وأحراشًا،

واصل الطريق ثابت الجنان

وأنت نفسك مرشد نفسك

فلا تسقط واهنًا لوترينك

فى كل خطوة وراء كل شىء يترصدك الموت

*

والكسالى لا يبلغون

أى نصر شريف أو ظفر

وليس لهم حظ من السعادة

والذين لا يعترضون طريق الحظ

يُسْلمون عاجزين

للبطالة الطرية كل الحواس

*

أى حب يبتاع أمجادك

غالية، وبكل حق الصفقة العادلة

فليس هناك ما هو أثمن

مما تقاس قراريطه بمزاجه

والشيء المشهور

أن لا قدر لما يكلف أقل

*

أيتها المشاكسات الودودة

ربما تبلغين الشواطئ المستحيلة

وبهذا وبعنادى

أطارد أصعب الشواطئ

وليس هذا الذى يغضبنى

إنما عدم إدراكى السماء من الأرض

***

وهنا اختفى الصوت، وبدأ نحيب جديد من كلارا، الشيء الذى أشعل شوق دوروتيا لمعرفة سبب هذا الغناء الناعم والبكاء الحزين، وهكذا عادت لسؤالها ماذا كانت تريد قوله منذ قليل، وهنا كلارا خائفة من أن تسمعها لوسيندا في احتضان لدوروتيا شديد، وضعت فمها فى أذنها، حتى تتكلم دون أن تسمعها أذن غيرها، وهكذا قالت:

- هذا الذى يغنى يا سيدتى هو ابن لأحد فرسان مملكة أراجون، حاكم لقــريتين ويوجد بيته جوار بيت أبي فى البلاط، مع أن أبي نوافذ بيته ذات ســتائر فى الشتاء، ومشربيات فى الصيف، لا أعرف كيف رآنى هذا الصبى الذى كان يعيش بعيدًا للدراسة. قد يكون قد حدث ذلك فى الكنيسة أو فى أى مكان آخر، فى النهاية وقع فى غرامى، وأفهمنى ذلك من نوافذ بيتــه، بإشــارات كثيرة، حتى صدقته بل أحببته، دون أن أعرف ماذا يريد منى، ومن بين بعض إشاراته ضم يده مع يده الأخرى مفهمًا لى أنه سيتزوج مــنى، ومــع أنــنى أرحب جدا بذلك، فإنه لأننى وحيدة ودون أم، لم أعرف لمن أبوح بــالأمر. وهكذا تركته دون أن أجيبه بشىء غير ما حدث فى مرات غياب أبي وأبيه، فقد كنت أزيح الستائر أو المشربيات كى أتيح له أن يرانى كاملة، ويقابــل ذلك هو ببهجة احتفالية، و إشارات بأنه يجن لمرآى. ونحن على هذا، حانت لحظة سفر والدى، والتى عرف بها عن غير طريقى، فلم أقدر فى أى مرة من المرات أن أقول له شيئًا. سقط مريضًا، وأظن أن سبب المرض هو الحــزن، وفى يوم رحيلنا لم أتمكن من رؤيته لتوديعه، ولو حتى بالعيون. لكن فى نهايــة يومين من سلوكنا الطريق، عند دخولنا فندقًا صغيرًا فى قرية فى أحد هــذه الأيام، رأيته على بابه مرتديًا ملابس صبى بغال، بشكل طبيعى جدا، حتى لو لم يكن مرسومًا فى صفحة روحى لما تعرفت عليه بين الدهشة والبهجة. كان يرانى دائمًا خفية عن أبي، حيث يسرع إلى الاختفاء كلما رآه. لم يتوقف عن عبور الطريق أمامى، والظهور فى كل نزل أو فندق نمر به، ولأننى أعرف من هو، وأنه يسعى ورائى على قدم بسبب حبه لى، وأنه يفعــل ذلــك بجهــد واجتهاد، فإنى أموت من الحزن، وأضع عينىً حيث يضع قدميــه. لا أدرى

بأى قصد يأتى، ولا كيف هرب من أبيه الذى يحبه بشكل غير عادى، حيث لا وريث له غيره، وهو يستحق كل ذلك، كما سوف ترين فخامتك حين ترينه. وأكثر فإنى أعرف أن كل ما يغنيه يستخرجه من رأسه، فقد سمعت أنه شاعر كبير ومثقف. وهناك ما هو أكثر، وهو أننى كلما أراه أو أسمعه يغنى أرتعد من كل مكان من جسمى، مليئة بالخوف من أن يتعرف عليه أبى، ويعرف أنه وراءنا لما بيننا من حب. لم أكلمه كلمة واحدة فى كل حياتى، ومع هذا أحبه لدرجة أننى لا أستطيع العيش دونه. هذا يا سيدتى كل ما أستطيع قوله عن الموسيقى الذى أعجبك صوته كثيرًا، والذى لو تأملته جيدًا للاحظت أنه لا يمكن أن يكون صبى بغال، وإنما سيد أرواح وبلاد كما سبق وقلت لك.

- لا تقولى شيئًا أكثر سيدتى دونيا كلارا - كان هذا ما قالته دوروتيا وهى تقبلها ألف قبلة - لا تقولى شيئًا أكثر، انتظرى حتى يأتى الغد، فإننى آمل فى الله أن يوفقنى لوضع نهاية سعيدة لبداية شريفة.

- أى، يا سيدتى! - قالت كلارا - أى نهاية يمكن أن تنتظر، إذا كان أبوه ذا جاه وثروة، لدرجة أنه قد يرى أننى لا أصلح حتى خادمة لابنه، فما بالك بزوجة؟ فوق ذلك، أن أتزوج من وراء ظهر أبى شيء لن أفعله نظير أى شيء فى العالم . لا أريد أكثر من أن يعود هذا الصبى لبيته، ويتركنى، فربما مع عدم رؤيتى له يخف الألم الذى أعانيه الآن، مع أننى أعرف أن هذا العلاج الذى أتصوره لن يفيدنى كثيرًا، ولا أدرى أى شياطين وضعتنى فى هذا، ومن أين دخل هذا الحب الذى أكنه له، مع صغر سنى وسنه، حيث أظن أننا من

نفس العمر، فلم أكمل بعد السادسة عشرة، حيث يقول أبي إنـــى ســـوف أكملها فى يوم القديس ميجيل القادم.

لم تستطع دوروتيا تجنب الضحك، مستمعة إلى أى حد طفولى تتكلم دونيــا كلارا، فقالت لها:

- لنسترح سيدتى، القليل الذى بقى من الليل، وليأت الله بيوم جديد، وسوف أصلح هذا الأمر، أو شلت يدى!

اطمأننا لهذا، وفى كل النزل ساد صمت كبير، ولم يكن مستيقظًا غير ابنـــة صاحبة النزل، وماريتورنس خادمتها، ولمعرفتهما بخبل دون كيخـــوتى الفكـــاهى، وأنه كان خارج النزل مسلحًا، ممتطيًا جواده، قائمًا بالحراسة، قررتا أن يلعبا معـــه إما بمزحة، أو على الأقل لتضييع بعض الوقت فى استماع لترهاته .

وقد كان حال النزل أنه لا توجد به نافذة لا تطل على فراغ المراعـــى، مـــا عدا فتحة مخزن تبن، حيث يلقون منها التبن إلى الخارج. من هذه الفتحـــة أطلـــت الفتاتان (أشباه النساء!)، وشاهدتا دون كيخوتى متكئًا على رمحـــه فـــوق جـــواده، نـــافثًا بين الحين والحين تنهيدة فى غاية الألم والعمق، حتى كانت تخـــرج روحـــه من بين جنبيه مع كل تنهيدة، فى نفس الوقت سمعاه يقول بـــصوت رقيـــق حنـــون ملىء بالحب:

- أوه، سيدتى دولثينيا دل توبوسو، ذروة كل حسن، وتمام كل ذكاء، وسجل كل ملاحة، ومستودع الشرف، وأخيرًا جوهر كل نعمة وشرف ومـــستلذ، فى هذه الدنيا! ماذا تفعلين الآن فخامتك؟ وهل تفكرين فى فارسك الأســـير الذى يقحم نفسه فى أخطار كثيرة طواعية، فقط لخدمتك؟ أعطنى ما لـــديك

من أخبار عنك، أوه، أيها المصباح ذو ثلاثة المنازل(*)، ربما بسبب حسدك لوجهها تنظر إليها فهل هي تتنزه في إحدى قاعات قصورها الشاسعة، أم أنها تتكئ بصدرها على بلكون تتأمل في كل شرف وعظمة كيف ستألف العاصفة التي يعانيها من أجلها قلبي الممتحن، ، وأى مجد اطمئنان لقلقي، وأخيرًا أى حياة لموتى، وأى جائزة لخدماتي؟ وأنت أيتها الشمس، التي عليك أن تسرجي خيولك للتبكير والطلوع لترى سيدتي، وهكذا، لأنك ترينها، أتوسل إليك أن تحييها على لساني، لكن حذرًا ! عند رؤيتك لها وإقراء السلام على وجهها، فإني أمتلئ غيرة منك، أكثر من غيرتك الطائشة الجاحدة، التي جعلت عرقك يسيل، ويجرى في سهول (تيساليا) أو في شواطئ (بينيو)، فلا أذكر جيدًا من أين جرى غيورًا وعاشقًا(**).

إلى هذه النقطة وصل دون كيخوتى في أحزانه الغرامية، عندما نادت عليه ابنة الفندقية بصفير متقطع، وقالت له:

– سيدى، اقترب فخامتك من هنا، يا منية النفس.

على إشاراتها وصوتها أدار دون كيخوتى رأسه، ورأى على ضوء القمر، الذى كان في أوج نوره، كيف أنهم ينادونه من الفتحة، والتى بدت له نافذة، وحتى بقضبان من الذهب، كما يناسب القلاع مثلما كان يتخيل النزل، وفي الحال تمثل

(*) فى النص "يا من تضيء من الوجوه الثلاثة" وهو هنا يتبع هوارسيو الذى سمى القمر ثلاثى الشكل لأن له ثلاثة أسماء، فيبى وديانا وهيكاتى، ولأن له ثلاثة أشكال، مستدير وشبه دائرى وخطاقى. وقد اخترت لتحقيق نفس المعنى الوصف القرانى للقمر ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ ﴾ (يس / ٣٩)، ويلاحظ أن تشبيه المرأة بالقمر هو تراث عربى محض.

(**) يشير إلى دافنى الذى كان يهرب من أبولو. وثربانتس هنا يقدم مزيجا معجبا من التراث الإغريقى الرومانى، والتراث الشعرى العربى الخاص بالغزل والحب العذرى.

لخياله المجنون، مرة أخرى مثل المرة السابقة، أن الابنة الجميلة لسيد هذه القلعـــة، مقهورة بحبه، عادت لمغازلته، وبهذا التفكير، حتى لا يبدو غير مهــذب، وجاحــدًا للجميل، أدار عنان روثينانتى، ووصل إلى الفتحة، وعندما رأى الصبيتين، قال:

– كم آسف لك يا سيدتى الجميلة، فى أن وجهت مشاعر حبك إلى جهـــة لـــن تستطيعى الاستجابة لها، كما هو جدير بمقامك الرفيع وظرفك، فلا تحملـــى هذا الفارس البائس ذنب ذلك، وهو يحمل بين جنبيه حبا مستحيلاً، يحـــول بينه وبين تسليم قياده لامرأة أخرى غير من جعلها سيدة روحه جميعًا ما إن رأتها عيناه، فعفوًا، أيتها السيدة الطيبة، عودى إلى مخدعك، ولا ترغبى مـــرة أخرى إلى توجيه أحلامك إلىّ، حتى لا أبدو فى هذا الجحود مرة أخرى، وإذا كان لديك حاجة غير الحب عندى اطلبيها، وأقسم لك باسم تلك العـــدوة الغائبة الحلوة، وسيدتى، أن ألبيها لك فى كمال، حتى لو كانت خصلة مـــن شعر (ميدوس)، والتى كل شعرة من شعرها ثعبان، أو كانت أشعة الشمس، حبيسة فى أحد أقاليم الكون.

قالت عند هذا ماريتورنس:

– ليس ضروريا لسيدتى كل هذا يا سيدى الفارس.

أجاب دون كيخوتى:

– إذن، ما هو المطلوب، أيتها الوصيفة اللبقة؟

قالت ماريتورنس:

– فقط واحدة من يديكم الجميلتين، كى تطفئ بعض لهيب العشق، الذى ولـــد عبر هذه الفتحة، وشديد الخطر على شرفها، لو أحس أبوها بأية همسة لها من وراء ظهره.

أجاب دون كيخوتى:

– إننى أود أن أرى هذا ! لكنه سوف يحجم عن فعل أى شىء، إذا لم يرغب فى صنع نهاية مفزعة لم تحدث لأب قبله فى العالم، بسبب حشر يديه بين الأعضاء الحساسة لابنته العاشقة.

بدا لماريتورنس أن دون كيخوتى سوف يعطى اليد المطلوبة، وخطر على بالها ما يجب عليها عمله، فهبطت من الفتحة، وذهبت إلى الإسطبل، حيث التقطت قيد رأس حمار سانشو بانثا، وبسرعة عادت إلى الفتحة فى نفس الوقت الذى وقف دون كيخوتى فوق سرج روثينانتى، حتى يبلغ النافذة ذات القضبان الذهبية، حيث تخيل وجود الابنة جريحة الحب، وعندما أعطاها يده، قال:

– خذى سيدتى هذه اليد، وبعبارة أخرى، جلاد كل الأشرار فى العالم، أقول خذى هذه اليد التى لم تمسها أى امرأة، ولا حتى تلك التى تسيطر سيطرة كاملة على كل جسمى، لا أعطيها لك كى تقبليها، وإنما كى ترى نسيج أعصابها، وكثافة عضلاتها، واتساع شرايينها وفضائها، ومنها سوف تستنتجين أنه يجب أن تكون مصدر القوة للذراع الذى تمتلكه مثل تلك اليد.

– الآن سوف نرى.

قالت ذلك ماريتورنس، وهى تعمل عقدة متسعة قابلة للشد، ثم أدخلتها فى معصم يده، وهابطة من الفتحة ربطتها فى قفل باب مخزن التبن بقوة.

أحس دون كيخوتى بخشونة الحبل فى يده، فقال:

– يبدو أن فخامتك تضايقيننى، فإما أن تعيدى لى يدى أو لا تعامليها هذه المعاملة بالغة السوء، فهى لا ذنب لها فى عدم قدرتى على مبادلتك الحب، ولا خير

فى أن تصبى كل انتقامك فى هذا الحيز الصغير ليدى، انظرى فى أن من يحب بصدق لا يثأر بهذه القسوة.

لكن كل هذه العبارات من دون كيخوتى لم يكن يسمعها أحد؛ لأن ماريتورنس أول ما ربطته، رحلت هى والفتاه الأخرى، ميتتين من الضحك، وتركتاه مربوطًا، يستحيل عليه الفكاك.

وكان - كما قيل من قبل - واقفًا فوق روثينانتى، وكل ذراعه داخل الفتحة، مربوطًا من المعصم، ومن قفل الباب، ومليئًا بالخوف الكبير والحرص من أن يتحرك روثينانتى يمينًا أو شمالاً، فيتركه معلقًا من ذراعه، وهكذا لم يكن يجرؤ على عمل أى حركة، و رغم صبر روثينانتى وهدوئه فلا يتوقع منه أن يبقى دهرًا دون حركة . خلاصة القول أن دون كيخوتى إذ رأى نفسه مقيدًا، وأن الفتاتين قد رحلتا، ورد على خياله أن كل ما حدث هو من فعل السحر، مثل المرة السابقة فى نفس هذه القلعة، حيث طحن جسمه ذلك العربى المسحور على هيئة بغال. من ثَم، أخذ يلعن فى داخله عدم فطنته وذكائه، حيث إنه قد خرج أسوأ خروج من هذه القلعة فى أول مرة، وبالتالى جازف بدخوله فيها مرة ثانية، بينما المرة الأولى تحذير كاف للفرسان المشائين الذين عندما يدخلون فى مغامرة، ولا يخرجون منها بخير، فتلك إشارة أن المغامرة موعودة لغيرهم وليس لهم، وبالتالى فلا ضرورة لتجربتها مرة ثانية. وخلال ذلك كان يشد ذراعه، ليرى إذا كان ممكنا الفكاك، لكنه كان مربوطًا جيدًا، حتى ضاعت كل محاولاته هباء. والحق أنه كان يشد ذراعه حابسًا أنفاسه حتى لا يحرك جسمه، حتى لا يتحرك روثينانتى، ومضى على هذه الحال، لو ود أن يجلس على سرج حصانه ما استطاع، وبقى له فحسب أن يظل واقفًا على قدم، أو تتخلع عنه يده.

وهناك اشتاق إلى سيف أماديس، الذى لم تكن تستطيع أن تواجهه أى قوة للسحر، وهناك لعن حظه، وهناك كانت فظاعة افتقاده للسيف فى وقت أن سحروه، وهناك التذكر من جديد لدولثينيا الحبيبة دل توبوسو، وهناك كان نداؤه لخادمه سانشو بانثا، الذى كان مقبورًا فى النوم، ممددًا فوق بردعة حماره دون تذكر الأم التى ولدته، وهناك نادى على ليرجانديو والقيفى(*)، طالبًا منهما المساعدة، وهناك استدعى صديقته أورجاندا أن تنجده، وفى آخر المطاف هناك أدركه الصباح، يائسًا متحيرًا يجأر مثل ثور، لأنه لم يكن ينتظر أن تحل أزمته مع الصباح، فهى أبدية، ما دام متصورًا أنه مسحور. وجعله يعتقد فى هذا رؤية روثينانتى دون حركة كبيرة أو صغيرة، ودون طعام أو شراب أو نوم. كتب عليه هو وجواده البقاء حتى يزال عنهما نجمهما السيئ أو يمر عليهما حكيم ساحر يخلصهما من سحرهما.

لكن اعتقاده خدعه كثيرًا، لأن الدنيا لم تكد تدخل فى الصباح حتى وصل إلى النزل أربعة رجال راكبين خيلهم، فى هيئة محترمة مهذبين، ببنادق فى حمائلهم. وطرقوا باب النزل الذى ما زال مغلقًا حتى تلك اللحظة . كانت طرقاتهم قوية، ورآها دون كيخوتى حيث كان، دون تجنب استمراره فى الحراسة، وبصوت متغطرس ومرتفع قال:

– أيها الفرسان أو الخدم، أو من كنتم ما تكونون، ليس لديكم سبب لطرق باب هذه القلعة فى هذه الساعة خاصة، لأن أصحابها إما نائمون أو ليس لديهم عادة فتح أبوابها حتى تغطى الشمس كل الأرض، ابتعدوا حتى يضىء النهار، وعندها نرى إذا كان ضروريا أن نفتح لكم أو لا نفتح.

(*) شخصيات من روايات الفروسية.

قال أحدهم:

– أى شيطان قلعة تلك، حتى نمارس تلك الشعائر مجبرين؟ إذا كنت الفنــــدقى، فلتأمر بأن يفتحوا لنا، فنحن عابرون لا نريد شيئًا غير بعض الشعير لخيلنا، ثم نرحل لأننا متعجلون.

أجاب دون كيخوتى:

– هل أبدو لكم فى هيئة فندقى؟

أجاب آخر:

– لا أدرى فى أى هيئة كنت، لكنى أراك تهذى بأن تطلق اسم القلعة على هـــذا النـــزل.

أجاب دون كيخوتى:

– إنها قلعة، ومن أحسن قلاع هذه المنطقة، والناس فى داخلـــها ممـــن يحملـــون صولجانا فى اليد، وتاجًا على الرأس.

قال العابر:

– من المفضل العكس، الصولجان على الرأس، والتاج فى اليد، ولن يكون غير ذلك، إذا كنت تزعم أن بالداخل حملة ممـــن يمثلـــون مـــن يحملـــون التـــاج والصولجان، لأن فى نزل صغير كهذا، حيث كل ذلك الصمت الذى نراه، لا أظـــن بوجود قوم جديرين بتاج وصولجان.

أجاب دون كيخوتى:

– تعرفون القليل عن الدنيا، لأنكم تجهلون الأحوال التى جرت عادة حـــدوثها، مع الفروسية المشّاءة.

تعب العابرون من الحوار مع دون كيخوتى، فعـــادوا لطـــرق البـــاب فـــى شراسة، فاستيقظ صاحب النزل، وكل من كانوا فى النزل، وهكذا نهض من فراشه ليسأل من الطارق. وتصادف أن فـــرسًا من خيـــول العـــابرين اقتربـــت تتـــشمم روثينانتى، والذى كان حزينًا ومكتئبًا، بأذنين متهدلتين يـــسند دون حـــراك ســـيده المشدود الجسم، ولأنه فى النهاية كان من لحم ودم، حتى لوبدا أنـــه خـــشبى، فلـــم يستطع تجنب الإحساس، والالتفات لشم من جاءت تعابثه، ولم يكـــن قـــد اســـتدار كثيرًا، حتى انحرفت قدمى دون كيخوتى معًا، وزلا عن السرج، فسقط بهما نحـــو الأرض، معلقًا من ذراعه، الأمر الذى آلمه كثيرًا، لدرجة أنه اعتقد أن معصمه قد انقطعت أو أن ذراعه قد انخلعت، وبقى قريبًا من الأرض، يقبلها بأطراف قدميـــه، وكان ذلك يؤلمه، بقدر ما أحس بالقليل الذى ينقصه كى يضع عليها كعبيه، وقد مط جسمه كثيرًا، وأتعب نفسه كى يبلغ الأرض، تمامًا مثل من يعذبونهم معلقين لهم من أذرعهم بأقدام تكاد تمس الأرض ولا تلمسها، مما يسبب كثيرًا من الألم فى محاولة مط الجسم وشده فى إلحاح، مخدوعين بأمل الوصول إلى الأرض، بقليل من مطـــه وشده أكثر.

الفصل الرابع والأربعون

حيث تستمر الوقائع التى لم يسمع بمثلها فى النزل

بالفعل كانت الصرخات التى أطلقها دون كيخوتى كثيرة، حتى إن الفندقى فتح الباب بسرعة وخرج غاضبًا ليرى من يطلق هذه الصرخات. فعل نفس الشىء العابرون خارج النزل. ماريتورنس التى لم تكد تستيقظ على نفس الصرخات، متخيلة ما كان يمكن أن تكونه، ذهبت إلى المتبن وفكت القيد الذى يمسك بدون كيخوتى دون أن يراها أحد، فسقط على الأرض على مرأى من الفندقى والعابرين، وعندما اقتربوا منه يسألونه عما به، فك القيد عن معصمه دون أن ينطق بكلمة، ونهض واقفًا، وامتطى روثينانتى، واحتضن درعه، وشرع رمحه، واتخذ موقعًا ممتازًا فى الميدان، ثم عاد إلى رمح حصانه قليلاً، وقال:

- **كل من يقول بأننى كنت مسحورًا فى شهادة موثقة، بإذن سيدتى ميكوميكونا، أكذبه وأتحداه وأبارزه فى معركة فريدة.**

بقى العابرون مندهشين من كلمات دون كيخوتى، لكن الفندقى أزال دهشتهم، بأن قال لهم إنه دون كيخوتى، وهو ليس فى كامل عقله.

سألوا صاحب النزل هل وصل إلى النزل فتى فى حوالى الخامسة عشرة، فى ثياب صبى بغال، شكله كذا وكذا، معطين أوصافه، وهى تنطبق على عاشق دونيا كلارا. أجاب الفندقى أن بالنزل أناسا كثيرين، فلم يلاحظ وجود من يسألون عنه. لكن عندما رأى أحدهم العربة التى جاء بها المستشار، قال:

– هنا يجب أن يكون، دون شك، لأن هذه العربة هى التى يقولون إنه يطاردها، فليقف أحدنا بالباب، ويدخل الباقون للبحث عنه، وقد يكون من الأفـــضل أن يدور أحدنا حول النـــزل حتى لا يهرب من أسوار الحظائر.

أجاب أحدهم:

–هكذا سنفعل.

وعند دخول اثنين منهما إلى الداخل، كان قد بقى أحدهم بالبـــاب، والفنـــدقى يرى كل هذا، ولا يستطيع أن يخمن من أجل ماذا يقومون بكل هـــذه الإجـــراءات، حتى لو كانوا يبحثون عن هذا الصبى الذى وصفوه.

فى ذلك الوقت، كان النهار يشتد ضياؤه، وهكذا بهذا، وبالضجة التى أحدثها دون كيخوتى، استيقظ الجميع ونهضوا، بصفة خاصة دونيـــا كـــلارا، ودوروتيـــا؛ فالأولى بفزع وجود عاشقها قريبًا منها، والثانية برغبة رؤيته، تمكنا من النوم دون نوم فى تلك الليلة. ودون كيخوتى، وقد رأى أن واحدًا من الفرسان الأربعة لم يكن يعيره أى التفات، ولا يجيب أوامره، كاد يموت غيظًا من الغـــضب والحنـــق، وإذا كان قد وجد فى تعليمات الفروسية المشاءة مشروعية لأن يبدأ الفارس المشاء مهمة جديدة، مع إعطائه كلمة وعهدًا ألا يتورط فى أى مهمة، حتى ينهى المهمة الأولـــى التى وعد بها، لهاجم الجميع، وجعلهم يتحملون شر أعمالهم، لكن لما لم يظهر لـــه أية مشروعية للبدء فى مهمة جديدة، حتى يتوج ميكوميكونا على عرشها، كان عليه الصمت، وأن يظل ساكنًا، منتظرًا أن يرى إلى أين ينتهى مسعى هؤلاء العـــابرين، الذين وجد أحدهم الصبى الذى يبحث عنه نائمًا بجوار صبى آخر للبغال، غافلاً عن إمكان أن يسعوا إليه أو حتى يجدوه. أمسكه الرجل من ذراعه، وقال:

- يقينًا أيها السيد دون لويس، إن الثياب التى ترتديها، والسرير الذى تنام عليه، يناسبان العز الذى عليه قد نشّأتك أمك.

نظف الصبى عينيه المنعوستين، ونظر فى بطء للرجل الذى يقبض عليه، وفى الحال عرف أنه أحد خدم أبيه، فأصابه فزع أىُ فزع، حتى إنه لم يستطع أن يصدق ما يرى، أو أن يجيبه بكلمة لبرهة طويلة، وواصل الخادم القول:

- هنا يا سيد دون لويس، لا يوجد شىء آخر تعمله، غير أن تصبر وتستدير عائدًا إلى بيتك، إذا كان فخامتك لا يود أن ينتقل سيدى والدك إلى العالم الآخر، لأنه لا يمكن انتظار شىء آخر من الألم الذى ظل عليه لغيابكم.

قال دون لويس:

- كيف عرف أبى أننى أسلك هذا الطريق؟

أجاب الخادم:

- أحد الطلاب، الذى أخبرته بنواياك، هو الذى كشف الأمر، متحركًا بالإشفاق، عندما رأى كم يفتقدك أبوك؛ وهكذا أرسل أربعة من خدمه للبحث عنكم، وكلنا هنا فى خدمتك، مسرورين بنجاح مهمتنا، حاملين لك للعيون التى تتوق لرؤيتك.

أجاب دون لويس:

- هذا سيكون حسبما أشاء أو تشاؤه السماء.

- لا بد أن تشاء، أو يجب أن تشاء السماء؛ موافقة على عودتكم، لأنه لا سبيل لاختيار آخر.

كل هذه العبارات المتبادلة بينهما سمعها صبى البغال الآخر الذى كان نائمًا بجوار دون لويس، فنهض من هناك، وذهب ليقول كل شيء لدون فرناندو، وكاردينيو، ولباقى الناس، وكانو قد انتهوا من ارتداء ملابسهم، وقد ذكر لهم كيف أن ذلك الرجل ينادى بلقب (دون) على الصبى الآخر، مع العبارات الأخرى التى وقعت بينهما، وكيف أنه يريده العودة إلى بيت والده، وأن الصبى لا يقبل. وبهذا، وبما كانوا يعرفون من أمره، من صوت جميل حبته به السماء، هرع الجميع فى شوق لأن يعرفوا بصفة خاصة من كان ذلك الصبى، وفوق ذلك لمساعدته إذا أحبوا استعمال القوة معه. وهكذا وصلوا، حيث كان الصبى والخادم يتجادلان، ويتعاندان. خرجت فى ذلك الوقت دوروتيا من مخدعها، وخلفها دونيا كلارا، ونادت على كاردينيو فى جانب، وحكت له فى عبارات مقتضبة قصة الموسيقى ودونياكلارا، أما هو فقد حكى أيضًا عما يحدث من وصول بعض خدم والده للبحث عنه، ولم يذكر ذلك بصوت خفيض حتى لا تسمعه كلارا، التى بقيت خارج نفسها، وإن لم تلحقها دوروتيا لكانت سقطت على الأرض. قال كاردينيو لدوروتيا أن يعودا إلى المخدع، وهو سيحاول علاج كل شيء، ففعلا ما طلب.

هنا كان قد تجمع الفرسان الأربعة حول دون لويس؛ لإقناعه بالعودة فى الحال إلى بيت أبيه. قال لهم هو إنه لن يعود بأى حال حتى ينجز مهمته، التى تتوقف عليها حياته وشرفه ونفسه. ضغط عليه الخدم ساعتها، قائلين له بأنهم بأى حال لن يعودوا بدونه، وأنهم سوف يحملونه أراد أو لم يرد.

أجاب دون لويس:

– هذا لن تفعلوه، إذا لم تحملونى ميتًا، وفى جميع الأحوال لن تحملونى إلا مفارقًا للحياة.

وهم على هذه الحال من العناد، وصل باقى العباد ممن كانوا فـي النـزل، خاصة كاردينيو، ودون فرناندو، وزملاؤه: المستشار، والقسيس، والحـلاق، ودون كيخوتى، الذى بدا له أنْ لم تعد هناك ضرورة لاستمرار حراسته للقلعة. كـاردينيو الذى كان يعرف قصة الصبى سأل من يودون حمله: لماذا يرغبون فى حمله ضد إرادته؟

أجاب أحد الأربعة:

– **يدفعنا إعطاء الحياة لأبيه، الذى يتعرض لخطر فقدانها بغياب هذا السيد.**

علق على هذا دون لويس:

– **ليس من حقكم أن يعرف الآخرون أمورى؛ فأنا حر، وسوف أعـود عنـدما أرغب، وإذا لم أفعل، ليس لأحدكم أن يستخدم القوة ضدى.**

أجاب الرجل الخادم:

– **أعمل عقلك فخامتك، وإن لم يكن كافيًا عند فخامتك العقل، فهو عندنا بما يكفى لعمل ما جئنا من أجله، وما هو واجب النفاذ علينا.**

قال عند ذلك المستشار:

– **لابد أن نعرف أن ما تفعلون له جذور.**

لكن الرجل تعرف عليه بوصفه جارًا لبيتهم، فأجاب:

– **ألا تعرف يا سيدى المستشار هذا الصبى، الذى هو ابن جاركم، وقد تغيب عن البيت، فى هذه الملابس غير المهذبة بالنسبة لمركزه الذى تعرفه فخامتك؟**

نظر إليه عندها المستشار، وتعرف عليه، واحتضنه، وقال:

– أى صبيانية هذه، يا سيد دون لويس، أو أى أسباب جبارة، حركتكم للقدوم بهذا المنظر، وفى هذه الثياب، التى تنطق قبحًا مع مقامكم .

انثالت دموع الفتى من عينيه، ولم يستطع إجابة المستشار بكلمة، وهذا قال للخدم أن يهدأوا، وأن كل شىء سيجرى على ما يرام، وأخذ دون لويس من يده، وانتحى به ناحية، وسأله عن قصته. وخلال سؤاله عن هذا و غيره، سمعت صرخات على باب النزل، وكان سببها اثنان من الضيوف قضيا الليلة فى النزل، وعندما رأيا أن الجميع مشغول بموضوع الخدم الأربعة وما جاءوا من أجله، حاولا الذهاب دون دفع ما عليهما، لكن الفندقى الذى كان متيقظًا لأموره أكثر من تيقظه لأمور غيره، أمسك بهما على الباب، وطلب منهما الدفع، واستقبح سوء نيتهما بما يليق، مما استفزهما أن يجيباه باللكمات، وهكذا بدآ فى معالجته جيدًا، حتى احتاج للصراخ، وطلب النجدة، والفندقية وابنتها لم يجدا أحدًا فارغًا غير دون كيخوتى، الذى قالت له ابنة الفندقية:

– أنقذ فخامتك، أيها السيد الفارس، بالفضائل التى حباك بها الله، أبى المسكين، فإنهم يطحنونه كما يدرس القمح.

أجابها دون كيخوتى ببطء شديد، وفتور بارد:

– أيتها الصبية الجميلة، لا مكان للاستجابة لطلبك، لأننى ممنوع من التدخل فى أى مغامرة أخرى قبل أن أتوج كمال مغامرة قد وعدت بها، لكن ما أستطيع أن أساعدكم به الآن هو أن تجرى وتقولى لوالدك أن يطيل هذه المعركة، ولا يتركهم ينتصرون عليه، وخلال ذلك أذهب لطلب التصريح من الأميرة ميكوميكونا، لأستطيع مساعدته فى محنته؛ وإذا هى وافقت، ثقى من أننى سوف أنتشله منها.

ردت على هذا ماريتورنس التى كانت أمامه:

– **آثمة أنا! قبل حصولك على هذا التصريح، سيكون سيدى فى العالم الآخر.**

أجاب دون كيخوتى:

– **افترضى يا سيدتى، أننى قد حصلت على التصريح، فى حال انتقال السيد إلى العالم الآخر، فهذا لن يغير من الأمر كثيرًا، فإننى سأنتشله من هذا العالم نفسه مهما اعترضنى، أو على الأقل، سوف أثأر ممن أرسلوه إلى هناك، وهكـــذا، سأرضيكما بأكثر من متوسط الرضا.**

ودون أن يقول كلامًا آخر ذهب راكعًا أمام دوروتيا، طالبًا منهـــا بكلمـــات فروسية ومشّاءة، بأن بوركت إذا أعطته تصريحًا لإنقاذ صاحب هذه القلعة، الـــذى هو واقع فى أزمة خطيرة. الأميرة أذنت له عن طيب خاطر، وهـــو فـــى الحـــال احتضن درعه، ووضع يده على سيفه، وهرع إلى بـــاب النـــزل، حيـــث مـــازال الضيفان يضربان الفندقى، لكنه عندما اقترب توقف مبهوتًا، وبقى ســـاكنًا، مـــع أن ماريتورنس، وصاحبة النزل سألاه فيما يتوقف ولا يتقدم لنجدة الفندقى.

قال دون كيخوتى:

– **إنى أتوقف لأنه ليس مشروعًا لى أن أضع يدى على خدم، لكن نادوا علـــى خادمى سانشو، الذى يحل له ويعد من واجبه هذا الدفاع والانتقام.**

كان هذا يجرى على باب النزل، وخلال ذلك كانت اللكمـــات والـــضربات تروح وتجىء فى مكانها المضبوط، لصالح أذى الفنـــدقى، وغـــيظ مـــاريتورنس، والفندقية، وابنتها، يأسًا من جبن دون كيخوتى، وسوء ما يحدث لسيد تلـــك، وزوج هذه، ووالد الثالثة.

لكن لنتركهم جانبًا، فلن يعدم من ينقذه، أو ليتحمل، وليصمت من يجرؤ على فعل أكثر مما تعد به قواه، ولنرجع خمسين خطوة إلى الخلف، لنرى بماذا أجـــاب دون لويس على المستشار، والذى تركناه معه فى جانب، يسأله عن سبب حضوره على قدميه، وبهذه الملابس البائسة، وعلى هذا أجاب الفتى بإمـــساك يديـــه بقـــوة، باعتبارها علامة على ألم كبير يعتصر قلبه، وخلال إهراق الدموع فى فيض، قال:

– سيدى، أنا لا أستطيع أن أقول لكم شيئًا، غير أنه من اتجاه أرادتـــه الـــسماء ويسره جوارنا، رأيت سيدتى دونياكلارا ابنتك، سيدتى، ومنذ تلك اللحظة توجتها مالكة لإرادتى، وإذا كانت إرادتكم أيها السيد الحقيقى والأب لى، لا تقف عقبة، فى هذا اليوم نفسه ينبغى أن تكون زوجة لى. من أجلها تركت بيت أبى، ومن أجلها ألبست نفسى هذه الثياب حتى أتبعها حيث ذهبـــت، مثل السهم يطير نحو هدفه أو البحار يتبع اتجاه بوصلته. هى لا تعرف شـــيئًا عن مشاعرى أكثر مما أمكنها فهمه من بعيد، عندما رأت عينىَّ تبكيان. وأنت يا سيدى تعرف ثراء ونبالة أبى، وأنا وريثه الوحيد، وإذا بدا لكم فى هذا ما يجعلكم تجازفون بجعلى الرجل كامل السعادة، فاقبلنى ابنا لكم، وإذا ما سار أبى فى اتجاه آخر، ولم تعجبه هذه السعادة، التى بحثت عنها لنفسى، فالوقت أقدر على حل وتعديل الأشياء أكبر من إرادات الإنسان.

وعند قول هذا صمت الصبى العاشق، والمستشار وقف يسمعه مبهوتًا، فـــى حيرة ودهشة، من الطريقة التى حكى بها دون لويس نواياه بهذه الكياســـة، ومـــن رؤية نفسه يعبر لحظة لا يعرف فيها ماذا يمكن عمله فى هذا الشأن المفاجئ غيـــر المتوقع، وهكذا لم يجب بشىء أكثر من طلبه للصبى أن يهدأ، وأن يـــؤخر رحيـــل خدمه فى ذلك اليوم، حتى يتروَّى فيما هو أفضل للجميع. قبـــل دون لـــويس يديـــه

عنوة، وأكثر بللهما بدموعه، الأمر الذى يرقق قلبًا من مرمر، ولـــيس فقـــط قلـــب المستشار، وكما كان لماحًا، فقد أدرك كم هو طيب لابنته هذا الزوج، مع أنه كـــان يود أن يتم بموافقة والد دون لويس لو كان ممكنًا، والمستشار يعلم أن الأب يحاول أن يجعل ابنه من ذوى الألقاب.

وفى هذه اللحظة قام سلام بين الفندقى والنزيلين، فبفضل إقناع دون كيخوتى لهما وكلماته الطيبة أكثر من التهديد والوعيد، قاما بدفع كل مـــا رغبـــه صـــاحب النزل، وخدم دون لويس كانوا فى انتظار نهاية الحوار بين المستشار ودون لويس، وقرار الأخير، لكن هنا لأن الشيطان لا ينام، أمر أن يدخل فى نفس تلـــك اللحظـــة الحلاق الذى أخذ منه دون كيخوتى خوذة ممبرينو، وأخذ سانشو بانثا عدة الحمـــار، والتى قايض بها عدة حماره. فعند حمّل الحلاق حماره إلى الإسطبل، رأى سانـــشو بانثا يقوم بتعديل لا أدرى ماذا من بردعته، وهكذا عندما رآها تعرف عليها، وتجرأ على مهاجمة سانشو قائلاً:

– آه، أيها السيد اللص، ها أنا أعثر عليك هنا. أعد إلىّ طشتى وبردعتى مع باقى العدة التى سرقتها منى.

سانشو، وقد هوجم على غفلة، وسمع الإهانات التى توجـــه إليـــه، تـــشبث بالبردعة بيد، وبالأخرى وجه لكمة للحلاق، استحمت بها أسنانه فى الدم، لكن ليس بهذا ترك الحلاق الأسير (هكذا كان ينظر إلى بردعته) وإنما أطلق الـــصرخات حتى اجتذب كل من كانوا فى النزل بتلك الضجة والمشاجرة.

كان يقول:

– أنجدونى! الملك! العدالة! أطلب استعادة ثروتى من هذا اللص الذى يريد قتلى؛ هذا اللص... قاطع الطريق!

أجاب سانشو:

- تكذب، لست بقاطع طريق، فلقد كسب سيدى هذه الغنائم فى حرب عادلة.

فى هذه اللحظة، ظهر دون كيخوتى أمام الجميع فى غاية الرضا والسرور من رؤية المدى الذى وصل إليه خادمه فى الدفاع والهجوم، وبدأ ينظر إليه منذ تلك اللحظة بوصفه رجلاً شهمًا، وفكر فى أعماق نفسه أن ينصبه فارسًا فى أول فرصة تعرض له، ورأى أن تعاليم الفروسية سوف يحسن استخدامها فى شخص سانشو. ومن بين ما كان يصرخ به الحلاق من أشياء كثيرة كان يقول:

- أيها السادة تلك البردعة ملك خالص لى، وذلك حق ويقين مثل الموت الذى إلى الله أدين، وهكذا فأنا أعرفها كما لو كنت ولدتها من صلبى، و ها هو حمارى فى الإسطبل لن يتركنى أكذب، وإذا لم تصدقوا جربوها عليه، فإذا لم تخرج على مقاسه ويوافق شنّ طبقه، سأبقى أكبر الكاذبين. وهناك ما هو أكثر، فى نفس اليوم الذى انتزعوها منى، انتزعوا طشتًا من النحاس الأصفر جديدًا، لم يمس، وكان سيد دينار.

هنا لم يستطع دون كيخوتى أن يعقل لسانه دون أن يجيب، فوضع نفسه بين المتشاجرين، مُودعًا البردعة على الأرض، ليعلن أنها ستبقى بينهما حتى يستبين الحق، وقال:

- لتروا فخامتكم أيها السادة الخطأ الذى يقع فيه هذا الخادم الطيب بوضوح وجلاء، مطلقًا اسم (طشت) على ما كان ويكون وسيكون خوذة ممبرينو، والتى انتزعتها منه فى حرب عادلة، تجعلنى مالكًا لها فى وضع شرعى وقانونى! وفيما يتعلق بالبردعة، لا أضع نفسى فى الأمر؛ حيث إن ما أعرف قوله هو

أن خادمي سانشو طلب منى إذنا بنـــزع شرَّابات زينة عدة جواد هذا الجبان المنهزم، حتى يزين بها حماره، وأعطيته الإذن فأخذها، أما تحويـــل شـــرَّابات الزينة إلى بردعة لا أستطيع إعطاء سبب لـــه، إلا الـــسبب العـــادى، إنهـــا التحولات التى تقع فى أحداث الفروسية، ولتأكيد ذلك انطلق سانشو أيهـــا الابن، وأحضر هنا الخوذة التى يقول عنها هذا الرجل الطيب إنها طشت.

قال سانشو:

– بحق الإله سيدى، إذا لم يكن لدينا دليل على حقنا غير ما تقوله فخامتكم، فإن الخوذة طشت حقيقى، وشرابات الزينة أيضًا بردعة حقيقية.

أجاب دون كيخوتى:

– افعل ما أمرتك به، فإن كل أشياء هذه القلعة لا ينبغى أن تكـــون محكومـــة بالسحر.

ذهب سانشو إلى حيث كان الطـــشت وأحـــضره، وهكـــذا عنـــدما رآه دون كيخوتى، أخذه فى يده، وقال:

– انظروا فخامتكم، سادتى، بأى وجه يستطيع هذا الخادم أن يقـــول إن هـــذا طشت، وليس بخوذة ممبرينو، وأقسم بعهود الفروسية التى أمارسها، أن هذه الخوذة هى نفس ما انتزعته، دون أن أضيف إليها أو أنتزع منها شيئًا.

قال فى تلك اللحظة سانشو:

– لا شك فى ذلك؛ لأن سيدى منذ كسبها حتى الآن لم يفعل بها شيئًا أكثر مـــن خوض معركة، عندما حرر المنكوبين الذين كانوا فى سلسلة مقيدين، وإن لم يكن سحر هذه الخوذة المتحولة قد سار فى الطريق الصحيح، بسبب عاصفة الأحجار التى أمطروا بها رأس سيدى فى نهاية تلك المعركة.

الفصل الخامس والأربعون

حيث يتم التحرى حول الشكوك المحيطة بخوذة ممبرينو والبردعة، ومغامرات وقعت، بكل صدق

قال الحلاق:

- ماذا يبدو لفخامتكم، سادتى، مايقوله هذان الرجلان المهذبان، حيث يعاندان فى أن هذه الآنية عبارة عن خوذة وليست طشت حلاق؟

- ومن يقول عكس ذلك، سأجعله يعرف أنه يكذب، سواء كان فارسًا أو خادمًا؛ نعم يكذب ويكذب ألف مرة.

حلاقنا جار دون كيخوتى، والذى كان حاضرًا، كما كان عارفًا طرائف دون كيخوتى وفكاهته، أحب أن يدعم سفاهته، وأن يدفع المزحة نحو تمامها، حتى يضحك الجميع، فقال مخاطبًا الحلاق الآخر:

- أيها السيد الحلاق، أو أيًا كنت، أعرف أننى أيضًا حلاق من نفس مهنتك، وأعمل بها بتصريح رسمى منذ عشرين عامًا، وأعرف جيدًا كل أدوات الحلاقة جميعًا، وكذلك فى صباى عملت بعض الوقت جنديًا، وأعرف جيدًا ما هى الخوذة، وما هى الطرز القديمة والحديثة من الخوذات، وما هى أنواع الأغماد، والقبعات العسكرية، وأشياء أخرى تتعلق بالحياة الحربية، وأنواع أسلحة الجنود، وبكل الوعى الصحيح، فإن هذا الشىء الذى هو أمامنا، والذى يمسكه

هذا السيد الطيب فى يده ليس طشتًا لحلاق، وليس هذا فقط، بل إنه بعيد كل البعد عن أن يكونه بعد الأبيض عن الأسود، والحق عن الباطل، وأيضًا أقول إن هذا، مع أنه خوذة، فإنها ليست خوذة كاملة.

قال دون كيخوتى:

- بكل تأكيد ليست كاملة، حيث ينقصها النصف، وهو الجزء الذى يحيط بالذقن والوجه.

قال القسيس:

- هذا هو بالضبط. (وقد فهم القسيس قصد صاحبه الحلاق).

وقد أكد كاردينيو نفس الشىء، ودون فرناندو، وزملاؤه من فرسان معيته، وحتى المستشار إذا لم يكن مهمومًا بمسألة دون لويس لساعد فى المزاح، لكن حقائق ما يفكر فيه كانت تستولى عليه كلية، فاهتمَّ بهذا المزاح قليلاً، أو ربما لم يكن قد أعاره أى انتباه. فى هذه اللحظات قال الحلاق ضحية المزحة:

- فليرحمنى الله، هل من الممكن أن كثيرًا من الرجال الشرفاء يقولون إن الطشت ليس طشتًا، وإنما هو خوذة؟ يبدو هذا الأمر مستحقًا لإثارة عجب كون بأكمله، مهما كان هذا الكون فى غاية التحفظ والذكاء. كفى، إذا كان هذا الطشت خوذة، فأيضًا هذه البردعة يجب أن تكون شرَّابات زينة للخيل، كما قال هذا السيد.

قال دون كيخوتى:

- بالنسبة لى، أمر البردعة نعم، لكن فى هذا لا أحشر نفسى.

قال القسيس:

- أن تكون بردعة أو شرَّابات، شأن يجب أن يقرره السيد دون كيخوتى، لأنه فى مسائل الفروسية كل هؤلاء السادة وأنا نعطيه فيها حق التقرير.

قال دون كيخوتى:

- بحق الإله، سادتى، كم هى كثيرة وغريبة الأشياء التى حدثت لى فى هذه القلعة خلال مرتين من نزولى بها، فلا تسألونى عنها، فأنا لا أجرؤ على قول أى شيء منها يقينًا، لا سيما فيما يتعلق بمضمون كل من هذه الأشياء، لأننى أتصور أنه عبارة عن أعمال من السحر الخالص. فى المرة الأولى أرهقنى جدًّا عربى مسحور يعيش فيها، وسانشو لم يفلت من عبث أتباع هذا العربى، وبالأمس ظللت معلقًا تقريبًا ساعتين، دون أن أعرف كيف تعلقت، ولا كيف وقعت فى هذه البلوى. وهكذا، أن أضع نفسى الآن فى أمر عظيم الاضطراب والحيرة بإعطاء رأيى، معناه الوقوع فى قضاء مرعب. فيما يتعلق بهذا الشيء الذى يقولون عنه إنه طشت، فقد انتهيت من الإجابة عليه، أما الشهادة بأن هذه بردعة أو شرَّابات لزينة الخيل، لا أجرؤ على إصدار حكم يقينى؛ وأترك الأمر كله للرأى الصائب لفخامة الجميع، لأنه لعدم كونكم فرسانًا منصبين مثلما أكون، ربما لا يؤثر فيكم سحر هذا المكان، ويصبح تفكيركم حرًّا، وتستطيعون الحكم على أشياء هذه القلعة كما هى فى الحقيقة وفى الواقع، وليس كما تبدو لى.

قال دون فرناندو ردًا على ذلك:

- لاشك فى أن السيد دون كيخوتى قد تكلم اليوم، فأصاب، وتصبح مسئوليتنا الحكم فى القضية، وحتى يصير الحكم على أساس أمتن، فإنى سوف آخذ أصوات هؤلاء السادة بطريقة سرية، وسوف أعلن النتيجة كاملة وواضحة.

بالنسبة لكل من كانوا يعرفون فكاهة دون كيخوتى ونوادره كان الأمر بالنسبة لهم مصدرًا لضحك عظيم، لكن لمن يجهلون كان الموقف يبدو لهم من أعظم الترهات فى العالم، وخاصة الخدم الأربعة لدون لويس، وحتى بالنسبة لدون لويس نفسه، ولثلاثة جنود من حرس محكمة البرارى والمناطق غير المعمورة التابعة للأخوة المقدسة، وكانوا قد وصلوا النزل منذ قليل، لكن الذى أصابه اليأس حتى نفاد الصبر كان الحلاق، الذى يتحول طشته أمامه إلى خوذة ممبرينو، وبردعة حماره إلى شرَّابات للزينة، ومظهرًا من مظاهر الثراء عند الفرسان، والبعض هنا والبعض هناك "ميت على روحه" من الضحك، وهم يرون دون فرناندو يأخذ أصوات الجميع واحدًا واحدًا، متحدثًا مع كل منهم فى الأذن حتى يصوتوا فى سرية عما إذا كانت بردعة أو شرَّابات تلك التحفة التى يتشاجرون حولها كثيرًا، وبعد أن أخذ أصوات كل من يعرفون دون كيخوتى، قال فى صوت مرتفع:

- الحكم هو، يا أيها الرجل الطيب، أننى قد تعبت من أخذ الآراء العديدة، لأننى أرى أن لا أحد ممن أساله عما أود معرفته، إلا يقول لى، إنها أضحوكة أن تقول عن هذه إنها بردعة حمار، وإنما هى شرابات جواد، يجب أن يكون من الخيل المولد الأصيل، وهكذا عليك بالصبر،لأنه على رغمك، ورغم حمارك. هذه شرابات وليست بردعة، وأنك أسأت الادعاء والإثبات فى قضيتك.

قال الحلاق المقهور:

– لعنى الله إذا لم تكونوا فخامتكم مخدوعين، وإن الله المطلع على النفوس يطلع على نفسى كما أطلع على هذه فأراها بردعتى، وليست بشرابات، لكن هناك قوانين حيثما يُحتاج الملوك، ولا أقول أكثر، وفى الحقيقة لست سكرانًا أو أننى جائع لم أفطر، أما الذنوب فنعم اقترفتها.

وتفاهات قول الحلاق، لم تحدث ضحكًا أقل من سفاهات دون كيخوتى، الذى قال فى تلك اللحظة:

– هنا لم يعد هناك شيء أكثر لعمله، سوى أن يحمل كل واحد ما يخصه، وكل ما وهبه الله، يباركه سان بدرو (حامل مفاتيح السماء) .

قال أحد الخدم الأربعة:

– إذا لم يكن هذا ملعوبًا مدبرًا، لا أستطيع إقناع نفسى أن رجالاً لهم عقول سليمة (وهؤلاء منهم أو على الأقل هكذا يبدون) يجرءون على قول وتأكيد أن الطشت ليس طشتًا، وأن البردعة ليست بردعة؛ لكن كما أرى وكما يؤكدون ويقولون، لا يستطيع فهمى إلا أن يرى أن الأمر لا يخلو من السر والغموض بهذا العناد على تأكيد عكس ما تظهر الحقيقة والتجربة، لأننى أقسم وأطلق القسم– أن كل من يعيشون على وجه الأرض قادرون على جعلى أن أصدق شيئًا غير أن هذا ليس إلا طشت حلاق، وأن تلك ليست إلا بردعة حمار.

قال القسيس:

– ولماذا لا تكون بردعة حمارة؟

قال الخادم:

– **كلاهما مركوب، المسألة ليست فى هذا، وإنما هذه بردعة، أو ليست كما تقولون فخامتكم.**

عندما سمع ذلك أحد الجنود، الذين لم يكادوا يدخلون، وقد شاهد المشاجرة وعرف القضية، وامتلأ حنقًا وغضبًا، حتى قال:

– **إنها بردعة جدًّا مثلما أبى هو أبى، وأن أى شيء آخر يقال هو من سقط القول.**

أجاب دون كيخوتى:

– **تكذب مثل كل قروى خبيث.**

وشرع الرمح الذى لم يفلته من يده طوال الوقت، كان على وشك إغماده فى رأس الجندى، ولولا انحرافه قليلاً لتركه مجندلاً . تكسر الرمح على الأرض، والجنديان الآخران وقد رأيا سوء معاملة زميلهما طلبا احترام رجال الأخوَّة المقدسة. صاحب النزل، وكان عضوًا فى النظام الدينى للأخوَّة المقدسة، دخل المعركة حاملاً نبوتًا وسيفًا، ووقف بجانب زملائه. خدم دون لويس أحاطوا به، حتى لا يهرب منهم فى خضم هذه الفوضى، والحلاق عندما وجد المكان قد انقلب رأسًا على عقب عاد للإمساك ببردعته، ونفس الشيء قام به سانشو. دون كيخوتى امتشق سيفه وهاجم الجنود، ودون لويس كان يصرخ فى خدمه، أن يتركوه ويذهبوا لمعاونة دون كيخوتى وكاردينيو ودون فرناندو (وقد عضدوا جميعًا دون كيخوتى)، القسيس كان يصرخ، والفندقية كانت تصوِّت، وابنتها تنهار، وماريتورنس تبكى، ودوروتيا يملأها الاضطراب، ولوسيندا مذهولة، ودونياكلارا أغمى عليها، والحلاق كان يضرب سانشو، وسانشو يطحنه طحنًا. ودون لويس الذى تجرأ أحد خدمه على

الإمساك بذراعه حتى لا يهرب، لكم ذلك الخادم فأغرق أسنانه فى الدم، والمستشار كان يدافع عنه، ودون فرناندو كان أحد الجنود يطحن تحت قدميه، اللتين كانتا تقيسان أبعاد جسم الجندى ما حلا لها الهوى، صاحب النزل عاد إلى الجأر بصوته طالبًا احترام الأخوّة المقدسة، لدرجة أن النزل كله قد امتلأ بالنحيب والصرخات والاضطراب والدم المراق. وفى قلب هذه السوق، حيث ماكينة الأشياء ومتاهتها تلعبان، ورد على ذاكرة دون كيخوتى تمثل الخلافات التى نشبت داخل معسكر الملك أرجامنتى، وهكذا قال بصوتٍ أرعدَ النزل:

– توقفوا جميعًا، واغمدوا سيوفكم جميعًا، وقولوا لى جميعًا عما إذا كنتم تودون البقاء أحياء.

على صوته العظيم توقف الجميع، وواصل هو الكلام:

– ألم أقل لكم أيها السادة، إن هذه القلعة مسحورة، وإن كتيبة من الشياطين لا بد وأنها تسكنها؟ فى تأكيد لهذا أود أن تروا بعيونكم، كيف عبرت هذا المكان وانتقلت إلينا مشاحنات معسكر أرجامنتى. انظروا هناك كيف يتم القتال بالسيف، وهنا بالخيل، ومن هنا حتى هناك بالعقبان والنسور، وفى تلك الجهة بالخوذات؛ وكلنا يتقاتل، وكلنا لا نفهم بعضنا بعضًا. احضر إذن، فخامة سيدى القسيس، وفخامة سيدى المستشار، والأول يقوم بدور الملك سوبرينو، والثانى بدور الملك أرجامنتى، وأقيما السلام فيما بيننا، لأنه والله العظيم هى سفاهة أن يتشاجر لأسباب بسيطة رجال ذوو شأن مثلما نحن الموجودون هنا الآن.

الجنود الذين لم يفهموا لغة دون كيخوتى، وقد رأوا أنفسهم مطحونين من ضربات دون فرناندو وكاردينيو وزملائهما، لم يحبوا أن يهدأوا، أما الحلاق فنعم،

لأنه فى مشاجرته قد نتفت ذقنه، وتمزقت بردعته، وسانشو بوصفه خادمًا طيبًا بأدنى صوت من سيده أطاع، والخدم الأربعة لدون لويس، رأوا أنهم لن يخسروا شيئًا لو توقفوا، فقط الفندقى عاند متصورًا وجوب معاقبة صلف هذا المجنون الذى يثير الفزع فى النزل مع كل خطوة له. أخيرًا هدأت الضجة فى ذلك الوقت، والبردعة بقيت شرًابات خيل حتى يوم القيامة، والطشت خوذة، والنزل قلعة فى خيال دون كيخوتى.

وعندما هدأ الجميع، وصاروا أصدقاء بهداية من القسيس والمستشار، عاد خدم دون لويس لمعاندته حتى يعود معهم فى الحال، وخلال جدله معهم حكى المستشار الأمر إلى دون فرناندو وكاردينيو والقسيس، وسألهم ماذا يفعل فى هذه القضية بعد أن ذكر لهم كل ما قاله دون لويس، وفى النهاية، تم الاتفاق على أن يقول دون فرناندو لخدم دون لويس، بأنه يرغب فى أن يذهب معه دون لويس إلى الأندلس، حيث ينال التقدير المناسب من أخيه الماركيز، لأن دون لويس أبدى عزمه على ألا يعود للظهور أمام عيون أبيه، ولوقطعوه قطعًا. وعندما فهم الأربعة مكانة دون فرناندو عزموا فيما بينهم أن يعود منهم ثلاثة كى يقصوا ما حدث على أبيه، ويبقى رابعهم لخدمة دون لويس ولا يتركه حتى يعودوا لحمله أو يروا بماذا يأمر أبوه فى شأنه. بهذه الطريقة توقفت ماكينة المشاجرات بسلطة الملك أرجامنتى، وكياسة الملك سوبرينو. لكن عدو الوفاق وحسود السلام، عندما رأى نفسه مهانًا مدحورًا بقليل من الثمار، بسبب ما زرعه واضعًا الجميع فى هذا التيه المضطرب، قرر أن يمد يده بتجربة جديدة مولدًا مشاجرات جديدة واضطرابًا.

ولأن الجنود قد هدأوا عندما تسامعوا بينهم بمكانة من تشاجروا معهم، وانسحبوا من المعركة، لأنهم رأوا أنهم بأى حال من الأحوال ومهما حدث سوف يخرجون فى الجانب الخاسر من المعركة، لكن أحدهم الذى طحن وتلقى ركلات

قدم دون فرناندو، تذكر أنه بين قوائم أوامر القبض على المجــرمين لديــه الأمــر بالقبض على دون كيخوتى لتحريره المجرمين الذين كانوا يقادون إلى السخرة فــى الأسطول، وهذا ما كان يخشاه سانشو كثيرًا. تخيل الجنــدى عنــد ذلــك أن دون كيخوتى هو المطلوب فى ذلك الأمر، فأحب الإشهاد على أن علامات المتهم تنطبق جيدًا على دون كيخوتى، وهنا أخرج رقعة من الجلد من جيب له، فعثر علــى مــا كان يبحث عنه، عندما مضى يقرأها فى بطء، لأنه لم يكن حسن القراءة، ومع كل كلمة يقرأها كان يضع عينيه على دون كيخوتى، مقارنًا بين ما جاء من علامــات فى أمر القبض ووجه دون كيخوتى، واجدًا دون شك التطابق الكامــل. وبمجــرد الانتهاء من الإشهاد والقراءة أمسك الرقعة بيده اليسرى، وقبض على دون كيخوتى من رقبته باليمنى حتى لم يترك له مجالاً للتنفس، وقال بأصوات صارخة:

- الطاعة للأخوّة المقدسة! وحتى يرى الجميع أننى أطلب القبض عليــه حقًّــا، فلتقرأوا هذا الأمر، الذى يتضمن القبض على قاطع الطريق هذا.

أخذ القسيس بالأمر، ووجد أن ما يقوله الجندى حقيقى، لتطــابق العلامــات على دون كيخوتى، والذى رأى سوء معاملة هذا القروى الشرير له، فوصل حنقــه قمته، وطقطق عظامه بأحسن ما استطاع وأمسك حلقه قابضًا عليه بــين قبــضتيه، ولو لم يهرع رفقاؤه لنجدته لفارق الحياة قبل دون كيخوتى فريسته. وصاحب النزل الذى كان عليه مناصرة جنود نظامه الدينى، هرع لنجدة الجندى. والفندقيــة التــى وجدت زوجها فى مشاجرة من جديد، رفعت صواتها، وانتقل خوفها فــى الحــال لماريتورنس وابنتها، طالبات عون السماء، وعون الحضور. قال ســانــشو عنــدما رأى ما يجرى:

– يا الله ! إنه حقيقي ما قاله سيدى من أن هذه القلعة مسحورة، فليس من الممكن العيش فيها ساعة من هدوء.

دون فرناندو فرق ما بين الجندى وما بين دون كيخوتى، وبرضا الاثنين خلع عنهما أيديهما حيث تعلق أحدهما بطوق الآخر، وثانيهما بحلق الأول، وكانت الأيدى منهما تحسن الإمساك بما هى عليه قابضة، لكن ليس بهذا يتنازل الجنود عن طلب سجينهم، فطلبوا من الآخرين مساعدتهم لربطه وجعله يستسلم لكامل إرادتهم، لأن ذلك يناسب الولاء للملك، وللأخوَّة المقدسة، والتى فى تمثيل لها يطالبون من جديد النجدة والمناصرة لسجن هذا اللص وقاطع الطريق الخاص والعام. ضحك دون كيخوتى من سماع هذه العبارات، وقال فى هدوء كامل:

– مرحى مرحى ! أيها الناس (الدُّون)، (العويلة): قطع طريق تطلقون على تحرير المسلسلين فى الأغلال، وإطلاق سراح السجناء، ومساعدة البؤساء، وإنهاض المتعثرين، وعون المضطرين. آه، أيها الناس الساقطة ! لهو جدير بذكائكم الغبى والأبله، ألا تلهمكم السماء معرفة القيمة التى تكمن فى الفروسية المشَّاءة، ولا تهبكم فهم الإثم والجهل الذى أنتم فيه من عدم تبجيل مجرد خيال الفارس المشَّاء، فما بالكم بشخصه. مرحى، مرحى بعصابة اللصوص، وليس عصبة العدالة، وبقطاع الطريق بأمر من الأخوَّة المقدسة ! قولوا لى: من الجاهل الذى وقع أمرًا بحبس فارس مشاء مثلى؟ ومن الذى جهل أن الفرسان المشائين يتمتعون بإعفاء من الخضوع للعدالة، وأن قانونهم هو السيف، وقضاءهم هو ألمعيتهم، وأن شريعتهم هى إرادتهم؟ ومن الأحمق، أعود للقول، من لا يعرف أنه لا يوجد عهد حقوق نبالة بامتيازات واستثناءات مثل عهد الفارس المشَّاء المكتسب من يوم تنصيبه فارسًا، وتفرغه

تمامًا لممارسة الفروسية؟ أى فارس مشَّاء سبق له وأن دفع ضريبة عامـــة أو عقارية أو ضرائب مناسبة الزواج الملكى أو ضرائب الولاء أو المـــرور مـــن إقليم إلى إقليم، أو ضريبة تسيير لسفينة؟ أى خيَّاط قبض ثمن ثوب عمله له ؟ وأى صاحب قلعة قبض منه ثمن إقامته فى قلعته؟ وأى صبية لم تعشقه وتسلم نفسها له، بكامل قضها وقضيضها وإرادتها؟ وأى ملك لم يجلسه على مائدته؟ وفى النهاية، أى فارس مشَّاء وجد أو يوجد أو سيوجد لم يهـــبط بأربعمائـــة ضربة عصا وحده لا معين له فوق أم رأس أربعمائة جندى أخوَّة مقدسة إذا اعترضوا طريقه؟

الفصل السادس والأربعون

عن المغامرة المشهورة لجنود الأخوَّة المقدسة، والحنق الهائل لفارسنا الهمام دون كيخوتى

بينما كان دون كيخوتى يقول ذلك، حاول القسيس إقناع الجنود بعدم تنفيذ أمر القبض على دون كيخوتى لغياب عقله كما هو ظاهر أمامهم من أعماله وكلماته، وأنهم حتى لو قبضوا عليه، سوف يطلقون سراحه لجنونه، وعلى هذا أجابه الجندى حامل رقعة الأمر، بأنه ليس من عمله الحكم على جنون دون كيخوتى، وإنما تنفيذ أوامر رؤسائه، وأنه بمجرد القبض عليه مرة، فليطلقوا سراحه ثلاثمائة مرة.

قال القسيس:

– ومع هذا، فليس عليكم حمله هذه المرة، وهو أيضًا لن يترك نفسه كى يحمله أحد، حسبما أفهم.

وبالفعل، عرف القسيس أن يقول لهم الكثير، وعرف دون كيخوتى أن يرتكب من الجنون أكثر، حتى إن الجنود كانوا سيكونون أكثر جنونًا منه لو لم يعترفوا بغياب عقله، وهكذا رأوا التهدئة والمصالحة، وحتى قبلوا بالقيام بدور الوسطاء بين سانشو والحلاق، وباعتبارهم رجالاً للعدالة تناولوا القضية، وصاروا فيها حكّامًا، حتى بقى الطرفان راضيين، وإن ليس (مائة فى المائة)، لأنهما تقايضا البرادع دون الأحزمة والمقاود، وفيما يتعلق بخوذة ممبرينو، فإن القسيس من جانبه

ودون أن يعرف دون كيخوتى، دفع ثمانية ريالات مقابل إيصال من الحلاق، وإقرار بعدم وجود خدعة فى ذلك الحين ولا فى أى حين، آمين. وحين تم إطفاء حريق هاتين المشاجرتين، اللتين كانتا الأهم والأكبر، بقى أن يرضى خدم دون لويس بالعودة ثلاثتهم مع بقاء رابعهم لصحبته حيث يريد دون فرناندو حمله، ولأن الحظ الطيب والنجم السعيد كان قد بدأ فى شق الرمح، وتسهيل الصعاب فى صالح عشاق النزل وشجعانه، فقد شاء ذلك الحظ أن يحمل الأحداث إلى نهايتها السعيدة، لأن الخدم قبلوا ما أراده دون لويس، وهو ما استقبلته دونيا كلارا بحبور، حتى إن أحدًا ممن كان هناك لم يكن يرى على وجهها إلا ابتهاج نفسها. زرايدا، وإن كانت لا تفهم جيدًا كل الأحداث التى رأتها، كانت تحزن وتفرح بالحزمة طبقًا لما ترى وتلاحظ من ملامح كل شخص، وخاصة من رجلها الإسباني. والفندقى لم يجعل مجاملة القسيس والحلاق لتعويضه تمر دون أن يطلب تعويضًا من دون كيخوتى عن الزقاق المهرقة وانسكاب النبيذ، وأقسم أن روثينانتى وحمار سانشو لن يخرجا من النزل قبل الدفع أولاً وحتى آخر فلس. وأطفأ هذه النار القسيس، ودفع دون فرناندو المطلوب، رغم أن المستشار عرض الدفع بكل سرور وطيب خاطر، وبهذه الطريقة بقى الجميع فى سلام وهدوء، ولم تعد تظهر فى النزل مشاحنات معسكر أرجامنتى، كما قالها دون كيخوتى، وإنما يسود نفس سلام وهدوء أزمان أوتابيانو، واتفق رأى الجميع على وجوب تقديم الشكر لحسن قصد القسيس وبلاغته، ولكرم دون فرناندو الذى لا نظير له.

وهكذا رأى دون كيخوتى نفسه حرًا طليقًا من مشاجرات غزيرة، ومثله سانشو، قرر أنه من الخير مواصلة الرحلة التى كان قد بدأها، وهكذا راح دون كيخوتى بهذا العزم ليركع بين يدى دوروتيا، وهى أصرت ألا يتكلم حتى ينهض، وهو حتى يطيعها وقف على قدميه، وقال:

– سيدتى الجميلة، إنه مثل شائع أن من جد وجد، فإن أشياء جد خطيرة قد كشفت عنها التجربة، وهى أن صاحب الشأن كلما طلبه أكثر بدد ما يحيط به من شكوك. لكن ذلك لا يثبت فى شيء أكثر من الحرب، حيث الخفة والسرعة تنبئ عن مداخل العدو ومخارجه، فيمكن بلوغ النصر، وعدوك ما زال لم يعد دفاعه. أقول كل هذا يا سيدتى السامية والرفيعة لأنى أرى أن إقامتنا فى هذه القلعة لا نفع لنا منها، ويمكن أن يكون شديد الضرر لنا إذا تأملنا الأمر مستقبلاً، لأنه من يعرف أن عدونا المارد لم يعرف عن طريق جواسيس مختبئين، وعملاء أننى سوف أدمره، وإعطاؤه الوقت يمكنه من التحصن فى إحدى القلاع التى لا تقهر، والتى فى مواجهتها تعجز عن فعل شيء سواعدى التى لا يدركها التعب؟ فلنسبق نواياه يا سيدتى، بسعينا إليه، وفى الحال نحو الحظ السعيد، ولن يكون أكثر من تفضل عظمتك بقبول هذا الحظ كما ترغبين، فقط بمجرد أن أنتهى من لقاء عدوك.

عند هذا سكت دون كيخوتى، ولم يقل شيئا أكثر، وانتظر فى هدوء شديد جواب الأميرة الجميلة، التى بلمحات سيادية وبراحة على الأسلوب الدون كيخوتى أجابته بهذه الطريقة:

– أشكر لكم، أيها السيد الفارس، الرغبة التى تظهرون لمناصرتى فى محنتى العظيمة، وتلك هى المروءة التى ينتظر نيلها اليتامى المتضررون من الفارس، فكانت السماء فى عوننا حتى ننجز مهمتنا، وحتى تعرف أن هناك نساء عارفات بالجميل فى هذا العالم. وفيما يتعلق بالرحيل، فليكن فى الحال، فإننى ليس لى إرادة تغاير إرادتكم، وسوف تجد من جانبى الاستعداد بمتابعة إيقاع حركاتكم، فمن وضع حياته واستعادة سلطاته بين يديك ليس له أن يهفو إلى غير ما توحى به فطنتكم.

قال دون كيخوتى:

- يد الله فوق أيدينا، ويسرنى تواضع سيدة فى مقام جلالتكم لى، حتى إنى لا أحب أن أفقد الفرصة لإنهاضها من عثرتها، ووضعها فى عرشها الموروث. لتكن المغادرة فى الحال، وهذا مازال يهمز رغبتى ويحرك نحو قدمى الطريق الذى اعتاد على مخاطبة سالكيه بأن الشر المستطير فى التأخير، ومع ذلك فلم تخلق السماء ولم تر الجحيم من يفزعنى أو يصيبنى بالجبن، سانشو ! أسرج روثينانتى، وضع عدة حمارك وأعد الجواد الملكى للملكة، ولنودع صاحب القلعة وهؤلاء السادة، ولنغادر فى التو واللحظة.

سانشو، وكان حاضرًا فى كل هذا، قال هازًا رأسه نحو الشمال ونحو اليمين:

- أى سيدى، سيدى، لا يوجد سوء كبير دون رنين فى القرية الصغيرة، مع الاعتذار لتعلقه بذوات الخمار الشريفات.

- أى سوء يمكن أن يوجد فى أى قرية أو فى كل مدن العالم، وله رنين يقلل من شأنى؟.

قال سانشو:

- إذا كان فخامتكم سوف تغضب، فعلىَّ أن أخرس لسانى، وأتجنب قول ما ينبغى بوصفى تابعًا مخلصًا، وكما يجب أن يفعل أى خادم محترم مع سيده.

أجاب دون كيخوتى:

- قل ما ترغب، فكلماتك لن تنقل إلىَّ الخوف إذا كنت خائفًا، وفى هذه الحالة أفعل ما يناسب من أنت، وإذا كنت لا أخاف فسوف أفعل ما يناسب من أنا.

قال سانشو:

- ليس هذا ياسانشو، أيها الآثم فى حق الله ! وإنما أنا أعتقد يقينًا أن هذه السيدة التى تقول عنها ملكة المملكة العظيمة ميكوميكونا ليست إلا امرأة مثل أمى، لأنها لو كانت ما تقول عن نفسها لما سارت تشمشم أحد رجال النـــزل بشفتيها مع كل إغماضه عين من الآخرين أو التقاء فى الطريق متقابلين.

وقفت دوروتيا وقد انبثق اللون الأحمر من خدها، خجلاً من عبارات سانشو، لأنها كانت حقيقية، فزوجها دون فرناندو، في إحدى المرات، ومن خلــف عيــون الآخرين، كان قد قطف بالشفاه بعض الجائزة التى تستحقها أشواقه (وهذا مـــا رآه سانشو، وبدا له لائقًا بسيدة من سيدات البلاط لا بملكة مملكة عظيمة)، ولم تــستطع دوروتيا، بل لم ترغب في إجابة سانشو بكلمة، وتركته يواصل كلامه:

- هذا أقول، يا سيدى، لأنه فى قطع الطريق والوديان، وقضاء أصعب الليـــالى والأيام، ينبغى قطف ثمار جهودنا، التى توقفت للراحة فى هـــذا النــــزل، والآن ليس علىَّ الإسراع لإسراج روثينانتى، أو وضع بردعة على حمارى أو تزيين جواد الملكة، لأنه الأفضل أن نتوقف، وكل عاهرة تغزل غزلها!

فليرحمنى الله، فكم كان عارمًا غضب دون كيخوتى عندما سمع هذه الكلمات المنحلة من تابعه. أقول كان غضبًا يتدفق بصوت طاغ يرتعد، وقال:

- أوه، أيها السافل الحقير، عديم البصيرة، المنحل الجاهل، ملجلج اللسان، النَّمام الصفيق، خالق الأكاذيب والإشاعات، اللعين! هل تجاسرت على قول هـــذه الكلمات فى محضرى، ومحضر هؤلاء السيدات الماجـــدات، وهـــل هـــذه الإشانات والصفاقات تجاسرت على الاحتفاظ بها فى خيالـــك المـــضطرب؟

اختف عن ناظرى يا مسخ الطبيعة، يا مخزن الأكاذيب ودولاب الإفك، وصومعة السفالة، ومخترع الشرور، وناشر السفاهات، وعدو رصانة السلوك التى يجب أن ندين بها إلى كل ذات ملكية اختف عن ناظرى، حتى لا تقع تحت طائلة غيظى.

وعند قوله هذا قَوَّسَ حاجبيه، ونفخ أوداجه، ونظر فى كل اتجاه، ودق الأرض بقدمه اليمنى دقة لا بأس بها، باعتبارها إشارات للغضب المتفجِّر فى داخله. ومع كلماته وحركاته الهائجة بقى سانشو مأخوذًا مبهوتًا، وكان يأمل فى تلك اللحظة أن تنفتح الأرض تحت قدميه وتبتلعه، ولم يعرف ماذا يفعل غير أن يدير ظهره والانصراف بعيدًا عن هذا المحضر الغاضب لسيده. لكن دوروتيا اللماحة الذكاء، والتى تعرف فكاهات دون كيخوتى، قالت حتى تهدئ من ثائرته:

– لا تغضب أيها السيد الفارس، صاحب الصورة الحزينة، من سفاهات سانشو تابعكم الطيب، لأنه ربما لم يقل ذلك إلا ولديه أسبابه، كما أن حسن فهمه وتدينه يحول بينه وبين أن يشهد دون بينة، وهكذا ينبغى الفهم أن هذه القلعة – طبقًا لقولكم أيها السيد الفارس – كل ما يحدث بها خاضع للسحر، فمن الممكن – حسبما أقول أنا – أن سانشو رأى عن طريق هذا السبيل الشيطانى ما يقول إنه رآه، فى حق شرفى.

قال هنا دون كيخوتى:

– بحق الله العظيم الجبار، إن عظمتكم قد أصبتم الهدف، وأن رؤيا سيئة اعترضت طريق هذا الآثم، سانشو، مما جعله يرى ما لا يمكن أن يرى بطريقة أخرى غير السحر، وأنا أعلم جيدًا طيبة وبراءة هذا التعيس، والذى لا يستطيع أن يلفق شهادات ضد أحد!

قال دون فرناندو:

– **هذا هو سانشو، وهكذا سيظل؛ ولهذا عليك أيها السيد الفارس دون كيخوتى أن تغفر له، وتعيد إليه رضاك "كما كنت!"، قبل أن تخرجه مثل هذه الرؤى عن عقله.**

قال دون كيخوتى إنه قد عفا عنه، وذهب القسيس لإحضار سانشو، الذى حضر فى غاية الاستكانة، وركع على ركبته أمام سيده، طالبًا يده، وهذا وهبها له، وبعد أن تركه يقبلها، باركه قائلا:

– **الآن سوف تعرف، أيها الابن سانشو، صدق ما قلته مرارًا من أن كل أشياء هذه القلعة من فعل طريقة السحر.**

قال سانشو:

– **هذه هى أيضًا عقيدتى، ما عدا شأن البطانية الذى هو من فعلٍ ذى طريق عادى.**

أجاب دون كيخوتى:

– **لا تظن ذلك، إذا كان كما تقول لثأرت لك فى لحظتها، بل الآن، لكنى لم أستطع الثأر لا فى لحظتها ولا الآن، وفوق ذلك لم أجد من أثأر منه لهذه الإساءة المرتكبة ضدك.**

رغب الجميع فى معرفة موضوع البطانية، فحكى لهم الفندقى الواقعة كما حصلت نقطة نقطة، وتقاذف سانشو فى الهواء، ولم يكن ضحكهم على ذلك قليلاً، ولا خجل سانشو أقل، رغم أنه لم تصل به سفاهة العقل مطلقًا إلى اعتقاد أن

التقاذف بالبطانية لم يكن حقيقة خالصة ومحققة، دون اختلاط بأى خداع، مثـل أن الذين تقاذفوه لم يكونوا أناسًا من لحم وعظم، وأنهم كانوا أشباحا محلـومًا بهـا، أو متخيلة كما كان سيده يعتقد ويؤكد.

كان قد مضى يومان على وجود هذه "اللَّمَّة" الباهرة فى النزل، وقد بدا لهم أنه قد حانت ساعة الرحيل، أعطوا أمرًا - دون عودة إلى المشاجرة - بعودة دوروتيـا ودون فرناندو مع دون كيخوتى حتى قريته، مع الاستمرار فى حيلة تحريـر الملكـة ميكوميكونا، حيث يستطيع القسيس والحلاق تحقيق ما كانا يرغبان فيه، من محاولـة علاج جنونه فى مسقط رأسه. وما قاموا بترتيبه هو اتفاقهم مع حوذى لعربة تجرهـا الثيران، كان قد مر بالصدفة على النزل، على أن يحمله على الوجـه التـالى: أولاً، صنعوا صندوقًا يشبه القفص المصنوع من قضبان خشبية متقاطعـة، قـادرة علـى الاتساع فى راحة لدون كيخوتى. وبعدها دون فرناندو، وزملاؤه الفرسـان، وخـدم دون لويس، والجنود مع الفندقى، والجميع - طبقًا لتعليمات ورأى القسيس- غطـوا وجوههم وتنكروا، كل منهم بطريقة تخالف الآخر، حتى يظهروا كقوم آخرين أمـام دون كيخوتى، غير القوم الذين صحبهم فى تلك القلعة. عند تنفيذ هـذا فـى صـمت كبير، دخلوا حيث وجدوه نائمًا، يستريح من تعب المعامع الماضية.

اقتربوا منه، وكان نائما فى براءة الأطفال، ثم ربطوه من يديه وقدميه بعـد أن أمسكوا به جيدًا، حتى إنه عندما استيقظ فزعًا لم يستطع أن يتحـرك يمينًـا أو شمالاً، بل لم يستطع أن يفعل شيئًا أكثر من الدهشة والذهول عنـد رؤيتـه لهـذه الوجوه الغريبة أمامه، وفى الحال أدرك بخياله المستمر وغير المتحول ما يهيئه له ذلك الخيال من أن تلك الصور عبارة عن أشباح هذه القلعة المسحورة، وأنـه دون أدنى شك أصبح مسحورًا، فلا هو - لذلك - قادر على الحركة أو الدفاع عن النفس. كل شىء يقع بدقة كما توقع القسيس، مخطط هذه الحيلة. فقط سانشو كـان بـنفس

عقله وبنفس صورته، ومع أنه ينقصه القليل للوقوع فى مرض سيده، لم يتوقف لحظة عن إدراك حقيقة هذه الصور المفتعلة، لكنه لم يجرؤ أن يفتح فمه حتى يرى أين سيقف هذا السطو والسجن ضد سيده، والذى أيضًا، لم ينطق كلمة متنبهًا للنظر إلى محطة النهاية لهذه التعاسة التى أصابته، ولم تكن إلا حبسه داخل القفص، الذى تم (مسمرة) بابه جيدًا حتى لا يمكن فتحه بدفعة أو دفعتين.

حملوه فوق الأكتاف، وخرجوا به من المخدع، وهنا سمعوا صوتًا مخيفًا، بقدر ما استطاع الحلاق أن يلون صوته بالفزع (ليس حلاق البردعة، إنما الآخر)، وأخذ يقول:

– أوه، أيها الفارس ذو الصورة الحزينة! لا يضعف عزيمتك السجن الذى تمضى إليه، لأنه هكذا سوف تنهى بسرعة أكبر مغامرة فرغت لها جهدك العظيم. سوف تنتهى المغامرة عندما يضاجع الأسد المنشاوى(*) الحمامة البيضاء التوبوسية(**)، بعد أن تنحنى الهامات الصلبة للنير الطرى للزواج، الذى سوف تخرج عن شركته غير المسبوقة الأشبال الذين سوف يحاكون أظفار أبيهم المظفرة، وسيكون هذا قبل أن يزور مطارد عروسة البرارى الهاربة (زيارتين اثنتين) الصور المضيئة فى مجراها السريع والطبيعى(***). وأنت يا أنبل حامل للدروع وأكثر الأتباع طاعة، والذى حمل سيفه فى خصره، ولحيته على وجهه، وحاسة الشم فى أنفه، لا تهن ولا تحزن لرؤيتهم يحملون– وهكذا أمام عينيك لا عينى غيرك– زهرة الفروسية المشّاءة، فإن شاء خالق

(*) المنشاوى نسبة إلى بلدة دون كيخوتى "لامانشا"، أى دون كيخوتى نفسه.
(**) دولثينيا دل توبوسو .
(***) يشير إلى هروب دلفى من أبولو .

العالم ومصوره، ستراك فى مقام عليٍّ وموقر، حتى إنك لن تعرف نفسك، ولن يغشك سيدك فيما ضربه لك من وعود. وتأكد من نبوءة الحكيمة الساحرة (منتيرونيانا) أن راتبك سيدفع لك، ولسوف ترى نفسك متابعًا خطوات سيدك الفارس الشجاع المسحور، ويناسب أن تذهب حيث تقفان معًا، ولأنه ليس مصرحًا لى أن أقول شيئًا أكثر، فإنى أستودعكم الله، ولسوف أعود إلى حيث أعرف.

وعند الانتهاء من النبوءة، رفع صوته إلى أعلى نبره، وبعدها خفضه فى نبرة بالغة الرقة، لدرجة أن العارفين بالملعوب ظنوا لوهلة أن ما يسمعونه حقيقى.

تعزَّى دون كيخوتى بالاستماع إلى النبوءة، من ثَم عبرها عبور الأحلام، ورأى أنهم يعدونه بالارتباط عن طريق الزواج المقدس والشرعى بمحبوبته دولثينيا دل توبوسو، ومن بطنها السعيد ستخرج الأشبال (أى أبناءه) من أجل مجد (لامانشا) الخالد، وعندما رسخ هذا الاعتقاد فى ذهنه، رفع صوته مع إطلاق تنهيدة عريضة، وقال:

- أوه، أنت، كنت من كنت، والذى تنبأت لى بالخير العميم، أرجوك أن تطلب على لسانى، من الحكيم الساحر الذى يتولى مسئولية أمورى، ألا يتركنى أهلك فى هذا السجن، حيث يحملوننى الآن، حتى أرى الوعود البهيجة والفريدة وقد صارت حقائق، من مثل ما وعدتنى به الآن، لأننى فى هذه الحالة سآخذ آلام الحبس أمجادًا، وتلك السلاسل التى تحيط بى راحةً وتنفيسًا، وهذا الفراش الذى يضعوننى فيه ليس ميدانًا خشنًا لمعركة وإنما سريرًا لينًا، وفراش زوجية سعيد. وفيما يتعلق بالتسرية عن سانشوبانثا، حامل دروعى،

فإنى أثق فى مروءته، وحسن سلوكه، فلن يتركنى، لا فى الحظ الطيب ولا فى الحظ العاثر، لأنه إن لم يحدث ذلك (بسبب نزوته أو قلة حظى)، فإن أكـــن غيره (لصالحه أو لسوء طالعى)، فأنا قادر على إعطائه الجزيرة، أو ما يعادل جزيرة، طبقًا لما وعدته، فعلى الأقل لن يفقد راتبه الذى تم وضعه بالفعل فى وصيتى، وبها أترك واضحًا إعلانًا بمستحقاته التى ليست تتطابق مع خدماتـــه الكثيرة والجليلة، وإنما فقط تتطابق مع إمكانياتى.

انحنى سانشو بانثا فى أدب جم، وقبل ما بين يديه، لأنه لم يتمكن من تقبيـــل أيهما على حدة لكونهما مربوطتين معًا فى إحكام.

فى هذه اللحظة، حملت هذه الأشباح القفص على الأكتاف، وأراحـــوه فـــى عربة الثيران.

الفصل السابع والأربعون

عن الطريقة العجيبة التى كان بها دون كيخوتى دى لامانشا مسحورًا، مع وقائع أخرى شهيرة

عندما رأى دون كيخوتى نفسه بهذه الطريقة محبوسًا فى قفص، ومودعًا فى عربة، قال:

– لقد قرأت قصصًا بالغة الخطورة حول الفروسية المشاءة دون أن أقرأ قط أو أرى أو أسمع أن الفرسان المشائين المسحورين يتم نقلهم بهذه الطريقة، وبهذه السرعة التى تسمح بها هذه الحيوانات الكسولة المتباطئة، لأنهم دائمًا ينقلونهم عبر الأجواء، بسرعة عجيبة، محبوسين داخل سحابة بنية اللون أو سوداء، أو فى عربة نيران، أو فوق براق مجنح أو أى دابة تطير، أما لأنهم يحملوننى الآن فوق عربة تجرها ثيران، فيا رباه كم يحيرنى!! لكن ربما الفروسية والسحر فى زمننا هذا يسيران فى طريق مخالف للطريق الذى سار عليه القدماء . وأيضًا، يمكن أن يكون الأمر راجعًا لأننى فارس جديد فى العالم، وأول من أحيا الممارسة المنسية للفروسية المغامراتية، مما ترتب عليه أيضًا أنهم اخترعوا أجناسًا أخرى من السحر، وطرقًا مختلفة لنقل الفرسان المسحورين. كيف ترى الأمر أيها الابن سانشو؟

أجاب سانشو:

- لا أدرى ما أراه لأننى لست قارئًا فى كتابات المشائين مثل فخامتك، لكن رغم ذلك أجرؤ على التأكيد والقسم أن هذه الأشباح التى تتحرك هنا من حولنا ليست على كامل الورع.(*)

أجاب دون كيخوتى:

- الورع؟ وا أبتاه! كيف تكون ورعة وهى شياطين أخذت أجسام الأشباح، كى تأتى وتفعل هذا، وتسلمنى إلى تلك الحالة؟ وإذا أردت أن تعرف هذه الحقيقة، تحسس أجسامهم، وجس صورهم، وسوف ترى كيف أن لا أجسام لهم إلا هواء، وأن ما تراه جسمًا لا يشكل إلا من مظهر لا أكثر.

أجاب سانشو:

- بحق الله، لقد تحسستهم يا سيدى، وهذا الشيطان الذى يتحرك فى رهافة محشو لحمًا، وله صفة مختلفة تمامًا عما سمعته عن الشياطين، فطبقًا لما يقولون جميعهم له رائحة الكبريت مع روائح أخرى كريهة، لكن هذا تفوح منه رائحة العنبر من مسافة نصف فرسخ.

كان سانشو يعنى بهذا دون فرناندو، لأنه بسبب انتمائه الملكى، يجب أن يعبق بذلك العطر الذى يشير إليه سانشو.

(*) يقول سانشو: ليست على كامل من "الكاثوليكية". وهذه الكلمة تستخدم بهذه الصيغة المنفية بمعنى الصحة أو الخير أو الصدق، أى أن سانشو يرى أنها أشباح زائفة لكن سيده لن يدرك ذلك بدليل تعليقه على كلمة "الورع".

أجاب دون كيخوتى:

– لا تعجب لهذا، أيها الصديق سانشو، لأننى أعلمك أن الشياطين تعرف الكثير، وعلى الرغم من أنهم يحملون معهم روائح، هم أنفسهم لا رائحة لهم؛ لأنهم أرواح، وإذا صدرت عنهم رائحة لا يمكن أن تكون طيبة، بل قبيحة ونتنة. والسبب أنهم أينما كانوا يحملون قطعًا من جهنم معهم، ولا سبيل لهم لنيل الراحة من عذابها، بينما الرائحة الطيبة هى شيء يسر أو يلذ، وبالتالى فلا يمكن أن تصدر عنهم هذه الرائحة، وإذا بدا لك أن هذا الشيطان الذى تشير إليه قد صدرت عنه رائحة العنبر، فإما أنت تخدع نفسك، أو أنه يرغب فى خداعك حتى لا تعرف أنه شيطان.

كل هذا الحوار دار بين خادم وسيد، مما أخاف دون فرناندو وكاردينيو أن يدرك سانشو كلية الملعوب، الذى كان يسير أفضل سير، ولذا قررا اختصار إجراءات الرحيل، فاستدعيا الفندقى على جانب، وأمراه أن يسرج روثينانتى وأن يضع العدة على حمار سانشو، وقد فعل ذلك بأسرع ما يكون. وخلال ذلك اتفق القسيس مع جنود الأخوَّة المقدسة، أن يصحبوه حتى قريته نظير أجر يومى تم الاتفاق على قيمته. وعلق كاردينيو فى قربوس السرج الدرع من ناحية، وطشت الحلاق من الناحية الأخرى، وبالإشارة أمر سانشو أن يمتطى حماره، وأن يأخذ بعنان روثينانتى، ووضع جنديي أخوَّة على جانبى العربة، كل منهما يحمل بندقية، لكن قبل أن تتحرك العربة خرجت الفندقية وابنتها وماريتورنس لوداع دون كيخوتى فى بكاء مصطنع على مصيبته. قال لهما دون كيخوتى:

– لا تبكين، سيداتى الطيبات، فإن كل هذه المصائب لصيقة بمن يمارسون ما أمارس، وإذا كانت تلك الكوارث لم تقع لى، ما صرت مشهورًا فى نظر الناس

فارسًا مشاء، لأن الفرسان ذوى الأسماء المجهولة أو القليلة الصيت، لا تحدث لهم مطلقًا هذه الأشياء، لأنه لا يوجد فى العالم من يتذكرهم، أما الفرسان الشجعان، فنعم، حيث يوجد حساد لهم من أمراء كثيرين، وفرسان آخرين لا حصر لهم، من ثم يحاول هؤلاء عن طريق الشر تدمير الأخيار. ومع ذلك، فالفضيلة جبارة، حتى إنها لذاتها، على الرغم من كل السحر الذى عرفه مخترعه الأول زرادشت، تخرج منتصرة فى كل محنة أو مأزق، لتعطى العالم من جوهرها نورًا مثل نور الشمس فى السماء. وسامحننى أيتها السيدات الجميلات، إذا كانت قد صدرت منى أية إساءة، لكن عن طريق السهو من جانبى (لأنه بإرادتى وعن علم، لم أسئ إلى أحد مطلقًا)، وتضرعن إلى الله أن يخرجنى من هذا الحبس، حيث وضعنى ساحر سيئ القصد والنية، وإذا رأيت نفسى حرًا، لن تسقط من ذاكرتى النعم التى نلتها فى قلعتكن بفضلكن، حتى أرد عليها بالعرفان وخدمتكن، وتقديم التعويض الذى أنتن له أهل.

خلال ذلك الوقت الذى قضته نساء القلعة مع دون كيخوتى، ودع القسيس والحلاق دون فرناندو ورفقاءه، والقبطان وأخيه، وكل أولئك السيدات الرّضيّات السعيدات، خاصة دوروتيا ولوسيندا. كان الجميع يتبادلون الأحضان، واتفقوا على إبلاغ بعضهم بعضًا ما يستجد فى حياة كل منهم من أخبار، وقد ذكر دون فرناندو للقسيس عنوانه حتى يعلمه إلى أى شىء ينتهى أمر دون كيخوتى، مؤكدًا له أن لا شىء يمكن أن يسره أكثر من معرفة ذلك، وهو من ناحيته سوف يخبره بكل ما يمكن أن يسره مثل زواجه، وتعميد زرايدا ودون لويس، وعودة لوسيندا إلى بيتها. وعد القسيس بأن يفعل كل ما يأمر به دون فرناندو، بكل انضباط ودقة. عادوا للأحضان مرة أخرى، ومرة أخرى عادوا لتبادل الوعود.

الفندقى اقترب من القسيس وأعطاه بعض الأوراق، وقال له إنه وجدها عند تصفحه للحقيبة التى سبق ووجد بها رواية الفضولى الصفيق، لأن صاحبها لم يعد بعد ذلك إلى النزل، فليحملها جميعها، فهو لا يقرأ ولا يكتب، ولا يرغب فى اقتناء تلك الأوراق. شكره القسيس، وفى الحال فتحها، فوجد على صدر المكتوب "رواية المخبأ والنقود المعدنية"(*) وهكذا عرف أنها رواية، وخمن كما أن الفضولى الصفيق كانت جيدة، فإن هذه أيضًا ستكون كذلك، مع احتمال أن تكون الروايتان لنفس المؤلف، وهكذا احتفظ بها ليقرأها، بالطبع عندما يجد وقتًا لذلك.

امتطى بغلته، وفعل نفس الشىء صديقه الحلاق، وكلاهما بقناعه، حتى لا يتعرف عليهما دون كيخوتى، وشرعا فى السير وراء العربة. وكان ترتيب السير هكذا: تقدمت العربة يقودها صاحبها، وعلى جانبيها جنديا الأخوَّة المقدسة، ببندقيتيهما كما سبق القول، ويتبع العربة مباشرة سانشو بانثا على حماره، ممسكًا بعنان روثينانتى، وخلف كل هذا يجىء القسيس والحلاق فوق بغلتيهما الجبارتين، مع تغطية وجهيهما كما سبق القول، وفى هيئة جادة ومطمئنة، لا يحثان السير إلا بما تسمح به الخطى البطيئة للثيران. وكان دون كيخوتى يمضى جالسًا فى القفص؛ اليدان مقيدتان، والقدمان ممددتان، القضبان الخشبية كانت له متكأ صبر لا ينفد، وصمت تمثال من حجر لا رجل من لحم. وهكذا بكل هذا البطء والصمت، ساروا فرسخين، ووصلوا إلى واد، رآه صاحب العربة المكان المريح من أجل عمل استراحة وإعطاء الثيران بعض العشب. أبلغ ذلك للقسيس، لكن رأى الحلاق كان مواصلة السير قليلاً، حيث يوجد على القرب واد به حشائش أكثر، وأنضر كثيرًا من المكان الذى أراد صاحب العربة النزول به. أخذوا برأى الحلاق، وعادوا لمواصلة السير.

(*) إحدى روايات ثربانتس.

وهم على هذه الحال، التفت القسيس بوجهه، ورأى خلفه حوالى ستة فرسان أو سبعة، ذوى طلعة بهية وثياب مهندمة، وقد أدركوهم سريعًا، لأن هؤلاء لم يكونوا يسايرون فتور الثيران واطمئنانها، لكنهم كما لو كانوا كهنة قانونيين على بغال سريعة لإدراك نوم القيلولة فى النزل، الذى يظهر على بعد نصف فرسخ من هناك. وصل المجتهدون فى سرعتهم إلى حيث كان كسالى الثيران، وتبادلوا التحايا فى أدب، وأحد هؤلاء القادمين، وباختصار كان كاهن طليطلة القانونى، ورئيس من كانوا فى صحبته، عندما رأى موكب العربة، وجنود الأخوّة، وسانشو، وروثينانتى، والقسيس، والحلاق، وأكثر دون كيخوتى فى قفص ومسجون، لم يستطع تجنب السؤال عن معنى حمل ذلك الرجل بتلك الطريقة، وإن كان قد أدرك مع رؤية شعار الجنود، أنه ينبغى أن يكون أحد اللصوص السطاة الشريرين، أو أى مجرم آخر، يدخل عقابه فى اختصاص الأخوّة المقدسة. أحد الجنديين عند استقباله السؤال أجاب هكذا:

– **سيدى، معنى حمل ذلك الرجل بتلك الطريقة، فليقله هو، لأننا لا نعرف.**

سمع دون كيخوتى كلامهما، فقال:

– **بالصدفة، هل فخامتكم سادتى عالمون ومتخصصون بالفروسية المشاءة؟ إذا كنتم كذلك حدثتكم عن مصيبتى، وإن لا، فلا مبرر للتعب فى حكايتها.**

فى هذا الوقت وصل القسيس والحلاق، عند رؤيتهما العابرين يحاورون دون كيخوتى دى لا مانشا، وذلك حتى يجيبا على فضولهم بشكل لا يؤدى إلى كشف الملعوب.

أجاب القانونى على ما قاله دون كيخوتى:

– فى الحقيقة، أيها الأخ، أنا لا أعرف من كتب الفروسية غير كتاب " لاس سومولاس دى بيًا لباندو"(*). وهكذا، يمكنك يقينًا أن تحكى لى كل ما تحب، إذا لم يكن المطلوب أكثر مما فى هذا الكتاب.

– على بركة الله - أجاب دون كيخوتى - إذن، سأفعل. أحب أن تعرف، أيها السيد الفارس، أننى أسير مسحورًا فى هذا القفص، بسبب حسد بعض السحرة الشريرين وغشهم؛ فالفضيلة يطاردها الأشرار أكثر مما يحبها الأبرار. أنا فارس مشاء، ولست ممن لم تتذكر (الشهرة) أسماءهم لتخليدها، وإنما أنا ممن – على الرغم من الحسد وضغائنه، وزمرة السحرة الذين نشأهم فارس، وبراهمة الهند، وزهاد أثيوبيا العراة – التزمت الشهرة بوضع اسمه فى معبد الخلود، حتى ينفع العصور القادمة مثالاً ونموذجًا تحتذى خطاه الفروسية المشاءة، إذا أرادت بلوغ القمة المشرقة للسلاح وذراها السامقة.

هنا تدخل القسيس، وقال:

– يقول الحق السيد دون كيخوتى دى لا مانشا، إنه يسير مسحورًا فى هذه العربة، وليس ذلك بسبب ذنوبه وجرائمه، لكن للنية السيئة لمن تغضبهم الفضيلة، وتحنقهم البسالة. إن هذا، يا سيدى، هو الفارس صاحب الصورة الحزينة، إذا كنت قد سمعتهم يرددون هذا الاسم فى وقت من الأوقات، والذى سوف تكتب أمجاده الباسلة، وأعماله العظيمة على ألواح من نحاس لا يبلى، ومن مرمر لا يزول، حتى يتعب الحسد دون أن يعتم عليها، والشر دون أن يخفيها.

(*) كتاب به عدد من روايات الفروسية Text Book، من وضع جاسبار كارديُو دى بيّالباندو، وكلمة سومولاس تكشف عن ذلك Las Suamulas فمعناها خلاصات منطق "أى شىء"، ولهذا سنفهم فرحة دون كيخوتى وترحيبه.

عندما سمع القانونى السجين والحر يتكلمان بنفس الأسلوب، أوشك أن يصلى صلاة التصليب من العجب والاندهاش، ولم يستطع أن يعرف ماذا حصل له، وقد وقع فى نفس العجب والاندهاش كل من كانوا معه. وبينما هم على هذه الحال، سانشو بانثا الذى اقترب كى يسمع ما يدور، قال كى ينظم الأمر كله ويرتبه(*):

- الآن، أيها السادة، ولكم أن تظنوا بى الظنون لما سأقول، حالته: يسير هكذا سيدى دون كيخوتى مسحورًا مثل أمى، إنه فى كامل عقله، وهو يأكل ويشرب، ويقضى حاجته مثل باقى البشر، ومثلما كان يفعل بالأمس قبل أن يأسروه فى القفص. إذا كان الأمر كذلك، كيف يرغبون فى جعلى أعتقد أنه مسحور؟ ولقد سمعت من أشخاص كثيرين أن المسحورين لا يأكلون ولا يشربون، ولا يتكلمون، وسيدى، إذا لم يحجروا عليه، سيتكلم أفضل من ثلاثين نائبًا.

وهنا التفت لينظر إلى القسيس، وواصل القول:

- آه، أيها السيد القسيس، السيد القسيس! هل تفكر فخامتكم أننى لا أعرفك، وهل تظن أننى لا أستنبط وأخمن وجهة هذا السحر الجديد؟ إذن، لتعرف أننى أعرفك، مهما أسرفت فى غطاء وجهك، وثق أننى أفهمك مهما حاولت إخفاء أكاذيبك. فى النهاية، حيث يحكم الحسد، لا عيش للفضيلة، وحيث يوجد الفقر لا عيش للكرم، ملعون الشيطان؛ فلولا وجود قداستكم لكان الآن سيدى متزوجًا من الأميرة ميكوميكونا ولكنت الآن "كونت"، على الأقل، فما كنت أتوقع أقل من ذلك من مروءة سيدى صاحب الصورة

(*) التعبير هنا يسخر منه نتيجة ما قال سانشو، فيو قد هدم ما انبنى!

الحزينة، ومن عظمة خدماتي! لكنى أرى أن ما يقال هنا هو الصدق: إن عجلة الحظ تدور ببراعة أفضل من عجلة الطاحونة، ومن كانوا بالأمس فى القمة اليوم فى السفح. وإن أمر أولادى وزوجتى يثقل علىَّ كثيرًا، متى يستطيعون أو متى يجدون أن من واجبهم الانتظار بالباب ليروا والدهم يدخل وقد صار حاكمًا، أو نائب ملك فى جزيرة أو مملكة، بدلاً من رؤية صبى خيل. كل هذا الذى قلته، أيها السيد القسيس، ليس إلا من أجل تزكية أبوتكم لإدراك سوء المعاملة التى تعامل بها سيدى، وانظر جيدًا فى حساب الآخرة عن سجن سيدى، وسوف تتحمل وزر النجدة والبر الذى أجبر سيدى على عدم القيام بهما خلال وقت هذا السجن.

هنا قال الحلاق:

- انقع لى هذه القناديل، واشرب "ميتها" ! سانشو أنت الآخر درويش فى فرقة سيدك الصوفية؟ بحق الإله إنى أكاد أرى لزوم وضعك معه فى القفص، ولزوم أن تكون مسحورًا مثله، لما يَمَسُّك من فكاهته، ومن فروسيته! فى لحظة خيبة أمل تعلقت بوعوده، وفى ساعة نحس دخل فى رأسيكما موضوع الجزيرة التى تتوقان إليها كثيرًا.

أجاب سانشو:

- لست معلقًا بأحد، ولست بالرجل الذى أتركهم يخدعوننى بمعسول القول، ولو كان قول ملك، وعلى الرغم من أننى فقير، فإننى مسيحى قديم، ولا أدين بشىء لأحد، وإذا كنت أتوق إلى الجزُر فغيرى يتوق إلى ما هو أسوأ .

وكل أمرئ ابن لعمله، وكونى إنسانًا يمكن أن أصير (البابا)، وأسهل حاكم جزيرة، وأكثر من ذلك فى إمكان سيدى كسب جزر كثيرة، ولا ينقصه إلا لمن يهديها. فخامتكم (تمهل) فيما تقول، أيها السيد الحلاق، فليس كل الأشياء هى (حلاقة ذقن)، فهناك شيء يختلف من (بدرو) إلى (بدرو) آخر. أقول ذلك، لأننا كلنا يعرف بعضه بعضا، ولا يستطيع أحد أن يغش فى الزهر معى، وفيما يتعلق بسحر سيدى، فالله وحده يعرف الحقيقة، وضع حدًا للأمر عند هذا، لأن الأمور ستكون أسوأ إذا تجاوزت.

لم يحب الحلاق أن يرد على سانشو، حتى لا ينكشف الملعوب نتيجة سذاجته، ويضيع ما حاول طويلاً هو والقسيس تغطيته، وبنفس هذه الخشية طلب القسيس من القانونى أن يسبقا العربة قليلاً حتى يقول له سر المحبوس فى القفص مع أشياء أخرى سيطرب لها. وهكذا فعل القانونى، متقدمًا مع خدمه، وبقى منتبهًا لكل ما أحب القسيس أن يقوله له عن ظروف وحياة وجنون وعادات دون كيخوتى، بعد أن حكى له باختصار بداية عطب عقله وسببه، ومدى تقدم الوقائع، حتى وضعه فى القفص، بقصد حمله إلى بيته، للتحرى عما إذا كان ممكنًا بأى وسيلة العثور على علاج لجنونه. علت الدهشة وجوه الخدم، ومعهم الكاهن القانونى من سماع القصة الطريفة لدون كيخوتى، والتى عند انتهائها قال:

– حقًا، يا سيدى القسيس، فأنا أجد – فى رأى خاص لى – أن هناك ضررًا بليغًا يقع على البلاد من هذا الشيء المسمى كتب الفروسية، مع أننى قرأت، مدفوعًا بلذة مزيفة وباطلة، تقريبًا أول كل كتاب مطبوع كثير الانتشار. مطلقا، لم أستطع قراءة أحدها من الأول للآخر، لأنه يبدو لى أنك كلما تقدمت فى الكتاب عدت إلى الخلف، إنهم جميعًا يكررون نفس الأشياء، ولا

يحتوى هذا على أكثر من ذاك، ولا غيرهما على أكثر مما يحتويه ما عـــداهما. وطبقًا لرؤيتى، فإن هذا الجنس من الكتابة والتأليف، يقع تحت باب حواديت الجان، والتى تحقق فقط اللذة، ولا شيء من التعليم، على عكس حواديـــت المغزى والأمثال، والتى تلذ وتعلم فى نفس الوقت. وبـــافتراض أن القـــصد الرئيسى لمثل هذه الكتب هى اللذة، أنا لا أدرى كيف يلتذون بكتب مليئة بهذه الترهات الطليقة؛ فإن لذة الروح تدرك فى الحسن والتوافق الذى يُرى، أو يُتأمل فى الأشياء التى يلقى بها البصر أو الخيال أمامنا، وكل شيء قبـــيح سيئ التوافق لا يمكن أن يطرب الروح أو الـــنفس. إذن أى حـــسن، وأى تناسب أجزاء مع الكل، وكل مع الأجزاء، فى كتاب أو حدوتة جان، فيهـــا يعطى صبى عنده ستة عشر عامًا طعنة لمارد مثل البرج، ويشطره إلى شطرين كما لو كان قرص حلوى، أو فيها عندما يريدون رسم معركـــة، بعـــد أن يكونوا قد قالوا إن العدو يتكون من مليون مقاتل، ويواجههم بطل الكتاب، وعلى الرغم من ضيقنا، علينا أن نفهم أن ذاك الفارس حقق النـــصر فقـــط بفضل قوة ساعده؟ إذن، وماذا نقول عندما تلقى ملكة أو إمبراطورة وارثة نفسها بين ذراعى مشَّء بكل سهولة، ولا تفعل ذلك مع أى فارس مشهور؟ أى عبقرية، إن لم تكن بربرية (وغير مثقفة تمامًا) يمكن أن تطرب عند قراءة أن برجًا مليئًا بالفرسان يجرى فى أعالى البحار مع رياح رخيَّة، واليوم يمسى فى لومبارديا، وفى الغد يصبح فى أرض القس خوان دى لاس أندياس، أو فى أماكن أخرى لم يعرفها بطليموس، ولم يرها ماركو بولو؟ وإذا أجابونى علـــى هذا، بأن تلك الكتب من يؤلفها يكتبها كذبة، وهكذا فمؤلفها ليس مضطرًا للدقة أو التحقق، وأنا أجيبهم، أن الكذبة أفضل عنـــدما تبـــدو حقيقيـــة،

وتطرب كثيرًا كلمات احتوت أكثر على الممكن، والمـــشكوك فى إمكانـــه. ينبغى أن تتزوج الحدوتة الكاذبة مع عقل من يقرأها، بكونهـــا هـــدفًا مـــن كتابتها، مع تيسير المستحيل، واستئلاف العظمة، واستيقاف النفوس، تعجب وتبهت، وتحزن وتسلى، حتى إن الدهشة والبهجة يسيران معًا بنفس الخطى، وكل ذلك لا يتحقق عند كل من يهرب من الاحتمال والمحاكـــاة، ومنـــها يتشكل كمال ما يكتب. لم أر أى كتاب فروسية يشكل جسم حكاية كاملاً بكل أعضائه، فما يتوسط منها يناسب المبدأ، والنهاية البداية، بل هو يشكل كل جزء من أعضاء كثيرة، حتى يبدو أنها تنوى خلق مسخ أو حيوان خرافى أكثر من نيتها تشكيل صورة متناسبة. وبعيدًا عن هذا، فى الأسلوب نـــرى تلك الكتب فى الأسلوب متصلبة، وفى المحاسن غير معقولة، وفى الغراميـــات شهوانية، وفى السلوك المهذب سيئة الوقع والمنظر، طوال المعـــارك، بلـــهاء الأسباب، ورحلات من الترهات، وفى النهاية تخلو من أى حرفية فنية فطنـــة أو ذكية، ومن أجل هذا تستحق النفى من بلاد المسيحية، باعتبار مؤلفيهـــا أناسًا لا نفع لهم.

القسيس كان يستمع إليه، باهتمام كبير، وبدا له رجلاً ذا ذكاء كبيـــر، وأنـــه كان معه الحق فى كل ما قال، وهكذا قال له لأنه أيضًا مع نفس الرأى، حرق- بعد إلقاء نظرة عاجلة- كل كتب دون كيخوتى، وكانت كثيرة العدد. وحكى له عمليـــة الفحص والمحاكمة التى عملها، وما صدر منها ضده الحكم بالحرق، ومـــا صـــدر منها الحكم بإبقائه على قيد الحياة، الأمر الذى لم يكن القانونى ضحك له قليلاً، وقد قال مع كل ما حكاه عن سوئها، بأنه يوجد فى هذه الكتب شىء طيب: وهى المـــادة التى يقدمونها حتى يتجلى فيها ذكاء رفيع للمؤلف، فهى تعطـــى وصـــفًا طـــويلاً،

وبطيئًا لميادين المعارك، حيث يجرى القلم دون ارتباك كاشفًا عن غـــرق الـــسفن، والعواصف، ولقاءات قتال ومعارك، وراسمًا قبطانًا شجاعًا بكل تفاصيل ما يحتاجه وصف مثل هذه الشخصية، ومن فطنة وتوقع سلوك أعدائه، ومن خطابـــة بليغـــة لإقناع وتحريض جنوده، ومن نضج فى النـــصيحة، ومـــن ســـرعة فـــى العـــزم والتصميم، ومن شجاعة فى الانتظار أو الهجوم على حد سواء، وخلال هذا يصور مرة واقعة محزونة ومأساوية، والآن حدث لم يخطر على البال ومـــبهج، وهنـــاك سيدة بالغة الحسن، وشريفة وذكية وعفيفة، وهنا فارس مسيحى شـــجاع ومهـــذب وبعيدًا عن هنا وهناك، بربرى مخيف شرير، وأدنى مـــن هنـــاك أميـــر مهـــذب، وشجاع، وموضوع إعجاب، مكتسبًا ود وولاء الأتباع، وتعظيم ونعم الملوك. أيضًا يمكنهم عرض صورة عالم فلك، يعلم عن الكون بامتياز، أو صورة موســـيقى، أو صورة ماهر فى أمور الدولة، وربما يتاح إبراز صورة ساحر إن أراد. أيضًا يمكن إبراز خبث أوليس، وبر إنياس، وشجاعة أخيل، وتعاسة هيكتور، وخيانات زينون، وصداقة إيريالو، وكرم الإسكندر، وعـــزم قيـــصر، ورحمـــة تراجـــان وصـــدقه، وإخلاص ثوبيرو، وفطنة كاتون، وأخيرًا كل تلك الأحداث التى يمكن أن تصنع من الشاب اللامع صورة للكمال. فإذا وضعنا كل هذا فى كتاب واحد، مع تقسيمه إلـــى فصول، وعندما يتم ذلك باعتدال فى الأسلوب، وحرفية فنية عبقرية، والتى تنطلـــق بقدر الإمكان نحو الصدق، فإنه بلا شك سيتشكل نسيج من عدة أنسجة جميلة أعيـــد نسجها، وحين انتهاء ذلك سوف يظهر للعيان ذلك الكمال وهذا الحسن، فـــى إدراك أفضل للهدف مما يفتعل فى الكتابات، وهكذا يعلّم ويلذ فى نفس الوقت، كما ســـبق القول. لأن الكتابة المحلولة الشّعر لتلك الكتب تعطى فرصة للمؤلف فى أن يظهـــر نفسه ملحميًا، غنائيًا، مأساويًا، كوميديًا، مع كل تلك العناصر الجزئية التى تتضمن بداخلها العلوم العذبة واللذيذة للشعر والخطابة؛ إن الملحمة أيضًا يمكـــن أن تكتـــب بالنثر، كما تكتب بالشعر.

الفصل الثامن والأربعون

حيث يواصل الكاهن القانونى موضوع كتب الفروسية، مع أشياء أخرى محترمة صادرة عن عبقريته

قال القسيس:

- هكذا، كما تقول فخامتك، ولهذا السبب، هم أكثر استحقاقًا للزجر، أولئك الذين ألفوا حتى الآن كتبًا مثيلة دون التنبه إلى خطاب طيب، ولا إلى الفن والقواعد التى يمكن أن تهديهم وتجعلهم مشهورين فى النثر، مثل شهرة أميرى الشعر الإغريقى واللاتينى فى النظم.

أجاب القانونى:

- أنا، على الأقل، كانت لى محاولة معينة لعمل كتاب فروسية، محافظًا على كل النقاط التى أوضحتها فى صفحاته، وإذا كان علىَّ الاعتراف بالحقيقة، فقد انتهيت من كتابة مائة صفحة فيه. وحتى أقوم بتجربة عما إذا كانت هذه الصفحات تتناسب مع تقديرى للأمر، فقد عرضتها على رجال عاشقين لهذا النوع من القراءة، وعباقرة وحسنى الفهم، وعلى آخرين جهلة، ممن يهتمون فقط بإشباع لذة سماع الترهات، ومن الجميع وجدت استجادة عالية، ومع كل هذا، لم أواصل الكتابة، لما رأيت أننى أقوم بشىء بعيد عن طبيعة مهنتى،ولما كان الأمر أن السذج أكثر من الأذكياء، مع أنه من الأفضل أن

تكون محمودًا من الحكماء القليلى العدد عن أن تكـون موضـوع مـزاح الأغلبية الحمقاء، فإننى لم أحب أن ألصق نفسى بالعامى المجهول بالنسبة لى، والذى يمثل السواد الأعظم من قراء مثل هذه الكتب. لكن العامل الأكبر فى نزع الفكرة عن قلمى وفكرى، كان جدلاً أدرته مع نفسى قائلاً:" إذا كانت تلك الكوميديات التى تستعمل الآن، سواء المتخيل منها أو التاريخى، كلـها أو معظمها عبارة عن ترهات مشهورة، وأشياء ليس لها قدم ولا رأس، وبكل هذا العامى يسمعها فى طرب، ويراها ويجيزها بامتياز، مع أنها أبعد ما تكون عن ذلك، والمؤلفون الذين يؤلفونها، والممثلون الذين يمثلونها يقولـون إنهـا ينبغى أن تكون كذلك، لأن العامى يريدها كذلك، وليس بشكل آخر، وأما الذين يهتمون بالشكل وسياق المحتوى المحكى، كما يتطلب الفن، لا يهتم بهم أكثر من أربعة أذكياء يفهمونهم، وكل من بقى من البشر يبقى صائمًا عـن فهم حرفيتها الفنية، وأنه بالنسبة لهم الأفضل كسب العيش مع الكثرة مـن كسب الرأى مع القلة، وفى النهاية سيخضع كتابى لهذا بعد إحراق رمـوش العين للمحافظة على المفاهيم الجمالية والمبـادئ، وسأصـبح أنـا خيـاط القلعة(*)". ومع أننى فى مرات عديدة، حاولت إقناع الممثلين، بأنهم يخدعون أنفسهم بمثل هذا الرأى، وأنهم سوف يجتذبون جمهورًا أكبر، وشهرة أعرض عند تمثيل كوميديات تتبع الفن، وليس الترهات، لكنهم كـانوا مقيـدين ومنتمين لرأيهم، ولا سبيل لإخراجهم منه. وأتذكر أننى قلت يومًا لواحد من هؤلاء المكابرين:" قل لى، ألا تتذكر أنه منذ أعوام قليلة، قد قاموا بتمثيـل ثلاث تراجيديات ألفها شاعر مشهور من أنصار هذا الرأى الجاد، وكانـت

(*) نفس فكرة غزل بنيليوبى، لكن دون إرادة.

أعماله موافقة لرأيه، فأعجبوا، وأبهجوا، وتعلقت بها نفوس من شاهدها بـــين العامة والخاصة، والغوغاء والصفوة، وأدرَّت ثلاثتها فقط من المال على من مثلوها أكثر من ثلاثين عملاً بين الأفضل مما مثلوه هنا فيما بعــد؟" أجـــابنى رئيس الفرقة المسرحية:" دون شك، عليك تطبيق ذلـــك علـــى إيـــزابيلا، وفيليس، وإليخاندرا". أجبته أنا " هذا ما أقوله، وانظر هل حافظت على قيم الفن جيدًا، وعما إذا كان بسبب ذلك لم تعد تعجب الجميع. ليس النقص فى العامة، التى تطلب الترهات، وإنما فى هؤلاء الذين لا يعرفون أن يمثلوا شـــيئًا آخر. ونعم لم تكن من الترهات " الثأر ضد الجحود"، ولا "نومانثيـــا"، ولا "التاجر العاشق"، ولا "العدوة المحظية"(*)، كذلك خلت من الترهات أيـــضًا بعض أعمال أخرى لشعراء آخرين ذوى نباهة، قد ألفوها للشهرة ولـــصنع الأسماء لهم، وكى يكسب المال أيضًا من يمثلها". وقد أضفت أشياء أخـــرى لأقوالى السابقة حتى بدا لى أننى تركته مضطربًا، لكن ليس مقتنعًا ولا راضيًا، حتى أخرجه من تفكيره الخاطئ.

هنا علق القسيس:

– المادة التى عالجتها، فخامتك أيها السيد القانونى، قد أيقظت فى نفسى ضـــغينة قديمة ضد الكوميديات التى يتعودون عليها الآن، وهى تساوى ضغينتى ضد كتب الفروسية، لأنه حسب توليو(**) من كون الكوميديا مـــرآة للحيـــاة

(*) هذه الأعمال: الثأر ضد الجحود Ingratitud Vengada مؤلفها Lope de vaga، نومانثيا Namancia مؤلفها Cervantes، والتاجر العاشق El Mercader amante مؤلفها Gaspar De Aguila، والعدوة المحظية La Enemiga Favorable مؤلفها AGUSTIN Tarrega Francisco

(**) توليو Marco Tulio Ciceron.

الإنسانية، ومثالاً للعادات، وصورة للحقيقة، نرى العكس، فهي مرآة للترهات، ومثال للحماقات، وصورة للشهوات الشهوانية. لأنه، أي ترهات أكبر في تطور الشخوص من ظهور طفل في (اللفة) في أول منظر بأول فصل، وفي المنظر الثاني مباشرة يظهر وقد صار رجلا بلحية؟ وأي ترهات أكبر من أن يرسموا لنا شيخًا ساحق القوة، وفتى جبانًا مستضعفًا، وخادمًا بليغًا، وصبي مطبخ مستشارًا، وملكًا حمَّالاً، وأميرة خادمة؟ وماذا أقول عن الملاحظة حول الأماكن التي يمكن أن تقع فيها الأحداث التي يمثلونها، فلم يكن ما رأيت أقل من أن الفصل الأول يقع في أوروبا، والثاني في آسيا، والثالث انتهى في إفريقيا، وإذا كان هناك فصل رابع فسيقع في أمريكا، وهكذا تقع الأحداث في أركان العالم الأربعة؟ وإذا كانت المحاكاة هي أهم خصائص الكوميديا، فكيف يقبل الذكاء المتوسط حدثًا يقع في عصر الملك بيبينو، وشارلمان، وفي نفس الوقت داخل نفس الحدث الذي ينسب لشخصية رئيسية هي الإمبراطور هرقل، الذي دخل بالصليب (!) بيت المقدس، وقد كسبها مثل جودوفري دي بويون، مع وجود فروق زمنية تعد بسنوات لا حصر لها، تفصل كل واحد عن الآخر، فتؤسس الكوميديا على أشياء مصطنعة، تنسب إلى حقائق التاريخ، بعد خلطه بفتافيت من حقائق أخرى وقعت في أزمنة مختلفة، ومع أشخاص مختلفين، وليس هذا في تصميم يحتمل الوقوع، وإنما هي أخطاء واضحة ومهنية، وغير مبررة بأي أعذار. والسيئ، أن هناك جهلة يقولون إن هذا هو الكمال، وماعداه هو من سقط القول. أما إذا نظرنا إلى الكوميديات الإلهية، أي معجزات زائفة يتكلفونها فيها ! وأي تكلف واختلاق وسوء فهم، حين ينسبون إلى أحد القديسين

معجزات قديس آخر ! بل إنهم فى الكوميديات الإنسانية يجرأون أيضًا على تقديم المعجزات، دون احترام أو اعتبار أن يعنَّ لهم أن وضـع المعجـزات أو التجليات (كما يسمونها) هناك هو أمر غير جيد، فهى تـثير عجـب الجهال، فيذهبون لمشاهدة الكوميديا. وكل هذا يفسد الحقيقة، ويحقر مـن شأن التاريخ، وأكثر من ذلك هو عار للعبقرية الإسـبانية؛ لأن الأجانـب، الذين يحافظون فى غاية الدقة على قوانين الكوميديا، سوف ينظرون إلينا مثل نظرتهم للبربر أو الجهال، عند رؤيتهم للسخافات والترهات التى ننسج من مادتها الكوميديا. ولن يكفى الاعتذار عن هذا بالقول إن أفـضل الأنظمـة تسمح بتمثيل الكوميديا لتسلية المجتمع بتسلية استجمامية شريفة، والتسرية عنه حين يسوء مزاجه كما يحدث عادة بسبب البطالة. وهذا الهدف يتحقق بأى كوميديا، جيدة أو رديئة، من ثَم، فلا يجوز وضع القوانين، والتـضييق على من يؤلفونها، ويمثلونها بعمل ما ينبغى عليهم عمله، ما دام الهدف يتحقق من وراء أى كوميديا. وإجابتى على هذا، بأن الهدف نفسه يتحقق أفـضل كثيرا؛ ودون أى مجال للمقارنة عن طريق الكوميديا الجيدة وليس عن طريق ما ليست كذلك لأنه بالاستماع إلى كوميديا جيدة التأليف، وذات سـياق، سيخرج المستمع مبتهجًا بالمزاح، مستفيدًا علمًا من الحقائق، مندهشًا مـن الوقائع، متفهمًا للعبارات، عالمًا بالأكاذيب، لمّاحًا مع الأمثلة، غاضبًا ضـد الشر، عاشقًا للفضيلة: كل هذه العواطف لابد أن توقظها الكوميديا الجيدة فى نفس من يستمع إليها، مهما كان غليظ العواطف فظ الشعور، ومن رابع المستحيلات ألاَّ تبتهج، وتتسلى، وتقنع، وتطرب (تلك الكوميـديا الـتى تحوى هذه العناصر) أكثر من الكوميديا التى لا تحتويهـا، مثلمـا يحـدث

للسواد الأعظم من الكوميديا التى اعتادوا تمثيلها الآن . ولاذنب فى ذلك على الشعراء الذين يؤلفونها لأن العديد منهم يعرف جيدًا أين الخطأ، ويدرك تمامًا ما عليه عمله، لكن ولأن الكوميديا صارت سلعة تباع، يقول (وما يقوله الحق)، إن الممثلين لن يشتروها إذا لم تكن من هذا النمط؛ وعلى هذا فالشاعر يوفق أوضاعه حسب ما سوف يدفعه له الممثل ثمنًا لعمله المطلوب. وإذا كان هذا حقًا، تأمل فى كوميديات كثيرة لا حصر لها، والتى قام بتأليفها عبقرى شديد الألمعية(*) من هؤلاء الشعراء، له اسم كبير، وفى عمله ملاحة بديعة، وبتلك الأشعار الرشيقة، والعبارات الأنيقة، مع الأحكام صارمة الجدية، وأخيرًا كل هذا ملئ بالبلاغة وسمو الأسلوب، حتى إن العالم يغص بشهرته، ولرغبته فى التوافق مع مزاج الممثلين، لم تصل كل أعماله كما وصلت بعض الأعمال إلى ذروة الكمال التى يتطلبونها. وآخرون يؤلفونها دون النظر فيما يفعلون، حتى إنهم بعد أن يكونوا قد انتهوا من تمثيلها يحتاج بعض الممثلين إلى الهرب والاختفاء خوفًا من أن يعاقبوا (وقد حدث مرارًا) لتمثيلهم أشياء مهينة لبعض الملوك، ومشينة لبعض الأنساب القبلية. وكل هذه المخالفات يمكن أن تتوقف، لو وجد فى البلاط شخص ذكى ولماح، يفحص كل الكوميديات قبل تمثيلها، ليس فقط تلك الكوميديا التى يمثلونها فى البلاط، لكن كل ما يمثل منها فى إسبانيا؛ وبدون إجازة البلاط بالختم والتوقيع، لا تسمح سلطات العدالة فى كل مكان بتمثيل أى كوميديا، وبهذه الطريقة سيتحرى من يعملون فى حقل الكوميديا إرسال أعمالهم إلى البلاط، وحتى يضمنوا تمثيلها، فإن من يؤلفونها سوف يتروون بكل عناية ودرس فيما

(*) يشير إلى الشاعر لوبى دى بيقا lope de vega (أكثر من ٢٠٠٠ مسرحية).

يعملون، خوفًا من ألا تمر كوميدياقم من الاختبار الدقيق من جانب شخص يفهم الأمر، وبذا، سوف يعملون كوميديات جيدة، تتحقق فيها- لسرور الجميع - إرادة الجميع منها: تسلية الشعب، رأى عباقرة إسبانيا، اطمئنان الممثلين ومصلحتهم، وتوفير مجهود التخفى من العقاب. وإذا أسندوا مهمة أخرى لرجل ذكى آخر أو لنفس الرجل، تكون مهمة فحص كتب الفروسية، والتى لو أعيد تأليفها بنفس الكمال الذى تتكلم عنه فخامتكم، لإغناء لغتنا بكنز ثمين من البلاغة، لتنطفئ شهرة الكتب القديمة أمام ضوء الكتب الجديدة التى قد تنتشر، لقضاء وقت الفراغ بطريقة شريفة، ليس فقط لأصحاب البطالة والفراغ، وإنما أيضًا لأكثر الناس انشغالاً، فليس ممكنًا أن يدوم الانشغال دون استراحات يحتاجها الظُّرف والضعف الإنسانى، فلا يستقيم للإنسان وجود، دون شيء من الاستجمام .

وعندما وصل القسيس والقانونى إلى هذه النقطة تقدم الحلاق واقترب منهما حين قال للقسيس:

- هنا أيها السيد الجامعى المكان الذى قلت عنه إنه طيب، لقضاء قيلولتنا، ولينال الثيران حشائش غزيرة ونضرة.

أجاب القسيس:

- أوافقك فى ثنائك على المكان.

وعندما أبلغ القانونى بما يفكر فى عمله، هو أيضا أحب البقاء معهم، منجذبًا بدعوة تلقاها من جمال الوادى الذى يملأ البصر. وهكذا من أجل الاستمتاع بالمكان، ومحاورة القسيس، التى هام بها إعجابا، ولمعرفة شيء أكثر عن سجايا

وأمجاد دون كيخوتى، وهكذا أمر خدمه بالذهاب إلى النزل الذى كان قريبًا، وإحضار بعض ما يؤكل، من أجل الجميع، لأنه قرر قضاء القيلولة فى نفس المكان ذلك المساء، فأجابه أحد الخدم أن دابة المؤونة لابد أن تكون قد وصلت إلى النزل محملة بما يكفى لعدم شراء شىء من النزل أكثر من الشعير للدواب. فقال القانونى:

– ليكن كذلك؛ احملوا إلى هناك كل المطايا، واحضروا معكم دابة المئونة.

وبينما كان يحدث ذلك، رأى سانشو أنه يمكنه الحديث مع سيده دون الحضور المستمر للقسيس والحلاق، اللذين يشك فيهما، فاقترب من القفص، حيث كان سيده، وقال له:

– سيدى حتى أنزل ثقلاً عن ضميرى، أحب أن أقول لك ما يحدث فيما يتعلق بسحرهم لك. والأمر أن هذين الاثنين اللذين يأتيان معنا بوجوه مغطاة هما القسيس والحلاق بقريتنا، وأتصور أنهما دبرا هذا الملعوب كى يحملاك بهذه الطريقة، بسبب الحسد المحض لتقدم فخامتك عليهما فى صنع أمجاد مشهورة. فإذا افترضنا هذه الحقيقة، فإنك لا تمضى مسحورًا، وإنما مهطولاً، وعبيطًا مُستعبَطًا. وبرهان ذلك أحب أن أسألك شيئًا، فإن تجب كما أظن، فإنك لا تمضى مسحورًا، وإنما مختلط العقل.

قال دون كيخوتى:

– اسأل ما تحب، أيها الابن سانشو، وسوف أرضيك وأجيبك حسبما تشاء. وحول قولك إن هذين اللذين يمضيان معنا هما الحلاق والقسيس، بلدياتنا، ومعارفنا، من الممكن أن يبدو أنهما هما أنفسهما، لكن الذى هما عليه حقيقة وفعلاً شىء آخر. والذى يجب أن تعتقده وتفهمه، إذا كانا يشبهانهما،

فالمسألة أن من سحرونى قد دخلوا فى صورهما، حيث إن السحرة يستطيعون اتخاذ الصورة التى تروق لهم، فمن المحتمل أخذهم صورة صديقينا، لإعطائك سببًا كى تفكر ما تفكر، وإلقائك فى تيه من التخيلات، لا يمكنك الفكاك منه، حتى لو امتلكت خيط تيسيو(*). وأيضًا صنعوا ذلك حتى أتردد أنا فى فهمى، ولا أعرف أن أخمن من أين يأتينى هذا الأذى؛ لأنه، إذا، من ناحية، كنت تقول لى إن من يصحبنا هما الحلاق والقسيس بقريتنا، ومن ناحية أخرى، أرانى محبوسًا فى القفص، وأعرف عن نفسى أنها لم تكن قوى إنسانية التى حبستنى، لأنها إن لم تخرق الطبيعة ما استطاعت أن تفعل هذا بى، فماذا تود أن أظن أو أقول غير أن طريقة سحرى تتجاوز كل ما قرأته فى كل التواريخ التى تعالج حياة الفرسان المشائين الذين تعرضوا للسحر؟ من هنا يمكن أن تعيد لنفسك السلام والاطمئنان فيما يتعلق بظنك بأنهما هما، لأنهما لو كانا كذلك كنت أنا تركيًا. وفيما يتعلق برغبتك فى سؤالى عن شىء، فسوف أجيبك، حتى لو مضيت تسأل من الآن حتى الغد.

أجاب سانشو صارخًا:

– فلتلحظنى برعايتها العذراء! هل من الممكن أن فخامتك صلد المخ، ناقص اللب، حتى لا تلاحظ أن ما أقوله لك هو الحقيقة المحضة، وأن محنتك وحبسك سببها الحيلة والشر أكثر من السحر ؟ لكن، هذا هو الواقع، وأنا أحب أن أبرهن بوضوح على أنك غير مسحور. وإذا لم يكن صحيحًا ما أقوله، قل لى عافاك الله من هذه العاصفة، حتى نراك قريبًا بين ذراعى سيدتى دولثينيا، فى الوقت الذى لا تتوقع فيه هذا النعيم ...

(*) يسمى خيط "أريادنا"، التى أعطت محبوبها تيسيو خيطًا يساعده على الخروج من تيه كريت.

قال دون كيخوتى:

- توقف عن هذا الدعاء، واسأل ما تحب، فقد سبق وقلت لك، إننى سأجيبك بكل دقة.

أجاب سانشو:

- هذا ما أطلب، والذى أود معرفته هو أن تقول لى، دون إضافة شيء أو حذف شيء، وإنما بكل صدق، كما يتوقع مما ينبغى أن يقوله كل أولئك الذين يمارسون مهنة الحرب والسلام، مثلما تمارسها فخامتك تحت لقب فارس مشاء.

أجاب دون كيخوتى:

- أقول إنى لن أكذب فى أى شيء. توقف عن هذا، وانته من السؤال، ففى الحقيقة أنت ترهقنى بتحفظاتك الكثيرة، ودعواتك، وتكهناتك، سانشو.

- أقول أنا واثق من صلاح فخامتك وصدقك لأنك سيد لى؛ وهكذا، وفيما يتعلق بموضوعنا، أسأل؛ متكلمًا مع الاحترام، عما إذا كان بعد حبسكم فى القفص مسحورًا حسب رأيك، قد اعترتك الرغبة فى عمل أمواه كبيرة أو صغيرة، كما اعتادوا القول.

- لا أفهم "عمل الأمواه" هذا، سانشو، أوضح أكثر إذا أردت أن أجيبك رأسًا.

- هل من الممكن ألا تفهم فخامتك (عمل أمواه كبيرة أو صغيرة) ؟ إنهم يفهمون الصبيان عنها فى المدارس، لكن أعرف أننى أود القول عما إذا جاءتك رغبة عمل ما لا إعفاء منه.

- انتهى، أفهمك، سانشو! نعم اعترتنى الرغبة مرات، والآن تستولى علىَّ هذه الرغبة. خلصنى من هذا الخطر، فليس الأمر بكل هذه النظافة.

الفصل التاسع والأربعون

عبارة عن الحديث الذكى الذى تحدث به سانشو إلى سيده دون كيخوتى

قال سانشو :

– آه! أنت مقبوض عليك، وهذا ما كنت أود معرفته، كما لو كان الـــروح أو الحياة. هيا نفهم الأمر معًا: هل يمكنك أن تنكر ما تعودوا على ذكره عندما يكون الإنسان فاقدًا للاستعدادات الطبيعية؟ لا أدرى ماذا بفلان، فهـــو لا يأكل ولا يشرب، ولا ينام، ولا يجيب على ما يسألونه عن قصد وإرادة، لا يبدو لى إلا أنه مسحور؟ من ثَم، فمن لا يأكل ولا يشرب ولا ينام، ولا يــؤدى الأعمال الطبيعية كما أسميها أنا، يحملنا إلى الاستنتاج أنه مسحور، لكن لا يكون مسحورًا من تعتريه الرغبة التى تعترى فخامتك، ومن يأكل عندما يقدمون لــه الطعام، ويشرب عندما يدعونه لذلك، ويجيب على كل ما يسألونه.

أجاب دون كيخوتى:

– صدقت يا سانشو؛ لكن سبق أن قلت لك إن هناك طرقًا عديدة للسحر، ومن المحتمل أنه مع تقدم الزمان يتم تغيير بعض الطــرق بطــرق أخــرى، وأن المستعمل الآن، أن المسحورين يعملون كل ما أقوم أنا بعمله، وإن كانوا قبل ذلك لم يكونوا يعملونه وهكذا لا يصح الجدال حول عــادة كــل عــصر،

واستنتاج النتائج من عادات عصور مضت. وأنا أعرف وأقر أمـــام نفـــسى بأننى مسحور، وهذا يكفينى كى يطمئن قلبى، الذى سوف يحمـــل أثقـــالاً كبارًا، إذا فكرت فى أننى غير مسحور، وأننى أترك نفسى مـــاكثًا فى هـــذا القفص بكل جبن وكسل، وخيانة للمضطرين والمحتاجين لمساعدتى وملاذى، والذين لابد أنهم فى آنية الآن يعانون حاجة إلىّ قصوى وحاسمة.

أجاب سانشو:

– ومع كل هذا، أقول من أجل أكبر قدر من الراحة لك والإقناع، سيكون جميلاً أن تجرب فخامتك الخروج من هذا السجن، وسوف أحمل على عاتقى بكل ما أملك من قدرة، تسهيل الأمر، بل أكثر؛ إخراجك منه، ثم جـــرب مـــن جديد امتطاء روثينانتى جوادك الأصيل، الذى يبدو أيضًا أنه مسحور، طبقًا لمظهره الحزين كثير الأشجان، وعند فعل ذلك نجرب مرة أخرى حظنـــا فى مغامرات جديدة، وإذا لم نوفق فى ذلك سيكون لدينا الوقـــت للعـــودة إلى القفص، وبوصفى تابعًا أمينًا أعدك فى هذه الحالة فى أن أحبس نفـــسى فيـــه معك، إذا لم توفق لسوء حظ، ولم أصب أنا القول لفرط سذاجتى.

رد دون كيخوتى:

– أنا راض بعمل ما تقول، أيها الأخ سانشو؛ وعندما تـــرى الفرصـــة ســـانحة لتحريرى، سأطيعك فى كل شىء ومن أجل كل شىء؛ لكن، يـــا ســـانـــشو، لسوف ترى أنك تخدع نفسك لادعائك معرفة نكبتى.

خلال هذا الحوار بين الفارس المشاء، والتابع أعرج المشائين،كان القـــسيس والقانونى والحلاق قد ترجلوا عن دوابهم، وفك حوذى العربة الثيـــران، وتركهـــا

تسير مطلقة السراح فى هذا الأخضر، وبذلك المكان الهادئ المتسع، الــذى كانــت نضارته تحفز على الاستمتاع بها فى حب، ليس من هــم مــسحورون مثــل دون كيخوتى، بل من هم فى مرح وكياسة ينعمون مثل خادمه وحامل دروعــه، الــذى توسل إلى القسيس أن يسمح بخروج سيده بعض الوقت من القفص، لأنهــم إن لــم يتركوه يخرج، لن يستمر هذا السجن منزها عن الشين بالنسبة لما تتطلبــه رهافــة وتهذيب فارس مثل سيده. فهمه القسيس، وقال إنه سوف ينفذ ما يطلبه بكل سرور، إذا لم يكن يخشى أن يرى سيده نفسه حرًا، فيركب رأسه، ويذهب حيــث لا يــراه بعدها أبدًا أحد من الناس. أجاب سانشو:

- أنا أضمن ألا يهرب.

وقال القانونى:

- وأنا أيضًا، خاصة إذا أعطانى كلمته بوصفه فارسًا بألا يغادرنا من غير إرادتنا.

أجاب دون كيخوتى، الذى كان يسمع كل شىء:

- نعم، أعطى كلمتى، وأهم من ذلك، أن من كان مسحورًا مثلى، لا يملك من الحرية أن يتصرف كما يهوى فيما يتعلق بما يفعل مع ذات شخصه، لأن من سحره قادر على أن يمنعه من الحركة عن مكانه لثلاثة قرون؛ وإذا هــرب، سوف يجعله يعود عاجلاً كأنه على جناح طائر.

- إذا كان الأمر كذلك يمكنكم إطلاق سراحه، وسيكون ذلك فى صالح الجميع؛ وإذا لم تطلقوه فإنه سوف يحتج ضد هذا مادام ليس فى إمكانه إرهاق حاسة الحذر عندكم مادام هو أمام أعينكم.

أخذه القانونى من يده، رغم قيود يده، وتحت أيمانه الصادق، وكلمته أخرجوه من القفص، وبهذا ابتهج إلى غير حد، وبطريقة واضحة إذ رأى نفسه خارج القفص. وأول ما فعل (مطّع) جسمه، وبعدها ذهب حيث روثينانتى وربت على فخذيه، وقال له:

- حتى الآن آمل فى الله، وفى أمه المباركة، أيها الزهرة والمرآة بين كل الخيول، أنه عاجلاً سوف نرى بعضنا، كلينا الاثنين حيثما نحب ونرغب، وأنت وسيدك تنحدران فى الطريق، وأنا فوقك، ممارسًا العمل الذى من أجله أرسلنى الله إلى هذا العالم.

وعند انتهائه من قول ذلك ابتعد دون كيخوتى مع سانشو، وانتحيا جانبًا، حيث صار أكثر ارتياحًا، وأكثر رغبة فى أن يضع موضع التنفيذ ما يأمر به خادمه أو ما يرتبه من ترتيبات.

كان القانونى ينظر إليه، مندهشًا من غرابة جنونه العظيم، وإن كان عندما يتكلم أو يجيب كان يكشف عن ذكاء رفيع، ولا يفقد ذلك إلا إذا كان الكلام عن الفروسية. من هنا، وقد حركته أريحية الشفقة، بعد أن جلس الجميع فوق الحشيش الأخضر، فى انتظار دابة مئونة القانونى، قال له:

- هل من الممكن، أيها السيد الشريف، أن تكون القراءة المرة المذاق والكسولة لكتب الفروسية قد تمكنت من الأخذ كثيرًا بلباب فخامتكم، فقلبت عقلك حتى تحملك على الاعتقاد أنك تسير مسحورًا، والاعتقاد فى أشياء أخرى على هذا النمط، بعيدة عن الحقيقة نفس بعد الكذب عن الصدق؟ وكيف يمكن وجود ذكاء إنسانى يحمل على الفهم بوجود هذه اللامحدودية لمن كان اسمهم أماديس، وتلك الشرذمة من ذلك الفارس عظيم الشهرة، إمبراطور

ترابيسوندا، وفيلكس مارتى دى أركانيا، وغيرها من شراذم خيول الملـوك، والصبايا المشّاءات، والثعابين، والمسخ بعد المسخ، والمارد من وراء المـارد، وتلك المغامرات غير المسبوقة، والأنواع العديدة مـن الـسحر، والمعـارك الغزيرة، ولقاءات القتال الهائلة، والثياب الفارهة، والأميرات العاشـقات، والخدم الذين صاروا مع الكونت كونتات، والأقزام الظرفـاء، وبطاقـات الحب والخطابات، وأولئك الكثرة من النساء القويات، وأخيرًا حـالات لا نهائية من الترهات مما تحوى تلك الكتب؟ وأنا أعترف أنه دون أن أضـع فى خيالى أنها كلها أكاذيب، وتفاهة عقل فإننى أطرب من قراءتها حـتى أعـى بماهيتها فألقى بأحسنها عرض الحائط، بل ألقى بـه فى النـار إذا تـصادف وجودى قريبًا من أى نار، فتلك الكتب جديرة بهذا العقاب، لكونها زائفـة وكاذبة، وبعيدة عن متطلبات الطبيعة الصحيحة، وخالقة لمـذاهب دينيـة جديدة، وطرق للعيش تدخل فى عداد البدعة، وتجعل العامى يؤمن بـصدق كثرة ما بها من حماقات. فوق ذلك بها كثير من التجرؤ، حتى إنها تجسر على تعكير عبقرية الأذكياء وأبناء الناس المحترمين، كما يلاحظ مـع فخـامتكم، حيث حملتكم بعيدًا إلى حد حبسكم فى قفص، ونقلكم على عربـة تجرهـا الثيران، كما ينقلون أسدًا أو نمرًا من مكان إلى مكان، للكسب مـن وراء عرضه على الناس. ايه، يا سيد دون كيخوتى، فلتتألم من أجـل نفـسك، واقصر نفسك داخل دائرة الذكاء، وتعلم استخدامه، وقد وهبتـك منـه السماء الكثير، وتعلم توظيف عبقريتكم فى قراءات أخرى تجعل صـالحكم وضميركم فى ازدهار، وشرفكم فى صعود! وإذا كان ميلكم الطبيعى لا يملك

إلا قراءة البطولات والفروسية، فاقرأ فى الكتب المقدسة "كتاب القـضاة ": وبه ستجد حقائق عظيمة، ووقائع بقدر صدقها تجد قوتها وشجاعتها. أو اقرأ عن بيرياتو وأخذه لوستانا.، وعن قيـصر رومـا، وهانيبـال قرطاجنـة، والإسكندر الأكبر، والكونت فرنان جونثالث كاسـتيا، وسـيد بلنـسية، وجونثالو فرناندث أندلوثيا، ودييجو جارثيا دى باريدس ابن استريما دورا، وجارثى بيريث دى بارجاس ابن شريش، وجارثيلاسو طليطلة، ومانويل دى ليون أشبيلية، والذين درس حياتهم يمكن أن يسلى، ويعلم ويلذ، ويـدهش أعلى عبقرية بين قرائهم. هذه ستكون قراءة جديرة بحسن ذكاء فخامتكم، يا سيدى دون كيخوتى، وبها تخرج علاّمة فى التاريخ، عاشـقًا للحقيقـة، متعلمًا للخيرات، مترقيًا فى العادات، قويًا دون تهور، جريئًا جرأة لا يشوبها جبن، وكل هذا، من أجل تنزيه الله، وتحقيق مـصلحتك الخاصـة، والمجـد لوطنك دى لا مانشا، حيث مبدأ، وأصل فخامتكم كما سمعت.

كان دون كيخوتى ينصت فى غاية الانتباه إلى كلام القانونى، وعندما رآه قد أنهاه، قضى برهة طويلة ينظر إليه، ثم قال:

– يبدو لى، أيها السيد الشريف، أن حديث فخامتكم توجه نحو الرغبة فى إفهامى أنه لم تكن هناك فروسية مشاءة فى العالم، وأن جميع كتب الفروسية زائفـة، وضارة، وغير مفيدة للبلاد، وأننى قد أسأت بقراءتها، وأسأت أكثر بالاعتقـاد فيها، وأكثر سوءًا من كل هذا السوء فى أننى حاكيتها، وقلدت أفاعيلها ببـدء ممارسة المهنة الشديدة الصعوبة للفروسية المشاءة، التى تعلمها قراءتها، كما أنك

تنكر وجود أماديس وأجيال من أبنائه تحمل نفس الاسم، كما تنكر دى جاولا، ودى اليونان، وكل ما بقى من الفرسان، الذى بهم قد امتلأت تلك الكتب.

قال القانونى:

- تمامًا كما تقول حرفيًا.

أجاب دون كيخوتى:

- كذلك أضفت فخامتكم أن هذه الكتب قد سببت لى ضررًا كبيرًا، فقد قلبت عقلى، وأنه من الخير لى إصلاح الأمر وتغيير قراءاتى، بقراءة كتب أخرى أكثر صدقًا، تعلم أفضل، وتلذ أكثر.

أجاب القانونى:

- تمامًا.

قال دون كيخوتى:

- إذن، أنا أجد بمعرفتى ودون ما عقل أن المسحور هو فخامتكم، فقد شرعت فى قول أقوال سب وتجديف ضد شىء استقبله العالم وأخذه مأخذ الصدق، وأن من ينكره، كما تفعل فخامتكم، يستحق نفس العقاب الذى ذكرت فخامتكم أنك أوقعته على الكتب، عند قراءتك لها، وإغضابها لك. لأن الرغبة فى الإفهام أن أماديس لم يوجد فى العالم، ولا الفرسان الآخرين المغامرين، الذين تفيض بهم القصص، سيكون أشبه بإقناع الشمس ألا تحرق، والثلج ألا يُبَرِّد، والأرض ألا تحتمل الوطء عليها؛ لأن: أى عبقرية يمكن أن تكون فى العالم تقدر على الإقناع بأنه لم يكن صدقًا أمر الأميرة فلوربيس مع

جاى دى بورجونيا، وأمر فيرابراس مع قنطرة مانتيلى، الــذى حــدث فى عصر كارلو ماجنو، وأقسم على صدقه مثلما نحن الآن فى وضح النهار؟ وإذا كان أكذوبة أيضًا فلن يكون هناك هيكتور، ولا أخيل، ولا حرب طروادة، ولا دستة أزواج فرسان فرنسا، ولا الملك آرثر بإنجلترا، الذى يمضى حــتى اليوم فى شكل غراب، والذى ينتظرون عودته إلى مملكته، أيضًا ســيتجرأون على القول إن قصة جوارينو مسكينو مجرد أكذوبة، ومثلها طلب القــديس جريال، وأن غراميات دون تريستان والملكة إيزيو شــىء مختلــق، مثــل غراميات جنيف ولا نثاروتى، وكانا شخصين يذكران تقريبًا مرتبطين برؤية السيدة القهرمانة كينتانيونا، والتى كانت أعظم صانعة نبيذ فى تاريخ بريطانيا العظمى. وقد كان الأمر كذلك، حتى إنى أتذكر أن إحدى جداتى من جهة أبى، كانت تقول عندما ترى إحدى القهرمانات، وقد ارتدت خمارًا وقــورًا "أيها الحفيد،إن هذه السيدة تشبه القهرمانة كينتانيونا" ومن هذا استنبط أنها لابد وقد عرفتها، أو على الأقل رأت صورة لها. أيضًا، من يستطيع أن ينكر صدق قصة بيير وما جالونا الجميلة، فحتى يومنا هذا يــشاهدون فى خزانــة سلاح الملكين السيخ الذى كان ينغز به جواد الخشب الذى جاء على متنــه طائرا الجسور بيير، وكان فى حجم عريش عربة؟ وبجانــب الــسيخ هنــاك كرسى بابيكا، وفى روزنفال يوجد قرن رودان، فى حجم عمود خشب: ومنه نستدل على وجود اثنى عشر زوجًا، وعلى وجود بيير، والسِّيد، والفرسان الآخرين المشابهين، من أولئك الذين تقول عنهم الناس إنهم إلى كل مغــامرة هم يهرعون. وإذا لم يكن كذلك، قل لى، أيضًا لم يوجــد الفــارس المــشاء الجسور خوسيتانو خوان دى ميرلو، والذى ذهب إلى بورجونيــا، والــذى

ناضل فى مدينة راس مع السيد المشهور دى تشارنى، المسمى موسين أنريكى دى ريمستان، خارجًا فى المهمتين منتصرًا، ومضيئًا بالشهرة المشرفة؛ أيضًا المغامرات والمبارزات التى تمت فى بورجونيا، والتى أنجزها الإسبان بدرو باربا، وجوتيرى كيخادا (والذى من نسله أنحدر أنا شخصيًّا من سلسلة مستقيمة من الآباء الذكور)، عند انتصارهما على أبناء الكونت دى سان بولو. وأنكروا أمامى، بنفس الطريقة أن دون فرناندو دى جيفارا لم يذهب إلى ألمانيا للبحث عن المغامرات، حيث قاتل النبيل خورخى، فارس بيت دوق النمسا، وقولوا لقد كانت مزحة مبارزات سويرو دى كينيونس، ومبارزات الباسو، وأمجاد القس لويس دى فالش ضد دون جونثالو دى جوثمان، الفارس القشتالى، مع أمجاد أخرى كثيرة قام بها فرسان مسيحيون من هؤلاء، ومن ممالك أخرى أجنبية، وهى أمجاد كلها أصالة وواقعية، حتى إنى أعود للقول إن من ينكرها يخلو من أى عقل، أو حسن منطق.

بقى القانونى مبهوتًا من سماع خلط دون كيخوتى الحقائق بالأكاذيب، ومن رؤية خبر كل شىء يمس الفروسية المشاءة من رجال وأفعال، وهكذا أجابه:

– يا سيدى دون كيخوتى، لا أستطيع أن أنكر، حقيقة بعض ما قلته فخامتكم، وخاصة فيما يتعلق بالفرسان المشائين الإسبان؛ وفى نفس الوقت أريد تأكيد وجود اثنى عشر زوجًا بفرنسا، لكن لا أستطيع الاعتقاد أنهم عملوا كل تلك الأشياء التى يكتبها القمص توربين عنهم، لأن حقيقتهم أنهم كانوا فرسانًا مختارين عينهم ملوك فرنسا، ثم سموهم بعد ذلك (أزواجًا) لأن كل واحد منهم كان مساويًا للآخر فى الشجاعة، والبراعة، والقوة، وعلى الأقل إذا لم يكونوا كذلك، فقد كان هذا التصور وراء تسميتهم بهذا الاسم،

وكوّنوا نظامًا دينيًا أشبه الآن بنظام سانتياجو، أو كالاترابا، والذى يفترض أن الفرسان الداخلين فيه لابد أن يكونوا شجعانًا، وأقوياء، ومن أصل طيب، وكما يقولون الآن فارس سان خوان، أو فارس القنطرة، كانوا يقولــون فى ذلك الزمان فارس الأزواج الاثنى عشر، وليس إلا لأنهم أثنا عشر أكفــاء الذين اختيروا لهذا النظام العسكرى الدينى. وفيما يتعلق بالسِّيد لاشــك فى وجوده، ومثله برناردو ديل كاربيو؛ لكنهما لم يعملا كل تلــك الأعمــال الخارقة، التى أظنها قد جاوزت الحد. وفيما يتصل بالسيخ الذى تقول فخــامتكم عنه متحدثًا عن الكونت بيير، وأنه بجوار كرسى بابيكــا فى مــستودع ســلاح الملكين، أعترف بالثُّمن: بأننى إما جاهل أو قصير النظر، لأنه رغم رؤيتى للكرسى لم ألاحظ وجود السيخ، وخاصة مع كبر حجمه كما ذكرت فخامتكم.

أجاب دون كيخوتى:

– إنه هناك دون أن أشك؛ وعلامة وجوده ما يقولون إنه موضوع داخل غمــد من جلد العجل حتى لا يصدأ.

أجاب القانونى:

– كل شيء ممكن، لكن أقسم بما استقبلته من تعاليم أننى لا أتذكر أننى رأيتــه. لكن حتى لو سلمنا بوجوده هناك، لن يكون سببًا لإجبارى على الاعتقــاد فيما تقوله القصص من وجود كثير من جنس الفارس أمــاديس، أو زمــرة كبيرة العدد من الفرسان ممن يحكون لنا عنهم هناك، كما لن يكون سببًا لأن رجلاً مثل فخامتكم،مكرم ومبجل، وذكى يفهم أن مثــل هــذه الغرائــب والجنون فى كتب الفروسية الحمقاء حقائق وصدق.

الفصل الخمسون

عن المشاحنات اللمّاحة التى دارت بين دون كيخوتى والقانونى، مع أحداث أخرى

أجاب دون كيخوتى:

- هذا طيب ! تلك الكتب المطبوعة بتصريح من الملوك، وبإجازة من استند الملوك إليهم فى مراجعتها، والمقروءة فى طرب وسرور، والمحتفى بها من صغير وكبير، ومن غنى وفقير، وأديب وجاهل غرير، ومن عامى وفارس نحرير، وأخيرًا، من كل صنف من الناس فى جميع أحوالهم ومختلف ظروفهم، هل يمكن أن تكون أكذوبة، مع حملها مظاهر غزيرة من صفات الحقيقة والصدق، بل أكثر يحكون لنا عن كل فارس (أو فرسان)، أمجاده لحظة بعد لحظة، ويومًا بعد يوم، وما عمل خلال ذلك، وعن أمه وأبيه، ووطنه وأقربائه، وعن عمره ومسقط رأسه. لتصمت فخامتكم ولا تقل هذا التجديف، وصدقنى إذ أنصحك فى هذا الأمر حول ما يجب أن تفعله باعتبارك إنسانًا ذكيًا، ولن يكون شيئًا غير أن تقرأها، وسوف ترى أى طرب يعروك لقراءتها. وإذا لم تصدق؛ قل لى؛ هل هناك رضا أكثر من رؤية، كما سنقول، إنه هنا لو يظهر أمامنا بحيرة كبيرة من سمك يغلى فى فوران، بينما يعبرها ويعوم فيها ثعابين، وأفاع، وسحال، وأجناس أخرى من

الحيوانات الغاضبة والمخيفة، ومن وسط البحيرة يخرج صوت فى غاية الحزن يقول: "أنت أيها الفارس، لا يهم من تكون، والــذى تنظــر إلى الــبحيرة المخيفة، إذا أردت بلوغ الخير الذى تحت هذه المياه السوداء يكمن، بــرهن على شجاعة صدرك القوى، وألق بنفــسك فى وســط ســائلها الأســود والمشتعل؛ لأنك إن لم تفعل ذلك، لن تكون جديرًا بــأن تــرى العجائــب السامية، التى فيها، حيث توجد القلاع السبع، للجنيات السبع، والتى ترسو تحت هذا السواد، ولم يكد الفارس ينتهى من سماع الصوت المخيف، ودون أن يحسب للأمر حسابًا مع نفسه، ودون أن يضع فى اعتباره الخطر الــذى يلقى بنفسه فيه، ويجرد نفسه من ثقل أسلحته القوية، متــوكلاً علــى الله، وعلى سيدته، يلقى بنفسه فى وسط البحيرة المتضرمة، وعندما لا يحذر شيئًا، ولا يعرف أين سيستقر به الحال، يجد نفسه بين حقول مزدهرة، لا يــساوى بالنسبة لها الإليزيه أية قيمة؟ وهناك تبدو له السماء أكثر شفافية، والشمس تنير فى وضوح أكثر جدَّة، وتزهو أمام عينيه غيضة مطمئنة من أشجار ملتفة الأوراق، غضة الخضرة حيث يبهج الأخضر منه البصر، ويطرب منه الأذن غناء حلو النغمات، وإن لم يكن مفهوم الكلمات لعصيفرات مــن الطيــور الصغيرة، ذات الأعداد الغفيرة، والألوان ذات التشاكيل، تمــضى عــابرة الأغصان فى تشابكها. وهنا يكتشف نُهيرًا، ماؤه المنعش يــشبه الكريــستال السائل، يجرى على رمال مفروشة، وحصى أبيض كالذهب المتحول، واللؤلؤ المصفّى، ومن هنا إلى الأمد، يرى نبعًا من صنع يشبه صنع الإنسان، مــاؤه متعدد الألوان، وعمارته من المرمر الناعم؛ وهنا يرى نــافورة أخــرى ذات تزويق أسطورى النبات والحيوان، حيث أصداف المحار المنتشرة، مع بيــوت

القواقع الحلزونية البياض والصفار، موضوعة فى نظام منفرط النظام، واختلط فيما بينها من ثغرات قطع من الكريستال البراق، والزمرد المتكسر، فى إيقاع متعدد، حتى يصير الفن محاكيًا الطبيعة محاكاة بها ينتصر عليها. ومن هنا إلى مدى آخر تكشف عن نفسها له قلعة محصنة قد ظهرت على غير توقع، وقد تكون قصرًا ذا ابتهاج، جدران من الذهب الوهاج، وشرفاته من الألماس، والأبواب من الياقوت، وأخيرًا البناء كله تكوين معجب، وليس ذلك لمادته التى أقلها الألماس، واليواقيت بأنواعها واللؤلؤ، والذهب والزمرد، وإنما أكثر من ذلك عمارته التى تحظى بتقدير أعظم. وهل هنا أبعد جمالاً بعد رؤية هذا، من رؤية عدد من الصبايا يخرجن من باب القلعة بثيابهن الأنيقة المزدهية، التى لو شرعت الآن فى قول ما تصفها به الحكايات، لن أنتهى قط من الوفاء بذلك، وتأخذ فى الحال من بدت أميرتهن الفارس، الجرىء الذى ألقى نفسه فى البحيرة المتضرمة، من يده، وتحمله، دون أن تكلمه كلمة، داخل القصر الغنى أو القلعة الموسرة، وتعريه كما ولدته أمه، وتحمِّيه بمياه معتدلة، ومن ثَم تدهن جسمه كله بمروج معطرة، وتلبسه قميصًا من أنعم الحرير وأرقه، كله مزركش بالألوان، وفوّاح بالعطر، وتظهر صبية أخرى تلقى بعباءة فوق كتفه، وكما يقولون، قيمتها تساوى ما يشترى مدينة أو أكثر؟

وماذا يرى بعد، كما يحكون؛ ينقلونه إلى صالة أخرى حيث الموائد منضودة، حتى يبقى مبهوتًا متعجبًا؟ وماذا بعد غير صب ماء على يديه كله عنبر، وزهور مقطرة تعبق؟ وماذا سوى جعله يجلس على كرسى من العاج؟ وماذا ترون فى قيام كل الصبايا فى خدمته محافظات على الصمت الغريب؟ وماذا عند تقديم أطعمة له، مطبوخة فى أحلى طعم، حتى أن شهيته لا تدرى إلى أى منها يمد يده؟

وماذا سيكون الأمر عندما تصدح الموسيقى، دون أن يعرف من يعزفها، ومن أين تصدح؟ ثم، بعد الطعام، ورفع الموائد بالتمام يبقى الفارس مستلقيًا، وربما يسوك أسنانه، كالعادة بعد تناول الطعام حين تدخل فى غير مناسبة من الباب صبية أخرى أكثر جمالاً غير كل ما رأى من قبل من صبايا، وتجلس بجواره، وتبدأ فى إبلاغه أى قلعة تكون تلك، وكيف أنها هائمة فى حبه، مع أشياء أخرى تدهش الفارس، وتذهل من فرط الإعجاب القراء الذين يمضون فى قراءة قصته؟ لا أحب أن أطيل أكثر فى هذا، فمما قيل يمكن استنتاج، أن أى جزء يقرأ من أى قصة لأى فارس مشاء لابد أن يعطى متعة وعجبًا لأى قارئ له. وصدقنى، فخامتكم، وكما قلت لك من قبل، اقرأ تلك الكتب، وسترى كيف ستنفى عنك الأسى، لو كنت أسيانًا، وسوف تتحسن ظروف حياتك، لو صادف أنها لم تكن حسنة وعنى أعرف أن أقول، إنه منذ صرت فارسًا مشاء، فأنا قوى، مهذب، كريم، حسن الخلق، سخى، مؤدب، جسور، لين، صبور، مقاوم لكل جهد ومجاهدة، ولكل سجن أو سحر ضدى، ومع أننى أرانى محبوسًا فى قفص منذ قليل مثل المجانين، أفكر فى قوة ساعدى، معتمدًا على عون السماء، وعلى الحظ فى غير عداء لى، وفى أيام قليلة سأرانى ملكًا لإحدى الممالك، حيث يمكن أن أكشف عن عرفانى وسخائى مما يكنه صدرى: إيمانى أن الفارس المسكين فى القفص فاقد القدرة على إظهار فضيلة السخاء لأى أحد من الناس، مع أنه يملك جماعها، والعرفان الذى يصير فى هذه الحالة الشوق لشيء ميت، مثل الإيمان لا يصدقه العمل. ولهذا أود أن يعرض لى الحظ فرصة حيث أتوج إمبراطورًا، كى أفتح صدرى ببر أصدقائى، وخاصة هذا المسكين سانشو بانثا تابعى، وهو خير رجل فى العالم، وأحب أن أهديه إقطاعية يكون الكونت عليها، أمر وعدته به منذ أيام كثيرة، مع خوفى ألا يمتلك المقدرة على حكم تلك الإقطاعية.

يكاد يكون سانشو قد سمع هذه الكلمات الأخيرة لسيده، فقال له:

- اجتهد فخامتكم، أيها السيد دون كيخوتى، فى إعطائى هذه المقاطعة الموعودة بقوة من جانب فخامتكم، والمنتظرة فى شوق من جانبى، وأعدك ألا تنقصنى المقدرة على حكمها، وإذا حدث ولم أمتلك تلك المقدرة، فقد سمعتهم يقولون إن هناك رجالاً فى العالم يستأجرون مقاطعات السادة، نظير مبلغ سنوى، وهؤلاء يتولون أمور الحكم، والسيد يبقى مسترخيًا ممددًا رجليه، مستمتعًا بالإيجار الذى يدفعونه له، دون عمل شىء آخر، وهذا ما سأعمله أنا، ولن أصلح الأمور أكثر من التنازل عن كل شىء حينها، وأتمتع بالإيجار مثل دوق، والمستأجر عليه صلاح الحال.

قال القانونى:

- هذا، أيها الأخ سانشو، فيما يتعلق بالتمتع بالإيجار لا بأس، لكن إدارة العدالة تقع على عاتق سيد المقاطعة، وهنا تتدخل المقدرة، والرأى الصائب، وبشكل رئيسى القصد الطيب لإصابة العدل: وإذا افتقد هذا فى البدايات، دائمًا سوف تصير الأواسط والنهايات مخطئة وضالة، وهكذا يعتاد أن الله يعين حسن القصد عند بسطاء السادة، كما يخيب سوء قصد أذكيائهم .

أجاب سانشو بانثا:

- لا أعرف هذه الفلسفة؛ لكن فقط أعرف أنه عاجلاً سوف أنال المقاطعة، ولسوف أعرف إدارتها: فأنا لى نفس كبيرة مثل كل آخر، وجسم عريض مثل باقى الخلق، وسأكون ملكًا بحق لدولتى مثل كل ملك فى مملكته، وحال كونى متوجًا سأفعل ما أهوى، وسأتبع ما يحلو لى، وسأكون راضيًا، وهذا

يجعل الشخص لا يرغب فى شيء أكثر من ذلك، وانتهى، ولتأت الدولة، والسلام، ولسوف نرى، كما قال أعمى لآخر.

– هذه ليست فلسفات سيئة، كما تقول، سانشو، لكن مع كل هذا، فهناك الكثير من القول حول موضوع المقاطعات ذاك.

وعلى هذا علق دون كيخوتى:

– أنا لا أدرى عن ذلك الكثير الذى يقال؛ فقط أسير بإرشاد المثل الذى يقدمه لى أماديس الأكبر دى جاولا، الذى جعل خادمه (كونت)على جزيرة فيرمى، وهكذا، أستطيع أنا –دون شكوك أو وخز ضمير – جعل سانشوبانثا (كونت)، وهو أحد أفضل الخدم حاملى الدروع عند كل الفرسان المشائين.

بقى القانونى متعجبًا من الترهات اليقينية التى قالها دون كيخوتى، ومن الطريقة التى صوَّر بها مغامرة فارس البحيرة، ومن الانطباع الذى تركته فيه الأكاذيب المدبرة التخطيط للكتب التى قرأها، وأخيرًا أدهشته حماقة سانشو، الذى كان يتشوق فى إصرار إلى بلوغ لقب الكونت ومقاطعته، حسب وعد سيده له. وخلال ذلك عاد خدم القانونى، الذين ذهبوا إلى النزل فى طلب دابة المؤونة، وصنعوا مائدة من سجادة، ومن حشيش المرج الأخضر، وتحت ظل شجرة كان جلوسهم، وهناك أكلوا حتى لا يفقد حوذى عربة الثيران ما كان يقدمه ذلك المكان من وسائل الراحة، كما سبق القول. وخلال الطعام، فجأة سمعوا انفجارًا ودق جرس، يرن من بين نباتات الغليق، والأعشاب الكثيفة التى كانت هناك، وفى نفس اللحظة رأوا ماعزًا جميلة يخرج من بين تلك الحشائش، كل جلدها مصبوغ بالأسود، والأبيض والبنى. وخلفها كان يتحرك راعى ماعز، صارخًا، مرددا كلمات على عادة الرعاة، حتى تتوقف أو تعود إلى القطيع. والماعز الهاربة، خائفة

فى ذعر، وصلت إلى مجموعة الناس هناك، كما لو كانت تطلب عونهم، وهناك توقفت. وصل الراعى، وأمسكها من قرونها، وكما لو كانت قادرة على الكلام والفهم، قال لها:

– آه، أيتها الضالة بين التلال، أيتها الضالة، المبقعة، كيف تسير أمورك هذه الأيام على قدم عرجاء. أى ذئاب تخيفك، يا ابنتى؟ ألا تقولين لى عن هذا أيتها الجميلة؟ لكن، ماذا يمكن أن يكون سوى أنك أنثى، ولا تهدأ نفسك: ما أسوأ حالك، وحال كل من تقلدينه! عودى، عودى، أيتها الصديقة؛ فإذا لم تكونى راضية، فعلى الأقل ستكونين آمنة أكثر فى حظيرتك، أو مع رفيقاتك: وإذا كنت أنت عليك حمايتهن، فإنكن سوف تسرن دون هدى، وفى اتجاه خاطئ ؟ وأين هن يمكنهن الوصول إلى بر الأمان؟

أعطت كلمات الراعى طربا للحضور، خاصة القانونى الذى قال له:

– وحياتك، أيها الأخ، اهدأ قليلاً، ولا تحاول إعادة هذه الماعز فى الحال إلى القطيع، فهى – على ما تقول – أنثى، وعليها أن تتبع غريزتها الطبيعية، مهما حاولت أن تعترض تلك الغريزة. خذ هذه اللقمة، واشرب جرعة ماء، بما يعتدل غضبك، وخلال ذلك تستريح الماعز.

وبعد قول هذا وإعطائه ظهر أرنب بارد بحد سكين قطعه دفعة واحدة، تناوله، وشكر، وشرب وهدأ، وفى الحال قال:

– لا أحب بكلامى إلى هذا الكائن الوحشى بكل هذا العقل، أن تنظروا إلى فخامتكم باعتبارى رجل ساذجًا: فالحقيقة أن الكلمات التى قلتها للماعز لا تخلو من سر غامض. أنا راع خشن، لكن ليس كثيرًا إلى حد ألا أعرف كيفية التعامل مع البشر والتعامل مع الدواب.

قال القسيس:

– هذا ما أعتقده جيدًا، فأنا أعرف بالتجربة أن الجبال تخلق الأدباء، وأن أكواخ الرعاة تحتوى على فلاسفة.

أجاب الراعى:

– على الأقل، يا سيدى، تحظى برجال اكتسبوا خبرات من خشونة الحياة، وحتى تعتقدوا فى صدق ذلك، وتلمسوه حتى بأيديكم، وإن لا يبدو أنكم ترجون ذلك منى، فإنى أدعو نفسى، إذا لم يغضبكم ذلك، وأحببتموه، فأعيرونى بعض وقتكم وانتباه آذانكم، حتى أحكى لكم عن حقيقة تعطى مصداقية لما قال هذا السيد (مشيرًا إلى القسيس)، ولما قلت أنا.

على هذا أجاب دون كيخوتى:

– لرؤيتى أن هذه الحالة تحتوى بعض ما لا أدرى من ظل مغامرة للفروسية، أنا من ناحيتى، سأسمعكم، أيها الأخ، بكل ترحاب، وهكذا سيفعل كل هؤلاء السادة، لما يتمتعون به من كبير فطنة، ولكونهم أصدقاء لأشياء جديدة مثيرة للفضول والعجب، والبهجة، وتسلى الحواس، كما أظن– دون شك – ما عليه ستكون حكايتك. ابدأ، إذن، أيها الصديق، وكلنا سنسمع .

قال سانشو:

– أنا خارج من اللعبة، حيث سأتوجه إلى هذا النهر مع هذه الشطيرة، حيث أفكر فى إتخام بطنى لما يكفيها ثلاثة أيام، لأننى سمعت من سيدى دون كيخوتى أن خادم الفارس المشاء، عليه أن يأكل كل ما يعرضونه عليه، حتى

يعجز عن أكل المزيد، لأنه من المعتاد أن يعرضوا عليه دخول غابة لا يصيب الخروج منها فى ستة أيام؛ وإذا لم يدخلها الرجل ممتلئ الكرش، أو بخرج جيد المئونة، هنـــاك يمكن أن يبقى، وكمـــا بقى بعضهم مرات كثيرة حتى يصير لحمه مومياء.

قال دون كيخوتى:

– أنت، سانشو، قد أحسنت إصابة الهدف؛ اذهب حيث شـــئت، وكـــل مـــا استطعت، فأنا قد شبعت، وفقط ينقصنى إعطاء النفس وجبتها، كما سأفعل مستمعًا حكاية هذا الرجل الطيب .

قال القانونى:

– هكذا سنفعل جميعًا .

ثم رجا الراعى أن يبدأ ما وعد من حكى. الراعى صفق مرتين على ظهــر الماعز، التى مازال ممسكًا قرنيها، قائلاً:

– تمددى بجوارى، أيتها المبقعة، فأمامنا وقت حتى نعود إلى قطيعنا.

بدا أن الماعز قد فهمته، لأنه عند جلوس صاحبها، تمددت هى بجواره فـــى هدوء كبير، وعند النظر إلى وجهها كانت توحى بأنها منتبهة لما مضى الراعى فى قوله، والذى بدأ حكايته بهذه الطريقة:

الفصل الحادى والخمسون

عبارة عما حكاه راعى الماعز لكل من كانوا يحملون دون كيخوتى

على بعد ثلاثة فراسخ من هذا الوادى توجد قرية، مع صغرها، هى أغنـى كل القرى التى توجد فى هذه النواحى، وفيها عاش مزارع فى غاية الشرف، وكما كان ثريًا كان شريفًا، ولم يكن شرفه لصيقًا بثروته بقدر ما كان بسبب فضيلته. لكن ما كان يجعله أكثر سعادة، حسبما كان يقول، هو وجود ابنة له ذات جمال فـائق، وذكاء نادر، وملاحة، وفضيلة، كان يعترف لها بها، وينظر إليها، ويعجـب مـن رؤية محاسنها الفائقة، والتى أغنتها بها السماء والطبيعة. فى طفولتها كانت حلـوة، ودائمًا كانت تنمو فى جمالها، وعند السادسة عشرة فاق جمالها كل تصور. شـهرة جمالها بدأت تذيع فى كل الأنحاء بقرى المنطقة؛ وماذا أقول أنا عن ذيوع جمالهـا بكل القرى،إذا كان وقد ذاع فى المدن البعيدة، بل وصل إلى قاعات الملوك، وفـى آذن كل جنس من الناس، باعتباره شيئًا غريبًا أو صورة لمعجزة، جلبت الناس من كل صوب لمرآها؟ حافظ عليها أبوها، وحافظت على نفسها: ولا أقفال أو حـرس أو مغالق أحمى لصبية من قفل عفاف ذاتها.

ثراء الأب وجمال الابنة حركوا الكثيرين، من أبناء القرية ومـن الغربـاء، الذين طلبوا يدها زوجة، لكنه، مثل من عليه تسليم حلية ثمينة، مضى متحيرًا، دون

أن يعرف أن يقرر لمن يسلمها من العدد اللانهائى ممن يطلبها فى إلحاح. وبين الكثير ممن تعروهم أكبر الرغبة فيها، كنت أنا، وقد أعطانى آمالاً كبارًا من توفيق طيب أن أعرف أن الأب كان يعرف من أكون، لكونى من سكان نفس القرية، ومن دم نقى، وفى عمر الزهور، مع ثراء بالغ، وفى الذكاء لم أكن أقل منها فى سائر محاسنى. وقد طلبها شاب آخر من القرية يتسم بنفس المحاسن، مما كان سببًا فى تعليق إرادة الأب، ووضعها فى الميزان، وبدا له أنه مع أى منا الاثنين ستكون بنته فى خير ما يرام، وحتى يخرج من هذه الحيرة قرر عرض الأمر على لياندرا (هكذا كانت تسمى الجميلة الثرية)التى أودعتنى فى هوة البؤس، فعندما صار واضحًا للأب تساوينا نحن الاثنين، كان الأفضل ترك الأمر لإرادة ابنته المحبوبة تختار على مزاجها، أمر جدير بأن يحاكيه كل الآباء مع الأبناء عند الزواج وتقرير المصير، ولا أقول بأن يدعوهم يختارون بين أشياء خربة أو سيئة، وإنما يقترحون عليهم الطيبات، ومنها يختارون على هواهم. ولا أدرى ماذا رأت لياندرا، فقط أعرف أن الأب أرجأ كلينا بسبب صغر سن ابنته، وبكلمات عامة لا تورطه فى شيء ولا تبعدنا عن التورط فى استمرار طلبها. يسمى منافسى أنسيلمو، وأنا أسمى أيوخينيو، لأنكم عليكم معرفة أسماء من عاشوا هذه المأساة، والتى ما زالت نهايتها معلقة، لكن مقدماتها توحى بأنها ستكون مفزعة.

خلال ذلك جاء إلى القرية شاب يسمى بيثنتى دى لا روكا، ابن مزارع فقير من نفس القرية، وقد جاء بيثنتى من إيطاليا، ومن أماكن أخرى عديدة، تحرك فيها بوصفه جنديًا. وكان قد حمله من قريتنا، حال كونه صبيًا ابن اثنى عشر عامًا، قبطان وألحقه بحملته، وعاد الصبى بعد اثنى عشر عامًا أخرى بعد ذلك، مرتديًا ثياب الجندية، مطليًا بألف لون، مليئًا بألف حلية صغيرة من الكريستال، وسلاسل من الصلب فى غاية الفطنة. اليوم يلبس حلة احتفالية، وغدًا أخرى؛ لكن فى غاية

الكمال، مزركشة، قليلة، القيمة، كثيرة الزهو. والناس القرويون مرتابون فى أمره، والبطالة التى فيها يرتعى هى الريبة نفسها، وهكذا لاحظوا، وحكوا نقطة وراء نقطة، حكاوى حلله وزركشتها، واكتشفوا أنها ثلاث حُلل، من ألوان مختلفة، بجواربها وأربطة تلك الجوارب، لكنه كان يصنع منها ألف طبخة واختراع، حتى إنهم لو لم يعدوها، لأقسموا أنه عرض على جسمه عشر حلل، وأكثر من عشرين ريشة على رأسه، ولن يبدو صفاقة منى أو مبالغة ما أحكيه عن الحلل، لأنها تلعب دورًا كبيرًا فى هذه الحكاية.

وكان يجلس على مصطبة تحت شجرة حور كبيرة فى ميدان قريتنا، وهناك كان يتركنا جميعًا مشدوهين بفم مفتوح، متعلقين بالأمجاد التى مضى يحكيها لنا. لا توجد أرض فى كل الفلك لم يرها، ولا معركة دون أن يخوضها، وقد قتل من العرب عددًا أكثر من سكان مراكش وتونس، وقد دخل فى مبارزات فريدة، كما كان يقول، أكثر من جانتى، ولونا، وديجو جارثيا دى باريدس، وألف آخرين غيرهم؛ ومن كل المبارزات خرج منتصرًا، دون أن يريق قطرة واحدة من دمه. ومن ناحية أخرى أظهر علامات جروح، ومع أنها لا تُلمح، كان يجعلنا نتصور أنها رصاصات تلقاها فى لقاءات ومعارك. أخيرًا، وفى كبرياء لا نظير له، كان ينادى بلفظة (يا هذا)، على أمثاله، ونفس من يعرفون أصله وفصله، قائلاً إن أباه هو ذراعه، ونسبه هو أعماله، وأنه تحت ثياب الجندى لا يدين حتى للملك نفسه بشىء وقد أضاف لهذا الغرور كونه يعرف شيئًا من الموسيقى ويعزف على القيثارة ضاربًا عدة أوتار مرة واحدة بريشته، بطريقة تجعلها تتكلم كما كان يقول البعض؛ لكن لم تقف عند هذا محاسنه، فهو أيضًا شاعر، وهكذا كان ينظم قصيدة عن كل عمل صبيانى يقع فى القرية. وكانت قصائده بطول فرسخ ونصف الفرسخ.

هذا الجندى، الذى رسمته بهذه الكلمات، أو ذاك البيثينتى دى لا روكـا، ذاك الشجاع، وذاك الطاوس، ذاك الموسيقى، وذاك الشاعر، وقع عليه نظر ليانـدرا مرات كثيرة من نافذة بيتها، التى تطل على الميدان، وأوقعتها فى غرامه بهرجـة حلله الزاهية؛ وسحرتها قصائده، التى كانت تذيع فى عشرين حلقة، ووصلت إلـى مسمعها أمجاده، التى حكاها هو شخصيًا عن نفسه، وأخيرًا، هكذا، الشيطان كان قد رتب كل شيء، وهى اندفعت فى عشقه، قبل أن يولد فيه اصطناع إغرائها. ومثـل كل حالات الحب، لا يتم إنجاز الأمور بمثل سهولة حالة تولد الرغبة عنـد الـسيدة وحدها، وهكذا بسهولة اتفقت لياندرا وبيثنتى، وقبل أن يدرك أحد خطابهـا خبـر رغائبها الغرامية، كانت قد حققتها تاركة بيت أبيها المحبوب العزيز عليها، فلم تكن لها أم، وعند غيابها عن القرية مع الجندى، الذى خرج منتصرًا فى هذه المعركـة أكثر من كل المعارك التى كان يحكيها. أذهل الحدث كل القرية، بل كل من سـمع الخبر؛ وأنا بقيت مبهوتًا، وأنسيلمو مذهولاً، والأب حـزينًا، وأقرباؤهـا أحـسوا بالعدوان عليهم، والعدالة فى طلب المجرم، وجند الأخوة المقدسـة علـى أهبـة الاستعداد، وتفرقوا فى الطرق، وفحصوا الغابات، وكل مكان محتمل، وفى نهايـة اليوم الثالث عثروا على لياندرا هوائية المزاج فى كهف بجبل، عريانـة بقمـيص فحسب، دون الأموال الطائلة، والحلى الثمينة الثمانة، والتى سحبتها معها من بيتها. أعادوها إلى حضرة الأب المنكوب، سائلين لها عن شقوتها ونكبتها، اعترفـت دون ضغط أو عقاب أن بيثنتى دى لاروكا خدعها، وتحت شرف كلمته فى أن يـصير زوجًا لها، أغراها بترك بيت أبيها، حيث سوف يحملها إلى المدينة الأكثـر ثـراء وازدهارًا بين كل مدن الكون، وتسمى نابولى، وهى تحت أكبر تضليل وأسوأ خداع صدقته، وسرقت أباها، وسلمته ما سرقت فى نفس الليلة التى اختفت فيهـا، وهـو حملها إلى جبل وعر، وحبسها فى ذلك الكهف، دون أن يعتدى على شرفها، وسرق

منها كل ما كانت تملكه، وتركها فى ذلك الكهف ومضى إلى غايته: واقعة أذهلت الجميع من جديد. وصعب علينا تصديق تعفف الصبى الجندى، لكنها أكدته فى كل صدق، وكان ذلك سببًا فى تعزية الأب الذى فقد العزاء، دون أن يضع فى اعتباره الثروة التى هرب بها، فقد ترك لابنته الحلية التى إن فقدت مرة، لا تترك أى أمل قط لاستعادتها. وفى نفس اليوم الذى ظهرت فيه لياندرا أخفاها أبوها عن عيوننا، وحملها كى يغلق عليها فى دير بمدينة قريبة، فى انتظار أن يستهلك مرور الزمن جانبًا من الرأى السيئ الذى ارتآه الناس فى ابنته. وصغر سن لياندرا خدم فى الاعتذار عن ذنبها، وعلى الأقل بين من لا يعنيهم أمرها سواء أكانت طيبة أو شريرة، لكن الذين كانوا يعرفون ذكاءها، لم ينسبوا ذنبها إلى صغر سنها، إنما إلى دناءتها، والميل الطبيعى فى النساء، الذى فى الأعم الأغلب يكون مغرضًا، وسيىء التكوين.

وبعد حبس لياندرا فى الدير، صارت عيون أنسيلمو عمياء، على الأقل دون أن تجد شيئًا تطربها رؤيته، وعيونى فى ظلمات، دون نور، يقودها إلى شىء بهيج، ومع غياب لياندرا كانت تنمو أحزاننا، وينفد صبرنا، ونلعن زركشة الجندى، ونستنكر قلة حرص والد لياندرا. أخيرًا، أنسيلمو وأنا اتفقنا أن نترك القرية، والمجىء إلى هذا الوادى، حيث يرعى عددًا كبيرًا من النعاج التى يملكها، وأنا قطيعًا كبيرًا من الماعز، أيضًا التى أملكها، نقضى الحياة بين الأشجار، محرمين على أنفسنا مشاعر عشقنا، أو مغنين معًا مدائح أو هجائيات فى لياندرا الجميلة، أو متنهدين وحدنا، كل منا فى وحدته رافعًا إلى السماء شكاته. وفى تقليد لفعلتنا، كثير من عاشقيها جاءوا إلى هذه الجبال الوعرة، ممارسين نفس المعاناة التى نعانيها، وهم كثيرون حتى إنه يبدو لى أن هذا المكان قد تحول إلى مرعى أركاديا، لكونه مليئًا بالرعاة والحظائر، دون أن يخلو جزء منه من سماع اسم لياندرا الجميلة. هذا يلعنها، وذلك يدعوها بالهوائية، المتغيرة، غير الشريفة، وذاك يدينها بأنها سهلة

وطائشة، وآخر يغفر لها ويعفو، وبعده من يحاكمها ويدينها، ويسبها، ومنهم من يحتفى بجمالها، وهناك من يستنكر خلائقها، وفى النهاية، كلهم يثلبون شرفها، ويعبدونها، ومن الجميع ينطلق الجنون، حيث يوجد من يشكو من تمنعها وغرورها دون أن يسبق له تبادل كلمة معها، بل هناك من يندب ويحس بالداء المتميز غيظًا للغيرة، بينما هى قط لم تعط لأحد سببًا لذلك، لأنه، كما قلت، قبل أن يعرف إثمها لم يعرف تطلعها لأحد. ولا يوجد فجوة من صخرة، ولا حد لنهير، ولا ظل لشجرة دون أن يكون مشغولاً براع لا يحكى همه إلى الهواء؛ الصدى يكرر اسم لياندرا، حينما ظهر صدى: لياندرا تردد الجبال، لياندرا تهمس النهيرات، لياندرا تملكنا جميعًا بها متعلقين، ومسحورين، منتظرين دون أمل، وخائفين دون أن ندرى ممّ نخاف وبين هؤلاء المجانين، الذى يظهر عقلاً أقل أو أكثر هو منافسى أنسيلمو، الذى لديه أشياء كثيرة أخرى تدعو للشكوى، لكنه لا يشكو إلا من الفقد والفراق؛ وعلى صوت آلة الربابة، التى يعزفها بشكل معجب، مغنيًا أشعارًا تكشف عن عقل راجح، وفى الغناء تتردد شكواه. أنا أتبع طريقًا أسهل، ورأيى الأصوب، هو أن أتحدث مغتابًا طيش النساء، وعدم ثباتهن، وكيلهن بمكيالين، ووعودهن المتلاشية، وأيمانهن المحنوثة، وأخيرًا، قلة التروى لديهن عند تحديد الفكر والقصد، وكان هذا، أيها السادة، سبب كلماتى، وعباراتى التى قلتها لهذه الماعز، عندما وصلت إلى هنا: فلكونها أنثى أقلل من شأنها، وإن كانت خير ما فى قطيعى. تلك هى القصة التى وعدتكم بحكايتها. وإذا كنت فى حكايتها مطنبًا، فما كنت فى خدمتكم مختصرًا: وقريب من هنا توجد حظيرتى، وفيها لبن طازج، وجبنة فى غاية اللذاذة، مع فواكه متعددة تناسب الموسم، ليس مرآها أقل لذاذة من طعمها.

الفصل الثانى والخمسون

عن المشاجرة التى أدارها دون كيخوتى مع راعى الماعز، والمغامرة الغريبة مع المتعبدين(*) التى أعطاها نهاية سعيدة على حساب عرقه

حققت قصة راعى الماعز طربًا عامًّا عند جميع من أنصتوا إليه، وبصفة خاصة القانونى الذى استقبلها بفضول غريب، ملاحظًا الطريقة التى قصَّها بها، بعيدًا عن مظاهره باعتباره راعى ماعز خشنًا، وقريبًا من مظهر أرستقراطى ذكى، وهكذا قال إن القسيس أحسن الكلام عندما قال إن الجبال تنشئ أدباء.

وفى هذا كان دون كيخوتى سخيًا، حين قال له:

– بحق، أيها الأخ الراعى، إذا وجدتنى مُمكنًا من بدء مغامرة، بعدها سوف أشرع فى طريق علاج نكبتك، حيث أخرج لياندرا من الدير (حيث، دون شك، توجد قطعًا ضد إرادتها)، على الرغم من رئيسة الدير، ومن كل من يرغبون فى منعى من ذلك، وسأضعها بين يديك، كى تعمل معها ما يحلو لك، مراعيًا قوانين الفروسية، التى تأمر بألا يرتكب أى أذى ضد أى فتاة، وإنى أنتظر من الله ربنا أن تقهر إرادة ساحر طيب القصد، إرادة الساحر

(*) لون خاص من المتعبدين الذين يعذبون أنفسهم فى عيد الفصح، أو فى عباداتهم الطارئة، مثل قيامهم بصلاة استسقاء كما فى هذا الفصل، حيث يكفرون عن ذنوبهم بضرب أنفسهم بالسياط حتى تمطرهم السماء.

الشرير الذى سحرنى، وعندئذ أعدكم وقوفى معكم ومساعدتى، كما تجبرنى مهنتى، والتى ليست أكثر من مناصرة العاجزين والمضطرين.

نظر إليه الراعى، وكما رأى أن دون كيخوتى بائس المظهر، والسحنة، تعجب، وسأل الحلاق الذى كان قريبًا منه:

– أيها السيد، من ذلك الرجل، الذى يحمل هذه الهيئة، ويتكلم بتلك الطريقة؟

أجاب الحلاق:

– ومن ينبغى أن يكون سوى دون كيخوتى دى لا مانشا، المشهور، المزيل الظلم عن المظلومين، المصلح لكل ضر، ملجأ كل صبية، الفزع للمردة، والمنتصر فى المعارك.

قال الراعى:

– هذا يشبه ما يُقرأ فى كتب الفرسان المشائين، الذين يقومون بكل هذا الذى تقول إن ذلك الرجل يعمله، ومع ذلك فأنا أرى أن فخامتكم تمزح، أو أن هذا الرجل الظريف لابد أن تكون غرف رأسه فارغة.

عند هذا قال دون كيخوتى:

– أنت أسفل السافلين، وأنت الفارغ والأحمق: وأنا أكثر امتلاء من أى لحظة كانت عليها العاهرة بنت العاهرة التى ولدتك.

وكما يخلط القول بالفعل، ضربه برغيف كان قريبًا منه وبقوة ألقاه على صفحة وجهه، وفى غضب فائر، سوى أنفه بوجهه، لكن الراعى الذى لم يكن يعرف المزاح، عندما رأى كيف تساء بجد معاملته، لم يحترم السجادة، ولا

المفارش، ولا كل من كانوا يأكلون، وقفز فوق دون كيخوتى، وأمسك برقبته بين كلتا يديه ولم يتردد فى خنقه، إذا لم يصل سانشو بانثا فى هذه اللحظة، ليمسك الراعى من ظهره، ويلقى به فوق المائدة، محطمًا أطباقًا، مكسرًا فناجين، ساكبًا ومبعثرًا كل ما كان عليها. أما دون كيخوتى عندما رأى نفسه طليقًا، هرع للصعود فوق الراعى؛ والذى كان مليئًا بالدم على صفحة وجهه، مطحونًا بركلات سانشو، تململ باحثًا عن سكينة على المائدة، حتى يرتكب انتقامًا دمويًّا، لكن عاقه القانونى والقسيس، وهنا ساعد الحلاق الراعى أن يضع دون كيخوتى تحته، وأمطره باللكمات، حتى أمطر وجه الفارس المسكين دمًا، مثل وجه الراعى. اهتز القانونى والقسيس من الضحك، وتقافز الجنديان من الانبساط، وشجع الجمهور مرة هذا، ومرة ذاك، كما يفعلون مع الكلاب عندما يشتبكون فى معركة، فقط سانشو بانثا أصابه الإحباط واليأس لأنه لم يستطع أن يفلت من قبضة يد أحد خدم القانونى، الذى كان يحول بينه وبين مساعدة سيده.

باختصار، عندما كان الجميع فى بهجة واحتفال، إلا المتصارعان اللذان يخمش أحدهما فى الآخر، سمعوا دق طبل حزين، جعلهم يلتفتون إلى حيث كان يجئ، لكن الذى فزع لمسمعه كان دون كيخوتى، والذى وإن كان تحت الراعى، مرغمًا ضد إرادته، ونصف مطحون، قال له:

– أيها الأخ الشيطان، أليس من الممكن أن تتنازل عن شيطنتك، فقد امتلكت الشجاعة والقوة إلى حد إيقاف قوتى؛ أرجوك أن نعمل هدنة ليس أكثر من ساعة، لأن الصوت الحزين لذلك الطبل، الذى يصل إلى مسامعنا، يبدو لى دعوة إلى مغامرة جديدة.

والراعى الذى أرهقه أن يضرب وينضرب، تركه فى الحال، ووقــف دون كيخوتى على قدميه، مديرًا وجهه حيث يأتى الصوت، ورأى فجأة من فوق ربــوة يهبط رجال كثيرون يرتدون الأبيض، على طريقة المتعبدين.

وكانت المسألة، أنه فى ذلك العام رفضت السحب أن ترش الأرض، ومــن كل مكان بتلك المنطقة كانوا يقومون بمواكب استسقائية وتكفيرية، طالبين مــن الله أن يفتح يدى رحمته، ويمطرهم؛ ولهذا الغرض أتى أهل إحدى القرى من الجـوار فى موكب إلى صومعة قديمة للعبادة، فى إحدى ربا الوادى. دون كيخــوتى الــذى رأى اللباس الغريب للمتعبدين، دون أن يمر بخاطره أنه رأى مثل هــذا الموكــب مرات كثيرة، فكر أنه مبدأ لمغامرة، وعليه فقط بوصفه فارسًا مشاء أن يخوضـــها، وأكد له هذا التخيل أكثر، التفكير فى أن التمثال الذى يحملون مغطى بثياب الحـــداد كان سيدة يحملونها عنوة هؤلاء الأشرار، غير المهذبين السفلة، وكمــا مــلأ هــذا رأسه،فى خفة كبيرة وثب على روثينانتى الذى كان يمضى هادئًا، بعــد أن ســحب الرمح من مسنده، وطلب من سانشو سيفه محتضنًا الدرع، وقــال فــى صــوت جهورى لكل من كانوا حضورًا:

– **الآن، أيتها الصحبة الشجاعة، سوف ترون كم يهم أن يوجد فى العالم فرسان مشاءون يمارسون تعاليم نظام الفروسية المشاءة؛ والآن أقول، سوف ترون، فى تحرير هذه السيدة الطيبة، التى هى هناك أسيرة، إذا ما كان عليكم تقدير الفرسان المشائين من عدمه.**

وعند قول هذا، ضغط فخذيه على جانبى روثينانتى، لأن المهاميز لم تكــن فى رجليه، وفى أقصى سرعة للرَّمح، (لأن العَدْوَ المتصل لا يقرأ فــى كــل هــذه القصة الحقيقية، والتى فيها لم يَعْدُ روثينانتى قط) ذهب للقاء المستسقين، ومــع أن

القسيس والقانونى والحلاق ذهبوا لإيقافه، إلا أنه تعذر عليهم ذلك، كما تعذر على الصرخات التى أطلقها سانشو قائلاً له:

– إلى أين تذهب أيها السيد دون كيخوتى، أى شياطين تحمل فى صدرك، تلك التى تحرضك للذهاب ضد إيماننا الكاثوليكى؟ لتعلم، لعنتُ أنا، أن هذا موكب مستسقين، وأن هذه السيدة التى يحملونها على المحفة هى التمثال المبارك للعذرا دون أى دنس، انظر، سيدى، فيما تفعل، ففى هذه المرة يمكن القول، إنك لست الذى يعلم !

وصرخ سانشو ما شاء دون جدوى، لأن سيده مضى فى تصميم على الوصول إلى الملفوفين فى ملاءاتهم البيضاء، وعلى تحرير السيدة الملتفة فى ثياب الحداد، فلم يسمع مما قال سانشو كلمة واحدة، وإن سمع فما كان ليعود، ولو أمره الملك . وصل فى الحال إلى الموكب، أوقف روثينانتى، الذى كان يود أن يسكن قليلاً إلى الهدوء، وبصوت أجش ومتعكر قال:

– أنتم ربما لأنكم لستم أخيارًا، تغطون وجهكم، انتبهوا أنصتوا لما أود قوله.

أول من وقف من الموكب كان القوم الذين يحملون التمثال؛ وأحد الكنسيين الذين يرددون التراتيل، عندما رأى السحنة الغريبة لدون كيخوتى، ونحول روثينانتى، وأسبابًا أخرى للضحك تلحظ وتتجلى فى دون كيخوتى، أجابه قائلا:

– أيها السيد الأخ، إذا كنت تود أن تقول لنا شيئًا، قله سريعًا، لأن هؤلاء الأخوة فى الله يعضون لإيقاع الأذى بأجسامهم ولا نستطيع بل لا يوجد سبب للتوقف لسماع أى شيء، إذا لم يكن شديد الاختصار فيقال فى كلمتين.

أجاب دون كيخوتى:

- **فى كلمة واحدة سأقوله، وهذا هو: فى الحال والآن أطلقوا سراح هذه السيدة الجميلة، فدموعها ومظهرها الحزين يعطيان أدلة واضحة أنكم تحملوها ضد إرادها، وأنكم قد أوقعتم بها أذًى بالغًا؛ وأنا، من ولدت فى العالم حتى أرفع مثل هذا الظلم، لن أوافق على أن تخطوا خطوة واحدة للأمام، قبل أن تمنحوها الحرية المتمناة، والتى هى تستحقها.**

أمام هذه العبارات أدرك كل من كانوا يسمعون دون كيخوتى أنه مجنون، وأخذوا فى الضحك بمنتهى الانسجام، ووضع ضحكهم باروذا على غضب دون كيخوتى المشتعل، لأنه، ودون أن يقول كلمة، هاجم حاملى المحفة شاهرًا سيفه. وأحد هؤلاء الذين كانوا يحملونها، ترك الحمل لزملائه، وخرج للقاء دون كيخوتى، حاملاً الدعامة أو النبوت الذى يسند به المحفة أثناء الراحة، وتلقى عليه طعنة نجلاء من سيف دون كيخوتى، فانشطر إلى نصفين، وبالثلث الأخير الذى بقى فى يده أوقع ضربة هائلة على كتف دون كيخوتى، فى نفس ناحية إمساكه السيف، فلم يستطع التغطية بالدرع ضد هذه الضربة الحقيرة، حتى إن المسكين دون كيخوتى وقع على الأرض فى حالة سيئة جدًا. سانشو بانثا عندما وصل لاهثًا، ورأى سيده واقعًا على الأرض، وصرخ فى الرجل الذى يطحنه ضربًا ألا يوقع به المزيد من الضربات، لأنه ليس إلا فارسًا مسكينًا مسحورًا، لم يؤذِ أحدًا قط طوال أيام حياته. لكن الذى أوقف القروى لم يكن صراخ سانشو، وإنما رؤية دون كيخوتى لا يحرك قدمًا أو يدًا، فاعتقد أنه قد مات، فأسرع إلى إلقاء ملاءته على جسمه وانفلت هاربًا داخل الموكب مثل الأيل الشارد.

وبينما الأمر على هذا الحال، وصل كل من كان فى صحبة دون كيخوتى إلى حيث كان مُسجى على الأرض، لكن قوم الموكب عندما رأوهم قادمين يجرون ومعهم جنديان من الأخوة المقدسة ومع كل منهما بندقيته، خافوا سوء العاقبة، فصنعوا جميعهم دائرة تشبه الدوّامة حول تمثال العدرا، كلُ قابض على سوطه، والقساوسة الكنسيون على الشمعدانات، منتظرين الهجوم عليهم، مع العزم على الدفاع عن أنفسهم بل إيقاع الهزيمة بالآخرين، إن أمكن. لكن الحظ جعل الأمر أفضل مما ظنوا، لأن سانشو لم يفعل شيئًا غير أنه ألقى بنفسه فوق جسم سيده، قائمًا بندبه فى أشد الانتحاب ألمًا وحزنًا، معتقدًا أنه ميت. والقسيس قام أحد القسيسين بالموكب بالتعرف عليه، والتعرف على وضع نهاية مطمئنة للخوف الذى أدركهم من وجود الجنديين. القسيس الأول أعطى للقسيس الثانى فى ثانيتين، بعبارتين، فكرة عمن كان دون كيخوتى، وهكذا هو ومعه زمرة المتعبدين ذهبوا ليروا عما إذا كان ميتًا ذلك الفارس المسكين، وهنا سمعوا سانشو بانثا، بدموع فى العين، يقول:

- أوه، يا زهرة الفروسية، يا من، بضربة هراوة، انتهت سيرة سنواتك طيبة الذهاب والتلاشى ! أوه، يا شرف نسبك وسلسالك، ويا شرف كل (لامانشا) ومجدها، بل شرف العالم ومجده، والذى بغيابك عنه، سوف يمتلئ بالشر، دون خوف من عقاب على سوء أعماله! أوه، أيها الكريم فوق كرم كل إسكندر، فقط نظير سبعة أشهر من الخدمة، أعطيتنى أفضل جزيرة يحزمها البحر، ويحيطها ! أوه، أيها المتواضع مع المغرورين، والمغرور مع المتواضعين!! وثّاب المخاطر، مقدام العدوان، العاشق دون غرض، مقلد الطيبين، سوط الأشرار، عدو الخربين، وفى النهاية، الفارس المشاء، القائل والقادر على إنجاز كل ما تقول!

مع تصويت سانشو وأنينه أفاق دون كيخوتى، وأول كلمة قالها كانت:

- **الذى يعيش لك مفارقًا، يا حلوة الحلاوة دولثينيا، واقع فى براثن بؤس أكثر من هذا، وفيه مقيم. ساعدنى، سانشو أيها الصديق، كى أودع نفسى فى العربة المسحورة، فلست الآن فى موقف من يكر ويفر بروثينانتى، لأن هذا الكتف منى أحسه قد صار مزقًا مزقًا.**

أجاب سانشو:

- **هذا ما سأفعله بكل سرور، يا سيدى، ولنعد لقريتنا مع هؤلاء السادة، الذين يرغبون الخير لك، وهناك نرتب من أجل خروج آخر يعطينا نفعًا أكثر، وشهرة أعم.**

أجاب دون كيخوتى:

- **خير ما تقول، سانشو، وسيكون من محاسن الفطن أن نترك التأثير السيئ للنجوم يمر، لأنه الآن علينا يجرى.**

القانونى، والقسيس والحلاق، قالوا له إنه يحسن الفعل إن نفذ ما يقول، وهكذا استقبلوا كثيرًا من المسرة أمام سذاجات سانشو بانثا، ووضعوا دون كيخوتى فى العربة، مثلما كان فيها من قبل آتيا؛ والموكب عاد للانتظام، وواصل طريقه، والراعى ودع الجميع، والجنديان لم يحبا الاستمرار فى الرحلة، ودفع القسيس لهما ما كان يدين به، والقانونى طلب من القسيس أن يخطره بأحوال دون كيخوتى، وعما إذا كان قد شفى من جنونه أو استمر معه، وعند هذا طلب إذنًا لمواصلة رحلته. فى النهاية توزع الجميع، كلٌ فى طريقه، ليبقى القسيس، والحلاق، ودون كيخوتى وبانثا وحدهم، مع روثينانتى الوديع، الذى مع كل ما رأى واصل فى صبر كبير مع سيده رحلة الحياة.

الحوذى ربط ثيرانه بالعربة، وأراح دون كيخوتى فوق حزمة من الحشائش المجففة، وبفتوره المعتاد واصل الطريق الذى حدده القسيس، وفى نهاية ستة أيـام وصلوا إلى قرية دون كيخوتى، حيث دخلوها فى منتصف النهار، وفى يوم أحـد، وكان كل الناس يجتمعون فى ميدان القرية، وفى وسط حشدهم عبرت عربـة دون كيخوتى. هرع الجميع ليرى ماذا كان فى العربة، وعندما تعرفوا علـى بلـديَّاتهم، بقوا متعجبين، وطار يجرى صبى من الصبيان إلى أمته، وابنة أخته ليبلغهمـا، أن سيد الأولى، وخال الثانية قد عاد نحيلاً أصفر الوجه، وممـددًا فـوق كـوم مـن الحشائش الجافة على عربة تجرها الثيران. أمر محزن كـان سـماع الأصـوات الصارخة التى انطلقت من السيدتين، ورؤية لطمهما الخدود، ولعنتهما مـن جديـد لكتب الفروسية الملعونة، وقد تجدد كل هذا مرة أخرى عندما رأيتا دون كيخـوتى يدخل من الباب.

وعلى أخبار هذا الوصول لدون كيخوتى، أسرعت زوجة سانشو بانثا، التى كانت قد عرفت خروجه معه ليخدمه باعتباره حاملاً لدروعه، وهكذا عنـدما رأت سانشو، أول ما سألته كان عما إذا كان سيده قد وصل بخير، أجابها سانـشو أنـه وصل بخير أفضل من سيده.

أجابت هى:

– ليكن الحمد لله، الذى أنعم علىَّ بالكثير، لكن قصَّ على الآن أيها الـصديق، أى خير خرجت به من حمل الدروع؟ وأى هدايا قد حملتها لتخلعها علـى ؟ وأى أحذية لأقدام أولادك؟

قال سانشو:

–لم أحضر شيئًا من هذا يا امرأتى، وإن كنت أحضرت أشـياء أخـرى أكثـر مناسبة، وقيمة.

أجابت المرأة:

– هذا يطربنى كثيرًا، أرنى هذه الأشياء الأكثر قيمة ومناسبة، يا صديقى؛ فأنا أحب رؤيتها، حتى تبهج ذلك القلب، الذى عاش فى حزن وأسى كل تلك الدهور التى غبتها عنى.

– سأعرضها عليك فى البيت – قال سانشو – والآن كونى سعيدة؛ فالله تعالى يعيننا عند الخروج مرة أخرى للبحث عن المغامرات، وسوف ترينني سريعًا حاكمًا لجزيرة، وليس مثل تلك الجزر التى هناك، وإنما أفضل ما يمكن أن يوجد.

– لتسمع كلامك السماء، يا زوجى؛ فنحن فى أشد الحاجة لذلك. لكن قل لى: ماذا تعنى جزيرة، فأنا لا أفهمها؟

أجاب سانشو:

– ليست العسل من أجل فم الحمار: فى وقتها سوف ترين، يا امرأة، وسوف يدهشك أكثر سماعهم ينادونك بلقب (هانم) من فم كل رعاياك.

أجابت خوانا بانثا (وهكذا كانت تسمى امرأة سانشو، ليس لأنهما أقارب، وإنما اعتادوا فى" لا مانشا" أن تأخذ النساء لقب أزواجهن):

– ماذا تقول، سانشو، عن (الهوانم)، والجزر، والرعايا؟

– لا تضايقى نفسك خوانا، بمعرفة كل هذا سريعًا، ويكفى أننى أقول لك الحقيقة، وخيّطى فمك. فقط أعرف القول، بشكل عابر أنه لا يوجد شىء ألذ فى العالم من أن يكون الرجل الشريف حاملاً لدروع فارس مشاء، وباحثًا عن مغامرات مع أنه أيضًا حقيقى، أن أغلب ما يعثر عليه منها لا ينتهى حسبما يشتهى الإنسان، فمن بين كل مائة مغامرة، من المعتاد أن تخرج

تسع وتسعون سيئة ومنحرفة عن المرغوب.هذا ما أعرفه من التجربة، لأنه من بعضها خرجت بطانية تتقاذفني عليها الأيدي، ومن البعض الآخر مطحونًا؛ لكن مع كل هذا، فإنه شيء بديع انتظار الأحداث عابرًا جبالاً، مفتشًا غابات، واطئًا صخورًا، زائرًا قلاعًا، نازلاً في فنادق بكل كياسة، دون دفع فلس واحد للشيطان الرجيم.

كل هذه الدردشة دارت بين سانشو بانثا، وخوانا بانثا، امرأته، بينما كانت أمة دون كيخوتي وبنت أخته يستقبلانه، وعند استقباله خلعتا عنه ملابسه، ووضعتاه ممددا في سريره القديم. كان ينظر إليهما بعيون عابرة، ولم يكن يدري في أي مكان كان. القسيس حمّل ابنة الأخت مسئولية أن تراعي تدليل عمها، وأن تكون على حذر حتى لا يهرب من البيت مرة أخرى، وحكى لها ما كان عليه عمله حتى أحضره إلى البيت. هنا رفعت الاثنتان صرخاتهما مرة أخرى للسماء، وهنا لعنتا مرة أخرى كتب الفروسية، وهنا طلبتا من السماء أن توقع في مركز الهاوية مضطربين أولئك من ألفوا كل تلك الأكاذيب والترهات. أخيرًا، بقيتا في حيرة وخوف من أن تبقيا دون السيد، والخال في أول لحظة لتحسن صحته، وقد حدث بالضبط ما تصورتاه.

لكن مؤلف هذه القصة، رغم أنه بكل فضول وأقصى جهد قد بحث عن الأعمال التي قام بها دون كيخوتي في خروجه الثالث، لم يستطع العثور على أي خبر عنها، على الأقل في أي مخطوطات أصلية، فقط بقيت الشهرة محفوظة في ذاكرة (لا مانشا)، من أن دون كيخوتي في المرة الثالثة لخروجه، ذهب إلى سرقسطة، حيث اشترك في مبارزات فروسية أقاموها في تلك المدينة، وهناك وقعت أشياء جديرة بشجاعته وذكائه. ولم يستطع أن يعرف شيئًا عن نهايته وموته، وما كان بالغ معرفة ذلك قط لولا أن الحظ الطيب أوقعه مع طبيب عجوز، كان

لديه صندوق من الرصاص، وطبقًا لما قال؛ كان قد وجده في أنقـــاض أساســـات صومعة عبادة قديمة، كانوا يجددونها؛ وفي الصندوق وجدوا بعض الرقاع المكتوبة بحروف قوطية، لكن عن أشعار إسبانية، تحتوى على الكثير من أمجـــاده، وتخبـــر عن جمال دولثينيا دل توبوسو، وعن صورة روثينانتي، وعن إخلاص سانشو بانثا، وعن قبر دون كيخوتي نفسه، مع كثير من الرثاء المكتوب عليـــه، والثنـــاء علـــى حياته، وعاداته. وما أمكن إخراجه سليمًا وقراءته، هو ما يورده هنا المبجل مؤلف هذه القصة الجديدة، التي لم تر العين مثلها. وهذا المؤلف لا يطلب ممـــن يقرأهـــا جائزة عن العمل الهائل، الذي كلفه التحقق والبحث في كل أرشيفات (لا مانـــشا)، حتى يخرجها إلى النور، اللهم إلا إعطائها نفس المصداقية التي يعطونهـــا لكتـــب الفروسية، التي تنال كل المجد في هذا العالم، وبهذا يكون قد جوزى أحسن الجزاء، ورضى أبعد الرضى، وسيتشجع لإخراج والبحث عن قصص أخرى، إن لم تكـــن حقيقية مثل هذه القصة، ستكون كثيرة الإبداع والتسلية.

أول الكلمات التي كانت موجودة في الرقاع التـــي وجـــدت فـــي صـــندوق الرصاص كانت هذه:

الأكاديميون بأرجاماسيًا

قرية لا مانشا سجلوا ماكتبوه عن

حياة وموت الهمام

دون كيخوتي دى لامانشا

المونيكونغو، أكاديمي بأرجاماسيًا

على قبر دون كيخوتي

--

كتابة شاهد

أيها الحطام المجنون الفارغ الذى زيَّن لا مانشا

الغانم غنائم أكثر من جاسون دى كريت

والعقل الذى امتلكته دوارة الهواء

حادة وكان الأفضل أن تكون عريضة

والذراع الذى كانت قوته تعلو وتتجبر

والذى وصل من (كاتاى) إلى (جاييتا)،

والجن الأكثر إفزاعًا وذكاء

والذى حفر الشعر فى ألواح برونزية

*

والذى ترك كل (أماديس) فى الذيل

وفى هنيهة جاوز كل (جالاور)

متفوقًا فى حبه ومحاسنه

ذلك الذى على روثينانتى ضالا سار ويرقد تحت هذه اللوحة الحجرية الباردة

من (بانيا جوادو) أكاديمى بأرجاماسيًا

فى مديح دولثينيا دل توبوسو

تلك التى ترون ذات الوجه المربرب

مرفوعة النهود، ساخنة الحركات

إنها دولثينيا دل توبوسو

التى بها قد هام دون كيخوتى الهمام

*

من أجلها وطأ كل أرض وجهات

من الجبال السوداء العظيمات،

والمرج المشهور (مونتييل)

حتى السهل المعشب (أران خويث)

... وطأ على الأقدام والتعب الإمام.

*

ذنب روثينانتى. أوه، أيها النجمة القاسية

أى سيدة ما نشاوية وأى عاشق منتصر

فارس مشّاء، وفى أعوام حنونة.

*

تركته هى يموت لأنها جميلة؛

وهو مع أنه بقى مكتوبًا فى المرمر،

لم يتمكن من الهرب من الحب والخداع والغضب

—

من الأكاديمى الهوائى جدًا، والذكى جدًّا
ببلدة أرجاماسِيًا فى مدح روثينانتى،
جواد دون كيخوتى دى لامانشا

--

فى التاج المغرور الماسى
حيث يطأ المريخ أعشابًا دامية
وراية المانشاوى هى الحنق
زغرودة فى جهد غريب

*

يعلق السلاح، والصلب النقى
وبه يمزق، ويطأ، ويشق، ويشطر
مهارات جديدة، لكن الفن إبداع
لأسلوب جديد تحت فارس جديد

*

وإذا ماتت جاولا من أماديس
تحيا اليونان من نسله الشجاع
انتصر ألف مرة وشهرته تفخر

*

اليوم تتوج قاعة الجامعة كيخوتى

حيث يرأس الحفل دى بولونا

فى تمجيد له، حتى صارت لامانشا

أعظم من جاولا واليونان

*

لن يلوث النسيان قط أمجاده

فحتى روثينانتى فى رشاقته

فاق (بريًا دورو) ومعه (باياردو)

——

من المازح، أكاديمى ببلدة أرجاماسيا

إلى سانشو بانثا

——

سونيتا

——

سانشو بانثا هو ذاك ذو الجسم الضئيل،

لكنه كبير فى الشجاعة، معجزة غريبة

خادم أكثر بساطة، ودون خداع

لا مثيل له بين الخدم، أحلف وأشهد.

*

كونت! لم يكنه ولو لحظة

وإذا لم يتآمروا على أذاه

غطرسة واعتداءات من البخيل

ومضى قرن ولم يغفروا لحمار

*

على ظهره سار (وبعذر يكذبون)

هذا الخادم الأليف

خلف الأليف روثينانتى، وخلف صاحبه

*

أوه، أيتها الآمال الباطلة للناس

كيف تمرين فى راحة الوعد،

وفى النهاية تتوقفين فى الظل، فى الدخان،

فى الحلم.

من (الكا تشسيديابلو)(*) أكاديمى بأرجاماسيًا

لقبر دون كيخوتى

--

كتابة الشاهد

--

(*) (كاتشسديابلو)، لقب لقرصان جزائرى، ومعناه الشيطان المكار.

هنا يرقد الفارس

المطحون جيدًا، وسيئ المشى

والذى حمله روثينانتى

من طريق إلى طريق

*

سانشو بانثا المغفَّل

يرقد أيضًا بجواره

الخادم الأكثر ولاء

فيمن خدم الفرسان

—

من (تكيستوك)(*)، أكاديمى بأرجاماسيًا،

لقبر دولثينيا دل توبوسو

—

ترتاح هنا دولثينيا؛

ومع أنها ممتلئة اللحم،

فقد حولها إلى تراب ورماد

الموت المخيف الأحمق

*

(*) تيكستوك محاكاة صوتية للطاحونة، وكل هذه الأشعار سخرية مريرة يشنها ثربانتس ضد الأكاديميين.

كانت من سلالة أصيلة

وكانت لها إطلالة سيدة

وكانت للكيخوتى العظيم الشعلة

وكانت مجد قريتها

كانت هذه هى الأشعار التى أمكن قراءتها، والبقية، لتآكل الرقاع مع الكتابة، سلمت إلى أكاديمى لاستخدام التكهن فى كشفها. وتوجد أخبار أنه قام بذلك، على حساب كثير من سهر الليالى، والعمل الجاد الكثير، ولديه نية إخراجها إلى النور، مع أمل ظهور الخروج الثالث لدون كيخوتى.

Forse altri cantera con miglior plettro.

المغنى الغاضب فى شموخ بأفضل ريشة معزف.(*)

(*) بيت شعر لاتينى. **Forsi altro cantera con miglior plectio** ورد هكذا فى الطبعة الأولى، وهو شعر الأغنية ٣٠ المقطوعة ١٦، لأريستو فى عمله أورلاندو الضارى:
Ariosto: Orlando furioso.

المؤلف فى سطور:

ميجيل دى ثربانتس سابيدرا، وشهرته ثربانتس

ولد فى قرية بجوار مدريد "ألكال دى إنارس" ٢٩ سبتمبر ١٥٤٧، درس فى مدريد. انتقل إلى إيطاليا ليشارك جنديًا فى معركة ليبانتو عام ١٥٧١ الشهيرة التى هزم فيها الأسطول التركى الذى لا يقهر. أظهر شجاعة منقطعة النظير، وجرحت يده اليسرى جرحًا أصابها بالشلل، وظل هذا الجرح مثل وسام يفخر به طوال حياته المليئة بالبؤس وسوء الحظ، ابتداء من الميلاد فى أسرة فقيرة، والصدف التى أوقعته فى ورطة الاتهام بارتكاب جرائم لم يرتكبها، أدخلته السجن مرة، وأرغمته قبلها على مغادرة إسبانيا إلى إيطاليا، وعند عودته من إيطاليا أوقعته فى الأسر فى يد الأتراك بالجزائر ليقضى خمس سنين قاسية هناك. عند عودته إلى مدريد اشتغل بالأدب كاتبًا للقصة والرواية والمسرح والشعر الغنائى دون تفرغ، حيث اضطر للعمل بجمع المكوس للأسطول الإسبانى على هيئة محاصيل زراعية. وعام ١٦٠٥ يفاجئ العالم بنشر القسم الأول من العمل الأدبى العمدة على مستوى الأدب الإسبانى والأوروبى والعالمى، إنه رواية "الشريف العبقرى دون كيخوتى دى لامانشا"، واعدًا بنشر القسم الثانى، الذى لم ينشره إلا تحت ضغط الغضب بسبب قيام كاتب ردىء بنشر القسم الثانى فى مدينة سرقسطة. ينشر القسم الثانى عام ١٦١٥ قبل موته بشهور، حيث رحل عن هذا العالم فى ٢٣ أبريل عام ١٦١٦ فى نفس اليوم والساعة التى رحل فيها شكسبير، والرجلان المؤسسان، ثربانتس المؤسس الأول للرواية الحديثة فى عمله هذا "دون كيخوتى"، وشكسبير المؤسس الثانى بعد الإغريق للتراجيديا.

المترجم فى سطور:

سليمان العطار

أستاذ الأدب الأندلسى فى قسم اللغة العربية وآدابها بكلية آداب القاهرة، لـــه بجانب أعماله العلمية فى تخصصه دراسات حـــول الأدب الإســـبانى وترجمـــات لأعمال من الأدب الإسبانى والأمريكى اللاتينى أشهرها "مائة عـــام مـــن العزلـــة" لغارثيا ماركيز (نوبل ١٩٨٢)، و"خلية النحل" لإميليو ثيلا (نوبل ١٩٨٨).

التصحيح اللغوى: ياسر مكـــــــى

الإشـــراف الفنى: محسن مصطفى